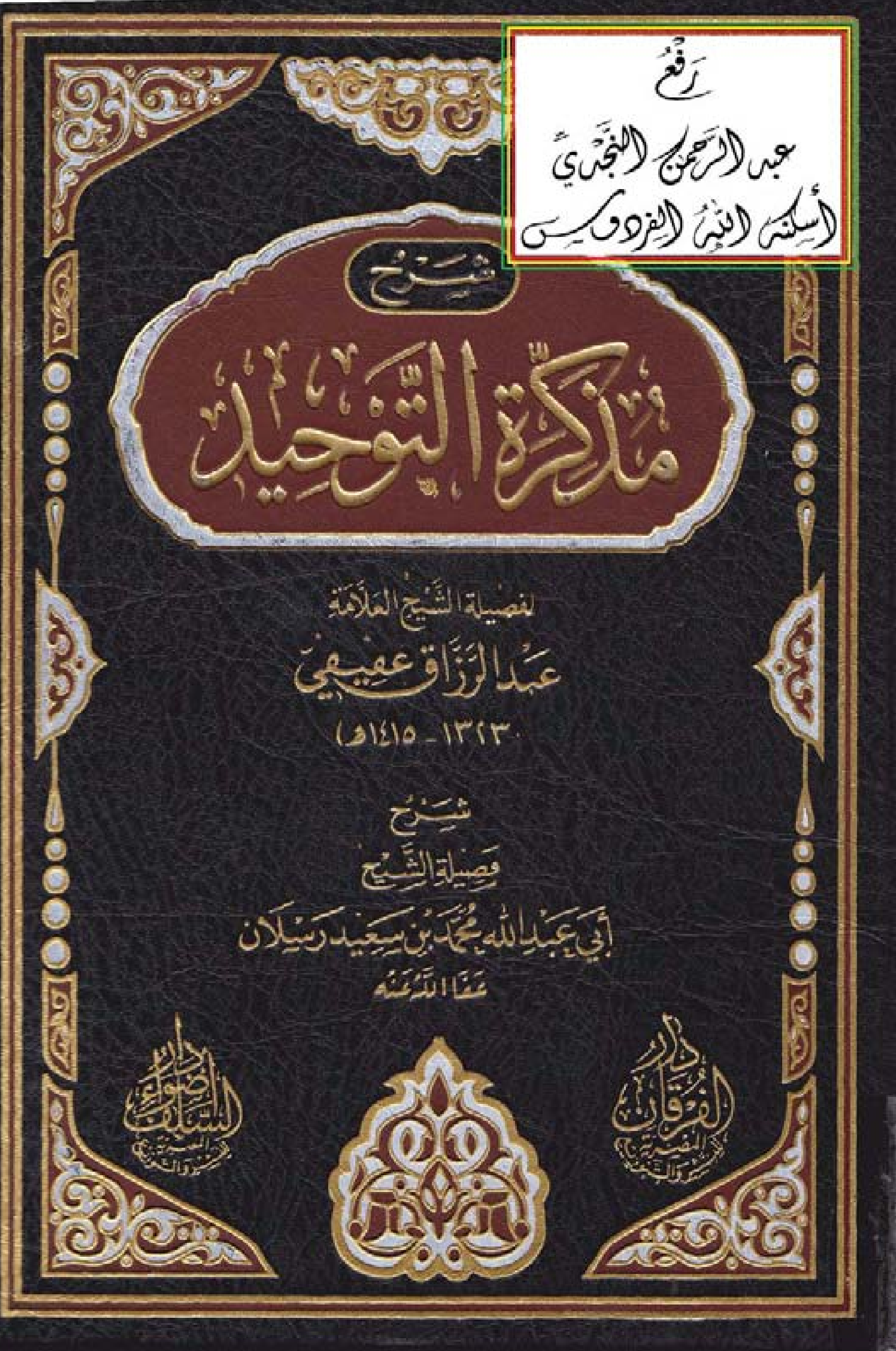
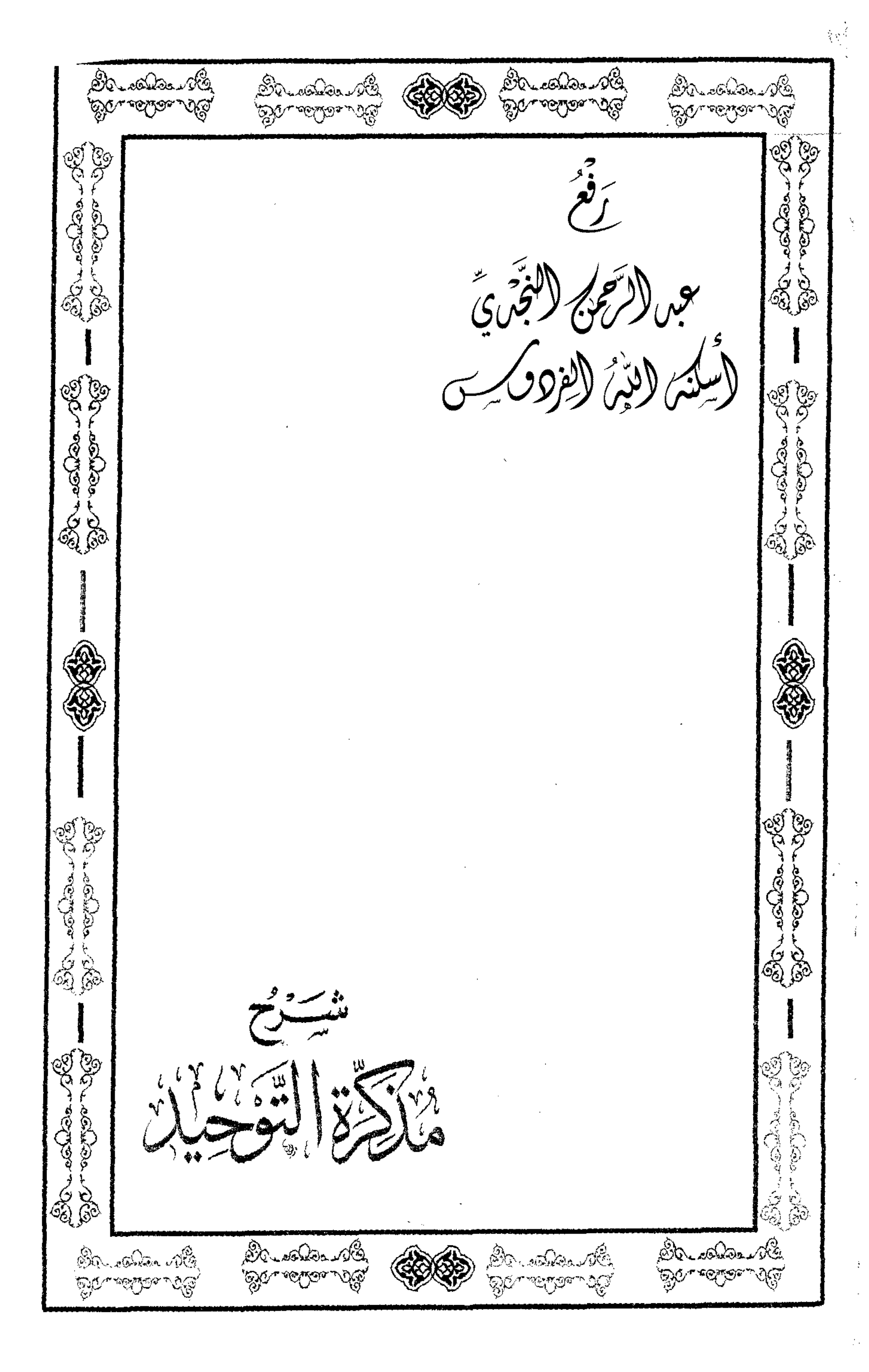
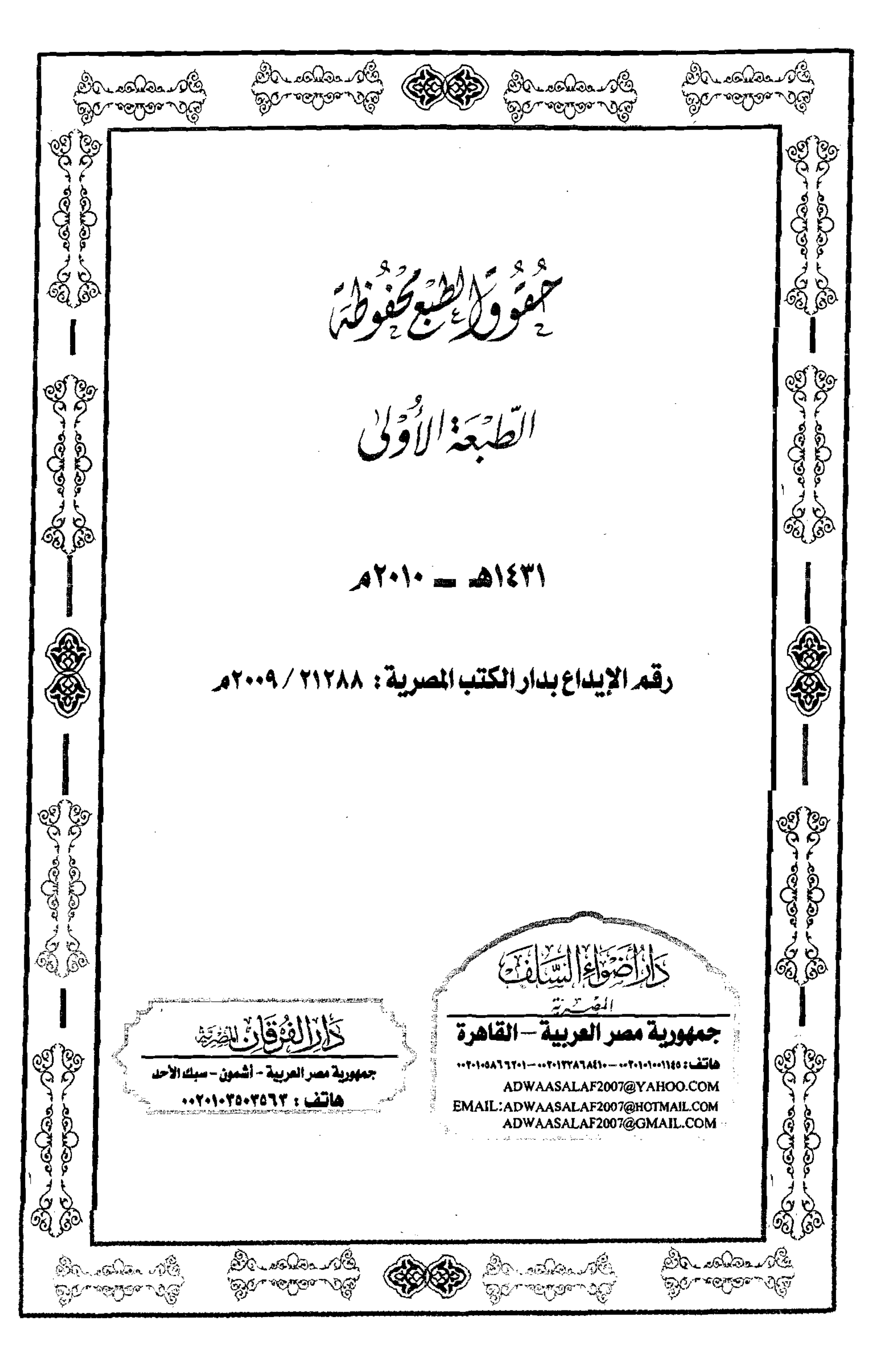

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
شرح
مذكرة التوحيد
لفضيلة الشيخ العلامة
عبد الرزاق عفيفي
(١٣٢٣ - ١٤١٥هـ)
شرح
فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
عفا الله عنه
دار الفرقان
دار السلف الصالح


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
شرح
مذكرة التوحيد



الطبعة الأولى

١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢١٢٨٨ / ٢٠٠٩م

دار أضواء السلف
المصرية

جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

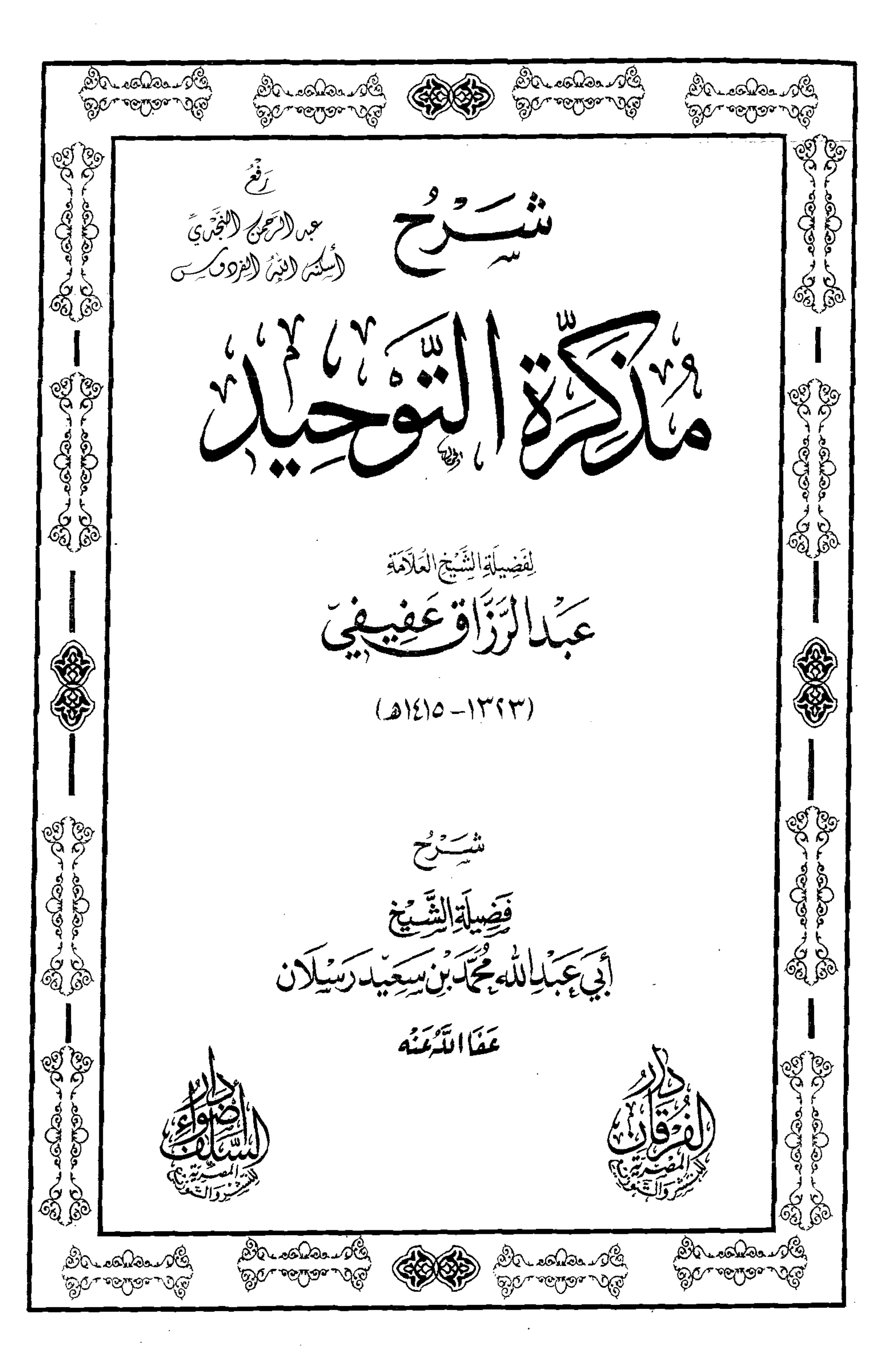
هاتف : ٠٠٢٠١٠١٠٠١١٤٥ ـ ٠٠٢٠١٢٢٨٦٨٤١٠ ـ ٠٠٢٠١٠٥٨٦٦٢٠١

ADWAASALAF2007@YAHOO.COM
EMAIL:ADWAASALAF2007@HOTMAIL.COM
ADWAASALAF2007@GMAIL.COM

دار الفرقان المصرية

جمهورية مصر العربية - أشمون - سبك الأحد

هاتف : ٠٠٢٠١٠٣٥٠٣٥٦٣

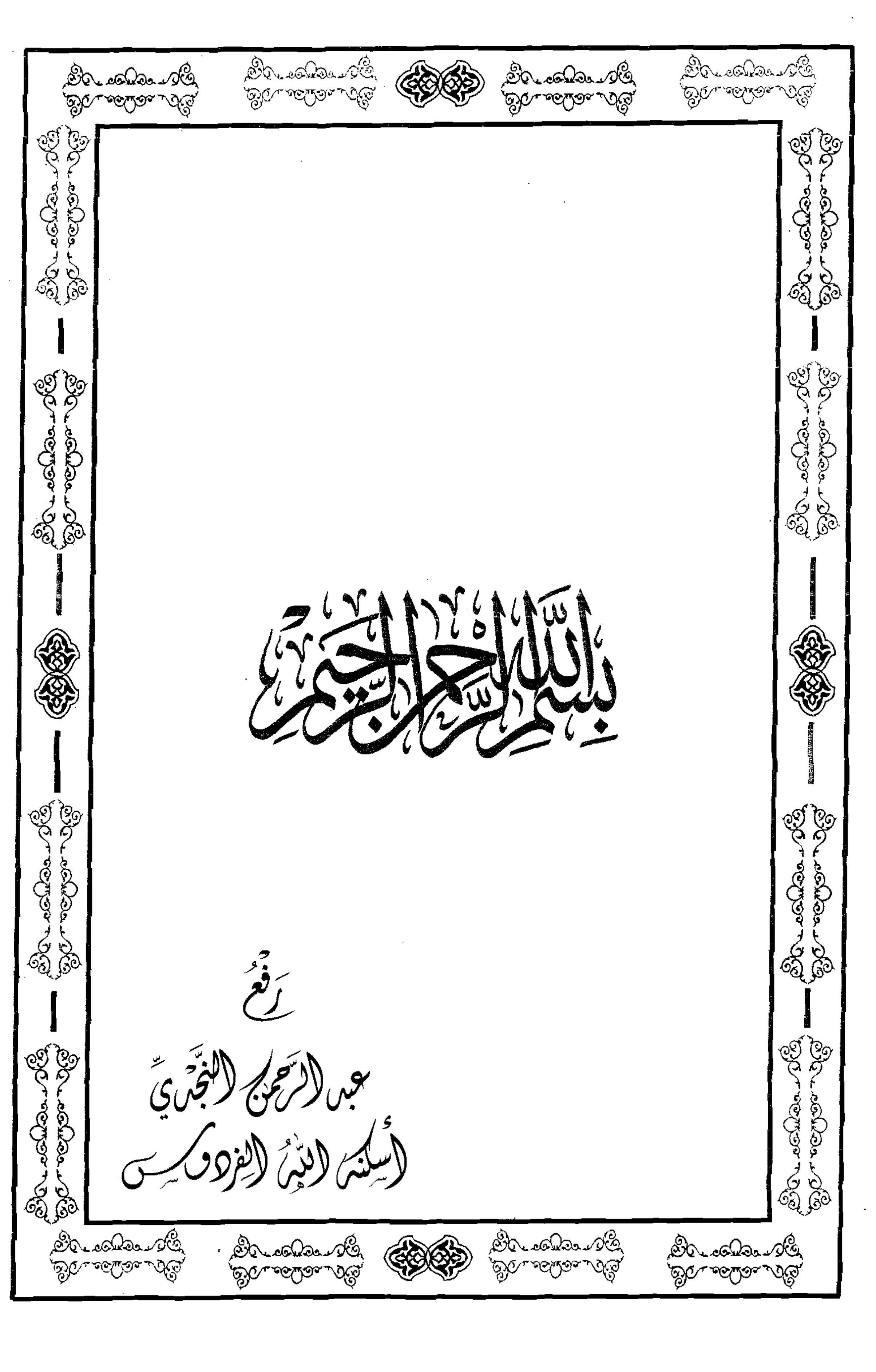

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

شرح مذكرة التوحيد

لفضيلة الشيخ العلامة
عبد الرزاق عفيفي
(١٣٢٣ - ١٤١٥هـ)

شرح
فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
عفا الله عنه

دار أضواء السلف المصرية للنشر والتوزيع
دار الفرقان المصرية للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم
رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنا، مَن يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا الله، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ خَلَقَ اللهُ الخَلقَ لِعِبادتِه، فَقَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؛ أي: إلَّا ليُوحِّدوني، وَالمُوحِّدُ يجْعَلُ اللهَ وَاحِدًا فِي

أفعَالِهِ التعَبُّدِيةِ، إذِ التَّوْحِيدُ إفرَادُ الخَالقِ بالعِبَادَةِ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَأفْعَالًا.

وَسُمِّيَ دِينُ الإسْلَامِ تَوحِيدًا؛ لأنَّ مَبْنَاهُ عَلَىٰ أنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي مُلكِهِ وأفْعَالِهِ لا شَرِيكَ لَهُ، وَواحدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفاتِهِ لا نَظِيرَ لهُ، وَواحِدٌ فِي إلهيتِهِ وعِبَادَتِهِ لا نِدَّ لَهُ.

وَإلَىٰ هَذِهِ الأنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ يَنْقَسِمُ تَوحِيدُ الأنبيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ الَّذِينَ جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ، كُلُّ نُوعٍ مِنهَا لَا يَنفَكُّ عَنِ الآخَرِ، فَمَنْ أتَىٰ بِنَوعٍ مِنْهَا وَلَمْ يَأتِ بِالآخَرِ، فمَا ذَاكَ إلَّا لأنَّهُ لَمْ يَأتِ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِ الكَمَالِ المَطْلُوبِ.

وَالتَّوحِيدُ شَرْعًا: إفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَا يَختَصُّ بِهِ مِنَ الرُّبُوبِيةِ وَالألُوهِيةِ وَالأسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَيَنْقَسِمُ إلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ: تَوحِيدِ الرُّبوبيةِ، وَتَوحِيدِ الألوهِيَّةِ، وَتَوحِيدِ الأسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَدِ اجتَمَعَتْ فِي قَولِهِ تعالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

وَالتَّوحِيدُ هُوَ الفَرْضُ الأعْظَمُ عَلَىٰ جَمِيعِ العَبِيدِ، وَلَيسَ شَيءٌ مِنَ الأشْيَاءِ لَهُ مِنَ الآثَارِ الحَسَنَةِ، وَالفَضَائِلِ المُتَنوعَةِ مِثل التَّوحِيدِ؛ فَإنَّ خَيرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا التَّوحِيدِ وَفَضَائِلِهِ، وَمَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ وَتَكفِيرُهَا مِنْ بَعْضِ فَضَائِلِهِ وَآثَارِهِ.

وَإذَا كَانَ فِي القَلْبِ مِنَ التَّوحِيدِ أدنَىٰ مِثقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مَنَعَ الخُلودَ فِي النَّارِ، وَإذَا كَمُلَ فِي القَلْبِ مَنَعَ دُخُولَ النَّارِ بِالكُلِّيةِ.

وَجَمِيعُ الأعمَالِ والأقوَالِ الظَّاهرةِ والبَاطِنةِ متوَقِّفةٌ فِي قَبُولهَا، وفِي كمَالهَا، وفِي تَرتُّبِ الثوابِ عليهَا عَلَىٰ التوحِيدِ، فكُلَّما قويَ التوحيدُ والإخلاصُ للهِ كَمُلَتْ هَذِهِ الأمُورُ وتَمَّتْ.

ومِنْ أعَظَمِ فَضائِلِ التوحِيدِ أنَّه يُحَرِّرُ العبدَ مِنْ رِقِّ المَخلُوقينَ، والتَّعلُّقِ بهِم، وخَوفِهم، ورَجَائِهِم، والعَمَلِ لأجْلِهم، وَهَذَا هوَ العزُّ الحقيقيُّ، والشَرَفُ العَالِي، ويكُونُ معَ ذَلكَ متألِّهًا متعَبِّدًا للهِ، لا يَرجُو سواهُ، ولا يَخشَىٰ إلَّا إيَّاه، ولا يُنيبُ إلَّا إليهِ، وبِذَلِكَ يَتِمُّ فَلَاحُ العَبدِ، وَيَتَحقَّقُ نَجاحُهُ.

وَتَوحِيدُ العِبَادِ ربَّهُم هُوَ الأمْرُ الذِي خَلَقهُم اللهُ لَهُ؛ وأخَذَ عَلَيهِم المِيثَاقَ بِهِ، وأرْسَلَ بهِ رُسُلَهُ إلَيهِم، وأنْزَلَ بهِ كتبَهُ علَيهِم، ولأجلِهِ خُلِقتِ الدُّنيَا والآخِرَةُ، والجَنَّةُ والنَّارُ، وبِهِ حَقَّتِ الحَاقَّةُ، ووَقَعَتِ الوَاقِعَةُ، وفي شَأنِهِ تُنْصَبُ المَوَازِينُ، وتتَطَايرُ الصُّحفُ، وفِيهِ تكُونُ الشَّقاوَةُ والسَّعَادَةُ، وَعَلَىٰ حَسَبِهِ تُقَسَّمُ الأنوَارُ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وَقَدْ خلَقَ اللهُ الخلَقَ حُنفَاءَ كُلَّهُم، فَاجتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، وحَرَفتْهُم عنِ الصِّراطِ المُستقِيم، وَأشرَكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ باللهِ تَعَالَىٰ، ودَخلَت عَلَيهِم عِبَادَةُ الأصنَامِ مِنْ بَابِ الغُلُوِّ فِي الصَّالِحِينَ، فَصوَّروا صُورَهُم تَمَاثِيلَ يَعبُدونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَنَبَّأَ اللهُ الأنبِيَاءَ وأرسلَ المرْسَلين، وأنزلَ الكتبَ، لهدايةِ الخلقِ إلَىٰ الحقِّ، وَصَرفِ العِبادةِ كلِّهَا؛ ظَاهرِهَا وبَاطِنِها، للهِ تعَالَىٰ وَحْدَهُ.

وَقدْ نَجَمَ ناجمُ الإلحَادِ فِي عُصُورٍ مُتعاقِبةٍ، وظهرَ مَنْ يَجْحَدُ أنَّ للكَونِ مُوجدًا، وأنَّ للخَلْقِ خَالقًا؛ فظَهَرَ الدَّهريُّون قَدِيمًا، ومَنْ يَقولُ بوحْدَةِ الوجُودِ، وظَهرَ فِي العَصرِ الحَدِيثِ الشُّيوعِيونَ والوجودِيُّونَ، وغيرُهُم ممَّنْ يَجْحدُ وجودَ الخالقِ العظِيمِ، ويُنكِرُ الرِّسالةَ والرُّسُلَ، ويدَّعي أنهُ لا إلهَ، والكونُ مادةٌ.

وَقدْ صَارَ الإلحَادُ فِي الشَّرقِ والغَرْبِ ظَاهِرَةً تُرْصَدُ، وهبَّتْ عَلَىٰ الدُّولِ الإسْلَاميةِ مَوجَةٌ عَاتِيةٌ مِنَ الإلحَادِ، تحْمِلُهَا المَطبوعَاتُ الكَثِيرَةُ، وَوَسَائِلُ الإعْلَامِ المُختَلِفةُ، ويُرَوِّجُ لهَا بَعْضٌ مِنْ بَنِي جِلْدَتِنا، تَرَبَّوا عَلَىٰ أعْيُنِ أعْدَائِنَا، وأَخَذُوا يَحطِبُونَ فِي هوَاهُم، ويقتَفونَ آثارَهم، ويَنْفُثُون سُمُومَهُم فِي صُدُورِ وعُقُولِ الشَّبِيبَةِ المُسْلِمَةِ، ويُذِيعُونَ الشُّبُهَاتِ بَينَ طَوَائِفِ الأمَّةِ.

وقَدْ تَصَدَّىٰ لِذَلكَ كلِّه كثيرٌ من علَمَاءِ الأمةِ، وصَنَّفوا فِي العقيدَةِ المصَنَّفاتِ، وَكَتَبوا المُؤلَّفاتِ فِي تَفنِيدِ ودَحْضِ الشُّبهَاتِ.

وَمِمَّن شارَكَ فِي التَّصَدي للإلحَادِ، وَفِي الدَّعْوةِ إلَىٰ التَّوحِيدِ الحَقِّ: العَلَّامةُ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزاق عَفِيفِي، فَكتَبَ الكثِيرَ الطَّيبَ، وَمِنْهُ:

« مُذكِّرةُ التَّوحِيدِ »

وَالعلَّامةُ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاق عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ- مِنْ أوَائِلِ العُلَمَاءِ المُعَاصِرينَ الذَّابِّين عَنْ عَقِيدةِ السَّلفِ وطَرِيقتِهم، مَعَ الدَّلالَةِ عَلَىٰ

ذلِكَ، والدَّعوةِ إليهِ.

وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ قَانُونِ السَّلَفِ فِي العَقيدَةِ والعَمَلِ، وَالمَنْهَجِ والاسْتِدْلَالِ، وَمِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ فِي ذَلِكَ، والدُّعاءِ إلَيهِ.

وَقَدْ كتبَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ-: «مُذَكِّرة التَّوحيدِ» فِي وَقتٍ كَانَتِ الدَّعوَةُ إلىٰ الإلحَادِ فِيهِ مُتبَرِّجَةً، نَافِقَةَ السُّوقِ، نَافِذَةَ الأثرِ، وَكَانَ الشُّيوعِيونَ وأفرَاخُهُم يتَحَكَّمونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ وَسَائِلِ الإعْلَامِ، مَقْرُوءَةً، وَمَسْمُوعَةً، وَمُشَاهَدَةً.

وَكَانَت الدَّعوةُ إلَىٰ نَبْذِ الدِّينِ وَالتَّحَلُّلِ مِنْهُ، ووَصْمِهِ بِأَنَّه سَبَبُ التَّخَلُّفِ، وَأفْيُونُ الشُّعوبِ، تَلقَىٰ بَعضَ الاستِجَابةِ هُنَا وهُنَاكَ.

وَقَدْ خُدِعَ كثيرٌ مِنَ الشَّبَابِ مِنَ الجِيلِ الجَدِيدِ، وَمِنَ المُثَقَّفِينَ مِنْ غَيرِهِ، بِمَقُولَاتِ أَهْلِ الزَّيغِ والإلحَادِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أقْسَامَ الحُكمِ العَقْلِيِّ، وَالمَسَائِلَ الثَّلَاثَ الأُوَلَ، وَهِيَ إثْبَاتُ أنَّ العَالَمَ مُمْكِنٌ، وأنَّ المُمكنَ مُحتَاجٌ إلَىٰ مُوجِدٍ ومُؤثِّرٍ، وإثبَاتُ وُجُوبِ الوجُودِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ذَكَرَ ذَلِكَ للرَّدِّ عَلَىٰ أولئكَ المُلْحِدينَ بِدَلَائِلِ النَّقلِ والعَقْلِ، التِي تُثْبتُ وجُودَ الخَالِقِ العَظِيمِ، وَأنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الصَّنْعَةِ المُتقَنَةِ المُحكَمَةِ فِي الكَونِ: خَالِقًا عَظِيمًا يُدبِّرُ الأمرَ، وَيَمْلِكُ المُلكَ، لَا كَمَا يَفْتَرِي الشُّيوعِيونَ وَأفْرَاخُهُم مِنْ إنْكَارِ وجُودِ الخَالِقِ، وَجَحْدِ أنَّ لِلكَونِ مُوجِدًا.

قَالَ العَلَّامةُ الشَّيخُ عبدُ الرزَّاقِ عَفِيفِي رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أنْ ذَكَرَ زَيغَ بَعْضِ المُلْحِدِينَ السَّابِقِينَ:

«وَقدْ وَرِثَ ذَلِكَ الزَّيغَ والإلحَادَ أنَاسٌ ظَهَروا فِي عُصُورٍ مُتعَاقِبَةٍ بِأسْمَاءٍ مُخْتَلِفةٍ، وَاشْتَهَروا بِألقَابٍ مُتنَوعَةٍ.

فَتَارَةً يُسَمَّون بِالدَّهْرِيينَ، وَأخْرَىٰ بِرِجَالِ الحَقِيقَةِ ووَحْدَةِ الوجُودِ، وَأحْيَانًا بِالشُّيوعِيينَ، وَأخرَىٰ بِالوجُودِيينَ -اللَّقبُ الجَدِيدُ- وَآوِنَةً بِالبَهَائِيين ... إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ العِبَاراتِ التِي اختَلَفَتْ حُرُوفُهَا وَمَبَانِيهَا، وَائتَلَفتْ مقَاصِدُها واتَّحدَتْ مَعَانيهَا؛ فكُلُّها تَرْمِي إلَىٰ غَرَضٍ وَاحِدٍ، وَتَدُورُ حَولَ مِحْوَرٍ وَاحِدٍ، هُوَ أنَّه لَيسَ لِلعَالَمِ رَبٌّ يَخْلُقُ وَيُدَبِّرُ، وَلَيسَ لَهُ إلَهٌ يُعبَدُ ويُقصَدُ.

وَبِمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَلِيلِ حَاجَةِ المُمكِنِ إلَىٰ مُوجِدٍ، وَدَلِيلِ وجُوبِ وُجُودِهِ تَعَالَىٰ، يَظْهَرُ لَكَ فَسَادُ مَذْهَبِهِم، وَخُرُوجُهُ عَنْ مُقتَضَىٰ النَّظَرِ، وَمُوجِبِ العَقْلِ، وَمَا يُصَدِّقُ ذَلِكَ، ويُؤيِّدهُ مِنْ أدِلَّةِ السَّمْعِ». اهـ

فَأرَادَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يُقيمَ الحُجَّةَ عَلَىٰ أقوامٍ يُلحدونَ وَيُشرِكُونَ فِي الرُّبُوبيةِ، فتَعَيَّنَ أنْ يُنَاظِرَهُم فِي ذَلِكَ، وَأنْ يُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَيهِم.

وَهُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُطِيلُ النَّفَسَ فِي بَيَانِ تَوحِيدِ العِبَادَةِ أوْ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ؛ إذْ هُوَ مَوطِنُ النِّزَاعِ بَينَ الرُّسُلِ وَأقْوَامِهِم.

فَالشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُعَالِجُ مَا جدَّ مِنْ مُشْكِلَاتِ عَصْرِهِ، كَمَا رَدَّ العُلَمَاءُ قَبْلُ

عَلَىٰ الرَّافِضَةِ لَمَّا ظَهَروا، وَعَلَىٰ الجَهمِيَّةِ وَالقَدَرِيةِ وَالخَوَارِجِ وَالمُرْجِئَةِ لَمَّا نَجَموا، وَكَمَا رَدَّ شَيخُ الإسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَغَيرُهُ عَلَىٰ الاتِّحَادِيَّةِ، وَالحُلُولِيةِ، وَالفَلَاسِفَةِ، وَالرَّوَافِضِ، وَغَيرِهِم مِنْ أَهْلِ الزَّيغِ وَالضَّلَالِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الحَاجَةُ إِلَىٰ طَرِيقَةِ الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «المُذَكِّرَة» مُلِحَّةً، ولَمَّا كَانَ أسلُوبُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قِمَّةٍ عَالِيَةٍ مِنَ البَيَانِ وَالتَّرْكِيزِ، وَالقَصْدِ فِي الأَدَاءِ وَالتَّعْبِيرِ...

فَقَدْ بَيَّنتُ مَا أَجمَلَ، وبَسَطتُ مَا أوجَزَ، وَحَرَّرتُ بَعضَ المَسَائِلِ، وَأَسْهَبْتُ فِي مَوَاضِعَ عَظُمَ الإلحَاحُ فِي عَصْرِنا هَذَا عَلَيهَا، وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَيهَا، وَشَرَحْتُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ شَرْحًا مُقَارِبًا، وَمَا كَانَ مِنْ كَلَامِ الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَرِيبَ المُتَنَاوَلِ وَدَعْتُهُ بِلَا شَرْحٍ وَلَا تَعْلِيقٍ.

وَمُذَكِّرَةُ التَّوحِيدِ لِلعَلَّامَةِ الشَّيخِ عَبدِ الرَّزَّاق عَفِيفِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَمَلٌ عِلْمِيٌّ رَائِعٌ -مَعَ اخْتِصَارِهَا-، وَدُرَّةٌ نَفِيسَةٌ -مَعَ وَجَازَتِهَا-.

وَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجزِينَا جَمِيعًا خيرَ الجَزَاءِ، وأَنْ يتقبَّلَ منَّا، وأَنْ يُحْسِنَ مثُوبَتَنَا، إِنَّهُ عَلَىٰ كلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْحَمَ المصَنِّفَ رَحمَةً وَاسِعَةً، وأَنْ ينْفعَ بِآثَارِه، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ أَبَوِيهِ إِبرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الأَنبِياءِ وَالمُرْسَلِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

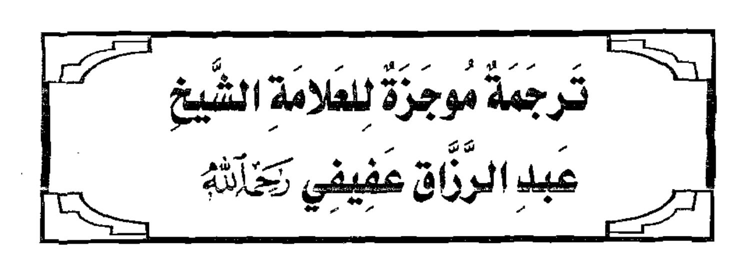
محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

سُبك الأحد

الأحد: ٢٧ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ

١٥ من نوفمبر ٢٠٠٩م



ترجمةٌ موجزةٌ للعلامةِ الشيخِ عبدِ الرزَّاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ

* اسْمُهُ وَنَسَبُهُ:

هُوَ الشَّيخُ العَلَّامَةُ عَبدُ الرَّزَّاق بنُ عَفِيفي بنِ عَطِيَّةَ بنِ عَبدِ البَرِّ بنِ شَرَفِ الدِّينِ النُّوبِيُّ.

* مَولِدُهُ وَنَشْأتُهُ:

وَلِدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مِصْرَ فِي قَرْيَةٍ تُسَمَّىٰ «شَنشُور» فِي مُحَافَظَةِ «المُنُوفِيَّة» فِي الرُّبُعِ الأَوَّلِ مِنَ القَرنِ الرَّابعَ عَشَر الهِجْرِيِّ، وَعَلَىٰ وَجْهِ التَّحْدِيد فِي السَّابعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ سَنَةَ ١٣٢٣هـ المُوَافِق ١٦ ديسمبر سنة ١٩٠٥م.

نَشَأ رَحِمَهُ اللَّهُ نَشْأَةً دِينِيَّةً عِلْمِيَّةً، فَحَفِظَ القُرْآنَ صَغِيرًا، وَأقْبَلَ عَلَىٰ المُتُونِ العِلْمِيَّةِ، فِي العَقِيدَةِ وَالحَدِيثِ وَالفِقْهِ وَاللُّغَةِ وَنَحْوِهَا، فَاستَظْهَرَهَا؛ لِمَا مَنَّ اللهُ عَلَيهِ بِهِ مِنَ الذَّكَاءِ وَقُوَّةِ الحَافِظَةِ.

وَكَانَ مُجتَمَعُ القَرْيَةِ الصَّغِيرُ المُحَافظُ، وَالجَوُّ الأَسَرِيُّ المُتَرَابِطُ، خَيرَ مُعينٍ لَهُ عَلَىٰ هَذِهِ النَّشْأَةِ الدِّينِيَّةِ العِلْمِيَّةِ.

* طَلَبُهُ لِلعِلْمِ وَحَيَاتُهُ العِلْمِيَّة:

تَدَرَّجَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي سِلْكِ التَّعْلِيمِ، فَالتَحقَ أَوَّلًا بِالكَتَاتِيبِ لِتَعَلُّمِ القِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ، وَهِيَ قَرِيبٌ مِمَّا يُعْرَفُ اليَومَ بِالمَرْحَلَةِ الابْتِدَائِيَّةِ، وَبَعْدَهَا التَحقَ بِمَعهَدٍ مِنَ المَعَاهِدِ الأَزْهَرِيَّةِ التِي تُعَادِلُ الثَّانَوِيَّةَ، ثُمَّ التَحقَ بِالجَامِعِ الأَزْهَرِ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ جَامِعَةً وَتَخَرَّجَ فِيهِ وَحَصَلَ عَلَىٰ شَهَادَةِ العَالِمِيَّةِ العَالِيَةِ، ثُمَّ حَازَ شَهَادَةَ التَّخَصُّصِ.

جَمَعَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَينَ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ، وَالأَخْذِ مِنَ الشَّيخِ، مَعَ حِرْصِهِ الخَاصِّ عَلَىٰ القِرَاءَةِ وَالتَّحْصِيلِ حَتَّىٰ بَزَّ الأَقْرَانَ، وَفَاقَ الخِلَّانَ.

* شُيوخُهُ وَأَقْرَانُهُ:

تَتَلْمَذَ الشَّيخُ فِي مُخْتَلَفِ المَرَاحِلِ النِّظَامِيَّةِ -لاسِيمَا العُلْيَا- عَلَىٰ كَوكَبَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ الأَزْهَرِ آنَذَاكَ؛ حَيثُ كَانَ يَضُمُّ نُخْبَةً مُتَمَيِّزَةً مِمَّنْ اشتَهَروا بِالتَّعَمُّقِ العِلْمِيِّ، وَالتَّأصِيلِ المَنْهَجِيِّ.

كَمَا استَفَادَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَعْدَ قُدُومِهِ إِلَىٰ المَمْلَكَةِ مِنْ سَمَاحَةِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيمَ آلِ الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* أَمَّا أَقْرَانُهُ:

فَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ سَمَاحَةُ الشَّيخِ عَبدِ العَزِيزِ بن عَبدِ اللهِ بن بَازٍ، وَالشَّيخُ عَبد اللهِ بن حُمَيدٍ، وَالشَّيخُ مُحَمَّد الأَمِين الشِّنقِيطِي، وَالشَّيخُ مُحَمَّد

حَامِد الفِقِي، وَالشَّيخُ عَبد الظَّاهِرِ أَبُو السَّمْحِ، وَالشَّيخُ عَبد الرَّحْمَنِ الوَكِيل، وَالشَّيخُ عَبد المُهَيمِن أبو السَّمْح، وَالشَّيخُ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس، وَغَيرُهُم.

* حَيَاتُهُ العِلْمِيَّة:

مَزَجَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيَاتَهُ العِلْمِيَّةَ بِالعَمَلِيَّةِ مُنْذُ كَانَ طَالِبًا، خَاصَّةً فِي المَرَاحِلِ العُلْيَا، فَكَانَ يَقُومُ بِأَعْمَالٍ مُبَارَكَةٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَالتَّدْرِيسِ، وَالمُشَارَكَةِ فِي أَعْمَالِ الخَيرِ، وَعَمِلَ بَعْدَ تَخَرُّجِهِ مُدَرِّسًا فِي المَعَاهِدِ الأَزْهَرِيَّةِ، فِي بَعْضِ القُرَىٰ وَمَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ.

انْضَمَّ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ جَمَاعَةِ أَنْصَارِ السُّنَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ؛ لِمَا عُرِفَ عَنْهَا حِينَئِذٍ مِنْ حِرصٍ عَلَىٰ نَشْرِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

يَسَّرَ اللهُ لَهُ القُدُومَ إِلَىٰ المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، وَعَمِلَ مُدَرِّسًا فِي دَارِ التَّوحِيدِ بِالطَّائِفِ ثُمَّ فِي عُنَيزَةَ، ثُمَّ فِي مَعْهَدِ الرِّيَاضِ العِلْمِيِّ، ثُمَّ فِي كُلِّيَةِ الشَّرِيعَةِ بِالرِّيَاضِ، وَأُسْنِدَ إِلَيهِ وَضْعُ عَدَدٍ مِنَ المَنَاهِجِ فِي المَعَاهِدِ العِلْمِيَّةِ وَكُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ.

وَلَمَّا افْتُتِحَ المَعْهَدُ العَالِي لِلقَضَاءِ، عُيِّنَ أَوَّلَ مُدِيرٍ لَهُ، وَقَامَ بِوَضْعِ مَنَاهِجِهِ، ثُمَّ انتَقَلَ إِلَىٰ رِئَاسَةِ البُحُوثِ العِلْمِيَّةِ وَالإِفتَاءِ، وعُيِّن نَائِبًا لِرَئِيسِ اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلبُحُوثِ العِلْمِيَّةِ وَالإِفتَاءِ، وَعُضوًا فِي هَيئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَأَشْرَفَ عَلَىٰ عَشَرَاتِ

الرَّسَائِلِ فِي المَاجِسْتِيرِ وَالدُّكتُورَاه، وَشَارَكَ فِي أعمَالِ التَّوعِيَةِ الإسْلَامِيَّةِ فِي الحَجِّ، مُفْتِيًا وَمُدَرِّسًا فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَالمَشَاعِرِ، فِي المَوْسِمِ.

كَمَا قَامَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالإمَامَةِ وَالخَطَابَةِ وَالتَّدرِيسِ، فِي مَسْجِدِهِ بِالرِّيَاضِ.

وَهكَذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَلِيئَةً بِالتَّدْرِيسِ وَالإرْشَادِ وَالدَّعْوَةِ وَالإمَامَةِ شَأن العُلَمَاءِ العَامِلِينَ المُخْلِصِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

*** صِفَاتُهُ وَأَخْلَاقُهُ:**

جُبِلَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ صِفَاتٍ كَرِيمَةٍ وَمَزَايَا عَظِيمَةٍ، فَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِثَالًا فِي الشَّمَائِلِ الحَمِيدَةِ وَالأَخْلَاقِ الحَسَنَةِ، مُتَّسِمًا بِالوَرَعِ وَالتَّوَاضُعِ وَالزُّهْدِ، وَالبُعْدِ عَنِ الأَضْوَاءِ مَعَ مَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ تَعَمُّقٍ فِي العِلْمِ وَقُوَّةٍ فِي الحُجَّةِ، كَمَا كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَفَّ اللِّسَانِ، حَكِيمًا فِي الرَّأْيِ، بَعِيدَ النَّظَرِ، قَوِيًّا فِي الحَقِّ، يُنَزِّلُ النَّاسَ مَنَازِلَهُم، وَيَتَعَامَلُ بِالحُسْنَىٰ، مَهِيبًا، ذَا وَقَارٍ وَخَشْيَةٍ.

أَمَّا صِفَاتُهُ الخَلْقِيَّة فَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ رَبْعَةً مِنَ الرِّجَالِ إِلَىٰ الطُّولِ أَقْرَب، أَبْيَض البَشَرَةِ، تُزَيِّنُهُ لِحْيَةٌ طَوِيلَةٌ تُشْعِرُ بِالبَهَاءِ وَالجَلَالِ وَالحِرْصِ عَلَىٰ السُّنَّةِ فِي مَظْهَرِهِ وَمَخْبَرِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

لَهُ مَوَاقِفُ عَظِيمَةٌ وَلَطِيفَةٌ، كَمَا أَنَّ لَهُ إِسْهَامَاتٍ فِي البَذْلِ وَالجُودِ فِي أَعْمَالِ الخَيرِ وَالإنْفَاقِ عَلَىٰ طَلَبَةِ العِلْمِ، كَمَا عُرِفَ بِالصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَالاحْتِسَابِ فَكَسَبَ حُبَّ النَّاسِ وَثَنَاءَهُم وَتَقْدِيرَهُم رَحِمَهُ اللَّهُ.

* تَلَامِيذُهُ:

يُعَدُّ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أستاذَ جِيلٍ يُعتَبَرُ اليومَ النَّوَاةَ المُبارَكَةَ فِي نَهْضَةِ المَمْلَكَةِ عِلْمِيًّا، فَلَا نُبَالِغُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ الطَّبَقَةَ التِي هِيَ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ المملكَةِ اليومَ، مِنْ تَلَامِيذِ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَقَدِ استَفَادَ مِنَ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ كُلُّ مَنْ دَرَسَ فِي المَعْهَدِ وَالكُلِّيَّةِ وَالمَعْهَدِ العَالِي لِلقَضَاءِ، وَهُمْ جَمْعٌ غَفِيرٌ أَشْهَرُهُم:

١- سَمَاحَةُ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ صَالِحٍ العُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- سَمَاحَةُ الشَّيخِ عَبدِ العَزِيزِ بنِ عَبدِ اللهِ آلِ الشَّيخِ -حَفِظَهُ اللهُ-.

٣- سَمَاحَةُ الشَّيخِ صَالِحِ بنِ مُحَمَّدٍ اللُّحيدَان -حَفِظَهُ اللهُ-.

٤- سَمَاحَةُ الشَّيخِ صَالِحِ بنِ فَوزَان الفَوزَانِ -حَفِظَهُ اللهُ-.

٥- سَمَاحَةُ الشَّيخِ صَالِحِ بنِ عَبدِ الرَّحْمَنِ الأَطْرَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- سَمَاحَةُ الشَّيخِ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُحْسِنِ التُّرْكِيِّ -حَفِظَهُ اللهُ-.

٧- سَمَاحَةُ الشَّيخِ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ الرَّحْمَنِ البَسَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٨- سَمَاحَةُ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِ السبيل -حَفِظَهُ اللهُ-.

وَغَيرُهُم كَثِيرٌ -بَارَكَ اللهُ فِيهِم- وَنَفَعَ بِهِمُ الإِسْلَامَ وَالمُسْلِمِينَ.

* ثَنَاءُ أَهْلِ العِلْمِ عَلَيهِ:

١- سَمَاحَةُ الشَّيخِ العَلَّامَةِ ابنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صَاحِبُ الفَضِيلَةِ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي رَحِمَهُ اللَّهُ، أَعرِفُ عَنْهُ التَّوَاضِعَ وَالعِلْمَ الجَمَّ وَالسِّيرَة الحَمِيدَةَ، وَالعَقِيدَةَ الطَّيبَةَ، وَالحِرْصَ العَظِيمَ فِي أَدَاءِ عَمَلِهِ عَلَىٰ خَيرِ وَجْهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَكَانَ مِثَالًا فِي الجِدِّ، وَفِي أَدَاءِ عَمَلِهِ عَلَىٰ الوَجْهِ المَطْلُوبِ، وَمِثَالًا جَيِّدًا أَيْضًا فِي حُسْنِ السِّيرَةِ، وَالمُخَاطَبَةِ لِلجُمْهُورِ، مَعَ سَعَةِ الصَّدْرِ لإِجَابَاتِ السَّائِلِينَ.

فَنَسْأَلُ اللهَ لَهُ المَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَرَفْعَ الدَّرَجَة، وَأَنْ يُصْلِحَ عَقِبَهُ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم». اهـ

٢- سَمَاحَةُ الشَّيخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بنِ صَالِحٍ العُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ ذَا عَقْلٍ رَاجِحٍ، وبُعْدِ نَظَرٍ، وَكَثْرَةِ صَمْتٍ إِلَّا إِذَا كَانَ الكَلَامُ خَيرًا، مَعَ مَا حَبَاهُ اللهُ بِهِ مِنَ العِلْمِ الرَّاسِخِ، وَحُسْنِ التَّعلِيمِ، وَقِلَّةِ الحَشْوِ فِي كَلَامِهِ.

قَدِمَ عُنيزَةَ سَنَةَ ١٣٧٠ لِلتَّدْرِيسِ فِي المَدْرَسَةِ الثَانَوِيَّةِ وَاجْتَمَعَ بِشَيخِنَا عَبدِ الرَّحْمَنِ بنِ نَاصِرٍ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فَأُعْجِبَ بِهِ.

جَلَسَ لِتَدْرِيسِ العَرَبِيَّةِ وَالبَلَاغَةِ، فَكُنْتُ مِنْ تَلَامِيذِهِ، وَانْتَفَعْتُ بِهِ كَثِيرًا

فِي عِلْمِ الصَّرْفِ وَالبَلَاغَةِ.

وَشَارَكْتُهُ فِي مَجْلِسِ هَيئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ فِي المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ؛ فَكَانَ رَأْيُهُ مَحَلَّ التَّوفِيقِ وَالسَّدَادِ.

أَسْأَلُ اللهَ تعَالَىٰ لَهُ المَثُوبَةَ وَالرِّضوَانَ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ وَإِخوَانَنَا المُؤمِنِينَ فِي أَعَالِي الجِنَانِ؛ إِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الوَهَّابُ المَنَّانُ»[1].

كَتَبَهُ

مُحَمَّدُ بنُ صَالِحٍ العُثَيمِينَ

٢٣من ربيع الثاني عام ١٤١٧هـ

٣- سَمَاحَةُ الشَّيخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّد نَاصِرِ الدِّينِ الأَلْبَانِي رَحِمَهُ اللهُ.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «الشَّيخُ عَبدُ الرَّزاق عَفِيفِي رَحِمَهُ اللهُ مِنْ أَفَاضِلِ العُلَمَاءِ، وَمِنَ القَلَائِلِ الَّذِينَ نَرَىٰ مِنْهُم سِمَةَ أَهْلِ العِلْمِ وَأَدَبَهُم وَلُطْفَهُم وَأَنَاتَهُم وَفِقْهَهُم.

التَقَيتُهُ غَيرَ مَرَّةٍ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ، وَكُنْتُ أَسْتَمِعُ إِلَىٰ إِجَابَاتِهِ العِلْمِيَّةِ عَلَىٰ اسْتِفْتَاءَاتِ الحُجَّاجِ، فَكَانَتْ إِجَابَاتٍ مُحْكَمَةً تَدُلُّ عَلَىٰ فِقْهٍ وَاتِّبَاعٍ ظَاهِرٍ لِمَنْهَجِ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ».

٤- سَمَاحَةُ الشَّيخِ صَالِح الفَوزَان -حَفِظَهُ اللهُ-.

قَالَ -حَفِظَهُ اللهُ-: «هُوَ شَيخُنَا الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاق عَفِيفِي، العَالِمُ الأَزْهَرِيُّ

---

(١) نقلًا عن مجلة الأصالة - العددان الثالث عشر والرابع عشر بتاريخ (١٥/ ٧/ ١٤١٥هـ).

الجَلِيلُ، كَانَ سَلَفِيَّ العَقِيدَةِ، مُتَمَكِّنًا فِي العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ، قَدِمَ إِلَىٰ المَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ مُدَرِّسًا فِي المَعَارِفِ، ثُمَّ فِي المَعَاهِدِ العِلْمِيَّةِ وَكُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ بِالرِّيَاضِ، ثُمَّ مُدِيرًا لِلمَعْهَدِ العَالِي لِلقَضَاءِ، ثُمَّ عَمِلَ فِي دَارِ الإِفْتَاءِ نَائِبًا لِرَئِيسِ اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلإِفْتَاءِ وَعُضْوًا فِي هَيئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَاستَمَرَّ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ تَوَفَّاهُ اللهُ.

وَكَانَ إِلَىٰ جَانِبِ هَذِهِ الأَعْمَالِ الجَلِيلَةِ يُشَارِكُ فِي الإِشْرَافِ وَمُنَاقَشَةِ الرَّسَائِلِ الجَامِعِيَّةِ، وَكَانَ مَرْجِعًا لِطُلَّابِ العِلْمِ وَالمُسْتَفْتِينَ مِنْ مُخْتَلَفِ الطَّبَقَاتِ، وَيَقُومُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ بِإِلْقَاءِ المُحَاضَرَاتِ وَالمُشَارَكَةِ فِي النَّدَوَاتِ العِلْمِيَّةِ وَالوَعْظِ وَالخَطَابَةِ.

فَقَدْ كَانَ إِمَامًا وَخَطِيبًا فِي أَحَدِ الجَوَامِعِ الكِبَارِ فِي مَدِينَةِ الرِّيَاضِ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ.

وَكَانَ مُتَخَصِّصًا فِي كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ، خُصُوصًا عِلْم التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالتَّوحِيدِ، تَخَرَّجَ عَلَيهِ أَجْيَالٌ مِنَ الطُّلَّابِ استَفَادُوا مِنْ عِلْمِهِ وَاقتَبَسُوا مِنْ سِيرَتِهِ.

عَرَفْتُ الشَّيخَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعْرِفَةً خَاصَّةً؛ حَيثُ دَرَسْتُ عَلَيهِ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ بِبُرَيدَةَ، وَفِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ فِي الرِّيَاضِ، وَفِي المَعْهَدِ العَالِي لِلقَضَاءِ، وَأَخَذْتُ عَنْهُ فِي هَذِهِ المَرَاحِلِ: التَّفْسِيرَ وَالحَدِيثَ وَالعَقِيدَةَ، كَمَا تَشَرَّفْتُ بِإِشْرَافِهِ عَلَىٰ رِسَالَتَيَّ فِي المَاجِستِيرِ وَالدُّكْتُورَاه، فَكَانَ لِي نِعْمَ المُوَجِّه وَالنَّاصِح وَالمُعَلِّم

المُخْلِص الخَبير.

استَفَدْتُ مِنْهُ كَمَا استَفَادَ الكَثِيرُونَ غَيرِي؛ مِنْ عِلْمِهِ الغَزِيرِ وَطَرِيقَتِهِ الفَذَّةِ فِي التَّدْرِيسِ وَإِلْقَاءِ الدُّرُوسِ وَالمُحَاضَرَاتِ.

كَانَ ذَكِيًّا بَعِيدَ النَّظَرِ ذَا أَنَاةٍ وَرَوِيَّةٍ فِي الأمُورِ، وَلِذَلِكَ فَقَدِ اتَّخَذَهُ سَمَاحَةُ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ إبْرَاهِيمَ مُفْتِي الدِّيَارِ السُّعُودِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ مُسْتَشَارًا يُعتَمَدُ عَلَيهِ حِينَ تَأسِيسِ الكُلِّيَّاتِ، وَفِي اختِيَارِ القُضَاةِ وَالمُدَرِّسِينَ وَالدُّعَاةِ، وَكَانَ لآرَائِهِ السَّدِيدَةِ أَثَرٌ بَالِغٌ، وَقَبُولٌ طَيِّبٌ، لَدَىٰ سَمَاحَةِ الشَّيخِ وَغَيرِهِ مِنَ المَشَايِخِ.

كَانَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ ذَا سَمْتٍ وَوَقَارٍ وَعِفَّةٍ وَقَنَاعَةٍ وَاستِقَامَةٍ وَوَرَعٍ، مَعَ تَبَحُّرٍ فِي العِلْمِ، وَإِجَادَةٍ فِي أَدَاءِ العَمَلِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ فِي مَصَافِّ الرِّجَالِ العُظَمَاءِ وَكِبَارِ العُلَمَاءِ.

رَحِمَ اللهُ شَيخَنَا الشَّيخَ عَبْدَ الرَّزَّاق عَفِيفِي، وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَجَزَاهُ عَنِ الإسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ خَيرَ الجَزَاءِ».

تِلْمِيذُهُ

صَالِحُ بنُ فَوزَان الفَوزَان

٥- سَمَاحَةُ الشَّيخ عَبدِ المُحْسِنِ بن حَمَدٍ العَبَّادِ البَدْرِ -حَفِظَهُ اللهُ-.

قَالَ -حَفِظَهُ اللهُ-: «الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وَبَعْدُ:

فَقَدْ وَفَّقَنِي اللهُ -وَلَهُ الفَضْلُ وَالمِنَّةُ-، أنْ تَتَلْمَذْتُ فِي مَعْهَدِ الرِّيَاضِ العِلْمِيِّ، ثُمَّ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ فِي الرِّيَاضِ، وَذَلِكَ فِي الفَتْرَةِ مِنْ عَامِ ١٣٧٢هـ إِلَىٰ عَامِ ١٣٧٩هـ عَلَىٰ عُلَمَاء أجِلَّة وَمَشَايِخ فُضَلَاء، استَفَدْتُ مِنْ عِلْمِهِم وَتَوجِيهِهِم، فَجَزَاهُمُ اللهُ عَنِّي وَعَنْ غَيرِي مِنَ الطَّلَبَةِ خَيرَ الجَزَاءِ، وَأَجْزَلَ لَهُمُ المَثُوبَةَ عَلَىٰ نَشْرِهِمُ العِلْمَ، وَبَذْلِهِمُ النُّصْحَ، وَاللهُ لَا يُضِيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

وَإِنَّ مِنْ هَؤلَاءِ العُلَمَاءِ وَالمَشَايِخِ الكِرَامِ، فَضِيلَةَ الشَّيخِ: عَبد الرَّزَّاق عَفِيفِي -رَحِمَهُ الله وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ- فَقَدْ دَرَسْتُ عَلَيهِ فِي النَّحْوِ وَالحَدِيثِ وَالتَّوحِيدِ وَالأُصُولِ، وَكَانَ عَالِمًا وَاسِعَ الاطِّلَاعِ، فَصِيحَ العِبَارَةِ، قَوِيَّ الشَّكِيمَةِ، عَزِيزَ النَّفْسِ، ذَا هَيبَةٍ ووَقَارٍ، مَوضِعَ التَّقْدِيرِ وَالاحْتِرَامِ مِنْ طُلَّابِهِ، وَمَا رَأيتُ فِي المِصْرِيينَ مِثْلَهُ.

وَمِنْ جَمِيلِ عَمَلِهِ لإفْهَامِ الطَّلَبَةِ الكِتَابَ المُقَرَّرَ دِرَاسَتُهُ، أَنَّهُ يَضَعُ أَسْئِلَةً شَامِلَةً مُستَوعِبَةً لِمَا جَاءَ فِي الكِتَابِ، فَيُلْزِمُ الطَّالِبُ نَفْسَهُ مَعْرِفَةَ الإجَابَةِ عَلَيهَا.

فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ حَصْرَ الطَّالِبِ لِفقرَاتِ مَبَاحِثِ الكِتَابِ، وَإِحَاطَتَهُ بِكُلِّ مَا اشتَمَلَ عَلَيهِ، وَقَدِ اتَّبَعْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي تَدْرِيسِ بَعضِ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ، فَاستَفَدْتُ وَأَفَدْتُ، وَالحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا»[1].

---

(١) كلمة حق، العلامة عبد الرزاق، لمحمد سيد أحمد (٢/ ٥٩٢).

٦- ثَنَاءُ سَمَاحَةِ الشَّيخِ عَبدِ العَزِيزِ بنِ عَبدِ اللهِ آلِ الشَّيخِ -حَفِظَهُ اللهُ-.

قَالَ -حَفِظَهُ اللهُ-: «الشَّيخُ أَحَدُ الأَعْلَامِ الفُضَلَاءِ الَّذِينَ هَيَّأَ اللهُ لَهُمْ فُرْصَةَ تَرْبِيَةِ الأَجْيَالِ، وَهُوَ أَحَدُ العُلَمَاءِ الَّذِينَ عُرِفُوا بِالجِدِّ وَالاجْتِهَادِ وَالإِخْلَاصِ فِي أَدَاءِ الوَاجِبِ، وَهُوَ ذُو عِلْمٍ وَاسِعٍ، وَلَهُ اطِّلَاعٌ فِي الحَدِيثِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالفِقْهِ وَأُصُولِهِ، وَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَقَدْ تَخَرَّجَ عَلَىٰ يَدَيهِ أَفْوَاجٌ كَثِيرَةٌ، وَيَذْكُرُ لَهُ طُلَّابُهُ إِخْلَاصَهُ وَمُحَافَظَتَهُ عَلَىٰ أَدَاءِ الوَاجِبِ وَجِدَّهِ وَاجتِهَاده.

وَلَقَدْ كَانَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاق عَفِيفِي يُلقِي دُرُوسًا بَعْدَ العِشَاءِ فِي مَسْجِدِ الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ إِبرَاهِيمَ فِي التَّفْسِيرِ، وَكَانَتْ دُرُوسُهُ نَافِعَةً وَتَوجِيهَاتُهُ قَيِّمَةً، وَعُرِفَ بِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَحُسنِ تَرْبِيتِهِ وَتَوجِيهِهِ وَإِخْلَاصِهِ، وَهُوَ رَحِمَهُ اللهُ مِثَالٌ لِلعَالِمِ العَامِلِ»(١).

ثُمَّ قَالَ: «فَالشَّيخُ -غَفَرَ اللهُ لَهُ- عُرِفَ بِتَوجِيهِهِ وَتَأْثِيرِهِ، وَبِخَاصَّة فِي التَّعلِيمِ، فَمَا زَالَ طُلَّابُهُ الَّذِينَ تَلَقَّوا العِلْمَ عَلَىٰ يَدَيهِ يَعْرِفُونَ لَهُ جِدَّهُ، وَاجْتِهَادَهُ، وَقُدْرَتَهُ عَلَىٰ إِيصَالِ المَعْلُومَةِ لأَذْهَانِ الطُّلَّابِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ تَمَكُّنِهِ وَحِرْصِهِ، غَفَرَ اللهُ لَنَا وَلَهُ وَلِجَمِيعِ مَوْتَىٰ المُسْلِمِينَ».

* وَفَاتُهُ:

قَدَّرَ اللهُ عَلَىٰ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ الإِصَابَةَ بِأَمْرَاضٍ كَثِيرَةٍ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَأُدْخِلَ

(١) جريدة عكاظ العدد (٢٥٣)، السبت ٢٧ ربيع الأول ١٤١٥هـ الموافق ٣ سبتمبر ١٩٩٤م.

المُسْتَشْفَىٰ العَسْكَرِي بِالرِّيَاض السَّاعَة الوَاحِدَة بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ يَوم الثُّلَاثَاءِ (١٦/ ٣/ ١٤١٥) فِي قِسْمِ العِنَايَةِ المُرَكَّزَة، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ ذَلِكَ القِسْمِ فِي يَومِ الأَحَدِ (٢١/ ٣/ ١٤١٥هـ) وَهُوَ يُعَانِي مِنْ أَلَمٍ شَدِيدٍ فِي الكَبِدِ، وَضَعْفٍ فِي الكُلَىٰ، وَوجُودِ سَوَائِلَ فِي الرِّئَتَينِ، وَهُبوطٍ فِي ضَرَبَاتِ القَلْبِ.

وَظَلَّ بِالمُسْتَشْفَىٰ حَتَّىٰ وَافَاهُ الأَجَلُ المَحْتُومُ فِي يَومِ الخَمِيسِ (٢٥/ ٣/ ١٤١٥هـ) فِي حَوَالَي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ صَبَاحًا (١/ ٩/ ١٩٩٤م).

فَاضَتْ رُوحُ الشَّيخِ عَبدِ الرَّزَّاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ بَارِئِهَا عَنْ عُمُرٍ يُنَاهِزُ التِّسْعِينَ عَامًا قَضَاهَا مُجَاهِدًا بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ مُعَلِّمًا مُدَرِّسًا مُفْتِيًا مُرْشِدًا، وَقَدْ أَمَّ المُصَلِّينَ عَلَيهِ سَمَاحَةُ مُفْتِي عَامِّ المَمْلَكَةِ الشَّيخُ عَبدُ العَزِيزِ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ آلِ الشَّيخ بِحُضُورِ جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنْ طُلَّابِهِ وَمُحِبِّيهِ.

يَقُولُ الشَّيخُ عَبدُ العَزِيزِ آلِ الشَّيخِ وَالشَّيخُ مُحمَّد السَّعِيد: «إِنَّهُ كَانَ يَومًا عَظِيمًا مَشْهُودًا امْتَلَأَ الجَامِعُ الكَبِيرُ إِلَىٰ آخِرِهِ، وَهِيَ مِنَ المَرَّاتِ القَلَائِلِ الَّتِي يَمْتَلِئُ فِيهَا الجَامِعُ، وَقَدِ ازْدَحَمَتِ المَوَاقِفُ وَالشَّوَارِعُ المُؤَدِّيَةُ إِلَىٰ المَقْبَرَةِ بِالسَّيَّارَاتِ، خُصُوصًا بَعْدَمَا انْطَلَقَ النَّاسُ بِسَيَّارَاتِهِم، وَمَشْيًا عَلَىٰ الأَقْدَامِ مُشَيِّعِينَ لَهُ.

وَقَدْ حَضَرَ دَفْنَهُ بِمَقْبَرَةِ العود بِالرِّيَاضِ عَدَدٌ هَائِلٌ مِنَ البَشَرِ أَكْثَرُهُم مِنَ المَشَايِخِ وَالعُلَمَاءِ، وَطَلَبَةِ العِلْمِ وتَلَامِيذِ الفَقِيدِ، يَغْمُرُهُمُ الحُزْنُ عَلَىٰ فِرَاقِهِ

دَاعِينَ لَهُ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ»[١].

* آثَارُهُ العِلْمِيَّةُ وَمُؤَلَّفَاتُهُ:

كَانَ لِلشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ نَظْرَةٌ فِي التَّأْلِيفِ سَبَبُهَا تَوَاضُعُهُ وَتَوَرُّعُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَعَلَىٰ غَزَارَةِ عِلْمِهِ وَسَعَةِ إِدْرَاكِهِ وَتَبَحُّرِهِ فِي عُلُومٍ شَتَّىٰ، لَمْ يُعْرَفْ لَهُ إِلَّا آثَارٌ قَلِيلَةٌ، مِنْهَا:

- «مُذَكِّرَةٌ فِي التَّوحِيدِ».
- و«حَاشِيَةٌ عَلَىٰ تَفْسِيرِ الجَلَالَينِ».
- و«تَعْلِيقٌ عَلَىٰ كِتَابِ الإِحْكَامِ فِي أَصْولِ الأَحْكَامِ» لِلآمِدِيِّ.

كَمَا أَنَّ لَهُ تَعلِيقَاتٍ يَسِيرَةً مَحْفُوظَةً عَلَىٰ عَدَدٍ مِنْ كُتُبِ العَقِيدَةِ، كَمَا أَنَّ لَهُ مَقَالَاتٍ وَكِتَابَاتٍ فِي مجَلَّةِ التَّوحِيدِ، وَالهَدْيِ النَّبَوِي.

وَلَهُ مَجْمُوعَة مِنَ المُحَاضَرَاتِ وَالدُّرُوسِ وَالمُنَاقَشَاتِ العِلْمِيَّةِ، وَفَتَاوَىٰ مُتَنَوِّعَة جَدِيرَة بِالعِنَايَةِ وَالاهْتِمَامِ.

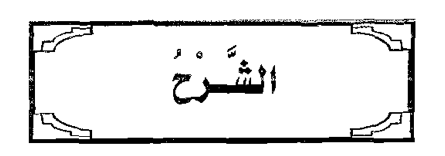
نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْحَمَ الشَّيخَ العَلَّامَةَ عَبْد الرَّزَّاق عَفِيفِي، وَعُلَمَاءَ أَهْلِ السُّنةِ أَجْمَعِينَ، وَأَنْ يُسْكِنَهُ الفِرْدَوسَ الأَعْلَىٰ مِنَ الجَنَّةِ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

* * *

---

(١) جريدة المسلمون بتاريخ ٤/ ٤/ ١٤١٥هـ.

قَالَ الشَّيْخُ العَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي رَحِمَهُ اللَّهُ:



الشَّرْحُ

افتَتَحَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَهُ بِالبَسْمَلَةِ، اقْتِدَاءً بِالكِتَابِ العَزِيزِ؛ فَإِنَّهُ مَبْدُوءٌ بِالبَسْمَلَةِ، يُبْتَدَأُ بِهَا فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِ القُرْآنِ مَاعَدَا بَرَاءَة.

وَاتِّبَاعًا لِلرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَبْدَأُ كُتُبَهُ بِالبَسْمَلَةِ، كَمَا فِي كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةَ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصرَىٰ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ؛ فَإِذَا فِيهِ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...**». الحَدِيثَ[1].

وَاتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ الجَارَّ وَالمَجرُورَ فِي البَسْمَلَةِ مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ قَدَّرَهُ الكُوفِيُّونَ فِعْلًا مُقَدَّمًا، وَقَدَّرَهُ البَصْرِيُّونَ اسْمًا مُقَدَّمًا، وَبِكُلٍّ وَرَدَ القُرْآنُ العَظِيمُ.

فَأَمَّا الاسْمُ: فَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود:٤١].

وَأَمَّا الفِعْلُ: فَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

وَكِلَا القَوْلَينِ صَحِيحٌ، فَإِنَّ الفِعْلَ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ، فَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ الفِعْلَ وَمَصْدَرَهُ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الفِعْلِ الَّذِي سَمَّيتَهُ قَبْلَهُ؛ إِنْ كَانَ قِيَامًا، أَوْ قُعُودًا، أَوْ أَكْلًا، أَوْ شُربًا، أَوْ قِرَاءَةً، أَوْ وضُوءًا، فَالمَشْرُوعُ ذِكرُ اسمِ اللهِ تَعَالَىٰ بَينَ يَدَي ذَلِكَ كُلِّهِ، استِعَانَةً بِاللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الإتمَامِ، وَالتَّقبُّلِ، وَتَبرُّكًا وَتَيمُّنًا.

وَأَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي مُتَعَلَّقِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ فِي البَسْمَلَةِ: أَنَّهُ فِعْلٌ مَحذُوفٌ مُتَأَخِّرٌ مُنَاسِبٌ لِلمَقَامِ، فَإِذَا قُدِّمَتِ البَسْمَلَةُ بَينَ يَدَي الكِتَابَةِ فَالتَّقْدِيرُ: بِاسْمِ اللهِ أَكْتُبُ، وَإِذَا قُدِّمَتْ بَينَ يَدَي القِرَاءَةِ فَالتَّقْدِيرُ: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ.

وَقُدِّرَ فِعْلًا؛ لأَنَّ الأَصْلَ فِي العَمَلِ الأَفعَالُ لَا الأَسْمَاءُ، وَلِهَذَا تَعْمَلُ الأَفْعَالُ بِلَا شَرْطٍ، وَأَمَّا الأَسْمَاءُ فَلَا تَعْمَلُ إِلَّا بِشَرْطٍ؛ لِأَنَّ العَمَلَ أَصْلٌ فِي الأَفعَالِ، فَرْعٌ فِي الأَسْمَاءِ.

وَقُدِّرَ مُتَأَخِّرًا، وَقُدِّمَ المَعْمُولُ؛ لأَنَّهُ أَهَمُّ، وَأَدَلُّ عَلَىٰ الاختِصَاصِ، وَأَدْخَلُ فِي التَّعْظِيمِ بِالبُدَاءَةِ بِاسْمِ اللهِ ﷻ.

وَالمَعْمُولُ: مَا يَتَغَيَّرُ آخِرُهُ بِرَفْعٍ أَوْ نَصْبٍ أَوْ جَرٍّ أَوْ جَزْمٍ بِتَأْثِيرِ العَامِلِ فِيهِ.

وَالعَامِلُ: مَا يُحدِثُ تَغَيُّرًا فِي غَيرِهِ؛ كَأَدَوَاتِ نَصْبِ المُضَارِعِ وَجَزْمِهِ، وَالأَحْرُفِ الَّتِي تَنْصِبُ المُبْتَدَأَ وَتَرْفَعُ الخَبَرَ.

وَالعَمَلُ -وَيُسَمَّىٰ الإِعْرَابَ-: هُوَ الأَثَرُ الحَاصِلُ بِتَأْثِيرِ العَامِلِ؛ مِنْ رَفْعٍ

أَوْ نَصْبٍ أَوْ خَفْضٍ أَوْ جَزْمٍ.

وَأَوَّلُ العَوَامِلِ: الفِعْلُ وَشِبْهُهُ؛ كَاسْمِ الفَاعِلِ وَاسْمِ المَفْعُولِ.

وَالمَعمُولَاتُ: الأسمَاءُ، مَا عَدَا اسْمَ الفِعْلِ، وَأَسْمَاءَ الأَصْوَاتِ، وَالفِعْلُ المُضَارِعُ.

وَقُدِّرَ مُتَعَلَّقُ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ فِي البَسْمَلَةِ خَاصًّا مُنَاسِبًا لِلمَقَامِ؛ لِيَكُونَ أَدَلَّ عَلَىٰ المُرَادِ؛ لأَنَّ الخَاصَّ أَدَلُّ عَلَىٰ المَقْصُودِ مِنَ العَامِّ، إِذْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَقُولَ -بَينَ يَدَي القِرَاءَةِ-: بِاسْمِ اللهِ أَبْتَدِئُ، وَلَكِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَىٰ تَعْيينِ المَقْصُودِ، وَلَكِنْ: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ، خَاصٌّ، وَالخَاصُّ أَدَلُّ عَلَىٰ المَعنَىٰ مِنَ العَامِّ.

وَأَمَّا فَائِدَةُ حَذْفِ العَامِلِ فِي (بِاسْمِ اللهِ)، فَقَدْ ذَكَرَهَا العَلَّامَةُ ابنُ القَيِّمِ فِي «بَدَائِعِ الفَوَائِد» (ص٣٨)، فَقَالَ:

«١- هَذَا موطِنٌ لَا يَنبَغِي أَنْ يَتَقَدَّمَ فِيهِ سِوَىٰ ذِكرِ اللهِ، فَلَو ذَكَرْتَ الفِعْلَ وَهُوَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ فَاعِلِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ مُنَاقِضًا لِلمَقصُودِ، فَكَانَ فِي حَذْفِهِ مُشَاكَلَةُ اللفْظِ لِلمَعنَىٰ؛ لِيَكُونَ المَبدُوءُ بِهِ اسْمَ اللهِ، كَمَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ: اللهُ أَكْبَرُ، وَمَعنَاهُ: مِنْ كُلِّ شَيءٍ، وَلَكِنْ لَا تَقُولُ هَذَا المُقَدَّرَ؛ وَلِيَكُونَ اللَّفْظُ مُطَابِقًا لِمَقصُودِ الجَنَانِ، وَهُوَ أَلَّا يَكُونَ فِي القَلْبِ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، فَكَمَا تَجَرَّدَ ذِكْرُهُ فِي قَلْبِ المُصَلِّي؛ تَجَرَّدَ ذِكْرُهُ فِي لِسَانِهِ.

٢- أَنَّ الفِعْلَ إِذَا حُذِفَ؛ صَحَّ الابتِدَاءُ بِالتَّسْمِيَةِ فِي كُلِّ عَمَلٍ وَقَولٍ وَحَرَكَةٍ، وَلَيسَ فِعْلٌ أَولَىٰ بِهَا مِن فِعْلٍ، فَكَانَ الحَذْفُ أَعَمَّ مِنَ الذِّكْرِ؛ فَإِنَّ أَيَّ

فِعْلٍ ذَكَرْتَهُ كَانَ المَحْذُوفُ أَعَمَّ مِنْهُ.

٣- أَنَّ الحَذْفَ أَبْلَغُ؛ لأَنَّ المُتَكَلِّمَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ كَأَنَّهُ يَدَّعِي الاستِغْنَاءَ بِالمُشَاهَدَةِ عَنِ النُّطْقِ بِالفِعْلِ، فَكَأَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ النُّطْقِ بِهِ؛ لأَنَّ المُشَاهَدَةَ وَالحَالَ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا وَكُلَّ فِعلٍ فَإِنَّمَا هُوَ بِاسْمِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وَالحَوَالَةُ عَلَىٰ شَاهِدِ الحَالِ أَبْلَغُ مِنَ الحَوَالَةِ عَلَىٰ شَاهِدِ النُّطْقِ». اهـ.

وَأَمَّا ظُهُورُ فِعْلِ القِرَاءَةِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]؛ فَلِأَنَّ الأَهَمَّ ثَمَّةَ القِرَاءَةُ، وَلِذَا قُدِّمَ الفِعْلُ فِيهَا عَلَىٰ مُتَعَلَّقِهِ، بِخِلَافِ البَسْمَلَةِ؛ فَإِنَّ الأَهَمَّ فِيهَا الابْتِدَاءُ.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١٠/ ٢٣١): «وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْقَارِئِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ فَتَقْدِيرُهُ: قِرَاءَتِي بِاسْمِ اللهِ؛ أَوْ: أَقْرَأُ بِاسْمِ اللهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُضْمِرُ فِي مِثْلِ هَذَا: ابْتِدَائِي بِاسْمِ اللهِ؛ أَوْ: ابْتَدَأْتُ بِاسْمِ اللهِ.

وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ؛ لأَنَّ الْفِعْلَ كُلَّهُ مَفْعُولٌ بِاسْمِ اللهِ، لَيسَ مُجَرَّدَ ابْتِدَائِهِ، كَمَا أَظْهَرَ الْمُضْمَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

وَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١]». اهـ.

«اللهُ»: عَلَمٌ عَلَىٰ البَارِي -جَلَّ وَعَلَا-، ذَكَرَ سِيبَوَيْهِ أَنَّهُ أَعْرَفُ المَعَارِفِ، وَعَلَمٌ عَلَىٰ الذَّاتِ المُقَدَّسَةِ، وَمَعنَاهُ: ذُو الأُلُوهِيَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ خَلْقِهِ أَجمَعِينَ،

وَهُوَ الاسْمُ الَّذِي تَتْبَعُهُ جَمِيعُ الأَسْمَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١-٢]، لَا نَقُولُ: إنَّ لَفظَ الجَلَالَةِ (الله) صِفَةٌ، بَلْ نَقُولُ: هِيَ عَطْفُ بَيَانٍ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لَفْظُ الجَلَالَةِ تَابِعًا تَبَعِيَّةَ النَّعْتِ لِلمَنْعُوتِ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ الاسْمُ الأَعْظَمُ؛ لأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]. إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، فَأَجْرَىٰ الأَسْمَاءَ البَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ.

وَاخْتَلَفُوا: هَلْ هُوَ جَامِدٌ أَوْ مُشْتَقٌّ؟ عَلَىٰ قَولَينِ؛ أَصَحُّهُمَا: أَنَّهُ مُشْتَقٌّ.

وَالمُشْتَقُّ مِنَ الأَسْمَاءِ: مَا كَانَ مَأْخُوذًا مِنَ الفِعْلِ: كَعَالِمٍ، وَمُتَعَلِّمٍ، وَمُحْسِنٍ...

وَالجَامِدُ: مَا لَا يَكُونُ مَأْخُوذًا مِنَ الفِعْلِ: كَحَجَرٍ، وَسَقْفٍ، وَدِرْهَمٍ...

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فَإِنَّهُ عَلَىٰ مَعنَىٰ مَا رُوِيَ لَنَا عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١/ ٥٤).

عَبَّاسٍ: هُوَ الَّذِي يَأْلَهُهُ كُلُّ شَيءٍ، وَيَعْبُدُهُ كُلُّ شَيءٍ». اهـ

فَاللهُ: ذُو الأُلُوهِيَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ.

وَذَكَرَ سِيبَوَيْهِ فِي «الكِتَابِ»[1] عَنِ الخَلِيلِ: أَنَّ أَصْلَهُ: (إِلَهٌ)، مِثْل: فِعَالٌ، فَأُدخِلَتِ الألِفُ وَاللَّامُ بَدَلًا مِنَ الهَمْزَةِ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: مِثْلُ: النَّاسِ؛ أَصْلُهُ: أُنَاسٌ.

وَقَالَ الكِسَائِيُّ وَالفَرَّاءُ: «أَصْلُهُ (الإِلَهُ)، حَذَفُوا الهَمْزَةَ، وَأَدغَمُوا اللَّامَ الأُولَىٰ فِي الثَّانِيَةِ»[2].

فَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ: أَلِهَ الرَّجُلُ إِذَا تَعَبَّدَ، كَمَا قَرَأَ ابنُ عَبَّاسٍ: (وَيَذَرَكَ وَإِلَهَتَكَ)؛ أي: عِبَادَتَكَ[3].

وَأَصْلُهُ: الإِلَهُ؛ أي: المَعبُودُ، فَحُذِفَتِ الهَمْزَةُ الَّتِي هِيَ «فَاءُ» الكَلِمَة، فَالْتَقَتِ اللَّامُ الَّتِي هِيَ «عَينُهَا» مَعَ اللَّامِ الَّتِي لِلتَّعرِيفِ، فأُدغِمَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الأُخرَىٰ، فَصَارَتَا فِي اللَّفْظِ لَامًا وَاحِدَةً مُشَدَّدَةً، وفُخِّمَتْ تَعظِيمًا، فَقِيلَ: اللهُ[4].

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القَولُ الصَّحِيحُ: أَنَّ اللهَ أَصْلُهُ: الإِلَهُ، كَمَا

(١) «الكتاب» (٢/ ١٩٥).

(٢) «تَهذِيبُ اللُّغَةِ» (٦/ ٢٢٢)، وَ«لِسَانُ العَرَبِ» (١١٤).

(٣) «تفسير ابن جرير» (١/ ٥٤، ٩/ ٢٥-٢٦) مِنْ طُرُقٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَهُوَ صَحِيحٌ عَنهُ.

(٤) «تَيسيرُ العَزِيزِ الحمِيد» (١/ ١٣٠).

هُوَ قَولُ سِيبَوَيهِ وَجُمْهُورِ أَصْحَابِهِ؛ إِلَّا مَنْ شَذَّ مِنْهُم، وَأَنَّ اسمَ اللهِ تَعَالَىٰ هُوَ الجَامِعُ لِجَمِيعِ مَعَانِي الأَسمَاءِ الحُسنىٰ، وَالصِّفَاتِ العُلَا»[١].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَزَعَمَ السُّهَيلِيُّ وَشَيخُهُ ابنُ العَرَبِيِّ: أَنَّ اسْمَ اللهِ غَيرُ مُشتَقٍّ؛ لأَنَّ الاشْتِقَاقَ يَستَلزِمُ مَادَّةً يُشتَقُّ مِنهَا، وَاسْمُهُ تَعَالَىٰ قَدِيمٌ، وَالقَدِيمُ لَا مَادَّةَ لَهُ فَيَستَحِيلُ الاشْتِقَاقُ، وَلَا رَيبَ أَنَّهُ إِنْ أُرِيدَ بِالاشتِقَاقِ هَذَا المَعنَىٰ وَأَنَّهُ مُستَمَدٌّ مِنْ أَصْلٍ آخَرَ فَهُوَ بَاطِلٌ.

وَلَكِنَّ الَّذِينَ قَالُوا بِالاشتِقَاقِ لَمْ يُرِيدُوا هَذَا المَعنَىٰ، وَلَا أَلَمَّ بِقُلُوبِهِم؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّهُ دَالٌّ عَلَىٰ صِفَةٍ لَهُ تَعَالَىٰ، وَهِيَ الإِلَهِيَّةُ كَسَائِرِ أَسمَائِهِ الحُسْنَىٰ، كَالعَلِيمِ وَالقَدِيرِ وَالغَفُورِ وَالرَّحِيمِ وَالسَّمِيعِ وَالبَصِيرِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الأَسْمَاءَ مُشتَقَّةٌ مِنْ مَصَادِرِهَا بِلَا رَيبٍ وَهِيَ قَدِيمَةٌ، وَالقَدِيمُ لَا مَادَّةَ لَهُ، فَمَا كَانَ جَوَابُكُم عَنْ هَذِهِ الأَسمَاءِ فَهُوَ جَوَابُ القَائِلِينَ بِاشتِقَاقِ اسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ.

ثُمَّ الجَوَابُ عَنِ الجَمِيعِ: أَنَّا لَا نَعنِي بِالاشتِقَاقِ إِلَّا أَنَّهَا مُلَاقِيَةٌ لِمَصَادِرِهَا فِي اللَّفْظِ وَالمَعنَىٰ لَا أَنَّهَا مُتَوَلِّدَةٌ مِنهَا تَوَلُّدَ الفَرْعِ مِنْ أَصْلِهِ.

وَتَسمِيَةُ النُّحَاةِ لِلمَصْدَرِ وَالمُشْتَقِّ مِنْهُ: أَصْلًا وَفَرْعًا، لَيسَ مَعنَاهُ: أَنَّ أَحَدَهُمَا تَوَلَّدَ مِنَ الآخَرِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ بِاعتِبَارِ أَنَّ أَحَدَهُمَا يَتَضَمَّنُ الآخَرَ وَزِيَادَةً»[٢].

---

(١) «البَدَائِعُ» (٢/ ٤٧٣)

(٢) «البَدَائِعُ» (١/ ٢٦).

وَذَكَرَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ حَسَنٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]؛ أنَّ العَلَّامَةَ ابنَ القَيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ لِهَذَا الاسْمِ الشَّرِيفِ (الله) عَشْرَ خَصَائِص لَفظِيَّةٍ؛ وَسَاقَهَا، ثُمَّ قَالَ: «وَأمَّا خَصَائِصُهُ المَعنَوِيَّةُ؛ فَقَدْ قَالَ فِيهَا أعْلَمُ الخَلْقِ بِهِ ﷺ: «لَا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أنْتَ كَمَا أثْنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ»[2].

وَكَيفَ تُحْصَىٰ خَصَائِصُ اسْمٍ لِمُسَمَّاهُ كُلُّ كَمَالٍ عَلَىٰ الإطْلَاقِ، وَكُلُّ مَدْحٍ وَكُلُّ حَمْدٍ، وَكُلُّ ثَنَاءٍ وَكُلُّ مَجْدٍ، وَكُلُّ جَلَالٍ وَكُلُّ إِكْرَامٍ، وَكُلُّ عِزٍّ وَكُلُّ جَمَالٍ، وَكُلُّ خَيرٍ وَإحسَانٍ وَجُودٍ وَبِرٍّ وَفَضْلٍ، فَلَهُ، وَمِنْهُ.

فَمَا ذُكِرَ هَذَا الاسْمُ فِي قَلِيلٍ إِلَّا كَثَّرَهُ، وَلَا عِندَ خَوفٍ إِلَّا أزَالَهُ، وَلَا عِندَ كَرْبٍ إِلَّا كَشَفَهُ، وَلَا عِندَ هَمٍّ وَغَمٍّ إِلَّا فَرَّجَهُ، وَلَا عِندَ ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ، وَلَا تَعَلَّقَ بِهِ ضَعِيفٌ إِلَّا أفَادَهُ القُوَّةَ، وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا أنَالَهُ العِزَّ، وَلَا فَقِيرٌ إِلَّا أصَارَهُ غَنِيًّا، وَلَا مُستَوحِشٌ إِلَّا آنَسَهُ، وَلَا مَغْلُوبٌ إِلَّا أيَّدَهُ وَنَصَرَهُ، وَلَا مُضْطَرٌّ إِلَّا كَشَفَ ضُرَّهُ، وَلَا شَرِيدٌ إِلَّا آوَاهُ.

فَهُوَ الاسْمُ الَّذِي تُكشَفُ بِهِ الكُرُبَاتُ، وَتُستَنْزَلُ بِهِ البَرَكَاتُ، وَتُجَابُ بِهِ الدَّعَوَاتُ، وَتُقَالُ بِهِ العَثَرَاتُ، وَتُستَدْفَعُ بِهِ السَّيِّئَاتُ، وَتُستَجْلَبُ بِهِ الحَسَنَاتُ.

وَهُوَ الاسْمُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ، وَبِهِ أُنْزِلَتِ الكُتُبُ، وَبِهِ أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، وَبِهِ شُرِعَتِ الشَّرَائِعُ.

---

(١) «فَتْحِ المَجِيدِ» (ص١٢).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِم (٤٨٦) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وَبِهِ قَامَتِ الحُدُودُ، وَبِهِ شُرِعَ الجِهَادُ، وَبِهِ انْقَسَمَتِ الخَلِيقَةُ إِلَىٰ السُّعَدَاءِ وَالأَشْقِيَاءِ، وَبِهِ حَقَّتِ الحَاقَّةُ، وَوَقَعَتِ الوَاقِعَةُ، وَبِهِ وُضِعَتِ المَوَازِينُ القِسْطُ، وَنُصِبَ الصِّرَاطُ، وَقَامَ سُوقُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَبِهِ عُبِدَ رَبُّ العَالَمِينَ وَحُمِدَ، وَبِحَقِّهِ بُعِثَتِ الرُّسُلُ، وَعَنْهُ السُّؤَالُ فِي القَبرِ وَيوم البَعْثِ وَالنُّشُورِ.

وَبِهِ الخِصَامُ، وَإِلَيهِ المُحَاكَمَةُ، وَفِيهِ المُوَالَاةُ وَالمُعَادَاةُ، وَبِهِ سَعِدَ مَنْ عَرَفَهُ وَقَامَ بِحَقِّهِ، وَبِهِ شَقِيَ مَنْ جَهِلَهُ وَتَرَكَ حَقَّهُ، فَهُوَ سِرُّ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، وَبِهِ قَامَا وَثَبتَا، وَإِلَيهِ انتَهيَا، فَالخَلْقُ وَالأَمْرُ بِهِ وَإِلَيهِ وَلِأَجْلِهِ.

فَمَا وُجِدَ خَلقٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا ثَوابٌ وَلَا عِقَابٌ، إِلَّا مُبتَدِئًا مِنْهُ، مُنتَهِيًا إِليهِ، وَذَلِكَ مُوجِبُهُ وَمُقتَضَاهُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]». إِلَىٰ آخِرِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الرَّحمَنُ: اسْمٌ مِنَ الأَسْمَاءِ المُختَصَّةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يُطْلَقُ عَلَىٰ غيرِهِ.

وَالرَّحْمَنُ مَعنَاهُ: المُتَّصِفُ بِالرَّحمَةِ الوَاسِعَةِ، لأَنَّ صِيغَةَ (فَعْلَانَ) فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تَدُلُّ عَلَىٰ السَّعَةِ وَالامتِلَاءِ، كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ غَضْبَانُ؛ إِذَا امتَلَأَ غَضَبًا.

الرَّحِيمُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَىٰ غَيرِهِ،وَهُوَ اسْمٌ يَدُلُّ عَلَىٰ الفِعلِ؛ لِأَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَىٰ: فَاعِلٍ، فَهُوَ دَالٌّ عَلَىٰ الفِعْلِ؛ وَمَعْنَاهُ: ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ.

فَالرَّحْمَنُ: ذُو الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، وَالرَّحِيمُ: ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ، فَيَجْتَمِعُ

مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَاسِعَةٌ، وَأَنَّهَا وَاصِلَةٌ إِلَىٰ الخَلْقِ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ السُّهَيلِيُّ: فَائِدَةُ الجَمْعِ بَينَ الاسْمَيْنِ: الرَّحمَنِ، وَالرَّحِيمِ: الإنبَاءُ عَنْ رَحْمَةٍ عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، وَخَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ»[1].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الجَمْعُ بَينَ الرَّحمَنِ وَالرَّحِيمِ فَفِيهِ مَعنًىٰ هُوَ أَحْسَنُ مِنَ المَعنَيَينِ اللَّذَينِ ذَكَرَهُمَا، وَهُوَ أَنَّ الرَّحمَنَ دَالٌّ عَلَىٰ الصِّفَةِ القَائِمَةِ بِهِ سُبحَانَهُ، وَالرَّحِيمَ دَالٌّ عَلَىٰ تَعَلُّقِهَا بِالمَرْحُومِ؛ فَكَانَ الأَوَّلُ لِلوَصْفِ وَالثَّانِي لِلفِعْلِ.

فَالأَوَّلُ دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّحْمَةَ صِفَتُهُ، وَالثَّانِي دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَرْحَمُ خَلقَهُ بِرَحمَتِهِ.

إِذَا أَرَدْتَ فَهمَ هَذَا فَتَأَمَّلْ قَولَهُ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وَ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، وَلَمْ يَجِئْ قَطُّ: رَحمَنٌ بِهِم، فَعُلِمَ أَنَّ الرَّحمَنَ هُوَ المَوصُوفُ بِالرَّحْمَةِ، وَالرَّحِيمَ هُوَ الرَّاحِمُ بِرَحمَتِهِ».

* * *

---

(١) «بَدَائِعُ الفَوَائِدِ» (ص٣٨).

قَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ».



الشَّرْحُ

«الحَمْدُ للهِ»: كَلِمَةُ كُلِّ شَاكِرٍ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ[1]: «قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: مَعنَىٰ (الحَمْدُ للهِ): الشُّكرُ للهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ، بِمَا أَنْعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحصِيهَا العَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيرُهُ أَحَدٌ، فِي تَصْحِيحِ الآلَاتِ لِطَاعَتِهِ، وَتَمكِينِ جَوَارِحِ أَجسَامِ المُكَلَّفِينَ لِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، مَعَ مَا بَسَطَ لَهُمْ فِي دُنيَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَغَذَّاهُمْ بِهِ مِنْ نَعِيمِ العَيشِ، مِنْ غَيرِ استِحقَاقٍ مِنهُم ذَلِكَ عَلَيهِ.

وَمَعَ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيهِ، مِنَ الأَسبَابِ المُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ دَوَامِ الخُلُودِ فِي دَارِ المُقَامِ فِي النَّعِيمِ المُقِيمِ.

فَلِرَبِّنَا الحَمْدُ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

وَقَالَ ابنُ جَرِيرٍ: (الحَمْدُ للهِ): ثَنَاءٌ أَثْنَىٰ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَفِي ضِمْنِهِ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: الحَمْدُ للهِ».

---

(١) «تَفسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ» (١/ ٢٠١).

وَقَالَ الجَوهَرِيُّ: «الحَمْدُ نَقِيضُ الذَّمِّ، تَقُولُ: حَمِدتُ الرَّجُلَ، أحمَدُهُ، حَمْدًا، وَمَحمَدَةً، فَهُوَ حَمِيدٌ وَمَحمُودٌ، وَالتَّحمِيدُ أبْلَغُ مِنَ الحَمْدِ، وَالحَمْدُ أعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ».

وَقَالَ فِي «الشُّكْرِ»: «هُوَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ المُحْسِنِ بِمَا أوْلَاكَهُ مِنَ المَعْرُوفِ، يُقَالُ: شَكَرْتُهُ، وَشَكَرْتُ لَهُ، وَبِاللَّامِ أفْصَحُ».

وَالمَشْهُورُ عِندَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ مِنَ المُتَأخِّرِينَ: أنَّ الحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ بِاللِّسَانِ عَلَىٰ الجَمِيلِ الاختِيَارِيِّ، نَعمَةً كَانَ أو غَيرَهَا، يُقَالُ: حَمِدْتُ الرَّجُلَ عَلَىٰ إنْعَامِهِ، وَحَمِدْتُهُ عَلَىٰ شَجَاعَتِهِ.

وَأمَّا الشُّكْرُ فَعَلَىٰ النِّعْمَةِ خَاصَّةً، وَيَكُونُ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَبينَ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجهٍ؛ يَجتَمِعَانِ فِي الثَّنَاءِ بِاللِّسَانِ عَلَىٰ النِّعْمَةِ، وَيَنْفَرِدُ الحَمْدُ فِي الثَّنَاءِ بِاللِّسَانِ عَلَىٰ مَا لَيسَ بِنِعْمَةٍ مِنَ الجَمِيلِ الاختِيَارِيِّ، وَيَنفَرِدُ الشُّكْرُ بِالثَّنَاءِ بِالقَلْبِ وَالجَوَارِحِ عَلَىٰ خُصُوصِ النِّعْمَةِ.

فَالحَمْدُ أعَمُّ مُتَعَلَّقًا وَأخَصُّ آلَةً، وَالشُّكْرُ بِالعَكْسِ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ[1]: «اشتَهَرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ مِنَ المُتَأخِّرِينَ: أنَّ الحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ بِالقَولِ عَلَىٰ المَحْمُودِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ، وَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ

---

(١) «تَفسِير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٢).

إِلَّا عَلَىٰ الْمُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ بِالجَنَانِ وَاللِّسَانِ وَالأَرْكَانِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وَلَكِنَّهُمُ اختَلَفُوا: أَيُّهُمَا أَعَمُّ، الحَمْدُ أَوِ الشُّكْرُ؟ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ بَينَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا، فَالحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيثُ مَا يَقعَانِ عَلَيهِ؛ لأَنَّهُ يَكُونُ عَلَىٰ الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ.

تَقُولُ: حَمِدْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَحَمِدْتُهُ لِكَرَمِهِ.

وَهُوَ أَخَصُّ؛ لأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالقَولِ، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ حَيثُ مَا يَقعَانِ بِهِ؛ لأَنَّهُ يَكُونُ بِالقَولِ وَالفِعْلِ وَالنِّيَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَهُوَ أَخَصُّ؛ لأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ الصِّفَاتِ المُتَعَدِّيَةِ، لَا يُقَالُ: شَكَرْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَىٰ كَرَمِهِ وَإِحسَانِهِ إِلَيَّ.

هَذَا حَاصِلُ مَا حَرَّرَهُ بَعضُ المُتَأَخِّرِينَ.

وَأَمَّا المَدْحُ: فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الحَمْدِ؛ لأَنَّهُ يَكُونُ لِلحَيِّ وَلِلمَيتِ وَلِلجَمَادِ أَيضًا؛ كَمَا يُمْدَحُ الطَّعَامُ وَالمَكَانُ، وَنَحْو ذَلِك، وَيَكُونُ قَبْلَ الإِحْسَانِ وَبَعْدَهُ، وَعَلَىٰ الصِّفَاتِ المُتَعَدِّيَةِ وَاللَّازِمَةِ أَيضًا، فَهُوَ أَعَمُّ». اهـ

وَالأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الحَمْدِ) لِاستِغرَاقِ جَمِيعِ أَجنَاسِ الحَمْدِ وَصُنُوفِهِ للهِ تَعَالَىٰ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ يُحْمَدُ عَلَىٰ كَمَالِهِ ﷻ، وَعَلَىٰ إِنْعَامِهِ، فَنَحْنُ نَحمَدُهُ تَعَالَىٰ

لأَنَّهُ كَامِلُ الصِّفَاتِ مِن كُلِّ وَجْهٍ، ونَحْمَدُهُ أيضًا لأَنَّهُ كَامِلُ الإِنْعَامِ وَالإحْسَانِ.

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الحَمِيدُ فَكُلُّ حَمْدٍ وَاقِعٍ ... أَوْ كَانَ مَفْروضًا مَدَىٰ الأَزمَانِ

مَلأَ الوجُودَ جَمِيعَهُ وَنَظِيرَهُ ... مِنْ غَيرِ مَا عَدٍّ وَلَا حُسْبَانِ

هُوَ أَهْلُهُ سُبحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ... كُلُّ المَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحسَانِ

قَالَ الإمَامُ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وَكَانَ ﷺ لَا يَخطُبُ خُطْبَةً إلَّا افتَتَحَهَا بِحَمْدِ اللهِ، وَأَمَّا قَولُ كَثِيرٍ مِنَ الفُقَهَاءِ: إنَّهُ يَفْتَتِحُ خُطْبَةَ الاسْتِسْقَاءِ بِالاسْتِغْفَارِ، وَخُطْبَةَ العِيدَينِ بِالتَّكبِيرِ، فَلَيسَ مَعَهُم سُنَّةٌ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَلبَتَّةَ، وَسُنَّتُهُ تَقتَضِي خِلَافَهُ؛ وَهُوَ افتِتَاحُ جَمِيعِ الخُطَبِ بِالحَمْدِ للهِ، وَهُوَ أَحَدُ الوجُوهِ الثَّلَاثَةِ لأَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَهُوَ اختِيَارُ شَيخِنَا -قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ-».

وَالابتِدَاءُ حَقِيقِيٌّ وَإضَافِيٌّ:

فَالحَقِيقِيُّ: هُوَ الذِي لَمْ يَسبِقْهُ شَيءٌ، مِثْل: بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ.

وَالإِضَافِيُّ: هُوَ مَا تَقَدَّمَ أَمَامَ المَقْصُودِ وَإنْ سَبَقَهُ شَيءٌ آخَرُ، مِثْل: الحَمدُ للهِ الذِي ...

«**رَبُّ العَالَمِينَ**»: الرَّبُّ: هُوَ المَالِكُ المُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ السَّيدِ، وَعَلَىٰ المُتَصَرِّفِ لِلإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ،

(١) «زاد المَعَادِ» (١/ ١٨٦).

وَلَا يُستَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيرِ اللهِ، بَلْ بِالإِضَافَةِ، تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ، رَبُّ كَذَا، وَأَمَّا الرَّبُّ؛ فَلَا يُقَالُ إِلَّا للهِ ﷻ .

وَالعَالَمِينَ: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ كُلُّ مَوجُودٍ سِوَىٰ اللهِ ﷻ .

وَالعَالَمُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَالعَوَالِمُ: أَصنَافُ المَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَفِي البَرِّ وَالبَحْرِ، وَكُلُّ قَرنٍ مِنْهَا وَجِيلٍ يُسَمَّىٰ عَالَمًا أَيضًا[1].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ[2]: «الرَّبُّ: هُوَ المُرَبِّي جَمِيعَ العَالَمِينَ -وَهُمْ مَنْ سِوَىٰ اللهِ- بِخَلْقِهِ لَهُمْ، وَإِعْدَادِهِ لَهُمُ الآلَاتِ، وَإِنْعَامِهِ عَلَيهِمْ بِالنِّعَمِ العَظِيمَةِ، الَّتِي لَو فَقَدُوهَا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمُ البَقَاءُ، فَمَا بِهِم مِنْ نِعمَةٍ فَمِنْهُ تَعَالَىٰ.

* **وَتَربِيَتُهُ تَعَالَىٰ لِخَلقِهِ نَوعَانِ: عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ.**

فَالعَامَّةُ: هِيَ خَلقُه لِلمَخلُوقِينَ، وَرِزقُهُم، وَهِدَايَتُهُم لِمَا فِيهِ مَصَالِحُهُم، الَّتِي فِيهَا بَقَاؤُهُم فِي الدُّنيَا.

وَالخَاصَّةُ: هِي تَربِيَتُهُ لِأَولِيَائِهِ، فَيُرَبِّيهِم بِالإِيمَانِ، وَيُوَفِّقُهُم لَهُ، وَيُكَمِّلُهُم، وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ الصَّوَارِفَ، وَالعَوَائِقَ الحَائِلَةَ بَينَهُم وَبَينَهُ، وَحَقِيقَتُهَا: تَربِيَةُ التَّوفِيقِ لِكُلِّ خَيرٍ، وَالعِصْمَةُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

---

(١) «تَفسِيرُ ابنِ كَثِيرٍ» (١/ ٢٠٧).

(٢) «تَيسِير الكريم الرحمن» (١/ ٣١).

وَلَعَلَّ هَذَا المَعنَىٰ هُوَ السِّرُّ فِي كَونِ أَكْثَرِ أَدْعِيَةِ الأَنبِيَاءِ بِلَفظِ الرَّبِّ.

فَإِنَّ مَطَالِبَهُم كُلَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ رُبُوبِيَّتِهِ الخَاصَّةِ.

فَدَلَّ قَولُهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. عَلَىٰ انفِرَادِهِ بِالخَلْقِ، وَالتَّدبِيرِ، وَالنِّعَمِ، وَكَمَالِ غِنَاهُ، وَتَمَامِ فَقْرِ العَالَمِينَ إِلَيهِ بِكُلِّ وَجْهٍ وَاعتِبَارٍ». اهـ

*** وَمِنْ أَسْمَائِهِ -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-: الرَّبُّ.**

وَهُوَ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ المَالِكِ وَالسَّيِّدِ وَالمُدَبِّرِ وَالمُرَبِّي وَالقَيِّمِ وَالمُنْعِمِ.

وَالرَّبُّ: هُوَ المَالِكُ المُتَصَرِّفُ، وَالخَلْقُ وَالتَّقْدِيرُ هُمَا الصِّفَتَانِ الغَالِبَتَانِ عَلَىٰ مَعنَىٰ اسْمِ الرَّبِّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-؛ وَذَلِكَ أَنَّ الخَلْقَ وَالتَّقْدِيرَ مِنْ أَخَصِّ صِفَاتِ الرُّبُوبِيةِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ[1]: «فَاسْمُ الرَّبِّ لَهُ الجَمْعُ الجَامِعُ لِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ؛ فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ وَخَالِقُهُ وَالقَادِرُ عَلَيهِ، وَلَا يَخرُجُ شَيءٌ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَبْدٌ لَهُ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ».

* * *

(١) «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/ ٢٨٤).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ».



الشَّرْحُ

«صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ»: أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ مَا قَالَهُ أَبُو العَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: «صَلَاةُ اللهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ»(1).

وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَ صَلَاةَ اللهِ عَلَيهِ بِالرَّحْمَةِ؛ فَقَولُهُ ضَعِيفٌ؛ لأَنَّ الرَّحْمَةَ تَكُونُ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ رَحِمَهُ اللهُ، وَاخْتَلَفُوا؛ هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ؟

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الصَّلَاةَ غَيرُ الرَّحْمَةِ.

وَأَيضًا؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧]. وَالعَطْفُ يَقْتَضِي المُغَايَرَةَ.

إِذَنْ؛ فَالصَّلَاةُ أَخَصُّ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ فَصَلَاةُ اللهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيهِ فِي المَلأَ الأَعْلَىٰ.

---

(١) رواه البخاري عن أبي العالية مُعَلَّقًا فِي تفسير سورة الأحزاب، باب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾. [صحيح البخاري (٤/ ١٨٠٢)].

ووصله القاضي إسماعيل الجهضمي فِي «فضل الصلاة عَلَىٰ النبي ﷺ»، بإسنادٍ حسنٍ كَمَا قال الألباني.

قَالَ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللهُ[١]: «قَولُهُم: وَالصَّلَاةُ مِنَ اللهِ بِمَعنَىٰ الرَّحمَةِ بَاطِلٌ مِن ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ اللهَ غَايرَ بَينَهُمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧].

الثَّانِي: أَنَّ سُؤالَ الرَّحمَةِ شُرِعَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَالصَّلَاةُ تَختَصُّ بِالنَّبِيِّ وَحْدَهُ، وَهِيَ حَقٌّ لَهُ وَلِآلِهِ، وَلِهَذَا مَنَعَ العُلَمَاءُ -أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُم- الصَّلَاةَ عَلَىٰ مُعَيَّنٍ غَيرِهِ، وَلَمْ يُمنَعْ أَحَدٌ مِنَ التَّرَحُّمِ عَلَىٰ مُعَيَّنٍ.

الثَّالِثُ: أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَامَّةٌ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ، وَصَلَاتُهُ خَاصَّةٌ بِخَوَاصِّ عِبَادِهِ». اهـ

«وَسَلَّمَ»: فِيهَا السَّلَامَةُ مِنَ الآفَاتِ، وَفِي الصَّلَاةِ: حُصُولُ الخَيرَاتِ، فَجَمَعَ المُؤلِّفُ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ بَينَ سُؤَالِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُحَقِّقَ لِنَبِيِّهِ الخَيرَاتِ -وَأَخَصُّهَا الثَّنَاءُ فِي المَلَأ الأَعْلَىٰ- وَأَنْ يُزِيلَ عَنْهُ الآفَاتِ، وَكَذَلِكَ مَنِ اتَّبَعَهُ.

وَجَمَعَ بَينَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ امتِثَالًا لِأَمْرِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

وَالجُمْلَةُ فِي قَولِهِ: صَلَّىٰ، وَسَلَّمَ، خَبَرِيَّةٌ لَفْظًا وَطَلَبِيَّةٌ مَعنًىٰ، لأَنَّ المُرَادَ بِهَا الدُّعَاءُ.

---

(١) «بَدَائِع الفَوَائِد» (ص٣٨).

«وَآلِهِ»: آلُهُ هُنَا أتبَاعُهُ عَلَىٰ دِينِهِ، وَهَذَا إِذَا ذُكِرَتِ الآلُ وَحْدَهَا أَوْ مَعَ الصَّحْبِ، فَإِنَّهَا تَكُونُ بِمَعنَىٰ أتباعِهِ عَلَىٰ دِينِهِ مُنذُ بُعِثَ إِلَىٰ يوم القِيَامَةِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الآلَ بِمَعنَىٰ الأتبَاعِ عَلَىٰ الدِّينِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ فِي آلِ فِرْعَونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. أي: أتبَاعَهُ عَلَىٰ دِينِهِ.

أَمَّا إِذَا قُرِنَتْ بِالأَتْبَاعِ؛ فَقِيلَ: آلُهُ وَأتبَاعُهُ؛ فَالآلُ هُمُ المُؤمِنُونَ مِنْ آلِ البَيتِ؛ أي: بَيتِ الرَّسُولِ ﷺ.

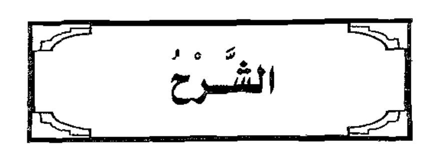
«آلِهِ وَصَحْبِهِ»: آلُهُ: هُمْ أتبَاعُهُ عَلَىٰ دِينِهِ، وَصَحبُهُ: كُلُّ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِنْ تَخَلَّلَتهَا رِدَّةٌ تَابَ مِنهَا، وَرَجَعَ عَنْهَا.

وَعَطفُ الصَّحْبِ هُنَا عَلَىٰ الآلِ مِن بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَىٰ العَامِّ؛ لأَنَّ الصُّحبَةَ أَخصُّ مِنْ مُطْلَقِ الاتِّبَاعِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَبَعْدُ:

فَهَذِهِ كَلِمَةٌ مُختَصَرَةٌ فِي جُمْلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ التَّوحِيدِ، كَتَبْتُهَا وَفْقَ المَنهَجِ المُقَرَّرِ عَلَىٰ طُلَّابِ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا، وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ: مُقَدِّمَةٍ، وَمَسَائِلَ، وَخَاتِمَةٍ».



الشَّرْحُ

قَولُهُ: «فَهَذِهِ كَلِمَةٌ مُختَصَرَةٌ».

الكَلِمَةُ عِندَ النُّحَاةِ هِيَ اللَّفْظُ المَوضُوعُ لِمَعنًىٰ مُفرَدٍ، وَيَندَرِجُ تَحْتَ مُصْطَلَحِ الكَلِمَةِ: الأَسْمَاءُ وَالأَفْعَالُ وَالحُرُوفُ، وَهَذَا هُوَ المَقْصُودُ بِالكَلِمَةِ لَدَىٰ النُّحَاةِ.

لَكِنَّ الكَلِمَةَ تُستَعْمَلُ فِي اللُّغَةِ كَثِيرًا مُرَادًا بِهَا الكَلَام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وَقَالَ ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ؛ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»[1]

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٦).

وَتقُولُ: كَلِمَةُ الإخْلَاصِ، وَالمَقْصُودُ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ.

وَتَقُولُ: كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ، وَتُرِيدُ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

قَالَ ابنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

كَلَامُنَا لَفظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ ... وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الكَلِمْ

وَاحِدُهُ كَلِمَةٌ وَالقَولُ عَمّ ... وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمّ

وَمُرَادُ المُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَولِهِ: «فَهَذِهِ كَلِمَةٌ مُختَصَرَةٌ»: هَذَا المُصَنَّفُ.

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ جَعَلَ مُصَنَّفَهُ فِي مَسَائِلَ مِنَ التَّوحِيدِ.

وَالتَّوحِيدُ أَشْرَفُ العُلُومِ، وَالمَسَائِلُ الَّتِي بَحَثَهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَهَمُّ مُهِمَّاتِ مَبَاحِثِهِ، وَقَدْ تَنَاوَلَهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِطَرِيقَةٍ مُختَصَرَةٍ -كَمَا ذَكَرَ- وَلَكِنَّهَا مُستَوعِبَةٌ لِمَقَاصِدِ مَا تَعرَّضَ لِبَحثِهِ، جَامِعَةٌ لأَطرَافِهِ، وَقَدْ جَعَلَ مُصَنَّفَهُ مُشتَمِلاً عَلَىٰ مُقَدِّمَةٍ، وَمَسَائِلَ، وَخَاتِمَةٍ.

* * *

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي المُقَدِّمَةِ: «مُقَدِّمَةٌ فِي تَعرِيفِ التَّوحِيدِ، وَبَيَانِ الحُكمِ وَأَقسامِهِ.

١- تَعرِيفُ عِلْمِ التَّوحِيدِ:

التَّوحِيدُ لُغَةً: جَعْلُ المُتَعَدِّدِ وَاحِدًا، ويُطْلَقُ عَلَىٰ اعتِقَادِ أَنَّ الشَّيءَ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدٌ.

وَيُطْلَقُ شَرْعًا عَلَىٰ تَفَرُّدِ اللهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالإِلَهِيَّةِ، وَكَمَالِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ».



الشَّرْحُ

التَّوحِيدُ لُغَةً: مَصْدَرُ وَحَّدَ، يُوحِّدُ، تَوحِيدًا، أي: جَعلَهُ وَاحِدًا.

قَالَ السَّفَّارِينيُّ[1]: «وَالتَّوحِيدُ: تَفْعِيلٌ لِلنِّسْبَةِ كَالتَّصْدِيقِ، وَالتَّكذِيبِ؛ لَا لِلجَعْلِ، فَمَعنَىٰ وَحَّدْتُ اللهَ: نَسَبْتُ إِلَيهِ الوَحْدَانِيَّةَ لَا جَعَلْتُهُ وَاحِدًا، فَإِنَّ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ ذَاتِيَّةٌ لَيسَتْ بِجَعْلِ جَاعِلٍ، وَالمُوَحِّدُ يَجْعَلُ اللهَ وَاحِدًا فِي أَفْعَالِهِ التَّعَبُّدِيَّةِ؛ إِذِ التَّوحِيدُ: إِفرَادُ الخَالِقِ بِالعِبَادَةِ ذَاتًا وَصِفَةً وَأَفْعَالًا». اهـ.

«وَسُمِّيَ دِينُ الإِسْلَامِ تَوحِيدًا؛ لأَنَّ مَبْنَاهُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي مُلْكِهِ

(١) «لَوَامِع الأَنْوَارِ» (١/ ٥٦-٥٧).

وَأفْعَالِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا نِدَّ لَهُ.

وَإِلَىٰ هَذِهِ الأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ يَنْقَسِمُ تَوحِيدُ الأنبياءِ وَالمُرْسَلِينَ الَّذِينَ جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ، كُلُّ نَوعٍ مِنهَا لَا يَنفَكُّ عَنِ الآخَرِ، فَمَنْ أَتَىٰ بِنَوعٍ مِنهَا وَلَمْ يَأتِ بِالآخَرِ، فَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُ لَمْ يَأتِ بِهِ عَلَىٰ وَجهِ الكَمَالِ المَطْلُوبِ»[1].

وَالتَّوحِيدُ شَرْعًا: إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَا يَختَصُّ بِهِ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ وَالأسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فَينقَسِمُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، وَتَوحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَدِ اجتَمَعَتْ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم:٦٥].

وَتفرُّدُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالرُّبُوبِيَّةِ: تَفَرُّدُهُ تَعَالَىٰ بِالخَلْقِ، وَالمُلْكِ، وَالتَّدْبِيرِ.

وَتَفَرُّدُهُ تَعَالَىٰ بِالأُلُوهِيَّةِ: تَفَرُّدُهُ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ بِالتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ، فَهُوَ إِفْرَادُهُ ﷻ بِالعِبَادَةِ، بِأَلَّا تَكُونَ عَبْدًا لِغَيرِهِ سُبحَانَهُ، لَا تَعْبُدُ مَلَكًا، وَلَا نَبِيًّا، وَلَا وَلِيًّا، وَلَا شَيخًا، وَلَا حَجَرًا، وَلَا شَجَرًا، لَا تَعبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ.

وَتَفَرُّدُهُ تَعَالَىٰ بِكَمَالِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: تَفَرُّدُهُ تَعَالَىٰ بِالأَسْمَاءِ الحُسنَىٰ وَالصِّفَاتِ المُثْلَىٰ، فَأَسْمَاؤُهُ سُبحَانَهُ وَصِفَاتُهُ كَامِلَةٌ لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجهٍ مِنَ

---

(١) «تيسيرُ العَزيزِ الحَميدِ» (١/ ١٣٨).

الوجُوهِ، لَا احتِمَالًا وَلَا تَقْدِيرًا، فَلَا تَحتَمِلُ النَّقْصَ؛ لَا مِنْ حَيثُ الاحتِمَالُ اللَّفْظِيُّ، وَلَا مِنْ حَيثُ التَّقْدِيرُ الذِّهْنِيُّ.

وَلَا يَتِمُّ إِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ بِمَا لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِلَّا بِالنَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ؛ بِنَفْيِ المُمَاثَلَةِ، وَذَلِكَ بِأَلَّا تَجْعَلَ للهِ مَثِيلًا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَبِإِثْبَاتِ جَمِيعِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي أَثبَتَهَا لِنَفسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

* * *

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَوضُوعَ عِلْمِ التَّوحِيدِ؛ فَقَالَ: «وَعِلْمُ التَّوحِيدِ يَبْحَثُ عَمَّا يَجِبُ للهِ مِنْ صِفَاتِ الجَلَالِ وَالكَمَالِ، وَمَا يَستَحِيلُ عَلَيهِ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمَا يَجُوزُ مِنَ الأَفْعَالِ، وَعَمَّا يَجِبُ لِلرُّسُلِ وَالأنبِيَاءِ، وَمَا يَستَحِيلُ عَلَيهِمْ، وَمَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الإيمَانِ بِالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، وَالمَلَائِكَةِ الأَطْهَارِ، وَيَومِ البَعْثِ وَالجَزَاءِ، وَالقَدَرِ وَالقَضَاءِ».

الشَّرْحُ

مَا ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هِيَ أَرْكَانُ الإيمَانِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ لِجِبرِيلَ عِنْدَمَا سَأَلَهُ: «أَخبِرْنِي عَنِ الإيمَانِ؟

فَقَالَ: أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

قَالَ الإِمَامُ مُحمَّدُ بنُ نَصرٍ المَرْوَزِيُّ: «الإيمَانُ: أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ؛ بِأَنْ تُوَحِّدَهُ وَتُصَدِّقَ بِهِ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَتَخْضَعَ لَهُ وَلِأَمْرِهِ بِإِعْطَاءِ العَزْمِ لِلأَدَاءِ لِمَا أَمَرَ، مُجَانِبًا لِلاستِنْكَافِ وَالاستِكبَارِ، وَالمُعَانَدَةِ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لَزِمْتَ مَحَابَّهُ، وَاجْتَنَبْتَ مَسَاخِطَهُ.

وَأَمَّا قَولُهُ: «وَمَلَائِكَتِهِ»: فَأَنْ تُؤمِنَ بِمَنْ سَمَّىٰ اللهُ لَكَ مِنْهُمْ فِي كِتَابِهِ، وَتُؤمِنَ

---

(١) رَوَاهُ مُسلِمٌ (٨) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، وَهُوَ جُزءٌ مِنْ حَدِيثِ جِبْرِيلَ المَشْهُورِ.

بِأَنَّ للهِ مَلَائِكَةً سِوَاهُم، لَا يَعرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَعَدَدَهُمْ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُمْ.

وَأَمَّا قَولُهُ: «**وَكُتُبِهِ**»: فَأَنْ تُؤمِنَ بِمَا سَمَّىٰ اللهُ لَكَ مِنْ كُتُبِهِ مِنَ التَّورَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالزَّبُورِ خَاصَّةً، وتُؤمِنَ بِأَنَّ للهِ سِوَىٰ ذَلِكَ كُتُبًا أَنزلَهَا عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ، لَا يَعرِفُ أَسْمَاءَهَا وَعَدَدَهَا إِلَّا الَّذِي أَنْزَلَهَا، وَتُؤمِنَ بِالفُرقَانِ، وَإيمَانُكَ بِهِ غَيرُ إِيمَانِكَ بِسَائِرِ الكُتُبِ، إِيمَانُكَ بِغَيرِهِ مِنَ الكُتُبِ إِقْرَارُكَ بِهِ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَإِيمَانُكَ بِالفُرْقَانِ إِقْرَارُكَ بِهِ، وَاتِّبَاعُكَ مَا فِيهِ.

وَأَمَّا قَولُهُ: «**وَرُسُلِهِ**»: فَأَنْ تُؤمِنَ بِمَنْ سَمَّىٰ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ رُسُلِهِ، وَتُؤمِنَ بِأَنَّ للهِ سِوَاهُمْ رُسُلًا وَأَنْبِيَاءَ لَا يَعْلَمُ أَسْمَاءَهُم إِلَّا الَّذِي أَرْسَلَهُمْ، وَتُؤمِنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِيمَانُكَ بِهِ غَيرُ إِيمَانِكَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ، وَإِيمَانُكَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ إِقْرَارُكَ بِهِمْ، وَإِيمَانُكَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِقْرَارُكَ بِهِ، وَتَصْدِيقُكَ إِيَّاهُ، وَاتِّبَاعُكَ مَا جَاءَ بِهِ، فَإِنِ اتَّبَعْتَ مَا جَاءَ بِهِ؛ أَدَّيتَ الفَرَائِضَ، وَأَحْلَلْتَ الحَلَالَ، وَحَرَّمْتَ الحَرَامَ، وَوَقَفْتَ عِندَ الشُّبُهَاتِ، وَسَارَعْتَ فِي الخَيرَاتِ.

وَأَمَّا قَولُهُ: «**وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**»: فَأَنْ تُؤمِنَ بِأَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَا تَقُلْ: لَولَا كَذَا وَكَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا لَمْ يَكُنْ كَذَا وَكَذَا.

فَهَذَا هُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

---

(١) «تَعظِيمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ» (ص٢٢٥).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعِلْمُ التَّوحِيدِ يَبْحَثُ عَمَّا يَجِبُ للهِ تَعَالَىٰ مِنْ صِفَاتِ الجَلَالِ وَالكَمَالِ، وَمَا يَستَحِيلُ عَلَيهِ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمَا يَجُوزُ مِنَ الأَفْعَالِ».

الشَّرْحُ

فَيَجِبُ للهِ تَعَالَىٰ -إِجْمَالًا- كُلُّ كَمَالٍ يَلِيقُ بِهِ، وَكَمَالَاتُهُ تَعَالَىٰ لَا تَتَنَاهَىٰ.

وَيَجِبُ للهِ تَعَالَىٰ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ، وَكُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، كَالحَيَاةِ وَالعِلْمِ، وَالقُدْرَةِ، وَالاسْتِوَاءِ عَلَىٰ العَرْشِ، وَالنُّزُولِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا فِي الثُّلثِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيلِ، وَالوَجهِ، وَاليَدَينِ، وَالعَينَينِ، وَنَحوِ ذَلِكَ.

فَيَجِبُ إِثْبَاتُهَا للهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً عَلَىٰ الوَجهِ اللَّائِقِ بِهِ؛ فَهُوَ سُبحَانَهُ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ الَّتِي تَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ تَعَالَىٰ، الوَارِدَةِ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ وَالسُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ.

وَيَستَحِيلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ -إِجْمَالًا- كُلُّ نَقْصٍ وَعَيبٍ، فَهُوَ تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ هَذَا.

وَيَجِبُ أَنْ نَنْفِيَ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ كُلَّ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّهَا صِفَاتُ نَقْصٍ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ؛ كَالمَوتِ، وَالنَّومِ،

وَالجَهلِ، وَالنِّسْيَانِ، وَالعَجْزِ، وَالتَّعَبِ.

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ السَّلْبِيَّةُ يَجِبُ نَفْيُهَا عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَيسَ الوَاجِبُ مُجَرَّدَ نَفْيِهَا، بَلْ يَجِبُ نَفْيُهَا مَعَ اعتِقَادِ ضِدِّهَا، وَلَيسَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ نَفْيٌ مَحْضٌ، فَإِنَّ النَّفْيَ المَحْضَ لَا مَدْحَ فِيهِ.

وَإِنَّمَا المُرَادُ بِكُلِّ نَفْيٍ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: إِثْبَاتُ مَا يُضَادُّهُ مِنَ الكَمَالِ؛ فَنَفْيُ الشَّرِيكِ وَالنِّدِّ لإِثْبَاتِ كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَنَفْيُ العَجْزِ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ القُدْرَةِ، وَنَفْيُ الظُّلْمِ لِإِثْبَاتِ كَمَالِ العَدْلِ، وَنَفْيُ النَّومِ لإِثْبَاتِ كَمَالِ الحَيَاةِ وَالقَيُّومِيَّةِ...

وَلِهَذَا يَأْتِي النَّفيُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُجْمَلًا فِي أَكثَرِ أَحْوَالِهِ؛ بِخِلَافِ الإِثْبَاتِ، فَإِنَّ التَّفصِيلَ فِيهِ أَكثَرُ مِنَ الإجْمَالِ؛ لأَنَّهُ مَقْصُودٌ لِذَاتِهِ.

وَالأَصْلُ فِي بَابِ التَّوحِيدِ فِي الصِّفَاتِ: أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ؛ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، فَيُثْبَتُ للهِ تَعَالَىٰ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَيُنفَىٰ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفسِهِ.

وَطَرِيقَةُ السَّلَفِ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ المَخْلُوقَاتِ، إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ، وَتَنزِيهًا بِلَا تعطِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾. رَدٌّ لِلتَّشبِيهِ وَالتَّمثِيلِ.

وَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. رَدٌّ لِلإِلْحَادِ وَالتَّعطِيلِ.

وَقَولُ المُصَنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا يَجُوزُ مِنَ الأفْعَالِ».



الشَّرْحُ

فَالجَائِزُ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ فِعْلُ كُلِّ مُمْكِنٍ أَوْ تَركُهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُتَفَضِّلٌ بِالخَلْقِ، وَالإنْعَامِ وَالإحْسَانِ وَالتَّكْلِيفِ، لَا عَنْ وجُوبٍ وَلَا عَنْ إيجَابٍ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَصَرَّفُ فِي المُمْكِنَاتِ كَمَا يَشَاءُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ حِكمَتِهِ وَعِلْمِهِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَقضِي بِمَا يُرِيدُ، لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

قَالَ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَبَعْدُ فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ العِلْمِ	كَالفَرْعِ لِلتَّوحِيدِ فَاسْمَعْ نَظْمِي
لأنَّهُ العِلْمُ الَّذِي لَا يَنبَغِي	لِعَاقِلٍ لِفَهْمِهِ لَمْ يَبْتَغِ
فَيَعْلَمُ الوَاجِبَ وَالمُحَالَا	كَجَائِزٍ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ

قَالَ الشَّيخُ العُثَيمِين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قَولُهُ: فَيعْلَمُ؛ يَعنِي: مِنْ جُملَةِ عِلْمِ التَّوحِيدِ أَنَّهُ بِهِ يَعْلَمُ الوَاجِبَ وَالمُحَالَ وَالجَائِزَ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ؛ يَعْلَمُ الوَاجِبَ فِي حَقِّ اللهِ، وَيَعْلَمُ المُستَحِيلَ فِي حَقِّ اللهِ، وَيَعْلَمُ الجَائِزَ فِي حَقِّ اللهِ، فالأقسام ثلاثة.

---

(١) «شَرح السَّفَّارِينِيَّةِ» (ص٧١).

وَيُقَالُ لِلوَاجِبِ أحيَانًا: اللَّازِمُ.

وَيُقَالُ لِلمُحَالِ أحْيَانًا: المَمْنُوعُ.

وَيُقَالُ لِلجَائِزِ: المُمْكِن.

وَالمَدَارُ عَلَىٰ المَعنَىٰ.

فَمَا هُوَ الوَاجِبُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ؟

الوَاجِبُ فِي حَقِّهِ: مَا لَا يُتَصَوَّرُ عَدَمُهُ بِالنِّسْبَةِ إلَيهِ.

فَكُلُّ شَيءٍ لَا يُتَصَوَّرُ عَدمُهُ بِالنِّسْبَةِ للهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

فَمَثَلًا: الحَيَاةُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالعِلمُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالقُدْرَةُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالقُوَّةُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالأَمْثِلَةُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

فَكُلُّ مَا لَا يُتَصَوَّرُ عَدَمُهُ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَالمُسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ: كُلُّ مَا لَا يُتَصَوَّرُ وجُودُهُ.

مِثْلُ: المَوتِ، وَالعَجْزِ، وَالضَّعْفِ، وَالجَهْلِ، وَالنِّسْيَانِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللهِ ﷻ.

إذَنْ؛ مَا هُوَ الضَّابِطُ فِي الأَوَّلِ وَالثَّانِي؟

الضَّابِطُ: كُلُّ كَمَالٍ فَهُوَ مِنَ الوَاجِبِ، وَكُلُّ نَقْصٍ فَهُوَ مِنَ المُمْتَنِعِ فِي حَقِّ اللهِ ﷻ.

وَأَمَّا الجَائِزُ فَهُوَ: مَا جَازَ وجُودُهُ وَعَدَمُهُ بِالنِّسْبَةِ لِلخَالِقِ.

مِثْلُ: النُّزُولِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا، وَالاستِوَاءِ عَلَىٰ العَرْشِ، وَخَلْقِ شَيءٍ مُعَينٍ، مِثْلُ: خَلْقِ الذُّبَابِ مَثَلًا، أَوْ خَلْقِ السَّموَاتِ، أَوَ خَلْقِ الأَرْضِ، هَذَا مِنَ الأُمُورِ الجَائِزَةِ؛ لأَنَّهُ يَجُوزُ أَلَّا يَخْلُقَ اللهُ هَذَا الشَّيءَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُ، وَلَوْ لَمْ يَخْلُقْهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَقْصًا، وَلَوْ خَلَقَهُ لَمْ يَكُنْ نَقْصًا.

فَإذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ إثبَاتَ الجَائِزِ مَمْنُوعٌ؛ لأَنَّهُ إنْ كَانَ وجُودُهُ كَمَالًا كَانَ عَدَمُهُ نَقْصًا، وَإِنْ كَانَ عَدَمُهُ كَمَالًا كَانَ وجُودُهُ نَقْصًا؛ فَلَا يُتَصَوَّرُ شَيءٌ جَائِزٌ فِي حَقِّ اللهِ، وَحِينَئِذٍ فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ إِمَّا مَوْجُودًا فَيَكُونُ مِنَ الوَاجِبِ، أَوْ مَعْدُومًا فَيَكُونُ مِنَ المُسْتَحِيلِ.

فَالجَوَابُ: أَنْ نَقُولَ: هُوَ كَمَالٌ فِي حَالِ وجُودِهِ، نَقْصٌ فِي حَالِ عَدَمِهِ إنْ كَانَ مِنَ المَوجُودَاتِ، أَوْ هُوَ كَمَالٌ فِي حَالِ عَدَمِهِ نَقْصٌ فِي حَالِ وجُودِهِ.

فَمَثَلًا: إذَا اقتَضَتِ الحِكْمَةُ أَنْ يُوجَدَ هَذَا الشَّيءُ فَوُجِدَ؛ صَارَ كَمَالًا، وَوجُودُهُ قَبلَ اقتِضَاءِ الحِكْمَةِ وجُودَهُ نَقصٌ، وَإِذَا اقتَضَتِ الحِكمَةُ عَدَمَهَ كَانَ وُجُودُهُ نَقْصًا، وَوُجُودُهُ فِي حَالِ اقتِضَاءِ الحِكمَةِ عَدَمَهُ نَقصٌ.

فَإِذَنْ؛ بِهَذَا يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إنَّ هُنَاكَ شَيئًا جَائِزًا فِي حَقِّ اللهِ، وَيَكُونُ وُجُودُهُ فِي حَالِ اقتِضَاءِ الحِكمَةِ وُجُودَهُ كَمَالًا، وَيَكُونُ عَدَمُهُ فِي حَالِ اقتِضَاءِ الحِكْمَةِ عَدَمَهُ كَمَالًا.

مِثَالُ ذَلِكَ: نُزُولُ اللهِ ﷻ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا حِينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ فِي هَذِهِ الحَالِ كَمَالٌ، وَفِي غَيرِ هَذِهِ الحَالِ لَا يَكُونُ كَمَالًا؛ لأَنَّ اللهَ اقتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَكُونَ النُّزُولُ فِي هَذَا الوَقْتِ فَقَطْ، وَلَو اقتَضَت حِكْمَتُهُ أَنْ يَكُونَ النُّزُولُ فِي غَيرِ هَذَا الوَقْتِ وَلَمْ يَنزِلْ كَانَ عَدَمُ النُّزُولِ نَقْصًا، وَهَذَا شَيءٌ مُستَحِيلٌ فِي حَقِّ اللهِ ﷻ ». اهـ

قَالَ السَّفَّارِينيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «لَوَامِعِ الأَنْوَارِ البَهِيَّةِ» (١/ ٥٨)، بَعْدَ أَنْ شَرَحَ الوَاجِبَ وَالمُستَحِيلَ وَالجَائِزَ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ:** «وَمِثْلُ ذَلِكَ لِرُسُلِ اللهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِمْ أَجمَعِينَ-.

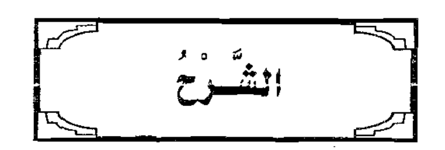
فَيَعرِفُ الوَاجِبَ فِي حَقِّهِمْ؛ مِنَ الصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ وَتَبلِيغِ مَا أُمِرُوا بِتَبلِيغِهِ.

وَالمُستَحِيلَ فِي حَقِّهِم؛ مِنَ الكَذِبِ وَالخِيَانَةِ وَكَتْمِ شَيءٍ مِمَّا أُمِرُوا بِإِبْلَاغِهِ.

وَالجَائِزَ فِي حَقِّهِم؛ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّربِ وَالنَّومِ وَالنِّكَاحِ، وَالأَمْرَاضِ غَيرِ المُزْرِيَةِ بِمَنَاصِبِهِم العَالِيَةِ».

* * *

قَالَ العَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعِلْمُ التَّوحِيدِ يُبْحَثُ فِيهِ عَمَّا يَجِبُ لِلرُّسُلِ وَالأنبِيَاءِ، وَمَا يَستَحِيلُ عَلَيهِمْ، وَمَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِم».



وَيَجِبُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِم أجمَعين-: الصِّدْقُ، فَمَا كَذَبَ نَبيٌّ قَطُّ، بَلْ هُم مُبَرَّءُونَ مِنَ الكَذِبِ، مُلتَزِمُونَ بِالصِّدْقِ فِي كُلِّ الأقوَالِ وَلَو عَادِيَّةً.

وَمَا جَاءَ عَنْ إبرَاهِيمَ ﷺ مِنْ أَنَّهُ كَذَبَ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ فِي اللهِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَين[١]، فَهِيَ كَذِبَاتُ تورِيَةٍ، وَالتَّورِيَةُ لَيسَتْ كَذِبًا فِي الوَاقِعِ؛ لأَنَّ المَعنَىٰ البَاطِنَ مِنهَا حَقِيقِيٌّ مُطَابِقٌ لِلوَاقِعِ.

فَالرُّسُلُ وَالأنبِيَاءُ مَوصُوفُونَ بِالصِّدْقِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِم وَسَلَّمَ-، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ شَهِدَ لَهُمْ.

وَيَجِبُ فِي حَقِّهِم: الأَمَانَةُ؛ فَلَا يَخُونُ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ لَا بِالقَولِ وَلَا بِالفِعْلِ، حَتَّىٰ إنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنِعَ مِنَ الإشَارَةِ بِالعَينِ، وَقَالَ ﷺ فِي ذَلِكَ: «إنَّه لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٧٨)، وانظر: السلسلة الصحيحة (١٧٢٣).

فَالرُّسُلُ يَجِبُ فِي حَقِّهِمُ الصِّدْقُ وَالأَمَانَةُ، وَيَستَحِيلُ فِي حَقِّهِم كُلُّ كَذِبٍ وَخِيَانَةٍ، وَالكَذِبُ وَالخِيَانَةُ يُنَافِيَانِ الرِّسَالَةَ مُنَافَاةً كَامِلَةً؛ إِذْ لَا ثِقَةَ بِقَولِ الخَائِنِ، وَلَا ثِقَةَ بِقَولِ الكَاذِبِ؛ لاحتِمَالِ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَهُ مِنَ الكَذِبِ الَّذِي يَكذِبُهُ، وَلاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ خَانَ، فَأَخبَرَ بِالأَمرِ عَلَىٰ غَيرِ وَجْهِهِ، وَلِذَلِكَ فَالرُّسُلُ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِم وَسَلَامُهُ- مُبَرَّءُونَ مِنَ الكَذِبِ وَالخِيَانَةِ.

وَيَجِبُ فِي حَقِّهِم تَبلِيغُ مَا أُمِرُوا بِتَبلِيغِهِ، فَلَا يَكتُمُونَ شَيئًا أُمِرُوا بِتَبلِيغِهِ إِلَىٰ الخَلْقِ -صَلَواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِم-.

وَيَجِبُ فِي حَقِّهِمُ الفَطَانَةُ، وَهِيَ مَلَكَةٌ يُقتَدَرُ بِهَا عَلَىٰ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَىٰ الخَصْمِ وَإِقنَاعِهِ بِالحَقِّ؛ لأَنَّ اللهَ اختَارَهُم لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَتَعلِيمِ الخَلْقِ، فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونُوا أَهْلًا لِذَلِكَ.

وَالفِطْنَةُ وَالفَطَانَةُ: قُوَّةُ استِعْدَادِ الذِّهْنِ لإِدْرَاكِ مَا يَرِدُ عَلَيهِ.

وَيَستَحِيلُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَضْدَادُ مَا وَجَبَ لَهُمْ مِنْ صِفَاتٍ، فَيَستَحِيلُ فِي حَقِّهِمُ الكَذِبُ، وَالخِيَانَةُ، وَالبَلَادَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الفَطَانَةِ، وَأَنْ يَكتُمُوا شَيئًا مِمَّا أُمِرُوا بِتَبلِيغِهِ لِلخَلْقِ.

وَالجَائِزُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ -صَلَواتُ اللهِ عَلَيهِم وَسَلَامُهُ- هِيَ الطَّبَائِعُ البَشَرِيَّةُ، فَيَجُوزُ فِي حَقِّهِم كُلُّ وَصْفٍ بَشَرِيٍّ لَا يُؤَدِّي إِلَىٰ نَقْصٍ فِي مَرَاتِبِهِمُ العَلِيَّةِ؛ كَالأَكْلِ وَالشُّربِ، وَالنَّومِ، وَالجُوعِ، وَالعَطَشِ، وَالجِمَاعِ الحَلَالِ، وَالمَرَضِ الَّذِي لَا يُنفِّرُ، وَالبَيعِ وَالشِّراءِ، وَالمَشْيِ فِي الأَسْوَاقِ، وَالتِّجَارَةِ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ بِالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، وَالمَلَائِكَةِ الأَطْهَارِ، وَيَوْمِ البَعْثِ وَالجَزَاءِ، وَالقَدَرِ وَالقَضَاءِ».



اسْتَوْفَى رَحِمَهُ اللَّهُ ذِكرَ أَرْكَانِ الإِيمَانِ السِّتَّةِ، وَهَذَا -بِحَولِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- شَرحٌ مُجْمَلٌ لَهَا:

الرُّكْنُ الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ هِيَ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بُوجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ وجُودِهِ تَعَالَىٰ: الفِطْرَةُ، وَالعَقْلُ، وَالشَّرعُ، وَالحِسُّ.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ؛ أي: بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الرَّبُّ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مُعِينَ.

وَالرَّبُّ: مَنْ لَهُ الخَلْقُ وَالمُلْكُ وَالأَمْرُ، فَلَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَلَا مَالِكَ إِلَّا هُوَ، وَلَا أَمْرَ إِلَّا لَه.

الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِأُلُوهِيَّتِهِ؛ أي: بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الإِلَهُ الحَقُّ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالإِلَهُ بِمَعنَىٰ: المَأْلُوه؛ أي: المَعبُود حُبًّا وَتَعظِيمًا.

الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ أي: إِثبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ، مِنْ غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَلَا تَكيِيفٍ وَلَا تَمثِيلٍ.

الرُّكْنُ الثَّانِي: الإيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ.

وَهُمْ عَالَمٌ غَيبِيٌّ عَابِدُونَ للهِ تَعَالَىٰ، وَلَيسَ لَهُمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالألُوهِيَّةِ شَيءٌ، خَلَقَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ نُورٍ، وَمَنَحَهُم الانقِيَادَ التَّامَّ لأَمْرِهِ، وَالقُوَّةَ عَلَىٰ تَنفِيذِهِ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ لَا يُحصِيهِم إلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

وَالإيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ يَتَضَمَّنُ أربَعَةَ أمُورٍ:

الأوَّلُ: الإيمَانُ بِوجُودِهِم.

الثَّانِي: الإيمَانُ بِمَنْ عَلِمنَا اسمَهُ مِنهُمْ بِاسمِهِ كَجِبرِيلَ، وَمَنْ لَمْ نَعْلَمِ اسْمَهُ نُؤمِنُ بِهِم إجمَالًا.

الثَّالِثُ: الإيمَانُ بِمَا عَلِمنَا مِنْ صِفَاتِهِم.

الرَّابِعُ: الإيمَانُ بِمَا عَلِمنَا مِنْ أعمَالِهِم الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا بِأمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ كَتَسبِيحِهِ، وَالتَّعَبُّدِ لَهُ لَيلًا وَنَهارًا، دُونَ مَلَلٍ أوْ فُتُورٍ.

وَقَدْ يَكُونُ لِبَعضِهِم أعمَالٌ خَاصَّةٌ، فَجِبرِيلُ: الأمِينُ عَلَىٰ وَحْيِ اللهِ تَعَالَىٰ، يُرْسِلُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ إلَىٰ الأنبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَمِيكَائِيلُ مُوكَّلٌ بِالقَطْرِ؛ أي: بِالمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، وَمَلَكُ المَوتِ مُوكَّلٌ بِقَبضِ الأرْوَاحِ عِندَ المَوتِ... وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ أعمَالِهِم.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: الإيمَانُ بِالكُتُبِ.

وَهُوَ الإيمَانُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أنْزَلَهَا عَلَىٰ رُسُلِهِ، وَأنَّهَا كَلَامُهُ، وَأنَّهَا حَقٌّ،

وَنُورٌ، وَهُدًى، وَالإِيمَانُ بِمَا سَمَّىٰ اللهُ مِنهَا؛ كَالتَّورَاةِ، وَالإنجِيلِ، وَالزَّبُورِ، وَالقُرآنِ، وَالإِيمَانُ بِمَا لَمْ يُسَمِّ مِنْهَا.

وَيَتَضَمَّنُ الإِيمَانُ بِالكُتُبِ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ نُزُولَهَا مِنْ عِندِ اللهِ حَقًّا.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَا عَلِمْنَا اسمَهُ مِنهَا، كَالقُرآنِ، وَالتَّورَاةِ، وَالإنجِيلِ، وَالزَّبُورِ.

الثَّالِثُ: تَصدِيقُ مَا صَحَّ مِنْ أَخبَارِهَا، كَأَخبَارِ القُرْآنِ، وَأَخبَارِ مَا لَمْ يُبَدَّلْ أَوْ يُحرَّفْ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ.

الرَّابِعُ: العَمَلُ بِأَحكَامِ مَا لَمْ يُنسَخْ مِنهَا، وَالرِّضَا وَالتَّسلِيمُ بِهِ، سَواءٌ فَهِمنَا حِكْمَتَهُ أَمْ لَمْ نَفْهَمْهَا.

الرُّكنُ الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِالرُّسُلِ.

وَهُوَ التَّصدِيقُ بِهِم جَمِيعًا، وَأَنَّهُم صَادِقُونَ فِيمَا أَخبَرُوا بِهِ، وَأَنَّهُم بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِم، لَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم، بَلْ نُؤمِنُ بِهِمْ جَمِيعًا، مَنْ سَمَّىٰ اللهُ مِنهُم فِي كِتَابِهِ، وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ مِنْهُم.

وَأَفْضَلُهُم أُولُو العَزْمِ، وَهُم: نُوحٌ، وإِبرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ، وَمُحَمَّدٌ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِم وَسَلَّمَ-، ثُمَّ بَقِيَّةُ الرُّسُلِ، ثُمَّ الأَنبِيَاءُ، وَأَفْضَلُ الجَمِيعِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَالأَدْيَانُ سِوَىٰ دَينِ الرَّسُولِ ﷺ كُلُّهَا مَنسُوخَةٌ، لَكِنَّ الإِيمَانَ بِالرُّسُلِ، وَأَنَّهُم حَقٌّ، هَذَا أَمْرٌ لَابُدَّ مِنْهُ.

وَيَتَضَمَّنُ الإِيمَانُ بِالرُّسُلِ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ رِسَالَتَهُم حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَمَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةِ وَاحِدٍ مِنْهُم فَقَدْ كَفَرَ بِالجَمِيعِ.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهُم بِاسْمِهِ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ نَعْلَمِ اسْمَهُ مِنْهُمْ فَنُؤْمِنُ بِهِ إِجْمَالًا.

الثَّالِثُ: تَصْدِيقُ مَا صَحَّ عَنْهُم مِنْ أَخْبَارِهِمْ.

الرَّابِعُ: العَمَلُ بِشَرِيعَةِ مِن أُرْسِلَ إِلَينَا مِنْهُم، وَهُوَ خَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

الرُّكْنُ الخَامِسُ: الإِيمَانُ بِاليَومِ الآخِرِ.

وَهُوَ يَومُ القِيَامَةِ الَّذِي يَبْعَثُ اللهُ فِيهِ النَّاسَ لِلحِسَابِ وَالجَزَاءِ، وسُمِّيَ بِاليَومِ الآخِرِ لأَنَّهُ لَا يَومَ بَعْدَهُ، حَيثُ يَستَقِرُّ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي دَرَجَاتِهِم، وَأَهْلُ النَّارِ فِي دَرَكَاتِهِم.

وَالإِيمَانُ بِهِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِالبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ المَوتَىٰ حِينَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ فَيقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً غَيرَ مُنْتَعِلِينَ، عُرَاةً غَيرَ مُستَتِرِينَ، غُرْلًا غَيرَ مُخْتَتنِينَ.

الثَّانِي: الإيمَانُ بِالحِسَابِ وَالجَزَاءِ، فَيُحَاسَبُ العَبْدُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَيُجَازَىٰ بِهِ.

الثَّالِثُ: الإيمَانُ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُمَا المَآلُ الأَبَدِيُّ لِلخَلْقِ.

وَالإِيمَانُ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ مَعْنَاهُ: التَّصْدِيقُ الجَازِمُ بِوجُودِهِمَا، وَأَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ الآنَ، وَأَنَّهُمَا بَاقِيَتَانِ بِإِبقَاءِ اللهِ لَهُمَا لَا تَفْنَيَانِ وَلَا تَبِيدَانِ أَبَدًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلُّ مَا احتَوَتْ عَلَيهِ هَذِهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَتِلْكَ مِنَ العَذَابِ، وَالجَنَّةُ دَارُ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلمُتَّقِين، فِيهَا مِن أَنْوَاعِ النَّعِيمِ مَا لَا عَينٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

وَالنَّارُ دَارُ العَذَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ العَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَىٰ البَالِ.

وَيَلْحَقُ بِالإِيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ: الإيمَانُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعدَ المَوتِ مِثل:

١- **فِتْنَةِ القَبْرِ**: وَهِيَ سُؤَالُ المَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ، فَيَقُولُ الكَافِرُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، وَيَقُولُ المُنَافِقُ أَوِ المُرْتَابُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئًا فَقُلْتُهُ.

٢- عَذَاب القَبْرِ وَنَعِيمه:

قَالَ شَارِحُ الطَّحَاوِيَّةِ (ص٤٥٠): «وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ المَلَكَيْنِ، فَيَجِبُ اعتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ، وَالإِيمَانُ بِهِ، وَلَا نَتَكَلَّمُ فِي كَيفِيَّتِهِ؛ إِذْ لَيسَ لِلعَقْلِ وقُوفٌ عَلَىٰ كَيفِيَّتِهِ، لِكَونِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يَأتِي بِمَا تُحِيلُهُ العُقُولُ، بَلْ إِنَّ الشَّرْعَ قَدْ يَأتِي بِمَا تَحَارُ فِيهِ العُقُولُ، فَإِنَّ عَوْدَةَ الرُّوحِ إِلَىٰ الجَسَدِ لَيسَ عَلَىٰ الوَجْهِ المَعْهُودِ فِي الدُّنيَا، بَلْ تُعَادُ إِلَيهِ إِعَادَةً غَيرَ الإِعَادَةِ المَأْلُوفَةِ فِي الدُّنيَا».

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (ص٤٥١): «وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ القَبْرِ هُوَ عَذَابُ البَرْزَخِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُستَحِقٌّ لِلعَذَابِ نَالَهُ نَصِيبُهُ مِنهُ، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حَتَّىٰ صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ أَو غَرِقَ فِي البَحْرِ، وَصَلَ إِلَىٰ رُوحِهِ وَبَدَنِهِ مَا يَصِلُ إِلَىٰ المَقْبُورِ، وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِهِ وَاختِلَافِ أَضْلَاعِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُهُ مِنْ غَيرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقصِيرٍ».

الرُّكْنُ السَّادِسُ: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ.

وَالقَدَرُ: تَقْدِيرُ اللهِ تَعَالَىٰ لِلكَائِنَاتِ حَسْبَمَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وَاقتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ.

وَالإيمَانُ بِالقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ كُلَّ شَيءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا أَزَلًا وَأَبَدًا، سَواءٌ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأفعَالِهِ، أَوْ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ، فَعِلمُ اللهِ تَعَالَىٰ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ، لَا يَعزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَواتِ وَلَا فِي الأَرْضِ، وَهُوَ تَعَالَىٰ قَدْ عَلِمَ جَمِيعَ خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَعَلِمَ أَرْزَاقَهِمْ، وَآجَالَهُمْ، وَأَقْوالَهُمْ، وَأَعْمَالَهُم، وَجمِيعَ حَرَكَاتِهِم وَسَكَنَاتِهِمْ، وَأَسْرَارِهِم وَعَلَانِيَاتِهِمْ، وَمَنْ هُوَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

الثَّانِي: الإيمَانُ بِكِتَابَةِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ كَتَبَ جَمِيعَ مَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ الإيمَانُ بِاللَّوحِ وَالقَلَمِ.

الثَّالِثُ: الإيمَانُ بِمَشِيئَةِ اللهِ النَّافِذَةِ، وَقُدْرَتِهِ الشَّامِلَةِ، وَهُمَا مُتَلَازِمَتَانِ مِنْ جِهَةِ مَا كَانَ وَمَا سَيكُونُ، وَلَا مُلَازَمَةَ بَينَهُمَا مِنْ جِهَةِ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَا هُوَ كَائِنٌ، فَمَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ فَهُوَ كَائِنٌ بِقُدْرَتِهِ لَا مَحَالَةَ، وَمَا لَمْ يَشَأِ اللهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَكُنْ لِعَدَمِ مَشِيئَةِ اللهِ إِيَّاهُ، لَا لِعَدَمِ قُدْرَةِ اللهِ عَلَيهِ -تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَزَّ وَجَلَّ-.

الرَّابِعُ: الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا فِيمَا بَينَهُمَا إِلَّا وَاللهُ خَالِقُهَا، وَخَالِقُ حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا، سُبْحَانَهُ لَا خَالِقَ غَيرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالإيمَانُ بِالقَدَرِ لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ لِلعَبْدِ مَشِيئَةٌ فِي أَفْعَالِهِ الاخْتِيَارِيَّةِ وَقُدْرَةٌ عَلَيهَا، لأَنَّ الشَّرْعَ وَالوَاقِعَ دَالَّانِ عَلَىٰ إِثْبَاتِ ذَلِكَ لَهُ.

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي المَشِيئَةِ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٣٩].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وَقَالَ فِي القُدرَةِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن:١٦].

وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وَأَمَّا الوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ مَشِيئَةً وَقُدْرَةً بِهِمَا يفْعَلُ وَبِهِمَا يَتْرُكُ، وَيُفَرِّقُ بينَ مَا يقَعُ بِإِرَادَتِهِ كَالمَشْي، وَمَا يقَعُ بِغَيرِ إِرَادَتِهِ كَالارْتِعَاشِ، لَكِنَّ مَشِيئَةَ العَبدِ وَقُدْرَتَهُ وَاقِعَتَانِ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقُدْرَتِهِ؛ لِقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وَلأَنَّ الكَونَ كُلَّهُ مِلْكٌ للهِ تَعَالَىٰ؛ فَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ شَيءٌ بِدُونِ عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَإِيمَانُ العَبْدِ بِالقَدَرِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ يُورِثُ الاعتِمَادَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَ فِعْلِ الأَسْبَابِ، بَحَيثُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَىٰ السَّبَبِ نَفْسِهِ؛ لأَنَّ كُلَّ شَيءٍ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَيَحْمِي العَبْدَ مِنَ العُجْبِ عِنْدَ حُصُولِ مُرَادِهِ؛ لأَنَّ حُصُولَ مُرَادِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أَسبَابِ الخَيرِ وَالنَّجَاحِ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ يُنسِيهِ شُكْرَ النِّعْمَةِ.

وَيُورِثُ الإيمَانُ بِالقَدَرِ طُمَأنِينَةَ القَلْبِ، وَرَاحَةَ النَّفْسِ بِمَا يَجْرِي عَلَيهِ مِنْ أقدَارِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلَا يَقْلَقُ بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ أوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ؛ لأنَّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وَقَالَ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ صُهَيبٌ رضي الله عنه: «عَجَبًا لأمْرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَاكَ لأحَدٍ إلَّا لِلمُؤمِنِ، إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيرًا لَهُ»[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَفَائِدَتُهُ: تَصْحِيحُ العَقِيدَةِ، وَالسَّلَامَةُ فِي العَوَاقِبِ، وَنَيلُ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَينِ».

الشَّرْحُ

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي إِيجَازٍ بَدِيعٍ ثَمَرَةَ عِلْمِ التَّوحِيدِ وَفَائِدَتَهُ، فَجَمَعَ أَطْرَافَ ذَلِكَ مِنْ غَيرِ إِخْلَالٍ وَلَا تَطْوِيلٍ.

وَإِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالتَّوحِيدِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّركِ أَوَّلُ الوَاجِبَاتِ، وَأَوْجَبُ التَّكْلِيفَاتِ، وَأَفرَضُ الفَرَائِضِ.

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ فِي «شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ» (١/ ٥٩): «اعْلَمْ أَنَّ التَّوحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَىٰ اللهِ عَجَّلَ ... وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَىٰ المُكَلَّفِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لَا النَّظَرُ، وَلَا القَصْدُ إِلَىٰ النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لأَرْبَابِ الكَلَامِ المَذْمُومِ». اهـ

وَالَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ هُوَ النَّظَرُ، هُمُ الأَشَاعِرَةُ، ذَكَرَ ذَلِكَ البَاقَلَّانِيُّ فِي «الإِنْصَافِ» (ص٢٢).

وَالَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ القَصْدُ إِلَىٰ النَّظَرِ، هُم: الجُوَينِيُّ وَمَنْ أَخَذَ بِقَولِهِ، ذَكَرَهُ فِي «الإِرْشَادِ» (ص٣).

وَأَمَّا القَولُ بِأَنَّهُ: الشَّكُّ، فَهُوَ مَذْهَبُ المُعتَزِلَةِ، كَمَا قَرَّرَهُ القَاضِي عَبْدُ الجَبَّارِ فِي «الأُصُولِ الخَمْسَةِ».

وَأَرْبَابُ الكَلَامِ المَذْمُومِ ذَهَبُوا إِلَىٰ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ كَسْبِيَّةٌ نَظَرِيَّةٌ، فَأَوْجَبُوا النَّظَرَ، أَوِ القَصْدَ إِلَيهِ، أَوِ الشَّكَّ عَلَىٰ اختِلَافِ فِرَقِهِم.

وَهَذَا كُلُّهُ مُخَالِفٌ لِمَا دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ، مِنْ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَىٰ العَبِيدِ عِبَادَةُ اللهِ، وَأَنَّ مَعرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ حَاصِلَةٌ ضَرُورَةً فِي كُلِّ إِنسَانٍ بِفِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيهَا.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «دَرْءِ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» (٨/ ٥٣٨): «فَإِنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ مُؤمِنَهُم وَكَافِرَهُم يَلجَئُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ حَالَةَ الشِّدَّةِ وَالكَرْبِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُم عَلَىٰ اختِلَافِ أَدْيَانِهِمْ مَفْطُورُونَ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَالإِقْرَارِ بِهِ».

وَقَدْ يُصِيبُ الفِطْرَةَ مَا يَحْرِفُهَا عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، فَتَحتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَىٰ النَّظَرِ، وَلَكِنَّ الأَصْلَ أَنَّ مَعرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ ضَرُورِيَّةٌ.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الرَّسَائِلِ الكُبْرَىٰ» (٢/ ٣٤١): «الصَّحِيحُ أَنَّهَا فِطْرِيَّةٌ -يَعنِي: مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ- وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلفِطْرَةِ مَا يُفْسِدُهَا؛ فَتَحتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَىٰ النَّظَرِ، فَهِيَ فِي الأَصْلِ ضَرُورِيَّةٌ، وَقَدْ تَكُونُ نَظَرِيَّةً».

وَقَدْ ذَهَبَ عَامَّةُ السَّلَفِ إِلَىٰ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ فِطْرِيَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ، وَذَهَبَ جُمْهُورُ المُتَكَلِّمِينَ مِنَ المُعتَزِلَةِ، وَمَنْ تَبِعَهُم مِنَ الشِّيعَةِ الإِمَامِيَّةِ، وَالزَّيدِيَّةِ، وَالأَشَاعِرَةِ، وَالمَاتُرِيدِيَّةِ، إِلَىٰ أَنَّهَا كَسْبِيَّةٌ نَظَرِيَّةٌ.

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ»** (١/ ٦٠): «أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤمَرُ بِهِ العَبْدُ الشَّهَادَتَانِ».

فَالتَّوحِيدُ أَوَّلُ مَا يُدْخَلُ بِهِ فِي الإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يُخرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنيَا، فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ، وَآخِرُ وَاجِبٍ.

قَالَ الشَّيخُ حَافِظ حَكمِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «سُلَّمِ الوصُولِ»:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ العَبِيدِ ... مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوحِيدِ

إِذْ هُوَ مِنْ كُلِّ الأَوَامِرِ أَعْظَمُ ... وَهْوَ نَوعَانِ أَيَا مَن يَفْهَمُ

قَالَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «مَعَارِجِ القَبُولِ»** (ص٧٥): «وَهُوَ -أي: التَّوحِيدُ- نَوعَانِ:

الأَوَّلُ: التَّوحِيدُ العِلْمِيُّ الخَبَرِيُّ الاعتِقَادِيُّ المُتَضَمِّنُ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الكَمَالِ للهِ ﷻ، وَتَنْزِيهَهُ فِيهَا عَنِ التَّشْبِيهِ، وَالتَّمثِيلِ، وَتَنزِيهَهُ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ، وَهُوَ تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَالثَّانِي: التَّوحِيدُ الطَّلَبِيُّ القَصْدِيُّ الإِرَادِيُّ؛ وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَجرِيدُ مَحَبَّتِهِ، وَالإِخْلَاصُ لَهُ، وَخَوفُهُ ورَجَاؤُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيهِ،

وَالرِّضَا بِهِ رَبًّا وَإِلَهًا وَوَلِيًّا، وَأَلَّا تَجْعَلَ لَهُ عِدْلًا فِي شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، وَهُوَ تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ.

وَالقُرْآنُ كُلُّهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ فِي تَقْرِيرِ هَذَينِ التَّوحِيدَينِ؛ لأَنَّهُ إِمَّا خَبرٌ عَنِ اللهِ ﷻ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُنَزَّهَ عَنْهُ، وَهُوَ التَّوحِيدُ العِلْمِيُّ الخَبَرِيُّ الاعتِقَادِيُّ، وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ؛ فَهُوَ التَّوحِيدُ الطَّلَبِيُّ الإِرَادِيُّ.

وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ، فَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التَّوحِيدِ وَمُكَمِّلَاتِهِ.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لأَهْلِ التَّوحِيدِ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنيَا مِنَ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ، وَمَا يُكرِمُهُم بِهِ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ جَزَاءُ تَوحِيدِهِ.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَفْعَلُ بِهِمْ فِي العُقْبَىٰ مِنَ العَذَابِ، فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ تَوحِيدِهِ.

فَالقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِم». اهـ

وَلَمَّا كَانَ العِلْمُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ مَعْلُومِهِ، وَالمُتَعَلِّقُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ مُتَعَلَّقِهِ، وَكَانَ التَّوحِيدُ مُتَعَلِّقًا بِأَشْرَفِ ذَاتٍ، وَأَكْمَلِ مَوصُوفٍ، بِاللهِ الحَيِّ القَيُّومِ، الَّذِي لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، المُتَفَرِّدُ بِنُعُوتِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ وَالكَمَالِ، وَبِالعِزَّةِ وَالعَظَمَةِ، وَالكِبرِيَاءِ -كَانَ التَّوحِيدُ أَشْرَفَ العُلُومِ مَوضُوعًا وَمَعْلُومًا، وَلَا عَجَبَ أَنْ سَمَّاهُ بَعْضُ السَّلَفِ: الفِقْهَ الأَكْبَرَ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوحِيدُ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، أَوْ بِتَعرِيفٍ أَعَمَّ: هُوَ إِفْرَادُ اللهِ ﷻ بِمَا يَخْتَصُّ بِهِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ: الشِّركُ، وَهُوَ أَعْظَمُ ذَنْبٍ عُصِيَ بِهِ اللهُ ﷻ.

وَالتَّوحِيدُ لأَجْلِهِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الكُتُبَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وَلأَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ الجِنَّ وَالإِنْسَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وَأَشْرَفُ الأَعْمَالِ وَأَفْضَلُهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ: تَحقِيقُ التَّوحِيدِ؛ فَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: **إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**»[1].

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالتَّوحِيدِ كُلَّ مُكَلَّفٍ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ التَّوحِيدِ، وَمَدَحَ مَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيهِ، وَوَعَدَهُم أَجرًا عَظِيمًا، وَثَوَابًا جَزِيلًا.

وَعَقِيدَةُ التَّوحِيدِ هِيَ الحَقُّ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ بِهِ الكُتُبَ، وَهِيَ حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ، قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ: أَنْ يَعبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا**»[2].

وَالعِبَادَةُ لَا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّىٰ صَلَاةً

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٩)، ومسلم (٨٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) مِن رِوَايَةِ مُعَاذٍ رضي الله عنه.

إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ أَفْسَدَهَا، كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ»** (١/ ٦٠): «إِنَّ الشِّرْكَ لَمَّا كَانَ أَظْلَمَ الظُّلْمِ، وَأَقْبَحَ القَبَائِحِ، وَأَنْكَرَ المُنْكَرَاتِ، كَانَ أَبْغَضَ الأَشْيَاءِ إِلَىٰ اللهِ وَأَكرَهَهَا لَهُ، وَأَشَدَّ مَقْتًا لَدَيهِ، وَرَتَّبَ عَلَيهِ مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مَا لَمْ يُرَتِّبْهُ عَلَىٰ ذَنْبٍ سِوَاهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغفِرُهُ، وَأَنَّ أَهْلَهُ نَجِسٌ، وَمَنَعَهُمْ مِنْ قُرْبَانِ حَرَمِهِ، وَحَرَّم ذَبَائِحَهُم وَمَنَاكِحَهُم، وَقَطَعَ المُوَالَاةَ بَينَهُمْ وَبَينَ المُؤمِنِينَ، وَجَعَلَهُمْ أَعدَاءً لَهُ تَعَالَىٰ وَلِمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِلمُؤمِنِينَ، وَأَبَاحَ لأَهْلِ التَّوحِيدِ أَمْوَالَهُم وَنِسَاءَهُم وَأَبْنَاءَهُم؛ وَهَذَا لأَنَّ الشِّرْكَ هَضْمٌ لِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَنَقُّصٌ لِعَظَمَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَسُوءُ ظَنٍّ بِرَبِّ العَالَمِينَ». اهـ

وَيُوجِبُ هَذَا كُلُّهُ لِلعَبدِ شِدَّةَ الخَوفِ مِنَ الشِّركِ الَّذِي هَذَا شَأنُهُ عِندَ اللهِ، لأَنَّهُ أَقْبَحُ القُبْحِ وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ، وَتَنَقُّصٌ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَصَرْفُ خَالِصِ حَقِّهِ لِغَيرِهِ، وَعَدْلُ غَيرِهِ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

وَالشِّرْكُ مُنَاقِضٌ لِلمَقْصُودِ بِالخَلْقِ وَالأَمرِ، مُنَافٍ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَذَلِكَ غَايَةُ المُعَانَدَةِ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَالاستِكْبَارِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَالانْقِيَادِ لأَوَامِرِهِ، الَّذِي لَا صَلَاحَ لِلعَالَمِ إِلَّا بِذَلِكَ، فَمَتَىٰ خَلَا مِنْهُ خَرِبَ، وَقَامَتِ القِيَامَةُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي**

الأرْضِ: اللهُ اللهُ»(١).

وَالشِّرْكُ تَشبِيهٌ لِلمَخْلُوقِ بِالخَالِقِ تَعَالَىٰ، وَمُشَارَكَةٌ فِي خَصَائِصِ الإلَهِيَّةِ، مِنْ مُلْكِ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ، وَالعَطَاءِ وَالمَنْعِ، الَّذِي يُوجِبُ تَعَلُّقَ الدُّعَاءِ وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوكُّلِ وَأَنْوَاعِ العِبَادَةِ كُلِّهَا بِاللهِ وَحْدَهُ.

فَمَنْ عَلَّقَ ذَلِكَ بِمَخْلُوقٍ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِالخَالِقِ، وَجَعَلَ مَن لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، شَبِيهًا بِمَنْ لَهُ الحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَهُ الخَلْقُ كُلُّهُ، وَلَهُ المُلْكُ كُلُّه، وَإِلَيهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الخَيرُ كُلُّهُ.

فَأَزِمَّةُ الأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِهِ سُبحَانَهُ وَمَرْجِعُهَا إِلَيهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَىٰ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، الَّذِي إِذَا فَتَحَ لِلنَّاسِ رَحْمَةً فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

فَأَقْبَحُ التَّشْبِيهِ: تَشْبِيهُ العَاجِزِ الفَقِيرِ بِالذَّاتِ، بِالقَادِرِ الغَنِيِّ بِالذَّاتِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ: الكَمَالُ المُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الوجُوهِ، الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجهٍ مِنَ الوجُوهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ العِبَادَةُ كُلُّهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَالتَّعْظِيمُ وَالإِجْلَالُ، وَالخَشْيَةُ وَالدُّعَاءُ، وَالرَّجَاءُ، وَالإِنَابَةُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالتَّوبَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَغَايَةُ الحُبِّ مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ.

كُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ للهِ وَحْدَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَقْلًا

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨) من حديث أنس ﷺ.

وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لِغَيرِهِ، فَمَنْ فَعَلَ شَيئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيرِهِ، فَقَدْ شَبَّهَهُ بِمَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ التَّشْبِيهِ وَأَبْطَلُهُ.

فَلِهَذِهِ الأُمُورِ وَغَيرِهَا أَخبَرَ سُبحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَغفِرُهُ، مَعَ أَنَّهُ ﷻ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

وَحَاجَةُ العَبْدِ إِلَىٰ التَّوحِيدِ فَوقَ كُلِّ حَاجَةٍ، وَضَرُورَتُهُ إِلَيهِ فَوقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١٩/ ٩٦): «حَاجَةُ العَبْدِ إِلَىٰ الرِّسَالَةِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ حَاجَةِ المَرِيضِ إِلَىٰ الطِّبِّ، فَإِنَّ آخِرَ مَا يُقَدَّرُ بِعَدَمِ الطَّبِيبِ مَوتُ الأَبْدَانِ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لِلعَبدِ نُورُ الرِّسَالَةِ وَحَيَاتُهَا، مَاتَ قَلْبُهُ مَوْتًا لَا تُرجَىٰ الحَيَاةُ مَعَهُ أَبَدًا، وَشَقِيَ شَقَاوَةً لَا سَعَادَةَ مَعَهَا أَبَدًا».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١٩/ ٩٣): «وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ، فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إِذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟

وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إِلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام:١٢٢].

فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ؛ كَانَ مَيْتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ فَأَحْيَاهُ اللهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ

وَنُورِ الإِيمَانِ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ.

وَسَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ الرِّسَالَةَ رُوحًا، وَالرُّوحُ إِذَا عُدِمَتْ فَقَدْ فُقِدَتِ الْحَيَاةُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢]».

وَقَدْ لَخَّصَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بنُ صَالِحٍ العُثَيمِين فِي رِسَالَتِهِ «نُبْذَةٌ فِي العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ» (ص٣٥) ثَمَرَاتِ التَّوحِيدِ، وَمَقَاصِدَ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيةِ، فَقَالَ: «مِنهَا:

أَوَّلًا: إِخْلَاصُ النِّيَّةِ وَالعِبَادَةِ للهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ؛ لأَنَّهُ الخَالِقُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ القَصْدُ وَالعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ.

ثَانِيًا: تَحرِيرُ العَقْلِ وَالفِكْرِ مِنَ التَّخَبُّطِ النَّاشِئِ عَنْ خُلُوِّ القَلْبِ مِنْ هَذِهِ العَقِيدَةِ؛ لأَنَّ مَن خَلَا قَلْبُهُ مِنهَا فَهُوَ إِمَّا فَارِغُ القَلْبِ مِنْ كُلِّ عَقِيدَةٍ وَعَابِدٌ لِلمَادَّةِ الحِسِّيَّةِ فَقَطْ، وَإِمَّا مُتَخَبِّطٌ فِي ضَلَالَاتِ العَقَائِدِ وَالخُرَافَاتِ.

ثَالِثًا: الرَّاحَةُ النَّفسِيَّةُ وَالفِكْرِيَّةُ، فَلَا قَلَقَ فِي النَّفْسِ، وَلَا اضطِرَابَ فِي الفِكْرِ؛ لأَنَّ هَذِهِ العَقِيدَةَ تَصِلُ المُؤمِنَ بِخَالِقِهِ؛ فَيَرضَىٰ بِهِ رَبًّا مُدَبِّرًا، وَحَاكِمًا مُشَرِّعًا، فَيَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ بِقَدَرِهِ، وَيَنشَرِحُ صَدْرُهُ لِلإِسْلَامِ، فَلَا يَبْغِي عَنْه بَدِيلًا.

رَابِعًا: سَلَامَةُ القَصْدِ وَالعَمَلِ مِنَ الانْحِرَافِ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ أَوْ مُعَامَلَةِ

المَخْلُوقِينَ؛ لأَنَّ مِنْ أُسُسِهَا: الإِيمَانَ بِالرُّسُلِ، المُتَضَمِّنَ لاتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِم ذَاتِ السَّلَامَةِ فِي القَصْدِ وَالعَمَلِ.

خَامِسًا: الحَزْمُ وَالجِدُّ فِي الأُمُورِ، بِحَيْثُ لَا يُفَوِّتُ فُرْصَةً لِلعَمَلِ الصَّالِحِ، بَلْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ رَجَاءً لِلثَّوَابِ، وَلَا يَرَىٰ مَوقِعَ إِثْمٍ إِلَّا ابتَعَدَ عَنْهُ خَوْفًا مِنَ العِقَابِ؛ لأَنَّ مِنْ أُسُسِهَا: الإِيمَانَ بِالبَعْثِ وَالجَزَاءِ عَلَىٰ الأَعْمَالِ.

سَادِسًا: تَكْوِينُ أُمَّةٍ قَوِيَّةٍ تَبذُلُ كُلَّ غَالٍ وَرَخِيصٍ فِي تَثْبِيتِ دِينِهَا وَتَوطِيدِ دَعَائِمِهِ، غَيرَ مُبَالِيَةٍ بِمَا يُصِيبُهَا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَفِي هَذَا يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

سَابِعًا: الوصُولُ إِلَىٰ سَعَادَةِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ بِإِصْلَاحِ الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ، وَنَيلِ الثَّوَابِ وَالكَرَامَاتِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]».

وَقَدْ لَخَّصَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَائِدَةَ عِلْمِ التَّوحِيدِ فِي قَولِهِ: «تَصْحِيحُ العَقِيدَةِ، وَالسَّلَامَةُ فِي العَوَاقِبِ، وَنَيلُ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَينِ».

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاسْمُهُ عِلْمُ التَّوحِيدِ، وَعِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ».


الشَّرْحُ

وَعِلْمُ التَّوحِيدِ لَهُ أَسْمَاءٌ شَرْعِيَّةٌ ذَكَرَ مِنهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ اثنَينِ؛ هُمَا: التَّوحِيدُ -وَقَدْ سَبَقَ الكَلَامُ عَنْهُ-، وَالثَّانِي: أُصُولُ الدِّينِ.

وَقَدْ غَلَبَ عَلَىٰ العُلَمَاءِ المُصَنِّفِينَ فِي الاعتِقَادِ اسْتِعْمَالُ هَذَا المُرَكَّبِ الإِضَافِيِّ (أُصُولُ الدِّينِ) فِي قَضَايَا التَّوحِيدِ، وَمَسَائِلِ العَقِيدَةِ، وَقَدْ صَنَّفَ أَبُو عَبدِ اللهِ بنُ بَطَّةَ العُكْبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابًا جَلِيلًا فِي بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَسَمَّاهُ: «الشَّرح وَالإِبَانَة عَنْ أُصُولِ السُّنَّةِ وَالدِّيَانَةِ»، وَكَذَلِكَ صَنَّفَ أَبو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ المُتَوفَّىٰ سَنَة ٣٢٤هـ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابًا سمَّاهُ: «الإِبَانَةَ عَنْ أُصُولِ الدِّيَانَةِ».

وَهَذَا المُصْطَلَحُ -أُصُولُ الدِّينِ- إِنْ كَانَ دَلِيلُهُ وَمَأخَذُهُ دَلِيل وَمَأخَذَ التَّوحِيدِ وَالسُّنَّةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالعَقِيدَةِ فَلَا بَأسَ بِاستِعْمَالِهِ، وَلِهَذَا يَسْتَعْمِلُهُ أَهْلُ السُّنةِ وَالجَمَاعَةِ، وَيُرِيدُونَ بِهِ مَعنًىٰ صَحِيحًا، وَهُوَ أَنَّ أُصُولَ الدِّينِ يُقصَدُ بِهَا أُصُولُ الإِيمَانِ السِّتَّةِ، وَمَا يَنْدَرِجُ فِي ذَلِكَ مِنَ المَسَائِلِ الأَصْلِيَّةِ وَالتَّبعِيَّةِ.

فَالمَقْصُودُ بـ: أُصُولِ الدِّينِ؛ أُصُولُ الإِيمَانِ المَعْروفَةِ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ مَبَاحِثَ، وَمَا خَالَفَ فِيهِ أَهْلُ السُّنَّةِ أَهْلَ البِدْعَةِ.

وَمِنْ أَسْمَاءِ عِلْمِ التَّوحِيدِ: العَقِيدَةُ، لانعِقَادِ القَلْبِ انْعِقَادًا جَازِمًا لَا يَقْبَلُ الانْفِكَاكَ عَلَىٰ التَّوحِيدِ.

وَقَدْ صَنَّفَ الإمَامُ أَبُو عُثْمَانَ الصَّابُونِيُّ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٤٤٩هـ كِتَابَهُ فِي: «**عَقِيدَة السَّلَفِ أَصْحَابِ الحَدِيثِ**»، فِي بَيَانِ العَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ بِالدَّلِيلِ وَالبُرهَانِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَصَنَّفَ فِي ذَلِكَ أَيضًا الإمَامُ اللالَكَائِيُّ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٤١٨هـ، وَكِتَابُهُ هُوَ: «**شَرحُ أُصُولِ اعتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ**».

وَصَنَّفَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ فِي مَسَائِلِ التَّوحِيدِ وَقَضَايَاهُ كُتُبًا بِاسْمِ الإيمَانِ، مِنهَا: «**الإِيمَانُ وَمَعَالِمُهُ وَسُنَنُهُ وَاستِكمَالُ دَرَجَاتِهِ**»: لِلإمَامِ أَبِي عُبَيدٍ القَاسِمِ ابنِ سَلَّامٍ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٢٢٤هـ.

وَكِتَابُ «**الإِيمَانِ**»: لِلحَافِظِ أَبِي بَكرٍ عَبدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ ابن أَبِي شَيبَةَ العَبْسِيِّ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٢٢٥ أو ٢٣٥هـ.

وَكِتَابُ «**الإيمَانِ**»: لِلحَافِظِ مُحمَّدِ بنِ إِسْحَاقَ بنِ يَحيَىٰ بنِ مَندَه، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٣٩٥هـ.

وَكِتَابُ «**الإِيمَانِ**» لِشَيخِ الإِسْلَامِ ابنِ تَيمِيَّةَ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٧٢٨هـ.

وَمِنْ أَسْمَاءِ عِلْمِ التَّوحِيدِ: الشَّرِيعَةُ.

وَبِهَذَا الاسْمِ سَمَّىٰ الإمَامُ الآجُرِّيُّ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٣٦٠هـ كِتَابَهُ.

وَصَنَّفَ الإِمَامُ ابنُ بَطَّة العُكْبَرِيُّ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٣٨٧هـ كِتَابَهُ: «**الإِبَانَة عَنْ شَرِيعَةِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ**».

وَمِنْ أَسْمَاءِ عِلْمِ التَّوحِيدِ: السُّنَّةُ.

وَقَدْ سَمَّىٰ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ كُتُبَهُمْ فِي التَّوحِيدِ بِهَذَا الاسْمِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

«**السُّنَّةُ**» لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٢٤١هـ.

وَ«**السُّنَّةُ**»: لأَبِي بَكرٍ الخَلَّالِ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٣١١هـ.

وَ«**السُّنَّةُ**» لابنِ أَبِي عَاصِمٍ، المُتَوفَّىٰ سَنَةَ ٢٨٧هـ.

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ جُلَّ مَبَادِئِ التَّعرِيفِ بِعِلْمِ التَّوحِيدِ؛ فَذَكَرَ حَدَّهُ أَوْ تَعرِيفَهُ، وَمَوضُوعَهُ، وَثَمَرَتَهُ، وَفَضْلَهُ، وَبَعضَ أَسْمَائِهِ.

وَقَدْ دَرَجَ العُلَمَاءُ المُصَنِّفُونَ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ عَلَىٰ تَدْوِينِ مُقَدِّمَاتٍ وَمَفَاتِيحَ لِلعُلُومِ، تَتَضَمَّنُ عَشَرَةَ مَبَادِئَ لِلتَّعرِيفِ بِالعِلْمِ، لِتَكُونَ كَعَلَامَاتِ الطَّرِيقِ الهَادِيَةِ لِلمُتَعَلِّمِينَ، وَهَذِهِ المَبَادِئُ هِيَ:

إِنَّ مَبَادِئَ كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ ... الحَدُّ وَالمَوضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَهْ

فَضْلُهُ وَنِسبَةٌ وَالوَاضِعْ ... الاسْمُ الاستِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ

مَسَائِلُ وَالبَعْضُ بِالبَعْضِ اكتَفَىٰ ... وَمَنْ دَرَىٰ الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

❊ ❊ ❊

ثُمَّ شَرَعَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ الأَمْرِ الثَّانِي مِنْ أَمْرَي المُقَدِّمَةِ، وَهُوَ فِي بَيَانِ الحُكمِ وَأَقْسَامِهِ، فَقَالَ: «الحُكْمُ إِثْبَاتُ أَمْرٍ لأَمْرٍ أَوْ نَفْيُهُ عَنْهُ، مِثَالُهُ: مُحمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وَمُسَيلِمَةُ لَيسَ بِرَسُولٍ».

الشَّرْحُ

الحُكمُ فِي اللُّغَةِ: المَنْعُ، وَمِنهُ قِيلَ لِلقَضَاءِ: حُكمٌ؛ لأَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ غَيرِ المَقْضِيِّ بِهِ.

تَقُولُ: حَكَمَهُ كنَصَرَهُ، وأَحْكَمَهُ كَأَمَرَ بِهِ، وَحَكَّمَهُ بِالتَّضْعِيفِ؛ بِمَعنَىٰ: مَنَعَهُ.

وَمِنْهُ قَولُ جَرِيرٍ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ احْكُمُوا سُفَهاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُمُو أَنْ أَغْضَبَا

وَقَولُ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَنَا فِي كُلِّ يَومٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنَحْكُمُ بِالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَختَلِطُ الدِّمَاءُ

وَمِنَ الحُكْمِ بِمَعنَىٰ المَنْعِ: حَكَمَةُ اللِّجَامِ، وَهِيَ مَا أَحَاطَ بِحَنَكَي الدَّابَّةِ، سُمِّيتْ بِذَلِكَ لأَنَّهَا تَمنَعُهَا مِنَ الجَري الشَّدِيدِ.

وَالحَكَمَةُ أَيضًا: حَدِيدَةٌ فِي اللِّجَامِ تَكُونُ عَلَىٰ أَنْفِ الفَرَسِ وَحَنَكِهِ تَمْنَعُهُ

مِنْ مُخَالَفَةِ رَاكِبِهِ.

وَتَعرِيفُ الحُكمِ بِأَنَّهُ إثبَاتُ أَمْرٍ لأَمْرٍ، أَوْ نَفيُهُ عَنْهُ، تَعرِيفٌ لِمُطْلَقِ الحُكْمِ؛ إِذْ إِنَّ الحُكْمَ كَمَا قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقسَامٍ: عَقْلِيٍّ، وَشَرْعِيٍّ، وَعَادِيٍّ.

وَانْقِسَامُ الحُكْمِ إِلَىٰ هَذِهِ الأقسَامِ عُرِفَ بِالاسْتِقرَاءِ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ: التَّتَبُّعُ، فَالاستِقْرَاءُ: تَتَبُّعُ الأُمُورِ وَجَمْعُهَا لِمَعرِفَةِ خَوَاصِّهَا.

وَالاسْتِقرَاءُ فِي الاصْطِلَاحِ: هُوَ تَتَبُّعُ أُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ لِيُحكَمَ بِهَا عَلَىٰ أَمْرٍ كُليٍّ يَشْمَلُ تِلْكَ الجُزئياتِ، وَهُوَ تَامٌّ؛ وَمَعنَاهُ: تَتَبُّعُ جَمِيعِ الجُزْئِيَّاتِ فِي أَمْرٍ لِيُحْكَمَ بِحُكْمِهَا عَلَىٰ أَمْرٍ كُلِّيٍّ يَشْمَلُ تِلْكَ الجُزْئِيَّاتِ.

وَنَاقِصٌ وَهُوَ تَتَبُّعُ أَكْثَرِ الجُزْئِيَّاتِ، وَالانتِقَالُ مِنَ الحُكْمِ عَلَيهَا إِلَىٰ الحُكْمِ عَلَىٰ كُلِّيٍّ يَشْمَلُهَا بِمَا حُكِمَ بِهِ عَلَيهَا.

فَإِثْبَاتُ أَمْرٍ لأَمْرٍ، أَوْ نَفْيُهُ عَنْهُ، إِنْ كَانَ مِن غَيرِ تَوَقُّفٍ عَلَىٰ تَكرَارٍ وَلَا وَضْعِ وَاضِعٍ فَهُوَ العَقْلِيُّ، فَإِنْ تَوقَّفَ عَلَىٰ تكرَارٍ وَعَادَةٍ فَهُوَ العَادِيُّ، وَإِنْ تَوقَّفَ عَلَىٰ وَضْعِ وَاضِعٍ فَهُوَ الشَّرعِيُّ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالعَقْلِيُّ: إثْبَاتُ أَمْرٍ لأمْرٍ، أَوْ نَفْيُهُ عَنْهُ، بِنَاءً عَلَىٰ تَفْكِيرٍ دُونَ تَوقُّفٍ عَلَىٰ شَرْعٍ، وَلَا تَجْرِبَةٍ أَوْ تَكْرَارٍ، مِثَالُهُ: اللهُ مَوجُودٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».



الشَّرْحُ

الحُكْمُ العَقْلِيُّ هُوَ القِسْمُ الأَوَّلُ مِنْ أَقسَامِ الحُكمِ الثَّلَاثَةِ، وَهُوَ مَا يَعرِفُ فِيهِ العَقلُ النِّسبَةَ إِيجَابًا أَوْ سَلْبًا، نَحو: الكُلُّ أَكْبَرُ مِنَ الجُزءِ؛ إيجَابًا، وَالجُزءُ لَيسَ أَكْبَرَ مِنَ الكُلِّ؛ سَلْبًا.

❋ ❋ ❋

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالشَّرْعِيُّ: إِثْبَاتُ أَمْرٍ لأَمْرٍ، أَوْ نَفْيُهُ عَنْهُ، بِنَاءً عَلَىٰ وَحْيٍ مِنَ اللهِ، مِثل: الصَّلَواتُ الخَمْسُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ المُكَلَّفِينَ، وَلَا يَجُوزُ شُربُ الخَمْرِ».

الشَّرْحُ

وَالحُكْمُ الشَّرْعِيُّ حَدَّهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ بِأَنَّهُ: خِطَابُ اللهِ المُتَعَلِّقُ بِفِعْلِ المُكَلَّفِ مِنْ حَيثُ إِنَّهُ مُكَلَّفٌ بِهِ.

وَفِي هَذَا التَّعرِيفِ ثَلَاثَةُ قُيودٍ:

القَيدُ الأَوَّلُ: «خِطَابُ اللهِ»، إِذِ التَّشرِيعُ وَالحُكْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِخِطَابِ اللهِ، وَكُلُّ تَشرِيعٍ مِنْ غَيرِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَخِطَابُ اللهِ: كَلَامُهُ ذُو اللَّفْظِ وَالمَعنَىٰ، وَلَيسَ هُوَ المَعنَىٰ النَّفسِيَّ المُجرَّدَ عَنِ اللَّفْظِ وَالصِّيغَةِ.

القَيدُ الثَّانِي: «المُتَعَلِّقُ بِفِعلِ المُكَلَّفِ»، خَرَجَ بِهِ أَشْيَاءُ:

١- مَا تَعَلَّقَ بِذَاتِهِ سُبحَانَهُ، نَحو قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨].

٢- مَا تَعَلَّقَ بِفِعْلِهِ تَعَالَىٰ، نَحو قَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢].

٣- مَا تَعَلَّقَ بِذَوَاتِ المُكَلَّفِينَ نَحو: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١].

٤- مَا تَعَلَّقَ بِالجَمَادَاتِ، نَحو: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧].

وَفِعْلُ المُكَلَّفِ يَشْمَلُ القَولَ وَالاعتِقَادَ وَالعَمَلَ.

وَالمُرَادُ بِالمُكَلَّفِ: البَالِغُ، العَاقِلُ، الذَّاكِرُ، غَيرُ المُكْرَهِ.

القَيدُ الثَّالِثُ: «مِنْ حَيثُ إِنَّهُ مُكَلَّفٌ بِهِ»، خَرَجَ بِذَلِكَ خِطَابُ اللهِ المُتَعَلِّقُ بِفِعْلِ المُكَلَّفِ لَا مِنْ حَيثُ إِنَّهُ مُكَلَّفٌ بِهِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٢]، فَهَذَا خِطَابٌ مِنَ اللهِ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ المُكَلَّفِ مِنْ حَيثُ إِنَّ الحَفَظَةَ يَعلَمُونَ، وَهَذَا يُسَمَّىٰ بِخِطَابِ التَّكْوِينِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَنْقَسِمُ الحُكْمُ الشَّرْعِيُّ إِلَىٰ:

تَكْلِيفِيٍّ: كَوجُوبِ الزَّكَاةِ، وَتَحرِيمِ القِمَارِ، وَاستِنَانِ رَكْعَتَي الفَجْرِ، وَكرَاهِيَةِ الأَكْلِ بِاليَسَارِ، وَإِبَاحَةِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ، وَنَحْوِهَا.

وَوَضْعِيٍّ: كَسَبَبِيَّةِ دُخُولِ الوَقْتِ لِوجُوبِ الصَّلَاةِ، وَشَرْطِيَّةِ الطَّهَارَةِ لِصِحَّتِهَا، وَكَمَنْعِ الجُنُونِ مِن وجُوبِهَا، وَالحَدَثِ مِنْ صِحَّتِهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ: الصِّحَّةُ، وَالفَسَادُ، وَالرُّخْصَةُ، وَالعَزِيمَةُ».



الشَّرْحُ

عَرَّفَ الأُصُولِيُّونَ الحُكْمَ الشَّرعِيَّ بِأَنَّهُ: خِطَابُ اللهِ المُتَعَلِّقُ بِأَفْعَالِ المُكَلَّفِينَ بِالاقتِضَاءِ، أَوِ التَّخْيِيرِ، أَوِ الوَضْعِ.

وَالخِطَابُ المُتَعَلِّقُ بِفِعْلِ المُكَلَّفِ مِنْ حَيثُ هُوَ مُكَلَّفٌ بِهِ لَا يَخْلُو عَنْ ثَلاثَةِ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَرِدَ فِيهِ اقتِضَاءٌ وَطَلَبٌ، وَهَذَا يَشْمَلُ الأَقسَامَ الأَرْبَعَةَ: الوَاجِبَ، وَالمَنْدُوبَ، وَالمُحَرَّمَ، وَالمَكْرُوهَ.

الثَّانِي: أَنْ يَرِدَ فِيهِ التَّخْييرُ، وَهَذَا هُوَ القِسْمُ الخَامِسُ لأَحْكَامِ التَّكْلِيفِ: المُبَاحُ.

الثَّالِثُ: أَلَّا يَرِدَ فِيهِ اقتِضَاءٌ وَلَا تَخْيِيرٌ، فَهَذَا هُوَ خِطَابُ الوَضْعِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَرِدَ الخِطَابُ بِنَصْبِ سَبَبٍ، أَوْ مَانِعٍ، أَوْ شَرْطٍ، أَوْ كَونِ الفِعْلِ رُخْصَةً أَوْ عَزِيمَةً، وَغَيرِ ذَلِكَ.

وَيُسَمَّىٰ مَا وَرَدَ بِالاقتِضَاءِ أَوِ التَّخيِيرِ خِطَابَ التَّكْلِيفِ.

فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الحُكْمَ الشَّرْعِيَّ قِسْمَانِ: حُكمٌ تَكْلِيفِيٌّ، وَحُكمٌ وَضْعِيٌّ.

وَالحُكْمُ التَّكلِيفيُّ: هُوَ مَا يَقتَضِي طَلَبَ الفِعْلِ، أَوِ الكَفَّ عَنْهُ، أَوِ التَّخيِيرَ بَينَ الفِعْلِ وَالتَّرْكِ، وَهُوَ خَمْسَةُ أَقسَامٍ: الوَاجِبُ، وَالمَنْدُوبُ، وَالمُبَاحُ، وَالمَكْرُوهُ، وَالحَرَامُ.

وَالحُكْمُ الوَضْعِيُّ: هُوَ خِطَابُ اللهِ المُتَعَلِّقُ بِأَفعَالِ المُكَلَّفِينَ بِالوَضْعِ، فَهُوَ الخِطَابُ بِجَعْلِ الشَّيءِ عَلَامَةً لِشَيءٍ آخرَ، وَهُوَ أَقسَامٌ، هِيَ: العِلَلُ، وَالأَسْبَابُ، وَالشُّرُوطُ، وَالمَوَانِعُ، وَأَدْخَلَ بَعْضُهُم فِيهِ الصِّحَّةَ وَالفَسَادَ، وَالرُّخْصَةَ وَالعَزِيمَةَ.

وَبَعضُهُم يَجْعَلُ الصِّحَّةَ وَالفَسَادَ مِنْ خِطَابِ التَّكلِيفِ.

فَالأَحْكَامُ الوَضْعِيَّةُ: مَا وَضَعَهُ الشَّارِعُ مِنْ أَمَارَاتٍ لِثُبُوتٍ أَوِ انتِفَاءٍ أَوْ نُفُوذٍ أَوْ إِلْغَاءٍ، وَمِنهَا: الصِّحَّةُ وَالفَسَادُ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ القِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ أقسَامِ الحُكْمِ: «وَالعَادِيُّ: إثبَاتُ أمرٍ لأمْرٍ، أوْ نَفيُهُ عَنْهُ، بِناءً عَلَىٰ تَجْرِبَةٍ أوْ تكرَارٍ مِثْل: الأمطَار تكثُرُ بِالشَّوَاطِئِ».

الشَّرْحُ

فَالحُكْمُ العَادِيُّ هُوَ مَا عُرِفَتْ فِيهِ النِّسْبَةُ بِالعَادَةِ، كَنُزُولِ المَطَرِ بَعْدَ الرَّعْدِ وَالبَرْقِ، وَمِثْلُ: المَاءُ مُرْوٍ؛ فَالحُكْمُ العَادِيُّ هُوَ إثْبَاتُ الرَّبْطِ بَينَ أمْرٍ وَأمْرٍ وُجُودًا وَعَدَمًا بِوَاسِطَةِ تكرَارِ القِرَانِ بَينَهُمَا عَلَىٰ الحُسْنِ.

❊ ❊ ❊

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْسَامَ الحُكْمِ العَادِيِّ، مَعَ ذِكْرِ مِثَالٍ لِكُلِّ قِسْمٍ فَقَالَ: «وَيَنْقَسِمُ العَادِيُّ إِلَىٰ أَرْبَعَةِ أقسَامٍ، هِيَ: رَبْطُ وُجُودٍ بِوجُودٍ؛ كَرَبطِ الشِّبَعِ بِالأَكْلِ، وَرَبْطُ عَدَمٍ بِعَدَمٍ؛ كَرَبْطِ عَدَمِ المَطَرِ بِعَدَمِ السَّحَابِ، وَرَبْطُ وُجُودٍ بَعَدَمٍ؛ كَرَبطِ البَردِ بِعَدَمِ اللِّبَاسِ وَالغِطَاءِ، وَرَبطُ عَدَمٍ بِوجُودٍ؛ كَرَبطِ عدَمِ الصِّحَّةِ بِوجُودِ مَيكرُوبِ المَرَضِ».

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقسَامَ الحُكْمِ العَقْلِيِّ، وَعَرَّفَ كُلَّ قِسمٍ، وَضَرَبَ لَهُ المِثَالَ فَقَالَ: «وَيَنقَسِمُ الحُكْمُ العَقْلِيُّ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقسَامٍ: الوجُوبُ، وَالاستِحَالَةُ، وَالجَوَازُ.

فَالوَاجِبُ: هُوَ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَقبَلُ الانتِفَاءَ لِذَاتِهِ: كَثُبُوتِ العِلْمِ، وَالقُدْرَةِ، وَالمَحَبَّةِ، وَالرِّضَا، وَالوَجْهِ، وَاليَدَينِ، وَنَحْوِهَا مِنَ الكَمَالَاتِ للهِ، فَإِنَّهَا صِفَاتٌ ثَابِتَةٌ لَهُ تَعَالَىٰ لَا تَقبَلُ الانتِفَاءَ».



جَمِيعُ الأُمُورِ الَّتِي نَعْلَمُهَا، أَوِ الَّتِي يُمكِنُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهَا عِلمُنَا تَنْقَسِمُ مِنْ حَيثُ النَّظَرُ إِلَىٰ وجُودِهَا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقسَامٍ: وَاجِبُ الوجُودِ لِذَاتِهِ، وَمُستَحِيلُ الوجُودِ لِذَاتِهِ، وَمُمْكِنُ الوجُودِ لِذَاتِهِ.

فَالوَاجِبُ هُوَ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَقبَلُ الانتِفَاءَ لِذَاتِهِ، وَأَمَّا الوجُوبُ فَهُوَ

الثُّبُوتُ الَّذِي لَا يَقبلُ الانتِفَاءَ.

فَالوَاجِبُ لِذَاتِهِ هُوَ مَا كَانَ وجُودُهُ لِذَاتِهِ مِن حَيثُ هِيَ، أي: مَا تَقتَضِي ذَاتُهُ الوجُودَ دَائِمًا بِحَيثُ لَا يَقْبَلُ العَدَمَ أصْلًا، فَهُوَ ثَابِتٌ ثُبوتًا دَائِمًا أبَدًا، بِحَيثُ لَا يُمكِنُ أنْ يَلحَقَهُ العَدَمُ أوِ التَّغَيُّرُ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الثُّبوتُ ضَرُورِيًّا، بِحَيثُ لَا يَتَوقَّفُ إدْرَاكُ وجُوبِهِ عَلَىٰ نَظَرٍ، فَيَحْكُمُ العَقْلُ بِثُبُوتِهِ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ إلَىٰ دَلِيل، كَقَولِنَا: الوَاحِدُ نِصْفُ الاثْنَينِ، وَالأبُ أكْبَرُ مِنَ ابنِهِ، وَالجُزءُ أصْغَرُ مِنَ الكُلِّ.

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الثُّبوتُ نَظَرِيًّا، وَهُوَ مَا تَوَقَّفَ إدْرَاكُ وجُوبِهِ عَلَىٰ نَظَرٍ وَاستِدْلَالٍ، بِمَعنَىٰ أنَّ العَقلَ لَا يَحْكُمُ بِثُبُوتِهِ إلَّا بَعْدَ تَأمُّلٍ وَاستِدْلَالٍ.

وَقَدْ ضَرَبَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَثَلًا لِلوَاجِبِ؛ بِمَا ذَكَرَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ للهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ وَغَيرُهَا مِنَ الصِّفَاتِ مِنَ الكَمَالَاتِ للهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ لَا تَقبَلُ الانتِفَاءَ أصْلًا.

وَالوَاجِبُ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ: مَا لَا يُتَصَوَّرُ عَدَمُهُ بِالنِّسْبَةِ إلَيهِ، فَكُلُّ شَيءٍ لَا يُتَصَوَّرُ عَدَمُهُ بِالنِّسبَةِ للهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ وَاجِبٌ.

فَمَثَلًا: الحَيَاةُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالعِلْمُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالقُدْرَةُ مِنَ الوَاجِبِ، وَالقُوَّةُ مِنَ الوَاجِبِ، فَكُلُّ مَا لَا يُتَصَوَّرُ عَدَمُهُ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَكُلُّ كَمَالٍ فَهُوَ مِنَ الوَاجِبِ.

❊ ❊ ❊

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ القِسمَ الثَّانِي مِنْ أقسَامِ الحُكْمِ العَقْلِيِّ، فَقَالَ: «وَالمُستَحِيلُ: هُوَ المَنْفِيُّ الَّذِي لَا يَقبَلُ الثُّبوتَ: كَشَرِيكِ البَارِي، وَالجَمْعِ بَينَ النَّقِيضَينِ، وَرَفْعِهِمَا، وَالجَمْعِ بَينَ الضِّدَّينِ».

الشَّرْحُ

المُستَحِيلُ لِذَاتِهِ هُوَ مَا كَانَ عَدَمُهُ لِذَاتِهِ مِنْ حَيثُ هِيَ، أي: مَا تَقتَضِي ذَاتُهُ العَدَمَ دَائِمًا، بِحَيثُ لَا تَقبلُ الثُّبوتَ أَصْلًا، وَالاستِحَالَةُ هِيَ الانتِفَاءُ الَّذِي لَا يَقبَلُ الثُّبوتَ.

فَالمُستَحِيلُ وَهُوَ الأمْرُ المَعدُومُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ ثُبُوتُهُ أَوْ وجُودُهُ أَبَدًا، قَدْ يَكُون عَدَمُ ثُبُوتِهِ أَوْ عَدَمُ وجُودِهِ ضَرُورِيًّا، بِمَعنَىٰ: أَنَّ العَقْلَ لَا يَتَرَدَّدُ فِي الحُكْمِ علَيهِ بِالعَدَمِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَىٰ دَلِيلٍ؛ أي: لَا يُحتَاجُ فِي إدْرَاكِ استِحَالَتِهِ إلىٰ بَحثٍ؛ مِثل: الجُزْءُ أكْبَرُ مِنَ الكُلِّ، أو الابنُ أكْبَرُ مِنْ أَبِيهِ، أَوِ السَّمَاءُ تَحتَنَا وَالأرْض فَوقَنَا.

وَقَدْ يَكُونُ عَدَمُ ثُبوتِ المُستَحِيلِ أَوْ عَدَمُ وجُودِهِ: نظَرِيًّا؛ بِمَعنَىٰ: أَنَّ العَقْلَ لَا يَحْكُمُ بِالاستِحَالَةِ إِلَّا بَعدَ تَأَمُّلٍ وَنَظَرٍ وَتَفْكِيرٍ، كَالحُكْمِ بِاستِحَالَةِ الكَذِبِ وَالخِيَانَةِ وَالكِتْمَانِ وَنَقْصِ العَقْلِ بِالنِّسْبَةِ لِلرُّسُلِ الكِرَامِ؛ إِذْ لَو كَانُوا كَذَلِكَ لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونُوا رُسُلًا؛ لأنَّ مِنَ الصِّفَاتِ الوَاجِبَةِ لَهُم: الصِّدْق وَالأمَانَة وَالتَّبلِيغ وَالفَطَانَة.

وَالمُستَحِيلُ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ هُوَ: كُلُّ مَا لَا يُتَصَوَّرُ وجُودُهُ؛ مِثلُ: المَوتِ،

وَالعَجْزِ، وَالضَّعْفِ، وَالجَهْلِ، وَالنِّسْيَانِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللهِ ﷻ، وَكُلُّ نَقْصٍ فَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ ضَرَبَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلمُستَحِيلِ مَثَلًا بِالجَمْعِ بَينَ النَّقِيضَينِ وَرَفْعِهِمَا، وَنَقِيضُ الشَّيءِ: مَا لَا يَجتَمِعُ مَعَهُ، لَكِن لَا يَرتَفِعَانِ، فَلَابُدَّ مِنْ وجُودِ أَحَدِهِمَا؛ **فَالنَّقِيضَانِ: مَا لَا يَجتَمِعَانِ مَعًا، وَلَا يَرتَفِعَانِ مَعًا.**

وَمِثَالُ النَّقِيضَينِ: الوجُودُ وَالعَدَمُ، فَالمَعْدُومُ غَيرُ مَوجُودٍ، وَالمَوجُودُ غَيرُ مَعْدُومٍ، وَلَا يَجتَمِعَانِ مَعًا بِحَيثُ يَكُونُ الشَّيءُ مَوجُودًا مَعْدُومًا فِي آنٍ، وَلَا يَرتَفِعَانِ بِحَيثُ يَكُونُ الشَّيءُ لَا مَوجُودًا وَلَا مَعْدُومًا، بَلْ لَابُدَّ أَنْ يَكونَ: إِمَّا مَوجُودًا، وَإِمَّا مَعْدُومًا.

وَضَرَبَ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلمُستَحِيلِ مَثَلًا بِالجَمْعِ بَينَ الضِّدَّينِ.

وَضِدُّ الشَّيءِ هُوَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجتَمِعَ مَعَهُ، وَلَكِن يُمْكِنُ أَنْ يُعدَمَا جَمِيعًا، **فَالضِّدَّانِ: لَا يَجتَمِعَانِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرتَفِعَا.**

وَمِثَالُ الضِّدينِ: اللونَانِ الأَبيَضُ وَالأَسْوَدُ، فَلَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيءُ أَبيَضَ أَسْوَدَ فِي آنٍ، وَلَكنَّهُمَا يَرتَفِعَانِ، فَيُمكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيءُ أَخْضَرَ.

فَالتنَاقُضُ: نِسْبَةٌ بَينَ مَعنًىٰ وَمَعْنًىٰ آخرَ، مِن جِهَةِ عَدَمِ إِمْكَانِ اجتِمَاعِهِمَا مَعًا، وَعَدَمُ إِمكَانِ ارتِفَاعِهِمَا مَعًا، فِي شَيءٍ وَاحِدٍ، وَزَمَانٍ وَاحِدٍ.

وَضَابِطُ النَّقِيضَينِ: أَنَّهُمَا لَا يَجتَمِعَانِ وَلَا يَرتَفِعَانِ، بَلْ لَابُدَّ مِنْ وجُودِ أَحَدِهِمَا وَعَدَمِ الآخَرِ.

وَالتَّضَادُّ: نِسبَةٌ بَينَ مَعنًىٰ وَمعنًىٰ آخَرَ، مِن جِهَةِ عَدَمِ إمكَانِ اجتِمَاعِهِمَا مَعَ اتِّحَادِ المَكَانِ وَالزَّمَانِ، وَلَكِن يُمكِنُ ارتِفَاعُهمَا مَعًا.

وَضَابِطُ الضِّدَّينِ: أَنَّهُمَا لَا يَجتَمِعَانِ، وَلَكنَّهُمَا قَدْ يَرتَفِعَانِ، وَارتِفَاعُهُمَا إِنَّمَا يَكُونُ لِوَاحِدٍ مِنْ سَبَبَينِ:

الأَوَّلُ: وُجُودُ وَاسِطَةٍ، كَضِدٍّ ثَالِثٍ، فَإِنَّ السَّوَادَ وَالبيَاضَ مَثَلًا، لَا يَجتَمِعَانِ فِي نُقطَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكنَّهُمَا قَدْ يَرتَفِعَانِ؛ لِوجُودِ وَاسِطَةٍ أخرَىٰ كَالحُمرَةِ وَالصُّفرَةِ، فَتكُونُ تِلكَ النُّقطَةُ حَمرَاءَ أو صَفرَاءَ.

وَالثَّانِي: هُوَ ارتِفَاعُ المَحلِّ، فَالجِرمُ الوَاحِدُ المَوجُودُ، يَستَحِيلُ أَنْ يَكُونَ أَبيَضَ أَسْوَدَ فِي آنٍ، وَلَكِنَّ البيَاضَ وَالسَّوَادَ قَدْ يَرتَفِعَانِ بِارتِفَاعِهِ، أي: بِانعِدَامِهِ وَزَوَالِهِ مِنَ الوجُودِ؛ فَإِنَّهُ إذَا عُدِمَ لَا يُقالُ فِيهِ: أبيَضُ ولَا أسودُ.

وَإِذَا كَانَ المُستَحِيلُ قَدْ اعتُبِرَ مِنْ قَبِيلِ الأمُورِ المَعْلُومَةِ؛ فَلَيسَ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ الحَقِيقَةِ؛ لأَنَّ كُلَّ صُورَةٍ ذِهنِيَّةٍ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ صُورَةً مُطَابِقَةً لأَمْرٍ مَوجُودٍ فِي الخَارِجِ، وَلَمَّا كَانَ المُستَحِيلُ لَا يُوجَدُ أَبَدًا، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لَهُ صُورَةٌ ذِهنِيَّةٌ، وَلَا أَنْ يُعدَّ مِنَ الأمُورِ المَعْلُومَةِ حَقِيقَةً، وَإِنَّمَا المُرَادُ بِاعتِبَارِهِ مِنَ الأمُورِ المَعْلُومَةِ؛ أَنَّ العَقْلَ فَرَضَ لَهُ مَثَلًا؛ لِيَتَوصَّلَ بِذَلِكَ الغَرَضِ إِلَىٰ الحُكْمِ عَلَيهِ بِالاستِحَالَةِ.

فَالعَقْلُ لَا يَتَصَوَّرُ آلَةً مُتَحَرِّكَةً سَاكِنَةً مَعًا؛ لأَنَّ الوَاقِعَ لَا يُوجَدُ فِيهِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَفرِضُ اجتِمَاعَ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ فِي آلَةٍ مُعَينَةٍ لِيَحكُمَ عَلَيهِ بِالاستِحَالَةِ.

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ القِسْمَ الثَّالِثَ مِنْ أَقْسَامِ الحُكْمِ العَقْلِيِّ، فَقَالَ: «الجَائِزُ: وَيُقَالُ لَهُ:المُمْكِنُ: هُوَ مَا يَقبَلُ الوجُودَ وَالعَدَمَ؛ كَالمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نُشَاهِدُهَا؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ مَعْدُومَةً فَقَبِلَتِ الوجُودَ، ثُمَّ بَعدَ وجُودِهَا فَهِيَ قَابِلَةٌ لِلعَدَمِ».

الشَّرْحُ

فَالجَائِزُ هُوَ الأَمْرُ الَّذِي يَقبَلُ الوجُودَ وَالعَدَمَ لِذَاتِهِ، أو: مَا يَصِحُّ فِي نَظَرِ العَقْلِ ثُبوتُهُ وَعَدَمُهُ، وَالجَوَازُ: قَبُولُ الثُّبوتِ وَالعَدَمِ.

فَالجَائِزُ أَوِ المُمْكِنُ لِذَاتِهِ: هُوَ مَا لَا وجُودَ لَهُ وَلَا عَدَمَ لِذَاتِهِ مِن حَيثُ هِيَ؛ أي: مَا لَا تَقتَضِي ذَاتُهُ الوجُودَ أَوِ العَدَمَ، فَإِذَا وُجِدَ فَلِأَنَّ غَيرَهُ أَعطَاهُ الوجُودَ، وَإِذَا عُدِمَ فَلِعَدَمِ سَبَبِ وجُودِهِ.

وَقَدْ يَكُونُ الجَوَازُ ضَرُورِيًّا لَا يَتَوَقَّفُ إدرَاكُهُ عَلَىٰ بَحْثٍ وَاستِدْلَالٍ، لأَنَّهُ أمرٌ بَدَهِيٌّ كَكَوْنِ الإنسَانِ تَارَةً فِي حَالَةِ صِحَّةٍ، وَتَارَةً فِي حَالَةِ مَرَضٍ، وَتَارَةً فِي حَالَةِ رِضًا وَتَارَةً فِي حَالَةِ غَضَبٍ.

وَقَدْ يَكُونُ الجَوَازُ نَظَرِيًّا يَتَوَقَّفُ إِدْرَاكُهُ عَلَىٰ بَحْثٍ وَاستِدْلَالٍ؛ فَلَا يَحكُمُ العَقْلُ بِجَوَازِ هَذَا الشَّيءِ إِلَّا بَعدَ التَّفكِيرِ وَالمُرَاجَعَةِ، فَجَمِيعُ الكَائِنَاتِ الَّتِي نَرَاهَا مِنَ الحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالجَمَادَاتِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ أَحوَالِهَا؛ كَنُزُولِ الأَمطَارِ وَهُبُوبِ الرِّيَاحِ، تُوجَدُ بَعْدَ عَدَمٍ، ثُمَّ يَلْحَقُهَا العَدَمُ بَعْدَ الوجُودِ، فَوجُودُهَا

-إذَنْ- لَيسَ ضَرُورِيًّا كَوجُودِ الوَاجِبِ، وَإلَّا لَمَا عُدِمَتْ، وَعَدَمُهَا لَيس ضَرُورِيًّا كَعَدَمِ المُستَحِيلِ، وَإلَّا لَمَا وُجِدَتْ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الوجُودِ وَالعَدَم جَائِزَانِ فِي حَقِّهَا مِنْ حَيثُ النَّظَرُ لِذَاتِهِ، وَهُوَ مَعنَىٰ إمكَانِهَا.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَقَدْ يُطْلَقُ الوَاجِبُ عَلَىٰ الأَمْرِ الثَّابِتِ مِنْ حَيْثُ تَعَلُّقُ عِلْمِ اللهِ بِثُبُوتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُمْكِنًا فِي ذَاتِهِ، وَيُسَمَّىٰ الوَاجِبَ لِغَيْرِهِ، كَوجُودِ إنسَانٍ عَلَىٰ كَيفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي عَصْرٍ مُعَيَّنٍ، فَإِنَّ وقُوعَهُ عَلَىٰ تِلْكَ الصِّفَةِ فِي ذَلِكَ العَصْرِ وَاجِبٌ، بِاعتِبَارِ تَعَلُّقِ عِلْمِ اللهِ بِهِ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُمكِنًا فِي ذَاتِهِ».



الشَّرْحُ

المُمْكِنُ لِذَاتِهِ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا لِغَيرِهِ، وَذَلِكَ إِذَا تَعَلَّقَ عِلْمُ اللهِ بِعَدَمِهِ؛ كَإِيمَانِ أَبِي جَهْلٍ.

قَدْ يَكُونُ المُمْكِنُ لِذَاتِهِ وَاجِبًا لِغَيرِهِ؛ وَذَلِكَ إِذَا اقتَضَىٰ ذَلِكَ الغَيرُ وجُودَه بِالضَّرورَةِ، كَمَا إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ وجُودَ إنسَانٍ، فَإِنَّ وجُودَهُ وَاجِبٌ لَا لِذَاتِهِ، بَلْ لِغَيرِهِ، وَهُوَ تَعَلُّقُ إِرَادَةِ اللهِ بِهِ.

وَلِذَلِكَ مَرَّ فِي تَعرِيفِ الوَاجِبِ أَنَّ وجُودَهُ لِذَاتِهِ؛ حَتَّىٰ لَا يُعَدَّ مِنْهُ مَا يَكُونُ وَاجِبًا لِغَيرِهِ؛ لأَنَّ الوَاجِبَ لِغَيرِهِ مِنَ المُمكِنَاتِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ يُطْلَقُ المُستَحِيلُ عَلَىٰ أَمْرٍ مَعدُومٍ يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ لَكِنَّهُ امتَنَعَ وجُودُهُ لِتَعَلُّقِ عِلْمِ اللهِ بِبَقَائِهِ عَلَىٰ العَدَمِ، وَيُقَالُ لَهُ: المُستَحِيلُ لِغَيرِهِ».

الشَّرْحُ

قَدْ يَصِيرُ المُمْكِنُ مُستَحِيلًا وَلَكِنْ لَا لِذَاتِهِ، بَلْ لِغَيرِهِ، إِذَا اقتَضَىٰ ذَلِكَ الغَيرُ عَدَمَ وجُودِهِ بِالضَّرُورَةِ، كَمَا إِذَا أَرَادَ اللهُ عَدَمَ إِنسَانٍ مَا فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَإِنَّ وجُودَهُ يَكُونُ مُستَحِيلًا، لَا لِذَاتِهِ بَلْ لِغَيرِهِ، وَهُوَ تَعَلُّقُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَدَمِهِ.

وَلِذَلِكَ مَرَّ فِي تَعرِيفِ المُستَحِيلِ أَنَّ عَدَمَهُ لِذَاتِهِ؛ حَتَّىٰ لَا يُعَدَّ مِنْهُ مَا يَكُونُ مُستَحِيلًا لِغَيرِهِ؛ لأَنَّ المُستَحِيلَ لِغَيرِهِ مِنَ المُمْكِنَاتِ.

المُستَحِيلُ نوعَانِ:

١-**مُستَحِيلٌ لِذَاتِهِ**، وَالمُستَحِيلُ لِذَاتِهِ مَا لَا يُمكِنُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ القُدْرَةُ؛ لأَنَّهُ لَيسَ بِمَوجُودٍ، وَلَا يُمكِنُ أَنْ يُوجَدَ، وَلَا يَفرِضُهُ الذِّهْنُ.

٢- **مُستَحِيلٌ لِغَيرِهِ**، بِمَعنَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَجرَىٰ هَذَا الشَّيءَ عَلَىٰ هَذِهِ العَادَةِ المُستَمِرَّةِ الَّتِي يَستَحِيلُ أَنْ تَنْخَرِمَ، وَلَكِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخرِمَهَا، فَهَذَا تَتَعَلَّقُ بِهِ القُدْرَةُ، فَيُمكِنُ لِلشَّيءِ الَّذِي نَرَىٰ أَنَّهُ مُستَحِيلٌ بِحَسَبِ العَادَةِ أَنْ يَكُونَ جَائِزًا وَاقِعًا بِحَسَبِ القُدْرَةِ.

المُستَحِيلُ: مَا لَا يُمكِنُ وجُودُهُ، **وَالجَائِزُ**: مَا يُمكِنُ وجُودُهُ وَعَدَمُهُ، **وَالوَاجِبُ**: مَا لَا يُمكِنُ عَدَمُهُ.

وَالمَوجُودَات إمَّا مِن قَبِيلِ الجَائِزِ، أوْ مِن قَبِيلِ الوَاجِبِ، أوْ مِنْ قَبِيلِ المُستَحِيلِ، وَلَكنْ إلَىٰ أي شَيءٍ نَرجِعُ فِي استِحَالَةِ الشَّيءِ وَعَدَمِهِ؟

هَلْ نَرجِعُ إلَىٰ عُقُولِنَا؟ أمَّاذَا؟

الجَوَابُ: نَرجِعُ فِي هَذَا إلَىٰ الشَّرعِ، إلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّرعِيَّاتِ، وَإلَىٰ الوَاقِعِ وَأهْلِ الخِبرَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَا سِوَىٰ ذَلِكَ، وَإلَّا لأمْكَنَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أنْ يَقُولَ هَذَا مُستَحِيلٌ، كَمَا قَالَ أهْلُ التَّعطِيلِ: إنَّ اللهَ مُستَحِيلٌ أنْ يَكُونَ لَهُ وَجهٌ، مُستَحِيلٌ أنْ يَكُونَ لَهُ يَدٌ، مُستَحِيلٌ أنْ يَكُونَ لَهُ عَينٌ، وَمَا أشْبَهَ ذَلِكَ.

لَكنَّ الكَلَامَ عَلَىٰ الوَاقِعِ، فَالمُستَحِيلُ غَيرُ مُمْكِنٍ، وَالوَاجِبُ غَيرُ مُمْكِنٍ عَدَمُهُ، وَالجَائِزُ مَا أمْكَنَ وجُودُهُ وَعَدَمُهُ.

وَلنَضرِب لِهَذَا أمثِلَةً:

وجُودُ إلَهٍ مَعَ اللهِ مُستَحِيلٌ لَا شَكَّ، وَعَدَمُ اللهِ مُستَحِيلٌ، وَوجُودُ اللهِ وَاجِبٌ، وَوجُودُ الآدَمِيِّ جَائِزٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَائِزٌ أنْ يَخلُقَ الآدَمِيَّ، وَجَائِزٌ ألَّا يَخْلُقَهُ.

وَتَعذِيبُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلطَّائِعِ جَائِزٌ مِن حَيثُ الوقُوعُ، لَكنَّهُ مُمتَنِعٌ شَرْعًا،

وَمُمْتَنِعٌ عَقْلًا مِنْ وَجهٍ آخَرَ.

مُمْتَنِعٌ شَرْعًا؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أخبرَ أنَّهُ لَا يَظْلِمُ أحَدًا، وَتَعْذِيبُ الطَّائِعِ ظُلمٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

إذَنْ؛ هُوَ مُستَحِيلٌ شَرْعًا.

وَهُوَ مُستَحِيلٌ عَقْلًا بِالنِّسبَةِ للهِ ﷻ؛ لأنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ لِذَاتِهِ.

فَإنْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّهُ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**إنَّ اللهَ لَو عَذَّبَ أهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأرْضِهِ لَعَذَّبَهُم وَهُوَ غيرُ ظَالِمٍ لَهُمْ**»(١).

وَجاءَ فِي الحَدِيثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ.**

قَالُوا: وَلَا أنْتَ؟!

قَالَ: **وَلَا أنَا إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحمَتِهِ**»(٢).

قُلنَا: لَا إشْكَالَ، فَأمَّا الأوَّلُ: فَمَعنَاهُ أنَّ اللهَ لَو عَذَّبَ أهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأرضِهِ، لَعَذَّبَهُم وَهُمْ مُستَحِقُّونَ لِلعَذَابِ، وَهُوَ غَيرُ ظَالِمٍ، وَمَتَىٰ يَستَحِقُّونَ؟ إذَا خَالَفُوا بِتَركِ الطَّاعَةِ، أو فِعلِ المَعصِيَةِ.

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٨٩)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٦).

وَأَمَّا الثَّانِي: فَالبَاءُ فِي قَولِهِ: «**بِعَمَلِهِ**»، لِلمُعَاوَضَةِ؛ يَعنِي: لَو رَجَعنَا لِلتَّعوِيضِ مَا دَخَلَ أحَدٌ الجَنَّةَ؛ لأنَّ الإنسَانَ لَو حُوسِبَ عَلَىٰ أدْنَىٰ نِعْمَةٍ مِنَ اللهِ لَهَلَكَ، وَلَكِن بِرَحمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَالذِي يُحتَاجُ إلَيهِ مِنْ أقسَامِ الحُكْمِ فِي مَبَاحِثِ التَّوحِيدِ، وَعلَيهِ تَدُورُ مَسَائِلُهُ: الحُكْمُ العَقْلِيُّ.

أمَّا الشَّرعِيُّ: فَيُبحَثُ عَنْهُ فِي عِلْمِ الفِقْهِ، وأصُولِهِ، وَفِي الأخْلَاقِ وَآدَابِ السُّلُوكِ، وَأمَّا العَادِيُّ: فَلَهُ اتِّصَالٌ وَثِيقٌ بِالكَونِيَّاتِ، وَسُنَنِ اللهِ فِيهَا، وَمَا يُجرِيهِ البَشَرُ عَلَيهَا مِنَ التَّجَارِبِ، وَمَا يُستَفَادُ مِنهَا بِالتَّكرَارِ.

وَمَعنَىٰ كَونِ الوجُوبِ وَالاستِحَالَةِ وَالجَوَازِ حُكمًا عَقْلِيًّا: أنَّهَا لازِمَةٌ لِمَا حُكِمَ لَهُ بِهَا، لَا تَقبلُ التَّخلُّفَ عَنهُ وَلَا الانفِكَاكَ، فَقَولُنَا: اللهُ عَلِيمٌ وَحَكِيمٌ، وَالنَّقِيضَانِ لَا يَجتَمِعَانِ وَلَا يَرتَفِعَانِ، وَالضِّدَّانِ لَا يَجتَمِعَانِ، قَضَايَا لَا تَختَلِفُ أحكَامُهَا كَمَا تَختَلِفُ الأحْكَامُ العَادِيَّةُ إكرَامًا مِنَ اللهِ لأولِيَائِهِ، أو إثبَاتًا لِرِسَالَةِ رُسُلِهِ، وَكَمَا تَختَلِفُ الأحكَامُ الشَّرعِيَّةُ الفَرعِيَّةُ بِنَسخٍ أو استِثنَاءٍ، وَلَيسَ المُرَادُ أنَّهَا تَثبتُ بِالعَقلِ دُونَ نُصوصِ الشَّرعِ، فَإنَّ نُصوصَ الشَّرعِ قَدْ جَاءَتْ بِأُصُولِ الدِّينِ، وَكَشَفَتْ لِلعَقْلِ عَمَّا خَفِيَ عَلَيهِ، وَقَصُرَ عَنْ إدرَاكِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ عَقَائِدِ التَّوحِيدِ، وَسَلَكَتْ بِهِ طَرِيقَ الحَقِّ، وَهَدَتْهُ إلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ.

وَلَولَا مَا جَاءَ فِيهَا مِنَ البَيَانِ لارتَكَسَ العَقْلُ فِي حَمأةِ الضَّلَالَةِ، وَقَامَ لِلنَّاسِ العُذْرُ، وَسَقَطَ عَنْهُمُ التَّكلِيفُ».



الشَّرْحُ

قَولُهُ: ارتَكَسَ: انتكَسَ، وَيُقَالُ: ارتَكَسَ فِي أمْرٍ: وَقَعَ وَلَمْ يَنْجُ.

وَالحَمْأَةُ: الحَمأُ، وَهُوَ الطِّينُ الأسْوَدُ المُنْتِنُ.

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ بَعضَ الأدِلَّةِ مِنَ الكِتَابِ العَزِيزِ عَلَىٰ أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أرْسَلَ الرُّسُلَ لِبَيَانِ المَحَجَّةِ، وَقَطْعِ الحُجَّةِ الَّتِي تُدحَضُ بِإرسَالِ الرُّسُلِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]».

الشَّرْحُ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥].

أي: مَن اهتَدَىٰ، فَاتَّبَعَ طَرِيقَ الحَقِّ، فَإنَّمَا يَعودُ ثَوَابُ ذَلِكَ عَلَيهِ وَحْدَهُ، وَمَنْ حَادَ وَاتَّبَعَ طَرِيقَ البَاطِلِ فَإنَّمَا يَعُودُ عِقَابُ ذَلِكَ عَلَيهِ وَحْدَهُ، وَلَا تَحْمِلُ نَفسٌ مُذنِبَةٌ إثمَ نَفْسٍ مُذْنِبَةٍ أخرَىٰ، وَلَا يُعَذِّبُ اللهُ أحَدًا إلَّا بَعْدَ إقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيهِ؛ بِإرسَالِ الرُّسُلِ وَإنزَالِ الكُتُبِ.

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (٢/ ٩١٤): «هِدَايَةُ كُلِّ أحدٍ وَضَلَالُهُ لِنَفسِهِ، لَا يَحْمِلُ أحَدٌ ذَنْبَ أحَدٍ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الشَّرِّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أعْدَلُ العَادِلِينَ لَا يُعَذِّبُ أحَدًا حَتَّىٰ تَقُومَ عَلَيهِ الحُجَّةُ بِالرِّسَالَةِ ثُمَّ يُعَانِدَ الحُجَّةَ.

وَأمَّا مَنِ انقَادَ لِلحُجَّةِ، أوْ لَمْ تَبْلُغهُ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُعَذِّبُهُ؛ استُدِلَّ بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ أنَّ أهْلَ الفَتَرَاتِ وَأطْفَالَ المُشْرِكِينَ، لَا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ حَتَّىٰ يَبْعَثَ إلَيهِم رَسُولًا؛ لأنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلمِ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٥]».



الشَّرْحُ

أي: أرْسَلْتُ رُسُلًا إِلَىٰ خَلقِي مُبَشِّرِينَ بِثَوابِي، وَمُنذِرِينَ بِعِقَابِي، لِئَلَّا يَكُونَ لِلبَشَرِ حُجَّةٌ يَعتَذِرُونَ بِهَا بَعدَ إرسَالِ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا فِي مُلْكِهِ، حَكِيمًا فِي تَدبِيرِهِ.

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (١/ ٣٨٢): «إِنَّ اللهَ أرسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ، وَاتَّبَعَهُم، بِالسَّعَادَةِ الدُّنيَوِيَّةِ وَالأُخرَوِيَّةِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ عَصَىٰ اللهَ وَخَالَفَهُم بِشَقَاوَةِ الدَّارَينِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، فَيَقُولُوا: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، قُلْ: قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، فَلَمْ يَبْقَ لِلخَلْقِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ؛ لإرسَالِهِ الرُّسُلَ تَترَىٰ؛ يُبَيِّنُونَ لَهُم أَمْرَ دِينِهِم وَمَرَاضِيَ رَبِّهِم ومَسَاخِطَهُ، وَطُرُقَ الجَنَّةِ وَطُرُقَ النَّارِ، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَهَذَا مِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ تَعَالَىٰ وَحِكمَتِهِ؛ أَنْ أرسَلَ إِلَيهِم الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيهِمُ الكُتُبَ.

وَذَلِكَ مِن فَضْلِهِ وَإِحسَانِهِ؛ حَيثُ كَانَ النَّاسُ مُضطَرِّينَ إِلَىٰ الأنبِيَاءِ أعظَمَ ضَرُورَةٍ تُقَدَّرُ، فَأَزَالَ هَذَا الاضطِرَارَ، فَلَهُ الحَمْدُ وَلَهُ الشُّكْرُ، وَنَسْأَلُهُ كَمَا ابتَدَأَ عَلَينَا نِعمَتَهُ بِإرسَالِهِم أنْ يُتِمَّهَا بِالتَّوفِيقِ لِسُلُوكِ طَرِيقِهِم؛ إِنَّهُ جَوادٌ كَرِيمٌ».

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه:١٣٤]».

الشَّرْحُ

أي: وَلَو أَنَّا أَهْلَكنَا هَؤلَاءِ المُكَذِّبِينَ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُرسِلَ إِلَيهِم رَسُولًا، ونُنَزِّلَ عَلَيهِم كِتَابًا لَقَالُوا: رَبَّنَا هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَينَا رَسُولًا مِن عِنْدِكَ، فَنُصَدِّقَهُ، وَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَشَرعَكَ مِنْ قَبلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخزَىٰ بِعذَابِكَ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٩/ ٣٨٧): «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

أي: لَو أَنَّا أَهْلَكنَا هَؤلَاءِ المُكَذِّبِينَ قَبلَ أَنْ نُرسِلَ إِليهِم هَذَا الرَّسُولَ الكَرِيمَ، وَنُنَزِّلَ عَلَيهِم هَذَا الكِتَابَ العَظِيمَ لَكَانُوا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾. قَبلَ أَنْ تُهلِكَنَا، حَتَّىٰ نُؤمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ؟ كَمَا قَالَ: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، يُبَيِّنُ تَعَالَىٰ أَنَّ هَؤلَاءِ المُكَذِّبِينَ مُتَعنِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤمِنُونَ ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٧]». اهـ

وَقَدْ بَيَّنَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الرُّسُلَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِم- لَمْ يَأْتُوا بِمَا تُحِيلُهُ العُقُولُ؛ وَلَكِنْ بِمَا تَحَارُ فِيهِ العُقُولُ، وَإِرسَالُ اللهِ الرُّسلَ لَيسَ

مُستَحِيلًا فِي نَفْسِهِ وَلَا عَبَثًا حَتَّىٰ يُجَافِيَ حِكمَةَ اللهِ، بَلْ هُوَ جَائِزٌ عَقْلًا، دَاخِلٌ فِي نِطَاقِ قُدرَةِ اللهِ الشَّامِلَةِ، وَإِرَادَتِهِ النَّافِذَةِ.

فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ لَا مَانِعَ لِمَا أعطَىٰ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، يَشْهَدُ لِهَذَا سُنَّةُ اللهِ فِي تَدبِيرِهِ لِشُئونِ خَلْقِهِ، وَتَصرِيفِهِ لأحوَالِهِم فِي عُقُولِهِم وَمَدَارِكِهِم، وَفِي أبدَانِهِم وَأرزَاقِهِم، وَفِي وَجَاهَتِهِم وَمَرَاكِزِهِم فِي الحَيَاةِ.

وَالفِطَرُ السَّلِيمَةُ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَلَيهَا النَّاسَ لَا تَستَبعِدُ مَا مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، وَقَضَتْ بِهِ حِكمَتُهُ وَعَدْلُهُ فِي خَلْقِهِ، مِن إرسَالِهِ سُبحَانَهُ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، بَلْ أذْعَنَتْ لَهُ، وَأيقَنَتْ بِهِ، استِجَابَةً لِمُقتَضَىٰ العُقولِ الرَّشِيدَةِ.

بَلِ اعترَفَ الكُفَّارُ بِذَلِكَ مَعَ انحِرَافِهِم وَسُلُوكِهِم غَير المَنهجِ القَوِيمِ، وَلَمْ يُنكِرُوا الرِّسَالَةَ نَفسَهَا، وَلَمْ يَستَبعِدُوا حَاجَتَهُم إلَىٰ الهِدَايَةِ مِنَ اللهِ عَنْ طَرِيقِ رُوحٍ طَيِّبَةٍ يَختَارُهَا اللهُ لِوحيِهِ، أو نَفسٍ طَاهِرَةٍ يَصطَفِيهَا اللهُ لِتَبلِيغِ شَرْعِهِ، لَكِنَّهُم استَبعَدوا أنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِن البَشَرِ، وَظَنُّوا خَطَأً أنَّهَا إنَّمَا تَكُونُ مِنَ المَلَائِكَةِ، زَعْمًا مِنْهُم أنَّ البَشَرِيَّةَ تُنَافِي هَذِهِ الرِّسَالَةَ، فَإنَّهُ مَهْمَا صَفَتْ رُوحُ الإنسَانِ وَسَمَتْ نَفسُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُ فَهُوَ -فِي نَظَرِهِم- أقَلُّ شَأنًا مِنْ أنْ يُوحِيَ اللهُ إلَيهِ، وَأحقَرُ فِي زَعمِهِم مِنْ أنْ يَختَارَهُ اللهُ لِتَحمُّلِ أعبَاءِ رِسَالَتِهِ، وَإبلَاغِ شَرِيعَتِهِ.

وَلَكِن، لَمَّا شَاءَ اللهُ أنْ يَكُونَ سُكَّانُ الأرضِ مِنَ البَشَرِ، اقْتَضَتْ حِكمَتُهُ

أنْ يَكُونَ رَسُولُهُ إلَيهِم مِنْ جِنسِهِم، بَلِ اقتَضَتْ حِكمَتُهُ مَا هُوَ أخَصُّ مِن ذَلِكَ لِيَكُونَ أقرَبَ إلَىٰ الوصُولِ لِلغَايَةِ وَتَحصِيلِ المَقصُودِ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَكَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أنْ يُرسِلَ كُلَّ رَسُولٍ بِلِسَانِ قَومِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤].

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ أنْ يُرسِلَ إليهِم رُسُلًا مِن أنفُسِهِم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٣-٤٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان:٢٠].

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلْ جَاءَتِ الرُّسُلُ بِمَا تَحَارُ فِي إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ العُقُولُ، وَتَعْجِزُ عَنْ فَهْمِ كُنْهِهِ الأفْكَارُ: كَسُؤَالِ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَنَعِيمِهِ، وَعَذَابِهِ، وَحيَاةِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ، وَلَكِنَّهَا لَا تُحِيلُهُ، وَلَا تَقْوَىٰ عَلَىٰ رَدِّهِ، وَلَا تَجِدُ لَدَيهَا مِنَ الأدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ مَا يَنقضُهُ، بَلْ وَصَلَتِ العُقُولُ بِتَيسِيرِ اللهِ لهَا، وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهَا إِلَىٰ مَا يُصَدِّقُ هَذَا وَأَمثَالَه مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَوَقَفَتْ بِمَا أَتَاحَ اللهُ لَهَا مِنَ الوَسَائِلِ، وَسَخَّرَ لَهَا مِنَ الكَونِ، وَهَدَاهَا إِلَيهِ مِنَ التَّجَارِبِ عَلَىٰ حَقَائِقَ سَبَقَ أَنْ أَنْكَرَتْهَا، وَسَخِرَتْ مِمَّن تَحَدَّث بِهَا، وَرُبَّمَا رَمَتْهُ بالسِّحْرِ والكَهَانَةِ، أَوِ الخَبَالِ وَالجُنُونِ.

وَلَيسَ ذَلِكَ لِشَيءٍ أَكْثَرَ مِن أَنَّهَا لَمْ تَقَع تَحْتَ حِسِّهَا، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ إِلفِهَا، وَمَعهُودِهَا، فَوَجَبَ أَنْ تَعتَرِفَ بِقُصُورِهَا، وَأَنْ تُقِرَّ بِأَنَّ لإدرَاكِهَا غَايَةً لَا تَعدُوهَا، وَحَدًّا تَقِفُ عِندَهُ، وَتُؤمِنُ بِمَا صَحَّ مِن وَحي اللهِ لِرُسُلِهِ، وَأَنَّ تُسْلِمَ وَجهَهَا إِلَىٰ اللهِ، فَإِنِ اتَّهَمَتْ؛ فَلْتَتَّهِمْ نَفسَهَا بِالقُصُورِ وَالتَّقصِيرِ، دُونَ أَنْ تَتَّهِمَ اللهَ وَرُسُلَهُ، فَإِنَّهَا بِذَلِكَ أَولَىٰ، وَهِيَ بِهِ أَقْعَدُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت:٥٣-٥٤]».



الشَّرْحُ

أي: سَنُرِي هَؤلَاءِ المُكَذِّبِينَ آيَاتِنَا فِي أَقطَارِ السَّموَاتِ وَالأَرضِ، وَمَا

يُحدِثُهُ اللهُ فِيهِمَا مِنَ الحَوَادِثِ العَظِيمَةِ، وَفِي أَنْفُسِهِم وَمَا اشتَمَلَتْ عَلَيهِ مِنْ بَدِيعِ آيَاتِ اللهِ وَعَجَائِبِ صُنعِهِ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُم مِن تِلكَ الآيَاتِ بَيَانٌ لَا يَقبَلُ الشَّكَّ؛ أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ هُوَ الحَقُّ المُوحَىٰ بِهِ مِن رَبِّ العَالَمِينَ.

أَوَلَم يَكفِهِم دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ صَادِقٌ، شَهَادَةُ اللهِ تَعَالَىٰ؟! فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِالتَّصدِيقِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ، وَلَا شَيءَ أَكبَرُ شَهَادَةً مِن شَهَادَتِهِ ﷻ.

أَلَا إِنَّ هَؤلَاءِ الكَافِرِينَ فِي شَكٍّ عَظِيمٍ مِنَ البَعثِ بَعدَ المَمَاتِ، أَلَا إِنَّ اللهَ -جَلَّ وَعَلَا- بِكُلِّ شَيءٍ مُحِيطٌ؛ عِلمًا وَقُدْرَةً وَعِزَّةً، لَا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ فِي الأَرضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ، كَمَا فِي «تَفسِيرِهِ» (١٢/ ٢٥٠): «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣].

أي: سَنُظهِرُ لَهُمْ دَلَالَاتِنَا وحُجَجَنَا عَلَىٰ كَونِ القُرآنِ حَقًّا مُنَزَّلًا مِنْ عِندِ اللهِ ﷻ، عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ بِدَلَائِلَ خَارِجِيَّةٍ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾، مِنَ الفُتُوحَاتِ وَظُهُورِ الإِسلَامِ عَلَىٰ الأَقَالِيمِ وَسَائِرِ الأَديَانِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ: وَدَلَائِلُ فِي أَنفُسِهِم، قَالُوا: وَقعَةُ بَدْرٍ، وَفَتْحُ مَكَّةَ، وَنَحوِ ذَلِكَ مِنَ الوَقَائِعِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ، نَصَرَ اللهُ فِيهَا مُحَمَّدًا وَصَحبَهُ، وَخَذَلَ فِيهَا البَاطِلَ وَحِزْبَهُ.

وَيُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ مِن ذَلِكَ: مَا الإِنسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْهُ وَفِيهِ وَعَلَيهِ

مِنَ المَوَادِّ وَالأخلَاطِ وَالهَيْئَاتِ العَجِيبَةِ، كَمَا هُوَ مَبسُوطٌ فِي عِلْمِ التَّشرِيحِ الدَّالِّ عَلَىٰ حِكمَةِ الصَّانِعِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

وَكَذَلِكَ مَا هُوَ مَجبُولٌ عَلَيهِ مِنَ الأَخْلَاقِ المُتَبَايِنَةِ، مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَبَينَ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ تَحتَ الأَقدَارِ الَّتِي لَا يَقدِرُ بِحَولِهِ، وَقُوتِهِ، وَحِيَلِهِ، وَحَذَرِهِ أَنْ يَجُوزَهَا، وَلَا يَتَعدَّاهَا.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]. أي: كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا عَلَىٰ أَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقوَالِهِم، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّدًا صَادِقٌ فِيمَا أَخبَرَ بِهِ عَنْهُ، كَمَا قَالَ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ﴾ [فصلت:٥٤].

أي: فِي شَكٍّ مِن قِيَامِ السَّاعَةِ ولِهَذَا لَا يَتفَكَّرونَ فِيهِ، وَلَا يَعمَلُونَ لَهُ، وَلَا يَحذَرُونَ مِنهُ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُم هَدَرٌ لَا يَعبَئُونَ بِهِ، وَهُوَ وَاقِعٌ لَا رَيبَ فِيهِ، وَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُقَررًا عَلَىٰ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وَبِكُلِّ شَيءٍ مُحِيطٌ، وَإِقَامَةُ السَّاعَةِ لَدَيهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَيهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾.

أي: المَخلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحتَ قَهْرِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ طَيِّ عِلْمِهِ، وَهُوَ المُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلِّهَا بِحُكمِهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ». اهـ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنْ حَجَبَ الإنسَانَ بَعدَ ذَلِكَ رُكُوبُهُ لِرَأسِهِ، لِجَهَالَةٍ، أَوْ كِبرٍ، أَوْ هَوًىٰ فِي نَفْسِهِ، وَحَاوَلَ بِالبَاطِلِ لِيُدحِضَ بِهِ الحَقَّ، غُلِبَ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَدَارَتْ عَلَيهِ الدَّوَائِرُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر:٥٦-٥٧]».

الشَّرْحُ

أي: لَخَلْقُ اللهِ السَّموَاتِ وَالأرضَ أكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَإعَادَتِهم بَعدَ مَوتِهِم، وَلَكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ خَلْقَ جَمِيعِ ذَلِكَ هَيِّنٌ عَلَىٰ اللهِ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (١٢/ ٢٠١): «قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾.

أي: يَدفَعُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَيَردُّونَ الحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبَهِ الفَاسِدَةِ بِلَا بُرهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللهِ.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾. أي: مَا فِي صُدُورِهِم إِلَّا كِبرٌ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الحَقِّ، واحتِقَارٌ لِمَنْ جَاءَهُم بِهِ، وَلَيسَ مَا يَرومُونَهُ مِنْ

إخمَادِ الحَقِّ وَإعلَاءِ البَاطِلِ بِحَاصِلٍ لَهُمْ، بَلِ الحَقُّ هُوَ المَرفُوعُ، وَقولُهم وَقَصْدُهُم هُوَ المَوضُوعُ.

﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾، أي: مِنْ حَالِ مِثل هَؤلَاءِ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أَي: مِنْ شَرِّ مِثل هَؤلَاءِ المُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيرِ سُلطَانٍ. هَذَا تَفسِيرُ ابن جَرِيرٍ.

يَقولُ تَعَالَىٰ مُنبِّهًا عَلَىٰ أَنَّهُ يُعِيدُ الخَلَائِقَ يومَ القِيَامَةِ، وَأنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيهِ، يَسِيرٌ لَدَيهِ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ، وَخَلْقُهُمَا أكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدْأَةً وَإِعَادَةً، فَمَن قَدَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ مَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الأَوْلَىٰ وَالأَحْرَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

فَلِهَذَا لَا يَتَدَبَّرونَ هَذِهِ الحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ العَرَبِ يَعتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ، وَيُنكِرُونَ المَعَادَ، استِبعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَقَدِ اعتَرَفُوا بِمَا هُوَ أولَىٰ مِمَّا أنكَرُوا». اهـ

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ تعالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]».

الشَّرْحُ

أي: أفرأيت -يَا مُحَمَّدُ- مَن اتَّخذَ هَوَاهُ إلَهًا لَهُ، فَلَا يهوَىٰ شَيئًا إلَّا فَعَلَهُ، وَأضَلَّهُ اللهُ بَعدَ بُلوغِ العِلمِ إلَيهِ، وَقِيامِ الحُجَّةِ علَيهِ، فَلَا يَسْمَعُ مَوَاعِظَ اللهِ، وَلَا يَعتَبِرُ بِهَا، وَطُبِعَ عَلَىٰ قَلْبِهِ، فَلَا يَعقِلُ بِهِ شَيئًا، وَجُعِلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِطَاءٌ، فَلَا يُبصِرُ بِهِ حُجَجَ اللهِ؟

فَمَن يُوَفِّقُهُ لإصَابَةِ الحَقِّ وَالرُّشْدِ بَعدَ إضْلَالِ اللهِ إيَّاهُ؟

أفلَا تذَكَّرونَ -أيُّهَا النَّاسُ- فَتَعلَمُوا أنَّ مَن فَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ فَلَنْ يَهتَدِيَ أبَدًا، وَلَنْ يَجِدَ لِنَفسِهِ وَلِيًّا مُرشِدًا؟

وَالآيَةُ أصْلٌ فِي التَّحذِيرِ مِنْ أنْ يَكُونَ الهَوَىٰ هُوَ البَاعِثَ لِلمُؤمِنِينَ عَلَىٰ أعمَالِهِم.

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (٤/ ١٦٣٦): «يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: الرَّجُلَ الضَّالَّ الذِي ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فَمَا هَوِيَهُ سَلَكَهُ؛ سَوَاء كَانَ يُرضِي اللهَ أَمْ يُسخِطُهُ.

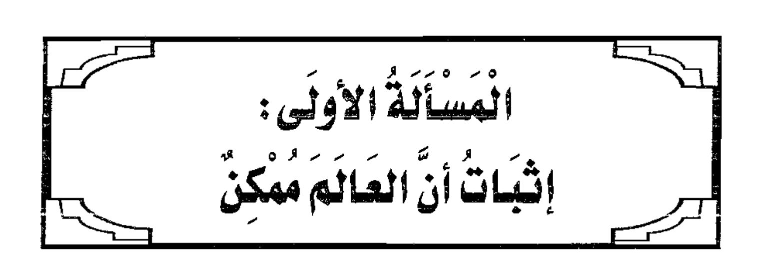
﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا تَلِيقُ بِهِ الهِدَايَةُ وَلَا يَزْكُو عَلَيهَا.

﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾ فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْفَعُهُ، ﴿ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فَلَا يَعِي الخَيرَ ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ تَمنَعُهُ مِنْ نَظَرِ الحَقِّ، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: لَا أحَدَ يَهدِيهِ وَقَدْ سَدَّ اللهُ عَلَيهِ أبوَابَ الهِدَايَةِ وَفَتَحَ لَهُ أبوَابَ الغِوَايَةِ، وَمَا ظَلَمَهُ اللهُ وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفسَهُ وَتَسَبَّبَ لِمَنْعِ رَحمَةِ اللهِ عَلَيهِ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ مَا يَنْفَعُكُم فَتَسلُكُونَهُ وَمَا يَضُرُّكُم فَتَجتَنِبُونَهُ».

وَلَمَّا فَرَغَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن بَيَانِ المُقَدِّمَةِ، وَهِيَ فِي تَعرِيفِ التَّوحِيدِ، وَبَيَانِ الحُكْمِ وَأقسَامِهِ، شَرَعَ فِي بَيَانِ المَسْأَلَةِ الأولَىٰ مِنَ المَسَائِلِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَهِيَ:

❊ ❊ ❊



الْمَسْأَلَةُ الأولى: إثْبَاتُ أنَّ العَالَمَ مُمْكِنٌ

«إنَّ مَا شَاهَدْنَاهُ فِي مَاضِينَا مِنَ الكَائِنَاتِ، وَمَا نُشَاهِدُهُ مِنهَا فِي حَاضِرِنَا مُـمكِنٌ؛ أي: جَائِزُ الوجُودِ وَالعَدَمِ؛ وَذَلِكَ لأنَّا نَرَاهُ يَتحوَّل مِنْ عَدَمٍ إلَىٰ وجُودٍ، وَمِن وجُودٍ إلَىٰ عدَمٍ، وَهَذَا التَّغيُّرُ وَالتَّحوُّلُ دَلِيلُ إمْكَانِهِ؛ إذْ لَو كَانَ وَاجِبًا لَمَا سَبَقَ وجُودُهُ العَدَمَ، وَلَمَا لَحِقَهُ فناءٌ، وَلَو كَانَ مُستَحِيلًا لَمَا قَبِلَ الوجُودَ؛ لأنَّ المُستَحِيلَ لِذَاتِهِ لَا يُوجَدُ، وَحَيثُ إننَا قَدْ شَاهَدْنَاهُ مَوجُودًا بَعدَ عدمٍ ثَبَتَ أنَّهُ مُـمْكِنٌ».



الشَّرْحُ

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ فِي المُقَدِّمَةِ أقسَامَ الحُكْمِ العَقلِيِّ، وَهِيَ:

الوَاجِبُ لِذَاتِهِ: وَهُوَ مَا كَانَ وجُودُهُ لِذَاتِهِ مِنْ حَيثُ هِيَ؛ أي: مَا تَقتَضِي ذَاتُهُ الوجُودَ دَائِمًا بِحَيثُ لَا يَقبَلُ العَدَمَ أصْلًا.

وَالوَاجِبُ لَا أوَّلَ لِوجُودِهِ، وَلَم يُسبَقْ وجُودُهُ بِالعَدَمِ؛ لأنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ

كَذَلِكَ لَكَانَ حَادِثًا مَسبُوقًا فِي وجُودِهِ بِالعَدَمِ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لأَنَّ العَدَمَ مسُتَحِيلٌ فِي حَقِّ الوَاجِبِ، فَذَاتُهُ تَقتَضِي الوجُودَ دَائِمًا، وَلَا تَقبَلُ العَدَمَ أَصْلًا، فَهُوَ الأَوَّلُ لَيسَ قَبلَهُ شَيءٌ.

وَالوَاجِبُ لَا آخِرَ لِوجُودِهِ وَلَا يَلْحَقُهُ عَدَمٌ؛ لأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بَاقِيًا بِلَا آخِرٍ لِوجُودِهِ لَلَحِقَهُ العَدَمُ، وَهُوَ مُستَحِيلٌ فِي حَقِّ الوَاجِبِ؛ لأَنَّ الوجُودَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ الَّتِي لَا تُفَارِقُهَا.

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أَقسَامِ الحُكمِ العَقلِيِّ، المُستَحِيلَ لِذَاتِهِ، وَهُوَ مَا كَانَ عَدَمُهُ لِذَاتِهِ مِنْ حَيثُ هِيَ؛ أي: مَا تَقتَضِي ذَاتُهُ العَدَمَ دَائِمًا بِحَيثُ لَا يَقبلُ الثُّبوتَ أَصْلًا.

وَالعَدَمُ لازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ المُستَحِيلِ؛ فَإِنَّ المُستَحِيلَ لَوْ فُرِضَ وجُودُهُ لَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ مُفَارَقَةُ العَدَمِ لَهُ؛ أي: لَمْ يَكُنِ المُستَحِيلُ مَعْدُومًا، وَذَلِكَ يُؤدِّي إِلَىٰ كَونِهِ غَيرَ مُستَحِيلٍ بَدَاهَةً.

فَلَوِ انتَفَىٰ لَازِمُ المُستَحِيلِ عَنْهُ -وَهُوَ العَدَمُ- فَأَصبَحَ مَوجُودًا لَا مَعدُومًا لَلَزِمَ كَونُهُ غَيرَ مُستَحِيلٍ، وَكَونُ المُستَحِيلِ غَيرَ مُستَحِيلٍ عَلَىٰ ذَلِكَ الفَرْضِ -وَهُوَ مَعنَىٰ سَلْبِ المَاهِيَّةِ عَنْ نَفسِهَا- أَمْرٌ بَاطِلٌ، فَبَطَلَ مَا أَدَّىٰ إِلَيهِ، وَهُوَ فَرضُ وجُودِهِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَقبَلُ الوجُودَ سَواءٌ أَكَانَ فِي الذِّهنِ أَمْ فِي الخَارِجِ.

وَذَكَرَ الجَائِزَ لِذَاتِهِ، وَهُوَ المُمكِنُ، وَهُوَ: مَا لَا وجُودَ وَلَا عَدَمَ لِذَاتِهِ مِنْ حَيثُ هِيَ؛ أي مَا لَا تَقْتَضِي ذَاتُهُ الوجُودَ أَوِ العَدَمَ، بَلْ وجُودُهُ وعَدَمُهُ مِن

غَيرِهِ، فَهُوَ مُحتَاجٌ بِالضَّرورَةِ إلَىٰ سَبَبٍ فِي وجُودِهِ إذَا وُجِدَ، وإلَىٰ سَبَبٍ فِي عَدَمِهِ إذَا كَانَ مَعدُومًا أصْلًا، أو طَرَأ عَلَيهِ العَدَمُ بَعْدَ الوجُودِ.

وَجَمِيعُ الكَائِنَاتِ الَّتِي نَراهَا أمَامَنَا مِنَ الحيَوَانَاتِ والنَّبَاتَاتِ وَالجمَادَاتِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ أحوَالِهَا كَنُزُولِ الأمطَارِ وَهُبوبِ الرِّيَاحِ وغَيرِهَا؛ فَإنَّهَا تُوجَدُ بَعْدَ عَدَمٍ، ثُمَّ يَلْحَقُهَا العَدَمُ بعدَ الوجُودِ.

فَوجُودُهَا -إذَنْ- لَيسَ ضَرُورِيًّا كَوجُودِ الوَاجِبِ، وَإلَّا لَمَا عُدِمَتْ، وَعَدَمُهَا لَيسَ ضَرُورِيًّا لِعَدَمِ المُستَحِيلِ، وَإلَّا لَمَا وُجِدَتْ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الوجُودِ وَالعَدَمِ جَائِزَانِ فِي حَقِّهَا مِن حَيثُ النَّظَرُ لِذَاتِهَا، وَهَذَا هُوَ مَعنَىٰ إمكَانِهَا.

فَهَذَا العَالَمُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ بِجَمِيعِ مَخلُوقَاتِهِ جَائِزُ الوجُودِ مِنْ حَيثُ ذَاتُهُ، بِدَلِيلِ مَا يَلحَقُ أفرَادَهُ مِنْ تَغيُّرٍ دَائِمٍ فِي الوجُودِ وَالعَدَمِ، وَفِي القُوَّةِ وَالضَّعفِ وَفِي الصِّحَّةِ وَالمَرضِ، وَفِي الحَيَاةِ وَالموتِ.

فَهَذَا العَالَمُ حَادِثٌ، وَهَذِهِ الكَائِنَاتُ الَّتِي نُدرِكُهَا فِي العَالَمِ الخَارِجِيِّ حَادِثَةٌ، وَمَعنَىٰ ذَلِكَ أنَّهَا عُرضَةٌ لِلتَّغيرِ وَالأُفولِ، وَأنَّ صِفَاتِهَا الطَّارِئَةَ تُملَىٰ عَلَيهَا إمْلَاءً، وَتَتَحكَّمُ بِهَا قَهرًا وَإلزَامًا، وَلَيسَ بَينَ الحَوادِثِ حَادِثٌ يَستَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ أوِ التَّجرُّدَ مِنهُ، وَجَمِيعُ الحَوادِثِ مَوصُوفَةٌ بِالعَجزِ وَالنَّقصِ.

***

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيةُ
الْمُمكِنُ مُحتَاجٌ إِلَى مُوجِدٍ وَمُؤثِّرٍ

«وَحَيثُ ثَبَتَ أَنَّ العَالَمَ مُمْكِنٌ، وَالمُمكِنُ مَا استَوَىٰ طَرفَاهُ -الوجُودُ وَالعَدَمُ- بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ ذَاتِهِ، فَوجُودُهُ لَيسَ مِن ذَاتِهِ، وَعَدَمُهُ بَعدَ وجُودِهِ لَيسَ مِن ذَاتِهِ.

إِذَنْ: لَابُدَّ لَهُ مِنْ سَبَبٍ يُرَجِّحُ وجُودَهُ عَلَىٰ العَدَمِ؛ إِذْ لَو وُجِدَ بِدُونِ سَبَبٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ وَحَقِيقَتِهِ لَلَزِمَ تَرجِيحُ أَحَدِ المُتَسَاوِيَينِ عَلَىٰ الآخَرِ بِلَا مُرجِّحٍ، وَهُوَ بَاطِلٌ.

وَلَو أَوجَدَ المُمكِنُ نَفسَهُ لَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُتَقَدِّمًا عَلَىٰ نَفسِهِ بِاعتِبَارِهِ خَالِقًا لَهَا، وَمُتَأَخِّرًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِاعتِبَارِهِ مَخْلُوقًا لَهَا، وَتَقَدُّمُ الشَّيءِ عَلَىٰ نَفسِهِ، وَتَأَخُّرُهُ عَنْهَا مُحَالٌ بِالضَّرورَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنَاقُضِ الوَاضِحِ.

فَثَبَتَ أَنَّ المُمْكِنَ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ غَيرِ ذَاتِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يُوجِدُهُ وَيُدَبِّرُ شُئُونَهُ فِي كُلِّ أَحوَالِهِ.

هَذَا المُغَايِرُ: إِمَّا المُستَحِيلُ وإِمَّا الوَاجِبُ، لَا جَائِزَ أَنْ يَكُونَ مُوجِدُهُ هُوَ المُستَحِيلَ؛ لأَنَّ المُستَحِيلَ غَيرُ مَوجُودٍ فَلَا يُؤثِّرُ، وَلأَنَّ فَاقِدَ الشَّيءِ لَا يُعطِيهِ،

فَثَبَتَ أَنَّ مُوجِدَهُ هُوَ الوَاجِبُ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ أَرْشَدَنَا اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥].

فَقَدْ أَنْكَرَ سُبحَانَهُ أَنْ يَكونُوا قَدْ خُلِقُوا بِلَا خَالِقٍ، وَأَنْ يَكُونُوا قَدْ خَلَقُوا أَنفُسَهُم، فَإِذَنْ لَابُدَّ لَهُمْ مِنْ خَالِقٍ مَوجُودٍ مُغَايِرٍ لَهُم وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَمِنْ ذَلِكَ يَتَّضِحُ اتِّفَاقُ الفِطْرَةِ، وَالعَقْلِ السَّلِيمِ، وَالسَّمْعِ، عَلَىٰ أَنَّ العَالَمَ مُحتَاجٌ إِلَىٰ صَانِعٍ، وَمُستَنِدٌ إِلَىٰ مُوجِدٍ أَوْجَدَهُ».



الشَّرْحُ

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ حَاجَةَ المُمْكِنِ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي وجُودِهِ وَعَدَمِهِ، وَالشَّيءُ المُمْكِنُ -حَيَوَانًا أَوْ نَبَاتًا أَوْ جَمَادًا- يَحتَاجُ بِالضَّرورَةِ إِلَىٰ سَبَبٍ فِي وجُودِهِ إِذَا وُجِدَ، وَإِلَىٰ سَبَبٍ فِي عَدَمِهِ إِذَا كَانَ مَعْدُومًا أَصْلًا، أَوْ طَرَأَ عَلَيهِ العَدَمُ بَعْدَ الوجُودِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِن وجُودِ المُمْكِنِ وَعَدَمِهِ لَيسَا لِذَاتِهِ، بَلْ لِغَيرِهِ، وَأَنَّ ذَاتَهُ لَا تَستَلزِمُ أَحَدَهُمَا بِالضَّرورَةِ دُونَ الآخرِ، بَلْ تَارَةً تَكُونُ مَوجُودَةً، وتَارَةً تَكُونُ مَعدُومَةً، فَهُمَا بِذَلِكَ مُتَسَاوِيَانِ بِالنِّسبَةِ لِذَاتِهِ فِي جَوَازِهِمَا عَلَيهِ.

فَلَو وُجِدَ شَيءٌ مُمكِنٌ بِلَا سَبَبٍ يُرَجِّحُ وجُودَهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ لَلَزِمَ رُجحَانُ أَحَدِ المُتَسَاوِيَينِ -وَهُوَ الوجُودُ- بِلَا مُرجِّحٍ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ؛ لأَنَّهُ يَقتَضِي كَونَهمَا غَيرَ مُتَسَاوِيَينِ وَأَنَّ الوجُودَ أرجَحُ مِنَ العَدَمِ، بَينَمَا يَتَسَاوَىٰ فِي المُمكِنِ الوجُودُ وَالعَدَمُ بِالنِّسبَةِ لِذَاتِهِ.

فَلَو وُجِدَ شَيءٌ مُمكِنٌ بِلَا سَبَبٍ، أو عُدِمَ بِلَا سَبَبٍ؛ لَلَزِمَ رُجحَانُ أَحَدِ المُتَسَاوِيينِ -وَهُمَا الوجُودُ والعَدَمُ- بِلَا مُرجِّحٍ، وَلَكَانَا بِذَلِكَ غَيرَ مُتَسَاوِيَينِ، وَفِي ذَلِكَ جَمْعٌ بَينَ النَّقِيضَينِ -وَهُمَا التَّسَاوِي وَعَدَمُ التَّسَاوِي- فِي شَيءٍ وَاحِدٍ، وَاجتِمَاعُ النَّقِيضَينِ بَاطِلٌ؛ فَلَابُدَّ -إِذَنْ- مِنَ السَّبَبِ فِي وجُودِ المُمكِنِ وَعَدَمِهِ.

وَكُلُّ شَيءٍ مِنَ المُمكِنَاتِ المَوجُودَةِ حَادِثٌ، وَمَعنَىٰ كَونِ المُمكِنِ حَادِثًا: أَنَّهُ وجِدَ بَعدَ أَنْ كَانَ مَعدُومًا، فَحدُوثُ الشَّيءِ هُوَ وجودُهُ بَعدَ عَدَمٍ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ حُدُوثِ المُمكنَاتِ يَنبَنِي عَلَىٰ مُقدِّمَةٍ لَابُدَّ مِنْ بيَانِهَا، وَهِيَ:

أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ المُمكنَاتُ مُحتَاجَةً إِلَىٰ السَّبَبِ فِي وجُودِهَا وَعَدَمِهَا، فَمَعنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ أمرٌ مُمكِنٌ فَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ قَبلَ وجُودِ سَبَبِهِ، وإِمَّا أَنْ يُوجَدَ مَعَ سَبَبِهِ، وإِمَّا أَنْ يُوجَدَ بَعْدَهُ.

أَمَّا الفَرضُ الأَوَّلُ -وَهُوَ وجُودُ الشَّيءِ المُمكِنِ قَبلَ وجُودِ سَبَبِهِ-؛ فبَاطِلٌ؛ لأَنَّ المُمكِنَ مُحتَاجٌ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي وجُودِهِ، وذَلِكَ الفَرضُ يُؤدِّي إِلَىٰ تَقدُّمِ الشَّيءِ المُحتَاجِ -وَهُوَ المُمكِنُ- عَلَىٰ المُحتَاجِ إِلَيهِ فِي الوجُودِ، وَهُوَ

السَّببُ، وَفِي ذَلِكَ إبطَالٌ لِحَاجَةِ المُمكِنِ إلَىٰ السَّبَبِ فِي وجُودِهِ مَا دَامَ قَدْ وُجِدَ قَبلَهُ، بَينَمَا أنَّ حَاجَةَ المُمكِنِ إلَىٰ السَّبَبِ أمرٌ ثَابتٌ بِالضَّرورَةِ.

فَتَقَدُّمُ المُمكنِ عَلَىٰ سَبَبِهِ بِالوجُودِ فرَضٌ بِاطِلٌ.

أمَّا الفَرضُ الثَّانِي -وَهُوَ وجُودُ المُمكِنِ مَعَ وجُودِ سببِهِ مُقَارِنًا لَهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ-؛ فَبَاطِلٌ كَذَلِكَ.

ذَلِكَ أنَّ وجُودَ المُمكِنِ مَعَ وجُودِ سَبَبِهِ يَستَلزِمُ تَسَاوِيَهُمَا فِي رُتبَةِ الوجُودِ؛ أي: لَا يَكُونُ لأحدِهِمَا عَلَىٰ الآخَرِ مِيزَةٌ فِي وجُودِهِ مَا دَامَا قَدْ وُجِدَا مَعًا فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الحُكْمُ بِأنَّ أحَدَهُمَا سَبَبٌ فِي وجُودِ الآخَرِ وعِلَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ فِيهِ تَرجِيحًا لأحَدِ المُتَسَاوِيَينِ عَلَىٰ الآخَرِ بِلَا مُرَجِّحٍ، وَهُوَ بَاطِلٌ؛ لأنَّهُ يَستَلزِمُ كَونَهُمَا غَيرَ مُتَسَاوِيَينِ، وَذَلِكَ تَنَاقُضٌ.

وَإذَا كَانَ قَدْ بَطَلَ تَقدُّمُ المُمكِنِ عَلَىٰ سَبَبِهِ، وَمُقَارَنَتُهُ لَهُ فِي الوجُودِ، صَحَّ الفَرضُ الثَّالِثُ وَهُوَ وجُودُ المُمكِنِ بَعدَ وجُودِ سَبَبِهِ.

وَبِناءً عَلَىٰ هَذِهِ المُقَدِّمَةِ -وَهِيَ ضَرُورَةُ وجُودِ المُمكِنِ بَعدَ وجُودِ سَبَبِهِ- يَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَىٰ حُدُوثِ المُمكِنِ عَلَىٰ النَّحوِ الآتِي:

تَقَدُّمُ السَّبَبِ عَلَىٰ المُمكِنِ بِالوجُودِ يَقتَضِي وجُودَ السَّبَبِ وَحدَهُ أوَّلًا، ثُمَّ وجُودَ المُمكِنِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَعِندَ وجُودِ السَّبَبِ وحَدَهُ، وقَبلَ أنْ يُوجَدَ المُمكِنُ يَكُونُ مَعدُومًا؛ أي: أنَّ وجُودَ المُمكِنِ يَكُونُ مَسبُوقًا بِالعَدَمِ عِندَ وجُودِ السَّبَبِ وَحدَهُ فَيكُونُ حَادِثًا؛ لأنَّ مَعنَىٰ الشَّيءِ الحَادِثِ: هُوَ مَا يُوجَدُ

بَعدَ عَدَمٍ، فَكُلُّ مُمكِنٍ حَادِثٌ.

فَالابنُ -مَثَلًا- يَكُونُ مَعدُومًا عِندَ وجُودِ أَبِيهِ وحدَهُ قَبلَ أنْ يُنجِبَهُ، ثُمَّ إِذَا أَنجَبَهُ كَانَ وجُودُ ذَلِكَ الابنِ حَادِثًا؛ لأَنَّهُ وُجِدَ بَعدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا هُوَ مَعنَىٰ الحُدوثِ الثَّابِتِ فِي كُلِّ أمرٍ مُمكِنٍ.

وَكَمَا أَنَّ المُمْكِنَ يَحتَاجُ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي ابتِدَاءِ وجُودِهِ، فَهُوَ كَذَلِكَ يَحتَاجُ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي حِفْظِ بَقَائِهِ مَوجُودًا.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ المُمكِنَ لَا تَقتَضِي ذَاتُهُ الوجُودَ أَوِ العَدَمَ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يُرَجَّحُ لَهَا الوجُودُ عَلَىٰ العَدَمِ مِنْ حَيثُ هِيَ، بَلْ لَابُدَّ فِي وجُودِ المُمكِنِ إِذَا وُجِدَ -مِنْ سَبَبٍ خَارِجٍ يُرجِّحُ وجُودَهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ.

فَحَاجَةُ المُمكِنِ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي وجُودِهِ لازِمٌ مِن لَوَازِمِ حَقِيقَةِ الإمكَانِ لَا يَنفَكُّ عَنهَا فِي أي حَالٍ مِن أحوَالِ وجُودِهِ، سَواءٌ كَانَ فِي ابتِدَاءِ وجُودِهِ أو فِي بَقَائِهِ.

فَنَحن نَصِفُ أيَّ كَائِنٍ أَمَامَنَا بِأَنَّهُ مُمكِنٌ مَوجُودٌ، فَنَحكُمُ بِحَاجَتِهِ إِلَىٰ السَّبَبِ عِندَ ابتِدَاءِ وجُودِهِ؛ لأنَّ وجُودَهُ لَا لِذَاتِهِ، بَلْ لِغَيرِهِ، ثُمَّ نَصِفُهُ فِي اللَّحظَةِ الثَّانِيةِ وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابعَةِ إِلَىٰ آخِرِ أوقَاتِ بَقَائِهِ بِأَنَّهُ مَوجُودٌ كَذَلِكَ.

وَمِنْ هُنَا يَجِبُ عَلَينَا أَنْ نُثبِتَ حَاجَتَهُ إِلَىٰ السَّبَبِ فِي كَونِهِ مَوجُودًا لَحظَةً بَعْدَ أُخْرَىٰ؛ أي: فِي بَقَائِه، لِمَا مَرَّ ذِكرُهُ مِنْ أَنَّ وجُودَهُ لَيسَ لِذَاتِهِ بَلْ لِغَيرِهِ بِاعتِبَارِهِ أَمْرًا مُمكِنًا.

وَهُوَ مَا يَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَيهِ مِنْ حَاجةِ المُمْكِنِ فِي بَقَائِهِ مَوجُودًا إِلَىٰ السَّبَبِ، كَحَاجَتِهِ إِلَيهِ فِي ابتِدَاءِ وجُودِهِ.

قَالَ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «دَلَائِلِ التَّوحِيدِ» (ص٥٧): «العَالَمُ إِمَّا أَنَّهُ أَحْدَثَ ذَاتَهُ أَوْ حَدَثَ بِغَيرِ أَنْ يُحدِثَهُ غَيرُهُ، وَبِغَيرِ أَنْ يُحدِثَ هُوَ نَفسَهُ، أَوْ يَكُونَ أَحْدَثَهُ غَيرُهُ.

فَإِنْ كَانَ هُوَ أَحدَثَ ذَاتَهُ كَانَ عِلَّةً لِنَفسِهِ مُتَقَدِّمًا عَلَيهَا، فَلَزِمَ كَونُهُ قَبلَ أَنْ يَكُونَ وَهُوَ مُحَالٌ، وَأَيضًا فَإِنَّه يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّيءُ غَيرَ ذَاتِهِ، وَهَذَا مُحَالٌ بَاطِلٌ بِالمُشَاهَدَةِ وَالحِسِّ.

وَإِنْ كَانَ خَرَجَ عَنِ العَدَمِ إِلَىٰ الوجُودِ بِغَيرِ أَنْ يُخرِجَ هُوَ ذَاتَهُ، أَو يُخرِجَهُ غَيرُهُ فَهَذَا أَيضًا مُحَالٌ؛ لأَنَّهُ لَا حَالَ أَولَىٰ بِخرُوجِهِ إِلَىٰ الوجُودِ مِنْ حَالٍ أُخرَىٰ، وَلَا حَالَ هُنَاكَ أَصْلًا، فَإِذَنْ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ خُروجِهِ، وَخُروجُهُ مُشَاهَدٌ مُتَيقَّنٌ.

وَإِذَا بَطَلَ أَنْ يَخرُجَ العَالَمُ بِنَفسِهِ، وَبَطَلَ أَنْ يَخرُجَ دُونَ أَنْ يُخرِجَهُ غَيرُهُ، فَقَدْ ثَبَتَ الوَجهُ الثَّالِثُ ضَرورَةً، إِذْ لَمْ يَبقَ غَيرُهُ أَلبَتَّةَ، فَلَابُدَّ مِن صِحَّتِهِ، وَهُوَ أَنَّ العَالَمَ أَخْرَجَهُ غَيرُهُ مِنَ العَدَمِ إِلَىٰ الوجُودِ، وَهُوَ بِالضَّرورَةِ الخَالِقُ تَعَالَىٰ، أَشَارَ لَهُ ابنُ حَزْمٍ فِي «الفِصَلِ».

وَثَمَّةَ فِي بَابِ الانحِصَارِ المُلزِمِ طَرِيقَةٌ أُخرَىٰ أَشَارَ لَهَا بَعضُ المُحقِّقِينَ قَالَ: إِنَّ وجُودَ الأَشيَاءِ إِمَّا بِالاتِّفَاقِ وَالصُّدفَةِ، وَإِمَّا بِالضَّرورَةِ، وإِمَّا بِالقَصْدِ

وَالإِرَادَةِ، وَكُلٌّ مِنَ الأَوَّلِ وَالثَّانِي بَاطِلٌ.

أَمَّا الأَوَّلُ: فَلِأَنَّهُ يَقتَضِي وجُودَ مَعلُولٍ بِلَا عِلَّةٍ.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَيقتَضِي أَنَّ الأَشيَاءَ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيهِ الآنَ كَانَتْ كَذَلِكَ مُنذُ الأَزَلِ، وَالوَاقِعُ خِلَافُ ذَلِكَ.

وَحِينَئِذٍ: كَيفَ تَوزَّعَتْ عَنَاصِرُ العَالَمِ عَلَىٰ نِسَبِهَا المَعلُومَةِ، وَلِمَ -إِذَنْ- كَانَ الذَّهَبُ أَقَلَّ مِنَ الحَدِيدِ، وَالحَدِيدُ أَقَلَّ مِنَ الصَّلصَالِ؟

وَكَيفَ استَنسَبتِ الكُرَةُ الأَرضِيَّةُ فِي خَواصِّ مَوادِّهَا، وَصِفَاتِهَا، وَمِقدَارِهَا، وَتوزَّعَتْ عَلَىٰ مُقتَضَىٰ حَاجَةِ الأَحيَاءِ وَانتِشَارِهَا وَنُموِّهَا؟! وَكَيفَ نَشَأَتِ الحيَاةُ فِي الجَمَادِ؟!

مَا ذَلِكَ إِلَّا لأَنَّ كُلَّ حَيٍّ قَائمٌ بِعِنَايَةِ خَالِقٍ ضَابِطٍ لِلكُلِّ، فَالعَالَمُ مَخلُوقٌ فَثَبَتَ الخَالِقُ الأَزَلِيُّ.

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ مِنَ الأَدِلَّةِ العِلمِيَّةِ، وَالعِلمُ الحَقُّ دَلِيلٌ عَلَىٰ الإِلَهِ الحَقِّ». اهـ

دَلَالَةُ العَقْلِ عَلَىٰ أَنَّ المُمكِنَ مُحتَاجٌ إِلَىٰ مُوجِدٍ وَمُؤثِّرٍ، هِيَ دَلَالَتُهُ عَلَىٰ وجُودِ الخَالِقِ، فَنَقُولُ: هَلْ وجُودُ هَذِهِ الكَائِنَاتِ بِنَفسِهَا، أَوْ وجِدَتْ صُدفَةً؟

فَإِنْ قُلْتَ: وُجِدَتْ بِنَفسِهَا؛ فَمُستَحِيلٌ عَقْلًا، مَا دَامَتْ هِيَ مَعدُومَةً؛ كَيفَ تَكُونُ مَوجُودَةً وَهِيَ مَعدُومَةٌ؟!

المَعدُومُ لَيسَ بِشَيءٍ حَتَّىٰ يُوجِدَ، إِذَنْ لَا يُمكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفسَهَا بِنَفسِهَا!

وَإِنْ قُلتَ: وُجِدَتْ صُدفَةً، فنَقُولُ: هَذَا يَستَحِيلُ أيضًا، فَأَنْتَ أَيُّهَا الجَاحِدُ، هَلْ مَا أُنتِجَ مِنَ الطَّائِرَاتِ وَالصَّوَارِيخِ وَالسَّيارَاتِ وَالآلَاتِ بِأنواعِهَا؛ هَلْ وُجِدَ هَذَا صُدفَةً؟!

فَيَقولُ: لَا يُمكِنُ أنْ يَكُونَ.

فَكَذَلِكَ هَذِهِ الأطيَارُ وَالجِبَالُ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالشَّجَرُ وَالرِّمَالُ وَالبِحَارُ، وَغَيرُ ذَلِكَ، لَا يُمكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدفَةً أَبَدًا.

وَيُقَالُ إنَّ طَائِفَةً مِنَ السُّمَنِيَّةِ جَاءُوا إِلَىٰ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ -وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الهِندِ- فَنَاظَرُوهُ فِي إثبَاتِ الخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَانَ أبُو حَنِيفَةَ مِنْ أذْكَىٰ العُلَمَاءِ، فَوَعدَهُم أَنْ يَأتُوا بَعدَ يَومٍ أوْ يَومَينِ، فَجَاءُوا؛ قَالُوا: مَاذَا قُلْتَ؟

قَالَ: أنَا أُفَكِّرُ فِي سَفِينَةٍ مَملُوءَةٍ مِنَ البَضَائِعِ وَالأرزَاقِ، جَاءَتْ تَشُقُّ عُبَابَ المَاءِ، حَتَّىٰ رَسَتْ فِي المِينَاءِ، وأَنْزَلَتِ الحمُولَةَ وَذَهَبَتْ، وَلَيسَ فِيهَا قَائِدٌ وَلَا حَمَّالُونَ.

قَالُوا: تُفَكِّرُ بِهَذَا؟!

قَالَ: نَعَم.

قَالُوا: إذَنْ لَيسَ لَكَ عَقْلٌ! هَلْ يُعقَلُ أَنَّ سَفِينَةً تَأتِي بِدُونِ قَائِدٍ، وَتُنزِلُ وَتَنصَرِفُ؟! هَذَا لَيسَ مَعقُولًا!

قَالَ: كَيفَ لَا تَعقِلُونَ هَذَا، وَتَعقِلُونَ أَنَّ هَذِهِ السَّمَوَاتِ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ

وَالنُّجُومَ وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالدَّوَابَّ وَالنَّاسَ كُلَّهَا بِدونِ صَانِعٍ؟!

فَعَرَفُوا أَنَّ الرَّجُلَ خَاطَبَهُم بِعُقُولِهِم، وَعَجَزُوا عَنْ جَوَابِهِ.

وَقِيلَ لِأعرَابِيٍّ مِنَ البَادِيَةِ: بَمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقَالَ: الأَثَرُ يَدُلُّ عَلَىٰ المَسِيرِ، وَالبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ البَعِيرِ؛ فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبرَاجٍ وَأَرضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَموَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَىٰ السَّمِيعِ البَصِيرِ؟

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (٤/ ١٧٢٦) عِندَ قَولِهِ تَعَالَىٰ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: «وَهَذَا استِدلَالٌ عَلَيهِم، بِأَمرٍ لَا يُمكِنُهُم فِيهِ إِلَّا التَّسلِيمُ لِلحَقِّ، أَوِ الخُرُوجُ عَنْ مُوجِبِ العَقْلِ وَالدِّينِ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُم مُنكِرونَ لِتَوحِيدِ اللهِ، مُكَذِّبُونَ لِرَسُولِهِ، وَذَلِكَ مُستَلزِمٌ لِإنكَارِ أَنَّ اللهَ خَلَقَهُم.

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي العَقْلِ مَعَ الشَّرعِ، أَنَّ ذَلِكَ لَا يَخلُو مِن أَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

إِمَّا أَنَّهُم خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَيءٍ؛ أَي: لَا خَالِقَ خَلَقَهُمْ؛ بَلْ وُجِدُوا مِن غَيرِ إِيجَادٍ وَلَا مُوجِدٍ، وَهَذَا عَينُ المُحَالِ.

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لِأَنفُسِهِم؟! وَهَذَا أَيضًا مُحَالٌ، فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُوجِدَ أَحَدٌ نَفْسَهُ.

فَإِذَا بَطَلَ هَذَانِ الأَمرَانِ، وَبَانَ استِحَالَتُهُمَا، تَعَيَّنَ القِسْمُ الثَّالِثُ:

وَهُوَ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُم، وَإِذَا تَعيَّنَ ذَلِكَ؛ عُلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ المَعبُودُ وَحدَهُ، الَّذِي لَا تَنبَغِي العِبَادَةُ وَلَا تَصلُحُ إِلَّا لَهُ تَعَالَىٰ». اهـ

وَقَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾.

أي: أَوُجِدُوا مِنْ غَيرِ مُوجِدٍ؟ أَمْ هُم أوجَدُوا أنفُسَهُم؟ أي: لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلِ اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأنشَأَهُم بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيئًا مَذْكُورًا.

رَوَىٰ البُخَارِيُّ: عَن جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ، قَالَ: سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يَقرأُ فِي المَغربِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]. كَادَ قَلبِي أَنْ يَطِيرَ[(١)].

وَجُبيرُ بنُ مُطعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ بَعدَ وَقعَةِ بَدرٍ فِي فِدَاءِ الأُسَارَىٰ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشرِكًا، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الآيَةَ مِن هَذِهِ السُّورَةِ مِن جُملَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي الإِسلَامِ بَعدَ ذَلِكَ»[(٢)].

* * *

(١) رواه البخاري (٤٥٧٣)، ومسلم (٤٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣/ ٢٣٨).

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِن ذَلِكَ يَتَّضِحُ اتِّفَاقُ الفِطرَةِ، وَالعَقلِ السَّلِيمِ، وَالسَّمعِ، عَلَىٰ أَنَّ العَالَمَ مُحتَاجٌ إِلَىٰ صَانِعٍ، وَمُستَنِدٌ إِلَىٰ مُوجِدٍ أَوْجَدَهُ».



الشَّرْحُ

لَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ وجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ أُمُورٌ هِيَ:

- الفِطْرَةُ؛ وَكُلُّ مَخلُوقٍ قَدْ فُطِرَ عَلَىٰ الإيمَانِ بِخَالِقِهِ مِن غَيرِ سَبقِ تَفكِيرٍ أَوْ تَعلِيمٍ، وَلَا يَنصَرِفُ عَن مُقتَضَىٰ هَذِهِ الفِطْرَةِ إِلَّا مَن طَرَأَ عَلَىٰ قَلبِهِ مَا يَصرِفُهُ عَنهَا؛ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِن مَولُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ»(١).

- العَقْلُ؛ وَدَلَالَةُ العَقلِ عَلَىٰ وجُودِهِ تَعَالَىٰ؛ لأَنَّ هَذِهِ المَخلُوقَاتِ سَابِقَهَا وَلاحِقَهَا لَابُدَّ لَهَا مِنْ خَالِقٍ أوجَدَهَا؛ إِذْ لَا يُمكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفسَهَا بِنَفسِهَا، وَلَا يُمكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً.

لَا يُمكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفسَهَا بِنفسِهَا؛ لأَنَّ الشَّيءَ لَا يَخلُقُ نَفسَهُ، لأَنَّهُ قَبلَ وجُودِهِ مَعدُومٌ فَكَيفَ يَكُونُ خَالِقًا؟!

وَلَا يُمكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدفَةً؛ لأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحدِثٍ، وَلأَنَّ وجُودَهَا عَلَىٰ هَذَا النِّظَامِ البَدِيعِ، وَالتَّنَاسُقِ المُتَآلِفِ، وَالارْتِبَاطِ المُلتَحِمِ بَينَ

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

الأسبَابِ وَمُسبَّبَاتِهَا وَبينَ الكَائِنَاتِ بَعضِهَا مَعَ بَعضٍ يَمنَعُ مَنْعًا بَاتًّا أنْ يَكُونَ وجُودُهَا صُدفَةً، إذِ المَوجُودُ صُدفَةً لَيسَ عَلَىٰ نِظَامٍ فِي أصْلِ وجُودِهِ، فَكَيفَ يَكُونُ مُنتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتطَوُّرِهِ؟

وَإذَا لَمْ يَكُنْ أنْ تُوجِدَ هَذِهِ المَخلُوقَاتُ نَفسَهَا بِنفسِهَا، وَلَا أنْ تُوجَدَ صُدفَةً؛ تَعَيَّنَ أنْ يَكُونَ لَهَا مُوجِدٌ، وَهُوَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذَا الدَّلِيلَ العَقلِيَّ وَالبُرهَانَ القَطعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ، حَيثُ قَالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

يَعنِي: أنَّهُم لَمْ يُخلَقُوا مِنْ غَيرِ خَالِقٍ وَلَا هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أنفُسَهُم، فَتعَيَّنَ أنْ يَكُونَ خَالِقَهُم هُوَ الله -تَبَارَكَ وَتعَالَىٰ-.

وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ جُبَيرُ بنُ مُطعِمٍ ﷺ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]. وَكَانَ جُبَيرٌ يَومَئِذٍ مُشرِكًا.

قَالَ: كَادَ قَلبِي أنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أوَّل مَا وَقَرَ الإيمَانُ فِي قَلبِي[1].

وَهَذَا مِثَالٌ يُوضِّحُ ذَلِكَ:

لَو حَدَّثَكَ شَخصٌ عَنْ قَصرٍ مَشِيدٍ أحَاطَتْ بِهِ الحَدَائِقُ وَجَرَتْ بَينَهَا

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٨).

الأنْهَارُ، وَمُلِئَ بِالفُرُشِ وَالأسِرَّةِ، وَزُيِّنَ بِأنوَاعِ الزِّينَةِ مِنْ مُقوِّمَاتِهِ وَمُكمِّلَاتِهِ، وَقَالَ لَكَ: إنَّ هَذَا القَصرَ وَمَا فِيهِ مِنْ كَمَالٍ قَدْ أوجَدَ نَفسَهُ، أو وُجِدَ هَكَذَا صُدفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ، لَبَادَرْتَ إلَىٰ إنكَارِ ذَلِكَ وَتَكذِيبِهِ، وَعَدَدْتَ حَدِيثَهُ سَفَهًا مِنَ القَولِ، أفَيجُوزُ بَعدَ ذَلِكَ أنْ يَكُون هَذَا الكَونُ الوَاسِعُ بِأرْضِهِ وَسَمَائِهِ وَأفْلَاكِهِ وَأحوَالِهِ وَنِظَامِهِ البَدِيعِ البَاهِرِ قَدْ أوجَدَ نَفسَهُ، أو وُجِدَ صُدفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؟!

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الحِكمَةِ مِنْ إرسَالِ الرُّسُلِ» (ص١٥) آيَتي سُورَةِ الطُّورِ، وَذَكَرَ الدَّلِيلَ العَقليَّ وَمَا شَابَهُ مِنَ التَّكَلُّفِ وَالصِّنَاعَةِ الكَلَامِيَّةِ، فَقَال:

«قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾.

فَأنْكَرَ تَعَالَىٰ أنْ يَكونُوا خُلِقُوا بِلَا خَالِقٍ، لِضَرُورَةِ أنَّ الأثَرَ يَحتَاجُ فِي حُدوثِهِ إلَىٰ مُؤثِّرٍ، كَمَا شَهِدَ بِذَلِكَ العَقْلُ وَالفِطْرَةُ وَالحِسُّ، وَأنْكَرَ أنْ يَكونُوا خَالِقِينَ لأنفُسِهِم لِمَا يَلزَمُهُ مِنَ التَّنَاقُضِ، وَأنْكَرَ أنْ يَكُونُوا خَالِقِينَ لِلسَّموَاتِ وَالأرضِ، لِشَهَادَةِ تَارِيخِ وجُودِ الأُمَمِ وَالكَونِيَّاتِ الأخرَىٰ، بِأنَّ خَلْقَ السَّموَاتِ وَالأرضِ قَدْ كَانَ قَبلَ خَلْقِ مَا بَينَهُمَا مِنَ الإنسِ وَالجِنِّ وَنَحوِهِم؛ فَكَيفَ يَخلُقُ المُتَأخِّرُ فِي الوجُودِ شَيئًا قَدْ سَبَقَهُ وَتَقَدَّمَ عَلَيهِ؟!

وَقَدْ أخَذَ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ هَذَا الدَّلِيلَ الخَبَرِيَّ العَقليَّ، وَأدخَلُوا عَلَيهِ شَيئًا مِنَ التَّكَلُّفِ وَالصِّنَاعَةِ الكَلَامِيَّةِ، فَقَالوا: إنَّ نِسبَةَ المُمكِنِ إلَىٰ

طَرَفَيهِ -الوجُودِ وَالعَدَمِ- عَلَىٰ السَّوَاءِ، فَلَو وُجِدَ بِدُونِ سَبَبٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ وَحَقِيقَتِهِ، لَزِمَ تَرجِيحُ أَحَدِ المُتَسَاوِيَينِ عَلَىٰ الآخَرِ بِلَا مُرَجِّحٍ، وَلَو أوجَدَ نَفسَهُ؛ لَزِمَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُتَقَدِّمًا عَلَىٰ نَفسِهِ بِاعتِبَارِهِ خَالِقًا لَهَا، مُتَأَخِّرًا عَنهَا بِاعتِبَارِهِ مَخلُوقًا لَهَا، وَتَقَدُّمُ الشَّيءِ عَلَىٰ نَفسِهِ وَتَأَخُّرُهُ عَنهَا بَاطِلٌ بِالضَّرُورَةِ، لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنَاقُضِ الوَاضِحِ.

فَثَبتَ أَنَّ العَالَمَ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ غَيرِ ذَاتِهِ وَحَقِيقَتِهِ، وَلَابُدَّ أَيضًا أَنْ يَكُونَ وَاجِبُ الوجُودِ لِذَاتِهِ مُختَلِفًا عَنِ العَالَمِ فِي خَوَاصِّهِ وَصِفَاتِهِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ذَلِكَ لِيَصِحَّ أَنْ يَستَنِدَ إِلَيهِ العَالَمُ فِي وجُودِهِ بَدْءًا ودَوَامًا؛ إِذْ لَو كَانَ مُستَحِيلًا لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ خَلقٌ أَو تَقدِيرٌ؛ لأَنَّ المُستَحِيلَ عَدمٌ مَحضٌ، وفَاقِدُ الشَّيءِ لَا يُعطِيهِ، وَلَو كَانَ مُمكِنًا، لافتَقَرَ إِلَىٰ مَن يُرَجِّحُ وُجُودَهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، فَإِنِ استَمَرَّتِ الحَاجَةُ فَاستَنَدَ كُلٌّ فِي حُدُوثِهِ إِلَىٰ نَظِيرٍ لَهُ مِنَ المُمكِنَاتِ لَزِمَ؛ إِمَّا الدَّورُ القَبْلِيُّ، وَإِمَّا التَّسَلسُلُ فِي المُؤَثِّرَاتِ، وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ بَاتِّفَاقِ العُقَلَاءِ.

وَإِذَا انتَفَىٰ عَنْهُ الإِمكَانُ وَالاستِحَالَةُ ثَبتَ لَهُ وجُوبُ الوجُودِ لِذَاتِهِ، لِضَرُورَةِ أَنَّ أَقسَامَ الحُكمِ العَقْلِيِّ ثَلَاثَةٌ: الوجُوبُ، والإِمْكَانُ، وَالاستِحَالَةُ، وَقَد انتَفَىٰ اثنَانِ، فَتعَيَّنَ الثَّالِثُ، وَهُوَ وجُوبُ الوجُودِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

وَفِي الحَدِيثِ: «اللَّهُمَّ أنْتَ الأوَّلُ فَلَيسَ قبلَكَ شَيءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيءٌ»(١).

وَذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَوضِعٍ آخَرَ مِنَ «الحِكْمَةِ مِنْ إرسَالِ الرُّسلِ»، أنَّ تَوحِيدَ الإلَهِيَّةِ، وَصَرْفَ الهِمَّةِ إلَىٰ بَيَانِ تَفَاصِيلِهِ، وَإجمَالَ القَولِ فِي تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالاستِدلَالِ عَلَيهِ اكتِفَاءً بِشَهَادَةِ الفِطْرَةِ، وَإقْرَارِ العِبَادِ بِهِ، وَعِلمِهِ بِالضَّرُورَةِ، هُوَ طَرِيقَةُ القُرآنِ، وَمَنهَجُ الرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-.

قَالَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٢-٤٣].

إنْ كَانَ المَعنَىٰ المُرَادُ: لاتَّخَذُوا سَبِيلًا إلَىٰ عِبَادَتِهِ وَالقِيَامِ بِوَاجِبِ حَقِّهِ رَجَاءَ رَحمَتِهِ، وَخَوفَ عِقَابِهِ، فَالآيَةُ فِي تَوحِيدِ الإلَهِيَّةِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

وَقَدْ استَخلَصَ بَعضُ العُلَمَاءِ مِن ذَلِكَ دَلِيلًا سَمَّوهُ دَلِيلَ التَّمَانُعِ، وَجَعَلُوا جُلَّ هَمِّهِم إثْبَاتَ تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِهِ، قَالوا: لَو جَازَ أنْ يَكُونَ لِلعَالَمِ رَبَّانِ يَخلُقَانِ وَيُدبِّرَانِ أمرَهُ، لأمكَنَ أنْ يَختَلِفَا، بِأنْ يُرِيدَ أحَدُهُمَا وجُودَ شَيءٍ، وَيُرِيدَ الآخَرُ عَدَمَهُ، أو يُرِيدُ أحَدُهُمَا حَرَكَةَ شَيءٍ، وَيُرِيدُ الآخَرُ سُكُونَهُ، وَعِندَ

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

ذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَنْفُذَ مُرَادُهُمَا، وَذَلِك مُحَالٌ لِمَا يَلزَمُهُ مِنَ الجَمْعِ بَينَ الضِّدَّينِ، وَإِمَّا أَلَّا يَنْفُذَ مُرَادُ كُلٍّ مِنهُمَا، وَذَلِكَ مُحَالٌ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ رَفْعِ النَّقِيضَينِ وَعَجزِ كُلٍّ مِنهُمَا، وَإِمَّا أَنْ يَنْفُذَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الآخرِ، فَيكُونُ الَّذِي نَفَذَ مُرَادُهُ هُوَ الرَّبَّ، دُونَ الآخَرِ لِعَجْزِهِ، وَالعَاجِزُ لَا يَصلُحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا.

وَلَو أَنَّ هَؤلَاءِ عُنُوا بِتَوحِيدِ الإِلَهِيَّةِ، وَصَرَفُوا هِمَّتَهُم إِلَىٰ بَيَانِ تَفَاصِيلِهِ، وَأَجْمَلُوا القَولَ فِي تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالاستِدْلَالِ عَلَيهِ؛ اكتِفَاءً بِشَهَادَةِ الفِطْرَةِ، وَإِقرَارِ العِبَادِ بِهِ، وَعِلمِهِ بِالضَّرُورَةِ وَجَعَلوا البَحثَ فِيهِ وَسِيلَةً إِلَىٰ تَوحِيدِ العِبَادَةِ وَدَلِيلًا عَلَيهِ؛ لَكَانُوا بِذَلِكَ قَدْ سَلَكُوا طَرِيقَةَ القُرآنِ وَمَنْهَجَ الرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-». اهـ

- وَأَمَّا الشَّرعُ؛ فَالكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ كُلُّهَا تَنطِقُ بِوجُودِهِ تَعالَىٰ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الأَحْكَامِ المُتَضَمِّنَةِ لِمَصَالِحِ الخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ رَبٍّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الأخبَارِ الكَونِيَّةِ الَّتِي شَهِدَ الوَاقِعُ بِصِدْقِهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ رَبٍّ قَادِرٍ عَلَىٰ إِيجَادِ مَا أَخبَرَ بِهِ.

- وَأَمَّا أَدِلَّةُ الحِسِّ عَلَىٰ وجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ فَمِنْ وَجهَينِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّنَا نَسمَعُ وَنُشَاهِدُ مِنْ إِجَابَةِ الدَّاعِينَ، وَغَوثِ المَكرُوبِينَ مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَىٰ وجُودِهِ تَعَالَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٧٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: «أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَىٰ عَهدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَىٰ المِنبَرِ يومَ الجُمُعَةِ، إِذْ قَامَ أعرابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَ المَالُ وجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا ، فَرَفَعَ يَدَيهِ وَدَعَا، فَثَارَ السَّحَابُ أَمثَالَ الجِبَالِ، فَلَمْ يَنزِلْ عَنْ مِنبَرِهِ حَتَّىٰ رَأَيتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَىٰ لِحيَتِهِ.

وَفِي الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ قَامَ ذَلِكَ الأعرَابِيُّ أو غَيرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيهِ، وَقَالَ: **اللَّهُمَّ حَوَالَينَا وَلَا عَلَينَا**، فَمَا يُشِيرُ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ إِلَّا انفَرَجَتْ»(١).

وَمَا زَالَتْ إِجَابَةُ الدَّاعِينَ أَمْرًا مَشْهُودًا إِلَىٰ يَومِنَا هَذَا لِمَنْ صَدَقَ فِي الدُّعَاءِ، وَأَتَىٰ بِشَرَائِطِ الإِجَابَةِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ الَّتِي تُسَمَّىٰ المُعجِزَاتِ، وَيُشَاهِدُهَا النَّاسُ، أَوْ يَسمَعُونَ بِهَا: بُرهَانٌ قَاطِعٌ عَلَىٰ وجُودِ مُرسِلِهِم، وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ لأَنَّهَا أُمُورٌ خَارِجَةٌ عَنْ نِطَاقِ البَشَرِ، يُجرِيهَا اللهُ تَعَالَىٰ تَأيِيدًا لِرُسُلِهِ ونَصْرًا لَهُمْ.

مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ مُوسَىٰ ﷺ حِينَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ البَحْرَ فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ اثني عَشَرَ طَرِيقًا يَابِسًا، وَالمَاءُ بَينَهُمَا كَالجِبَالِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣].

---

(١) رواه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٩٧).

وَمِثَالٌ ثَانٍ: آيَةُ عِيسَىٰ ﷺ حَيثُ كَانَ يُحْيِي المَوتَىٰ وَيُخرِجُهُم مِنْ قُبُورِهِم بِإِذْنِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩].

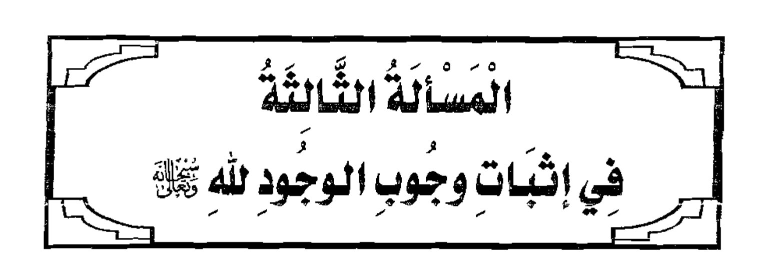
وَقَالَ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠].

وَمِثَالٌ ثَالِثٌ: لِمُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ طَلَبَتْ مِنْهُ قُرَيشٌ آيَةً فَأَشَارَ إِلَىٰ القَمَرِ فَانْفَلَقَ فِرْقَتَينِ فَرَآهُ النَّاسُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:١-٢].

فَهَذِهِ الآيَاتُ المَحسُوسَةُ الَّتِي يُجرِيهَا اللهُ تَعَالَىٰ تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ، وَنَصْرًا لَهُمْ، تَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَىٰ وجُودِهِ تَعَالَىٰ[1].

* * *

(١) «رسائل فِي العقيدة» (ص٦-٨).



المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ
فِي إِثْبَاتِ وجُوبِ الوجُودِ لله ﷻ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ لَفْظَ الوجُودِ، وَمعناهُ المُطْلَقُ، يَشتَرِكُ فِيهِمَا كُلٌّ مِنَ المُمكِنِ وَالوَاجِبِ، وَالحَادِثِ وَالقَدِيمِ الأزَلِيِّ؛ فَاللهُ يُوصَفُ بِأَنَّهُ مَوجُودٌ، وَالحَادِثُ يُقَالُ لَهُ أَيْضًا أَنَّهُ مَوْجُودٌ».



الشَّـرْحُ

أَشَارَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَىٰ الوجُودِ المُطْلَقِ، وَهُوَ الوجُودُ العَامُّ الكُلِّيُّ الَّذِي يَصْدُقُ عَلَىٰ كَثِيرِينَ فِي الذِّهنِ، فَإِذَا وُجِدَ فِي الخَارِجِ كَانَ مُقَيَّدًا خَاصًّا بِمَن أُضِيفَ إِلَيهِ.

فَلَا يَكُون الوجُودُ المُطْلَقُ المُشتَرَكُ إِلَّا فِي الذِّهنِ، وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ عِندَ التَّحصِيلِ.

فَعِندَ التَّحقِيقِ وَالتَّمحِيصِ لَا يُوجَدُ الوجُودُ المُطْلَقُ فِي الأعيَانِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الأذْهَانِ فَقَطْ.

وَالوجُودُ قِسمَانِ: وَاجِبٌ، وَمُمكِنٌ.

١- الوجُودُ الوَاجِبُ: وَهُوَ مَا لَمْ يُسبَقْ بِعَدَمٍ، وَلَا يَلْحَقُهُ فَنَاءٌ، وَلَا يَفتَقِرُ إِلَىٰ غَيرِهِ فِي الإيجَادِ، وَهُوَ وجُودُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- الوجُودُ المُمكِنُ: وَهُوَ مَا جَازَ عَلَيهِ العَدَمُ، وَافتَقَرَ إِلَىٰ غَيرِهِ فِي الإيجَادِ، وَهُوَ وجُودُ المَخلُوقَاتِ جَمِيعِهَا.

وَقَولُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالقَدِيمُ الأزَلِيُّ»؛ هُوَ مِنَ الإخبَارِ لَا مِنَ التَّسمِيَةِ، وَالقَدِيمُ لَيسَ مِنْ أسمَاءِ اللهِ الحُسنَىٰ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسمَّىٰ بِهِ، وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يُخبَرَ بِهِ عَنْهُ، وبَابُ الخَبَرِ أوسَعُ مِن بَابِ التَّسمِيَةِ.

القَدِيمُ لَيسَ مِنَ الأسمَاءِ الحُسنَىٰ؛ وَفِيهِ نَقْصٌ؛ لأنَّ القِدَمَ قَدْ يَكُونُ قِدَمًا نِسبِيًّا؛ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩].

وَالعُرجُونُ القَدِيمُ حَادِثٌ، لَكِنَّهُ قَدِيمٌ بِالنِّسبَةِ لِمَا بَعْدَهُ.

وَالعُرجُونُ هُوَ: أَصْلُ الشَّمَارِيخِ الَّذِي فِي طَلْعِ النَّخْلِ، وَهُوَ إِذَا يَبِسَ يَتَقَوَّسُ، وَيَصفَرُّ، وَفِي الآيَةِ إِطلَاقُ القَدِيمِ عَلَىٰ غَيرِ اللهِ خِلَافًا لِلمُتَفَلسِفَةِ، أَوِ الفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ أَخصَّ وَصفٍ للهِ تَعَالَىٰ هُوَ القِدَمُ، وَهَذَا خَطَأٌ، فَلَوْ كَانَ هَذَا أَخَصَّ وَصْفٍ للهِ لَمْ يُوصَفْ بِهِ سِوَىٰ اللهِ.

وَالقِدَمُ لَا يَدلُّ عَلَىٰ الأزَلِيَّةِ، فَهَذَا العُرجُونُ وَصفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ قَدِيمٌ، وَمَعَ

ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيسَ أَزَلِيًّا؛ إِذْ إِنَّهُ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ؛ وَبِهِ يَتَبينُ بُطْلَانُ قَولِ هَؤلَاءِ الَّذِينَ يَقُولونَ: إنَّ أَخَصَّ وَصفٍ للهِ ﷻ هُوَ القِدَمُ.

وَلَو قَالُوا: أَخَصُّ وَصْفٍ هُوَ الأَوَّلِيَّةُ، لأَصَابُوا، لأَنَّ اللهَ هُوَ الأَوَّلُ الَّذِي لَيسَ قَبْلَهُ شَيءٌ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَكِنَّ لِلمُمكِنِ وجُودًا يَخُصُّهُ، فَإِنَّهُ حَادِثٌ سَبَقَ وجُودَهُ عَدَمٌ، وَيَلحَقُهُ الفَنَاءُ، وَهُوَ فِي حَاجَةٍ دَائِمَةٍ ابتِدَاءً ودوامًا إِلَىٰ مَن يُكسِبُهُ، وَيُعطِيهِ الوجُودَ، بَلْ يَحفَظُهُ عَلَيهِ. وَللهِ تَعَالَىٰ وجُودٌ يَخُصُّهُ، فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- وَاجِبُ الوجُودِ لَمْ يَسبِقْ وجُودَهُ عَدَمٌ، وَلَا يَلْحَقُهُ فَنَاءٌ، ووجُودُهُ مِن ذَاتِهِ لَمْ يَكسِبْهُ مِن غَيرِهِ.

وَذَلِكَ لأَنَّهُ تَعَالَىٰ الغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَبِذَلِكَ جَاءَ السَّمْعُ، وَشَهِدَ العَقْلُ.

أَمَّا السَّمْعُ: فَمِنْهُ قَولُه تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]».



الشَّرْحُ

وَهَذِهِ الأَسمَاءُ الأربَعَةُ مُتَقَابِلَةٌ: اسمَانِ لأَزَلِيَّتِهِ وَأَبدِيَّتِهِ، واسمَانِ لِعُلُوِّهِ وَقُربِهِ، فَأَوَّلِيَّتُهُ سُبحَانَهُ سَابِقَةٌ عَلَىٰ أَوَّلِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَآخِرِيَّتُهُ سُبحَانَهُ ثَابِتَةٌ بَعْدَ آخِرِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ؛ فَأَوَّلِيَّتُهُ: سَبْقُهُ لِكُلِّ شَيءٍ، وَآخِرِيَّتُهُ: بَقَاؤُهُ بَعْدَ كُلِّ شَيءٍ.

وَظَاهِرِيَّتُهُ: فَوقِيَّتُهُ وَعُلُوُّه عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وَمَعْنَىٰ الظُّهُورِ يَقتَضِي العُلوَّ، وَظَاهِرُ الشَّيءِ مَا عَلَا مِنهُ، وَبطُونُهُ سُبحَانَهُ: إِحَاطَتُهُ بِكُلِّ شَيءٍ؛ بِحَيثُ يَكُونُ أَقرَبَ إِلَيهِ مِن نَفسِهِ وَهَذَا قُربُ الإِحَاطَةِ العَامَّةِ.

وَهَذِهِ الأسماءُ الأربعَةُ مُتَقَابِلَةٌ فِي الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَهِيَ تُفِيدُ إحَاطَتَهُ تَعَالَىٰ بِكُلِّ شَيءٍ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَكَذَلِكَ فِي المَكَانِ؛ فَهِيَ تَنقَسِمُ إِلَىٰ قِسمَينِ: زَمَانِيَّةٍ وَمَكَانِيَّةٍ، فَأَحَاطَتْ أَوَّلِيَّتُهُ بِالقَبْلِ، وَأَحَاطَتْ آخِرِيَّتُهُ بِالبَعْدِ، وَأَحَاطَتْ ظَاهِرِيَّتُهُ وبَاطِنِيَّتُهُ بِكُلِّ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، فَمَا مِن ظَاهِرٍ إلَّا وَاللهُ فَوقَهُ، وَمَا مِن بَاطِنٍ إلَّا وَاللهُ دُونَهُ.

وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الأسمَاءَ الأربعَةَ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢٧١٣) مِنْ رِوَايَةِ أبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ، رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ، وَمُنزِلَ التَّورَاةِ وَالإنجِيلِ وَالفُرقَانِ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ.**

اللَّهُمَّ، أنْتَ الأوَّلُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وَأنْتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأنْتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ.

اقْضِ عَنَّا الدَّينَ، وَأغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ».

وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الإثبَاتَ بِالنَّفيِ، فَقَالَ: «**أنْتَ الأوَّلُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيءٌ**».

وَذَلِكَ لِتَوكِيدِ الأوَّلِيَّةِ، يَعنِي: أنَّهَا مُطْلَقَةٌ، وَلَيسَتْ أوَّلِيَّةً إضَافِيَّةً، فَيُقَالُ: هَذَا أوَّلٌ، بِاعتِبَارِ مَا بَعْدَهُ، وَقَدْ يَكُونُ شَيءٌ آخَرُ قَبْلَهُ، فَصَارَ تَفْسِيرُهَا بِأمْرٍ سَلْبِيٍّ أدَلَّ عَلَىٰ العُمُومِ عَلَىٰ أنَّهَا أوَّلِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «**لَيسَ قَبْلَكَ شَيءٌ**».

وَالآخِرُ: فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَولِهِ: «**لَيسَ بَعْدَكَ شَيءٌ**»، وَلَا يُتَوَهَّمُ أنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ غَايَةٍ لآخِرِيَّتِهِ؛ لأنَّ هُنَاكَ أشيَاءَ أبَدِيَّةً، وَهِيَ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، كَالجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَعَلَيهِ؛ فَيكُونُ مَعنَىٰ «**وَالآخِرُ**»: أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ، فَلَا نِهَايَةَ لآخِرِيَّتِهِ.

وَالظَّاهِرُ: مِنَ الظُّهُورِ، وَهُوَ العُلُوُّ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي تَفسِيرِهَا: «**الذِي لَيسَ فَوقَهُ شَيءٌ**»؛ فَهُوَ عَالٍ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ.

وَالبَاطِنُ: فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَولِهِ: «**الَّذِي لَيسَ دُونَهُ شَيءٌ**»؛ وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ إِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيءٍ، وَلَكِنَّ المَعنَىٰ أَنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ ﷻ، فَهُوَ بَاطِنٌ، فَعُلُوُّهُ لَا يُنَافِي قُربَهُ ﷻ، «**فَالبَاطِنُ**» قَرِيبٌ مِنْ مَعنَىٰ القَرِيبِ.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

جَاءَتِ الجُمْلَةُ هُنَا مُعَرَّفَةَ الطَّرَفَينِ، فَهِيَ تُفِيدُ الاختِصَاصَ، فَهُوَ سُبحَانَهُ مُختَصٌّ بِهَذِهِ الأَسمَاءِ الأَربَعَةِ، وَمَعَانِيهَا، عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَلَا يَثبُتُ لِغَيرِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيءٌ.

وَهَذِهِ الأَسمَاءُ الأَربَعَةُ كُلُّهَا خَبرٌ عَنْ مُبتَدَأ وَاحِدٍ، لَكِن بِوَاسِطَةِ حَرْفِ العَطْفِ، وَالإِخْبَارُ بِوَاسِطَةِ حَرْفِ العَطْفِ أَقْوَىٰ مِنَ الإِخْبَارِ بِدُونِ وَاسِطَةِ حَرْفِ العَطْفِ.

وَإِنَّمَا أَتَىٰ بَينَ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِالوَاوِ مَعَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ عَلَىٰ مَوصُوفٍ وَاحِدٍ؛ لِزِيَادَةِ التَّقْرِيبِ وَالتَّأكِيدِ؛ لأَنَّ الوَاوَ تَقتَضِي تَحقِيقَ الوَصْفِ المُتَقَدِّمِ وَتَقرِيرَهُ، وَحَسُنَ ذَلِكَ لِمَجِيئِهَا بَينَ أَوصَافٍ مُتَقَابِلَةٍ قَدْ يَسبِقُ إِلَىٰ الوَهْمِ استِبْعَادُ الاتِّصَالِ بِهَا جَمِيعًا، فَإِنَّ الأَوَّلِيَّةَ تُنَافِي الآخِرِيَّةَ فِي الظَّاهِرِ، وَكَذَلِكَ الظَّاهِرِيَّةُ وَالبَاطِنِيَّةُ، فَانْدَفَعَ تَوَهُّمُ الإِنْكَارِ بِذَلِكَ التَّأكِيدِ.

وَمِنْ دَلَائِلِ السَّمْعِ: الآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ الخَلْقِ وَالإيجَادِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٠٢].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان:٢].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وَالخَلقُ هُوَ الإيجَادُ، وَلَا يُفِيضُ الوجُودَ إلَّا مَنْ وجُودُهُ لَمْ يَكسِبْهُ مِنْ غَيرِهِ، وَهُوَ الغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

* * *

وَسَاقَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الدَّلِيلَ العَقْلِيَّ عَلَىٰ إثبَاتِ وجُوبِ الوجُودِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ: «وَأَمَّا العَقْلُ: فَبَيَانُهُ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ مُستَحِيلَ الوجُودِ لَم يَصِحَّ أَنْ يُسنَدَ إلَيهِ المُمكِنُ فِي حُدُوثِهِ بَدَاهَةً؛ لأنَّ المُستَحِيلَ مَا لَا يُتَصَوَّرُ فِي العَقْلِ وجُودُهُ، وفَاقِدُ الشَّيءِ لَا يُعطِيهِ.

وَلَو كَانَ مُمكِنًا لافتَقَرَ فِي حُدُوثِهِ إلَىٰ مَن يُرَجِّحُ وجُودَهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ لِمَا تَقَدَّمَ، فَإنِ استَمَرَّتِ الحَاجَةُ، فَاستَنَدَ كُلٌّ فِي وجُودِهِ إلَىٰ نَظِيرٍ لَهُ مِنَ المُمكِنَاتِ لَزِمَ إمَّا الدَّورُ القَبلِيُّ، وَإمَّا التَّسَلسُلُ فِي المُؤَثِّرَاتِ إلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ، وَكِلَاهُمَا مُحَالٌ.

وَإذَا انتَفَىٰ عَنْهُ الإمْكَانُ وَالاستِحَالَةُ ثَبَتَ لَهُ الوجُوبُ ضَرُورَةً؛ لأنَّ أقسَامَ الحُكْمِ العَقْلِيِّ ثَلَاثَةٌ، وَقَدِ انتَفَىٰ اثنَانِ، فتَعَيَّنَ الثَّالِثُ، وَهُوَ الوجُوبُ، فَاللهُ تَعَالَىٰ واجِبُ الوجُودِ».



الشَّرْحُ

وَحَاصِلُ الدَّلِيلِ العَقلِيِّ الَّذِي ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ: اللهُ تَعَالَىٰ يَجبُ افتِقَارُ العَالَمِ، وَافتِقَارُ كُلِّ جُزءٍ مِنْ أجزَائِهِ إلَيهِ، ومَن وجَبَ افتِقَارُ العَالَمِ إلَيهِ وَاجِبُ الوجُودِ، فَاللهُ تَعَالَىٰ وَاجِبُ الوجُودِ.

وَدَلِيلُ الصُّغرَىٰ: العَالَمُ حَادِثٌ، وَكُلُّ حَادِثٍ يَجِبُ افتِقَارُهُ إلَىٰ مُحْدِثٍ،

فَالعَالَمُ يَجِبُ افتِقَارُهُ إِلَىٰ مُحدِثٍ.

وَدَلِيلُ الكُبْرَىٰ: أَنَّهُ لَو لَمْ يَكُنِ المُفتَقَرُ إِلَيهِ العَالَمُ وَاجِبَ الوجُودِ، لَكَانَ جَائِزَ الوجُودِ، فَيَكُونُ حَادِثًا، وَيَحتَاجُ إِلَىٰ مُحدِثٍ، وَمُحدِثُهُ إِلَىٰ مُحدِثٍ، فَإِنْ رَجَعَ إِلَىٰ الأَوَّلِ مُبَاشَرَةً أَوْ بِالوَاسِطَةِ فَدَوْرٌ، وَإِنْ تَتَابَعَ المُحدِثُونَ إِلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ فَتَسَلْسُلٌ، وَكُلٌّ مِنَ الدَّورِ وَالتَّسَلْسُلِ بَاطِلٌ، فَبَطَلَ مَا أَدَّىٰ إِلَيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ غَيرُ وَاجِبِ الوجُودِ، وثَبَتَ أَنَّهُ وَاجِبُ الوجُودِ.

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الحَاشِيَةِ مَعنَىٰ الدَّورِ، وَذَكَرَ قِسْمَيهِ وَمَثَّلَ لِذَلِكَ فَقَالَ: «الدَّورُ السَّبقِيُّ، وَيُقَالُ لَهُ: القَبْلِيُّ: هُوَ تَوقُّفُ الشَّيءِ عَلَىٰ مَا تَوقَّفَ عَلَيهِ، وَهُوَ قِسمَانِ: مُصَرَّحٌ، وَمُضمَرٌ.

فَالمُصَرَّحُ: مَا كَانَتِ الوَاسِطَةُ فِيهِ وَاحِدَةً، مِثَالُهُ كَأَنْ يُقَالَ مَثَلًا: خَالِدٌ أَوجَدَ بَكرًا، وَبَكرٌ أَوجَدَ خَالِدًا، فَبَكرٌ مُتَوَقِّفٌ فِي وجُودِهِ عَلَىٰ خَالِدٍ ثُمَّ خَالِدٌ تَوقَّفَ فِي وجُودِهِ عَلَىٰ بَكْرٍ، وَالوَاسِطَةُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ بَكْرٌ.

وَيُقَالُ لَهُ: هَذَا دَورٌ بِمَرتَبَةٍ، فَإِنْ تَعَدَّدَتِ المَرَاتِبُ كَانَتْ بِحَسَبِهَا، وَهَذَا الدَّورُ بَاطِلٌ لِمَا يَلزَمُهُ مِنَ التَّنَاقُضِ، إِذْ يَلْزَمُهُ أَنْ يَكُونَ الشَّيءُ سَابِقًا لَا سَابِقًا، مُؤَثِّرًا لَا مُؤَثِّرًا...إلخ، بَلْ يَلزَمُ أَنْ يَكُونَ الشَّيءُ نَقِيضَ نَفسِهِ ضَرورَةَ المُغَايَرَةِ بَينَ المُتَقَدِّمِ وَالمُتَأَخِّرِ، وَالأَثَرِ وَالمُؤَثِّرِ.

أَمَّا الدَّورُ المَعِّيُّ: مِثلُ تَوقُّفِ الأُبُوَّةِ عَلَىٰ البُنوَّةِ، وَالبُنُوةِ عَلَىٰ الأُبُوَّةِ، فَجَائِزٌ؛ لأَنَّهُ مِنْ بَابِ الإِضَافَاتِ، وَهِيَ اعتِبَارِيَّةٌ لَا وجُودَ لَهَا». اهـ

وَتَوضِيحُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ:

تَعرِيفُ الدَّورِ: هُوَ تَوَقُّفُ وجُودِ شَيءٍ عَلَىٰ آخَرَ، قَدْ تَوَقَّفَ ذَلِكَ الآخَرُ فِي وجُودِهِ عَلَىٰ الأوَّلِ.

وَهُوَ قِسمَانِ:

الأوَّلُ: مُصَرحٌ: وَهُوَ مَا كَانَ التَّوَقُّفُ فِيهِ بِمَرتَبَةٍ وَاحِدَةٍ، مِثلُ: تَوَقُّفِ وجُودِ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ بَكرٍ، وبَكرٍ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ.

الثَّانِي: مُضْمَرٌ: وَهُوَ مَا كَانَ التَّوَقُّفُ فِيهِ بِأَزيَدَ مِنْ مَرتَبَةٍ، مِثلُ: تَوَقُّفِ وجُودِ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ زَيدٍ، وَزَيدٍ عَلَىٰ بَكْرٍ، وَبَكْرٍ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ.

وَهَذَا الدَّورُ بِقسمَيهِ يُسمَّىٰ بِالدَّورِ السَّبقِيِّ، أوِ القَبلِيِّ، وَهُوَ بَاطِلٌ، وَدَلِيلُ بُطلَانِهِ أَنَّهُ لَو تَوَقَّفَ كُلٌّ مِنهُمَا عَلَىٰ وُجُودِ الآخَرِ لَزِمَ الجَمْعُ بَينَ النَّقِيضَينِ، لَكِنَّ التَّالِيَ بَاطِلٌ، فَالمُقَدَّمُ بَاطِلٌ.

وَبيَانُ المُلَازَمَةِ: أنَّهُ مِنَ المُسَلَّمِ بِهِ ضَرُورَةً أَنَّ المُؤَثِّرَ مُتَقَدِّمٌ عَلَىٰ الأثَرِ، فَلَو أَوْجَدَ مُحَمَّدٌ بَكرًا، وَأَوجَدَ بَكْرٌ مُحَمَّدًا، لَلَزِمَ أَنَّ كُلًّا مِنهُمَا مُتَقَدِّمٌ وَلَا مُتَقَدِّمٌ، وَمُتَأَخِّرٌ ولَا مُتَأَخِّرٌ، عِلَّةٌ لِنَفسِهِ وَمَعلُولٌ لَهَا، وَهَذَا جَمْعٌ بَينَ النَّقِيضَينِ وَهُوَ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا الدَّورُ المَعِيُّ: مِثلُ تَوَقُّفِ الأُبُوَّةِ عَلَىٰ البُنُوَّةِ، وَالبُنُوَّةِ عَلَىٰ الأُبُوَّةِ، فَجَائِزٌ؛ لأَنَّهُ مِنْ بَابِ الإِضَافَاتِ، وَهِيَ اعتِبَارِيَّةٌ لَا وُجُودَ لَهَا.

فَالدَّورُ إذَنْ هُوَ تَوَقُّفُ الشَّيءِ عَلَىٰ نَفسِهِ؛ أي: أنْ يَكُونَ هُوَ نَفسُهُ عِلَّةً لِنَفسِهِ، بِوَاسِطَةٍ أو بِدُونِ وَاسِطَةٍ، وَهُوَ مُستَحِيلٌ بِالبَدَاهَةِ العَقْلِيَّةِ.

وَمِثَالُهُ: الكَونُ وُجِدَ بِنَفسِهِ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ.

فَفِي هَذَا الكَلَامِ دَورٌ مَرفُوضٌ عَقْلًا؛ إذْ يَقتَضِي أنْ يَكُونَ الكَونُ عِلَّةً لِنَفسِهِ، وَأنْ يَكُونَ مَعْلُولًا لَهَا بِآنٍ وَاحِدٍ، وَالعِلَّةُ تَقتَضِي سَبقَ المَعْلُولِ، وَبِمَا أنَّ العِلَّةَ بِحَسَبِ الدَّعوَىٰ هِيَ المَعْلُولُ نَفسُهُ، فَإنَّ هَذَا الكَلَامَ يَقتَضِي أنْ يَكُونَ وجُودُ الشَّيءِ سَابِقًا عَلَىٰ وجُودِهِ نَفسِهِ.

وَفِي هَذَا تَنَاقُضٌ ظَاهِرٌ، وَهُوَ أنَّ الكَونَ بِوصفِهِ عِلَةً هُوَ مَوجُودٌ، وَبِوصْفِهِ مَعلُولًا هُوَ غَيرُ مَوجُودٍ، مَعَ أنَّهُ شَيءٌ وَاحِدٌ لَا شَيئَانِ، فَهُوَ إذَنْ بِحَسَبِ الدَّعوَىٰ مَوجُودٌ غَيرُ مَوجُودٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَالتَّنَاقُضُ مُستَحِيلٌ بِالبَدَاهَةِ العَقلِيَّةِ.

وَقَدْ تَكثُرُ عَنَاصِرُ الوَاسِطَةِ فِي الدَّورِ، كَمَا فِي تَوقُّفِ وجُودِ مُحمَّدٍ عَلَىٰ زَيدٍ، وَزَيدٍ عَلَىٰ بَكْرٍ، وَبَكرٍ عَلَىٰ مُحمَّدٍ.

وَالدَّورُ الَّذِي يَتوقَّفُ فِيهِ الشَّيءُ عَلَىٰ نَفسِهِ مُبَاشَرَةً دُونَ وَاسِطَةٍ، كَمِثَالِ حُدوثِ الكَونِ بِنَفسِهِ، أَوْ بِوَاسِطَةٍ مِنْ عُنْصُرٍ وَاحِدٍ كَتَوَقُّفِ وجُودِ مُحمَّدٍ عَلَىٰ بَكْرٍ، وَبَكرٍ عَلَىٰ مُحمَّدٍ يُسمَّىٰ: **الدَّورَ الصَّرِيحَ**.

وَالدَّورُ الَّذِي يَتَوقَّفُ فِيهِ الشَّيءُ عَلَىٰ نَفسِهِ بِوَاسِطَةِ عُنصُرَينِ فَأكثَرَ يُسمَّىٰ: **الدَّورَ المُضْمَرَ**.

وَمَا مَرَّ مِنَ الدَّورِ هُوَ الدَّورُ السَّبقِيُّ، وَهُوَ الدَّورُ المُستَحِيلُ عَقْلًا.

وَيُوجَدُ دَورٌ آخَرُ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الدَّورِ الاعتِبَارِيِّ يُسمَّىٰ: الدَّورَ المَعِّيَّ، وَهَذَا الدَّورُ لَا استِحَالَةَ فِيهِ، بَلْ هُوَ جَائِزٌ وَوَاقِعٌ، مِثْلُ تَوقُّفِ كُلٍّ مِنَ المُتَضَايِفِينَ عَلَىٰ الآخَرِ، كالأبوَّةِ وَالبُنُوَّةِ، وَالأكبَرِ وَالأصْغرِ؛ إذْ لَا تُتَصوَّرُ الأبُوَّةُ إلَّا مَعَ تَصُوُّرِ البُنُوَّةِ، وَلَا يُتَصوَّرُ الأكبَرُ إلَّا مَعَ تَصَوُّرِ الأصْغَرِ.

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ فِي الحَاشِيَةِ تَعرِيفَ التَّسلسُلِ، فَقَالَ: «**وَالتَّسلسُلُ هُوَ تَرَتُّبُ أُمُورٍ بَعضِهَا عَلَىٰ بَعضٍ بِحَيثُ يَكُونُ كُلُّ مُتَأَخِّرٍ مِنهَا يَتَوقَّفُ فِي وجُودِهِ عَلَىٰ سَابِقٍ عَلَيهِ، يَكُونُ عِلَّةً لَهُ فِي وجودِهِ إلَىٰ غيرِ نِهَايَةٍ.**

وَيُسمَّىٰ هَذَا النَّوعُ: التَّسلسُلَ فِي العِلَلِ، وَفِي المُؤثِّرَاتِ، وَهُوَ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ العُقَلَاءِ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ عَدَمِ وجُودِ شَيءٍ مِنَ الحَوَادِثِ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِالمُشَاهَدَةِ». اهـ

وَتَوضِيحُ مَا ذَكَرَهُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ:

أَنَّ التَّسلسُلَ: هُوَ أَنْ يَستَنِدَ المُمكِنُ فِي وجُودِهِ إلَىٰ عِلَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ فِيهِ، وَتَستَنِدُ تِلْكَ العِلَّةُ إلَىٰ عِلَّةٍ أخرَىٰ مُؤثِّرَةٍ فِيهَا، وَهِيَ إلَىٰ عِلَّةٍ ثَالِثَةٍ مُؤثِّرَةٍ فِيهَا، وَهَكَذَا تَسلسُلًا مَعَ العِلَلِ دُونَ نِهَايَةٍ.

وَهَذَا التَّسلسُلُ دُونَ نِهَايَةٍ فِيمَا وُجِدَ مِنَ المُمكِنَاتِ، أَوْ فِيمَا هُوَ مَوجُودٌ مِنهَا فِعلًا: مُستَحِيلٌ عَقْلًا.

وَدَلِيلُ **بُطلَانِهِ**: أنَّ العِلَلَ لَو تَسلسَلَتْ إلَىٰ غَيرِ نِهَايَةٍ لَلَزِمَ زِيَادَةُ عَدَدِ المَعلُولَاتِ عَلَىٰ عَدَدِ العِلَلِ، لَكِنَّ التَّالِيَ بَاطِلٌ، فَمَا أَدَّىٰ إلَيهِ -وَهُوَ التَّسلسُلُ- بَاطِلٌ.

أَمَّا وَجْهُ لُزومِ التَّالِي لِلمُتقدِّمِ فَهُوَ: أَنَّنَا إذَا فَرَضنَا سِلسلَةً مِنَ المَعْلُولِ الأخِيرِ إلَىٰ غَيرِ نِهَايَةٍ، لَكَانَتْ جَمِيعُ الأفرَادِ قَدْ تَحقَّقَتْ فِيهِ العِلِّيَّةُ وَالمَعلُولِيَّةُ إلَّا المَعلُولَ الأخيرَ، فَإنَّهُ يَكُونُ مَعلُولًا وَلَا يَكُونُ عِلَّةً، وَبِذَلِكَ يَزِيدُ عَدَدُ المَعلُولَاتِ عَلَىٰ عَدَدِ العِلَلِ.

وَهَذَا نَشَأ مِنَ التَّسلسُلِ، وَلَو كَانَتِ العِلَلُ مُتَنَاهِيَةً لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ؛ لأنَّ كُلَّ فَردٍ يَكُونُ عِلَّةً وَمَعْلُولًا مَا عَدَا الأوَّلَ، فَإنَّهُ يَكُونُ عِلَّةً، وَمَا عَدَا الأخِيرَ فَإنَّهُ مَعلُولٌ فَتَتَسَاوَىٰ العِلَلُ وَالمَعلُولَاتُ.

أَمَّا وَجْهُ بُطلَانِ التَّالِي فَهُوَ: أنَّ العِلَّةَ مَعَ المَعلُولِ أمْرَانِ مُتَضايفَانِ تَضايُفًا حَقِيقيًّا.

وَمِنْ لَوَازِمِهَا التَّكافُؤُ فِي الوجُودِ، وَالتَّسَاوِي فِي العَدَدِ، لأنَّهُ لَا يُمكِنُ وجُودُ أحَدِ المُتَضايِفينَ بِدُونِ الآخَرِ.

وَمِنْ بَرَاهِينِ إثبَاتِ استِحَالَةِ التَّسلسُلِ، بُرهَانُ التَّطْبِيقِ، وَيُمكِنُ صِيَاغَتُهُ عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ: **لَوْ كَانَ التَّسلسُلُ جَائِزًا عَقْلًا، لَكَانَ العَدَدُ الأقَلُّ مُساوِيًا لِلعَدَدِ الأكثَرِ، لَكِنَّ العَدَدَ الأقَلَّ لَا يَكُونُ بِحَالٍ مِنَ الأحْوَالِ مُسَاوِيًا لِلعَدَدِ الأكثَرِ.**

إذَنْ؛ فَالتَّسلسُلُ غَيرُ جَائِزٍ عَقْلًا.

أَوْ نَقُولُ: لَو أجَزْنَا هَذَا التَّسَلسُلَ، لَلَزِمَ أنْ نُجِيزَ عَقْلًا مُسَاوَاةَ الأَقَلِّ لِلأكثَرِ، لَكنَّ هَذَا مُحالٌ، وَمَتَىٰ بَطَلَ اللازِمُ بَطَلَ المَلْزُومُ.

وَيَظْهَرُ هَذَا إذَا تَصوَّرنَا أنَّنَا أمسَكنَا بِسلسِلَةٍ وجُودِيَّةٍ، تَبدَأُ مِن لَحظَةِ الزَّمَانِ الحَاضِرِ، وَتتسلسَلُ إلَىٰ جَانِبِ الزَّمَانِ المَاضِي دُونَ نِهَايَةٍ، وَأمسَكنَا بِسلسِلَةٍ أخْرَىٰ مُمَاثِلَةٍ لَهَا تَمامًا، وَلَكِن مِن حَلقَةٍ مِن حَلقَاتِهَا وُجِدَتْ قَبلَ مُليون سنَةٍ أو أكثَر.

ثُمَّ أخَذْنَا نُطَبِّقُ فِي التَّصَوُّرِ حَلقَاتِ السِّلسِلَتَينِ، هَذِهِ مِنْ لَحظَةِ الزَّمَانِ الحَاضِرِ وَتِلْكَ مِن حَلقَةٍ قَبْلَ مِليُون سنَةٍ، وَسِرنَا القَهقَرَىٰ فِي تَطبِيقٍ مُتَناظِرٍ، مُتَّبِعينَ مَا كَانَ فِي جَانِبِ الزَّمَانِ المَاضِي.

فَإنَّنَا نُلَاحِظُ أنَّنَا مَهْمَا سِرنَا فِي عَمَلِيَّةِ التَّطبِيقِ، نَجِدُ أنَّ السِّلسِلَتَينِ مُتَسَاوِيتَانِ مَا دَامَ جَانِبُ المَاضِي غَيرَ مُتنَاهٍ، مَعَ أنَّ الوَاقِعَ البَدَهِيَّ هُوَ أنَّ إحدَاهُمَا أطْوَلُ مِنَ الأُخْرَىٰ بِمَا يُعَادِلُ حَلقَاتِ مِليون سَنَةٍ.

وَهَذَا تَنَاقُضٌ ظَاهِرٌ، وَهُوَ مُحَالٌ، وَمَا لَزِمَ عَنْهُ المُحَالُ فَهُوَ مُحالٌ.

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الحَاشِيَةِ تَعرِيفًا مُختَصَرًا لِلدَّورِ وَالتَّسَلسُلِ، فَقَالَ: «وَقَدْ عَرَّفَ السَّعْدُ[1] **فِي «شَرحِ المَقَاصِدِ» الدَّورَ وَالتَّسَلسُلَ بِعِبَارَةٍ**

(١) قال المصنف: هُوَ مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، من أئمة العربية والبيان، والمنطق، ولد بتفتازان عام (٧١٢هـ) وأقام بِسَرَخْسَ وأبعده تيمورلنك إلىٰ سَمَرْقَنْدَ وتوفي فيها عام (٧٩٣هـ) وله مصنفات عديدة.

جَامِعَةٍ لَهُمَا فَقَالَ: هُمَا أَنْ يَتَوَالَىٰ عُرُوضُ العِلِّيَّةِ وَالمَعْلُولِيَّةِ لَا إِلَىٰ نِهَايَةٍ، بِأَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا هُوَ مَعروضٌ لِلعِلِّيَّةِ مَعرُوضًا لِلمَعلُولِيَّةِ، وَلَا يَنْتَهِي إِلَىٰ حَالَةٍ تَعرِضُ لَهُ العِلِّيَّةُ دُونَ المَعلُولِيَّةِ، فَإِنْ كَانَتِ المَعرُوضَاتُ مُتَنَاهِيَةً، فَهُوَ الدَّورُ بِمرتَبَةٍ إِنْ كَانَا اثنَينِ، وَبِمَرَاتِبَ إِنْ كَانَتِ المَعرُوضَاتُ فَوقَ اثنَينِ، وإِلَّا فَهُوَ التَّسَلسُلُ».

وَمَا قَرَّرَهُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الدَّلِيلِ العَقْلِيِّ عَلَىٰ إِثبَاتِ وجُوبِ الوجُودِ للهِ تَعَالَىٰ، وَاختصره، يُبْسَط عَلَىٰ هَذَا النَّحوِ:

إِنَّا لَنَرَىٰ فِي الكَونِ أَشيَاءَ تُوجَدُ وتُعدَمُ؛ فَأُنَاسٌ يُولَدُونَ وَآخَرونَ يَمُوتُونَ، وَنبَاتَاتٌ وَحَيوانَاتٌ تُوجَدُ، وَأُخرَىٰ تُعدَمُ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مُشَاهَدٌ مَنْظُورٌ.

وَهَذِهِ الكَائِنَاتُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ قِسْمِ المُستَحِيلِ، أَوْ مِنْ قِسْمِ الوَاجِبِ، أَوْ مِنْ قِسْمِ المُمكِنِ، لَكِنَّهَا لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مِنْ قِسْمِ المُستَحِيلِ؛ لأَنَّ المُستَحِيلَ مَا عَدَمُهُ لِذَاتِهِ وَلَا يَقبَلُ الوجُودَ أَبَدًا، وَهَذِهِ الكَائِنَاتُ نَرَاهَا تُوجَدُ بَعدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ.

وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مِنْ قِسْمِ الوَاجِبِ، لأَنَّ الوَاجِبَ مَا وجُودُهُ لِذَاتِهِ، وَلَا يَقتَضِي العَدمَ أَصْلًا، وَهَذِهِ الكَائِنَاتُ يَلحَقُهَا العَدَمُ، إِمَّا قَبْلَ وجُودِهَا أو بَعْدَ وجُودِهَا.

وَإِذَا لَمْ يَصْحَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الكَائِنَاتُ مِنْ قِسْمِ المُستَحِيلِ أَوْ مِنْ قِسْمِ

الوَاجِبِ، وَجَبَ أَنْ تَكُونَ مِنْ قِسْمِ المُمْكِنِ؛ إِذْ لَيسَ هُنَاكَ قِسْمٌ آخَرُ غَيرَهُ.

فَهَذِهِ الكَائِنَاتُ إِذَنْ، مُمكِنَةٌ؛ لأَنَّهَا تَقبَلُ الوجُودَ تَارَةً، وَتَقبَلُ العَدَمَ تَارَةً أُخْرَىٰ.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الكَائِنَاتُ مُمكِنَةً، لأَنَّنَا نُحِسُّ بِوجُودِهَا ثُمَّ عَدَمِهَا إِحسَاسًا ظَاهِرًا، كَانَ حُكمُنَا عَلَيهَا بِأَنَّهَا مَوجُودَةٌ حُكمًا بَدِيهِيًّا لَا يَحتَاجُ إِلَىٰ استِدلَالٍ، بَلْ يَكفِي فِيهِ مُجَرَّدُ تَوجِيهِ الإِحسَاسِ إِلَىٰ الكَونِ مِنْ حَولِنَا، بَلْ إِلَىٰ أَنفُسِنَا ذَاتِهَا.

وَوجُودُ المُمكِنِ يَقتَضِي بِالضَّرُورَةِ وجُودَ الوَاجِبِ، وَجُملَةُ الكَائِنَاتِ المَوجُودَةِ مُمكِنَةٌ قَطْعًا، وَكُلُّ مُمكِنٍ مَوجُودٍ مُحتَاجٌ إِلَىٰ سَبَبٍ مَوجُودٍ يُعطِيهِ الوجُودَ، وَذَلِكَ السَّبَبُ هُوَ وَاجِبُ الوجُودِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا يَلِي:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: كُلُّ مُمكِنٍ وجُودُهُ مِنْ غَيرِهِ.

فَجُملَةُ الكَائِنَاتِ المُمكِنَةِ إِذَنْ مُحتَاجَةٌ إِلَىٰ سَبَبٍ مَوجُودٍ يُوجِدُهَا، وَذَلِكَ السَّبَبُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَينَ هَذِهِ الكَائِنَاتِ، أَوْ جُزأَهَا، أَوْ غَيرَهَا.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هِيَ سَبَبَ وجُودِهَا؛ إِذْ يَلزَمُ عَلَىٰ ذَلِكَ تَقدُّمُ الشَّيءِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالوجُودِ؛ أَي: تَكُونُ هَذِهِ الكَائِنَاتُ مَوجُودَةً بِاعتِبَارِهَا سَبَبًا قَبلَ أَنْ تُوجَدَ بِاعتِبَارِهَا مُسبَّبًا، وَفِي ذَلِكَ اجتِمَاعُ النَّقِيضَينِ فِي شَيءٍ وَاحِدٍ وَحَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُمَا الوجُودُ وَالعَدَمُ، وَالتَّقدمُ وَالتَّأَخُّرُ.

وَلَا يَصِحُّ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ جُزؤُهَا هُوَ السَّبَبَ فِي وجُودِهَا؛ لأَنَّ ذَلِكَ الجُزءَ -إِنْ فُرِضَ أَنَّهُ أَولُ جُزءٍ وُجِدَ مِنْ هَذِهِ الكَائِنَاتِ- كَانَ سَبَبًا فِي وجُودِ

نَفسِهِ بِاعتِبَارِهِ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الكَائِنَاتِ الَّتِي هُوَ سَبَبٌ فِي وجُودِهَا جَمِيعًا، وَكَونُ الشَّيءِ سَبَبًا فِي وجُودِ نَفسِهِ مُحَالٌ.

وَكَذَلِكَ إذَا فُرِضَ أنَّ ذَلِكَ الجُزءَ لَيسَ هُوَ الجزءَ الأوَّلَ بِأَنْ كَانَ الجُزءَ العَاشِرَ أَوِ العِشرِينَ مَثَلًا، أي: الَّذِي لَمْ يُوجَدْ فِي أَوَّلِ زَمَنٍ وُجِدَتْ فِيهِ المُمكِنَاتُ، بَلْ وُجِدَ فِي زَمَنٍ مُتَأَخِّرٍ، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ السَّبَبَ فِي وجُودِ جُملَةِ الكَائِنَاتِ؛ إذْ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَونُهُ عِلَّةً لِنَفسِهِ وَلِمَا سَبَقَهُ مِنَ الأجزَاءِ، وَكَونُ الشَّيءِ عِلَّةً لِنَفسِهِ بَاطِلٌ.

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذِهِ الكَائِنَاتِ أَوْ جُزأَهَا لَيسَتْ سَبَبًا فِي وجُودِهَا، تَعيَّنَ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا غَيرَهَا، وَذَلِكَ إمَّا مُستَحِيلٌ أَوْ وَاجِبٌ، وَالمُستَحِيلُ مَعدُومٌ، وَالعَدَمُ لَا يَكُونُ مَصدَرًا لِلوجُودِ، فَتَعيَّنَ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا المَوجُودُ، وَهُوَ وَاجِبُ الوجُودِ.

فَهَذِهِ الكَائِنَاتُ المَوجُودَةُ إذَنْ لَهَا مُوجِدٌ وَاجِبُ الوجُودِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: هَذِهِ المُمكِنَاتُ المَوجُودَةُ، قَائِمَةٌ بِوجُودٍ، أي: أَنَّ تَحقُّقَهَا فِي الخَارِجِ إنَّمَا كَانَ لِمَا ثَبَتَ لَهَا مِنْ مَعنَىٰ الوجُودِ، وَذَلِكَ الوجُودُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مَصدَرُهُ مَعنَىٰ الإمكَانِ القَائِمِ بِالمُمكِنَاتِ، وَهُوَ تَسَاوِي وجُودِهَا وعَدَمِهَا وَمَاهِيَّاتِ تِلكَ المُمكِنَاتِ وَحَقَائِقِهَا بِاعتِبَارِهَا أُمُورًا يَجُوزُ عَلَيهَا الوجُودُ وَالعَدَمُ، وَهُوَ بَاطِلٌ؛ لأَنَّهُ لَا شَيءَ مِنَ المَاهِيَّاتِ المُمكِنَةِ بِمُقتَضٍ لِلوجُودِ اقتِضَاءً ضَرورِيًّا بِحَيثُ يَجِبُ وجُودُهَا.

فَتَعيَّنَ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ الوجُودِ فِي تِلكَ المُمكِنَاتِ سِوَاهَا، وَهُوَ وَاجِبُ الوجُودِ ضَرورَةً.

تَنبِيهٌ:

العَلَّامَةُ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاق عَفِيفي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- مِنْ أَوَائِلِ الأَئِمَّةِ المُعَاصِرِينَ الذَّابِّينَ عَنْ عَقِيدَةِ السَّلَفِ وَطَرِيقَتِهِم، مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَالدَّعوَةِ إِلَيهِ.

وَهُوَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ قَانُونِ السَّلَفِ فِي العَقِيدَةِ وَالعَمَلِ، وَالمَنهَجِ وَالاستِدْلَالِ وَمِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ فِي ذَلِكَ، وَالدَّعوَةِ إِلَيهِ.

وَقَدْ كَتَبَ رَحِمَهُ اللهُ مُذَكِّرَةَ التَّوحِيدِ فِي وَقْتٍ كَانَت الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الإلحَادِ فِيهِ مُتَبَرِّجَةً نَافِقَةَ السُّوقِ نَافِذَةَ الأَثَرِ، وَكَانَ الشُّيوعِيُّونَ وَأَفرَاخُهُم يَتَحَكَّمُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ وَسَائِلِ الإِعْلَامِ مَقرُوءَةً، وَمَسمُوعَةً، وَمُشَاهَدَةً، وَكَانَتِ الدَّعوَةُ إِلَىٰ نَبْذِ الدِّينِ وَالتَّحلُّلِ مِنْهُ وَوصْمِهِ بِأَنَّهُ سَبَبُ التَّخَلُّفِ وَأَفْيونُ الشُّعوبِ، تَلقَىٰ بَعض الاستِجَابَةِ هُنَا وَهُنَاكَ.

وَقَدْ خُدِعَ كَثِيرٌ مِنَ الشَّبَابِ مِنَ الجِيلِ الجَدِيدِ، وَمِنَ المُثَقَّفِينَ مِنْ غَيرِهِ، بِمَقُولَاتِ أَهْلِ الزَّيغِ وَالإلحَادِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ أَقسَامَ الحُكْمِ العَقْلِيِّ، وَالمَسَائِلَ الثَّلَاثَ الأُولَ: وَهِيَ إِثْبَاتُ أَنَّ العَالَمَ مُمكِنٌ، وَأَنَّ المُمكِنَ مُحتَاجٌ إِلَىٰ مُوجِدٍ ومُؤثِّرٍ، وَإِثبَاتُ وجُوبِ الوجُودِ للهِ تَعَالَىٰ.

ذَكرَ ذَلِكَ لِلرَّدِّ عَلَىٰ أولَئِكَ المُلحِدِينَ بِدَلَائِلِ النَّقلِ وَالعَقْلِ الَّتِي تُثبِتُ وجُودَ الخَالِقِ العَظِيمِ، وَأَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الصَّنْعَةِ المُتقَنَةِ المُحكَمَةِ فِي الكَونِ خَالِقًا عَظِيمًا يُدَبِّرُ الأَمْرَ، وَيَمْلِكُ المُلْكَ، لَا كَمَا يَفتَرِي الشُّيوعِيُّونَ وَأَفرَاخُهُم مِنْ إِنْكَارِ وجُودِ الخَالِقِ، وَجَحْدِ أَنَّ لِلكَونِ مُوجِدًا.

* * *

قَالَ العَلَّامَةُ الشَّيخُ عَبدُ الرَّزَّاق عَفِيفِي بَعدَ أنْ ذَكَرَ زَيغ بَعضِ المُلحِدِينَ السَّابِقِينَ: «وَقَدْ وَرِثَ ذَلِكَ الزَّيغَ وَالإلحَادَ أنَاسٌ ظَهَروا فِي عُصُورٍ مُتَعَاقِبَةٍ بِأسمَاءٍ مُختَلِفَةٍ، وَاشتَهَروا بِألقَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

فَتَارَةً يُسَمَّونَ بِالدَّهرِيينَ، وَأُخرَىٰ بِرِجَالِ الحَقِيقَةِ، وَوَحْدَةِ الوجُودِ، وأحيَانًا بِالشُّيوعِيينَ، وَأُخرَىٰ بِالوجُودِيينَ -اللَّقَبُ الجَدِيدُ-، وَآونَةً بِالبَهَائِيينَ.

إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ العِبَارَاتِ الَّتِي اختَلَفَتْ حُروفُهَا وَمَبَانِيهَا، وَائتَلَفَتْ مَقَاصِدُهَا، وَاتَّحَدتْ مَعَانِيهَا، فَكُلُّهَا تَرمِي إلَىٰ غَرَضٍ وَاحِدٍ، وَتَدُورُ حَولَ مِحورٍ وَاحِدٍ، هُوَ أنَّهُ لَيسَ لِلعَالَمِ رَبٌّ يَخلُقُ وَيُدَبِّرُ، وَلَيسَ لَهُ إلَهٌ يُعبَدُ وَيُقصَدُ.

وَبِمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَلِيلِ حَاجَةِ المُمكِنِ إلَىٰ مُوجِدٍ، وَدَلِيلِ وجُوبِ وجُودِهِ تَعَالَىٰ يَظْهَرُ لَكَ فَسَادُ مَذْهَبِهِم، وَخُروجُهُ عَنْ مُقتَضَىٰ النَّظَرِ، وَمُوجبِ العَقلِ، وَمَا يصدِّقُ ذَلِكَ وَيُؤَيِّدُهُ مِن أدِلَّةِ السَّمعِ».

الشَّرْحُ

فَالشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَىٰ أقْوَامٍ يُلحِدُونَ وَيُشرِكُونَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، فَتَعَينَ أنْ يُنَاظِرَهُم فِي ذَلِكَ، وَأنْ يُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَيهِم.

وَهُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا يَأتِي بَعدُ يُطِيلُ النَّفَسَ فِي بَيَانِ تَوحِيدِ العِبَادَةِ أو تَوحِيدِ الألُوهِيَّةِ؛ إذْ هُوَ مَوطِنُ النِّزَاعِ بَينَ الرُّسُلِ وَأقوَامِهِم.

فَالشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُعَالِجُ مَا جَدَّ مِنْ مُشكِلَاتِ عَصْرِهِ، كَمَا رَدَّ العُلمَاءُ قَبْلُ عَلَىٰ الرَّافِضَةِ لَمَّا ظَهَروا، وَعَلَىٰ الجَهمِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَالخَوَارِجِ وَالمُرجِئَةِ لما نَجَمُوا، وَكَمَا رَدَّ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَغَيرُه عَلَىٰ الاتِّحَادِيَّةِ، وَالحُلُولِيَّةِ، وَالفَلَاسِفَةِ، وَالرَّوَافِضِ، وَغَيرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الزَّيغِ وَالضَّلَالِ.

* * *

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدَّلِيلَ السَّمعِيَّ وَالدَّلِيلَ العَقْلِيَّ عَلَىٰ إثباتِ وجُوبِ الوجُودِ للهِ تعالَىٰ، قَالَ: «وَقَدْ أرشَدَنَا اللهُ إلَىٰ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ:

مِنهَا: قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

وَهَٰذِهِ الآيَةُ، وَإِنْ سِيقَتْ لِلاستِدلَالِ عَلَىٰ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ الَّذِي تَقدَّمَ قَبلَهَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣].

إلَّا أنَّهَا تَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَىٰ تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَإِنَّ استِحقَاقَهُ تَعالَىٰ لِلعِبَادَةِ، وَاختِصَاصَهُ بِهَا فَرْعٌ عَنْ وجُودِهِ، وَانفِرَادِهِ بِالخَلْقِ، وَالتَّدبِيرِ، وَالتَّصرِيفِ، وَالتَّقدِيرِ».



الشَّرْحُ

أي: إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ بِارتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَالأرضِ بِجبَالِهَا وَسهُولِهَا وَبِحَارِهَا، وَفِي اختِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الطُّولِ وَالقِصَرِ، وَالظُّلمَةِ وَالنُّورِ، وَتَعَاقُبِهِمَا بِأَنْ يَخْلُفَ كُلٌّ مِنْهَا الآخَرَ، وَفِي السُّفُنِ الجَارِيَةِ فِي البِحَارِ، الَّتِي تَحْمِلُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءِ المَطَرِ، فَأَحيَا بِهِ

الأرضَ فَصَارَتْ مُخضَرَّةً ذَاتَ بَهجَةٍ بَعدَ أنْ كَانَتْ يَابِسَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا.

وَمَا نَشَرَهُ اللهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ مَا دَبَّ عَلَىٰ وَجْهِ الأرْضِ، وَمَا أنْعَمَ بِهِ عَلَيكُمْ مِنْ تَقلِيبِ الرِّيَاحِ وَتَوجِيهِهَا، وَالسَّحَابِ المُسَيَّرِ بَينَ السَّمَاءِ وَالأرضِ، إنَّ فِي كُلِّ الدَّلَائِلِ السَّابِقَةِ لآيَاتٍ عَلَىٰ وَحدَانِيَّةِ اللهِ، وَجَلِيلِ نِعَمِهِ، لِقَومٍ يَعقِلُونَ مَوَاضِعَ الحُجَجِ، وَيَفْهَمُونَ أدِلَّتَهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ وَحدَانِيَّتِهِ، وَاستِحقَاقِهِ وَحْدَهُ لِلعِبَادَةِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمِنهَا قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٦٥]. إِلَىٰ آخِرِ الآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الوَاقِعَةِ».

الشَّرْحُ

أي: أفَرَأيتُمُ النُّطَفَ الَّتِي تَقذِفُونَهَا فِي أرْحَامِ نِسَائِكُمْ، هَلْ أنْتُم تَخْلُقُونَ ذَلِكَ بَشَرًا أمْ نَحنُ الخَالِقُونَ؟

نَحنُ قَدَّرْنَا بينكُمُ المَوتَ، وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ عَنْ أنْ نُغَيِّرَ خَلقَكُمْ يومَ القِيَامَةِ وَنُنْشِئكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَالأحْوَالِ.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ أنشَأكُمُ النَّشْأةَ الأولَىٰ وَلَمْ تَكُونُوا شَيئًا، فَهَلَّا تَذَكَّرون قُدرَتي عَلَىٰ إنشَائِكُم مَرَّةً أخرَىٰ.

أَفَرَأيتُمُ الحَرْثَ الَّذِي تَحرُثُونَهُ، هَلْ أنْتُمْ تُنبتُونَهُ فِي الأرْضِ؟ بَلْ نَحنُ نُقرُّ قَرَارَهُ وَنُنبِتُهُ فِي الأرضِ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلنَا ذَلِكَ الزَّرْعَ هَشِيمًا، لا يُنتَفعُ بِهِ فِي مَطْعَمٍ، فَأصبَحْتُم تَتعَجَّبُونَ مِمَّا نَزَلَ بِكُمْ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَهَذِهِ الآيَاتُ، وَإِنْ ذُكِرَتْ لِتَنزِيهِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا ظَنَّهُ بِهِ مُنكرو البَعثِ، وَسِيقَتْ لإثبَاتِ قُدرَتِهِ عَلَىٰ المعَادِ كَمَا يُرشِدُ إلَيهِ مَا قَبْلَهَا مِنَ الآيَاتِ.

فَهِيَ دَلِيلٌ -أيضًا- عَلَىٰ وجُوبِ وجُودِهِ تَعَالَىٰ لاستِنَادِ مَا ذُكِرَ فِي الآيَاتِ مِنَ المَخلُوقَاتِ إلَيهِ، وَحُدوثِهِ بِقُدرَتِهِ.

وَلَا يُعقَلُ ذَلِكَ إلَّا إذَا كَانَ وَاجِبَ الوجُودِ.

فَمَنْ نَظَرَ إلَىٰ مَا تُرشِدُ إلَيهِ هَذِهِ الآيَاتُ وَنَحوِهَا مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي العَالَمِ نَظَرًا ثَاقِبًا، وَفَكَّرَ فِي عَجَائِبِ خَلْقِهَا، وَحُسْنِ تَنسِيقِهَا، وَشِدَّةِ أَسْرِهَا تَفكِيرًا عَمِيقًا، وَبَحَثَ فِي أَحْكَامِهَا، وَبَدِيعِ صُنعِهَا بَحْثًا بَرِيئًا مِنَ الهَوَىٰ، وَالحَمِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ، وأنصَفَ مُنَاظِرَهُ مِن نَفسِهِ، فَلَمْ يَمنَعْهُ مِن فَهْمِ مَا عَرَضَ عَلَيهِ مِنَ الحَقِّ، وَالإذْعَانِ لَهُ؛ كِبْرٌ يُردِيهِ، وَلَا عِنَادٌ يُطغِيهِ؛ اتَّضَحَ لَهُ طَرِيقُ الهُدَىٰ.

وَاضْطَرَّهُ ذَلِكَ أَنْ يَستَيقِنَ النَّتِيجَةَ، وَيُؤمِنَ مِنْ أعمَاقِ قَلْبِهِ بِأنَّ لِلعَالَمِ رَبًّا خَلَّاقًا فَاعِلًا مُختَارًا حَكِيمًا فِي تَقدِيرِهِ وَتَدبِيرِهِ، أحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ».



أَشَارَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَىٰ بَعضِ الأدِلَّةِ الَّتِي حَاجَّ بِهَا المُلحِدِينَ الَّذِينَ

ابْتُلِيَ بِهِم العَالَمُ الإِسْلَامِيُّ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِإِلَهٍ وَلَا نُبُوَّةٍ وَلَا كِتَابٍ، وَقَدْ فُتِنَ هَؤُلَاءِ بِالاشْتِرَاكِيَّةِ، وَلَعِبَتْ بِعُقُولِهِمُ المَارْكِسِيَّةُ، وَقَدْ وُجِدَ مَنْ يَكْتُبُ فِي الصُّحُفِ، وَيَنْشُرُ فِي الكُتُبِ إِنْكَارَ اللهِ جَهرَةً عَلَانِيَةً فِي دَارِ الإِسْلَامِ، وَبِلَادِ المُسْلِمِينَ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ سَالِفِ الأَقضِيَةِ أَنْ تعرَّضَ دِينُ الكَنِيسَةِ وَإِلَهُهَا فِي أُورُوبَّا لِمِحنَةٍ عَاصِفَةٍ، بِسَبَبِ مَوقِفِ رِجَالِ الكَنِيسَةِ مِنَ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، فَكَفَرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالدِّينِ، وَأَلحَدُوا، وَلَمْ يُتَحْ لَهُمْ أَنْ يَعرِفُوا الدِّينَ الحَقَّ، وَلَو عَرَفُوهُ لَاهتَدَوا.

وَتَطَايَرَ شَرَرُ الإِلحَادِ مِنْ أُورُوبَّا إِلَىٰ غَيرِهَا، وَقَامَتْ عَلَىٰ مَبْدَأ الإِلحَادِ دُوَلٌ كُبرَىٰ تَنُصُّ دَسَاتِيرُهَا عَلَىٰ أن: لَا إِلَهَ، وَالحَيَاةُ مَادَّةٌ، كَمَا فِي دُستُورِ رُوسيا السُّوفِيتيةِ، أُمِّ الاشتِرَاكِيَّةِ، وَكَذَا مَن دَارَ فِي فَلَكِهَا مِنَ الدُّوَلِ.

هَذَا، مَعَ أَنَّ وجُودَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَعرِفَتَهُ سُبحَانَهُ، أَعْظَمُ الضَّرورِيَّاتِ الَّتِي تَقتَضِيهَا الفِطرَةُ السَّلِيمَةُ وَالنَّفسُ المُستَقِيمَةُ.

قَالَ العَلَّامَةُ الشِّنقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَضْوَاءِ البَيَانِ» (٣/ ٤١٤): «كُلُّ الأَسئِلَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ استِفهَامَاتُ تَقرِيرٍ، يُرادُ مِنهَا أَنَّهُم إِذَا أَقَرُّوا رَتَّبَ لَهُمُ التَّوبِيخَ وَالإِنكَارَ عَلَىٰ ذَلِكَ الإِقْرَارِ؛ لأَنَّ المُقِرَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ يَلزَمُهُ الإِقْرَارُ بِالأُلُوهِيَّةِ ضَرُورَةً، نَحوَ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠]، وَقَولِهِ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام:١٦٤]، وَإِنْ زَعَمَ بَعضُ العُلَمَاءِ أَنَّ هَذَا

استِفهَامُ إنْكَارٍ؛ لأنَّ استِقرَاءَ القُرْآنِ دَلَّ عَلَىٰ أنَّ الاستِفهَامَ المُتَعَلِّقَ بِالرُّبُوبِيَّةِ استِفْهَامُ تَقرِيرٍ وَلَيسَ استِفْهَامَ إنْكَارٍ، لأنَّهُم لَا يُنكِرونَ الرُّبُوبِيَّةَ». اهـ

وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَخْلُ كُتُبُ الكَلَامِ وَالفَلسَفَةِ مِنْ إقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَىٰ وجُودِهِ سُبحَانَهُ، فَعَوَّلَ المُتَكَلِّمُونَ عَلَىٰ دَلِيلِ الحُدُوثِ، وَهُوَ: العَالَمُ مُتَغَيِّرٌ، وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ، وَكُلُّ حَادِثٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحدِثٍ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأمَّا المُتَفَلسِفَةُ فَعَوَّلُوا عَلَىٰ دَلِيلِ الإمكَانِ، وَهُوَ البَحْثُ فِي حَدِّ المُمكِنِ، ثُمَّ فِي لَوَازِمِهِ ثُمَّ فِي أنَّ كُلَّ مُمكِنٍ مُحتَاجٌ إلَىٰ سَبَبٍ يُعطِيهِ الوجُودَ، وَهُوَ مُوجِدُهُ، الوَاجِبُ الوجُودِ.

وَقَلِيلٌ أولَئِكَ الَّذِينَ عَوَّلُوا عَلَىٰ الأدِلَّةِ الكَونِيَّةِ الَّتِي بَثَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي الأنفُسِ وَالآفَاقِ.

وَقَدْ أشَارَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ إلَىٰ حُدوثِ الكَونِ، وَهُوَ وجُودُهُ بَعْدَ إذْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ قَاضٍ بِكَونِ هَذَا الكَونِ مَخْلُوقًا لِخَالِقٍ.

وَأشَارَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ إلَىٰ طَرِيقِ العِنَايَةِ، وَدَلِيلِ الإبدَاعِ، وَالإعدَادِ وَالتَّهيِئَةِ فِي المَوجُودَاتِ، وَنِظَامِ الأكوَانِ وَمَا فِيهَا مِنَ الإحكَامِ وَالإتقَانِ، وَأشَارَ إلَىٰ دَلِيلِ التَّسويَةِ؛ لأنَّ الخَلقَ إذَا كَانَ يَدلُّ عَلَىٰ اللهِ، فَالتَّسويَةُ أدَلُّ عَلَيهِ، وَالتَّسويَةُ أخَصُّ مِنَ الخَلْقِ؛ إذْ مِنَ المُمكِنِ أنْ يُخلَقَ الشَّيءُ غَير مُسَوًّىٰ.

وَتَسوِيَةُ الشَّيءِ: إحسَانُ خَلقِهِ، وَإكمَالُ صَنعَتِهِ، بِحَيثُ يَكُونُ مُهَيَّأً لأدَاءِ وَظِيفَتِهِ، وَبُلُوغِ كَمَالِهِ المُقَدَّرِ لِنَوعِهِ، وَإمْدَادُهُ بِمَا بِهِ صَلَاحُهُ وَبَقَاؤُهُ، وَجَعلُهُ

مستوِيًا مُعتَدِلًا، مُتَنَاسِبَ الأجزَاءِ بِحَيثُ لَا يَحصُلُ بينَهَا تَفَاوتٌ يُخِلُّ بِالمَقصُودِ مِنهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

وَقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

وَذَكَرَ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ قَولَ مُوسَىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، فَقَدْ وُجِدَ مَنْ يَجحَدُ الحَقَّ، وَيَدْفَعُ الصِّدقَ، كَالدَّهرِيينَ فِي سَالِفِ الأزْمَانِ، وَكَالشُّيوعِيينَ وَالوُجُودِيينَ وَغَيرِهِم فِي هَذِهِ الأزْمَانِ.

* * *

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ هؤلَاءِ وهؤلَاءِ، وَذَكَرَ فِرعَونَ فَقَالَ: «وَمَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ، وَوضُوحِ السَّبِيلِ، تَعَامَىٰ فِرعَونُ مُوسَىٰ عَنِ الحَقِّ، وَتَجَاهَلَ مَا استَيقَنَتْهُ نَفسُهُ، وَأنْكَرَ بِلِسَانِهِ مَا شَهِدَتْ بِهِ الفِطْرَةُ، وَدَلَّ عَلَيهِ العَقْلُ مِنْ وجُودِ وَاجِبِ الوجُودِ، فَأقَامَ مُوسَىٰ عَلَيهِ الحُجَّةَ، بِدَلَالَةِ الأثَرِ عَلَىٰ المُؤثِّرِ، وَالصَّنعَةِ عَلَىٰ الصَّانِعِ، وَوجُودِ العَالَمِ، وَعِظَمِ خَلْقِهِ، عَلَىٰ وجُودِ الخَالِقِ، وَعَظِيمِ قُدرَتِهِ، وَسَعَةِ عِلمِهِ، وَكَمَالِ حِكمَتِهِ، فَغلَبَهُ بِحُجَّتِهِ.

وَذَلِكَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ فِيمَا حَكَاهُ اللهُ عَنهُمَا مِنَ الحوَارِ، وَالسُّؤَالِ، وَالجَوَابِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٩].

فَانْظُرْ كَيفَ وَقَفَ مُوسَىٰ مَوقِفَ مَنْ يَصْدَعُ بِالحَقِّ وَيُقِيمُ عَلَيهِ البُرهَانَ؟!

وَكَيفَ وَقَفَ فِرعَونُ مِنْ مُوسَىٰ مَوقِفَ السُّفَهَاءِ، لَا يَملِكُ إلَّا الشَّتْمَ، وَالسِّبَابَ، وَالسُّخرِيَةَ، وَالاستِهزَاءَ، وَالتَّهدِيدَ بِأَلِيمِ العَذَابِ؟!!».



قَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (٣/ ١٢١٦): «قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟

وَهَذَا إِنْكَارٌ مِنْهُ لِرَبِّهِ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا، مَعَ تَيقُّنِ صِحَّةِ مَا دَعَاهُ إِلَيهِ مُوسَىٰ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

أي: الَّذِي خَلَقَ العَالَمَ العُلويَّ وَالسُّفلِيَّ، وَدبَّرَهُ بِأنواعِ التَّدبِيرِ، وَرَبَّاهُ بِأنواعِ التَّربِيَةِ.

وَمِنْ جُملَةِ ذَلِكَ، أَنْتُمْ أَيُّهَا المُخَاطَبُونَ، فَكَيفَ تُنكِرُونَ خَالِقَ المَخلُوقَاتِ، وَفَاطِرَ الأرضِ وَالسَّمواتِ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

فَقَالَ فِرعون مُتعجِّبًا لِقَولِهِ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟! مَا يَقُولُهُ هَذَا الرَّجُلُ؟!

فَقَال مُوسَىٰ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. تَعَجَّبتُم أَمْ لَا، استكبَرتُمْ، أَمْ أَذْعَنتُم.

فَقَالَ فِرعونُ مُعَانِدًا لِلحَقِّ، قَادِحًا فِيمَن جَاءَ بِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. حَيثُ قَالَ خِلَافَ مَا نَحنُ عَلَيهِ، وَخَالَفَنَا فِيمَا ذَهبنَا إِلَيهِ، فَالعَقْلُ عِندَهُ، وَأَهْلُ العَقْلِ: مَنْ زَعَمُوا أَنَّهُم لَمْ يُخلَقُوا، أَوْ أَنَّ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ، مَا زَالَتَا مَوجُودَتَينِ مِنْ غَيرِ مُوجِدٍ، وَأَنَّهُمْ بِأَنفُسِهِمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ خَالِقٍ!

وَالعَقْلُ عِندَهُ، أَنْ يُعْبَدَ المَخلُوقُ النَّاقِصُ مِنْ جَمِيعِ الوجُوهِ، وَالجُنُونُ عِندَهُ، أَنْ يُثْبَتَ الرَّبُّ الخَالِقُ لِلعَالَمِ العُلويِّ وَالسُّفلِيِّ، وَالمُنعِمُ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَيُدْعَىٰ إِلَىٰ عِبادَتِهِ!

وَزَيَّنَ لِقَومِهِ هَذَا القَولَ، وَكَانُوا سُفَهَاءَ الأَحْلَامِ، خَفِيفِي العُقُولِ

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤].

فَقَالَ مُوسَىٰ عليه السلام، مُجِيبًا لإنْكَارِ فِرعَونَ وَتَعطِيلِهِ لِرَبِّ العَالَمِينَ: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾: مِنْ سَائِرِ المَخْلُوقَاتِ ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: فَقَدْ أَدَّيتُ لَكُم مِنَ البَيَانِ وَالتَّبيينِ، مَا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ أَدْنَىٰ مُسْكَةٍ مِن عَقلٍ، فَمَا بَالُكُم تتجَاهلُونَ فِيمَا أخَاطِبُكُم بِهِ؟

وَفِيهِ إيمَاءٌ وَتَنبيهٌ إلَىٰ أنَّ الَّذِي رَمَيتُم بِهِ مُوسَىٰ مِنَ الجُنُونِ، أَنَّهُ دَاؤُكُم، فَرَمَيتُم أزكَىٰ الخَلْقِ عَقْلًا وَأَكْمَلَهُم عِلْمًا، بِالجُنُونِ، وَالحَالُ أَنَّكُم أنتُمُ المَجَانِينُ، حَيثُ ذَهَبَتْ عُقُولُكُم عَنْ إنْكَارِ أظْهَرِ المَوجُودَاتِ، خَالِقِ الأرضِ وَالسَّمَوَاتِ وَمَا بينَهُمَا.

فَإذَا جَحَدتُموهُ، فَأيَّ شَيءٍ تُثبِتُونَ؟

وَإذَا جَهِلتُموهُ، فَأيَّ شَيءٍ تَعلَمُونَ؟

وَإذَا لَمْ تؤمِنُوا بِهِ وَبِآيَاتِهِ، فَبِأيِّ شَيءٍ -بَعدَ اللهِ وَآيَاتِهِ- تُؤمِنُونَ؟

تَاللهِ، إنَّ المَجَانِينَ الَّذِينَ بِمَنزِلَةِ البَهَائِمِ، أعقَلُ مِنْكُمْ، وَإنَّ الأنعَامَ السَّارِحَةَ، أَهْدَىٰ مِنْكُم!

فَلَمَّا خَنقَتْ فِرعَونَ الحُجَّةُ، وَعَجَزَتْ قُدرَتُهُ وَبَيَانُهُ عَنِ المُعَارَضَةِ ﴿قَالَ﴾ مُتوعِّدًا لِمُوسَىٰ بِسُلطَانِهِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾: زَعَمَ -قَبَّحَهُ اللهُ- أنَّهُ قَدْ طَمعَ فِي إضلَالِ مُوسَىٰ، وألَّا يَتَّخِذَ إلَهًا غَيرَهُ، وَإلَّا فَقَدْ تَقرَّرَ أنَّهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ أمْرِهِمْ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٢]».



الشَّرْحُ

أي: وَلَقَدْ آتَينَا مُوسَىٰ تِسعَ مُعجِزَاتٍ وَاضِحَاتٍ شَاهِدَاتٍ عَلَىٰ صِدْقِ نُبوَّتِهِ، وَهِيَ العَصَا، وَاليَدُ، وَالسُّنُونَ، وَنَقصُ الثَّمرَاتِ، وَالطُّوفَانُ، وَالجَرَادُ، وَالقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، فَاسْأل -يَا مُحمَّدُ- هَؤلَاءِ اليَهودَ سُؤالَ تَقرِيرٍ حِينَ جَاءَ مُوسَىٰ أسلَافَهُم بِمُعجِزَاتِهِ الوَاضِحَاتِ، فَقَالَ فِرعونُ لِمُوسَىٰ: إنِّي لأظُنُّكَ -يَا مُوسَىٰ- مُقَارِفًا لِلسِّحرِ، مَخدُوعًا، مَغلُوبًا عَلَىٰ عَقْلِكَ بِمَا تَأتِيهِ مِنْ غَرَائِبِ الأفْعَالِ.

فَرَدَّ عَلَيهِ مُوسَىٰ: لَقَدْ تَيقَّنْتَ -يَا فِرعَونُ- أنَّهُ مَا أنزَلَ تِلكَ المُعجِزَاتِ التِّسعَ الشَّاهِدَةَ عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِي إلا رَبُّ السَّموَاتِ وَالأرْضِ، لِتَكُونَ دَلَالاتٍ يَستَدِلُّ بِهَا أُولُو البَصَائِرِ عَلَىٰ وَحدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي رُبوبِيَّتِهِ وَألوهِيَّتِهِ، وَإنِّي لَعَلَىٰ يَقينٍ أنَّكَ -يَا فِرعَونُ- هَالِكٌ مَلعُونٌ مَغلُوبٌ.

وَفِرعَونُ مَعَ جَحدِهِ الرَّبَّ الخَالِقَ، وَالإلَهَ العَظِيمَ بِلِسَانِهِ، وَمَعَ تَلبِيسِهِ

عَلَىٰ قَومِهِ بِدَعوَاهُ، لَمْ يَرُدَّ قَولَ مُوسَىٰ عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٣-١٤]».

الشَّرْحُ

ذَهَبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ فِرعَونَ وَمَلَئِهِ، وَدَعَاهُم إِلَىٰ اللهِ، وَأَرَاهُمُ الآيَاتِ، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾. مُضِيئَةً تَدُلُّ عَلَىٰ الحَقِّ ويُبصَرُ بِهَا كَمَا تُبصِرُ الأبصَارُ بِالشَّمسِ، قَالُوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. لَمْ يَكفِهِم مُجَرَّدُ القَولِ بِأَنَّهُ سِحرٌ، بَلْ قَالُوا: مُبِينٌ ظَاهِرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ!

وَهَذَا مِنْ أعجَبِ العَجَائِبِ؛ الآيَاتُ المُبصِرَاتُ وَالأَنْوَارُ السَّاطِعَاتُ تُجعَل مِنْ أَبْيَنِ الخُزَعبلَاتِ، وَأَظْهَرِ السِّحرِ، هَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أعظَمِ المُكَابَرَةِ، وَأوقَحِ السَّفسَطَةِ؟!

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ جَاحِدِينَ لَهَا، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: لَيسَ جَحدُهُم مُستَنِدًا إِلَىٰ الشَّكِّ وَالرَّيبِ، وَإِنَّمَا جَحدُهُم مَعَ عِلمِهِمْ وَتَيقُّنِهِم بِصِحَّتِهَا ﴿ظُلْمًا﴾؛ مِنْهُم لِحَقِّ رَبِّهِم وَأنفُسِهِم، ﴿وَعُلُوًّا﴾؛ عَلَىٰ الحَقِّ وَعَلَىٰ العِبَادَةِ وَعَلَىٰ الانقِيَادِ لِلرُّسُلِ.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أَسْوَأُ عَاقِبَةٍ؛ دَمَّرَهُمُ اللهُ، وَغَرَّقَهُم فِي البَحْرِ، وَأَخزَاهُمْ، وَأورَثَ مَسَاكِنَهُمُ المُستَضْعَفِينَ مِنْ عِبَادِهِ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّ فِرعَونَ حِينَمَا أَخَذَتْهُ الحُجَّةُ، وَانتَصَرَ عَلَيهِ مُوسَىٰ، لَمْ يَبقَ بِيَدِهِ سِلَاحٌ إِلَّا التَّموِيهُ عَلَىٰ قَومِهِ، وَإِنذَارُ مُوسَىٰ وَمَنْ آمَنَ بِهِ أَنْ يُذِلَّهُم، وَيُذِيقَهُمُ العَذَابَ الأَلِيمَ.

وَأَنَّىٰ لَهُ ذَلِكَ! وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِم مُحِيطٌ؟! وَقَدْ كَتَبَ عَلَىٰ نَفسِهِ أَنْ يَجعَلَ العَاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:١٠٣]».



ثُمَّ بَيَّنَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ جَحْدَ الخَالِقِ العَظِيمِ، وَأَنَّ الإِلحَادَ القَدِيمَ، قَدْ وَرِثَهُ قَومٌ أعلَنُوا بِهِ، وَدَعَوا إِلَيهِ، وَكَانَ هُوَ الدَّاعِيَ إِلَىٰ سُلُوكِ المَسلَكِ العَقلِيِّ -مَعَ دَلَائِلِ النَّقْلِ- فِي الإِثْبَاتِ، مَعَ أَنَّ الشَّيخَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ قَرَّرَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ أَنَّ طَرِيقَ العِلْمِ الفِطْرِيِّ أَرْسَخُ وَأَكمَلُ مِنَ الطُّرُقِ النَّظَرِيَّةِ القِيَاسِيَّةِ، أَوِ الإِرَادَةِ الذَّوقِيَّةِ.

وَالنَّفسُ البَشَرِيَّةُ مَفطُورَةٌ عَلَىٰ مَعرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَذَلِكَ لَهَا أُولَىٰ الأَوَّلِيَّاتِ، وَأَصْلُ المُصَادَرَاتِ، وَأَثْبَتُ المُسَلَّمَاتِ، وَأَعمَقُ البَدَهِيَّاتِ، وَأَرْسَخُ الضَّرُورِيَّاتِ، وَمَعرِفَةُ اللهِ تَعَالَىٰ أَصْلُ كُلِّ الأُصُولِ، وَدَلِيلُ كُلِّ الأَدِلَّةِ، وَبُرهَانُ

كُلِّ البَراهِينِ.

وَلَكِنْ لأنَّ الفِطرَةَ السَّلِيمَةَ قَدْ يَعرِضُ لَهَا مَا يُفسِدُهَا مِثلَمَا يَعرِضُ لِلبَدَنِ الصَّحِيحِ مَا يُمرِضهُ؛ يحتَاجُ مَن أصَابَ فِطرَتَهُ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ إلَىٰ النَّظَرِ.

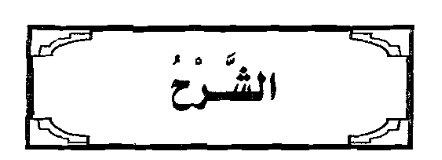
* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ وَرِثَ ذَلِكَ الزَّيْغَ وَالإلحَادَ أُنَاسٌ ظَهَروا فِي عُصُورٍ مُتَعَاقِبَةٍ بِأسماءٍ مُختَلِفَةٍ، وَاشْتَهَروا بِألقَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

فَتَارَةً يُسَمَّونَ بِالدَّهْرِيينَ، وَأُخرَىٰ بِرِجَالِ الحَقِيقَةِ، وَوَحْدَةِ الوجُودِ، وَأحيَانًا بِالشُّيوعِيِّينَ، وَأخْرَىٰ بِالوُجُودِيِّينَ -اللَّقَبُ الجَدِيدُ- وَآونَةً بِالبَهَائِيِّينَ.

إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ العِبَارَاتِ الَّتِي اخْتَلَفَتْ حُروفُهَا وَمَبَانِيهَا، وَائتَلَفَتْ مَقَاصِدُهَا، وَاتَّحَدَتْ مَعَانِيهَا، فَكلُّهَا ترمِي إلَىٰ غَرَضٍ وَاحِدٍ، وَتَدُورُ حَولَ مِحوَرٍ وَاحِدٍ، هُوَ أنَّهُ لَيسَ لِلعَالَمِ رَبٌّ يَخلُقُ وَيُدَبِّرُ، وَلَيسَ لَهُ إلَهٌ يُعبَدُ وَيُقصَدُ.

وَبِمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَلِيلِ حَاجَةِ المُمكِنِ إلَىٰ مُوجِدٍ، وَدَلِيلِ وجُوبِ وجُودِهِ تَعَالَىٰ، يَظهَرُ لَكَ فَسَادُ مَذهَبِهِم، وَخُروجُهُ عَنْ مُقتَضَىٰ النَّظَرِ، وَمُوجبِ العَقْلِ، وَمَا يُصدِّقُ ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُهُ مِن أدلَّةِ السَّمعِ».



الشَّرْحُ

وَهَذَا تَصرِيحُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالسَّبَبِ الدَّاعِي لِتَقرِيرِ أدِلَّةِ العَقْلِ عَلَىٰ وجُوبِ وجُودِهِ تَعَالَىٰ -كَمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ- وَهُوَ مَا يَجحَدُهُ المَلَاحِدَةُ مِنَ الشُّيوعِيِّينَ وَالوجُودِيِّينَ وَأضْرَابِهِم.

* * *

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا يَدَّعِيهِ بَعضُ الضُّلَّالِ الزَّائِغِينَ مِنَ المَلَاحِدَةِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ وجُودَ العَالَمِ وَلِيدُ الصُّدفَةِ وَالاتِّفَاقِ؛ فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنْ زَعَمَ زَاعِمٌ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ وجُودَ العَالَمِ وَلِيدُ الصُّدفَةِ وَالاتِّفَاقِ، أَوْ أَنَّهُ نَشَأَتْ أَطوَارُهُ عَنْ تَفَاعُلٍ بَينَ عَنَاصِرِ المَادَّةِ، فَتَفَرَّقَتْ إِلَىٰ وَحدَاتٍ بَعدَ اجتِمَاعٍ، أَوِ اجتَمَعَتْ وَائتَلَفَتْ بَعْدَ تَفرُّقٍ وَاختِلَافٍ.

وَصَارَ لِتِلْكَ الوَحْدَاتِ أَوِ المُرَكَّبَاتِ مِنَ الخَواصِّ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا قَبلَ هَذَا التَّفَاعُلِ، وَبِذَلِكَ تَجَدَّدَتِ الظَّوَاهِرُ، وَحَدَثَ مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ تَغيِيرٍ وَآثَارٍ مَعَ جَرَيَانِهَا عَلَىٰ سُنَّةٍ لَا تَتَبدَّلُ، وَنَامُوسٍ لَا يَختَلِفُ وَلَا يَتَغَيَّرُ».


الشَّرْحُ

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا يَزعُمُهُ المَادِّيُّونَ المُنكِرُونَ لِوجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ أَنَّ وجُودَ الخَالِقِ الَّذِي يُؤمِنُ بِهِ المُتَدَيِّنُونَ، لَيسَ ضَرورَةً عَقْلِيَّةً لِتَفسِيرِ مَا فِي الكَونِ مِنْ خَلقٍ وَتَسوِيَةٍ وَتَقدِيرٍ، وَهِدَايَةٍ.

وَادَّعَىٰ أُولَئِكَ المَادِّيُّونَ أَنَّهُ يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَذَا العَالَمِ، بِمَا فِيهِ مِنَ الحَيَاةِ وَالعَقْلِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الإِحكَامِ وَالتَّنَاسُقِ وَالتَّوَازُنِ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ وَفْقِ سُنَنٍ لَا تَتَغَيَّرُ، وَنَامُوسٍ لَا يَتبَدَّلُ، وَقَوَانِينَ فِي غَايَةٍ مِنَ الدِّقَّةِ، إِنَّمَا وُجِدَ بِمَحضِ المُصَادَفَةِ وَالاتِّفَاقِ.

فَوجُودُ العَالَمِ -بِزَعمِهِم- مُصَادَفَةٌ، وَانتِظَامُ الأفْلَاكِ مُصَادَفَةٌ، وَجَرَيَانُ الأمُورِ الحَيَوِيَّةِ وَالغَرِيزِيَّةِ فِي حِسَابِهَا الدَّقِيقِ مُصَادَفَةٌ.

وَذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ المُلحِدِينَ مِنَ الطَّبِيعِيِّينَ الَّذِينَ يَزعُمُونَ أنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ، وَالنَّبَاتَ، وَالحيوانَ، وَالإنسَانَ، وَهِيَ الَّتِي تُدَبِّرُ جميعَ الأمورِ الفَلَكِيَّةِ وَالحَيَوَانِيَّةِ وَالغَرِيزِيَّةِ، بِحِسَابٍ دَقِيقٍ، وَنِظَامٍ لَا يَحِيدُ.

* * *

ذَكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ القَائِلِينَ بِالصُّدفَةِ، وَالقَائِلِينَ بِالطَّبِيعَةِ، وَسَاقَ رَدًّا مُختَصرًا دقِيقًا بَلِيغًا عَلَىٰ هَؤلَاءِ وَهَؤلَاءِ، فَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «فَإِنْ زَعَمَ زَاعِمٌ مِنهُم بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ وجُودَ العَالَمِ وَلِيدُ الصُّدفَةِ وَالاتِّفَاقِ...

قِيلَ لَهُ: مَنِ الَّذِي أودَعَ تِلْكَ المَادَّةَ طَبِيعتَهَا، وَأكسَبَهَا خَواصَّهَا، فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَمُقتَضَىٰ حَقِيقَتِهَا لَمْ تَقبَلِ التَّغيُّرَ وَالزَّوَالَ؛ لأَنَّ مَا بِالذَّاتِ لَا يَتخَلَّفُ وَلَا يَزُولُ، وَقَدْ رَأينَاهَا تَتبدَّلُ، فَلَابُدَّ لَهَا مِن وَاهِبٍ يَهَبُهَا، وَفَاعِلٍ مُختَارٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ يُدَبِّرُهَا، وَيَضعُهَا فِي مَحَالِّهَا، وَلَيسَ ذَلِكَ مِنَ المَادَّةِ وَحدَهَا، وَلَا مِنْ خَواصِّهَا، أَوْ طَبِيعتِهَا القَائِمَةِ بِهَا، فَإنَّهَا لَيسَ لَهَا مِنْ سَعَةِ العِلْمِ، وَكَمَالِ الحِكْمَةِ، وَشُمُولِ المَشِيئَةِ، وَعَظِيمِ القُدْرَةِ مَا يَنْتَظِمُ مَعَهُ الكَونُ عَلَىٰ مَا نُشَاهِدُ مِنْ إِحْكَامٍ يُبهِرُ العُقُولَ دِقَّتُهُ وَجَمَالُهُ، وَمِنْ إِبدَاعٍ يَأخُذُ بِمَجَامِعِ القُلُوبِ مَا فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الأَسْرِ، وَقُوَّةِ الرَّبْطِ بَينَ وَحْدَاتِهِ، وَكَمَالِ التَّنَاسُبِ وَالتَّكَافُؤِ بَينَ أجزَائِهِ، وَقِيَامِ كُلٍّ مِنَ الآخَرِ مَقَامَ الخَادِمِ مِنْ سَيِّدِهِ، وَالرَّاعِي مِنْ رَعِيَّتِهِ.

أَلَا إِنَّ الطَّبِيعَةَ صَمَّاءُ لَا تَسمَعُ، بَكمَاءُ لَا تَنْطِقُ، عَمْيَاءُ لَا تُبصِرُ، جَاهِلَةٌ لَا تَعْلَمُ، مُسَخَّرَةٌ لِمَنْ أودَعَهَا المَادَّةَ، خَاضِعَةٌ لِتَصرِيفِهِ وَتَقدِيرِهِ، سَائِرَةٌ عَلَىٰ مَا رَسَمَ لَهَا مِنْ سُنَنٍ لَا تَعدُوهَا، وَنَوَامِيسَ لَا تَخرُجُ عَنْهَا، فَأَنَّىٰ يَكُونُ لَهَا خَلْقٌ وَإِبدَاعٌ، أَوْ إِلَيهَا تَنظِيمٌ وَتَدْبِيرٌ، أَوْ مِنهَا وَحيٌ وَتَشْرِيعٌ؟! إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ المُلحِدُونَ».



الشَّرْحُ

وَزَعْمُ المُصَادَفَةِ زَعْمٌ سَخِيفٌ؛ لأَنَّ القَولَ بِالصُّدفَةِ يُنَافِي البَدَاهَةَ وَالفِطْرَةَ

الَّتِي تُؤْمِنُ بِالسَّبَبِيَّةِ إيمَانًا أَوَّلِيًّا لَا يَحتَاجُ إِلَىٰ تَعَلُّمٍ أَوْ تَلقِينٍ.

وَقَدْ أَودَعَ اللهُ سُبحَانَهُ فِي فِطْرَةِ الإنسَانِ وَفِي عَقْلِهِ قَانُونًا مُطَّرِدًا ثَابِتًا يَهدِي إِلَيهِ ﷻ، وَهُوَ مَا يُعرَفُ بِقَانُونِ السَّبَبِيَّةِ، أَوِ العِلِّيَّةِ.

وَمَعنَىٰ هَذَا القَانُونِ: **أَنَّ العَقْلَ البَشَرِيَّ -بِدُونِ تَلْقِينٍ وَلَا تَعلِيمٍ- يُوقِنُ أَنَّ لِكُلِّ شَيءٍ فِي الوجُودِ سَبَبًا، وَأَنَّ لَكلِّ مَعلُولٍ عِلَّةً، وَلِكُلِّ فِعْلٍ فَاعِلًا، وَلِكُلِّ أَثَرٍ مُؤَثِّرًا، وَأَنَّ شَيئًا مَا لَا يَصْدُرُ عَنْ غَيرِ سَبَبٍ.**

وَإِذَا كَانَتِ المَوجُودَاتُ غَيرَ وَاجِبَةٍ لِذَاتِهَا، فَلَابُدَّ لَهَا مِنْ سَبَبٍ يُوجِبُهَا، وَلَا يَتَوقَّفُ وجُودُهُ عَلَىٰ وجُودِ سَبَبٍ سِوَاهُ.

وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ عَبَّرَ عَنْهَا الأعرَابِيُّ قَدِيمًا حِينَ سُئِلَ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَيفَ عَرَفَهُ فَقَالَ: البَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ البَعِيرِ، وَأَثَرُ السَّيرِ يَدُلُّ عَلَىٰ المَسِيرِ، فَكَيفَ بِسَمَاءٍ ذَاتِ أبرَاجٍ، وَأَرْضٍ ذَاتِ فِجَاجٍ، وَبِحَارٍ ذَاتِ أَمْوَاجٍ، أَفَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ العَلِيِّ الكَبِيرِ؟!

فَالقَولُ بِالمُصَادَفَةِ خَيَالٌ صِبيَانِيٌّ، وَوَهمٌ طُفُولِيٌّ، وَعَبَثٌ لَا نَصِيبَ لَهُ مِنَ العَقْلِ.

وَقَدْ أَغلَقَ العِلْمُ الحَدِيثُ بَابَ القَولِ بِأَنَّ شَيئًا مَا وُجِدَ مُصَادَفَةً، فَالعِلْمُ الرِّيَاضِيُّ بَحَثَ مَوضُوعَ المُصَادَفَةِ عَلَىٰ أَسَاسٍ رِيَاضِيٍّ، وَبَيَّنَ بِوضُوحٍ: أَنَّ احتِمَالَ وجُودِ الكَونِ أَوْ شَيءٍ مِنْهُ بِالمُصَادَفَةِ هُوَ «**الصِّفرُ الرِّيَاضِيُّ**» الَّذِي يَعرِفُهُ الرِّيَاضِيُّونَ أصغَرَ مِنْ أصغَرِ عَدَدٍ يُمكِنُ تَصَوُّرُهُ أَو تَحدِيدُهُ.

وَلِلمُصَادَفَةِ قَانُونٌ رِيَاضِيٌّ عَقْلِيٌّ لَا يُمكِنُ الخُروجُ عَنْهُ، وَهُوَ: أَنَّ نَصِيبَ المُصَادَفَةِ مِنَ الاعتِبَارِ، يَزْدَادُ وَيَنقُصُ، بِنِسبَةٍ مَعكُوسَةٍ مَعَ عَدَدِ الاحتِمَالَاتِ المُتكَافِئَةِ المُتزَاحِمَةِ.

لَوْ قِيلَ: إنَّ صَبِيًّا وُلِدَ أعمَىٰ، أُعطِيَ كِيسًا فِيهِ إبَرٌ عَشْرٌ مُرَقَّمَةٌ بِخُطُوطٍ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنهَا رَقْمٌ، مِنَ الوَاحِدِ إلَىٰ العَشْرَةِ، وَقَدْ خُلِطَتْ فِي الكِيسِ مُشَوَّشَةً.

وَقِيلَ: إنَّ الصَّبِيَّ الأعْمَىٰ كَانَ يَضَعُ يَدَهُ فِي الكِيسِ، وَيَستَخرِجُ الإبَرَ تِبَاعًا عَلَىٰ تَرتِيبِ أرقَامِهَا -بِطَرِيقَةِ المُصَادَفَةِ- وَيُلقِيهَا فَتَقَعُ فِي شِقِّ إبرَةٍ مَغروزَةٍ فِي لَوحٍ خشَبِيٍّ، وَتَقَعُ الثَّانِيَةُ فِي الأولَىٰ، وَالثَّالِثَةُ فِي الثَّانِيَةِ، وَالرَّابِعَةُ فِي الثَّالِثَةِ، وَهكَذَا حَتَّىٰ أتَمَّ إدْخَالَ الإبرِ العَشرِ بَعضِهَا فِي بَعْضٍ، عَلَىٰ تَرتِيبِ أرقَامِهَا، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِطَرِيقِ المُصَادَفَةِ!!

لَوْ قِيلَ هَذَا، فَهَل يُصَدِّقُهُ مُصَدِّقٌ، أوْ يَعقِلُهُ عَاقِلٌ؟!

إنَّ قَانُونَ المُصَادَفَةِ يَقُولُ: إنَّ نَصِيبَ المُصَادَفَةِ مِنَ الاعتِبَارِ، يَزْدَادُ وَيَنقُصُ، بِنِسَبٍ مَعكُوسَةٍ مَعَ عَدَدِ الإمكَانِيَّاتِ المُتكافِئَةِ المُتَزَاحِمَةِ.

فَكُلَّمَا قَلَّ عَدَدُ الأشيَاءِ المُتَزَاحِمَةِ؛ ازْدَادَ حَظُّ المُصَادَفَةِ مِنَ النَّجَاحِ، وَكُلَّمَا كَثُرَ عَدَدُهَا قَلَّ حَظُّ المُصَادَفَةِ، فَإذَا كَانَ التَّزَاحُمُ بَينَ شَيئَينِ اثنَينِ مُتكَافِئَينِ، يَكُونُ حَظُّ المُصَادَفَةِ بِنِسْبَةِ (وَاحِدٍ ضِدَّ اثنَينِ).

وَإذَا كَانَ التَّزَاحُمُ بَينَ عَشْرَةٍ يَكُونُ حَظُّ المُصَادَفَةِ بِنِسْبَةِ (وَاحِدٍ إلَىٰ

عَشْرَةٍ)؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ فُرصَةٌ لِلنَّجَاحِ مُمَاثِلَةٌ لِفُرصَةِ الآخَرِ، بِدونِ أَقَلِّ تَفَاضُلٍ طَبعًا.

إِذَا اتَّفَقَ لِلصَّبِيِّ الأَعْمَىٰ أَنْ سَحَبَ أَوَّلَ مَرَّةٍ الرَّقْمَ (١)، قُلنَا: إِنَّ حَظَّ المُصَادَفَةِ لِلرَّقْمِ (١) تَغَلَّبَ عَلَىٰ الأَعْدَادِ الأُخْرَىٰ المُتَزَاحِمَةِ مَعَهُ بِنِسْبَةِ (وَاحِدٍ ضِدَّ عَشْرَةٍ)، وَأَمَّا إِذَا اتَّفَقَ لَهُ أَنْ سَحَبَ العَدَدَينِ (١، ٢) بِالتَّتَابُعِ، قُلْنَا: إِنَّ حَظَّ المُصَادَفَةِ لِلعَدَدِ الثَّانِي هُوَ بِنِسْبَةِ (وَاحِدٍ ضِدَّ مِئَةٍ)؛ لأَنَّ كُلًّا مِنَ العَشْرَةِ يُزَاحِمُ (لِلرُّتبَةِ الثَّانِيةِ) ضِدَّ عَشْرَةٍ، فَيُصبِحُ التَّزَاحُمُ بَينَ مِئَةٍ.

وَإِذَا اتَّفَقَ أَنْ سَحَبَ الصَّبِيُّ الأَعمَىٰ الإِبرَ الثَّلَاثَ (١، ٢، ٣) عَلَىٰ التَّوَالِي، قُلْنَا: إِنَّ حَظَّ المُصَادَفَةِ بِنِسْبَةِ (وَاحِدٍ ضِدَّ أَلْفٍ)، لأَنَّ كُلًّا مِنَ الإِبَرِ العَشْرِ يُزَاحِمُ ضِدَّ مِئَةٍ، وَهَكَذَا.

فَإِذَا افتَرَضْنَا أَنَّ الصَّبِيَّ سَحَبَ الإِبَرَ العَشْرَ عَلَىٰ تَرْتِيبِ أَرقَامِهَا، فَإِنَّ حَظَّ المُصَادَفَةِ يُصبِحُ بِنِسْبَةِ (وَاحِدٍ ضِدَّ عَشْرَةِ مِليَارَاتٍ).

أَي: أَنَّ الصَّبِيَّ يُمكِنُ أَنْ يُخطِئَ فِي هَذِهِ التَّجرِبَةِ عَشرَةَ آلَافِ مِليونَ مَرَّة إِلَّا وَاحِدَةً لِكَي يُخرِجَ الإِبَرَ العَشْرَ مُرتَّبَةً دُونَ خَطَأ.

فَكَيفَ إِذَا كَانَ التَّزَاحُمُ بَينَ أَرْقَامٍ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ، وَلَا يُحصِيهَا إِلَّا هُوَ؟!

هَلْ يَبقَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ أَدنَىٰ مَجَالٍ لِلقَولِ بِالمُصَادَفَةِ؟!

إِنَّ القَولَ بِالمُصَادَفَةِ، بِالنِّسْبَةِ لِنِظَامِ الوجُودِ الشَّامِلِ المُحكَمِ، وَشُروطِ

الحَيَاةِ الدَّقِيقَةِ وَالإتقَانِ العَجِيبِ الهَادِفِ، لَا يَقُولُ بِهِ إِلَّا جَاهِلٌ، بَعِيدٌ عَنِ التَّحقِيقِ، أَوْ مُكَابِرٌ يَرَىٰ الحَقَّ وَيُعرِضُ عَنْهُ، وَهُوَ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْهُ.

وَالقَولُ بِالطَّبِيعَةِ لَا يَقِلُّ سُخْفًا وَاستِحَالَةً عَنِ القَولِ بِالمُصَادَفَةِ.

وَالطَّبِيعَةُ فِي اللُّغَةِ: السَّجِيَّةُ وَالخُلُقُ، وَالقُوَّةُ السَّارِيَةُ فِي الأجسَامِ الَّتِي بِهَا يَصِلُ الجِسمُ إِلَىٰ كَمَالِهِ الطَّبِيعِيِّ، [كَمَا فِي المُعْجَمِ الوَسِيطِ (٢/ ٥٥٠)].

وَلِلطَبِيعَةِ فِي أذهَانِ النَّاسِ مَفهُومَانِ:

الأوَّلُ: أَنَّهَا الأشيَاءُ ذَاتُهَا، فَالجَمَادُ وَالنَّبَاتُ وَالحَيوانُ، كُلُّ هَذِهِ الكَائِنَاتِ هِيَ الطَّبِيعَةُ.

الثَّانِي: أَنَّهَا صِفَاتُ الأشيَاءِ وَخَصَائِصُهَا.

فَهَذِهِ الصِّفَاتُ: مِنْ حَرَارَةٍ وَبُرودَةٍ وَرطُوبَةٍ وَيُبوسَةٍ، وَمَلَاسَةٍ وَخُشُونَةٍ، وَهَذِهِ القَابِليَّاتُ: مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، وَنُمُوٍّ وَاغتِذَاءٍ، وَتَزَاوجٍ وَتوالُدٍ، كُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالقَابِليَّاتِ هِيَ الطَّبِيعَةُ.

وَالقَولُ الأوَّلُ لَا يَخرجُ بِالطَّبِيعَةِ بِالنِّسبَةِ لِخَلْقِ الوجُودِ عَنْ تَفسِيرِ المَاءِ بِالمَاءِ، فَالأَرْضُ خَلَقَتِ الأرضَ، وَالسَّماءُ خَلقَتِ السَّماءَ، والأصنَافُ صَنَّفتْ نَفسَهَا، وَالأشيَاءُ أَوْجَدَتْ ذَاتَهَا، فَهِيَ الحَادِثُ وَالمُحدِثُ، وَهِيَ المَخلُوقُ وَالخَالِقُ فِي الوَقتِ ذَاتِهِ.

وَبُطلَانُ هَذَا القَولِ بَيِّنٌ، وَاستِحَالَتُهُ وَاضِحَةٌ، كَمَا مَرَّ.

وَأَمَّا القَولُ الثَّانِي: وَهُوَ الاعتِمَادُ عَلَىٰ قَابِلِيَّاتِ الأشيَاءِ وَخَصَائِصِهَا فِي التَّكْوِينِ، فَالحَقُّ أَنَّ الَّذِينَ يُرجِعُونَ الخَلْقَ إِلَىٰ تِلكَ القَابلِيَّاتِ وَالخَصَائِصِ، لَا يُجَاوِزُونَ كَوْنَهُم وَصَّافِينَ لِتلكَ الظَّوَاهِرِ، لَا يَعرِفُونَ كُنهَهَا، وَلَمْ يُكلِّفُوا أَنفُسَهُم عَنَاءَ البَحْثِ عَنْ حَقَائِقِهَا.

وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ لَوجَدُوا أَنَّ القَابِلِيَّةَ الَّتِي اعتَمَدوا عَلَيهَا فِي خَلْقِ الشَّيءِ سَرَابٌ خَادِعٌ، وَوَهْمٌ كَاذِبٌ.

وَالطَّبِيعَةُ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقَائِقِ الكَونِ وَلَيسَتْ تَفسِيرًا لَهُ، وَالعِلْمُ الحَدِيثُ تَفصِيلٌ لِمَا يَحدُثُ، وَلَيسَ بِتَفسِيرٍ لِهَذَا الأَمْرِ الوَاقِعِ، فَكُلُّ مَضْمُونِ العِلْمِ هُوَ إِجَابَةٌ عَنِ السُّؤَالِ:

مَا هَذَا؟ وَلَيسَ لَدَيهِ إِجَابَةٌ عَنِ السُّؤَالِ: وَلَكِنْ لِمَاذَا؟

الطَّبِيعَةُ لَا تُفَسِّرُ شَيئًا مِنَ الكَونِ، وَإنمَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ تَفسِيرٍ.

وَمَن سَأَلَ مُشتَغِلًا بِالطِّبِّ عَنِ السَّبَبِ وَرَاءَ احمِرَارِ الدَّمِ، لأَجَابَ بِأَنَّ فِي الدَّمِ خَلَايَا حَمْرَاءَ.

فَلو سَأَلتَهُ: وَلِمَاذَا تَكُونُ هَذِهِ الخَلَايَا حَمْرَاءَ؟

لأَجَابَ بِأَنَّ سَبَبَ الحُمرَةِ مَادَّةٌ تُسَمَّىٰ «الهِيمُوجلُوبِين» تُوجَدُ فِي تِلْكَ الخَلَايَا.

فَإِنْ قُلتَ: وَمِن أَينَ تَأتِي هَذِهِ الخَلَايَا الَّتِي تَحمِلُ تِلكَ المَادَّةَ؟

لَقَالَ: إِنَّهَا تُصنَعُ فِي كَبِدِكَ.

فَإِنْ قُلتَ: وَلَكِنْ كَيفَ تَرتَبِطُ هَذِهِ الأَشيَاءُ الكَثِيرَةُ مِنَ الدَّمِ وَالخَلَايَا وَالكَبِدِ وَغَيرِهَا، بَعضُهَا بِبَعضٍ ارتِبَاطًا كُليًّا، وَتَسِيرُ نَحْوَ أَدَاءِ وَاجِبِهَا المَطلُوبِ بِهَذِهِ الدِّقَّةِ الفَائِقَةِ؟!

لقَالَ: هَذَا مَا نُسمِّيهِ قَانُونَ الطَّبِيعَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا المُرَادُ بِقَانُونِ الطَّبِيعَةِ هَذَا؟

قَالَ: هُوَ الحَرَكَاتُ الدَّاخِلِيةُ العَمياءُ لِلقُوَىٰ الطَّبِيعِيَّةِ وَالكِيميَائِيَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَلَكِنْ لِمَاذَا تَهدفُ هَذِهِ القُوَّةُ دَائِمًا إِلَىٰ نَتِيجَةٍ مَعلُومَةٍ؟ وَكَيفَ تُنَظِّمُ نَشَاطَهَا، حَتَّىٰ تَطِيرَ الطُّيورُ فِي الهَوَاءِ، وَيَعِيشَ السَّمَكُ فِي المَاءِ، ويُوجَدَ الإِنسَانُ فِي الأَرْضِ، بِجَمِيعِ مَا لَدَيهِ مِنَ الإِمكَانَاتِ وَالكَفَاءَاتِ العَجِيبَةِ المُثِيرَةِ؟

لَقَالَ: إِنَّ عِلمِي لَا يَتكَلَّمُ إِلَّا عَمَّا يَحدُثُ، وَلَيسَ لَهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْ: لِمَاذَا يَحدُثُ؟

وَخُلَاصَةُ القَولِ فِي الطَّبِيعَةِ أَنَّهَا: إِمَّا قَولٌ بِأَنَّ الأَشيَاءَ حَدَثَتْ بِذَاتِهَا، وَهُوَ قَولٌ سَاقِطٌ مِنْ كُلِّ اعتِبَارٍ.

وَإِمَّا قَولٌ بِأَنَّ الصِّفَاتِ تَخلُقُ الذَّاتَ، وَهُوَ أَشَدُّ تَدَاعِيًا وَسُقُوطًا مِنَ القَولِ الأَوَّلِ؛ لأَنَّهُ إِذَا عَجَزَتْ ذَاتُ الشَّيءِ عَنْ خَلْقِهِ، فَكَيفَ تَستَطِيعُهُ الصِّفَةُ؟!

وَإِمَّا اعتِبَارٌ لِلقَابلِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّهَا سَبَبٌ مُتَأَخِّرٌ كَبَقِيَّةِ الأسبَابِ، فَتَفتَقِرُ إِلَىٰ المُسَبِّبِ الأَوَّلِ، وَهُوَ وَاجِبُ الوجُودِ لِذَاتِهِ.

وَفِي الأحوَالِ الثَّلَاثِ لَابُدَّ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الخَالِقِ الأَوَّلِ، وَتَأتِي الطَّبِيعَةُ مُتَأَخِّرَةً مُنفَعِلَةً لَهُ، مُفتَقِرَةً إِلَيهِ، مَخلُوقَةً لَهُ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي اتخَذَهَا الطَّبِيعِيُّونَ إِلَهًا مَعبُودًا؛ لَيسَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المَوجُودِ سِوَىٰ صِفَاتِها، وَقَابِلِيَّاتِهَا، وَقَوانِينِهَا الَّتِي تَجرِي عَلَيهَا، وَنَامُوسِهَا الَّذِي فَطَرَهَا اللهُ عَلَيهِ، وَأَنَّ طَبَائِعَ الأَشيَاءِ لَا تَخلُقُهَا.

***

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَلَا إِنَّ الطَّبِيعَةَ صَمَّاءُ لَا تَسمَعُ، بَكمَاءُ لَا تَنْطِقُ، عَمياءُ لَا تُبصِرُ، جَاهِلَةٌ لَا تعلَمُ، مُسَخَّرَةٌ لِمَنْ أودعَهَا المَادَّةَ، خَاضِعَةٌ لِتَصرِيفِهِ وَتَقدِيرِهِ، سَائِرَةٌ عَلَىٰ مَا رَسَمَ لَهَا مِنْ سُنَنٍ لَا تَعدُوهَا، وَنَوَامِيسَ لَا تَخرُجُ عَنْهَا، فَأَنَّىٰ يَكُونُ لَهَا خَلقٌ وَإِبدَاعٌ، أَوْ إِلَيهَا تَنظِيمٌ وَتَدبِيرٌ، أَوْ مِنهَا وَحيٌ وَتَشرِيعٌ؟! إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، تَعالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ المُلحِدُونَ؛ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان:٢٨]».

الشَّرْحُ

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (٤/ ١٩٢١): «استَدَلَّ عَلَيهِم وَعَلَىٰ بَعثِهِم بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، وَهُوَ دَلِيلُ الابتِدَاءِ، فَقَالَ: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أوجَدنَاهُم مِنَ العَدَمِ.

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: أحكَمنَا خِلقَتَهُم بِالأعصَابِ، وَالعُرُوقِ، وَالأوتَارِ، وَالقُوىٰ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، حَتَّىٰ تَمَّ الجِسْمُ وَاستُكمِلَ، وتَمكَّنَ مِنْ كُلِّ مَا يُرِيدُهُ.

فَالَّذِي أوجَدَهُم عَلَىٰ هَذِهِ الحَالَةِ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَهُم بَعدَ مَوتِهِم لِجَزَائِهِم، وَالَّذِي نَقَلَهُم فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَىٰ هَذِهِ الأطوَارِ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَترُكَهُم سُدًى، لَا يُؤمَرونَ، ولَا يُنهَونَ، وَلَا يُثَابونَ، وَلَا يُعَاقَبونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: أنشَأنَاكُمْ لِلبَعثِ نَشْأَةً أُخرَىٰ، وَأَعَدنَاكُم بِأَعيَانِكُم، وَهُمْ بِأَنفُسِهِم أَمثَالُهُم». اهـ

قال المصنف: «قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١-٥]».

الشَّرْحُ

أي: تَعَالَىٰ اللهُ وَتَعَاظَمَ عَمَّا سِوَاهُ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَأفعَالًا، وَتَكَاثَرَ خَيرُهُ وَبِرُّهُ عَلَىٰ جَمِيعِ خَلقِهِ، الَّذِي بِيَدِهِ مُلكُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَسُلطَانُهُمَا، نَافِذٌ فِيهِمَا أَمْرُهُ وَقضَاؤُهُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

الذِي خَلَقَ المَوتَ وَالحَيَاةَ لِيَختَبِرَكُم -أَيُّهَا النَّاسُ- أَيُّكُم خَيرٌ عَمَلًا وَأخلَصُهُ؟ وَهُوَ العَزِيزُ الَّذِي لَا يُعجِزُهُ شَيءٌ، الغَفُورُ لِمَنْ تَابَ مِنْ عِبَادِهِ.

الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ فَوقَ الأخرَىٰ، وَلَسْنَ طَبقَةً وَاحِدَةً، وَخَلَقَهَا فِي غَايَةِ الحُسنِ وَالإتقَانِ، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحمَنِ -أَيُّهَا النَّاظِرُ- مِنَ اختِلَافٍ وَلَا تَبَايُنٍ، فَأعِدِ النَّظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ: هَلْ تَرَىٰ فِيهَا مِنْ نَقصٍ وَاختِلَالٍ، أَوْ شُقُوقٍ، أَوْ صُدوعٍ؟

ثُمَّ أعِدِ النَّظَرَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، يَرجِعْ إِلَيكَ البَصَرُ ذَلِيلًا صَاغِرًا عَنْ أَنْ يَرَىٰ

نَقْصًا، وَهُوَ مُتعَبٌ كَلِيلٌ، عَاجِزٌ عَنْ أَنْ يَرَىٰ خَلَلًا أو فُطورًا، وَلَوْ حَرَصَ غَايَةَ الحِرصِ.

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ القَرِيبَةَ الَّتِي تَرَاهَا العُيونُ بِنُجومٍ عَظِيمَةٍ مُضِيئَةٍ، وَجَعلنَاهَا شُهُبًا مُحرِقَةً لِمُستَرِقِي السَّمعِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَأعتَدنَا لَهُم فِي الآخِرَةِ عَذَابَ النَّارِ المُوقَدَةِ يُقَاسُونَ حَرَّهَا.

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُبَيِّنًا -بَعدَ أَنْ سَاقَ الحُجَّةَ تِلوَ الحُجَّةِ- أَنَّ الحَقَّ لَا يَعشُو عَنْ نُورِهِ إِلَّا مَطمُوسُ البَصِيرَةِ، زَائِغُ القَلبِ، مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ، وَأَنَّهُ لَا يَعيبُ الحَقَّ مَنْ وَلَّاهُ مَنْكِبَهُ وَأعرَضَ عَنْهُ، وَتَنَحَّىٰ عَنْ طَرِيقِهِ وَصَدَفَ عَنهُ، وَأَنَّ الدُّعَاةَ إِلَىٰ الحَقِّ مَا دَامُوا عَلَيهِ دَاعِينَ إِلَيهِ؛ فَلَا يَضُرُّهُم مَن أعرَضَ عَنْهُ، وَصَدَّ عَنْهُم، فَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِسُوءِ نِيَّتِهِ وَفَسَادِ طَوِيَّتِهِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَعِيبُ الحَقَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَنَكَّبَ طَرِيقَهُ مَنْ مُسِخَتْ فِطرَتُهُ، وَاتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً.

وَلا يَضِيرُ الدُّعَاةَ إِلَىٰ الحَقِّ أَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِهِ المُستَقِيمِ مَنِ انحَرَفَ مِزَاجُهُ، أَوْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ، فَخَشِيَ أَنْ تَحُدَّ الشَّرِيعَةُ مِن نَزَعَاتِهِ الخَبِيثَةِ، وَتَحُولَ دُونَ وُصُولِهِ إِلَىٰ نَزَوَاتِهِ الدَّنِيئَةِ، أو أَطْغَاهُ كِبرُهُ وَسُلطَانُهُ، وَخَافَ أَنْ تَذْهَبَ الشَّرِيعَةُ بِزَعَامَتِهِ الكَاذِبَةِ، وَسُلطَانِهِ الجَائِرِ، فَوَقَفَ فِي سَبِيلِهَا، وَلَجَّ فِي خِصَامِهَا بَغيًا وَعُدوَانًا، فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ، وَمُؤَيِّدٌ رُسُلَهُ وَأَولِيَاءَهُ...

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].



الشَّرْحُ

أَي: وَمَنِ اجْتَهَدَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ عَلَىٰ عَدُوِّهِ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ لَا يُغَالَبُ، عَزِيزٌ لَا يُرَامُ، قَدْ قَهَرَ الخَلَائِقَ، وَأَخَذَ بِنَوَاصِيهِمْ.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]».



الشَّرْحُ

أي: إنْ تَنصُروا دِينَ اللهِ بالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالحُكمِ بِكِتَابِهِ، وَامتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ، يَنْصُرْكُمُ اللهُ عَلَىٰ أعدَائِكُم، وَيُثَبتْ أقدَامَكُم عِندَ اللِّقَاءِ.

* * *

«﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]».

الشَّـرْحُ

أي: وَسَيعلَمُ الَّذِينَ ظَلَموا أنفسَهُم بِالشِّركِ وَالمَعَاصِي، وَظَلَموا غيرَهُم بِغَمطِ حَقِّهِم، أو الاعتِدَاءِ عَلَيهِم، أوْ بِالتُّهَمِ البَاطِلَةِ، أيَّ مَرجِعٍ مِنْ مَرَاجِعِ الشَّرِّ وَالهَلَاكِ يَرجِعُونَ إِلَيهِ، إِنَّهُ لَمُنْقَلَبُ سُوءٍ، نَسأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ.

لَقَدْ قَامَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِبَعضِ مَا أوجَبَ اللهُ عَلَىٰ العُلَمَاءِ مِنَ الصَّدعِ بِالحَقِّ، وَمُحَارَبَةِ الشِّركِ، وَمُجَانبَةِ أَهْلِهِ.

وَمَا دَحْضُهُ بِالحُجَجِ النَّقلِيَّةِ وَالعَقلِيَّةِ لِبَاطِلِ الشُّيوعِيِّينَ وَالوجُودِيِّينَ والقَائِلِينَ بِالصُّدفَةِ، وَغَيرِهِم مِنْ أَهْلِ الزَّيغِ وَالإلحَادِ إِلَّا مُواصَلَةً لِلسَّيرِ فِي طَرِيقِ العُلَمَاءِ مِنْ سَلَفِ الأمَّةِ، الَّذِينَ رَدُّوا عَلَىٰ الدَّهرِيَّةِ، وَالاتِّحَادِيَّةِ، وَالحُلُولِيَّةِ، وَغَيرِهِم مِنْ أَهْلِ الزَّيغِ وَالإلحَادِ، كَمَا رَدُّوا عَلَىٰ أَهْلِ البِدَعِ وَالأهوَاءِ.

وَفِي كُلِّ عَصرٍ، يَبِيضُ الشَّيطَانُ وَيُفَرِّخُ فِي عُقُولِ أقوَامٍ مِن أَهْلِ البَاطِلِ لِيَنفُثُوا فِي النَّاسِ سُمُومَهُم، وَلِيُرَوِّجُوا بينَهُم ضَلَالَهُم.

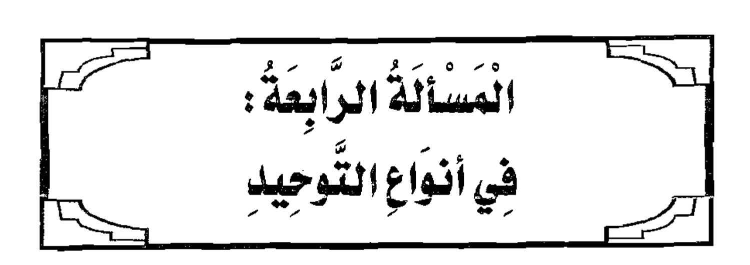
وَحَقٌّ عَلَىٰ أَهْلِ العِلْمِ الحَقِّ، وَالاتِّبَاعِ الصِّدقِ، أنْ يَتَصَدَّوا لِهَؤلَاءِ، وَأنْ يَدحَضُوا بِمَعَاوِلِ الحُجَّةِ بَاطِلَهُم، وَأنْ يَبدِّدُوا بِنُورِ البُرهَانِ ظُلمَاتِ شُبُهَاتِهِم.

وَقَدْ أَدَّىٰ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعضَ ذَلِكَ بِبُرهَانٍ مُستَقِيمٍ وَبَيَانٍ قَوِيمٍ.

وَلَمَّا فَرَغَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ تِلكَ المَسَائِلِ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الأمْرِ الَّذِي لأجْلِهِ خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ؛ وَهُوَ تَوحِيدُهُ سُبحَانَهُ بِإخلَاصِ العِبَادَةِ لِوجهِهِ الكَرِيمِ.

فَذَكَرَ فِي المَسألَةِ الرَّابِعةِ أنوَاعَ التَّوحِيدِ الثَّلَاثَةَ، وَفَصَّلَ فِي بَيَانِ كُلٍّ، نَسألُهُ تَعَالَىٰ أنْ يُجزِلَ لَهُ المَثُوبَةَ.

* * *



المَسْأَلةُ الرَّابِعَةُ: فِي أنوَاعِ التَّوحِيدِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنوَاعُ التَّوحِيدِ ثَلَاثَةٌ:

١- تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ.

٢- تَوحِيدُ الأسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَيُقَالُ لَهُ أيضًا: تَوحِيدُ الخَبَرِ، وَتَوحِيدُ المَعرِفَةِ وَالإثبَاتِ.

٣- تَوحِيدُ العِبَادَةِ: وَيُسمَّىٰ أيضًا: تَوحِيدَ الإلَهيَّةِ، وَتَوحِيدَ الإرَادَةِ وَالقَصدِ، وَتَوحِيدَ الطَّلَبِ».



الشَّرْحُ

وَقَدْ قَالَ بَعضُ النَّاسِ: إنَّ تَقسِيمَ التَّوحِيدِ إلَىٰ هَذِهِ الأقسَامِ الثَّلَاثَةِ بِدعَةٌ؛ لأنَّ ذَلِكَ لَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، ومَا كَانَ مِنْ أمُورِ الدِّينِ غيرَ وَارِدٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ فَإنَّهُ بِدْعَةٌ.

وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا: أنَّ أشيَاءَ كَثِيرَةً رَتَّبَهَا العُلَمَاءُ لَمْ تَكُنْ مُرَتَّبَةً فِي عَهْدِ

الرَّسُولِ ﷺ، وَهَذَا لَا يَعدُو أَنْ يَكُونَ بَيَانًا وَتَوضِيحًا، فَالَّذِينَ قَسَّمُوهُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ لَمْ يَأْتُوا بِزَائِدٍ، وَلَمْ يُنكِروا ثَابتًا، بَلْ أَتوا بِمَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَلَكِنْ قَسَّمُوهُ، وَتَقسِيمُهُم بِاعتِبَارِ اختِلَافِ النَّاسِ فِيهِ.

وَلَو أَنَّنَا سَلكنَا هَذَا المَسْلَكَ الَّذِي سَلَكَهُ هَذَا الشَّاذُّ، لَقُلنَا أيضًا: إنَّ عَدَّ شُروطِ الصَّلَاةِ، وَأَركَانِهَا، وَوَاجِبَاتِهَا، وَأَركَانِ الحَجِّ، وَوَاجِبَاتِهِ، وَمَحظُورَاتِهِ، وَمَا أَشبَهَ ذَلِكَ، يُعَدُّ مِنَ البِدَعِ.

وَنَحنُ لَا نَذكُرُ هَذَا التَّقسِيمَ مُتَعَبِّدِينَ للهِ بِهِ، وَلَكِنَّنَا نَذكُرُ هَذَا مُقَرِّبِينَ العِلْمَ إِلَىٰ طُلَّابِهِ، فَهُوَ إِذَنْ وَسِيلَةٌ وَلَيسَ قَصْدًا.

فالصَّوَابُ بِلَا شَكٍّ أَنَّ تَقسِيمَ التَّوحِيدِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ، وَذِكرَ الشُّروطِ، وَالأَركَانِ، وَالوَاجِبَاتِ، وَالمُفسِدَاتِ فِي العِبَادَاتِ: كُلُّ هَذَا جَائِزٌ؛ لأَنَّهُ مِنْ بَابِ الوَسَائِلِ وَالتَّقرِيبِ، وَحَصْرِ الأَشيَاءِ لِطَالِبِ العِلْمِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ كَثِيرًا مِنَ الأَشيَاءِ مُحَدَّدَةً بِالعَدَدِ، مِثل: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ**»[1]، وَ«**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ**»[2]. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَذَا نَوعٌ مِنَ التَّقْسِيمِ.

وَالعُلَمَاءُ قَسَّمُوا التَّوحِيدَ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ: تَوحِيد الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوحِيد الأُلُوهِيَّةِ، وَتَوحِيد الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: بِنَاءً عَلَىٰ التَّتَبُّعِ وَالاستِقرَاءِ.

---

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٢٣٩١).

(٢) البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

وَهَذَا الاستِقْرَاءُ استِقْرَاءٌ تَامٌّ لِنُصُوصِ الشَّرعِ، وَهُوَ مُضطَرِدٌ لَدَىٰ أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ فِي عِلْمِهِم، كَمَا فِي استِقرَاءِ النُّحَاةِ كَلَامَ العَرَبِ إِلَىٰ اسْمٍ وَفِعْلٍ وَحَرْفٍ.

وَهَذَا التَّقسِيمُ الاستِقرَائِيُّ لِلتَّوحِيدِ ذَكَرَهُ مُتَقَدِّمُو عُلَمَاءِ السَّلَفِ، كَأَبِي يُوسُفَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ اثنَتَينِ وَثَمَانِينَ وَمِئَةٍ، وَنَقَلَهُ ابنُ مَنْدَهْ فِي كِتَابِ «**التَّوحِيدِ**»، وَذَكَرَهُ ابنُ مَنْدَهْ نَفسُهُ فِي الكِتَابِ ذَاتِهِ، وَابنُ مَنْدَهْ تُوفِّيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ.

وَذَكَرَهُ أَيضًا ابنُ بَطَّةَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِئَةٍ فِي كِتَابِ «**الإِبَانَةِ**»، وَأَشَارَ إِلَيهِ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، وَقَرَّرَهُ شَيخَا الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ وَابنُ القَيمِ، وَقَرَّرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «**تَاجِ العَروسِ**»، وَالشَّيخُ الشِّنقِيطِيُّ فِي «**أَضْوَاءِ البَيَانِ**»، فِي آخَرِينَ - رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ -.

وَيُستَأنَسُ فِي تَقسِيمِ التَّوحِيدِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقسَامٍ بِقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

فَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ تَضَمَّنَتْ أَنْوَاعَ التَّوحِيدِ الثَّلَاثَةَ؛ فَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾. تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾. تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾. تَوحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ لأَنَّ مَعنَىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾؛ أَي: لَا تَعْلَمُ لَهُ نَظِيرًا، وَمُسَاوِيًا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَقَدِ ابتَدَعَ بَعضُ العَصْرِيينَ تَقسِيمًا جَدِيدًا، فَجَعَلُوا مِنْ أَقسَامِ التَّوحِيدِ

قِسْمًا سَمَّوهُ تَوحِيدَ الحَاكِمِيَّةِ، وَهَذَا بَاطِلٌ مِنَ القَولِ.

وَقَدْ سُئِلَ العَلَّامَةُ الشَّيخُ مُحمَّدُ بنُ صَالِحِ العُثَيمِين رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي لِقَاءِ البَابِ المَفتُوحِ رَقْم (١٥٠): مَا تَقُولُ -عَفَا اللهُ عَنْكَ- فِيمَن أَضَافَ لِلتَّوحِيدِ قِسْمًا رَابِعًا، سَمَّاهُ تَوحِيدَ الحَاكِمِيَّةِ؟**

فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَقُولُ: إِنَّهُ ضَالٌّ، وَجَاهِلٌ؛ لأَنَّ تَوحِيدَ الحَاكِمِيَّةِ هُوَ تَوحِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَالحَاكِمُ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا قُلْتَ: التَّوحِيدُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ، كَمَا قَالَهُ العُلَمَاءُ تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ، فَإِنَّ تَوحِيدَ الحَاكِمِيَّةِ دَاخِلٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، لأَنَّ تَوحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ تَوحِيدُ الحُكْمِ وَالخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا قَولٌ مُحْدَثٌ مُنْكَرٌ، وَكَيفَ تَوحِيدُ الحَاكِمِيَّةِ؟!

مَا يُمْكِنُ أَنْ تُوحِّدَ الحَاكِمِيَّةَ، المَعنَىٰ أَنَّ يَكُونَ حَاكِمُ الدُّنيَا وَاحِدًا؟!!!

أَمَّاذَا؟!!!

فَهَذَا قَولٌ مُحْدَثٌ مُبْتَدَعٌ مُنْكَرٌ، يُنكَرُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، وَيُقَالُ لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ الحُكْمَ، فَالحُكْمُ للهِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، لأَنَّ الرَّبَّ هُوَ الخَالِقُ المَالِكُ المُدَبِّرُ لِلأُمُورِ كُلِّهَا، فَهَذِهِ بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ».

وَقَدْ أَفتَتِ اللَّجنَةُ الدَّائِمَةُ لِلإِفتَاءِ (١/ ٣٧٧) بِأَنَّهُ: «قَولٌ مُحْدَثٌ، لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الأَئِمَّةِ فِيمَا نَعْلَمُ».

فَالتَّوحِيدُ يَنقَسِمُ بِاعتِبَارِ تَعلُّقِهِ بِاللهِ -جَلَّ وَعَلَا- إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقسَامٍ: تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَتَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَباعتِبَارِ تَعَلُّقِهِ بِالعَبْدِ إِلَىٰ قِسْمَينِ: تَوحِيدُ المَعْرِفَةِ وَالإِثْبَاتِ (العِلْمِيُّ الخَبَرِيُّ)، وَتَوحِيدٌ فِي القَصْدِ وَالطَّلَبِ وَالإِرَادَةِ.

وَتَوحِيدُ المَعْرِفَةِ وَالإِثْبَاتِ هُوَ تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَتَوحِيدُ الطَّلَبِ وَالإِرَادَةِ وَالقَصْدِ هُوَ تَوحِيدُ الإِلَهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ.

* * *

وَقَدْ شَرَعَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ مَا أجْمَلَ مِنْ أنْوَاعِ التَّوحِيدِ، فَقَالَ: «أمَّا تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: فَهُوَ تَوحِيدُ اللهِ تَعَالَىٰ بِأفعَالِهِ، وَالإقْرَارُ بِأنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكُهُ، وَإلَيهِ يُرجَعُ الأمرُ كُلُّهُ فِي التَّصرِيفِ وَالتَّدْبِيرِ.

فَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرُّسُلَ، وَيُشَرِّعُ الشَّرَائِعَ؛ لِيُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيُقِيمَ العَدْلَ بَينَ عِبَادِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا، إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحصِيهِ العَدُّ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ العِبَارَةُ».



الشَّرْحُ

تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَالمُلْكِ، هُوَ الإقْرَارُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ، وَمَالِكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَرَازِقُهُ، وَأنَّهُ المُحْيِي المُمِيتُ، المُتَفَرِّدُ بِإجَابَةِ الدُّعَاءِ عِندَ الاضْطِرَارِ، الَّذِي لَهُ الأمْرُ كُلُّهُ وَبِيَدِهِ الخَيرُ كُلُّهُ، لَيسَ لَهُ فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ، وَيَدخُلُ فِي ذَلِكَ الإيمَانُ بِالقَدَرِ.

وَهَذَا النَّوعُ لَا يَكفِي العَبدَ فِي حُصُولِ الإسْلَامِ، بَلْ لَابُدَّ أنْ يَأتِيَ مَعَ ذَلِكَ بِلَازِمِهِ مِنْ تَوحِيدِ الألُوهِيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَكَىٰ عَنِ المُشْرِكِينَ أنَّهُم مُقِرُّونَ بِهَذَا التَّوحِيدِ للهِ وَحْدَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧].

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل:٦٢].

فَهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يَكُونُوا بِذَلِكَ مُسلِمِينَ، بَلْ قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

قَالَ مُجَاهِدٌ -فِي الآيَةِ-: «إيمَانُهُم بِاللهِ؛ قَولُهُم: اللهُ خَلَقَنَا، وَيَرزُقُنَا، وَيُمِيتُنَا، فَهَذَا إيمَانٌ مَعَ شِركِ عِبَادَتِهِم غيرَهُ». رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ (١٣/ ٧٨) عَنْ مُجَاهِدٍ بِإسنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ وَالضَّحَاكِ، نَحوُ ذَلِكَ.

فتَبَيَّنَ أَنَّ الكُفَّارَ يَعْرِفُونَ اللهَ، وَيَعرِفُونَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلكَهُ وَقَهْرَهُ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدونَهُ، وَيُخلِصُونَ لَهُ أَنْوَاعًا مِنَ العِبَادَاتِ كَالحَجِّ وَالصَّدَقَةِ وَالذَّبْحِ وَالنَّذْرِ وَالدُّعَاءِ وَقْتَ الاضْطِرَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَيَدَّعُونَ أَنَّهُم عَلَىٰ مِلَّةِ إبرَاهِيمَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

وَبَعْضُهُم يُؤمِنُ بِالبَعْثِ وَالحِسَابِ، وَبَعْضُهُم يُؤمِنُ بِالقَدَرِ، كَمَا قَالَ زُهَيرٌ:

يُؤَخَّرْ فَيوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَومِ الحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وقَالَ عَنتَرَةُ:

يَا عَبْلُ أينَ مِنَ المَنِيَّةِ مَهْرَبٌ إنْ كَانَ رَبِّي فِي السَّمَاءِ قَضَاهَا

وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ فِي أشْعَارِهِم، فَوَجَبَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ عَقَلَ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ أنْ يَنْظُرَ، وَيَبْحَثَ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي أوْجَبَ سَفْكَ دِمَائِهِم، وَسَبْيَ نِسَائِهِم، وَإبَاحَةَ أمْوَالِهِم مَعَ هَذَا الإقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَمَا ذَاكَ إلَّا لإشْرَاكِهِم فِي تَوحِيدِ العِبَادَةِ الَّذِي هُوَ مَعنَىٰ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ[1].

* * *

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ١٤٠).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا النَّوعُ مِنَ التَّوحِيدِ قَدْ أَقَرَّتْ بِهِ الفِطْرَةُ، وَقَامَ عَلَيهِ دَلِيلُ السَّمْعِ وَالعَقْلِ، وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ طَائِفَةٍ بِعَينِهَا القَولُ بِوجُودِ خَالِقَينِ مُتكَافِئَينِ فِي الصِّفَاتِ وَالأفْعَالِ، وَمَنْ نُقِلَ عَنْهُم مِنْ طَوَائِفِ المُشْرِكِينَ نِسبَةُ شَيءٍ مِنَ الآثَارِ وَالحَوَادِثِ لِغَيرِ اللهِ؛ كَقَومِ هُودٍ، حَيثُ قَالُوا فِيمَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود:٥٤].

فَإِنَّ مَا نَسبُوهُ إِلَىٰ آلِهَتِهِم إِنَّمَا كَانَ لِزَعمِهِم أَنَّهَا وَثِيقَةُ الصِّلَةِ بِاللهِ، وَأَنَّهَا شَفِيعَةٌ لِمَنْ عَبَدَهَا، وَتَقَرَّبَ إِلَيهَا بِالقَرَابِينِ عِندَ اللهِ فِي جَلْبِ النَّفعِ لَهُ، وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الشَّائِبَةِ مِنَ الشِّركِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ نَبَّهَ اللهُ عَلَىٰ بُطلَانِهِ، وَأَنْكَرَ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢].

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ يَشْرَكُهُ فِي اسْتِحْقَاقِهِ العِبَادَةَ لَكَانَ لَهُ: خَلْقٌ، وَمُلْكٌ، وَقَهْرٌ وَتَدْبِيرٌ؛ إِذْ لَا يَستَحِقُّ العِبَادَةَ إِلَّا مَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لِيُرجَىٰ خَيرُهُ وَنَفْعُهُ، فَيُطَاعَ أَمْرُهُ، وَيَنفُذَ قَصْدُهُ، وَيُخْشَىٰ بَأسُهُ وَبَطْشُهُ.

فَلَا يُعتَدَىٰ عَلَىٰ حُدُودِهِ، وَلَا يُنتَهَكُ حِمَاهُ، وَلَو كَانَ لَهُ خَلْقٌ، وَتَدبِيرٌ، وَمُلْكٌ وَتَقدِيرٌ؛ لَعَلَا عَلَىٰ شَرِيكِهِ، وَقَهرَهُ إِنْ قَوِيَ عَلَىٰ ذَلِكَ لِيَكُونَ لَهُ الأَمْرُ وَحْدَهُ، وَلَذَهَبَ بِخَلْقِهِ، وَتَفَرَّدَ بِمُلْكِهِ دُونَ شَرِيكِهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيهِ مِنَ القُوَّةِ وَالجَبَروتِ مَا يَفرِضُ بِهِ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ الجَمِيعِ؛ فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ

كَمَالَ العُلوِّ، وَالكِبرِيَاءَ، وَالقَهْرَ، وَالجَبرُوتَ، وَفِي مَعنَىٰ هَذِهِ الآيَةِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢].

إذَا كَانَ المَعنَىٰ المُرَادُ: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا إِلَىٰ مُغَالَبَتِهِ.

وَقِيلَ المَعنَىٰ: لَاتَّخَذُوا سَبِيلاً إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَتَأْلِيهِهِ، وَالقِيَامِ بِوَاجِبِ حَقِّهِ، وَابتَغَوا إِلَىٰ رِضَاهُ سَبِيلًا.

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

وَقَد استَخْلَصَ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلًا سَمَّوهُ: دَلِيلَ التَّمَانُعِ، استَدَلُّوا بِهِ عَلَىٰ تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ.

قَالُوا: لَو أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ رَبَّانِ يَخْلُقَانِ وَيُدَبِّرَانِ أَمْرَ العَالَمِ لأَمْكَنَ أَنْ يَخْتَلِفَا بِأَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا وجُودَ شَيءٍ، وَيُرِيدَ الآخَرُ عَدَمَهُ، أَوْ يُرِيدُ أَحَدُهُمَا حَرَكَةَ شَيءٍ، وَيُرِيدُ الآخَرُ سُكُونَهُ.

وَعِندَ ذَلِكَ: إِمَّا أَنْ يَحصُلَ مُرَادُ كُلٍّ مِنهُمَا، وَهُوَ مُحَالٌ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنَ اجتِمَاعِ النَّقِيضَينِ.

وَإِمَّا أَنْ يَحصُلَ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دُونَ الآخَرِ، فَيَكُونُ الَّذِي نَفَذَ مُرَادُهُ هُوَ الرَّبَّ دُونَ الآخَرِ لِعَجزِهِ، وَالعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا».



الشَّرْحُ

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ

إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢].

أي: لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لِنَفسِهِ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنْ مَعبُودٍ آخَرَ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ ثَمَّةَ أَكْثَرُ مِنْ مَعبُودٍ لَانْفَرَدَ كُلُّ مَعبُودٍ بِمَخلُوقَاتِهِ، وَلَكَانَ بَينَهُم مُغَالَبَةٌ كَشَأنِ مُلُوكِ الدُّنيَا، فَيَختَلُّ نِظَامُ الكَونِ، تَنَزَّهَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَقَدَّسَ عَنْ وَصْفِهِم لَهُ بِأَنَّ لَهُ شَرِيكًا أَوْ وَلَدًا.

بَلْ هُوَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ وَمَا شَاهَدُوهُ، فَتَنَزَّهَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الشَّرِيكِ الَّذِي يَزْعُمُونَ.

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (٣/ ١١٤٤): «قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ﴾. نَبَّهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الدَّلِيلِ العَقْلِيِّ، عَلَىٰ امتِنَاعِ إلَهَينِ؛ فَقَالَ: ﴿إِذًا﴾؛ أي: لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ؛ ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾؛ أي: لَانْفَرَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الإِلَهَينِ بِمَخلُوقَاتِهِ، وَاستَقَلَّ بِهَا، وَلَحَرَصَ عَلَىٰ مُمَانَعَةِ الآخَرِ وَمُغَالَبَتِه.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ فَالغَالِبُ يَكُونُ هُوَ الإِلَهَ، فَمَعَ التَّمَانُعِ لَا يُمْكِنُ وجُودُ العَالَمِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْتَظِمَ هَذَا الانتِظَامَ المُدْهِشَ لِلعُقُولِ، وَاعتَبِرْ ذَلِكَ بِالشَّمسِ وَالقَمَرِ، وَالكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالسَّيَّارَةِ، فَإِنَّهَا مُنْذُ خُلِقَتْ، وَهِيَ تَجْرِي عَلَىٰ نَظَامٍ وَاحِدٍ، وَتَرْتِيبٍ وَاحِدٍ، كُلُّهَا مُسَخَّرَةٌ بِالقُدْرَةِ، مُدَبَّرَةٌ بِالحِكمَةِ؛ لِمَصَالِحِ الخَلْقِ كُلِّهِم، لَيسَتْ مَقصُورَةً عَلَىٰ مَصْلَحَةِ أَحَدٍ دُونَ أَحَدٍ، وَلَنْ تَرَىٰ

فِيهَا خَلَلًا وَلَا تَنَاقُضًا، وَلَا مُعَارَضَةً فِي أَدْنَىٰ تَصَرُّفٍ، فَهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، تَقْدِيرَ إِلَهَيْنِ رَبَّيْنِ؟!!

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ قَدْ نَطَقَتْ بِلِسَانِ حَالِهَا، وَأَفْهَمَتْ بِبَدِيعِ أَشْكَالِهَا، أَنَّ الْمُدَبِّرَ لَهَا إِلَهٌ وَاحِدٌ كَامِلُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، قَدِ افْتَقَرَتْ إِلَيهِ جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ لَهَا، وَفِي إِلَهِيَّتِهِ لَهَا.

فَكَمَا لَا وجُودَ لَهَا وَلَا دَوَامَ إِلَّا بِرُبوبِيَّتِهِ؛ كَذَلِكَ لَا صَلَاحَ لَهَا وَلَا قِوَامَ إِلَّا بِعِبَادَتِهِ وَإِفْرَادِهِ بِالطَّاعَةِ، وَلِهَذَا نَبَّهَ عَلَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِهِ بِأُنمُوذَجٍ[1] مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ عِلمُهُ المُحِيطُ، فَقَالَ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلمِنَا؛ مِنَ الوَاجِبَاتِ وَالمُمكِنَاتِ وَالمُستَحِيلَاتِ، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وَهُوَ مَا نُشَاهِدُ مِنْ ذَلِكَ.

﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: ارْتَفَعَ وَعَظُمَ، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بِهِ، وَلَا عِلْمَ عِندَهُم، إِلَّا مَا عَلَّمَهُ اللهُ». اهـ

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢].

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «تَفسِيرِهِ» (٢/ ٩٢١)**: «﴿قُل﴾ لِلمُشرِكِينَ الَّذِينَ يَجعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: عَلَىٰ

---

(١) الأُنموذج والنموذج: مثال الشيء، مُعَرَّبُ: نَمُوذَهُ بالفارسية، والجمع: نَمُوذَجات، وَنَمَاذِجُ.

مُوجِبِ زَعمِهِم وَافتِرَائِهِم ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾؛ أي: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا إِلَىٰ اللهِ بِعِبَادَتِهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ وَالتَّقَرُّبِ وَابْتِغَاءِ الوَسِيلَةِ، فَكَيفَ يَجْعَلُ العَبْدُ الفَقِيرُ الَّذِي يَرَىٰ شِدَّةَ افتِقَارِهِ لِعُبُودِيةِ رَبِّهِ إِلَهًا مَعَ اللهِ؟!

هَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ وَأَسفَهِ السَّفَهِ؟!

فَعَلَىٰ هَذَا المَعنَىٰ تَكُونُ هَذِهِ الآيَةُ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧].

وَكَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان:١٧-١٨].

وَيُحتَمَلُ أَنَّ المَعنَىٰ فِي قَولِهِ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢]؛ أي: لَطَلَبُوا السَّبِيلَ وَسَعَوا فِي مُغَالَبَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِمَّا أَنْ يَعْلُوا عَلَيهِ فَيَكُونُ مَنْ عَلَا وَقَهَرَ هُوَ الرَّبَّ الإِلَهَ، فَأَمَّا وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُم يُقِرُّونَ أَنَّ آلِهَتَهُم الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَقهُورَةٌ مَغلُوبَةٌ لَيسَ لَهَا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ، فَلِمَ اتَّخَذُوهَا وَهِيَ بِهَذِهِ الحَالِ؟!

فَيَكُونُ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون:٩١]».

وَتَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُنكِرْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَكُلُّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ هَذِهِ الخَلِيقَةَ لَهَا خَالِقٌ، فَإِنَّهُ لَمْ يُنكِر تَوحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا مُكَابَرَةً، وَالمُكَابَرَةُ لَا اعتِدَادَ بِهَا.

وَقَدْ أَنْكَرَ فِرعَونُ أَنْ يَكُونَ لِلكَونِ رَبٌّ، وَقَالَ لِقَومِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

وَلكِنَّ هَذَا الإِنْكَارَ لَمْ يَكُنْ سِوَىٰ إِنْكَارِ لِسَانٍ، فَهُوَ جَحْدٌ مَعَ التَّيَقُّنِ فِي القَلْبِ بِأَنَّ الأَمْرَ خِلَافُ ذَلِكَ، وَدَلِيلُ هَذَا قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]؛ يَعنِي: جَحَدُوا بِهَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا مَعَ أَنَّ أَنْفُسَهُم مُستَيقِنَةٌ بِهَا.

وَقَالَ مُوسَىٰ وَهُوَ يُنَاظِرُ فِرعَونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

وَلَمْ يُنْكِرْ فِرْعَونُ هَذَا، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يُنْكِرُ رُبُوبِيَّةَ اللهِ ﷻ، فَمَن يَعتَقِدُ أَنَّ لِهَذِهِ الخَلِيقَةِ خَالِقًا فَهُوَ مُقِرٌّ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ بِالكُلِّيَّةِ فَهَذَا شَيءٌ خِلَافُ الفِطْرَةِ، وَهَؤلَاءِ المُنْكِرونَ لَا يُعتَبَرونَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا مِنْ ذَوِي الفُهُومِ إِطْلَاقًا.

وَلَا يَكُونُ العَبْدُ مُوَحِّدًا بِمُجَرَّدِ اعتِرَافِهِ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، حَتَّىٰ يُقِرَّ بِتَوحِيدِ الأُلوهِيَّةِ وَيَقُومَ بِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَمْ يُدْخِلْهُم فِي الإِسْلَامِ وَقَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُم يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ، المُحيي المُمِيتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي القُرآنِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ الإِقْرَارُ بِوجُودِ اللهِ، أَوِ الإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ المُتَصَرِّفُ فِي الكَونِ، وَاقتَصَرَ عَلَىٰ هَذَا النَّوعِ، لَمْ يَكُنْ عَارِفًا حَقِيقَةَ التَّوحِيدِ الَّذِي دَعَتْ إِلَيهِ الرُّسُلُ؛ لأَنَّهُ وَقَفَ عِنْدَ المَلزُومِ وَتَرَكَ اللَّازِمَ، أَوْ وَقَفَ عِنْدَ الدَّلِيلِ وَتَرَكَ المَدلُولَ عَلَيهِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا تَوحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: فَهُوَ أَنْ يُسمَّىٰ اللهُ وَيُوصَفَ بِمَا سَمَّىٰ وَوَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ سَمَّاهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، مِنْ غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَأوِيلٍ، وَمِنْ غَيرِ تَكييفٍ وَلَا تَمثِيلٍ».



الشَّرْحُ

تَوحِيدُ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ ﷻ بِمَا لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَمْرَينِ:

الأَوَّلُ: الإِثبَاتُ، وَذَلِكَ بِأَنَّ نُثبِتَ للهِ ﷻ جَمِيعَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي أَثْبَتَهَا لِنَفسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

الثَّانِي: نَفيُ المُمَاثَلَةِ، وَذَلِكَ بِأَلَّا نَجْعَلَ للهِ مَثِيلًا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ صِفَاتِهِ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ المَخْلُوقِينَ، فَهِيَ وَإِنِ اشتَرَكَتْ فِي أَصْلِ المَعنَىٰ، لَكِنْ تَختَلِفُ فِي حَقِيقَةِ الحَالِ، فَمَنْ لَمْ يُثبِتْ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ مُعَطِّلٌ، وَتَعطِيلُهُ هَذَا يُشبِهُ تَعطِيلَ فِرعَونَ، وَمَنْ أَثْبَتَهَا مَعَ التَّشْبِيهِ صَارَ مُشَابِهًا لِلمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيرَهُ، وَمَنْ أَثْبَتَهَا بِدُونِ مُمَاثَلَةٍ صَارَ مِنَ المُوَحِّدِينَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق:١٢].

«أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنْزَلَ الأَمْرَ، وَهُوَ الشَّرَائِعُ وَالأَحْكَامُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي أَوْحَاهَا إِلَىٰ رُسُلِهِ لِتَذْكِيرِ العِبَادِ وَوَعظِهِم.

وَكَذَلِكَ الأَوَامِرُ الكَونِيَّةُ وَالقَدَرِيَّةُ الَّتِي يُدَبِّرُ بِهَا الخَلْقَ، كُلُّ ذَلِكَ لأَجْلِ أَنْ يَعرِفَهُ العِبَادُ وَيَعْلَمُوا إِحَاطَةَ قُدرَتِهِ بِالأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَإِحَاطَةَ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الأَشْيَاءِ، فَإِذَا عَرَفُوهُ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ المُقَدَّسَةِ؛ عَبَدُوهُ وَأَحَبُّوهُ وَقَامُوا بِحَقِّهِ، فَهَذِهِ الغَايَةُ المَقْصُودَةُ مِنَ الخَلْقِ وَالأَمرِ؛ مَعرِفَةُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ.

فَقَامَ بِهَا المُوَفَّقُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ الظَّالِمُونَ المُعرِضُونَ»(١).

وَطَرِيقَةُ السَّلَفِ فِي بَابِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَنَّهُم يُثبِتُونَ للهِ تَعَالَىٰ مَا أَثبَتَهُ لِنَفسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ إِثبَاتًا بِلَا تَكيِيفٍ وَلَا تَمثِيلٍ، وَيَنفُونَ عَنْهُ تَعَالَىٰ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ بِلَا تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، مَعَ إِثبَاتِ كَمَالِ ضِدِّهِ.

وَمَا لَمْ يَرِدْ إِثبَاتُهُ وَلَا نَفيُهُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَالجِهَةِ وَالحَيِّزِ؛ فَيَجِبُ التَّوَقُّفُ فِي لَفْظِهِ فَلَا يُثبَتُ وَلَا يُنفَىٰ لِعَدَمِ وُرُودِ الإِثبَاتِ وَالنَّفيِ فِي الكِتَابِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٨٤٩).

وَالسُّنَّةِ لَكِن يَجِبُ الاستِفصَالُ، فيُقَالُ فِي اللَّفْظِ: إِنَّهُ لَمْ يَرِدْ، وَأَمَّا المَعنَىٰ: فَمَا المُرَادُ بِهِ؟

فَإِنْ أُرِيدَ بِالمَعنَىٰ مَا يَلِيقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ؛ قُبِلَ، وَإِنْ أُرِيدَ بِالمَعنَىٰ مَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ؛ رُدَّ.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «التَّدمُرِيةِ»** (ص٤٠): «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، إِثبَاتُ مَا أَثبَتَهُ تَعَالَىٰ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيرِ تَكييفٍ وَلَا تَمثِيلٍ، وَمِنْ غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ.

وَكَذَلِكَ يَنفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفسِهِ مَعَ إِثبَاتِ مَا أَثبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيرِ إلحَادٍ: لَا فِي أَسمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَمَّ الَّذِينَ يُلحِدونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠]». اهـ

وَالتَّكيِيفُ: إِثبَاتُ كَيفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لِلصِّفَاتِ، أَوِ السُّؤالُ عَنْهَا بـ: كَيفَ؟

فَالتَّكيِيفُ أَنْ يَقُولَ الإِنسَانُ بِقَلبِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ: كَيفِيَّةُ صِفَاتِ اللهِ كَذَا وَكَذَا.

وَالتَّمثِيلُ: هُوَ التَّسوِيَةُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ؛ بِإِثبَاتِ مَثِيلٍ لِلشَّيءِ.

وَالفَرقُ بَينَ التَّكيِيفِ وَالتَّمثِيلِ: أَنَّ التَّمثِيلَ أَنْ يَذكُرَ الصِّفَةَ، أَوْ أَنْ يَذْكُرَ

كَيفِيَّةَ الصِّفَاتِ مُقَيَّدَةً بِمُمَاثِلٍ، وَأَمَّا التَّكْيِيفُ فَأَنْ يَذْكُرَ كَيفَيَّةً لَا تُقَيَّدُ بِمُمَاثِلٍ، بَلْ يُكَيِّفُ كَيفِيَّةً تَصَوَّرَهَا فِي عَقْلِهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا: فَكُلُّ مُمَثِّلٍ مُكَيفٌ، وَلَيسَ كُلُّ مُكَيِّفٍ مُمَثِّلًا، لأَنَّ المُكَيِّفَ قَدْ يَذْكُرُ كَيفِيَّةً لَيسَ لَهَا نَظِيرٌ، أَمَّا المُمَثِّلُ فَيذْكُرُ كَيفِيَّةً لَهَا نَظِيرٌ.

وَأَمَّا التَّشْبِيهُ: فَهُوَ إِثبَاتُ مُشَابِهٍ لِلشَّيءِ، وَهُوَ يَقتَضِي المُسَاوَاةَ فِي أَكثَرِ الصِّفَاتِ، وَهُوَ عَلَىٰ نَوعَينِ:

أَحَدُهُمَا: تَشبِيهُ الخَالِقِ بِالمَخلُوقِ، وَمَعنَاهُ: أَنْ يُثبِتَ للهِ تَعَالَىٰ فِي ذَاتِهِ أَوْ صِفَاتِهِ مِنَ الخَصَائِصِ مِثْلَمَا يُثبِتُ لِلمَخلُوقِ مِنْ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: تَشبِيهُ المَخلُوقِ بِالخَالِقِ، وَمَعنَاهُ: إِثبَاتُ شَيءٍ لِلمَخلُوقِ مِمَّا يَختَصُّ بِهِ الخَالِقُ مِنَ الأَفعَالِ وَالحُقُوقِ وَالصِّفَاتِ.

وَالتَّمثِيلُ أَعظَمُ مِنَ التَّشبِيهِ؛ لأَنَّهُ تَكذِيبٌ لِلخَبَرِ وَعِصْيَانٌ لِلأَمْرِ.

وَأَمَّا التَّحرِيفُ: فَهُوَ فِي اللُّغَةِ: التَّغْيِيرُ، وَفِي الاصطِلَاحِ: تَغيِيرُ النَّصِّ لَفْظًا أَوْ مَعنًى، وَالتَّغيِيرُ اللَّفظِيُّ قَدْ يَتَغيرُ مَعَهُ المَعنَىٰ وَقَدْ لَا يَتَغَيَّرُ.

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَقسَامٍ:

الأَوَّلُ: تَحرِيفٌ لَفظِيٌّ يَتَغَيَّرُ مَعَهُ المَعنَىٰ؛ كَتَحرِيفِ بَعضِهِم قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]. إِلَىٰ نَصْبِ الجَلَالَةِ، لِيَكُونَ التَّكَلُّمُ مِنْ مُوسَىٰ.

الثَّانِي: تَحرِيفٌ لَفْظِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ مَعَهُ المَعنَىٰ؛ كَفَتْحِ الدَّالِ مِنْ قَولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. وَهَذَا فِي الغَالِبِ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ جَاهِلٍ؛ إِذْ لَيسَ فِيهِ غَرَضٌ مَقْصُودٌ لِفَاعِلِهِ غَالِبًا.

الثَّالِثُ: تَحرِيفٌ مَعنَوِيٌّ؛ وَهُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ بِلَا دَلِيلٍ، كَتَحرِيفِ مَعنَىٰ اليَدَينِ المُضَافَتَينِ إِلَىٰ اللهِ إِلَىٰ القُوَّةِ، وَالنِّعمَةِ، وَغَيرِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا التَّعطِيلُ: فَهُوَ فِي اللُّغَةِ: التَّفرِيغُ وَالإِخْلَاءُ، وَفِي الاصْطِلَاحِ هُنَا: إِنْكَارُ مَا يَجِبُ للهِ تَعَالَىٰ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، أَوْ إِنْكَارُ بَعضِهِ، فَهُوَ نَوعَانِ:

الأَوَّلُ: تَعطِيلٌ كُلِّيٌّ؛ كَتَعطِيلِ الجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الصِّفَاتِ، وَغُلَاتُهُم يُنكِرُونَ الأَسْمَاءَ.

وَالثَّانِي: تَعطِيلٌ جُزْئِيٌّ، كَتَعطِيلِ الأَشْعَرِيَّةِ، الَّذِينَ يُنكِرُونَ بَعْضَ الصِّفَاتِ دُونَ بَعضٍ، وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ بِالتَّعطِيلِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ هُوَ الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ.

فَتَوحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: هُوَ الإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ الحَيُّ القَيومُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَومٌ، لَهُ المَشِيئَةُ النَّافِذَةُ، وَالحِكمَةُ البَالِغَةُ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، رَءوفٌ رَحِيمٌ، عَلَىٰ العَرْشِ استَوَىٰ، وَعَلَىٰ المُلكِ احتَوَىٰ.

وَأَنَّهُ: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٣]. إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَسمَاءِ الحُسنَىٰ وَالصِّفَاتِ العُلَا.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-:

«فَالإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ، وَمَعرِفتُهَا، وَإِثبَاتُ حَقَائِقِهَا، وَتَعلُّقُ القَلبِ بِهَا، وَشُهودُهُ لَهَا؛ هُوَ مَبدَأ الطَّرِيقِ وَوَسطُهُ وَغَايَتُهُ، وَهُوَ رُوحُ السَّالِكِينَ وَحَادِيهِم إِلَىٰ الوصُولِ، وَمُحَرِّكُ عَزَمَاتِهِم إذَا فَتَروا، وَمُثِيرُ هِمَمِهِم إذَا قَصَّرُوا؛ فَإِنَّ سَيرَهُم إِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ الشَّوَاهِدِ.

فَمَن لَا شَاهِدَ لَهُ لَا سَيرَ لَهُ وَلَا طَلَبَ وَلَا سُلُوكَ.

وَأعظَمُ الشَّوَاهِدِ شَوَاهِدُ صِفَاتِ مَحبُوبِهِم وَنِهَايَةِ مَطْلُوبِهِم، وَذَلِكَ هُوَ العَلَمُ الَّذِي رُفِعَ لَهُم فِي السَّيرِ فَشَمَّرُوا إِلَيهِ، كَمَا [قَالَتْ: عَائِشَةُ] [1]: «مَن رَأىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَقَدْ رَآهُ غَادِيًا رَائِحًا، لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَىٰ لَبِنَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيهِ».

وَلَا يَزَالُ العَبْدُ فِي التَّوَانِي وَالفُتُورِ وَالكَسَلِ، حَتَّىٰ يَرفَعَ اللهُ ﷻ لَهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ عَلَمًا يُشَاهِدُهُ بِقَلْبِهِ فَيُشَمِّرُ إِلَيهِ وَيَعمَلُ عَلَيهِ.

فَإِذَا عُطِّلَتْ شَوَاهِدُ الصِّفَاتِ، وَوُضِعَتْ أَعْلَامُهَا مِنَ القُلُوبِ، وَطُمِسَتْ آثَارُهَا فِيهَا؛ ضُرِبَتْ بِسِيَاطِ البُعدِ، وَأُسْبِلَ دُونَهَا حِجَابُ الطَّرْدِ، وَتَخَلَّفَتْ مَعَ المُتَخَلِّفِينَ، وَأَوْحَىٰ إِلَيهَا القَدَرُ أَنِ اقعُدِي مَعَ القَاعِدِينَ.

---

(١) لم أقف عليه من حديث عائشة، والمعروف أنه من كلام الحسن البصري، رواه ابن أبي عاصم فِي «الزهد» (١/ ٢٧٩)، وابن حبان فِي «الثقات» (٦/ ٢٦١)، وأبو نعيم فِي «الحلية» (٢/ ١٥٤)؛ من أوجه؛ موقوفًا عليه. [قاله محقِّقُ المدارج].

فَإِنَّ أوصَافَ المَدعُوِّ إليهِ، وَنُعُوتَ كَمَالِهِ، وَحَقَائِق أسمَائِهِ، هِيَ الحَادِيَةُ لِلقُلُوبِ إلَىٰ مَحَبَّتِهِ، وَطَلَبِ الوصُولِ إلَيهِ؛ لأنَّ القُلُوبَ إنَّمَا تُحِبُّ مَنْ تعرِفُهُ، وَتخَافُهُ، وَترجُوهُ، وَتَشتَاقُ إلَيهِ، وَتلتَذُّ بِقُربِهِ، وَتَطمَئِنُّ إلَىٰ ذِكْرِهِ، بِحَسَبِ مَعرِفَتِهَا بِصِفَاتِهِ.

فَإِذَا ضُرِبَ دُونَهَا حِجَابُ مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ وَالإقْرَارِ بِهَا؛ امتَنَعَ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَا هُوَ مَشْرُوطٌ بِالمَعرِفَةِ وَمَلزُومٌ لَهَا؛ إِذْ وجُودُ المَلزُومِ بِدُونِ لازِمِهِ وَالمَشروطِ بِدُونِ شَرْطِهِ مُمتَنِعٌ.

فَحَقِيقَةُ المَحَبَّةِ وَالإنَابَةِ وَالتَّوكُّلِ وَمَقَامُ الإحْسَانِ، مُمْتَنِعٌ عَلَىٰ المُعَطِّلِ امتِنَاعَ حُصُولِ المَغَلِّ مِنْ مُعطِّلِ البَذْرِ[1]، بَلْ أعْظَمُ امتِنَاعًا.

كَيفَ تَصْمُدُ القُلُوبُ[2] إلَىٰ مَنْ لَيسَ دَاخِلَ العَالَمِ، وَلَا خَارِجَهُ، ولَا مُتَّصِلًا بِهِ، وَلَا مُنفَصِلًا عَنْهُ، وَلَا مُبَاينًا لَهُ، وَلَا مُحَايِثًا لَهُ، بَلْ حَظُّ العَرشِ مِنْهُ كَحَظِّ الآبَارِ وَالوِهَادِ، وَالأمَاكِنِ الَّتِي يُرغَبُ عَنْ ذِكرِهَا؟!

وَكَيفَ تَألَهُ القُلُوبُ مَنْ لَا يَسْمَعُ كَلَامَهَا، وَلَا يَرَىٰ مَكَانَهَا، وَلَا يُحِبُّ وَلَا يُحَبُّ، وَلَا يَقُومُ بِهِ فِعلٌ أَلْبَتَّةَ، وَلَا يتكَلَّمُ وَلَا يُكَلِّمُ، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ شَيءٍ، وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ شَيءٌ، وَلَا يَقُومُ بِهِ رَحْمَةٌ وَلَا رَأفَةٌ وَلَا حَنَانٌ، وَلَا لَهُ حِكْمَةٌ وَلَا غَايَةٌ يَفْعَلُ وَيَأمرُ لأَجْلِهَا؟!

---

(١) يعني: أن من ترك البذرَ فلن يُحصِّلَ غَلَّةً.

(٢) تصمد القلوب: تتوجه بالطلب والرجاء.

فَكَيفَ يُتَصَوَّرُ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَمَحَبَّتُهُ، وَالإِنَابَةُ إِلَيهِ، وَالشَّوقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَرُؤيَة وَجْهِهِ الكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَهُوَ غَيرُ مُستَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ فَوقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ؟!

أَمْ كَيفَ تَألَهُ القُلُوبُ مَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُحَبُّ، وَلَا يَرضَىٰ وَلَا يَغْضَبُ، وَلَا يَفرَحُ وَلَا يَضْحَكُ؟!

فَسُبحَانَ مَنْ حَالَ بَينَ المُعَطِّلَةِ وَبَينَ مَحَبَّتِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ، وَالسُّرورِ وَالفَرَحِ بِهِ، وَالشَّوقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَانتِظَارِ لَذَّةِ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَالتَّمَتُّعِ بِخِطَابِهِ فِي مَحَلِّ كَرَامَتِهِ وَدَارِ ثَوَابِه!

وَلَو رَآهَا أَهْلًا لِذَلِكَ؛ لَمَنَّ عَلَيهَا بِهِ وَأَكرَمَهَا بِهِ؛ إِذْ ذَاكَ أَعظَمُ كَرَامَةٍ يُكرِمُ بِهَا عَبدَهُ وَاللهُ أَعْلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ كَرَامَتَهُ وَيَضَعُ نِعمَتَهُ ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣].

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

وَلَيسَ جُحُودُهُم صِفَاتِهِ سُبحَانَهُ وَحَقَائِق أَسْمَائِهِ فِي الحَقِيقَةِ تَنزِيهًا، إنَّمَا هُوَ حِجَابٌ ضُرِبَ عَلَيهِم فَظَنُّوهُ تَنزِيهًا، كَمَا ضُرِبَ حِجَابُ الشِّركِ وَالبِدَعِ المُضِلَّةِ وَالشَّهَوَاتِ المُردِيَةِ عَلَىٰ قُلوبِ أَصْحَابِهَا، وَزُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أعمَالِهِم فَرَأوْهَا حَسَنَةً»[1].

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٥- ٣٣٦).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَن تَبَصَّرَ فِي العَالَمِ، وَعَرَفَ شُئونَهُ وَأَحْوَالَهُ تَبَيَّنَ لَهُ كَمَالُ تَعَلُّقِهِ خَلْقًا وَأَمْرًا بِأَسْمَاءِ اللهِ الحُسنَىٰ، وَصِفَاتِهِ العُلْيَا، وَارتِبَاطُهُ بِهَا أَتَمَّ ارتِبَاطٍ، وَظَهَرَ لَهُ أَنَّ الوجُودَ كُلَّهُ آيَاتٌ بيِّنَاتٌ، وَشَوَاهِدُ وَاضِحَاتٌ عَلَىٰ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ».

وَقَدْ ذَكَرَ ابنُ القَيمِ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» طَرِيقَينِ لإثبَاتِ الصِّفَاتِ:

«١- الوَحيُ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِندِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

٢- الحِسُّ الَّذِي شَاهَدَ بِهِ البَصِيرُ آثَارَ الصنعَةِ».

وَنقَلَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا ذَكَرَهُ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِطَرِيقَي الإثبَاتِ، وَنَصُّهُ: «فَأَمَّا الرِّسَالَةُ؛ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِإِثبَاتِ الصِّفَاتِ إثبَاتًا مُفَصَّلًا عَلَىٰ وَجْهٍ أَزَالَ الشُّبهَةَ وَكَشَفَ الغِطَاءَ، وَحَصَّلَ العِلْمَ اليَقِينِيَّ، وَرَفَعَ الشَّكَّ وَالرَّيبَ؛ فَثَلِجَتْ لَهُ الصُّدُورُ وَاطمَأَنَتْ بِهِ القُلُوبُ وَاستَقَرَّ بِهِ الإيمَانُ فِي نِصَابِهِ، فَفَصَّلَتِ الرِّسَالَةُ الصِّفَاتِ وَالنُّعوتَ وَالأفْعَالَ أعْظَمَ مِنْ تَفصِيلِ الأمْرِ وَالنَّهي، وَقَرَّرَتْ إثبَاتَهَا أكمَلَ تَقرِيرٍ فِي أبْلَغِ لَفظٍ وَأبْعَدِهِ عَنِ الإجمَالِ وَالاحتِمَالِ وَأمنَعِهِ مِنَ قَبُولِ التَّأوِيلِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ تَأويلُ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأحَادِيثِهَا بِمَا يُخرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا مِنْ جِنْسِ تَأوِيلِ آيَاتِ المَعَادِ وَأخبَارِهِ، بَلْ أبعدُ مِنْهُ وَأَفْسَدُ لِوجُوهٍ كَثِيرَةٍ ذَكَرْنَاهَا فِي كِتَابِ «الصَّوَاعِقِ المُرْسَلَةِ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعَطِّلَةِ»، بَلْ تَأوِيلُ آيَاتِ الصِّفَاتِ بِمَا يُخرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا؛ كَتَأوِيلِ آيَاتِ الأمْرِ وَالنَّهي سَوَاءٌ.

فَالبَابُ كُلُّهُ بَابٌ وَاحِدٌ وَمَصْدَرُهُ وَاحِدٌ وَمَقصُودُهُ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ إِثبَاتُ حَقَائِقِهِ وَالإِيمَانُ بِهَا.

وَلِذَلِكَ سَطَا عَلَىٰ تَأوِيلِ آيَاتِ المَعَادِ قَومٌ، وَقَالُوا: فَعَلْنَا فِيهَا كَفِعْلِ المُتَكَلِّمِينَ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ، بَلْ نَحْنُ أعذَرُ؛ فَإِنَّ اشتِمَالَ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ عَلَىٰ الصِّفَاتِ وَالعُلُوِّ وَقِيَامِ الأفعَالِ أعْظَمُ مِنْ نُصُوصِ المَعَادِ لِلأبدَانِ بِكَثِيرٍ، فَإِذَا سَاغَ لَكُم تَأوِيلُهَا؛ فَكَيفَ يَحرُمُ عَلَينَا نَحْنُ تَأوِيلُ آيَاتِ المَعَادِ؟!

وَكَذَلِكَ سَطَا قَومٌ آخَرونَ عَلَىٰ تَأوِيلِ آيَاتِ الأمْرِ وَالنَّهيِ، وَقَالُوا: فَعَلْنَا فِيهَا كَفِعْلِ أولَئِكَ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ مَعَ كَثْرَتِهَا وَتنوُّعِهَا، وَآيَاتُ الأحكَامِ لَا تَبْلُغُ زِيَادَةً عَلَىٰ خَمسمِئَةِ آيَةٍ.

قَالُوا[1]: وَمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مُعَارِضٌ مِنَ العَقلِيَّاتِ لِنُصُوصِ الصِّفَاتِ؛ فَعِندَنَا مُعَارِضٌ عَقليٌّ لِنُصُوصِ المَعَادِ مِنْ جِنسِهِ أَوْ أقوَىٰ مِنْهُ.

وَقَالَ مُتَأَوِّلُو آيَاتِ الأحْكَامِ عَلَىٰ خِلَافِ حَقَائِقِهَا وَظَوَاهِرِهَا: الَّذِي سَوَّغَ لَنَا هَذَا التَّأوِيلَ القَوَاعِدُ الَّتِي أَصَّلْتُمُوهَا لَنَا وَجَعَلْتُمُوهَا أُصُولًا نَرجِعُ إِلَيهَا، فَلَمَّا طَردْنَاهَا؛ كَانَ طَردُهَا: أَنَّ اللهَ مَا تَكَلَّمَ بِشَيءٍ قَطُّ وَلَا يَتكَلَّمُ، وَلَا يَأمُرُ وَلَا يَنْهَىٰ، وَلَا لَهُ صِفَةٌ تَقُومُ بِهِ، وَلَا يَفْعَلُ شَيئًا.

وَطَرْدُ هَذَا الأَصْلِ: لُزُومُ تَأوِيلِ آيَاتِ الأمْرِ وَالنَّهيِ وَالوَعْدِ وَالوَعِيدِ

---

(١) يعني: الَّذِينَ تأولوا آيات المعاد.

وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي كِتَابِ «الصَّوَاعِقِ»: أنَّ تَأوِيلَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأخبَارِهَا بِمَا يُخرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا؛ هُوَ أصْلُ فَسَادِ الدُّنيَا وَالدِّينِ. وَزَوَالُ المَمَالِكِ، وَتَسلِيطُ أعْدَاءِ الإسْلَامِ عَلَيهِ؛ إنَّمَا كَانَ بِسَببِ التَّأوِيلِ، وَيَعرِفُ هَذَا مَنْ لَهُ اطِّلَاعٌ وَخِبرَةٌ بِمَا جَرَىٰ فِي العَالَمِ، وَلِهَذَا يُحَرِّمُ عُقَلَاءُ الفَلَاسِفَةِ التَّأوِيلَ مَعَ اعتِقَادِهِم لِصِحَّتِهِ؛ لأنَّهُ سَبَبٌ لِفَسَادِ العَالَمِ وَتَعطِيلِ الشَّرَائِعِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ كَيفِيَّةَ وُرُودِ آيَاتِ الصِّفَاتِ فِي القُرآنِ وَالسُّنَّةِ؛ عَلِمَ قَطْعًا بُطْلَانَ تَأوِيلِهَا بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا؛ فَإنَّهَا وَرَدَتْ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُحْتَمَلُ مَعَهُ التَّأوِيلُ بِوَجْهٍ.

فَانْظُرْ إلَىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

هَلْ يَحتَمِلُ هَذَا التَّقسِيمُ وَالتَّنوِيعُ تَأوِيلَ إتْيَانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ بِإتيَانِ مَلَائِكَتِهِ، أوْ آيَاتِهِ، وَهَلْ يَبقَىٰ مَعَ هَذَا السِّيَاقِ شُبهَةٌ أصْلًا أنَّهُ إتيَانُهُ بِنَفسِهِ.

وَكَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾. إلَىٰ أنْ قَالَ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٤].

فَفَرَّقَ بَينَ الإيحَاءِ العَامِّ وَالتَّكْلِيمِ الخَاصِّ، وَجَعَلَهُمَا نَوعَينِ، ثُمَّ أكَّدَ فِعْلَ التَّكلِيمِ بِالمَصْدَرِ الرَّافِعِ لِتَوَهُّمِ مَا يَقُولُهُ المُحَرِّفُونَ.

وَكَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ [الشورى:٥١]. فَنَوَّعَ تَكلِيمَهُ إِلَىٰ تَكلِيمٍ بِوَاسِطَةٍ وَتَكلِيمٍ بِغَيرِ وَاسِطَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَولُهُ لِمُوسَىٰ ﵇: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤]. فَفَرَّقَ بَينَ الرِّسَالَةِ وَالكَلَامِ، وَالرِّسَالَةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَلَامِهِ.

وَكَذَلِكَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُم تَرَونَ رَبَّكُم عَيَانًا كَمَا تَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدْرِ فِي الصَّحوِ لَيسَ دَونَهُ سَحَابٌ، وَكَمَا تَرَونَ الشَّمسَ فِي الظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا البَيَانَ وَالكَشْفَ وَالاحتِرَازَ يُنَافِي إِرَادَةَ التَّأوِيلِ قَطْعًا، وَلَا يرتَابُ فِي هَذَا مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَدِينٌ.

الطَّرِيقُ الثَّانِي مِن طُرُقِ إِثبَاتِ الصِّفَاتِ: دَلَالَةُ الصَّنعَةِ عَلَيهَا.

فَإِنَّ المَخلُوقَ يَدُلُّ عَلَىٰ وجُودِ خَالِقِهِ وعَلَىٰ حَيَاتِهِ وَعَلَىٰ قُدرَتِهِ وَعَلَىٰ عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ؛ فَإِنَّ الفِعْلَ الاختِيَارِيَّ يَستَلزِمُ ذَلِكَ استِلزَامًا ضَرورِيًّا، وَمَا فِيهِ مِنَ الإِتْقَانِ وَالإِحْكَامِ وَوقُوعِهِ عَلَىٰ أكمَلِ الوجُوهِ يَدُلُّ عَلَىٰ حِكمَةِ فَاعِلِهِ وَعِنَايَتِهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الإحسانِ وَالنَّفعِ، وَوصُولِ المَنَافِعِ العَظِيمَةِ إِلَىٰ المَخْلُوقِ يَدُلُّ عَلَىٰ رَحْمَةِ خَالِقِهِ وَإِحسَانِهِ وَجُودِهِ، وَمَا فِيهِ مِنْ آثَارِ الكَمَالِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٧، ٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٢، ١٨٣)؛ عن أبي هريرة وأبي سعيد عَلَىٰ الترتيب.

خَالِقَهُ أَكْمَلُ مِنْهُ.

فَمُعطِي الكَمَالِ أَحَقُّ بِالكَمَالِ، وَخَالِقُ الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالنُّطقِ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا مُتكَلِّمًا، وَخَالِقُ الحَياةِ وَالعُلومِ وَالقُدَرِ وَالإِرَادَاتِ؛ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ كَذَلِكَ فِي نَفسِهِ، فَمَا فِي المَخلُوقَاتِ مِنْ أَنوَاعِ التَّخصِيصَاتِ هُوَ مِنْ أَدَلِّ شَيءٍ عَلَىٰ إِرَادَةِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَمَشِيئَتِهِ وَحِكمَتِهِ الَّتِي اقتَضَتِ التَّخْصِيصَ، وَحُصُولُ الإِجَابَةِ عَقِيبَ سُؤَالِ المَطلُوبِ عَلَىٰ الوَجْهِ المَطْلُوبِ؛ دَلِيلٌ عَلَىٰ عِلْمِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ بِالجُزئِيَّاتِ وَعَلَىٰ سَمْعِهِ لِسُؤَالِ عَبِيدِهِ وَعَلَىٰ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِم وَعَلَىٰ رَأفَتِهِ وَرَحمَتِهِ بِهِم.

وَالإِحسَانُ إِلَىٰ المُطِيعِينَ وَالتَّقرِيبُ لَهُم وَالإِكْرَامُ وَإِعْلَاءُ دَرَجَاتِهِم؛ يَدُلُّ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَعُقُوبَتُهُ لِلعُصَاةِ وَالظَّلَمَةِ وَأَعْدَاءِ رُسُلِهِ بِأَنْوَاعِ العُقُوبَاتِ المَشْهُودَةِ؛ تَدُلُّ عَلَىٰ صِفَةِ الغَضَبِ وَالسَّخَطِ وَالإِبْعَادِ وَالطَّرْدِ، وَالإِقصَاءُ يَدُلُّ عَلَىٰ المَقْتِ وَالبُغضِ.

فَهَذِهِ الدَّلَالَاتُ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ عِنْدَ التَّأَمُّلِ، وَلِهَذَا دَعَا سُبحَانَهُ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ إِلَىٰ الاستِدْلَالِ بِذَلِكَ عَلَىٰ صِفَاتِهِ، فَهُوَ يُثبِتُ العِلْمَ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَوَحدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ بِآثَارِ صُنْعِهِ المَشْهُودَةِ.

وَالقُرآنُ مَملُوءٌ بِذَلِكَ؛ فَيُظْهِرُ شَاهِدَ اسْمِ الخَالِقِ مِنْ نَفسِ المَخلُوقِ، وَشَاهِدَ اسْمِ الرَّزَّاقِ مِنْ وجُودِ الرِّزْقِ وَالمَرزُوقِ، وَشَاهِدَ اسْمِ الرَّحِيمِ مِنْ شُهودِ الرَّحمَةِ المَبثُوثَةِ فِي العَالَمِ، وَاسْمِ المُعطِي مِنْ وجُودِ العَطَاءِ الَّذِي هُوَ

مِدرَارٌ لَا يَنْقَطِعُ لَحْظَةً وَاحِدَةً، وَاسْمِ الحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ عَنِ الجُنَاةِ وَالعُصَاةِ وَعَدَمِ مُعَاجَلَتِهِم، وَاسْمِ الغَفُورِ وَالتَّوَّابِ مِنْ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَقَبُولِ التَّوبَةِ.

وَيُظْهِرُ شَاهِدَ اسمِهِ الحَكِيمِ مِنَ العِلْمِ بِمَا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنَ الحِكَمِ وَالمَصَالِحِ وَوجُوهِ المَنَافِعِ.

وَهَكَذا كُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الحُسنَىٰ لَهُ شَاهِدٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، يَعرِفُهُ مَنْ عَرَفَهُ وَيَجهَلُهُ مَنْ جَهِلَهُ، فَالخَلْقُ وَالأَمْرُ مِنْ أَعظَمِ شَوَاهِدِ أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَكُلُّ سَلِيمِ العَقْلِ وَالفِطرَةِ يَعرِفُ قَدْرَ الصَّانِعِ وَحِذْقَهُ وَتَبرِيزَهُ عَلَىٰ غَيرِهِ، وَتَفَرُّدَهُ بِكَمَالٍ لَمْ يُشَارِكْهُ فِيهِ غَيرُهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ صُنْعِهِ، فَكَيفَ لَا تُعْرَفُ صِفَاتُ مَنْ هَذَا العَالَمُ العُلوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ وَهَذِهِ المَخْلُوقَاتُ مِنْ بَعضِ صُنعِهِ؟!

وَإِذَا اعتَبَرْتَ المَخْلُوقَاتِ وَالمَأمُورَاتِ وَجَدْتَهَا بِأَسْرِهَا كُلَّهَا دَالَّةً عَلَىٰ النُّعُوتِ وَالصِّفَاتِ وَحَقَائِقِ الأَسْمَاءِ الحُسنَىٰ، وَعَلِمْتَ أَنَّ المُعَطِّلَةَ مِنْ أَعظَمِ النَّاسِ عَمًىٰ وَمُكَابَرَةً.

وَيَكفِي ظُهُورُ شَاهِدِ الصُّنْعِ فِيكَ خَاصَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

فَالمَوجُودَاتُ بِأَسْرِهَا شَوَاهِدُ صِفَاتِ الرَّبِّ ﷻ، وَنُعوتِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَهِيَ كُلُّهَا تُشِيرُ إِلَىٰ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ، وَحَقَائِقِهَا وَتُنَادِي عَلَيهَا، وَتَدُلُّ عَلَيهَا، وَتُخْبِرُ بِهَا بِلِسَانِ النُّطْقِ وَالحَالِ، كَمَا قِيلَ:

تأمَّلْ سُطُورَ الكَائِنَاتِ فَإنَّهَا مِنَ المَلِكِ الأعْلَىٰ إلَيكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ خَطَّ فِيهَا لَوْ تَأمَّلْتَ خَطَّهَا أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ
تُشِيرُ بِإثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِرَبِّهَا فَصَامِتُهَا يَهْدِي وَمَنْ هُوَ قَائِلُ

فَلَستَ تَرَىٰ شَيئًا أَدَلَّ عَلَىٰ شَيءٍ مِنْ دَلَالَةِ المَخْلُوقَاتِ عَلَىٰ صِفَاتِ خَالِقِهَا، وَنُعُوتِ كَمَالِهِ، وَحَقَائِقِ أَسْمَائِهِ.

وَقَدْ تَنَوَّعَتْ أدِلَّتُهَا بِحَسَبِ تَنَوُّعِهَا، فَهِيَ تَدُلُّ عَقلًا وَحِسًّا وَفِطرَةً وَنَظرًا وَاعتِبَارًا»[(١)]. اهـ

ثُمَّ شَرَعَ فِي بَيَانِ تَوحِيدِ الألُوهِيَّةِ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ -بَعْدَ أنْ ذَكَرَ قِسْمَيْ تَوحِيدِ المَعْرِفَةِ وَالإثبَاتِ، وَهُمَا: تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوحِيدُ الأسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ:

«تَوحِيدُ الإلَهِيَّةِ

وَأمَّا تَوحِيد الإلَهِيَّةِ: فَهُوَ إفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ: قَولًا، وَقَصْدًا، وَفِعلًا، فَلَا يُنْذَرُ إلَّا لَهُ، وَلَا تُقرَّبُ القَرَابِينُ إلَّا إلَيهِ، وَلَا يُدْعَىٰ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ إلَّا إيَّاهُ، وَلَا يُستَغَاثُ إلَّا بِهِ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إلَّا عَلَيهِ، إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، وَهَذَا النَّوعُ هُوَ الَّذِي بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأنْزِلَتْ بِهِ الكُتُبُ، وَبَدَأ بِهِ كُلُّ رَسُولٍ

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٧-٣٤٠).

دَعوَتَهُ، وَوَقَعَتْ فِيهِ الخُصُومَةُ بينَهُ وَبينَ أُمَّتِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ شُرِعَ الجِهَادُ، وَقَامَتِ الحَرْبُ عَلَىٰ سَاقِهَا بينَ المُوَحِّدِينَ وَالمُشْرِكِينَ».



الشَّرْحُ

وَتَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ: هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِأفعَالِ العِبَادِ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، الظَّاهِرَةِ، وَالبَاطِنَةِ، قَوْلًا، وَعَمَلًا، وَقَصْدًا، وَنَفيُ العِبَادَةِ عَنْ كُلِّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ كَائِنًا مَن كَانَ.

وَقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الحَقِّ الوَاضِحِ المُبِينِ» (ص١١٢): «فَأَمَّا حَدُّهُ، وَتَفسِيرُهُ، وَأَرْكَانُهُ فَهُوَ أَنْ يَعْلَمَ، وَيَعتَرِفَ عَلَىٰ وَجْهِ العِلْمِ، وَاليَقِينِ، أَنَّ اللهَ هُوَ المَأْلُوهُ وَحْدَهُ، المَعْبُودُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، وَأَنَّ صِفَاتِ الأُلُوهِيَّةِ وَمَعَانِيَهَا لَيسَتْ مَوجُودَةً بِأَحَدٍ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَلَا يَستَحِقُّهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ وَاعتَرَفَ بِهِ حَقًّا؛ أَفْرَدَهُ بِالعِبَادَةِ كُلِّهَا: الظَّاهِرَةِ، وَالبَاطِنَةِ، فَيَقُومُ بِشَرَائِعِ الإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ: كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّومِ، وَالحَجِّ، وَالجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالمَعرُوفِ، وَالنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِرِّ الوَالِدَينِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَالقِيَامِ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ خَلْقِهِ.

وَيَقُومُ بِأُصُولِ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، للهِ، لَا يَقصِدُ بِهِ غَرَضًا مِنَ الأَغرَاضِ غَيرَ رِضَا رَبِّهِ، وَطَلَبِ ثَوَابِهِ، مُتَابِعًا فِي ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَعَقِيدَتُهُ مَا دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَأعمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ مَا شَرَعَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَأَخْلَاقُهُ وَآدَابُهُ الاقتِدَاءُ بِنَبِيِّهِ ﷺ فِي هَدْيِهِ، وَسَمْتِهِ، وكُلِّ أَحْوَالِهِ». اهـ.

قَالَ الشَّيخُ حَافِظ الحَكْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ:

هَـــذَا وَثَانِـــي نَوعَـــي التَّوحِـــيدِ ... إِفْـــرَادُ رَبِّ العَـــرْشِ عَـــنْ نَدِيـــدِ

أَنْ تَعـــبُدَ اللهَ إِلَهًـــا وَاحِـــدَا ... مُعتَـــرِفًا بِحَقِّـــهِ لَا جَاحِـــدَا

وَهَذَا النَّوعُ مِنَ التَّوحِيدِ -تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ- سُمِّي بِذَلِكَ بِاعتِبَارِ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ اللهِ أَوْ بِاعتِبَارِ المُوَحَّدِ، وَلأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ التَّأَلُّهِ؛ وَهُوَ أَشَدُّ المَحَبَّةِ للهِ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ يَستَلزِمُ إِخْلَاصَ العِبَادَةِ.

وَهُوَ تَوحِيدُ العِبَادَةِ، بِاعتِبَارِ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ المُوَحِّدِ وَهُوَ العَبْدُ، وَلِتَضَمُّنِهِ إِخْلَاصَ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ.

وَهُوَ تَوحِيدُ الإِرَادَةِ، لِتَضَمُّنِهِ الإخلاصَ، وَتَوحِيد الإِرَادَةِ وَالمُرَادِ، فَهُوَ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِرَادَةِ وَجْهِ اللهِ بِالأَعمَالِ.

وَهُوَ تَوحِيدُ القَصْدِ؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ القَصْدِ المُستَلْزِمِ لإِخْلَاصِ العِبَادَةِ للهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ.

وَهُوَ التَّوحِيدُ الطَّلَبِيُّ؛ لِتَضَمُّنِهِ الطَّلَبَ وَالدُّعَاءَ مِنَ العَبْدِ للهِ تَعَالَىٰ.

وَالتَّوحِيدُ الفِعْلِيُّ؛ لِتَضَمُّنِهِ أَفْعَالَ القُلُوبِ وَالجَوَارِحِ، وَتَوحِيدُ العَمَلِ؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ العَمَلِ للهِ وَحْدَهُ.

وَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الخَلْقَ لِعبَادَتِهِ، وَالعِبَادَةُ لَا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسمَّىٰ صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ الطَّهَارَةَ.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ٢٣): «وَاعْلَمْ أَنَّ فَقْرَ الْعَبْدِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، لَيسَ لَهُ [أَيْ: لِفَقْرِ العَبْدِ إِلَىٰ رَبِّهِ] نَظِيرٌ فَيُقَاسُ بِهِ؛ لَكِنْ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ حَاجَةَ الْجَسَدِ إِلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ وَبَيْنَهُمَا فُرُوقٌ كَثِيرَةٌ.

فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْعَبْدِ قَلْبُهُ وَرُوحُهُ، وَهِيَ لَا صَلَاحَ لَهَا إِلَّا بِإِلَهِهَا اللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: فَلَا تَطْمَئِنُّ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بِذِكْرِهِ: وَهِيَ كَادِحَةٌ إِلَيهِ كَدْحًا فَمُلَاقِيَتُهُ وَلَابُدَّ لَهَا مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا صَلَاحَ لَهَا إِلَّا بِلِقَائِهِ.

وَلَوْ حَصَلَ لِلْعَبْدِ لَذَّاتٌ أَوْ سُرُورٌ بِغَيْرِ اللهِ فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ، بَلْ يَنْتَقِلُ مِنْ نَوْعٍ إِلَىٰ نَوْعٍ، وَمِنْ شَخْصٍ إِلَىٰ شَخْصٍ، وَيَتَنَعَّمُ بِهَذَا فِي وَقْتٍ وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَتَارَةً أُخْرَىٰ يَكُون ذَلِكَ الَّذِي تنعَّمَ بِهِ وَالْتَذَّ غَيرَ مُنَعِّمٍ لَهُ وَلَا مُلْتَذٍّ لَهُ، بَلْ قَدْ يُؤْذِيهِ اتِّصَالُهُ بِهِ وَوُجُودُهُ عِنْدَهُ، وَيَضُرُّهُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا إِلَهُهُ فَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي كُلِّ حَالٍ وَكُلِّ وَقْتٍ، وَأَيْنَمَا كَانَ فَهُوَ مَعَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ إِمَامُنَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

وَكَانَ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]». اهـ

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ٢٣): «فَلَيْسَ فِي الْكَائِنَاتِ مَا يَسْكُنُ الْعَبْدُ إِلَيهِ وَيَطْمَئِنُّ بِهِ ، وَيَتَنَعَّمُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيهِ ؛ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ ؛ وَمَنْ عَبَدَ غَيرَ اللهِ -وَإِنْ أَحَبَّهُ وَحَصَلَ لَهُ بِهِ مَوَدَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْعٌ مِنَ اللَّذَّةِ- فَهُوَ مَفْسَدَةٌ لِصَاحِبِهِ أَعْظَمُ مِنْ مَفْسَدَةِ الْتِذَاذِ آكِلِ الطَّعَامِ الْمَسْمُومِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢].

فَإِنَّ قِوَامَهُمَا بِأَنْ تَأَلَّهَ الإِلَهُ الْحَقُّ، فَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيرُ اللهِ لَمْ يَكُنْ إِلَهًا حَقًّا ؛ إِذِ اللهُ لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا مِثْلَ لَهُ ؛ فَكَانَتْ تَفْسُدُ لِانْتِفَاءِ مَا بِهِ صَلَاحُهَا». اهـ

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ٢٦): «وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لِغَيرِ اللهِ فَلَابُدَّ أَنْ يَضُرَّهُ مَحْبُوبُهُ ؛ وَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَذَابِهِ ...

فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَالضَّرَرُ حَاصِلٌ لَهُ إِنْ وُجِدَ ؛ أَوْ فُقِدَ ؛ فَإِنْ فُقِدَ عُذِّبَ بِالْفِرَاقِ وَتَأَلَّمَ ؛ وَإِنْ وُجِدَ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الأَلَمِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ ؛ وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِقْرَاءِ .

وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا دُونَ اللهِ لِغَيْرِ اللهِ فَإِنَّ مَضَرَّتَهُ أَكْثَرُ مِنْ مَنْفَعَتِهِ؛ فَصَارَتِ الْمَخْلُوقَاتُ وَبَالًا عَلَيْهِ، إِلَّا مَا كَانَ للهِ وَفِي اللهِ ؛ فَإِنَّهُ كَمَالٌ وَجَمَالٌ لِلْعَبْدِ». اهـ

وقَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «العُبُودِيَّة» (ص ٦): «العِبَادَةُ للهِ هِيَ الغَايَةُ المَحبُوبَةُ لَهُ وَالمَرضِيَّةُ لَهُ؛ الَّتِي خلقَ الخَلْقَ لَهَا كَمَا قَالَ تَعالَىٰ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَومِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩].

وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ [الأعراف:٦٥]، وَصَالِحٌ [الأعراف:٧٣]، وَشُعَيبٌ [الأعراف: ٨٥]، وَغَيرُهُم لِقَومِهِم...

وَبِذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنبِيَاءَهُ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

وَذَمَّ المُستَكبِرِينَ عَنْهَا بِقَولِهِ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠].

وَنَعَتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ بِالعُبُودِيَّةِ لَهُ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان:٦].

وَقَالَ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]».

وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «مَجمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (٣/ ٣٩٧): «وَعِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ: هِيَ أَصْلُ الدِّينِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ بِهِ الْكُتُبَ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل:٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

كُلُّ هَذَا لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَرَأْسُهُ؛ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلًا إِلَّا بِهِ، وَيَغْفِرُ لِصَاحِبِهِ وَلَا يَغْفِرُ لِمَنْ تَرَكَهُ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وَلِهَذَا كَانَت كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ أَفْضَلَ الْكَلَامِ وَأَعْظَمَهُ، فَأَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَالْإِلَهُ: الَّذِي يَأْلَهُهُ الْقَلْبُ عِبَادَةً لَهُ، وَاسْتِعَانَةً وَرَجَاءً لَهُ، وَخَشْيَةً وَإِجْلَالًا وَإِكْرَامًا». اهـ

وَالتَّوحِيدُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، قَبْلَ فَرضِ الصَّلَاةِ وَالصَّومِ، هُوَ تَوحِيدُ عِبَادَتِكَ أَنْتَ؛ فَلَا تَدْعُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

تَوحِيدُ الإِلَهِيَّةِ المَبنِيُّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ التَّأَلُّهِ للهِ تَعَالَىٰ؛ مِنَ المَحبَّةِ، وَالخَوفِ وَالرَّجَاءِ، وَالتَّوكُّلِ، وَالرَّغبَةِ، وَالرَّهبَةِ، وَالدُّعَاءِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَيَنْبَنِي عَلَىٰ ذَلِكَ إِخلَاصُ العِبَادَاتِ كُلِّهَا، ظَاهِرِهَا وبَاطِنِهَا للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا يَجْعَلُ فِيهَا شَيئًا لِغَيرِهِ، لَا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيرِهِمَا.

وَهَذَا التَّوحِيدُ هُوَ الَّذِي تَضَمَّنَهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة:١٢٩].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٨].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

وَهَذَا التَّوحِيدُ هُوَ أَوَّلُ الدِّينِ وَآخِرُهُ، وَبَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ، وَهُوَ أَوَّلُ دَعوَةِ الرُّسُلِ وَآخِرُهَا، وَهُوَ مَعنَىٰ قَولِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَإِنَّ الإِلَهَ هُوَ المَألُوهُ المَعبُودُ بِالمَحَبَّةِ، وَالخَشيَةِ، وَالإِجْلَالِ، وَالتَّعظِيمِ، وَجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، وَلأَجْلِ هَذَا التَّوحِيدِ خُلِقَتِ الخَلِيقَةُ، وَأَرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتِ الكُتُبُ، وَبِهِ افترَقَ النَّاسُ إِلَىٰ مُؤمِنِينَ وَكُفَّارٍ، وَسُعَدَاءَ؛ أَهْلِ الجَنَّةِ،

وَأشقِيَاءَ؛ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]. فَهَذَا أَوَّلُ أَمْرٍ فِي القُرآنِ.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٢٣]. فَهَذَا دَعْوَةُ أَوَّلِ رَسُولٍ بَعْدَ حُدُوثِ الشِّركِ.

وَقَالَ هُودٌ لِقَومِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقَالَ صَالِحٌ لِقَومِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقَالَ شُعَيبٌ لِقَومِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

وقَالَ إبرَاهِيمُ عليه السلام لِقَومِهِ: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٩].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقَالَ أَبُو سُفيَانَ لِهِرَقْلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَقُولُ لَكُمْ؟

قَالَ: يَقُولُ: «اعبُدُوا اللهَ وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَاترُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُم»[(١)].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَىٰ أَنْ يُوحِّدُوا اللهَ»[(٣)].

وَهَذَا التَّوحِيدُ هُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِ، لَا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَىٰ النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ فِي اللهِ، كَمَا هِيَ أَقْوَالُ مَنْ لَمْ يَدرِ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِنْ مَعَانِي الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ.

فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ، وَأَوَّلُ مَا يُدْخَلُ بِهِ فِي الإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يُخرَجُ بِهِ مِنَ الدُّنيَا، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٤)]. حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (١٣٣١)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٦٩٣٧).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٥، ٢٤٧)، وأبو داود في سننه (رقم ٣١١٦)، والبزار في مسنده (رقم ٢٦٢٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١١٢ رقم ٢٢١)، وفي الدعاء (رقم ١٤٧١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٣، ٦٧٨) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣٦-٣٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٣٣٥)، والرافعي في أخبار قزوين (٢/ ٣٦)، وغيرهم من طريق عبد الحميد بن جعفر الأنصاري عن صالح بن أبي عريب عن كثير بن مرة عن معاذ رضي الله عنه به مرفوعًا.

=

وَقَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَقَدْ أَفْصَحَ القُرآنُ عَنْ هَذَا النَّوعِ كُلَّ الإِفْصَاحِ، وَأَبْدَأَ فِيهِ وَأَعَادَ، وَضَرَبَ لِذَلِكَ الأَمْثَالَ، بِحَيثُ إِنَّ كُلَّ سُورَةٍ فِي القُرآنِ فَفِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ هَذَا التَّوحِيدِ.

وَيُسمَّىٰ هَذَا النَّوعُ:

- **تَوحِيدَ الإِلَهِيَّةِ**؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ التَّأَلُّهِ، وَهُوَ أَشَدُّ المَحَبَّةِ للهِ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ يَستَلزِمُ إِخْلَاصَ العِبَادَةِ.
- **وَتَوحِيدَ العِبَادَةِ**؛ لِذَلِكَ.
- **وَتَوحِيدَ الإِرَادَةِ**؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِرَادَةِ وَجْهِ اللهِ بِالأَعمَالِ.
- **وَتَوحِيدَ القَصْدِ**؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ القَصْدِ المُستَلزِمِ لإِخْلَاصِ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ.
- **وَتَوحِيدَ العَمَلِ**؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ العَمَلِ للهِ وَحْدَهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

=

وإسناده حسن، وَهُوَ حديث صحيح بشواهده.

وصححه الشيخ سليمان، وحسنه الشيخ الألباني فِي إرواء الغليل (رقم ٦٨٧).

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وقد صح عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾.

إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ الآية.

إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ الآية.

---

(١) عن الحارث الأشعري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات، أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها...

أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا بِهِ شيئًا، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترىٰ عبدًا من خالص ماله بذهب أو وَرِقٍ، فقال: هذه داري، وَهَذَا عملي، فاعمل، وأدِّ إليّ، فَكَانَ يعمل ويؤدي إلىٰ غير سيده!

فأيكم يرضىٰ أن يَكُون عبده كذلك؟....». الحديث.

رواه الإمام أحمد فِي المسند (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٥/ ١٤٨ رقم ٢٨٦٣)، وابن خزيمة فِي صحيحه (رقم ٩٣٠)، وابن حبان فِي صحيحه (رقم ٦٢٣٣)، والحاكم فِي المستدرك (١/ ٥٨٢)، وغيرهم، وإسناده صحيح.

وصححه الحاكم عَلَىٰ شرط الشيخين، وقال فِي موضع آخر (١/ ٣٦٢): «علىٰ شرط الأئمة صحيح محفوظ».

إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ.

فَكُلُّ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الدُّعَاءِ إِلَىٰ هَذَا التَّوحِيدِ، وَالأمْرِ بِهِ، وَالجَوَابِ عَنِ الشُّبهَاتِ وَالمُعَارَضَاتِ، وَذِكْرِ مَا أعَدَّ اللهُ لأهْلِهِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ، وَمَا أعَدَّ لِمَنْ خَالَفَهُ مِنَ العَذَابِ الأليمِ.

وَكُلُّ سُوَرِ القُرآنِ، بَلْ كُلُّ آيَةٍ فِي القُرْآنِ فَهِيَ دَاعِيَةٌ إِلَىٰ هَذَا التَّوحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، مُتَضَمِّنَةٌ لَهُ؛ لأنَّ القُرآنَ:

إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَهُوَ تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوحِيدُ الصِّفَاتِ فَذَاكَ مُستَلزِمٌ لِهَذَا، مُتَضَمِّنٌ لَهُ.

وَإِمَّا دُعَاءٌ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، أَوْ أَمْرٌ بِأنوَاعٍ مِنَ العِبَادَاتِ، وَنَهيٌ عَنِ المُخَالَفَاتِ، فَهَذَا هُوَ تَوحِيدُ الإلَهيَّةِ وَالعِبَادَةِ، وَهُوَ مُستَلزِمٌ لِلنَّوعَينِ الأوَّلَينِ، مُتَضَمِّنٌ لَهُمَا أيضًا.

وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لأهْلِ تَوحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنيَا، وَمَا يُكرِمُهُم بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوحِيدِهِ.

وَإِمَّا خَبرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرك، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحُلُّ بِهِم فِي العُقْبَىٰ مِنَ الوَبَالِ، فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكمِ التَّوحِيدِ(١).

وَهَذَا التَّوحِيدُ هُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الإسْلَامِ الَّذِي لَا يَقبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَومِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيتِ**». رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ(٢).

فَأَخْبَرَ أَنَّ دِينَ الإِسْلَامِ مَبنِيٌّ عَلَىٰ هَذِهِ الأَرْكَانِ الخَمْسَةِ وَهِيَ أَعْمَالٌ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بِفِعْلِ المَأمُورِ، وَتَرْكِ المَحْظُورِ، وَالإِخْلَاصِ فِي ذَلِكَ للهِ.

وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ جَمِيعَ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، فَيَجِبُ إِخْلَاصُهَا للهِ تَعَالَىٰ، فَمَنْ أَشْرَكَ بَينَ اللهِ تَعَالَىٰ وَبينَ غَيرِهِ فِي شَيءٍ فَلَيسَ بِمُسْلِمٍ.

وَقَدْ ذَكرَ الشَّيخُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ طَرَفًا مِنْ فَضَائِلِ التَّوحِيدِ فِي «القَولِ السَّدِيدِ» (ص١٦) فَقَالَ: «التَّوحِيدُ هُوَ الفَرْضُ الأَعْظَمُ عَلَىٰ جَمِيعِ العَبِيدِ، وَلَيسَ شَيءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ لَهُ مِنَ الآثَارِ الحَسَنَةِ وَالفَضَائِلِ المُتَنَوِّعَةِ مِثلَ التَّوحِيدِ، فَإِنَّ خَيرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا التَّوحِيدِ وَفَضَائِلِهِ، وَمَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ وَتَكفِيرُهَا مِنْ بَعضِ فَضَائِلِهِ وَآثَارِهِ.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩- ٤٥٠).

(٢) رواه البخاري فِي صحيحه (رقم ٨)، ومسلم (رقم ١٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وَمِنْ فَضَائِلِهِ: أَنَّهُ السَّبَبُ الأَعْظَمُ لِتَفرِيجِ كُرُبَاتِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَدَفْعِ عُقُوبَتِهِمَا.

وَمِنْ أَجَلِّ فَوائِدِهِ: أَنَّهُ يَمْنَعُ الخُلُودَ فِي النَّارِ، إذَا كَانَ فِي القَلْبِ مِنْهُ أَدْنَىٰ مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ.

وَأَنَّهُ إذَا كَمُلَ فِي القَلْبِ يَمنَعُ دُخُولَ النَّارِ بِالكُلِّيَّةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ الهُدَىٰ الكَامِلُ، وَالأَمْنُ التَّامُّ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ السَّبَبُ الوَحِيدُ لِنَيلِ رِضَا اللهِ وَثَوَابِهِ، وَأَنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِهِ: أَنَّ جَمِيعَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ مُتَوَقِّفَةٌ فِي قَبُولِهَا، وَفِي كَمَالِهَا، وَفِي تَرَتُّبِ الثَّوَابِ عَلَيهَا عَلَىٰ التَّوحِيدِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ التَّوحِيدُ والإِخْلَاصُ للهِ كَمُلَتْ هَذِهِ الأُمُورُ وَتَمَّتْ.

وَمِنْ فَضَائِلِهِ: أَنَّهُ يُسَهِّلُ عَلَىٰ العَبْدِ فِعْلَ الخَيرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَيُسَلِّيه عَنِ المُصِيبَاتِ.

فَالمُخلِصُ للهِ فِي إيمَانِهِ وَتَوحِيدِهِ تَخِفُّ عَلَيهِ الطَّاعَاتُ لِمَا يَرجُو مِنْ ثَوَابِ رَبِّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَيُهَوِّنُ عَلَيهِ تَركَ مَا تَهْوَاهُ النَّفْسُ مِنَ المَعَاصِي لِمَا يَخشَىٰ مِنْ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ التَّوحِيدَ إذَا كَمُلَ فِي القَلْبِ حَبَّبَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ

فِي قَلْبِهِ، وَكَرَّهَ إِلَيهِ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ وَجَعَلَهُ مِنَ الرَّاشِدِينَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُخَفِّفُ عَنِ العَبْدِ المَكَارِهَ، وَيُهَوِّنُ عَلَيهِ الآلَامَ، فَبِحَسَبِ تَكمِيلِ العَبْدِ لِلتَّوحِيدِ وَالإيمَانِ يَتَلَقَّىٰ المَكَارِهَ وَالآلَامَ بِقَلْبٍ مُنْشَرِحٍ، وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وَتَسلِيمٍ وَرِضًا بِأَقْدَارِ اللهِ المُؤلِمَةِ.

وَمِنْ أعظَمِ فَضَائِلِهِ: أَنَّهُ يُحَرِّرُ العَبْدَ مِنْ رِقِّ المَخْلُوقِينَ، وَالتَّعَلُّقِ بِهِم، وَخَوفِهِم وَرَجَائِهِم، وَالعَمَلِ لأَجْلِهِم، وَهَذَا هُوَ العِزُّ الحَقِيقِيُّ، وَالشَّرَفُ العَالِي.

وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مُتَأَلِّهًا مُتَعَبِّدًا للهِ، لَا يَرجُو سِوَاهُ، وَلَا يَخشَىٰ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يُنِيبُ إِلَّا إِلَيهِ، وَبِذَلِكَ يَتِمُّ فَلَاحُهُ وَيَتَحَقَّقُ نَجَاحُهُ.

وَمِنْ فَضَائِلِهِ الَّتِي لَا يَلْحَقُهُ فِيهَا شَيءٌ: أَنَّ التَّوحِيدَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ فِي القَلْبِ، وَتَحَقَّقَ تَحَقُّقًا كَامِلًا بِالإِخْلَاصِ التَّامِّ؛ فَإِنَّهُ يُصَيِّرُ القَلِيلَ مِنْ عَمَلِهِ كَثِيرًا وَتُضَاعَفُ أَعْمَالُهُ وَأَقْوَالُهُ بِلَا حَصْرٍ وَلَا حِسَابٍ.

وَمِنْ فَضَائِلِ التَّوحِيدِ: أَنَّ اللهَ تَكَفَّلَ لأَهْلِهِ بِالفَتْحِ وَالنَّصْرِ فِي الدُّنيَا، وَالعِزِّ وَالشَّرَفِ وَحُصُولِ الهِدَايَةِ، وَالتَّيسِيرِ لِليُسرَىٰ، وَإِصْلَاحِ الأَحْوَالِ، وَالتَّسْدِيدِ فِي الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ المُوَحِّدِينَ أَهْلِ الإِيمَانِ شُرورَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَيَمُنُّ عَلَيهِم بِالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالطُّمَأنِينَةِ إِلَيهِ، وَالطُّمَأنِينَةِ بِذِكْرِهِ.

وَشَوَاهِدُ هَذِهِ الجُمَلِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ». اهـ

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «القَوَاعِدِ الحِسَانِ» (ص١٩٢): «أَعْظَمُ الأُصُولِ الَّتِي يُقَرِّرُهَا القُرْآنُ وَيُبرهِنُ عَلَيهَا: تَوحِيدُ الأُلوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ.

وَهَذَا الأَصْلُ العَظِيمُ أَعْظَمُ الأَصُولِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَأَكْمَلُهَا، وَأَفْضَلُهَا، وَأَوجَبُهَا، وَأَلزَمُهَا لِصَلَاحِ الإِنسَانِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللهُ الجِنَّ وَالإِنْسَ لأَجْلِهِ وَخَلقَ المَخلُوقَاتِ، وَشَرَّعَ الشَّرَائِعَ لِقِيَامِهِ، وَبِوجُودِهِ يَكُونُ الصَّلَاحُ، وَبِفَقدِهِ يَكُونُ الشَّرُّ وَالفَسَادُ.

وَجَمِيعُ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ إِمَّا أَمْرٌ بِهِ، أَوْ بِحَقٍّ مِنْ حُقُوقِهِ، أَوْ نَهيٌ عَنْ ضِدِّهِ، أَوْ إِقَامَةُ حُجَّةٍ عَلَيهِ، أَوْ بَيَانُ جَزَاءِ أَهْلِهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، أَوْ بَيَانُ الفَرْقِ بَينَهُم وَبينَ المُشْرِكِينَ.

وَيُقَالَ لَهُ: تَوحِيدُ الإِلَهِيَّةِ؛ فَإِنَّ الإِلَهِيَّةَ وَصْفُهُ تَعَالَىٰ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُؤمِنَ بِهِ كُلُّ بَنِي آدَمَ، وَيُوقِنُوا أَنَّهُ الوَصْفُ المُلَازِمُ لَهُ سُبْحَانَهُ، الدَّالُّ عَلَيهَا -أَي: عَلَىٰ الأُلُوهِيَّةِ- الاسْمُ العَظِيمُ وَهُوَ: اللهُ، وَهُوَ مُستَلزِمٌ جَمِيعَ صِفَاتِ الكَمَالِ.

وَيُقَالَ لَهُ: تَوحِيدُ العِبَادَةِ؛ بِاعتِبَارِ وجُوبِ مُلَازَمَةِ وَصْفِ العُبُودِيَّةِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا لِلعَبْدِ بِصِفَتِهِ المُلَازِمَةِ لَهُ مِنْ مُقتَضَيَاتِ العُبُودِيَّةِ لِلرُّبُوبِيَّةِ، بِإِخْلَاصِ العِبَادَةِ للهِ تَعَالَىٰ.

وَتَحقِيقُهَا فِي العَبْدِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِرَبِّهِ، مُخْلِصًا لَهُ جَمِيعَ عِبَادَاتِهِ، مُحَقِّقًا ذَلِكَ بِتَركِ الشِّركِ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ، وَبِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَالبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ، وَالحُبِّ فِي اللهِ، وَالبُغضِ فِي اللهِ». اهـ

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ حَافِظ الحَكْمِي رَحِمَهُ اللَّهُ أهمِّيَّةَ التَّوحِيدِ فَقَالَ:

وَهْــوَ الَّــذِي بِــهِ الإِلَــهُ أَرْسَــلَا ... رُسْــلَهُ يَدْعُــونَ إِلَــيهِ أَوَّلَا

وَأَنْــزَلَ الكِــتَابَ وَالتِّبْــيَانَا ... مِــنْ أَجْلِــهِ وَفَــرَّقَ الفُــرْقَانَا

وَكَلَّــفَ اللهُ الرَّسُــولَ المُجتَبَــىٰ ... قِــتَالَ مَــنْ عَــنْهُ تَولَّــىٰ وَأَبَــىٰ

حَتَّــىٰ يَكُــونَ الــدِّينُ خَالِــصًا لَــهُ ... سِــرًّا وَجَهْــرًا دِقُّــهُ وَجِلُّــهُ

وَهَكَــذَا أُمَّــتُهُ قَــدْ كُلِّفُــوا ... بِــذَا وَفِــي نَــصِّ الكِــتَابِ وُصِــفُوا

وَتَوحِيدُ العِبَادِ رَبَّهُم هُوَ الأَمْرُ الَّذِي خَلَقَهُم اللهُ لَهُ؛ وَأَخَذَ عَلَيهِمُ المِيثَاقَ بِهِ، وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ إِلَيهِم، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ عَلَيهِم، وَلِأَجْلِهِ خُلِقَتِ الدُّنيَا وَالآخِرَةُ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَبِهِ حَقَّتِ الحَاقَّةُ، وَوَقَعَتِ الوَاقِعَةُ، وَفِي شَأنِهِ تُنْصَبُ المَوَازِينُ وَتَتَطَايَرُ الصُّحُفُ، وَفِيهِ تَكُونُ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ، وَعَلَىٰ حَسَبِهِ تُقَسَّمُ الأَنْوَارُ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالطَّرِيقُ الفِطْرِيُّ لإثبَاتِ تَوحِيدِ الأُلوهِيَّةِ: الاستِدْلَالُ عَلَيهِ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ فَإِنَّ قَلْبَ الإنْسَانِ يَتعَلَّقُ أوَّلًا بِمَصدَرِ خَلْقِهِ، وَمَنْشَأِ نَفْعِهِ وَضُرِّهِ، ثُمَّ يَنتَقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الوَسَائِلِ الَّتِي تُقَرِّبُهُ إِلَيهِ، وَترْضِيهِ عَنْهُ، وَتُوثِّقُ الصِّلَاتِ بَينَهُ وَبَينَهُ، فتوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ بَابٌ لِتَوحِيدِ الإلَهِيَّةِ.

مِنْ أجْلِ ذَلِكَ احْتَجَّ اللهُ بِهِ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ وَقَرَّرَهُم، وَأرْشَدَ رَسُولَه إِلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأمَرَهُ أَنْ يَدعُوَ بِهَا قَومَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فَقَدِ استَدَلَّ بِتفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَكَمَالِ التَّصَرُّفِ، وَحِمَايَتِهِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَحمِيَهُ، عَلَىٰ استِحقَاقِهِ وَحْدَهُ لِلعِبَادَةِ، وَوجُوبِ إفْرَادِهِ بِالإلَهِيَّةِ».



الشَّرْحُ

وَمَعنَىٰ الآيَاتِ:

قُلْ لَهُم: لِمَنْ هَذِهِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إنْ كَانَ لَدَيكُم عِلْمٌ؟

وَسَيَعْتَرِفُونَ حَتْمًا بِأَنَّهَا للهِ، هُوَ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا.

فَقُلْ لَهُم: أَلَا يَكُونُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ تَذَكُّرٌ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ البَعْثِ وَالنُّشُورِ؟!

قل: مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبعِ وَرَبُّ العَرشِ العَظِيمِ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ المَخْلُوقَاتِ وَأَعلَاهَا؟

سَيَقُولُونَ حَتْمًا: هُوَ اللهُ.

فَقُلْ لَهُم: أَفَلَا تَخَافُونَ عَذَابَهُ إِذَا عَبَدْتُم غَيرَهُ؟!

قُلْ: مَنْ مَالِكُ كُلِّ شَيءٍ، وَمَنْ بِيَدِهِ خَزَائِنُ كُلِّ شَيءٍ، وَمَنْ يُجِيرُ مَنِ استَجَارَ بِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُجِيرَ وَيَحمِيَ مَن أَرَادَ اللهُ إِهْلَاكَهُ، وَلَا يَدْفَعُ الشَّرَّ الَّذِي قُدِّرَ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟!

سَيُجِيبُونَ: بِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ.

قُلْ لَهُمْ: كَيفَ تَذْهَبُ عُقُولُكُم، وَتُخدَعُونَ، وَتُصرَفُونَ عَنْ تَوحِيدِ اللهِ وَطَاعَتِهِ، وَتَصدِيقِ أَمْرِ البَعْثِ وَالنُّشُورِ؟!

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾

[المؤمنون: ٨٤-٨٩].

أي: قُلْ لِهَؤلَاءِ المُكَذِّبينَ بِالبَعثِ، وَالعَادِلِينَ بِاللهِ غَيرَهُ؛ مُحتَجًّا عَلَيهِم بِمَا أَثبَتُوهُ وَأَقَرُّوا بِهِ مِنْ تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَانفِرَادِ اللهِ بِهَا عَلَىٰ مَا أَنْكَروهُ مِنْ تَوحِيدِ الإلَهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ، وَبِمَا أَثْبَتُوهُ مِنْ خَلْقِ المَخْلُوقَاتِ العَظِيمَةِ عَلَىٰ مَا أَنْكَروهُ مِنْ إعَادَةِ المَوتَىٰ الَّذِي هُوَ أَسْهَلُ مِنْ ذَلِكَ: ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾.

أي: مَنْ هُوَ الخَالِقُ لِلأرْضِ وَمَنْ عَلَيهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَجِبَالٍ، المَالِكُ لِذَلِكَ، المُدَبِّرُ لَهُ؛ فَإنَّكَ إذَا سَأَلتَهُم عَنْ ذَلِكَ؛ لَابُدَّ أَنْ يَقُولُوا: اللهُ وَحْدَهُ.

فَقُلْ لَهُم إذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفَلَا تَرجِعُونَ إلَىٰ مَا ذَكَّرَكُمُ اللهُ بِهِ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَكُم مُستَقِرٌّ فِي فِطَرِكُمْ قَدْ يُغَيِّبُهُ الإعْرَاضُ فِي بَعْضِ الأوْقَاتِ، وَالحَقِيقَةُ أَنَّكُمْ إنْ رَجَعْتُم إلَىٰ ذَاكِرَتِكُمْ بِمُجَرَّدِ التَّأَمُّلِ؛ عَلِمتُم أَنَّ مَالِكَ ذَلِكَ هُوَ المَعبُودُ وَحْدَهُ، وَأَنَّ إلَهِيَّةَ مَنْ هُوَ مَمْلُوكٌ أَبْطَلُ البَاطِلِ.

ثُمَّ انتَقَلَ إلَىٰ مَا هُوَ أعظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ﴾ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّيِّرَاتِ، وَالكَوَاكِبِ السَّيَّارَاتِ، وَالثَّوَابِتِ ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾. الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ المَخْلُوقَاتِ وَأوسَعُهَا وَأَعظَمُهَا، فَمَنِ الَّذِي خَلَقَ ذَلِكَ وَدَبَّرَهُ، وَصَرَّفَهُ بِأَنْوَاعِ التَّدبِيرِ؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ .

أي: سَيُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ رَبُّ ذَلِكَ كُلِّهِ.

قُلْ لَهُم حِينَ يُقِرُّونَ بِذَلِكَ:﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾. عِبَادَةَ المَخْلُوقَاتِ العَاجِزَةِ، وَتَتَّقُونَ الرَّبَّ العَظِيمَ، كَامِلَ القُدْرَةِ، عَظِيمَ السُّلطَانِ؟!

وَفِي هَذَا مِنْ لُطْفِ الخِطَابِ، مِنْ قَولِهِ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ وَالوَعْظُ بِأَدَاةِ العَرْضِ الجَاذِبَةِ لِلقُلُوبِ، مَا لَا يَخْفَىٰ.

ثُمَّ انتَقَلَ إِلَىٰ إِقْرَارِهِمْ بِمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فَقَالَ:﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

أَي: مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، مِنَ العَالَمِ العُلْوِيِّ، وَالعَالَمِ السُّفلِيِّ، مَا نُبْصِرُهُ، وَمَا لَا نُبصِرُهُ؟

وَالمَلَكُوتُ: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ بِمَعنَىٰ المُلكِ.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عِبَادَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ المَكَارِهَ، وَيَحفَظُهُم مِمَّا يَضُرُّهُمْ.

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾. أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُجِيرَ عَلَىٰ اللهِ، وَلَا يَدْفَعَ الشَّرَّ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ.

بَلْ وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أَي: سَيُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ المَالِكُ لِكُلِّ شَيءٍ، المُجِيرُ؛ الَّذِي لَا يُجَارُ عَلَيهِ.

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ حِينَ يُقِرُّونَ بِذَلِكَ، مُلزِمًا لَهُمْ:

﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾. أي: فَأينَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ؛ حَيثُ عَبَدْتُمْ مَنْ عَلِمتُم أَنَّهُمْ لَا مُلْكَ لَهُم، وَلَا قِسْطَ مِنَ المُلْكِ، وَأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ مِنْ جَمِيعِ الوجُوهِ، وَتَرَكْتُمُ الإخْلَاصَ لِلمَالِكِ العَظِيمِ القَادِرِ المُدَبِّرِ لِجَمِيعِ الأمُورِ؟ فَالعُقُولُ الَّتِي دَلَّتْكُمْ عَلَىٰ هَذَا، لَا تَكُونُ إِلَّا مَسْحُورَةً، وَهِيَ -بِلَا شَكٍّ- قَدْ سَحَرَهَا الشَّيطَانُ، بِمَا زَيَّنَ لَهُمْ، وَحَسَّنَ لَهُمْ، وَقَلَبَ الحَقَائِقَ لَهُمْ، فَسَحَرَ عُقُولَهُم، كَمَا سَحَرَتِ السَّحَرَةُ أعيُنَ النَّاسِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ تعالَىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١].

فَأخْبَرَ بِأَنَّ البَعثَ آتٍ لَا مَحَالَةَ، وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَمَّا زَعَمَهُ المُشرِكُونَ مِنَ الشُّرَكَاءِ، ثُمَّ استَدَلَّ سُبحَانَهُ عَلَىٰ قُدرَتِهِ عَلَىٰ البَعْثِ، وَتَفَرُّدِهِ بِاستِحقَاقِهِ الإلَهِيَّةَ بِآيَاتِهِ الكَونِيَّةِ، فقَالَ تَعالَىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

إِلَىٰ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٤-٢٢]».



الشَّرْحُ

وَمَعْنَىٰ الآيَاتِ التِي ذَكَرَهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن سُورَةِ النَّحْلِ:

(١) قَرُبَ قِيَامُ السَّاعَةِ، وَقَضَاءُ اللهِ بِعذَابِكُم -أَيُّهَا الكُفَّارُ- فَلَا تَستَعجِلُوا العَذَابَ استِهزَاءً بِوَعِيدِ الرَّسُولِ لَكُمْ، تَنَزَّهَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الشِّركِ وَالشُّرَكَاءِ.

(٤-٥) خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَإذَا بِهِ يَقْوَىٰ وَيَغْتَرُّ، فَيُصبِحُ شَدِيدَ

الخُصُومَةِ وَالجِدَالِ لِرَبِّهِ فِي إِنْكَارِ البَعْثِ، وَغَيرِ ذَلِكَ، كَقَولِهِ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]. وَنَسِيَ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُ مِنَ العَدَمِ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ خَلْقَ الأَنْعَامِ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ المَصَالِحِ، وَالمَنَافِعِ، وَذَكَرَ الخَيلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ الَّتِي جَعَلَهَا رَكُوبَةً، وَجَمَالًا، وَمَنْظَرًا حَسَنًا.

وَذَكَرَ تَعَالَىٰ مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مِنْ مَطَرٍ جَعَلَ مِنْهُ مَاءً يَشْرَبُهُ عِبَادُهُ، وَأَخْرَجَ بِهِ شَجَرًا يَرْعَوْنَ فِيهِ دَوَابَّهُمْ، وَيَعُودُ عَلَيهِم دَرُّهَا وَنَفْعُهَا.

وَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَخْرَجَ بِذَلِكَ المَاءِ الوَاحِدِ الزُّروعَ المُختَلِفَةَ، فَأَخْرَجَ بِهِ الزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ، وَالأَعنَابَ، وَأَخْرَجَ بِهِ كُلَّ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ وَالفَوَاكِهِ.

وَسَخَّرَ اللَّيلَ لِلرَّاحَةِ، وَالنَّهَارَ لِلمَعَاشِ، وَسَخَّرَ لِعِبَادِهِ الشَّمسَ ضِيَاءً، وَالقَمَرَ نُورًا، وَلِمَعرِفَةِ السِّنِينَ وَالحِسَابِ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ المَنَافِعِ.

وَجَعَلَ النُّجُومَ فِي السَّمَاءِ مُذَلَّلاتٍ بِأَمْرِ اللهِ لِمَعرِفَةِ الأَوْقَاتِ، وَنُضْجِ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ، وَالاهتِدَاءِ بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ.

وَسَخَّرَ لِلنَّاسِ مَا خَلَقَهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ؛ مِنَ الدَّوَابِّ وَالثِّمَارِ وَالمَعَادِنِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِمَّا تَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُ وَمَنَافِعُهُ.

وَذَكَرَ تَعَالَىٰ مَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ البَحْرِ لِيَأْكُلُوا مِمَّا يَصْطَادُونَ مِنْ سَمَكِهِ لَحْمًا طَرِيًّا، وَيَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ زِينَةً يَلبَسُونَهَا كَاللُّؤلُؤِ وَالمرجَانِ، وَإِنَّهُم لَيَرَونَ فِيهِ السُّفُنَ العَظِيمَةَ تَشُقُّ وَجْهَ المَاءِ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ، وَيَركَبُونَهَا، لِيَطْلُبوا رِزْقَ اللهِ بِالتِّجَارَةِ وَالرِّبحِ فِيهَا.

وَأَرْسَىٰ فِي الأَرْضِ جِبَالًا تُثَبِّتُهَا حَتَّىٰ لَا تَمِيلَ بِمَنْ عَلَيهَا، وَجَعْلَ فِيهَا أَنْهَارًا لِيَشرَبُوا مِنْهَا، وَجَعَلَ فِيهَا طُرُقًا لِيَهتَدُوا بِهَا فِي الوصُولِ إِلَىٰ مَقَاصِدِهِمْ.

وَجَعَلَ فِي الأَرْضِ مَعَالِمَ يَستَدِلُّونَ بِهَا عَلَىٰ الطُّرُقِ نَهارًا، كَمَا جَعَلَ النُّجُومَ لِلاهتِدَاءِ بِهَا لَيلًا.

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَا خلَقَ مِنْ آيَاتِهِ وَنِعَمِهِ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، جَعَلَ ذَلِكَ بَابًا لِبيَانِ أُلُوهِيَّتِهِ، وَاستِحقَاقِهِ لِلعِبَادَةِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

(١٧-٢٢) أَتَجْعَلُونَ اللهَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ هَذِهِ الأَشيَاء وَغَيرَهَا، فِي استِحقَاقِ العِبَادَةِ كَالآلِهَةِ المَزْعُومَةِ الَّتِي لَا تَخلُقُ شَيئًا؟!

أَفَلَا تَتَذَكَّرونَ عَظَمَةَ اللهِ، فَتُفرِدُوهُ بِالعِبَادَةِ؟

وَإِنْ تُحَاوِلُوا حَصْرَ نِعَمِ اللهِ عَلَيكُمْ لَا تَقْوا بِحصرِهَا، لِكَثْرَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا.

وَاللهُ سُبحَانَهُ يَعْلَمُ كُلَّ أَعمَالِكُمْ، سَواءٌ مَا تُخفُونَهُ مِنهَا وَمَا تُعلِنُونَ.

وَالآلِهَةُ الَّتِي يَعبُدُهَا المُشرِكُونَ لَا تَخْلُقُ شَيئًا وَإِنْ صَغُرَ، فَهِيَ مَخْلُوقَاتٌ صَنَعَهَا الكُفَّارُ بِأَيدِيهِم، فَكَيفَ يَعبُدُونَهَا؟!

هُمْ جَمِيعًا جَمَادَاتٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا، وَلَا تَشْعُرُ بِالوَقْتِ الذِي يَبْعَثُ اللهُ فِيهِ عَابِدِيهَا، وَهِيَ مَعَهُمْ لِيُلْقَىٰ بِهِم جَمِيعًا فِي النَّارِ يومَ القِيَامَةِ.

إِلَهُكُمُ المُستَحِقُّ لِلعِبَادَةِ وَحْدَهُ هُوَ اللهُ الإِلَهُ الوَاحِدُ، فَالَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بِالبَعْثِ قُلُوبُهُمْ جَاحِدَةٌ وَحْدَانِيَّتَهُ سُبحَانَهُ؛ لِعَدَمِ خَوفِهِم مِنْ عِقَابِهِ، فَهُمْ مُتَكَبِّرونَ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ، وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

فَجَعَلَ سُبحَانَهُ تَفَرُّدَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ؛ خَلْقًا لِلحَاضِرِينَ وَالسَّابِقِينَ، وَتَمهِيدَهُ الأَرضَ وَرَفْعَهُ السَّمَاءَ بِغَيرِ عَمَدٍ يَرَونَهَا، وَإِنْزَالَهُ الأَمْطَارَ لِيُحيِيَ بِهَا الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا، وَيُخرِجَ بِهَا رِزْقًا لِعِبَادِهِ بَابًا إِلَىٰ تَوحِيدِ الإِلَهِيَّةِ، وَآيَةً بَيِّنَةً عَلَىٰ استِحْقَاقِهِ وَحْدَهُ العِبَادَةَ».

الشَّرْحُ

وَفِي الآيَتَينِ نِدَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِلبَشَرِ جَمِيعًا: أَنِ اعبُدُوا اللهَ الَّذِي رَبَّاكُمْ بِنِعَمِهِ وَخَافُوهُ، وَلَا تُخَالِفُوا دِينَهُ، فَقَدْ أَوْجَدَكُمْ مِنَ العَدَمِ، وَأَوجَدَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ رَجَاءَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ المُتَّقِينَ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.

وَرَبُّكُمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْهُلَ حَيَاتُكُم عَلَيهَا، وَالسَّماءَ مُحْكَمَةَ البِنَاءِ، وَأَنْزَلَ المَطَرَ مِنَ السَّحَابِ فَأَخْرَجَ لَكُمْ بِهِ مِنَ أَلْوَانِ الثَّمَرَاتِ وَأَنْوَاعِ النَّبَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا للهِ نُظَرَاءَ فِي العِبَادَةِ، وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ تَفَرُّدَهُ بِالخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَاستِحْقَاقَهُ العُبُودِيَّةَ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقَالَ تعالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣١-٣٥].

فَقَرَّرَهُمْ سُبحَانَهُ بِمَا لَا يَسَعُهُم إنْكَارُهُ، وَلَا مَخْلَصَ لَهُم مِنَ الاعتِرَافِ بِهِ مِنْ تَفَرُّدِهِ بِالرِّزْقِ، وَالمُلْكِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالإحْيَاءِ، وَالإمَاتَةِ، وَالبَدْءِ، وَالإعَادَةِ، وَالإرْشَادِ، وَالهِدَايَةِ لِيُقِيمَ بِهِ عَلَيهِمُ الحُجَّةَ فِي وجُوبِ تَقْوَاهُ دُونَ سِوَاهُ.

وَيُنْكِرَ عَلَيهِم حُكمَهُم الخَاطِئَ، وَشِركَهُم الفَاضِحَ، وَعُكُوفَهُم عَلَىٰ مَنْ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

قَالَ تعالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا

مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل:٥٩-٦٤].

فَأَنْكَرَ سُبحَانَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَنْ خَلَقَ ودَبَّرَ، أَوْ صَرَّفَ وَقَدَّرَ، أَوْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، وَيَكشِفُ السُّوءَ، أَوْ يُوَلِّي أَوْ يَعزِلُ، وَيَنصُرُ وَيَخذُلُ، أَوْ يُنْقِذُ مِنَ الحَيرَةِ، وَيَهْدِي مِنَ الضَّلَالَةِ، أو يُبدِئُ وَيُعِيدُ، وَيَبسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقدِرُ؛ إِلَىٰ غير ذَلِكَ مِمَّا استَأْثَرَ اللهُ بِهِ، وَهَذَا مِمَّا استَقَرَّ فِي فِطْرَتِهِم، وَنَطَقَتْ بِهِ أَلسِنَتُهُم، وَبِهِ قَامَتِ الحُجَّةُ عَلَيهِم فِيمَا دَعَتْهُم إِلَيهِ الرُّسُلُ مِنْ تَوحِيدِ العِبَادَةِ، وَمَا ذُكِرَ مِنَ الآيَاتِ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ.

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ القُرْآنِ فِي الاستِدْلَالِ، وَاهتَدَىٰ بِهَدْيِ الأَنْبِيَاءِ فِي الحِجَاجِ؛ اطمَأَنَّتْ نَفسُهُ، وَقَوِيَ يَقِينُهُ، وَخَصَمَ مُنَاظِرَهُ؛ أي: انتَصَرَ عَلَيهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الحُجَّةَ وَالبُرْهَانَ مِنْ جِهَتَينِ:

الأَوْلَىٰ: أَنَّهُ خَبَرُ المَعصُومِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مُوجِبُ الفِطْرَةِ، وَمُقتَضَىٰ العَقْلِ الصَّحِيحِ.

* * *

الْمَسْأَلَةُ الخَامِسَةُ: فِي الفَرْقِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَبَيَانِ النِّسْبَةِ بَيْنَهُمَا

قَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي بَيَانِ المَعْنَىٰ اللُّغَوِيِّ لِلنَّبِيِّ: «النَّبِيُّ: مُشتَقٌّ مِنَ النَّبَأ، بِمَعنَىٰ: الخَبَرِ، فَإِنْ كَانَ المُرَادُ أَنَّهُ يُخبِرُ أُمَّتَهُ بِمَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيهِ، فَهُوَ (فَعِيلٌ)، بِمَعنَىٰ: (فَاعِلٌ) وَإِنْ كَانَ المُرَادُ أَنَّ اللهَ يُخبِرُهُ بِمَا يُوحِي إِلَيهِ، فَهُوَ (فَعِيلٌ) بِمَعنَىٰ: (مَفْعُولٌ)، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَأخُوذًا مِنَ النَّبْءِ -بِالهَمزَةِ وَسُكُونِ البَاءِ-، أَوْ: النَّبْوَة، أَوْ: النَّبَاوَةِ -بِالوَاوِ-، وَكُلُّهَا بِمَعْنَىٰ: الارْتِفَاعِ وَالظُّهُورِ، وَذَلِكَ لِرِفْعَةِ قَدْرِ النَّبِيِّ، وَظُهورِ شَأنِه، وعُلُوِّ مَنزِلَتِهِ».

الشَّرْحُ

فَالنَّبِيُّ: مَأْخُوذٌ مِنَ (النَّبَأ)، وَهُوَ الإِخْبَارُ وَالإِعْلَامُ، أَوْ مِنَ (النَّبْوَةِ) وَهِيَ المُرتَفِعُ مِنَ الأَشْيَاءِ.

فَأَمَّا مِنَ الأَوَّلِ فَلِأَنَّ النَّبِيَّ يُنبِئُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا مِنَ الثَّانِي فَلِعُلُوِّ شَأْنِ النَّبِيِّ وَارتِفَاعِهِ بَينَ قَومِهِ، وَاختِيَارِهِ مِنْ بَينَ أَرفَعِهِم خُلُقًا، وَأَشْرَفِهِم عُنْصُرًا وَأَعْرَقِهِم مَحْتِدًا.

قَالَ الفَيروزآبَادِي فِي «بَصَائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ» (٥/ ١٤): «النبأُ -مُحرَّكةً- : الخَبَر، ونَبَّأَ وأَنْبأَ: أَخبرَ، وَمِنْهُ اشتُقَّ [النَّبي].

قَالَ تعَالَىٰ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩].

وَعَلَىٰ هَذَا هُوَ فَعِيلٌ بِمَعنَىٰ فَاعِلٌ، وقَالَ تعَالَىٰ:﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم:٣].

وَعَلَىٰ هَذَا فَهُوَ فعيلٌ بمَعنَىٰ مَفْعُول، غَيرَ أَنَّهُم تَركُوا الهَمْزَةَ فِي (النَّبيِّ)، وَالبَرِيَّة، وَالذُّرِيَّةِ، وَالخَبِيَّةِ؛ إِلَّا أَهْلَ مَكَّةَ -حرَسَهَا اللهُ-، فإِنَّهُم يَهمِزونَ هَذِهِ الأَحْرُفَ وَلَا يَهمِزونَ غَيرَهَا، وَيُخَالِفُونَ العَرَبَ فِي ذَلِكَ.

وَالنُّبوةُ: سِفَارَةٌ بَينَ اللهِ وَبَينَ ذَوِي العُقُولِ؛ لإِزَاحَةِ عِلَلِهِمْ فِي أَمْرِ مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ.

وَنَبَأْتُ أَنْبأُ نُبُوءًا؛ أي: ارتفَعتُ، وَكُلُّ مُرتَفِعٍ نَابِئٌ وَنبيءٌ». اهـ

وَنقَلَ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «لَوَامِعِ الأنْوَارِ» (١/ ٤٩): «النَّبيُّ يُهْمَزُ وَلَا يُهمزُ، فَمَنْ جَعَلَهُ مِنَ النَّبأ هَمَزَهُ؛ لأَنَّهُ يُنبئُ النَّاسَ عَنِ اللهِ، وَلأَنَّهُ يُنْبأُ هُوَ بِالوَحْي، وَمَنْ لَمْ يَهمزْ؛ فَإِمَّا سَهَّلَهُ، وَإِمَّا أَخذَهُ مِنَ النَّبوةِ وَهِيَ الرِّفْعَةُ؛ لارْتِفَاعِ مَنَازِلِ الأنبيَاءِ عَلَىٰ الخَلْقِ». اهـ

فَالنَّبِيُّ لُغَةً: مُشتَقٌّ مِنَ النَّبَأ بِمَعنَىٰ: الخَبَرِ ذِي الشَّأنِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢].

وَإِنَّمَا سُمِّيَ النَّبِيُّ نَبِيًّا لأَنَّهُ مُخبِرٌ مُخْبَرٌ، فَهُوَ مُخبَرٌ؛ أي: أَنَّ اللهَ أخبَرَهُ، وَأوحَىٰ إلَيهِ، ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣].

وَهُوَ مُخبِرٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ أمْرَهُ وَوَحْيَهُ، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر:٥١].

وَقِيلَ: إِنَّهُ مُشتَقٌّ مِنَ النَّبْوَةِ، وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الأرْضِ، وَتُطْلِقُ العَرَبُ لَفظَ النَّبِيِّ عَلَىٰ عَلَمٍ مِنْ أعْلَامِ الأرْضِ الَّتِي يُهتَدَىٰ بِهَا.

وَالمُنَاسَبَةُ بينَ المَعنَىٰ اللُّغَوِيِّ وَالمَعنَىٰ الشَّرعِيِّ: أنَّ النَّبِيَّ ذُو رِفْعَةٍ وَقَدْرٍ عَظِيمٍ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَالأنبِيَاءُ هُمْ أشْرَفُ الخَلْقِ، وَهُمُ الأعْلَامُ الَّتِي يَهتَدِي بِهَا النَّاسُ فَتَصلُحُ دُنيَاهُم وَأُخرَاهُم.

وَالنَّبِيُّ مُخبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ بِالوَحيِ، مُخبِرٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ أمْرَهُ وَوَحيَهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ العُثَيمِين رَحِمَهُ اللهُ الاشتِقَاقَ اللُّغَوِيَّ لِلنَّبِيِّ عَنِ الجَمْهَرَةِ لابنِ دُرَيدٍ (٣/ ٢١١)، وَقَرَّرَ أنَّ اللَّفظَ يُحمَلُ عَلَىٰ المَعنَيَينِ جَمِيعًا، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ السَّفَّارِينِيَّةِ» (ص/ ٥٨): «النَّبِيُّ: هَلْ هُوَ بِالهَمْزِ، وَخُفِّفَ، أوْ بِاليَاءِ الَّتِي أصْلُهَا الوَاوُ؟

قِيلَ: إنَّ أصْلَهُ مِنَ النَّبوَةِ، مِنْ نَبَا يَنبُو نُبوًّا، وَهُوَ الارْتِفَاعُ؛ لأنَّ نَبَا بِمَعنَىٰ: ارْتَفَعَ، وَلَا شَكَّ فِي ارْتِفَاعِ رُتبَةِ النَّبِيِّ، وَعَلَىٰ هَذَا فَيَكُونُ النَّبِيُّ أصْلُهَا النَّبِيو، لَكِنِ

اجتمعتِ الواوُ معَ الياءِ، وسُبِقَتْ بالسُّكُونِ فقُلِبَتِ الواو ياءً، فصارت: النَّبيّ.

وقِيلَ: أنَّهُ مِنَ النَّبأ بمعنَىٰ الخَبَرِ؛ لأنَّ النَّبيَّ مُنبَأٌ ومُنبِئٌ، ولَكِنْ سُهِّلَتِ الهَمْزَةُ إلَىٰ الياءِ لِكَثْرَةِ الاستِعْمَالِ، فأصْلُهَا النَّبيوء، ثُمَّ سُهِّلَ، فصارت: النَّبيّ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا قَاعِدَةً: أنَّهُ إذَا احتَمَلَ اللفْظُ مَعْنيينِ لا يَتنَافيَانِ، حُمِلَ عَلَيهِمَا جَمِيعًا.

فَنَقُولُ: هُوَ مُشتَقٌّ مِنْ هَذَا وَمِنْ هَذَا؛ لأنَّ النَّبيَّ رَفِيعُ المَنْزِلَةِ، وَهُوَ أيضًا: مُنبِئٌ ومُنبَأٌ». اهـ

وَأمَّا تَعرِيفُ الرَّسُولِ:

فَالإرسَالُ فِي اللُّغَةِ: التَّوجِيهُ، فإذَا بَعَثْتَ شَخْصًا فِي مُهِمَّةٍ فَهُوَ رَسُولُكَ، قَالَ تَعَالَىٰ حاكيًا قَولَ مَلِكَةِ سَبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

وَقَدْ يُرادُ بِالرَّسُولِ مَن يُتابِعُ أخبارَ الَّذي بَعَثَهُ، أَخْذًا مِنْ قَولِ العَرَبِ: «جَاءَتِ الإبِلُ رَسَلًا»؛ أي: مُتَتَابِعَةً.

فَالرُّسُلُ سُمُّوا رُسُلًا لأنَّهُم وُجِّهُوا مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤]. وَهُمْ مَبعُوثُونَ بِرِسَالَةٍ مُعَيَّنَةٍ، مُكَلَّفُونَ بِحَملِهَا، وَتَبليغِهَا، وَمُتَابَعَتِهَا.

فَالرَّسُولُ: فَعولٌ بِمعنَىٰ: مُفْعَل -بِفَتْحِ العَينِ لَا غَيرَ- لأنَّهُ مُرسَلٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ ﷻ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ الفَرْقِ بينَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ: «وَالفَرْقُ بَينَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ:

أَنَّ الرَّسُولَ: مَنْ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ قَومٍ، وَأَنْزَلَ عَلَيهِ كِتَابًا، أَوْ لَمْ يُنَزِّلْ عَلَيهِ كِتَابًا لَكِن أُوحيَ إِلَيهِ بِحُكْمٍ لَمْ يَكُنْ فِي شَرِيعَةِ مَنْ قَبلَهُ.

وَالنَّبيُّ: مَنْ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَدعُو إِلَىٰ شَرِيعَةٍ سَابِقَةٍ دُونَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيهِ كِتَابًا، أَوْ يُوحِيَ إِلَيهِ بِحُكْمٍ جَدِيدٍ نَاسِخٍ أَوْ غَيرِ نَاسِخٍ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبيٌّ وَلَا عَكْسَ، وَقِيلَ: هُمَا مُتَرَادِفَانِ، وَالأَوَّلُ أَصَحُّ».



الشَّرْحُ

وَقَدْ ذَكَرَ العَلَّامَةُ الشَّيخُ مُحمَّد خَلِيل هَرَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ المَجمُوعِ الَّذِي حَرَّرَ فِيهِ كَلَامَ شَيخِ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَوْلَ «النُّبُواتِ وَالغَيبِيَّاتِ» (ص٢٧) ذَكَرَ أَشْهَرَ التَّعرِيفَاتِ لِكُلٍّ مِنَ النَّبِي وَالرَّسُولِ مَعَ مُنَاقَشَةِ كُلٍّ، فَقَالَ:

«١ - النَّبيُّ: إِنْسَانٌ ذَكَرٌ حُرٌّ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ، وَلَمْ يُؤمَرْ بِتَبلِيغِهِ.

وَالرَّسُولُ: مِثْلُ النَّبيِّ فِي كُلِّ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ مَأمُورٌ بِالتَّبلِيغِ.

وَاعتُرِضَ عَلَىٰ هَذَا التَّعرِيفِ بِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الرُّسُلِ وَالأَنبيَاءِ لَمْ يُوحَ إِلَيهِمْ بِشَرَائِعَ جَدِيدَةٍ، وَإِنَّمَا كَانُوا مَأمُورِينَ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةٍ سَابِقَةٍ، وَذَلِكَ كَرُسُلِ وَأَنبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَدْ كَانَتْ شَرِيعَتُهُم التَّورَاةَ، حَتَّىٰ إِنَّ عِيسَىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَهُوَ

مِنْ أولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، لَمْ يَأتِ بِشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِبَعضِ التَّعدِيلاتِ فَقَطْ.

وَقَدْ جاءَ عَلَىٰ لِسَانِهِ: مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ؛ وَإِنَّمَا جِئْتُ لِأُكَمِّلَ».

وَقَدْ قَالَ عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

وَقَدِ اعتُرِضَ أيضًا عَلَىٰ هَذَا التَّعرِيفِ: بِأَنَّ العَقْلَ لَا يُسِيغُ أَنْ يُوحيَ اللهُ إِلَىٰ نَبيٍّ بِشَرْعٍ، ثُمَّ لَا يَأمُرُهُ بِتَبلِيغِهِ؛ لأَنَّ الشَّرْعَ أَمَانَةٌ وَعِلْمٌ، وَأَدَاءُ العِلْمِ وَاجِبٌ وَكِتْمَانُ العِلْمِ نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ.

٢- النَّبيُّ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ، وَلَمْ يُنزَلْ إِلَيهِ كِتَابٌ: كَإِسمَاعِيلَ، وَشُعَيبٍ، وَيُونُسَ، وَلُوطٍ، وَزَكَرِيَّا عليهم السلام.

وَالرَّسُولُ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ، وَأُنزِلَ إِلَيهِ كِتَابٌ، كَإِبرَاهِيمَ، وَدَاودَ، وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، وَمُحمَّدٍ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وَهَذَا أَفْسَدُ مِنْ سَابِقِهِ، فَقَدْ وَصَفَ القُرْآنُ كَثِيرًا مِنَ الأنبِيَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُنزَلْ عَلَيهِم كُتُبٌ بِالرِّسَالَةِ، فقَالَ عَنْ إسمَاعِيلَ عليه السلام: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥٤].

وقَالَ عَنْ يُونُسَ عليه السلام: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٣٩].

وَدَعْوَةُ شُعَيبٍ وَلُوطٍ عليهما السلام لِقَومِهِمَا قَدْ ذَكَرَهَا القُرآنُ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ، فَاشتِرَاطُ إِنْزَالِ الكِتَابِ عَلَىٰ الرَّسُولِ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ.

٣- **الرَّسُولُ**: مَنْ بَعَثَهُ اللهُ بِشَرْعٍ جَدِيدٍ، يَدعُو إِلَيهِ.

وَالنَّبيُّ: مَنْ بُعِثَ لِتَقرِيرِ شَرْعٍ سَابِقٍ؛ كَأنبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بَينَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَيُرَدُّ عَلَيهِ بِمِثْلِ مَا رُدَّ عَلَىٰ التَّعرِيفِ الأوَّلِ، وَبِأَنَّ بَعضَ أنبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا بَينَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ كَانُوا رُسُلًا كَدَاودَ، وَسُلَيمَانَ، وَيَحيَىٰ، وَزَكَرِيَّا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُبعَثُوا بِشَرَائِعَ جَدِيدَةٍ.

٤- **قَالَ العَلَّامَةُ «شَارِحُ الطَّحَاوِيَّةِ» (١/ ٢٣٤)**: «وَقَدْ ذَكَرُوا فُرُوقًا بَينَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَأَحْسَنُهَا:

أَنَّ مَنْ نَبَّأَهُ الله بِخَبَرِ السَّمَاءِ، إِنْ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيس بِرَسُولٍ.

فَالرَّسُولُ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، فَالنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا».

وَيَنبَغِي أَنْ يُعلَمَ أَنَّ هَذَا لَيسَ هُوَ التَّعرِيفَ الأوَّلَ الَّذِي اشْتَرَطَ فِي كلٍّ مِنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ أَنْ يُوحىٰ إِلَيهِ بِشَرعٍ؛ لأَنَّ الإِنبَاءَ بِخَبَرِ السَّمَاءِ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَرْعًا جَدِيدًا، فَلَا يَرِدُ عَلَىٰ هَذَا مَا وَرَدَ عَلَىٰ التَّعرِيفِ الأوَّلِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

٥- قَالَ بَعْضُهُم -لَمَّا عَجَزوا عَنْ إيجَادِ فَرْقٍ بَينَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ-: إنَّهُمَا مُتَسَاوِيَانِ؛ أي: إنَّ مَعنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ هَذَا القَولَ بِمَا يُغنِي عَنْ إعَادَتِهِ». اهـ

وَقَولُ جُمهُورِ أَهْلِ العِلْمِ، وَعَامَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ ثَمَّةَ فَرْقًا بَينَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ، وَأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيسَ كُلُّ نَبيٍّ رَسُولًا، وَالأدِلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَولُهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ [الحَجِّ:٥٢]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾.

فَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ بَيَّنَ أَنَّ الإرْسَالَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ وَقَعَ عَلَىٰ الرَّسُولِ وَعَلَىٰ النَّبِيِّ. فَإِذَنِ الرَّسُولُ مُرْسَلٌ، وَالنَّبيُّ مُرسَلٌ؛ لأنَّ هَذَا وَقَعَ عَلَىٰ الجَمِيعِ.

وَالعَطْفُ بِالوَاوِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾. يَقتَضِي المُغَايَرَةَ، مُغَايَرَةَ الذَّاتِ أَوْ مُغَايَرَةَ الصِّفَاتِ، فَالصِّفَةُ الَّتِي صَارَ بِهَا رَسُولًا غَيرَ النَّعْتِ الذِي صَارَ بِهِ نَبِيًّا، مَعَ تَحَقُّقِ أَنَّ الجَمِيعَ وَقَعَ عَلَيهِمُ الإرْسَالُ.

وَقَدْ عَطَفَ ذَلِكَ بِـ (لا) فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾.

وَمَجِيءُ (لَا) هُنَا فِي تَأْكِيدِ النَّفْيِ الأَوَّلِ، فِي أَوَّلِ الآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ فَهِيَ فِي تَقْدِيرِ تكرِيرِ الجُملَةِ مَنفِيَّةً مِنْ أَوَّلِهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسُولٍ، وَلَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبيٍّ إِلَّا إذَا تَمنَّىٰ أَلْقَىٰ الشَّيطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ.

ثَانِيًا: مَا وَرَدَ فِي الأَنبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَانَ آدَمُ نَبِيًّا مُكَلَّمًا، كَانَ بَينَهُ وَبَينَ نُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ، وَكَانَتِ الرُّسُلُ ثَلَاثَمِئَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ**»(١).

فَكَمَا صَحَّ فِي هَذَا الحَدِيثِ ثَبَتتِ النُّبُوَّةُ لآدَمَ عليه السلام، وَجَاءَ بَعْدَ آدَمَ أَنبِيَاءُ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُم فِي القُرآنِ إِدْرِيسَ عليه السلام، وَشِيثًا وَغَيرَهُمَا، وَأَوَّلُ الرُّسُلِ نُوحٌ عليه السلام.

وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ أَنَّ آدَمَ عليه السلام كَانَ نَبِيًّا مُكَلَّمًا، وَوُصِفَ نُوحٌ بِأَنَّهُ رَسُولٌ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ آدَمَ لَمْ يَحصُلْ لَهُ وَصْفُ الرِّسَالَةِ، وَقَدْ وُصِفَ إِدْرِيسُ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ التَّفرِيقِ بَينَ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ، كَمَا ذَهَبَ إِلَىٰ ذَلِكَ الجَمْهُورُ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَيَلتَقِي المَفْهُومُ اللُّغَوِيُّ لِلنَّبِيِّ مَعَ المَفْهُومِ اللُّغَوِيِّ لِلرَّسُولِ عِنْدَ الغَايَةِ مِنَ الإِرْسَالِ، فَالغَايَةُ مِنَ الرِّسَالَةِ هِيَ: تَبلِيغُ النَّاسِ مَا أُمِرُوا بِتَبلِيغِهِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١١٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٦٨).

رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧].

وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١٠/ ٢٩٠) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ عِصْمَةَ الأنبِيَاءِ أَنَّ ثَمَّةَ فَرْقًا بَينَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، فَقَالَ: «وَهَذِهِ العِصْمَةُ الثَّابِتَةُ لِلأنبِيَاءِ هِيَ الَّتِي يَحصُلُ بِهَا مَقصُودُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ؛ فَإِنَّ (النَّبِيَّ) هُوَ المُنَبَّأُ عَنِ اللهِ، وَ(الرَّسُولُ) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيس كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَالعِصْمَةُ فِيمَا يُبَلِّغونَهُ عَنِ اللهِ ثَابِتَةٌ فَلَا يَستَقِرُّ فِي ذَلِكَ خَطَأٌ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَوضِعٍ آخَرَ (١٨/ ٧): «الآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ الأنبِيَاءِ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُم مَعصُومُونَ فِيمَا يُخبِرُونَ بِهِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَكُونُ خَبَرُهُمْ إِلَّا حَقًّا، وَهَذَا مَعنَىٰ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَنَّ اللهَ يُنَبِّئُهُ بِالغَيبِ، وَأَنَّهُ يُنَبِّئُ النَّاسَ بِالغَيبِ، وَالرَّسُولُ مَأمُورٌ بِدَعوَةِ الخَلْقِ وَتَبلِيغِهِم رِسَالَاتِ رَبِّهِ.

وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ رَسُولٍ نَبِيًّا، وَلَيسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا».

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيخُ العُثَيمِين الفَرْقَ بَينَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ فِي «شَرْحِ السَّفَّارِينِيَّةِ» (ص٥٣٣)، فَقَالَ:

«الرَّسُولُ: هُوَ مَنْ أُرْسِلَ، تَقُولُ: أَرْسَلْتُ فُلَانًا إِلَىٰ فُلَانٍ؛ أي: أَمَرْتُهُ أَنْ يُبَلِّغَ فُلَانًا عَنِّي شَيئًا.

أَمَّا النَّبِيُّ: فَإِنَّهُ مِنَ النَّبَأ، وَهُوَ الَّذِي أَتَاهُ الخَبَرُ، لَكِنْ لَمْ يُكَلَّفْ بِالتَّبلِيغِ، وَهَذَا الَّذِي قَرَّرنَا هُوَ مَذْهَبُ جُمهُورِ العُلَمَاءِ.

أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ، وَأُمِرَ أَنْ يُبلِّغَهُ.

وَأَمَّا النَّبِيُّ فَهُوَ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ دُونَ أَنْ يُكَلَّفَ بِالتَّبلِيغِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُمنَعْ مِنَ التَّبلِيغِ، يَعنِي: نُبِّئَ بِشَرْعٍ، وَلَمْ يُقَلْ لَهُ: لَا تبلِّغْهُ، فَإِذَا بَلَّغَهُ كَانَ مُتَطَوِّعًا.

فَالفَرْقُ بَينَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ: أَنَّ الرَّسُولَ مُلْزَمٌ بِالتَّبلِيغِ، وَالنَّبِيُّ غَيرُ مُلزَمٍ، لَكِنَّهُ غَيرُ مَمنُوعٍ مِنَ التَّبلِيغِ، يَعمَلُ هُوَ بِنَفسِهِ وَيُجَدِّدُ الشَّرْعَ، وَلَكِنَّهُ لَا يُلزَمُ بِالتَّبلِيغِ، وَهَذَا هُوَ وَجْهُ كَونِ الرَّسُولِ أَفْضَلَ مِنَ النَّبيِّ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ أُلزِمَ بِالتَّبلِيغِ، وَهُوَ زِيَادَةُ تَكلِيفٍ.

وَالتَّبلِيغُ هُنَا لَيسَ بِالأَمْرِ الهَيِّنِ؛ لأَنَّ فِيهِ مُعَانَاةَ النَّاسِ وَالتَّعَبَ مَعَهُم، وَلَا يَخفَىٰ مَا حَصَلَ لِلرُّسُلِ مِنَ الأَذِيَّةِ، بَلْ مِنَ الضَّرَرِ أحيَانًا، لَكِنَّ النَّبيَّ يَتَعبَّدُ بِمَا أُوحِيَ إِلَيهِ، وَلَا يُكلَّفُ أَنْ يُبَلِّغَ بِهِ.

فَمَنِ اقتَدَىٰ بِهِ وَأَخذَ بِمَا هُوَ عَلَيهِ فَلَهُ ذَلِكَ وَمَنْ لَا فَلَا، وَلِهَذَا كَانَ الأَنبِيَاءُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَثِيرِينَ جِدًّا؛ لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَومٌ عُتَاةٌ يَحتَاجُونَ إِلَىٰ تَجدِيدِ الوَحيِ دَائِمًا.

إِذَنْ: الرُّسُلُ جَمْعُ الرَّسُولِ، وَهُوَ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرعٍ وَأُمِرَ بِتَبلِيغِهِ.

وَالنَّبيُّ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيهِ بِالشَّرعِ، وَلَمْ يُمنَعْ مِنْ تَبلِيغِهِ، فَلَا أُمِرَ وَلَا مُنِعَ، وَلَهُ أَنْ يُبَلِّغَ.

إِذَنْ؛ مَرتَبةُ الرُّسُلِ فَوق مَرتَبَةِ الأنبِيَاءِ، وَهَذَا صَحِيحٌ». اهـ

«فَالفَرْقُ بَينَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ عَلَىٰ المَشْهُورِ:

أَنَّ الرَّسُولَ: إنسَانٌ ذَكَرٌ، أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ، وَأُمِرَ بِتَبلِيغِهِ.

وَالنَّبيُّ: إنسَانٌ ذَكَرٌ، أُوحِيَ إِلَيهِ بِشَرْعٍ، وَلَمْ يُؤمَرْ بِتَبلِيغِهِ.

وَالقَولُ الصَّحِيحُ الَّذِي اختَارَهُ شَيخُ الإِسْلَامِ:

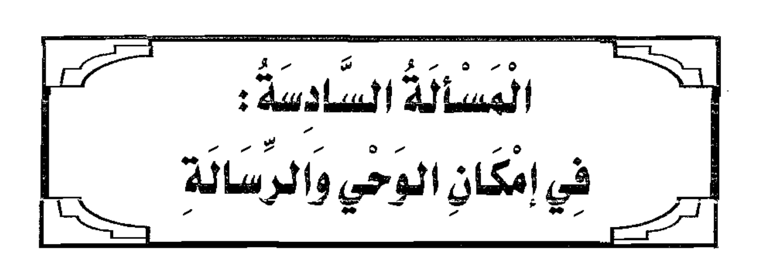
أَنَّ كُلًّا مِنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ يُوحَىٰ إِلَيهِ، لَكِنَّ النَّبِيَّ قَدْ يُبعَثُ إِلَىٰ قَومٍ مُؤمِنِينَ بِشَرَائِعَ سَابِقَةٍ، كَأَنبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَأمُرونَ بِشَرِيعَةِ التَّورَاةِ، وَقَدْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَحَدِهِمْ وَحْيٌ خَاصٌّ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ.

وَأَمَّا الرُّسُلُ: فَإِنَّهُم يُبعَثُونَ فِي قَومٍ كُفَّارٍ، يَدعُونَهُم إِلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، فَهُمْ يُرسَلُونَ إِلَىٰ المُخَالِفِينَ، فَيُكَذِّبُهُم بَعضُهُم»[1].

* * *

---

(١) انظر: الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد (ص١٨٢).



عَرَّفَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ: «الوَحيَ»؛ لُغَةً وَشَرْعًا، وَبَيَّنَ إمْكَانَهُ وَإمْكَانَ الرِّسَالَةِ.

* * *

فِي تَعرِيفِ الوَحْيِ لُغَةً وَشَرعًا، قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الوَحيُ لُغَةً: الإعْلَامُ فِي خفَاءٍ بِإشَارَةٍ، أوْ كِتَابَةٍ، أوْ إلهَامٍ، أوْ مُنَاجَاةٍ، أوْ نَحوِ ذَلِكَ.

وَشَرعًا: هُوَ إعلَامُ اللهِ نَبِيَّهُ بِحُكْمٍ شَرعِيٍّ، وَنحوِهِ، بِوَاسِطَةٍ أوْ بِغَيرِ وَاسِطَةٍ».



فَالوَحيُ فِي اللُّغَةِ: الإعْلَامُ الخَفِيُّ السَّرِيعُ، مَهْمَا اختَلَفَتْ أسبابُهُ، فَهُوَ الإعْلَامُ بِالشَّيءِ سِرًّا، وَهَذَا أعَمُّ مِنْ أنْ يَكُونَ بِإشَارَةٍ أوْ كِتَابَةٍ أوْ رِسَالَةٍ، أوْ

رُؤيَا فِي مَنَامٍ أَوْ إِلهَامٍ، أَوْ كَلَامٍ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وَالوَحيُ بِهَذَا التَّعرِيفِ اللُّغَوِيِّ غَيرُ خَاصٍّ بِالأنبِيَاءِ، كَمَا لَا يَختَصُّ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

وَمَا ذَكَرَهُ العَلَّامَةُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ تَعرِيفٍ شَرْعِيٍّ لِلوَحْيِ، هُوَ مِنْ أَجمَعِ التَّعرِيفَاتِ وَأَخصَرِهَا، وَهُوَ: **إِعْلَامُ اللهِ نَبِيَّهُ بِحكمٍ شَرْعِيٍّ، وَنَحوِهِ، بِوَاسِطَةٍ أَوْ بِغَيرِ وَاسِطَةٍ.**

وَالمَعنَىٰ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَىٰ استِعمَالِ الوَحْيِ، هُوَ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ المُنَزَّلُ عَلَىٰ أنبِيَائِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِم وَسَلَّمَ-.

وَأَنْوَاعُ الوَحيِ أَرْبَعَةٌ هِيَ:

١- الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ فِي المَنَامِ:

وَهَذَا النَّوعُ هُوَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ الوَحيِ مَعَ نَبِيِّنَا مُحمَّدٍ ﷺ، فَفِي الصَّحِيحَينِ مِنْ رِوَايَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحيِ الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّومِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبحِ»[1].

وَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الخَلِيلِ إِبرَاهِيمَ ﷺ بِطَرِيقِ الرُّؤيَا، أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الوَحيُ ابتِلَاءً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِخَلِيلِهِ.

---

(١) البخاري (٣)، ومسلم (١٢٠).

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٧].

٢- النَّفْثُ فِي الرُّوعِ:

كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنْ نَفسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَستكمِلَ أجلَهَا وَتَستوعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحمِلَنَّ أَحَدَكُمُ استبطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطلُبَهُ بِمَعصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُنالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»[1].

وَالرُّوعُ: الخَلَدُ وَالنَّفْسُ، وَالمَعنَىٰ: أَنَّهُ أَوحَىٰ إِلَيَّ وَحْيًا خَفِيًّا.

وَأَجمِلُوا: أَحسِنُوا.

٣- تَكلِيمُ اللهِ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ:

كَمَا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ آدَمَ ﷺ: قَالَ ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ ﴾ [البقرة:٣٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم فِي السنة (٤٢٠)، وابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم (٣/ ٤)، والتبريزي فِي المشكاة (٥٣٠٠)، والبيهقي (٥/ ٢٦٥)، وأبو نعيم فِي الحلية (٧/ ٢٢٨)، عن أبي أمامة، وجابر، وابن مسعود، وحذيفة رضي الله عنهم، وهو صحيحٌ بمجموعِ طرقه، صحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٠٨٥)، وفي غيره.

وكَمَا كَلَّمَ اللهُ تعالَىٰ مُوسَىٰ عليه السلام، كَمَا قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وكَمَا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عبدَهُ وَرَسُولَهُ مُحمَّدًا ﷺ لَيلَةَ المِعرَاجِ.

٤- أنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ المَلَكُ رَجُلًا، فيُخَاطِبُهُ حتَّىٰ يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ:

وَفِي هَذِهِ المَرْتَبَةِ كَانَ الصَّحَابَةُ يَرونَهُ أحيانًا، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٨) مِنْ رِوَايَةِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «بينَمَا نَحنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يومٍ، إذْ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ...

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ، أتدرِي مَنِ السَّائِلُ؟

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ!

قَالَ: فَإنَّهُ جِبْرِيلُ، أتَاكُمْ يُعَلِّمُكُم دِينَكُم».

وَأخرَجَ أحْمَدُ (٢/ ١٠٧) بإسْنَادٍ صَحِيحٍ مِنْ رِوَايَةِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: «وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَأتِي النَّبيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ».

٥- أنْ يَأتِيَه الوحيُ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ:

وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيهِ، فيتَلَبَّسُ بِهِ المَلَكُ حَتَّىٰ إنْ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا فِي

اليَومِ الشَّدِيدِ البَردِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَينِ مِنْ رِوَايَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها[1].

وَحَتَّىٰ إِنَّ رَاحِلَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، فَتَضرِبُ بِجِرَانِهَا[2].

وَلَقَدْ جَاءَهُ الوَحيُ مَرَّةً كَذَلِكَ، وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِ زَيدِ بنِ ثَابتٍ، فَثَقُلَتْ عَلَيهِ حَتَّىٰ كَادَتْ تَرُضُّهَا[3].

٦- أَنْ يَرَىٰ المَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيهَا، فَيُوحِي إِلَيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَه، وَهَذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَينِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النجمِ [٧-١٣].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧٧) مِنْ رِوَايَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيهَا غَيرَ هَاتَينِ المَرَّتَينِ، رَأَيتُهُ مُنهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ».**

وَالنُّبُوَّةُ مِنحَةٌ إِلَهِيَّةٌ، لَا تُنَالُ بِالتَّشهِّي وَالرَّغبَةِ، وَلَا تُحصُلُ بِالمُجَاهَدَةِ وَالمُعَانَاةِ.

وَقَدْ كَذَبَ الفَلَاسِفَةُ وَالمُتَكَلِّمونَ الَّذِينَ زَعمُوا أَنَّ النُّبُوَّةَ تُنَالُ بِمُجَرَّدِ الكَسْبِ بِالجِدِّ وَالاجتِهَادِ، وَتَكَلُّفِ أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ، وَاقتِحَامِ أَشَقِّ الطَّاعَاتِ، وَالدَّأَبِ فِي تَهذِيبِ النُّفُوسِ، وَتَنقِيَةِ الخَوَاطِرِ، وَتَطهِيرِ الأَخْلَاقِ، وَرِيَاضَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٨٧).

(٢) أحمد (٦/ ١١٨)، والحاكم (٢/ ٥٠٥)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ٥٣) عن عائشة رضي الله عنها، وهو صحيح بشواهده.

(٣) البخاري (٢٨٣٢).

النَّفسِ وَالبَدَنِ.

فَالنُّبُوَّةُ لَا تُنَالُ بِالكَسْبِ، يَعنِي: لَا يُمكِنُ أَنْ يَصِلَ الإنسَانُ إِلَيهَا بِالكَسْبِ، خِلَافًا لِبَعضِ المُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ الإنسَانُ مُهَذِّبًا نَفسَهُ حَتَّىٰ يَتَهَيَّأَ لِلنُّبُوَّةِ، فَيكُونَ نَبِيًّا، وَكَذَبُوا، إِنَّمَا هِيَ مِنْحَةٌ وَاصطِفَاءٌ وَقَدْ خُتِمَتْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ فِي أَكثَرَ مِنْ آيَةٍ أَنَّ النُّبُوَّةَ نِعمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ إِلَهِيَّةٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم:٥٨].

وَذَكَرَ اللهُ قَولَ يَعقُوبَ لابنِهِ يُوسُفَ عليهما السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦].

وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤].

وَقَدْ أَرسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ مُحمَّدًا ﷺ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً؛ عَرَبِهِم وَعَجَمِهِم وَأَبيَضِهِم وَأَسْوَدِهِم، وَأَصْفَرِهِم وَأَحمَرِهِم، مَن كَانَ فِي وَقْتِ بَعثَتِه، وَمَن يَأتِي مِنْ بَعدِهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وَأَرسَلَهُ ﷺ إِلَىٰ الجِنِّ كَمَا أَرْسَلَهُ إِلَىٰ الإِنْسِ، وَقَدْ رَجَعَ وَفْدُ الجِنِّ بَعْدَ استِمَاعِ القُرآنِ، وَالإيمَانِ بِمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ، دَاعِينَ قَومَهُم إِلَىٰ الإيمَانِ:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣١-٣٢].

وَقَدْ خَتَمَ اللهُ الأنبِيَاءَ بِنَبِيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وَإِذَا كَانَ رَسُولُنَا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ فَهُوَ خَاتَمُ المُرسَلِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ رَسُولٌ، وَمَعنَىٰ كَونِهِ خَاتَمَ الأنبيَاءِ وَالمُرسَلِينَ: أَنَّهُ لَا يُبعَثُ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ يُغَيِّرُ شَرعَهُ، وَيُبطِلُ شَيئًا مِنْ دِينِهِ.

أَمَّا نُزولُ عِيسَىٰ آخِرَ الزَّمَانِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ كَمَا أَخْبرَ النَّبيُّ ﷺ، وَلَكِنَّهُ لَا يَنزِلُ لِيَحكُمَ بِشَرِيعَةِ التَّورَاةِ وَالإنجِيلِ، بَلْ يَحكُمُ بِالقُرآنِ، وَيَكسِرُ الصَّلِيبَ، وَيقتُلُ الخِنزِيرَ، وَيُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ.

وَقَدْ حَرَّرَ شَيخُ الإسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مِنهَاجِ السُّنَّةِ» (٢/ ٤١٦)، مَا عَلَيهِ جُمهُورُ السَّلَفِ وَأَئِمَّةُ الهُدَىٰ فِي أَمْرِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالقَولُ الرَّابِعُ - وَهُوَ الَّذِي عَلَيهِ جُمهُورُ سَلَفِ الأمَّةِ، وَأئِمَّتُهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ النُّظَّارِ-: أَنَّ اللهَ يَصطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَاتِهِ.

فَالنَّبِيُّ يَختَصُّ بِصِفَاتٍ مَيَّزَهُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ غَيرِهِ، وَفِي عَقلِهِ وَدِينِهِ، وَاستَعَدَّ بِهَا؛ لأَنْ يَخُصَّهُ اللهُ بِفَضْلِهِ وَرَحمَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا

بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢].

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة:١٠٥].

وقَالَ تعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ الأنبِيَاءَ بِقَولِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧].

فَأَخْبرَ أَنَّهُ اجتبَاهُمْ وَهَدَاهم.

وَالأنبِيَاءُ أفضَلُ الخَلْقِ بِاتِّفَاقِ المُسلِمينَ، وَبَعدَهُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، فَلولَا وُجُوبُ كَونِهِم مِنَ المُقَرَّبِينَ، الَّذِينَ هُمْ فَوقَ أَصْحَابِ اليَمِينِ؛ لَكَانَ الصِّدِّيقُونَ أَفْضَلَ مِنْهُم أَوْ مِنْ بَعضِهِم.

وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ جَعَلَ خَلْقَهُ ثَلَاثَةَ أَصنَافٍ، فَقَالَ تعَالَىٰ فِي تَقسِيمِهِم فِي الآخِرَةِ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة:٧-١٢].

وقَالَ فِي تَقسِيمِهِم عِنْدَ المَوْتِ: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ

﴿وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤].

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي سُورَةِ الإنسَانِ، وَالمُطَفِّفِينَ، هَذِهِ الأصنَافَ الثَّلَاثَةَ.

وَالأنبِيَاءُ أفضَلُ الخَلْقِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ العُلَا فِي الآخِرَةِ، فَيَمتَنِعُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ مِنَ الفُجَّارِ، بَلْ وَلَا يَكُونُ مِنْ عُمُومِ أَصْحَابِ اليَمِينِ، بَلْ مِنْ أفضَلِ السَّابِقِينَ المُقَرَّبِينَ، فَإِنَّهُم أَفْضَلُ مِنْ عُمُومِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ أيضًا يُوصَفُ بِأَنَّهُ صِدِّيقٌ وَصَالِحٌ وَقَدْ يَكُونُ شَهِيدًا، لَكِنَّ ذَاكَ أمرٌ يَختَصُّ بِهِم لَا يَشْرَكُهُمْ فِيهِ مَنْ لَيسَ بِنَبِيٍّ، كَمَا قَالَ عَنِ الخَلِيلِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فَهَذَا مِمَّا يُوجِبُ تَنزِيهَ الأنبِيَاءِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الفُجَّارِ وَالفُسَّاقِ، وَعَلَىٰ هَذَا إجمَاعُ سَلَفِ الأُمَّةِ وَجَمَاهِيرِهَا.

وَأَمَّا مَنْ جَوَّزَ أَنْ يَكُونَ غَيرُ النَّبِيِّ أفضَلَ مِنْهُ، فَهُوَ مِنْ أَقْوَالِ بَعضِ مَلَاحِدَةِ المُتَأَخِّرِينَ؛ مِنْ غُلَاةِ الشِّيعَةِ وَالصُّوفِيَّةِ وَالمُتَفَلْسِفَةِ وَنَحْوِهِم.

وَمَا يُحكَىٰ عَنِ الفَضْلِيةِ مِنَ الخَوَارِجِ[1] أَنَّهُم جَوَّزُوا الكُفْرَ عَلَىٰ النَّبِيِّ،

---

(١) الفضلية: فرقة من الخوارج ذكرهم ابن حزم في «الفِصَل» (٥/ ٥٤)، وسماهم الفضيلية.

فَهَذَا بِطَرِيقِ اللَّازِمِ لَهُم؛ لأنَّ كُلَّ مَعصِيَةٍ عِنْدَهُم كُفرٌ.

وَقَدْ جَوَّزُوا المَعَاصِيَ عَلَىٰ النَّبيِّ، وَهَذَا يَقتَضِي فَسَادَ قَولِهِم بِأَنَّ كُلَّ مَعصِيَةٍ كُفْرٌ.

وَقَولُهُم بِجَوَازِ المَعَاصِي عَلَيهِم، وَإِلَّا فَلَمْ يَلتَزِمُوا أَنْ يَكُونَ النَّبيُّ كَافِرًا، وَلَازِمُ المَذْهَبِ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَذْهَبًا.

وَطَوَائِفُ أَهْلِ الكَلَامِ الَّذِينَ يُجوِّزونَ بَعثَةَ كُلِّ مُكَلَّفٍ؛ مِنَ الجَهمِيَّةِ وَالأَشْعَرِيَّةِ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَتبَاعِ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ كَالقَاضِي أَبِي يَعلَىٰ وَابنِ عَقِيلٍ وَغَيرِهِم، مُتَّفِقُونَ أَيضًا عَلَىٰ أَنَّ الأَنبِيَاءَ أَفضَلُ الخَلْقِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكُونُ فَاجِرًا.

لَكِنْ يَقُولُونَ: هَذَا لَمْ يُعلَمْ بِالعَقْلِ، بَلْ عُلِمَ بِالسَّمْعِ، بِنَاءً عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَصْلِهِم مِنْ أَنَّ اللهَ يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مُمكِنٍ.

=

فقال: «وقالت الفضيلية من الصفرية: من قال لَا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذَلِكَ بقلبه، بل اعتقد الكفر أو الدهرية أو اليهودية أو النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن ولا يضره إذَا قال الحق بلسانه مَا اعتقد بقلبه».

وذكرهم الأشعري فِي «المقالات» (١/ ١٨٣) وسماهم الفضلية، وذكر عنهم قولًا قريبًا من قول ابن حزم.

وذكر الشهرستاني في: «الملل والنحل» (١/ ١٢٤) من رجال الخوارج: الفضل بن عيسىٰ الرقاشي.

وَأَمَّا الجُمهُورُ الَّذِينَ يُثبِتُونَ الحِكْمَةَ وَالأَسْبَابَ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِمَا عَلِمنَاهُ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّهُ لَا يَبعَثُ نَبِيًّا فَاجِرًا، وَأَنَّ مَا يَنزِلُ عَلَىٰ البَرِّ الصَّادِقِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَلَائِكَةً، لَا تَكُونُ شَيَاطِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ إِلَىٰ قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:١٩٢-٢٢٦]». اهـ

ثُمَّ شَرَعَ العَلَّامَةُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي بَيَانِ إِمكَانِ الوَحيِ، وَأَنَّهُ مِمَّا تُقِرُّهُ الفِطَرُ السَّلِيمَةُ، وَتُثبِتُهُ العُقُولُ الصَّحِيحَةُ.

* * *

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ مَا يَدحَضُ قَولَ المَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنكِرونَ الوَحيَ، وَيَزعُمُونَ استِحَالَتَهُ، وَيَردُّونَ بِكُفرِهِم عَلَىٰ النَّبيِّ نُبُوَّتَهُ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَا يَبعُدُ فِي نَظَرِ العَقْلِ وَلَا يَستَحِيلُ فِي تَقدِيرِ الفِكْرِ، أَنْ يَختَصَّ وَاهِبُ النِّعَمِ، وَمُفِيضُ الخَيرِ، بَعْضَ عِبَادِهِ بِسَعَةٍ فِي الفِكْرِ، وَرَحَابَةٍ فِي الصَّدْرِ، وَكَمَالِ صَبرٍ، وَحُسْنِ قِيَادَةٍ، وسَلَامَةٍ فِي الأَخْلَاقِ، لِيُعِدَّهُم بِذَلِكَ لِتَحَمُّلِ أَعبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَيَكشِفَ لَهُم عَمَّا أَخفَاهُ عَنْ غَيرِهِمْ، وَيُوحِيَ إِلَيهِم بِمَا فِيهِ سَعَادَةُ الخَلْقِ، وَصَلَاحُ الكَوْنِ؛ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ، وَإِعْذَارًا إِلَىٰ الكَافِرِينَ، وَإِقَامَةً لِلحُجَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ أَجمَعِينَ، فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ، وَهُوَ الفَاعِلُ المُختَارُ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعطَىٰ، وَلَا مُعطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَضَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَآيَةُ ذَلِكَ: أَنَّا نُشَاهِدُ أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ خَلَقَ عِبَادَهُ عَلَىٰ طَرَائِقَ شَتَّىٰ فِي أَفْكَارِهِمْ، وَمَذَاهِبَ مُتَبَايِنَةٍ فِي مَدَارِكِهِم، فَمِنْهُم مَنْ سَمَا عَقْلُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُ، وَاطَّلَعَ مِنَ الكَونِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ أَسرارِهِ، حَتَّىٰ وَصَلَ بِهِ ثَاقِبُ فِكْرِهِ، وَانتَهَتْ بِهِ تَجَارِبُهُ إِلَىٰ أَنِ اختَرَعَ لِلنَّاسِ مَا رَفَعَ أُولُو الأَلبَابِ مِنْ أَجلِهِ رُءوسَهُم إِلَيهِ، إِعجَابًا بِهِ، وَشَهَادَةً لَهُ بِالمَهَارَةِ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيهِ صِغَارُ العُقُولِ حَتَّىٰ عَدُّوهُ شَعوذَةً، وَكَهَانَةً، أَوْ ضَربًا مِنْ ضُروبِ السِّحْرِ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَستَبِينَ لَهُمْ بَعْدَ طُولِ العَهْدِ، وَمَرِّ الأَزْمَانِ مَا كَانَ قَدْ خَفِيَ عَلَيهِم، فَيُذْعِنُوا لَهُ، وَيُوقِنُوا بِمَا كَانُوا بِهِ يُكَذِّبُونَ.

وَمِنْهُم مَنْ ضَعُفَ عَقْلُهُ، وَضَاقَتْ مَدَارِكُهُ، فَعَمِيَتْ عَلَيهِ الحَقَائِقُ،

وَاشتَبَهَ عَلَيهِ الوَاضِحُ، فَأَنْكَرَ البَدَهِيَّاتِ، وَرَدَّ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنِ انتَهَىٰ بِهِ انْحِرَافُ مِزَاجِهِ، وَاضْطَرَّهُ تَفكِيرُهُ إِلَىٰ أَنْ أَنْكَرَ مَا تُدرِكُهُ الحَوَاسُّ كطَوَائِفِ السُّوفِسطَائِيةِ».

الشَّرْحُ

السَّفْسَطَةُ: هُوَ لَفْظٌ اصْطِلَاحِيٌّ فِي عِلْمِ المَنْطِقِ مُعَرَّبٌ عَنِ اليُونَانِيَّةِ، وَأَصْلُهُ سَفْسَطَ بِمَعنَىٰ: غَالَطَ، وَأَتَىٰ بِحِكْمَةٍ مُضَلِّلَةٍ، وَكَلَامٍ مُمَوَّهٍ.

وَأَصْلُ اللَّفْظِ مِنَ الكَلِمَةِ اليُونَانِيَّةِ: (سُوفِيسطُوس)، الَّذِي يَدُلُّ بِنَوعٍ خَاصٍّ عَلَىٰ مُعَلِّمِ البَيَانِ.

وَالسَّفْسَطَةُ: قِيَاس مُرَكَّبٌ مِنَ الوَهمِيَّاتِ بِغَرَضِ إِفحَامِ الخَصْمِ وَإِسْكَاتِهِ وَإِلزَاقِ الحُجَّةَ بِالتَّموِيهِ، وَإِلَيهَا تُنْسَبُ فِرقَةُ السُّوفِسطَائِيَّةِ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ اليُونَانِ قَبلَ سُقرَاط، إِذْ يُنكِرونَ المَحسُوسَاتِ وَالبَدهِيَّاتِ؛ لأَنَّ الحَقِيقَةَ عِندَهُم ذَاتِيَّةٌ نِسبِيَّةٌ، وَتَختَلِفُ بِاختِلَافِ الأَفْرَادِ.

أَمَّا مِنْ حَيثُ النَّشْأَةُ؛ فَقَدْ نَشَأَتِ السُّوفِسطَائِيَّةُ عَلَىٰ أَثَرِ هَزِيمَةِ اليُونَانِ لِلفُرسِ، وَشَاعَ أَمْرُهَا فِي اليُونَانِ، مِمَّا دَفَعَ مَجمُوعَةً مِنَ المُثَقَّفِينَ لاستِغْلَالِ مَوَاهِبِهِم فِي الخَطَابَةِ وَالجَدَلِ وَوَسَائِلِ الإِقنَاعِ وَالمُغَالَطَةِ -وَلِذَلِكَ عُرِفُوا بِالسُّوفِسطَائِيَّةِ- بُغيَةَ الحُصُولِ عَلَىٰ الأَمْوَالِ، وَقَدْ حَارَبَهُم سُقرَاطُ وَأَفْلَاطُونُ،

وَكَانَ لَهُمَا دَورٌ كَبِيرٌ فِي اختِفَاءِ السُّوفِسطَائِيينَ فِي مُنتَصَفِ القَرْنِ الرَّابعِ قَبْلَ المِيلَادِ.

ويُعدُّ بُروتاجوراس (٤٨٠-٤١٠ق.م)، وجورجياس (٤٨٠-٣٧٥ق.م)، مِنْ أَشْهَرِ السُّوفِسطَائِيينَ.

وَالسُّوفِسطَائِيَّةُ ثَلَاثُ فِرَقٍ:

الأولَىٰ: العِنَادِيَّةُ؛ وَهِيَ الَّتِي تُنْكِرُ حَقَائِقَ الأَشْيَاءِ الحِسِّيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، وَتُكَذِّبُ حَوَاسَّهَا وَعَقْلَهَا فِيمَا تُشَاهِدُ، أَوْ تُدرِكُ وَهْمًا وَخَيَالًا.

الثَّانِيَةُ: وَهِيَ الَّتِي تَشكُّ فِي حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ، وَتَترَدَّدُ فِيهَا فَتَقُولُ: لَا أَدْرِي، أَلَهَا وجُودٌ أَمْ لَا؟!

الثَّالِثَةُ: العِندِيَّةُ؛ وَهِي الَّتِي تَرَىٰ أَنْ لَيسَ لِلأَشيَاءِ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فِي نَفْسِهَا، بَلْ تَتبَعُ إِدْرَاكَ مَنْ أَدْرَكَهَا، وَعَقِيدَةَ مَنْ خَطَرَتْ بِبَالِهِ!

وَهَذِهِ المَذَاهِبُ بَاطِلَةٌ بِضَرورَةِ الحِسِّ وَالعَقْلِ، وَالقَائِلُونَ بِهَا قَدْ سَقَطُوا عَنْ رُتبَةِ البَحثِ وَالمُنَاظَرَةِ.

وَقَدْ بَحَثَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي إِمْكَانِ الوَحي وَالرِّسَالَةِ، وَمَعنَاهُ أَنَّ العَقْلَ لَا يُحِيلُهُ، وَأَنَّ الفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ لَا تُنكِرُهُ، وَيَدُورُ إِمْكَانُ الوَحي عَلَىٰ عَامِلَينِ هُمَا: استِعدَادُ نَفسِ النَّبِيِّ لِتَلَقِّي الوَحيِ، وَالثَّانِي: وجُودُ مَلَائِكَةٍ تُبَلِّغُ الوَحيَ إِلَىٰ مَنِ اصْطَفَاهُم اللهُ لِرِسَالَتِهِ وَهَذَانِ العَامِلَانِ مُمكِنَانِ.

أَمَّا الأَوَّلُ: فَيَرجِعُ إِمْكَانُهُ إِلَىٰ أَنَّ مَرَاتِبَ الإِدْرَاكِ فِي البَشَرِ مُتَفَاوِتَةٌ -كَمَا قَرَّرَ المُصَنِّفُ ذَلِكَ فِيمَا سَبَقَ- وَأَنَّ نَفْسَ النَّبِيِّ مُستَعِدَّةٌ لِتَلَقِّي مَا يُلقَىٰ إِلَيهَا مِنَ المَعَارِفِ وَالعُلُومِ دُونَ التَّقَيُّدِ بِطَرِيقِ النَّظَرِ العَادِيِّ، الَّذِي هُوَ عَامٌّ لِجَمِيعِ البَشَرِ.

وَأَمَّا العَامِلُ الثَّانِي: وَهُوَ وجُودُ المَلَائِكَةِ، فَهُوَ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ؛ لأَنَّ عَوَالِمَ المَخلُوقَاتِ غَيرُ مَحصُورَةٍ لَنَا، وَلَمْ يَقُمِ الدَّلِيلُ القَطْعِيُّ عَلَىٰ نَفيِ سِوَىٰ مَا عَلِمَهُ الإِنسَانُ مِنْ تِلْكَ المَخلُوقَاتِ، كَمَا جَاءَتْ كُتُبُ المُرسَلِينَ بِالوَحْيِ المَعصُومِ تَدُلُّ عَلَىٰ وجُودِ المَلَائِكَةِ، مَعَ بَيَانِ مَهَامِّ أَصنَافِهِم.

وَالفَرْقُ وَاضِحٌ بَينَ إِمْكَانِ الوَحيِ وَوقُوعِهِ.

فَالإِمكَانُ مَعنَاهُ: أَنَّ الوَحيَ مِنْ حَيثُ هُوَ، أَمْرٌ مُمكِنٌ غَيرُ مُستَحِيلٍ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ إِمْكَانِ الوَحيِ.

وَأَمَّا وقُوعُ الوَحيِ، فَمعنَاهُ: الحُصُولُ وَالوجُودُ بِالفِعْلِ، وَدَلِيلُ الوقُوعِ فِي حَقِّ مَن شَاهَدَ الرَّسُولَ هُوَ الآيَاتُ؛ أي: المُعجِزَاتُ، الَّتِي تُؤَيِّدُ دَعوَاهُم، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُشَاهِدِ الأَنبِيَاءَ، وَلَمْ يَرَ مُعْجِزَاتِهِم؛ فَالدَّلِيلُ عِنْدَهُ هُوَ التَّوَاتُرُ، وَهُوَ أَنْ يَنقُلَ الخَبَرَ جَمْعٌ عَنْ جَمْعٍ، يُؤمَنُ تَوَاطُؤُهُم عَلَىٰ الكَذِبِ، وَيَكونُ مُستَنَدُ خَبَرِهِمُ الحِسَّ.

وَدَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لَيسَتْ مَحصُورَةً فِي المُعجِزَةِ كَمَا يَقولُهُ المُتَكَلِّمُونَ، بَلْ هِيَ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ:

مِنْهَا: إخبَارُهُم الأُمَمَ بِمَا سَيكُونُ مِنَ انتِصَارِهِم وَخِذلَانِ أعدَائِهِم، وَبقَاءِ العَاقِبَةِ لَهُم، فَوَقَعَ كَمَا أخبَرُوا، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُ شَيءٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالأَحْكَامِ فِي غَايَةِ الإحْكَامِ وَالإتْقَانِ، وَكَشْفِ الحَقَائِقِ، وَهِدَايَةِ الخَلْقِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ يُؤَيِّدُهُم تَأييدًا مُستَمِرًّا، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سُنَّتِهِ سُبحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُؤَيدُ الكَذَّابَ بِمِثلِ مَا يُؤَيدُ بِهِ الصَّادِقَ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ يُفتضَحَ الكَذَّابُ، وَقَدْ يُمْهِلُهُ اللهُ ثُمَّ يُهلِكُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ طَرِيقَتَهُم وَاحِدَةٌ فِيمَا يَأمُرونَ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَالعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، وَالتَّصدِيقِ بِاليَومِ الآخِرِ، وَالإيمَانِ بِجَمِيعِ الكُتُبِ وَالرُّسُلِ، فَلَا يُمكِنُ خُروجُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَمَّا اتَّفَقُوا عَلَيهِ، فَهُمْ يُصَدِّقُ مُتَأَخِّرُهُم مُتَقَدِّمَهُم، وَيُبَشِّرُ مُتَقَدِّمُهُم بِمُتَأَخِّرِهِم، كَمَا بَشَّرَ المَسِيحُ وَمَن قَبْلَهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وكَمَا صَدَّقَ مُحمَّدٌ ﷺ جَمِيعَ النَّبِيينَ قَبْلَهُ.

فَإِمْكَانُ الوَحيِ يَدُورُ عَلَىٰ عَامِلَينِ هُمَا:

تَفَاوتُ مَرَاتِبِ الإدْرَاكِ فِي البَشَرِ.

وَالثَّانِي: وجُودُ المَلَائِكَةِ.

***

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ إِمْكَانِ الوَحيِ: «وكَمَا ثَبتَ ذَلِكَ التَّفَاوتُ بَينَ النَّاسِ فِي العُقُولِ بِضَرورَةِ النَّظَرِ، وَبَدِيهَةِ العَقْلِ، ثَبتَ التَّفَاوتُ بَينَهُم أيضًا فِي قُوَّةِ الأَبْدَانِ وَضَعفِهَا، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ وَضِيقِهَا، وَنَيلِ المَنَاصِبِ العَالِيَةِ، وَالاستِيلاَءِ عَلَىٰ زِمَامِ الأُمُورِ، وَقِيَادَةِ الشُّعُوبِ، وَالحِرْمَانِ مِنْ ذَلِكَ، إِمَّا لِلعَجْزِ أَوِ القُصُورِ، لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعضًا سُخْرِيًّا.

وَإِمَّا لِحِكمَةٍ أخرَىٰ يَعلَمُهَا مُدَبِّرُ الكَائِنَاتِ؛ وَرُبَّمَا كُشِفَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُم الغِطَاءُ لِمَنْ تَدَبَّرَ القُرآنَ، وَعَرَفَ سِيرَةَ الأَنبِيَاءِ، وَتَارِيخَ الأُمَمِ، وَمَا جَرَىٰ عَلَيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ.

فَمَنْ شَاهَدَ مَا مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ مِنَ التَّفَاوتِ بَينَهُم فِي مَدَارِكِهِم، وَقُوَاهُمْ، وَإِرَادَتِهِم، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ أَحوَالِهِم، لَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ يَستَسلِمَ لِلأَمْرِ الوَاقِعِ، وَيَستَيقِنَ بِأَنَّ للهِ أَنْ يُنبِئَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيَصطَفِيَ مَنْ أَرَادَ مِنْ عِبَادِهِ.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]». اهـ



الشَّرْحُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[النساء:١٦٥].

قَالَ الشَّيخُ السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «تَفسِيرِهِ» (١/ ٣٨٢): «إِنَّ اللهَ أَرْسَلَهُم مُبَشِّرِينَ لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَاتَّبَعَهُم بِالسَّعَادَةِ الدُّنيَوِيَّةِ وَالأُخرَوِيَّةِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ عَصَىٰ اللهَ وَخَالَفَهُم بِشَقَاوَةِ الدَّارَينِ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ فَيقُولُوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ قُلْ: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة:١٩].

فَلَمْ يَبْقَ لِلخَلْقِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ؛ لإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ تترىٰ؛ يُبَيِّنُونَ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِم وَمَرَاضِيَ رَبِّهِم وَمَسَاخِطَهُ، وَطُرقَ الجَنَّةِ وَطُرُقَ النَّارِ، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَهَذَا مِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ تَعَالَىٰ وَحِكمَتِهِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيهِم الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ عَلَيهِمُ الكُتُبَ، وَذَلِكَ أَيضًا مِنْ فَضْلِهِ وَإِحسَانِهِ؛ حَيثُ كَانَ النَّاسُ مُضطَرِّينَ إِلَىٰ الأَنبِيَاءِ أَعْظَمَ ضَرورَةٍ تُقَدَّرُ؛ فَأَزَالَ هَذَا الاضْطِرَار؛ فَلَهُ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ». اهـ

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ انْفِرَادَهُ بِاختِيَارِ مَن يَختَارُهُ وَيَصطَفِيهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَخْلُقَهُ، وَيَصطَفِي لِوَلَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَيس لأحَدٍ مِنَ الأمْرِ وَالاختِيَارِ شَيءٌ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، تَعَالَىٰ وَتنَزَّهَ عَنْ شِركِهِم.

وَقولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]».

قَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ[1]: «﴿وَقَالُوا۟﴾ مُقتَرِحِينَ عَلَىٰ اللهِ بِعُقُولِهِمُ الفَاسِدَةِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ أي: مُعظَّمٍ عِنْدَهُمْ، مُبَجَّلٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، أَوْ أَهْلِ الطَّائِفِ، كَالوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ وَنَحْوِهِ، مِمَّن هُوَ عِنْدَهُم عَظِيمٌ.

قَالَ اللهُ رَدًّا لاقتِرَاحِهِم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ أي: أَهُمُ الخُزَّانُ لِرَحْمَةِ اللهِ، وَبِيدِهِم تَدبيرُهَا، فَيُعطُونَ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ مَنْ يَشَاءُونَ، وَيَمنَعُونَهَا مِمَّنْ يَشَاءُونَ؟!

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٦٠٨).

دَرَجَٰتٍ ﴾؛ أي: فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا، وَالحَالُ أنَّ رَحْمَةَ ﴿ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ مِنَ الدُّنيَا.

فَإِذَا كَانَتْ مَعَايِشُ العِبَادِ وَأرزَاقُهُم الدُّنيَوِيَّةُ بِيَدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ الَّذِي يَقسِمُهَا بَينَ عِبَادِهِ، فَيَبسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، فَرحمَتُهُ الدِّينِيَّةُ -الَّتِي أعْلَاهَا النُّبوَّةُ وَالرِّسَالَةُ- أوْلَىٰ وَأحرَىٰ أنْ تَكُونَ بِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَاللهُ أعَلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.

فَعُلِمَ أنَّ اقتِرَاحَهُم سَاقِطٌ لاغٍ، وَأنَّ التَّدبِيرَ لِلأمُورِ كُلِّهَا، دِينِيِّهَا وَدُنيَوِيِّهَا، بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ.

هَذَا إقنَاعٌ لَهُمْ، مِنْ جِهَةِ غَلَطِهِمْ فِي الاقتِرَاحِ، الَّذِي لَيسَ فِي أيدِيهِم مِنْهُ شَيءٌ، إنْ هُوَ إلَّا ظُلْمٌ مِنْهُم وَرَدٌّ لِلحَقِّ.

وَقَولُهُم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. لَوْ عَرَفُوا حَقَائِقَ الرِّجَالِ، وَالصِّفَاتِ الَّتِي بِهَا يُعْرَفُ عُلُوُّ قَدْرِ الرَّجُلِ، وَعِظَمُ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، لَعَلِمُوا أنَّ مُحمَّدَ بنَ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ ﷺ، هُوَ أعْظَمُ الرِّجَالِ قَدْرًا، وَأعَلاهُمْ فَخرًا، وَأكْمَلُهُم خُلُقًا، وَأوسَعُهُم رَحمَةً، وَأشَدُّهُم شَفَقَةً، وَأهْدَاهُم وَأتقَاهُم.

وَهُوَ قُطْبُ دَائِرَةُ الكَمَالِ، وَإلَيهِ مُنْتَهَىٰ أوْصَافِ الرِّجَالِ، ألا وَهُوَ رَجُلُ العَالَمِ عَلَىٰ الإطْلَاقِ، يَعرِفُ ذَلِكَ أوْلِيَاؤُهُ وَأعْدَاؤُهُ؛ إلَّا مَنْ ضَلَّ وَكَابَرَ، فَكَيفَ يُفَضِّلُ عَلَيهِ المُشْرِكُونَ مَنْ لَمْ يَشُمَّ مِثقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كَمَالِهِ، وَمَنْ حَزْمُهُ

وَمُنتَهَىٰ عَقْلِهِ أنْ جَعَلَ إِلَهَهُ الَّذِي يَعبُدُهُ وَيَدعُوهُ ويَتَقَرَّبُ إِلَيهِ صَنَمًا، أوْ شَجَرًا، أَوْ حَجَرًا، لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُعطِي وَلَا يَمْنَعُ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَولَاهُ، يَحتَاجُ لِمَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِ؟! فَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ فِعْلِ السُّفَهَاءِ وَالمَجَانِينَ؟

فَكَيفَ يُجْعَلُ مِثلُ هَذَا عَظِيمًا؟!

أَمْ كَيفَ يُفَضَّلُ عَلَىٰ خَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيدِ وَلَدِ آدمَ ﷺ؟! وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَروا لَا يَعقِلونَ!

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَفضِيلِ اللهِ بَعضَ العِبَادِ عَلَىٰ بَعضٍ فِي الدُّنيَا؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]. أي: لِيُسَخِّرَ بَعْضُهُم بَعضًا، فِي الأعْمَالِ وَالحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ.

فَلْو تَسَاوَىٰ النَّاسُ فِي الغِنَىٰ، وَلَمْ يَحتَجْ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ، لَتَعَطَّلَتْ كَثِيرٌ مِنْ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ.

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ نِعمَتَهُ الدِّينِيَّةَ خَيرٌ مِنَ النِّعمَةِ الدُّنيَوِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ الأخْرَىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]». اهـ

ثُمَّ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ إِنْكَارَ الأمَمِ لَمْ يَكُنْ لأصْلِ الرِّسَالَةِ، وَلَا لِحَاجَتِهِم إِلَيهَا؛ إِنَّمَا كَانَ إِنْكَارُهُم لِبَعثِ رَسُولٍ مِنْ جِنسِهِم.

* * *

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الحِوَارَ الَّذِي دَارَ بَينَ الرُّسُلِ وَأُمَمِهِم يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُم لَمْ يَكُونُوا يُنكِرونَ الرِّسَالَةَ، وَلَمْ يَكُونُوا يَستَبعِدُونَ حَاجَتَهُم إِلَىٰ هِدَايَةٍ مِنَ اللهِ عَنْ طَرِيقِ رُوحٍ طَيبَةٍ يَختَارُهَا اللهُ لِوَحْيِهِ، أَوْ نَفْسٍ طَاهِرَةٍ يَصْطَفِيهَا لِتَبلِيغِ شَرْعِهِ، لَكِنَّهُم استَبعَدوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرَّسُولُ مِنَ البَشَرِ، وَظَنُّوا خَطأً أَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ المَلَائِكَةِ، زَعْمًا مِنْهُم أَنَّ البَشَرِيَّةَ تُنَافِي الرِّسَالَةَ، فَمَهْمَا صَفَتْ رُوحُ الإنسَانِ، وَسَمَتْ نَفْسُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَدارِكُهُ، فَهُوَ -فِي نَظَرِهِمْ- أَقَلُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلًا لأَنْ يُوحِي اللهُ إِلَيهِ، وَأَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَختَارَهُ سُبحَانَهُ لِتَحَمُّلِ أَعبَاءِ رِسَالَتِهِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، وَتَصَفَّحَ مَا رَوَاهُ عُلَمَاءُ الأَخبَارِ؛ اتَّضَحَ لَهُ مَا ذُكِرَ مِنْ إِمْكَانِ الوَحْيِ، وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٥-٢٧]».



الشَّرْحُ

أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أَوَّلَ المُرسَلِينَ ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ يَدعُوهُم إِلَىٰ اللهِ وَينَهاهُم عَنِ الشِّركِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بَيَّنْتُ لَكُم مَا

أَنْذَرتُكُم بِهِ بَيَانًا زَالَ بِهِ الإِشْكَالُ.

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: أَخْلِصُوا العِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ، وَاتْرُكُوا كُلَّ مَا يُعبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾: إنْ لَمْ تَقُومُوا بِتَوحِيدِ اللهِ وَتُطِيعُونِي.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾. أي: الأَشْرَافُ وَالرُّؤسَاءُ رَادِّينَ لِدَعْوَةِ نَوحٍ عليه السلام كَمَا جَرَتِ العَادَةُ لأمثَالِهِم أَنَّهُم أَوَّلُ مَنْ رَدَّ دَعْوَةَ المُرْسَلِينَ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾. وَهَذَا مَانِعٌ بِزَعمِهِم مِن اتبَاعِهِ، مَعَ أَنَّهُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا يَنبَغِي غَيرُهُ؛ لأَنَّ البَشَرَ يَتَمكَّنُ البَشَرُ أَنْ يَتَلَقَّوا عَنْهُ وَيُرَاجِعُوهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ؛ بِخِلَافِ المَلَائِكَةِ.

وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ مِنَّا إِلَّا الأَرَاذِلُ وَالسِّفْلَةُ -بِزَعمِهِم- وَهُم فِي الحَقِيقَةِ الأَشْرَافُ وَأَهْلُ العُقُولِ، الَّذِينَ انقَادُوا لِلحَقِّ، وَلَمْ يَكُونُوا كَالأَرَاذِلِ الَّذِينَ يُقَالَ لَهُم المَلأُ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا كُلَّ شَيطَانٍ مَرِيدٍ، وَاتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيهَا وَيَسجُدونَ لَهَا؛ فَهَلْ تَرَىٰ أَرْذَلَ مِنْ هَؤلَاءِ وَأَخَسَّ؟!

وَقَولُهُم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾. أي: إِنَّمَا اتَّبَعُوكَ مِنْ غَيرِ تَفَكُّرٍ وَرَوِيَّةٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ مَا دَعَوْتَهُم اتَّبَعُوكَ؛ يَعنُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُم لَيسُوا عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِم، وَلَمْ يَعلَمُوا أَنَّ الحَقَّ المُبِينَ تَدْعُو إِلَيهِ بَدَاهَةُ العُقُولِ، وَبِمُجَرَّدِ مَا يَصِلُ إِلَىٰ أُولِي الأَلْبَابِ يَعرِفُونَهُ وَيَتَحَقَّقونَهُ، لَا كَالأُمُورِ الخَفِيَّةِ الَّتِي تَحتَاجُ إِلَىٰ تَأَمُّلٍ

وَفِكْرٍ طَوِيلٍ.

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أي: لَسْتُمْ أفْضَلَ مِنَّا فَنُقَادَ لَكُمْ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ، وَكَذَبُوا فِي قَولِهِم هَذَا؛ فَإِنَّهُم رَأَوْا مِنَ الآيَاتِ التِي جَعَلَهَا اللهُ مُؤَيِّدَةً لِنُوحٍ مَا يُوجِبُ لَهُم الجَزْمَ التَّامَّ بِصِدْقِهِ.



قَالَ المُصَنِّفُ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥]».

الشَّرْحُ

أي: كَذَّبَتْ ثَمودُ -وَهُمْ قَومُ صَالِحٍ- بِالآيَاتِ التِي أُنذِرُوا بِهَا، فَقَالُوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ نَحْنُ الجَمَاعَةُ الكَثِيرَةُ، وَهُوَ وَاحِدٌ؟!

إِنَّا إِذَنْ لَفِي بُعْدٍ عَنِ الصَّوَابِ وَجُنُونٍ.

أَأُنزِلَ عَلَيهِ الوَحيُ وَخُصَّ بِالنُّبُوَّةِ مِنْ بَينِنَا، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَّا؟! بَلْ هُوَ كَثِيرُ الكَذِبِ وَالتَّجَبُّرِ.

سَيَرَونَ عِنْدَ نُزولِ العَذَابِ بِهِمْ فِي الدُّنيَا وَيَومَ القِيَامَةِ مَنِ الكَذَّابُ المُتَجَبِّرُ؟!

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٣-١٥]».

الشَّرْحُ

أي: وَاضْرِبْ -يَا مُحمَّدُ- لِمُشرِكِي قَومِكَ الرَّادِّينَ لِدَعْوَتِكَ مَثَلًا يَعتَبِرُونَ بِهِ، وَهُوَ قِصَّةُ أَهْلِ القَرْيَةِ، حِينَ ذَهَبَ إِلَيهِمُ المُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيهِم رَسُولَينِ لِدَعْوَتِهِم إِلَىٰ الإِيمَانِ بِاللهِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ غَيرِهِ، فَكَذَّبَ أَهْلُ القَرْيَةِ الرَّسُولَينِ، فَعَزَّزْنَاهُمَا وَقَوَّينَاهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ.

فقَالَ الثَّلَاثَةُ لأَهْلِ القَرْيَةِ: إِنَّا إِلَيكُمْ -أَيُّهَا القَومُ- مُرْسَلُونَ.

قَالَ أَهْلُ القَرْيَةِ لِلمُرسَلِينَ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا أُنَاسٌ مِثلُنَا، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ شَيئًا مِنَ الوَحْي وَمَا أَنْتُم -أَيُّهَا الرُّسُلُ- إِلَّا تَكذِبُونَ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام:٩١]».

الشَّرْحُ

أي: وَمَا عَظَّم هَؤلَاءِ المُشْرِكُونَ اللهَ حَقَّ تَعظِيمِهِ؛ إذْ أَنْكَرُوا أنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَنْزَلَ عَلَىٰ أحَدٍ مِنَ البَشَرِ شَيئًا مِنْ وَحيِهِ.

قُلْ لَهُمْ -يَا مُحَمَّدُ-: إذَا كَانَ الأمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ، فَمَنِ الَّذِي أنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَومِهِ نُورًا لِلنَّاسِ وَهِدَايَةً لَهُم؟

ثُمَّ تَوجَّهَ الخِطَابُ إِلَىٰ اليَهُودِ زَجْرًا لَهُمْ بِقَولِهِ: تَجْعَلُونَ هَذَا الكِتَابَ فِي قَرَاطِيسَ مُتَفَرِّقَةٍ، تُظْهِرُونَ بَعضَهَا، وَتَكتُمُونَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَمِمَّا كَتَمُوهُ الإِخْبَارُ عَنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنُبُوَّتِهِ.

❋ ❋ ❋

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١]».

الشَّرْحُ

أي: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: أَفِي وجُودِ اللهِ وَعِبادَتِهِ -وَحْدَهُ- رَيبٌ، وَهُوَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ، وَمُنشِئُهُمَا مِنَ العَدَمِ عَلَىٰ غَيرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَهُوَ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ بَعضَ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَ بَقَاءَكُمْ فِي الدُّنيَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَدَّرَهُ، وَهُوَ نِهَايَةُ آجَالِكُمْ، فَلَا يُعَذِّبُكُم فِي الدُّنيَا؟

فَقَالُوا لِرُسُلِهِم: مَا نَرَاكُمْ إِلَّا بَشَرًا، صِفَاتُكُم كَصِفَاتِنَا، لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَينَا يُؤَهِّلُكُم أَنْ تَكُونُوا رُسُلًا، تُرِيدُونَ أَنْ تَمْنَعُونَا مِنْ عِبَادَةِ مَا كَانَ يَعْبُدُهُ آبَاؤُنَا مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ، فَائْتُونَا بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ تَشْهَدُ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا تَقُولُونَ.

وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ مَا قَالَهُ أَقْوَامُهُمْ قَالُوا لَهُمْ: حَقًّا مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم

كَمَا قُلتُم، وَلَكِنَّ اللهَ يَتَفَضَّلُ بِإِنْعَامِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَيَصْطَفِيهِم لِرِسَالَتِهِ، وَمَا طَلَبْتُمْ مِنَ البُرْهَانِ المُبِينِ، فَلَا يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَتَوفِيقِهِ، وَعَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ يَعْتَمِدُ المُؤمِنُونَ فِي كُلِّ أُمُورِهِم.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنبياء:٢-٤]».

الشَّرْحُ

أي: مَا مِنْ شَيءٍ يَنزِلُ مِنَ القُرْآنِ يُتْلَىٰ عَلَيهِم مُجَدِّدًا لَهُمُ التَّذْكِيرَ، إلَّا كَانَ سَمَاعُهُم لَهُ سَمَاعَ لَعِبٍ وَاستِهْزَاءٍ.

قُلُوبُهُم غَافِلَةٌ عَنِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، مَشْغُولَةٌ بِأبَاطِيلِ الدُّنيَا وَشَهَوَاتِهَا، لَا يَعْقِلُونَ مَا فِيه، بَلْ إنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ قُرَيشٍ اجتَمَعُوا عَلَىٰ أمْرٍ خَفِيٍّ: وَهُوَ إشَاعَةُ مَا يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ الإيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، لَا يَخْتَلِفُ عَنْهُمْ فِي شَيءٍ، وَأنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ القُرْآنِ سِحْرٌ، فَكَيفَ تَجِيئُونَ إلَيهِ وَتَتَّبِعُونَهُ، وَأنْتُمْ تُبصِرُونَ أنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُم؟

رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ الأمْرَ إلَىٰ رَبِّهِ ﷻ، فَقَالَ: رَبِّي يَعْلَمُ القَولَ فِي السَّمَاءِ وَالأرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا أسْرَرتُمُوهُ مِنْ حَدِيثِكُمْ، وَهُوَ السَّمِيعُ لأقْوَالِكُم، العَلِيمُ بِأحْوَالِكُم، وَفِي هَذَا تَهدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ.

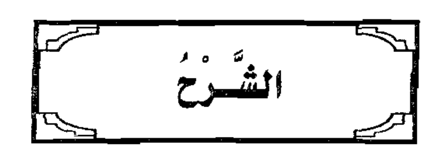
* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِلَىٰ غيرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ إِنْكَارِ الأُمَمِ لَمْ يَكُنْ لِأَصْلِ الرِّسَالَةِ وَلَا لِحَاجَتِهِم إِلَيهَا، إِنَّمَا كَانَ لِبَعثِ رَسُولٍ مِنْ جِنْسِهِم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ أَئِمَّةَ الكُفْرِ وَزُعَمَاءَ الضَّلَالَةِ كَانُوا يُوقِنُونَ بِإِمْكَانِ أَنْ يُرسِلَ اللهُ رَسُولًا مِنَ البَشَرِ غَيرَ أَنَّهُم جَحَدُوا ذَلِكَ بِأَلْسِنَتِهِم حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ، وَتَموِيهًا عَلَىٰ الطَّغَامِ مِنَ النَّاسِ، وَخِدَاعًا لِضُعَفَاءِ العُقُولِ، وَتَلبِيسًا عَلَيهِم خَشْيَةَ أَنْ يُسَارِعُوا إِلَىٰ مُقتَضَىٰ الفِطْرَةِ، وَيَستَجِيبُوا لِدَاعِي الدِّينِ، وَمُتَابَعَةِ المُرْسَلِينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ ذَلِكَ مَا كَانَ بَعِيدًا عَنِ الحَقِيقَةِ، وَلَا مُجَافِيًا لِلصَّوَابِ! بَلْ بَدَتْ مِنْهُمُ البَوَادِرُ الَّتِي تُؤَيِّدُ ذَلِكَ وَتُصَدِّقُهُ، وَسَبَقَ إِلَىٰ لِسَانِهِم مَا يُرْشِدُ البَصِيرَ إِلَىٰ مَا انْطَوَتْ عَلَيهِ نُفُوسُهُم مِنَ الحَسَدِ وَالاسْتِكْبَارِ أَنْ يُؤتَىٰ الرُّسُلُ مَا أُوتُوا دُونَهُم، وَيَنَالُوا مِنَ الفَضِيلَةِ وَقِيَادَةِ الأُمَمِ إِلَىٰ الإِصْلَاحِ مَا لَمْ يَنَلْ هَؤُلَاءِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]».


الشَّرْحُ

أي: إِنَّمَا ثَبَتَ أَكَابِرُ المُجْرِمِينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَقَامُوا بِرَدِّ الحَقِّ الَّذِي

جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَسَدًا مِنْهُمْ وَبَغْيًا، فَقَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤]. مِنَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ.

وَفِي هَذَا اعتِرَاضٌ مِنْهُم عَلَىٰ اللهِ، وَعُجْبٌ بِأَنْفُسِهِم، وَتَكَبُّرٌ عَلَىٰ الحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ، وَتَحَجُّرٌ عَلَىٰ فَضْلِ اللهِ وَإِحْسَانِهِ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيهِم اعتِرَاضَهُمُ الفَاسِدَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَصْلُحُونَ لِلخَيرِ، وَلَا فِيهِم مَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنَ النَّبِيينَ وَالمُرْسَلِينَ.

فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ فَمَنْ عَلِمَهُ يَصْلُحُ لَهَا وَيَقُومُ بِأَعْبَائِهَا، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، وَمُتَبَرِّئٌ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيءٍ؛ أَعْطَاهُ اللهُ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ أَصْلًا وَتَبَعًا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، لَمْ يَضَعْ أَفْضَلَ مَوَاهِبِهِ عِنْدَ مَنْ لَا يَستَأهِلُهُ وَلَا يَزكُو عِنْدَهُ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٣]».

الشَّرْحُ

أي: وَنَادَىٰ فِرعَونُ فِي قَومِهِ قَالَ مُستَعلِيًا بِبَاطِلِهِ، قَدْ غَرَّهُ مُلْكُهُ وَأَطْغَاهُ مَالُهُ وَجُنُودُهُ: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أي: أَلَستُ المَالِكَ لِذَلِكَ، المُتَصَرِّفَ فِيهِ.

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؛ أي: الأَنْهَارُ المُنْسَحِبَةُ مِنَ النِّيلِ فِي وَسَطِ القُصُورِ وَالبَسَاتِينِ، أفَلَا تُبصِرُونَ هَذَا المُلْكَ الطَّوِيلَ العَرِيضَ؟!

وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِ البَلِيغِ؛ حَيثُ افتَخَرَ بِأَمْرٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ وَلَمْ يَفْخَرْ بِأَوصَافٍ حَمِيدَةٍ، وَلَا أَفْعَالٍ سَدِيدَةٍ.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾. يَعنِي -قَبَّحَهُ اللهُ- بِالمَهِينِ: مُوسَىٰ ابنَ عِمْرَانَ كَلِيمَ الرَّحْمَنِ الوَجِيهَ عِنْدَ اللهِ، أي: أَنَا العَزِيزُ وَهُوَ الذَّلِيلُ المُهَانُ

المُحتَقَرُ، فَأَيُّنَا خيرٌ؟!

وَمَعَ هَذَا؛ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ بِالكَلَامِ؛ لأَنَّهُ لَيسَ بِفَصِيحِ اللِّسَانِ، وَهَذَا لَيسَ مِنَ العُيوبِ فِي شَيءٍ، إذَا كَانَ يُبَيِّنُ مَا فِي قَلْبِهِ، وَلَوْ كَانَ ثَقِيلًا عَلَيهِ الكَلَامُ.

ثُمَّ قَالَ فِرعَونُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾. أي: فَهَلَّا كَانَ مُوسَىٰ بِهَذِهِ الحَالَةِ: أنْ يَكُونَ مُزَيَّنًا مُجَمَّلًا بِالحُلِيِّ وَالأَسَاوِرِ، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يُعاونُونَهُ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ، وَيُؤَيِّدونَهُ عَلَىٰ قَولِهِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيسَ بِدْعًا أَنْ يَختَارَ اللهُ نَبِيًّا مِنَ البَشَرِ، أَوْ يَبْعَثَ فِي النَّاسِ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِم يَتْلُو عَلَيهِم آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِم، وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، بَلْ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَىٰ الحِكْمَةِ وَمُوجِبُ العَقْلِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ بِأَنْ يَكُونُوا أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً عَلَىٰ طَرَائِقَ شَتَّىٰ، وَطَبَائِعَ مُتَبَايِنَةٍ، لِكُلِّ نَوعٍ غَرَائِزُهُ وَمُيُولُهُ، أَوْ خَوَاصُّهُ وَمُمَيزَاتُهُ الَّتِي تَقْضِي بِالأُنْسِ وَالتَّآلُفِ بَينَ أَفْرَادِهِ، وَتُسَاعِدُ عَلَىٰ التَّفَاهُمِ وَالتَّعَاوُنِ بَينَ الجَمَاعَاتِ، لِيَقُومَ الوجُودُ، وَيَنتَظِمَ الكَونُ، فَكَانَ اختِيَارُ الرَّسُولِ مِنَ الأُمَّةِ أَقْرَبَ إِلَىٰ أَخْذِهَا عَنْهُ، وَأَدْعَىٰ إِلَىٰ فَهْمِهَا مِنْهُ، وَتَعَاوِنِهَا مَعَهُ، لِمَزِيدِ التَّنَاسُبِ، وَلِمَكَانِ الإِلْفِ بَينَ أَفْرَادِ النَّوْعِ الوَاحِدِ.

وَلَو كَانَ عُمَّارُ الأَرْضِ مِنَ المَلَائِكَةِ لاقتَضَتِ الحِكْمَةُ أَنْ يَبعَثَ اللهُ إِلَيهِمْ مَلَكًا رَسُولًا، وَقَدْ أَرْشَدَ اللهُ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي رَدِّهِ عَلَىٰ مَنِ استَنكَرَ أَنْ يُرْسِلَ إِلَىٰ البَشَرِ رَسُولًا مِنْهُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]».


الشَّرْحُ

أي: وَمَا مَنَعَ الكُفَّارَ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَتِهِمَا، حِينَ جَاءَهُمُ

البَيَانُ الكَافِي مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِلَّا قَولَهُم جَهْلًا وَإِنْكَارًا: أَبَعَثَ اللهُ رَسُولًا مِنْ جِنْسِ البَشَرِ؟!

قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- رَدًّا عَلَىٰ المُشْرِكِينَ إِنْكَارَهُم أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنَ البَشَرِ: لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ عَلَيهَا مُطْمَئِنِّينَ لأَرْسَلْنَا إِلَيهِمْ رَسُولًا مِنْ جِنْسِهِم، وَلَكِنَّ أَهْلَ الأَرضِ بَشَرٌ.

فَالرَّسُولُ إِلَيهِم يَنبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِهِم؛ لِيُمكِنَهُم مُخَاطَبَتُهُ وَفَهْمُ كَلَامِهِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَكِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ الخَلِيفَةُ فِي الأَرْضِ مِنَ البَشَرِ، فَاقتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ إِلَيهِم مِنْ جِنْسِهِم، بَلِ اقتَضَتْ حِكْمَتُهُ مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ الوصُولِ لِلغَايَةِ، وَتَحْصِيلِ المَقْصُودِ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَكَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يُرْسِلَ كُلَّ رَسُولٍ بِلِسَانِ قومِهِ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤]».

الشَّرْحُ

وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ مَا أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَّا بِلِسَانِ قَومِهِ؛ لِيُبَيِّنَ لَهُم مَا يَحتَاجُونَ إِلَيهِ، وَيَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَعَلُّمِ مَا أَتَىٰ بِهِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أَتَىٰ عَلَىٰ غَيرِ لِسَانِهِم، فَإِنَّهُم يَحتَاجُونَ إِلَىٰ تَعَلُّمِ تِلْكَ اللُّغَةِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا، ثُمَّ يَفْهَمُونَ عَنْهُ، فَإِذَا بَيَّنَ لَهُمُ الرَّسُولُ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ، وَقَامَتْ عَلَيهِمْ حُجَّةُ اللهِ؛ ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ مِمَّنْ لَمْ يَنْقَدْ لِلهُدَىٰ، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مِمَّنِ اختَصَّهُ بِرَحْمَتِهِ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، الَّذِي مِنْ عِزَّتِهِ أَنَّهُ انْفَرَدَ بِالهِدَايَةِ وَالإِضْلَالِ وَتَقْلِيبِ القُلُوبِ إِلَىٰ مَا شَاءَ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ لَا يَضَعُ هِدَايَتَهُ وَلَا إِضلَالَهُ إِلَّا بِالمَحَلِّ اللَّائِقِ بِهِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَلو قُدِّرَ أَنَّ اللهَ أَجَابَ الكُفَّارَ عَلَىٰ مَا اقْتَرَحُوا مِنْ إِرْسَالِ مَلَكٍ إِلَيهِمْ لأرْسَلَ سُبحَانَهُ المَلَكَ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ أَخْذِ التَّشرِيعِ عَنْهُ، وَالاقْتَدَاءِ بِهِ فِيمَا يَأتِي وَيَذَرُ، وَيَخُوضُ مَعَهُم مَيَادِينَ الحِجَاجِ وَالجِهَادِ، وَبِذَلِكَ يَعُودُ الأَمْرُ سِيرَتَهُ الأُولَىٰ، كَمَا لَو أَرْسَلَ سُبحَانَهُ رَسُولًا مِنَ البَشَرِ، وَيَقَعُونَ فِي لَبْسٍ وَحَيرَةٍ، جَزَاءً وِفَاقًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام:٨-٩]».

الشَّرْحُ

وَقَالُوا؛ تَعنتًا مَبنِيًّا عَلَىٰ الجَهْلِ وَعَدَمِ العِلْمِ بِالمَعقُولِ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾. أي: هَلَّا أُنزِلَ مَعَ مُحَمَّدٍ مَلَكٌ يُعَاوِنُهُ وَيُسَاعِدُهُ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيهِ؛ بِزَعمِهِم أَنَّهُ بَشَرٌ، وَأَنَّ رِسَالَةَ اللهِ لَا تَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ أَيدِي المَلَائِكَةِ.

قَالَ اللهُ فِي بَيَانِ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ حَيثُ أَرْسَلَ إِلَيهِم بَشَرًا مِنْهُم يَكُونُ الإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وَغَيبٍ: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾: بِرِسَالَتِنَا؛ لَكَانَ الإِيمَانُ لَا يَصْدُرُ عَنْ مَعْرِفَةٍ بِالحَقِّ، وَلَكَانَ إِيمَانًا بِالشَّهَادَةِ، الَّذِي لَا يَنْفَعُ شَيئًا وَحْدَهُ، هَذَا إِنْ آمَنُوا، وَالغَالِبُ أَنَّهُم لَا يُؤمِنُونَ بِهَذِهِ الحَالَةِ.

فَإذَا لَمْ يُؤمِنُوا؛ ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بِتَعجِيلِ الهَلَاكِ عَلَيهِم وَعَدَمِ إنظَارِهِم؛ لأنَّ هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِيمَنْ طَلَبَ الآيَاتِ المُقتَرَحَةَ فَلَمْ يُؤمِن بِهَا.

فَإرسَالُ الرَّسُولِ البَشَرِيِّ إليهِم بالآيَاتِ البيِّنَاتِ الَّتِي يَعْلَمُ اللهُ أنَّهَا أصْلَحُ لِلعِبَادِ، وَأرْفَقُ بِهِم، مَعَ إمْهَالِ اللهِ لِلكَافِرِينَ وَالمُكَذِّبِينَ، خَيرٌ لَهُمْ وَأنْفَعُ، فَطَلَبُهُم لإنزَالِ المَلَكِ شَرٌّ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَالمَلَكُ لَو أُنزِلَ عَلَيهِم وَأُرسِلَ؛ لَمْ يُطِيقُوا التَّلَقِّيَ عَنْهُ وَلَا احتَمَلُوا ذَلِكَ وَلَا أطَاقَتهُ قُوَاهُمُ الفَانِيَةُ، فَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا؛ لأنَّ الحِكْمَةَ لَا تَقتَضِي سِوَىٰ ذَلِكَ.

﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾؛ أي: وَلَكَانَ الأمْرُ مُختَلِطًا عَلَيهِم وَمَلبُوسًا، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا لَبَّسُوهُ عَلَىٰ أنْفُسِهِم؛ فَإنَّهُم بَنَوْا أمْرَهُم عَلَىٰ هَذِهِ القَاعِدَةِ الَّتِي فِيهَا اللَّبْسُ، وَعَدَمُ بَيَانِ الحَقِّ، فَلَمَّا جَاءَهُم الحَقُّ بِطُرُقِهِ الصَّحِيحَةِ وَقَوَاعِدِهِ الَّتِي هِيَ قَوَاعِدُهُ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ هِدَايَةً لَهُمْ إذَا اهْتَدَىٰ بِذَلِكَ غَيرُهُم، وَالذَّنْبُ ذَنبُهُم حَيثُ أغْلَقُوا عَلَىٰ أنْفُسِهِم بَابَ الهُدَىٰ، وَفَتَحُوا أبْوَابَ الضَّلَالِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ نَظَرَ فِي آيَاتِ القُرآنِ، وَعَرَفَ تَارِيخَ الأُمَمِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي عِبَادِهِ أَنْ يُرسِلَ إِلَيهِمْ رُسُلاً مِنْ أَنْفُسِهِم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٣-٤٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان:٢٠]».

الشَّرْحُ

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾. أي: لَستَ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَلَمْ نُرْسِل قَبْلَكَ مَلَائِكَةً، بَلْ رِجَالًا كَامِلِينَ لَا نِسَاءً.

نُوحِي إليهِم مِنَ الشَّرَائِعِ وَالأَحْكَامِ مَا هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَىٰ العَبِيدِ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَأْتُوا بِشَيءٍ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِم.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾. أي: الكُتُبِ السَّابِقَةِ ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبأَ الأَوَّلِينَ، وَشَكَكْتُم، هَلْ بَعَثَ اللهُ رِجالًا؟

فَاسْأَلُوا أَهْلَ العِلْمِ بِذَلِكَ، الَّذِينَ نَزَلَتْ عَلَيهِمُ الزُّبُرُ وَالبَيِّنَاتُ، فَعَلِمُوهَا وَفَهِمُوهَا؛ فَإِنَّهُم كُلَّهُم قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَهُم أَنَّ اللهَ مَا بَعَثَ إِلَّا رِجَالًا يُوحِي إِلَيهِم

مِنْ أَهْلِ القُرَىٰ.

وَأَفْضَلُ أَهْلِ الذِّكْرِ أَهْلُ هَذَا القُرْآنِ العَظِيمِ، فَإِنَّهُم أَهْلُ الذِّكْرِ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، وَأَوْلَىٰ مِنْ غَيرِهِمْ بِهَذَا الاسْمِ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [النحل:٤٤]. أي: القُرآنَ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ العِبَادُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِم وَدُنيَاهُم الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾. وَهَذَا شَامِلٌ لِتَبيينِ أَلفَاظِهِ وَتَبيينِ مَعَانِيهِ.

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فِيهِ، فَيستَخرِجُونَ مِنْ كُنُوزِهِ وَعُلُومِهِ بِحَسَبِ استِعْدَادِهِمْ وَإِقْبَالِهِم عَلَيهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ جَوابًا لِقَولِ المُكَذِّبِينَ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

فَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ مَلَائِكَةً، فَلَكَ فِيهِم أُسْوَةٌ، وَأَمَّا الغِنَىٰ وَالفَقْرُ، فَهُوَ فِتْنَةٌ وَحِكمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾.

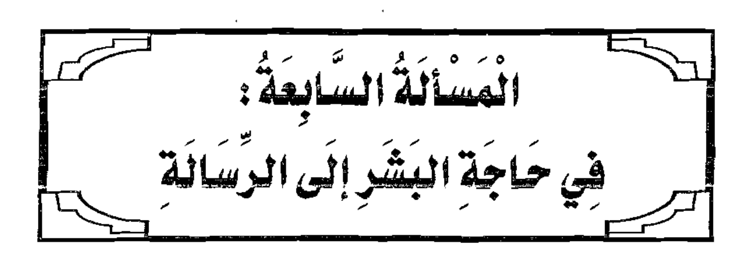
الرَّسُولُ فِتنَةٌ لِلمُرسَلِ إِلَيهِم، وَاختِبَارٌ لِلمُطِيعِينَ مِنَ العَاصِينَ، وَالرُّسُلُ فَتَنَّاهُمْ بِدَعوَةِ الخَلْقِ، وَالغَنِيُّ فِتنَةٌ لِلفَقِيرِ، وَالفَقِيرُ فِتنَةٌ لِلغَنِيِّ، وَهَكَذَا سَائِرُ أَصنَافِ الخَلْقِ فِي هَذِهِ الدَّارِ دَارِ الفِتَنِ وَالابتِلَاءِ وَالاختِبَارِ، وَالقَصْدُ مِنْ تِلْكَ

الفِتْنَةِ: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾، فَتَقُومُونَ بِمَا هُوَ وَظِيفَتُكُم اللَّازِمَةُ الرَّاتِبَةُ، فَيُثِيبُكُم مَولَاكُم، أَمْ لَا تَصبِرُونَ فَتَستَحِقُّونَ المُعَاقَبَةَ؟

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يَعلَمُ أَحْوَالَكُمْ، وَيَصطَفِي مَنْ يَعلَمُهُ يَصلُحُ لِلرِّسَالَةِ، وَيَختَصُّهُ بِتَفضِيلِهِ، وَيَعلَمُ أعمَالَكُم، فَيُجَازِيكُمْ عَلَيهَا إنْ خَيرًا فَخيرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وَفِي ذَلِكَ الرَّدُّ الوَاضِحُ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ مُنَافَاةَ البَشَرِيَّةِ لِلرِّسَالَةِ؛ بِبَيَانِ سُنَّةِ اللهِ فِي رُسُلِهِ، وَحِكْمَتِهِ فِي اختِيَارِهِم عَلَىٰ نَحوٍ يَكفُلُ المَصْلَحَةَ، وَيَنتَهِي بِالأُمَّةِ إِلَىٰ المَقْصُودِ.





المَسْألةُ السَّابِعةُ: فِي حَاجَةِ البَشَرِ إلى الرِّسَالَةِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الأفْعَالُ الاختِيَارِيَّةُ: مِنْهَا: مَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ فَيَجْمُلُ بِالعَاقِلِ فِعْلُهُ، وَالحِرْصُ عَلَيه، وَلَوْ نَالَهُ فِي سَبِيلِ تَحصِيلِهِ حَرَجٌ وَمَشَقَّةٌ، وَأَصَابَهُ مِنْهُ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ كَثِيرٌ مِنَ الآلَامِ.

وَمِنْهَا: مَا تَسوءُ مَغبَّتُهُ، فَيجْدُرُ بِالعَاقِلِ أنْ يَتَمَاسَكَ دُونَهُ، وَأنْ يَتنكَّبَ طَرِيقَهُ، خَشْيَةَ شَرِّهِ، وَطَلَبًا لِلسَّلَامَةِ مِنْ ضُرِّهِ، وَإنْ كَانَ فِيهِ مَا فِيهِ مِنَ المَلَذَّاتِ العَاجِلَةِ الَّتِي تُغْرِي الإنْسَانَ بِفِعْلِهِ، أَوْ تَخْدَعُهُ عَمَّا فِيهِ سَلَامَةُ نَفْسِهِ.

غَيرَ أَنَّ عَقْلَهُ قَدْ يَقْصُرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ شُئُونِهِ عَنِ التَّمييزِ بَينَ حَسَنِ الأفْعَالِ وَقَبِيحِهَا، وَنَافِعِهَا وَضَارِّهَا.

فَلَابُدَّ مِنْ مُعِينٍ يُسَاعِدُهُ عَلَىٰ إِدْرَاكِ مَا قَصُرَ عَنْهُ إدْرَاكُهُ، وَقَدْ يَعْجِزُ عَنِ العِلْمِ بِمَا يَجِبُ عَلَيهِ عِلْمُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيسَ فِي مُحِيطِ عَقْلِهِ، وَلَا دَائِرَةِ فِكْرِهِ، مَعَ مَا فِي عِلْمِهِ بِهِ مِنْ صَلَاحِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَذَلِكَ: كَمَعْرِفَتِهِ بِاللهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالمَلَائِكَةِ تَفصِيلًا، فَكَانَ فِي ضَرُورَةٍ إلَىٰ مَنْ يَهدِيه الطَّرِيقَ فِي أُصُولِ دِينِهِ.

وَقَدْ يَتَرَدَّدُ فِي أَمْرٍ؛ إِمَّا لِعَارِضِ هَوًىٰ وَشَهْوَةٍ، أَوْ لِتَزَاحُمِ الدَّوَاعِي وَاخْتِلَافِهَا، فَيَحتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يُنقِذُهُ مِنَ الحَيرَةِ، وَيَكْشِفُ لَهُ عَنْ حِجَابِ الضَّلَالَةِ بِنُورِ الهُدَىٰ، فَبَانَ بِذَلِكَ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَىٰ رَسُولٍ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَيُكَمِّلُهُم بِمَعرِفَةِ مَا قَصُرَتْ عَنْهُ أَفْهَامُهُم، وَيُوقِفُهُم عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَا عَجَزُوا عَنْهُ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ الأَلَمَ وَالحَيْرَةَ، وَمَضَرَّةَ الشُّكُوكِ».

الشَّرْحُ

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «زَاد المَعَادِ» (١/ ٦٩): «وَمِنْ هَاهُنَا تَعْلَمُ اضْطِرَار العِبَادِ فَوقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ إِلَىٰ مَعرِفَةِ الرَّسُولِ، وَمَا جَاءَ بِهِ، وَتَصدِيقِهِ فِيمَا أَخبَرَ بِهِ، وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ؛ فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ السَّعَادَةِ وَالفَلَاحِ لَا فِي الدُّنيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا عَلَىٰ أَيْدِي الرُّسُلِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِم، وَلَا يُنَالُ رِضَا اللهِ أَلْبَتَّةَ إِلَّا عَلَىٰ أَيدِيهِمْ.

فَالطَّيِّبُ مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوالِ وَالأَخْلَاقِ لَيسَ إِلَّا هَديَهم وَمَا جَاءوا بِهِ، فَهُمُ المِيزانُ الرَّاجِحُ الَّذِي عَلَىٰ أَقوالِهِم وَأَعْمَالِهِم وَأَخْلَاقِهِم تُوزَنُ الأَقْوالُ وَالأَخْلَاقُ وَالأَعْمَالُ، وَبِمُتَابَعَتِهِم يَتَمَيَّزُ أَهْلُ الهُدَىٰ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ.

فَالضَّرُورَةُ إِلَيهِم أَعظَمُ مِنْ ضَرُورَةِ البَدَنِ إِلَىٰ رُوحِهِ، وَالعَينِ إِلَىٰ نُورِهَا، وَالرُّوحِ إِلَىٰ حَيَاتِهَا، فَأَيُّ ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ فُرِضَتْ، فَضَرُورَةُ العَبْدِ وَحَاجَتُهُ

إِلَىٰ الرُّسُلِ فوقَهَا بِكَثِيرٍ.

وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ إِذَا غَابَ عَنْكَ هَدْيُهُ وَمَا جَاءَ بِهِ طَرفَةَ عَينٍ، فَسَدَ قَلْبُكَ، وَصَارَ كَالحُوتِ إِذَا فَارَقَ المَاءَ، وَوُضِعَ فِي المِقْلَاةِ، فَحَالُ العَبْدِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ قَلْبِهِ لِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، كَهَذِهِ الحَالِ، بَلْ أعظَمُ، وَلَكِنْ لَا يُحِسُّ بِهَذَا إِلَّا قَلبٌ حَيٌّ، **وَمَا لجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ**[1].

وَإِذَا كَانَتْ سَعَادَةُ العَبْدِ فِي الدَّارَينِ مُعَلَّقَةً بِهَدي النَّبِيِّ ﷺ، فَيَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ، وَأَحَبَّ نَجَاتَهَا وَسَعَادَتَهَا، أَنْ يَعرِفَ مِنْ هَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ وَشَأنِهِ مَا يَخرُجُ بِهِ عَنِ الجَاهِلِينَ بِهِ، وَيَدخُلُ فِي عِدَادِ أَتبَاعِهِ وَشِيعَتِهِ وَحِزْبِهِ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا بينَ مُستَقِلٍّ، وَمُستكثِرٍ، وَمَحرُومٍ، وَالفَضْلُ بِيَدِ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ». اهـ

وَقَدْ بَيَّنَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَاجَةَ العَالَمِ إِلَىٰ الرِّسَالَةِ وَالوَحيِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ»؛ مِنْهَا (٩/ ٩٣) وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعِبَادِ لَابُدَّ لَهُمْ مِنْهَا، وَحَاجَتُهُمْ إِلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إِلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ، فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إِذَا عُدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟

---

(١) عَجُزُ بيت لأبي الطيب، والبيت:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ ... مَا لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

وهو في ديوانه (٤/ ٩٤).

وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إِلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنَ الأَمْوَاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ؛ كَانَ مَيْتًا فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ فَأَحْيَاهُ اللهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ وَنُورِ الإِيمَانِ وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيِّتُ الْقَلْبِ فِي الظُّلُمَاتِ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ اللهَ سَمَّىٰ رِسَالَتَهُ رُوحًا، وَالرُّوحُ إِذَا عُدِمَ فُقِدَتِ الحَيَاةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

فَذَكَرَ هُنَا أَصْلَينِ، وَهُمَا: الرُّوحُ، وَالنُّورُ، فَالرُّوحُ: الحَيَاةُ، وَالنُّورُ: النُّورُ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ اللهَ يَضرِبُ الأمثَالَ لِلوَحيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ حَيَاةً لِلقُلُوبِ وَنُورًا لَهَا: بِالمَاءِ الَّذِي يُنزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ حَيَاةً لِلأَرْضِ، وَبِالنَّارِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا النُّورُ، وَهَذَا كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

فَشَبَّهَ العِلْمَ بِالمَاءِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّمَاءِ؛ لأنَّ بِهِ حَيَاةَ القُلُوبِ، كَمَا أنَّ بِالمَاءِ حَيَاةَ الأبْدَانِ، وَشَبَّهَ القُلُوبَ بِالأوْدِيَةِ، لأَنَّهَا مَحَلٌّ لِلعِلْمِ، كَمَا أنَّ الأودِيَةَ مَحَلُّ المَاءِ، فَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا، وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا، وَقَلْبٌ يَسَعُ عِلْمًا قَلِيلًا، وَوَادٍ يَسَعُ مَاءً قَلِيلًا.

وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَىٰ السَّيْلِ مِنَ الزَّبَدِ بِسَبَبِ مُخَالَطَةِ الْمَاءِ، وَأَنَّهُ يَذْهَبُ جُفَاءً؛ أَيْ: يُرْمَىٰ بِهِ وَيُخْفَىٰ، وَالَّذِي يَنْفَعُ النَّاس يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْتَقِرُّ، وَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ تُخَالِطُهَا الشَّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ ، ثُمَّ تَذْهَبُ جُفَاءً، وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَالنَّاسَ، وَقَالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ﴾ [الرعد:١٧]. فَهَذَا الْمَثَلُ الْآخَرُ وَهُوَ النَّارِيُّ، فَالْأَوَّلُ لِلْحَيَاةِ وَالثَّانِي لِلضِّيَاءِ».

وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ لِهَذَينِ المِثَالَينِ نَظِيرًا، وَهُمَا المِثَالَانِ المَذْكُورَانِ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٧-١٩]».

وَذَكَرَ شَيخُ الإسْلَام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَصْفَ المُؤمِنِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَمَّا الْكَافِرُ: فَفِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ غَيْرُ حَيٍّ، وَإِنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ حَيَاةً بَهِيمِيَّةً فَهُوَ عَادِمُ الْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ الْعُلْوِيَّةِ الَّتِي سَبَبُهَا الْإِيمَانُ، وَبِهَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ السَّعَادَةُ

وَالْفَلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الرُّسُلَ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَتَكْمِيلِ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَبُعِثُوا جَمِيعًا بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَيْهِ وَبَيَانِ حَالِهِمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ».

وَذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ الأُصُولَ الَّتِي دَلَّ عَلَيهَا فَقَالَ:

«**فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ**: يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقَدَرِ، وَذِكْرِ أَيَّامِ اللهِ فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَهِيَ الْقِصَصُ الَّتِي قَصَّهَا اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ضَرَبَهَا لَهُمْ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: يَتَضَمَّنُ تَفْصِيلَ الشَّرَائِعِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْإِبَاحَةِ، وَبَيَانَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَمَا يَكْرَهُهُ.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَعَلَىٰ هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ مَدَارُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالسَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ، مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَهْتَدِي إِلَىٰ تَفَاصِيلِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِهَا وَإِنْ كَانَ قَدْ يُدْرِكُ وَجْهَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، كَالْمَرِيضِ الَّذِي يُدْرِكُ وَجْهَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الطِّبِّ وَمَنْ يُدَاوِيهِ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَىٰ تَفَاصِيلِ الْمَرَضِ، وَتَنْزِيلِ الدَّوَاءِ عَلَيْهِ». اهـ

وَقَالَ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «لَوَامِعِ الأَنْوَارِ» (٢/ ٢٥٦)**: «اعْلَمْ أَنَّ حَاجَةَ

الخَلْقِ إِلَىٰ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَبَعثَةِ الأنبِيَاءِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ضَرُورِيَّةٌ، لَا يَنْتَظِمُ لَهُمْ حَالٌ، وَلَا يَصْلُحُ لَهُمْ دِينٌ وَلَا بَالٌ إِلَّا بِذَلِكَ، فَهُمْ أَشَدُّ احتِيَاجًا إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ إِرْسَالِ المَطَرِ وَالهَوَاءِ، بَلْ وَمِنَ النَّفَسِ الَّذِي لَابُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، كَمَا فِي مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ، لِلْمُحَقِّقِ ابنِ القَيمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-». اهـ

وَكَلَامُ ابنُ القَيِّمِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيهِ السَّفَّارِينِيُّ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (٢/ ٣١٨) وَهُوَ: «حَاجَةُ النَّاسِ إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ ضَرورِيَّةٌ فَوقَ حَاجَتِهِمْ إِلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وَلَا نِسبَةَ لِحَاجَتِهِم إِلَىٰ عِلْمِ الطِّبِّ إِلَيهَا، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ العَالَمِ يَعِيشُونَ بِغَيرِ طَبِيبٍ، وَلَا يَكُونُ الطَّبِيبُ إِلَّا فِي بَعْضِ المُدُنِ الجَامِعَةِ.

وَأَمَّا أَهْلُ البَدْوِ كُلُّهُمْ وَأَهْلُ الكُفُورِ[1] كُلُّهُمْ وَعَامَّةُ بَنِي آدَمَ، فَلَا يَحتَاجُونَ إِلَىٰ طَبِيبٍ، وَهُمْ أَصَحُّ أَبْدَانًا وَأَقْوَىٰ طَبِيعَةً مِمَّنْ هُوَ مُتَقَيِّدٌ بِالطَّبِيبِ، وَلَعَلَّ أَعْمَارَهُم مُتَقَارِبَةٌ.

وَقَدْ فَطَرَ اللهُ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ تنَاوُلِ مَا يَنْفَعُهُم وَاجتِنَابِ مَا يَضُرُّهُمْ، وَجَعَلَ لِكُلِّ قَومٍ عَادَةً وَعُرْفًا فِي استِخْرَاجِ مَا يَهْجُمُ عَلَيهِمْ مِنَ الأَدْوَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُصُولِ الطِّبِّ إِنَّمَا أُخِذَتْ مِنْ عَوَائِدِ النَّاسِ وَعُرفِهِم وَتَجَارِبِهِم، وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَمَبنَاهَا عَلَىٰ تعرِيفِ مَوَاقِعِ رَضَا اللهِ وَسَخَطِهِ فِي حَرَكَاتِ العِبَادِ الاختِيَارِيَّةِ؛ فَمَبنَاهَا عَلَىٰ الوَحْيِ المَحْضِ.

وَالحَاجَةُ إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ أَشَدُّ مِنَ الحَاجَةِ إِلَىٰ التَّنَفُّسِ فَضْلًا عَنِ الطَّعَامِ

---

(١) جمع كَفْرٍ، وَهُوَ القرية الصغيرة.

وَالشَّرَابِ؛ لأَنَّ غَايَةَ مَا يُقَدَّرُ فِي عَدَمِ التَّنَفُّسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ موتُ البَدَنِ وَتَعَطُّلُ الرُّوحِ عَنْهُ، وَأَمَّا مَا يُقَدَّرُ عِنْدَ عَدَمِ الشَّرِيعَةِ؛ فَفَسَادُ الرُّوحِ وَالقَلْبِ جُمْلَةً وَهَلَاكُ الأَبَدِ.

وَشَتَّانَ بَينَ هَذَا وَهَلَاكِ البَدَنِ بِالمَوْتِ، فَلَيسَ النَّاسُ قَطُّ إِلَىٰ شَيءٍ أَحْوجَ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَالقِيَامِ بِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيهِ، وَالصَّبرِ عَلَيهِ، وَجِهَادِ مَنْ خَرَجَ عَنْهُ حَتَّىٰ يَرجِعَ إِلَيهِ، وَلَيسَ لِلعَالَمِ صَلَاحٌ بِدُونِ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الوصُولِ إِلَىٰ السَّعَادَةِ وَالفَوزِ الأَكْبَرِ إِلَّا بِالعُبُورِ عَلَىٰ هَذَا الجِسْرِ». اهـ

* * *

وَقَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ تَفَاوتَ العُقُولِ وَالمَدَارِكِ، وَتَبَايُنَ الأَفْكَارِ، وَاختِلَافَ الأَغْرَاضِ، وَالمَنَازِعِ، يَنْشَأُ عَنْهُ تَضَارُبُ الآرَاءِ، وَتَنَاقُضُ المَذَاهِبِ، وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَىٰ سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَنَهْبِ الأَمْوَالِ، وَالاعتِدَاءِ عَلَىٰ الأَعْرَاضِ، وَانتِهَاكِ الحُرُمَاتِ، وَبِالجُمْلَةِ: يَنْتَهِي إِلَىٰ تَخْرِيبٍ وَتَدْمِيرٍ لَا إِلَىٰ تَنْظِيمٍ وَحُسْنِ تَدْبِيرٍ، وَلَا يَرْتَفِعُ ذَلِكَ إِلَّا بِرَسُولٍ يَأْتِي بِفَصْلِ الخِطَابِ، وَيُقِيمُ الحُجَّةَ، فَاقتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُرسِلَ رُسُلَهُ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ، وَإِقَامَةً لِلعَدْلِ بَينَهُم، وَتَبْصِيرًا لِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِنْ حُقُوقِ خَالِقِهِمْ، وَإِعَانَةً لَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم، وَإِعْذَارًا إِلَيهِم، فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الكُتُبَ».

الشَّرْحُ

بَيَّنَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ دَلِيلًا مِنْ أَدِلَّةِ ضَرُورَةِ العَالَمِ إِلَىٰ الرِّسَالَةِ، وَحَاجَةِ البَشَرِ إِلَيهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الإِنسَانَ أُعطِيَ مِنَ الغَرَائِزِ وَالرَّغَبَاتِ مَا يُحَقِّقُ وُجُودَهُ، وَبَقَاءَ نَوعِهِ، وَتَحْقِيقُ هَذَينِ الأَمْرَينِ لَا يَنْهَضُ بِهِ الشَّخْصُ وَحْدَهُ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ غَيرِهِ عَلَاقَاتٌ.

وَهَذِهِ العَلَاقَاتُ قَدْ تَتَّجِهُ إِلَىٰ التَّعَاوِنِ وَالتَّعَاضُدِ، وَقَدْ تَتَّجِهُ نَحوَ تَحقِيقِ المَطَالِبِ الذَّاتِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ، الَّتِي تَسْعَىٰ إِلَىٰ إِرضَاءِ الغَرَائِزِ الخَاصَّةِ، دُونَ مُرَاعَاةٍ لِشَيءٍ، وَفِي هَذَا مُخَالَفَةٌ لِلفِطْرَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيهَا.

وَحَاجَةُ الأَفرَادِ بَعضِهِم إِلَىٰ بَعْضٍ، لَا تَقِفُ عِنْدَ نَمَطٍ مُحَدَّدٍ، بَلْ تَزِيدُ وَتتَكَاثَرُ كُلَّمَا كَثُرَتْ مَطَالِبُ الفَرْدِ فِي مَعِيشَتِهِ، وَذَلِكَ بِتَعدِيلِ نَظْرَتِهِ إِلَىٰ كُلٍّ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ وَالكَمَالِيَّاتِ، كَمَا لَا تَقِفُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ عِنْدَ نَمَطٍ مُحَدَّدٍ مِنْ حَيثُ الضِّيقُ وَالاتِّسَاعُ، بَلْ كُلَّمَا اطَّردَ نُمُو حَضَارَةِ النَّوعِ الإِنْسَانِيِّ، اطَّرَدَ تَبعًا لِذَلِكَ اتِّسَاعُ دَائِرَةِ عَلَاقَاتِهِ، فَتَخرُجُ مِنْ نِطَاقِ الأَسْرَةِ، إِلَىٰ القَبِيلَةِ، ثُمَّ إِلَىٰ الأُمَّةِ، ثُمَّ إِلَىٰ الإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ طَبِيعَةَ العَلَاقَةِ بَينَ الأَفْرَادِ، فَمَا الَّذِي يُنَظِّمُهَا وَيَحْكُمُهَا حَتَّىٰ لَا تَتَشَابَكَ المَصَالِحُ، وَتَتَصَادَمَ المَطَالِبُ، وَيَتَعَقَّدَ الاجْتِمَاعُ؟!

إِنْ قِيلَ: إِنَّ عَقْلَ الإِنْسَانِ كَافٍ فِي إِدْرَاكِ الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ، كَانَ هَذَا القَولُ غَيرَ صَحِيحٍ؛ لأَنَّ عَقْلَ الإِنْسَانِ يَتَعَثَّرُ كَثِيرًا فِي إِدْرَاكِ ذَلِكَ، وَخَاصَّةً عِنْدَمَا تَتَغَلَّبُ عَلَيهِ العَوَاطِفُ وَالنَّزَوَاتُ.

وَإِنْ قِيلَ بِكِفَايَةِ قَانُونٍ يَتَوَاضَعُ عَلَيهِ الأَفْرَادُ، وَيَكُونُ أَثَرًا مِنْ آثَارِ مُفَكِّرِيهِم وَعَبَاقِرَتِهِم، فَذَلِكَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ الإِنْسَانَ مَهْمَا تَرَقَّىٰ فِي مِضْمَارِ التَّفْكِيرِ المُنَظَّمِ، فَإِنَّهُ لَا يَستَطِيعُ أَنْ يُحِيطَ عِلْمًا بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ، وَيُدرِكَ مَطَالِبَ النَّوعِ عَلَىٰ الوَجْهِ الصَّحِيحِ، وَهَذَا مُتَّصِلٌ بِطَبِيعَةِ الفَرْدِ، مَهْمَا كَانَتْ مَكَانَتُهُ العَقْلِيَّةُ، لِأَنَّهُ لَا يَعدُو أَنْ يَكُونَ أَثَرًا لِقُوَّةٍ عُلْيَا، وَلَا يُمْكِنُ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ لِلأَثَرِ قُوَّةُ المُؤَثِّرِ فِي مَعْرِفَةِ المَصَالِحِ وَإِدْرَاكِ المَطَالِبِ.

لَمْ يَبْقَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ استِتبَابُ النِّظَامِ بَينَ الجَمَاعَةِ قَائِمًا عَلَىٰ

أَسَاسٍ مِنَ العَدْلِ، وَإِذَا كَانَ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ القَوَانِينَ الوَضْعِيَّةَ تُخْطِئُ فِي تَحْقِيقِ العَدَالَةِ، فَإِنَّنَا نَسْتَنْتِجُ مِنْ هَذَا أَنَّ أَحْكَامَ العَدْلِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ النِّظَامُ، لَابُدَّ أَنْ تُستَمَدَّ مِنْ سُلْطَةٍ عُليَا فوقَ سُلْطَةِ البَشَرِ، وَأَنْ يَكُونَ الَّذِي وَضَعَ تِلْكَ الأَحْكَامَ ذَا قُوَّةٍ أَسْمَىٰ مِنْ قُوَّةِ البَشَرِ، بِحَيثُ يَستَشْعِرُ الإنسَانُ مِنْ نَفسِهِ قُوَّةَ سُلْطَانِهِ عَلَيهِ وَقَهْرِهِ لَهُ.

وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الأَحْكَامُ لَا تَصِلُ إِلَىٰ الإنسَانِ إِلَّا بِوَاسِطَةٍ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ، تَتَلقَّىٰ تِلْكَ الوَاسِطَةُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ الأَحْكَامَ الَّتِي يُرَادُ بِهَا استِتْبَابُ النِّظَامِ، وَتُبلِّغُ هَذِهِ الأَحْكَامَ إِلَىٰ النَّاسِ حَتَّىٰ يَتَحَقَّقَ النِّظَامُ، فَإِنَّ العَقْلَ يُدرِكُ بَعْدَ هَذِهِ المُقَدِّمَاتِ مَدَىٰ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَىٰ أَفْرَادٍ مِنْهُمْ، مَعْصُومِينَ مِنَ الخَطَأ، قَدْ خُصُّوا بِمَزَايَا تَجْعَلُهُم أَهْلًا لِهَذِهِ المُهِمَّةِ.

وَهَؤلَاءِ الأَفْرَادُ يُؤَيَّدُونَ بِمُعجِزَاتٍ وَآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ مَا يَدْعُونَ إِلَيهِ، بِحَيثُ يُذْعِنُ العَقْلُ السَّلِيمُ لِدَعوَاهُمْ أَنَّهُم مُرسَلُونَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، وَأَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ وَأَنبِيَاؤُهُ، الَّذِينَ يَنْتَظِمُ بِوَاسِطَتِهِم الاجْتِمَاعُ الإِنْسَانِيُّ، وَذَلِكَ بِالقِيَامِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنَ العَدْلِ وَالإِنْصَافِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَدَىٰ الحَاجَةِ إِلَىٰ الرُّسُلِ وَالأَنبِيَاءِ، وَأَنَّهَا مِنْ أَهَمِّ حَاجَاتِ الإِنْسَانِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: «اقتضَت حِكْمَةُ اللهِ أنْ يُرسِلَ رُسُلَهُ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ، وَإقَامَةً لِلعَدْلِ بَينَهُم، وَتَبصِيرًا لِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِنْ حُقُوقِ خَالِقِهِم، وَإعَانَةً لَهُمْ عَلَىٰ أنْفُسِهِم، وَإعْذَارًا إلَيهِم، فَإنَّهُ لَا أحَدَ أحَبُّ إلَيهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أجْلِ ذَلِكَ أرْسَلَ الرُّسُلَ وَأنْزَلَ الكُتُبَ.

فَقَدْ ثَبَتَ أنَّ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ قَالَ: لَوْ رَأيتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيفِ غَيرَ مُصْفَحٍ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيرَةِ سَعْدٍ؟! لأنَا أغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أجْلِ غَيرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أحَدَ أحَبُّ إلَيهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ وَلَا أحَدَ أحَبُّ إلَيهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ»[1]. رواه البخاري.

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يُعْلَمُ أنَّ إرْسَالَ اللهِ الرُّسُلَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ وَتَقتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَهَذَا هُوَ القَولُ الوَسَطُ، وَالمَذْهَبُ الحَقُّ.

وَقَدْ أفْرَطَ المُعتَزِلَةُ فَقَالُوا: إنَّ بَعْثَةَ الرُّسُلِ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ إبَانَةً لِلحَقِّ، وَإقَامَةً لِلعَدْلِ، وَرِعَايَةً لِلأصْلَحِ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَىٰ مَا ذَهَبُوا إلَيهِ مِنَ

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٠)، ومسلم (١٤٩٩) و«ضربته بالسيف غير مصفح»، أي: ضربته بحد السيف لا بصفحه، وهو عرضه.

القَولِ بِالتَّحْسِينِ وَالتَّقبِيحِ العَقْلِيَّنِ، وَهُوَ أَصْلٌ فَاسِدٌ».



الشَّرْحُ

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِي النُّبُوَّةِ، وَأَنَّهُ القَولُ الوَسَطُ، وَالمَذْهَبُ الحَقُّ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعض المُخَالِفِينَ لِلحَقِّ فِي النُّبُوَّةِ.

فَذَكَرَ المُعتَزِلَةَ، وَمَذْهَبَهُم البَاطِلَ.

وَالمُعتَزِلَةُ رَغْمَ اعتِقَادِهِمْ أَنَّ العقلَ كَافٍ فِي التَّكْلِيفِ، وَأَنَّهُ مُستَقِلٌّ بِإِدْرَاكِ الحَسَنِ وَالقَبِيحِ مِنَ الأَشْيَاءِ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ، وَأَنَّ مَا يَأتِي بِهِ الرَّسُولُ إِنَّمَا هُوَ مُقَرِّرٌ فَقَطْ لِمَا ثَبَتَ بِالعَقْلِ، يَرَونَ أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَاجِبٌ عَلَىٰ اللهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ اللُّطْفِ الَّذِي هُوَ فِعْلُ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ أَنْ يقرِّبَ العَبْدَ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، ويُبعِدَهُ عَنِ المَعْصِيَةِ مَعَ بَقَاءِ اختِيَارِه.

وَيَرَونَ أيضًا: أَنَّ النُّبُوَّةَ أَوِ الرِّسَالَةَ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ جَزَاءً عَلَىٰ عَمَلٍ تَقَدَّمَهَا، فَالنَّبِيُّ أَوِ الرَّسُولُ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ فَعَلَ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا استَحَقَّ بِهِ أَنْ يجزِيَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ.

وَبِهَذَا يَقْرُبُ مَذْهَبُ المُعتَزِلَةِ مِنْ مَذْهَبِ الفَلَاسِفَةِ فِي القَولِ بِأَنَّ النُّبُوَّةَ مُكتَسَبَةٌ.

وَذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ طَائِفَةً أُخْرَىٰ مِنَ الضُّلَّالِ، وَهُم البَرَاهِمَةُ.

وَقَدْ عَرَّفَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ البَرَاهِمَةَ بِأَنَّهُم: «جَمَاعَةٌ مِنْ حُكَمَاءِ الهِنْدِ تَبِعُوا فَيلَسُوفًا يُسمَّىٰ بَرَهَام فَنُسِبُوا إِلَيهِ، وَقِيلَ: إِنَّهم طَائِفَةٌ عَبَدَتْ صَنَمًا يُسَمَّىٰ (برهم) فَنُسِبَتْ إِلَيهِ.

وَالقَصْدُ بَيَانُ مَذْهَبِهِم فِي الرِّسَالَةِ، وَالرَّدُّ عَلَيهِ بِمَا يَدْفَعُ شُبْهَتَهُم، مَعَ أَنَّ بَعْضَهُم قَدِ اعتَرَفَ بِرِسَالَةِ آدَمَ، وَآخَرِينَ مِنْهُم اعتَرَفُوا بِرِسَالَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ».



الشَّرْحُ

وَالبَرَاهِمَةُ هُمُ المُنْكِرونَ لِلنُّبُوَّاتِ أَصْلًا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُم سُمُّوا بَرَاهِمَةً لانتِسَابِهِم إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ خَطَأٌ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ المَخصُوصُونَ بِنَفيِ النُّبُوَّاتِ أَصْلًا وَرَأْسًا.

وَالبَرَاهِمَةُ إِنَّمَا انتَسَبُوا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُم يُقَالُ لَهُ: بَرَاهِمُ، وَقَدْ مَهَّدَ لَهُمْ نَفْيَ النُّبُوَّاتِ أَصْلًا، وَقَرَّرَ استِحَالَةَ ذَلِكَ فِي العُقُولِ بِوجُوهٍ مَدْفُوعَةٍ فَائِلَةٍ.

وبَرَاهِمَا اسْمُ الإلَهِ فِي اللُّغَةِ السِّنسكرِيتِيَّةِ، وَهُوَ عِنْدَ البَرَاهِمَةِ: الإِلَهُ المَوجُودُ بِذَاتِهِ، الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ إِنَّمَا يُدرِكُهُ العَقْلُ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَطَرَّفَ البَرَاهِمَةُ فَأَحَالُوا أَنْ يَصْطَفِيَ اللهُ نَبِيًّا، وَيَبعَثَ مِنْ عِبَادِهِ رَسُولًا، وَزَعَمُوا أَنَّ إِرْسَالَهُم عَبَثٌ!! إِمَّا لِعَدَمِ الحَاجَةِ إِلَيهِمْ اعتِمَادًا عَلَىٰ العَقْلِ فِي التَّمْييزِ بَينَ المَفَاسِدِ وَالمَصَالِحِ، وَاكتِفَاءً بِإِدْرَاكِهِ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ العِبَادُ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ، وَإِمَّا لاستِغنَاءِ اللهِ عَنْ عِبَادِهِ، وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ أَعمَالِهِمْ، خَيرًا كَانَتْ أَمْ شَرًّا؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ لا يَنْتَفِعُ بِطَاعَتِهِم، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعصِيَتِهِم.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ عَدَمِ كِفَايَةِ العَقْلِ فِي إِدْرَاكِ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ، وَحَاجَةِ العَالَمِ إِلَىٰ الرِّسَالَةِ مَعَ غِنَىٰ اللهِ عَنْ أَعمَالِ الخَلْقِ، فَلَيسَ إِرْسَالُهُم عَبَثًا؛ بَلْ هُوَ مُقتَضَىٰ الحِكْمَةِ».

الشَّرْحُ

وَهَؤُلَاءِ المُنْكِرونَ لِلنُّبُوَّةِ إِذَا اعتَرَفُوا بِأَنَّ لِلعَالَمِ خَالِقًا حَكِيمًا، فَلَابُدَّ أَنْ يَعتَرِفُوا أَنَّهُ آمِرٌ نَاهٍ، حَاكِمٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَهُ فِي جَمِيعِ مَا نَأتِي وَنَذَرُ، وَنَعْمَلُ وَنُفَكِّرُ، حُكمٌ وَأَمرٌ.

وَلَيسَ كُلُّ عَقلٍ إِنسَانِيٍّ عَلَىٰ استِعْدَادٍ لِلإِدْرَاكِ، وَلَيسَتْ كُلُّ نَفْسٍ إِنسَانِيَّةٍ بِقَابِلَةٍ لِفَهْمِ الحِكْمَةِ وَإِدْرَاكِهَا، بَلْ أَوْجَبَتْ مِنَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ تَرتِيبًا فِي العُقُولِ وَالنُّفُوسِ، وَاقتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَرفَعَ ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢].

فَرَحْمَةُ اللهِ الكُبْرَىٰ هِيَ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ، وَذَلِكَ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ بِعُقُولِهِم المُخْتَالَةِ، وَقُلُوبِهِمُ الضَّالَّةِ.

❊ ❊ ❊

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: فِي الْمُعْجِزَةِ، الفَرقُ بينَهَا وبَينَ السِّحْرِ

وَالآيَاتُ الَّتِي يُجرِيهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أيدِي أنبِيَائِهِ -صَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيهِم- يُقَالُ لَهَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ: المُعْجِزَاتُ.

قَالَ الشَّيخُ العُثيمِين رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْح السَّفَّارِينِيَّة» (ص٥٩٥): «تُسَمَّىٰ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ مُعجِزَةً.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهَا آيَةٌ، وَلَيسَتْ مُعجِزَةً، هِيَ مُعْجِزَةٌ لَا شَكَّ، وَلَكِنَّ تَسمِيَتَهَا بِآيَةٍ أَصَحُّ؛ وَذَلِكَ لِمَا يَلِي:

أَوَّلًا: لأَنَّ هَذَا هُوَ المُوَافِقُ لِلَفْظِ القُرْآنِ؛ لأَنَّ اللهَ سَمَّىٰ هَذِهِ المُعْجِزَاتِ الَّتِي تَأتِي بِهَا الأَنبِيَاءُ آيَاتٍ، وَلَمْ يُسَمِّهَا مُعْجِزَاتٍ.

ثَانِيًا: أَنَّ المُعْجِزَةَ قَدْ لَا تَكُونُ آيَةً عَلَىٰ نُبُوَّةٍ، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي المُشَعْوِذِينَ وَغَيرِهِمْ؛ كَالسَّحَرَةِ.

لَكِنْ إِذَا قُلْنَا: آيَةٌ؛ يَعنِي: عَلَامَةً عَلَىٰ صِدْقِ هَذَا النَّبِيِّ.

ثَالِثًا: أَنَّ كَلِمَةَ (مُعْجِزَة) مِنَ الإِعْجَازِ: لَفظُهَا بَشِعٌ، ولَكِنَّ (آيَة)؛بِمَعنَىٰ: عَلَامَةٍ، مُحَبَّبَةٌ لِلنُّفُوسِ؛ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نَارٌ.

فَلِهَذَا كَانَ التَّعبِيرُ بِـ (الآيَةِ) أَوْلَىٰ».

قَالَ العَلَّامَةُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ طَاقَةُ البَشَرِ، وَلَمْ يَقَعْ فِي دَائِرَةِ قُدرَاتِهِم، فَهُوَ: مُعْجِزَةٌ.

وَقَدْ تُطْلَقُ المُعْجِزَةُ عَلَىٰ مَا خَرَجَ عَنْ طَاقَةِ العَامَّةِ مِنَ الخَلْقِ دُونَ الخَاصَّةِ، كَبَعْضِ المَسَائِلِ العِلْمِيَّةِ، وَاختِرَاعِ بَعضِ الآلَاتِ، وَالأَجْهِزَةِ الحَدِيثَةِ، وَغَيرِهَا مِمَّا لَا يَقْوَىٰ عَلَيهِ إِلَّا خَوَاصُّ النَّاسِ، كَالغَوصِ، وَالسِّبَاحَةِ، وَحَمْلِ الأَثْقَالِ، وَهَذَا عَجْزٌ نِسْبِيٌّ يَكُونُ فِي مَخْلُوقٍ دُونَ آخَرَ.

وَأَمَّا المُرَادُ مِنَ المُعْجِزَةِ هُنَا -أي: فِي عِلْمِ التَّوحِيدِ-: فَهِيَ الأَمْرُ الخَارِقُ لِلعَادَةِ الخَارِجُ عَنْ سُنَّةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ، الَّذِي يُظْهِرُهُ اللهُ عَلَىٰ يَدِ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ تَصْدِيقًا لَهُ فِي دَعْوَاهُ، وَتَأْيِيدًا لَهُ فِي رِسَالَتِهِ، مَقْرُونًا بِالتَّحَدِّي لِأُمَّتِهِ، وَمُطَالَبَتِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَإِذَا عَجَزُوا كَانَ ذَلِكَ آيَةً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ اختِيَارِهِ إِيَّاهُ، وَإِرْسَالِهِ إِلَيهِم بِشَرِيعَتِهِ».

الشَّرْحُ

وَالآيَةُ فِي اللُّغَةِ: العَلَامَةُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ الشَّيءِ، وَالمُرَادُ بِهَا هُنَا: مَا يُجرِيهِ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَيدِي رُسُلِهِ وَأَنبِيَائِهِ مِنْ أُمُورٍ خَارِقَةٍ لِلسُّنَنِ الكَونِيَّةِ المُعتَادَةِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لِلبَشَرِ عَلَىٰ الإِتيَانِ بِمِثْلِهَا؛ كَتَحْوِيلِ العَصَا إِلَىٰ حَيَّةٍ تَتَحَرَّكُ وَتَسْعَىٰ، فَتَكُونُ هَذِهِ الآيَةُ الخَارِقَةُ لِلسُّنَّةِ الكَونِيَّةِ المُعتَادَةِ دَلِيلًا غَيرَ قَابِلٍ لِلنَّقْضِ وَالإِبْطَالِ، يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِم فِيمَا جَاءُوا بِهِ.

وَأكثَرُ العُلَمَاءِ عَلَىٰ تَسمِيَةِ هَذِهِ الآيَاتِ بِالمُعْجِزَاتِ.

وَالمُعْجِزَةُ كَمَا ذَكَرَ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «لَوَامِعِ الأنْوَارِ» (٢/ ٢٨٩): «هِيَ اسْمُ فَاعِلٍ، مَأخُوذٌ مِنَ العَجْزِ المُقَابِلِ لِلقُدْرَةِ، وَفِي القَامُوسِ: مُعْجِزَةُ النَّبِيِّ: مَا أعْجَزَ بِهِ الخَصْمَ عِنْدَ التَّحَدِّي، وَالهَاءُ لِلمُبَالَغَةِ.

وَقَالَ ابنُ حَمْدَان فِي «نِهَايَة المُبْتَدِئِينَ»: «المُعْجِزَةُ: هِيَ مَا خَرَقَ العَادَةَ مِنْ قَولٍ أوْ فِعْلٍ، إذَا وَافَقَ دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ، وَقَارَنَهَا، وَطَابَقَهَا، عَلَىٰ جِهَةِ التَّحَدِّي ابْتِدَاءً، بِحَيثُ لَا يَقْدِرُ أحَدٌ عَلَيهَا، وَلَا عَلَىٰ مِثْلِهَا، وَلَا عَلَىٰ مَا يُقَارِبُهَا.

وَقِيلَ: المُعْجِزَةُ عُرفًا: أمْرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ، مَقْرُونٌ بِالتَّحَدِّي، مَعَ عَدَمِ المُعَارَضَةِ.

فَهِيَ أمْرٌ يَتَنَاوَلُ الفِعْلَ، كَانْفِجَارِ المَاءِ مِنْ بَينَ أصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَتَنَاوَلُ عَدَمَهُ، أي: عَدَمَ الفِعْلِ؛ كَعَدَمِ إحْرَاقِ النَّارِ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَاحْتَرَزُوا بِقَيدِ: «المُقَارَنَةِ لِلتَّحَدِّي»، عَنْ كَرَامَاتِ الأوْلِيَاءِ، وَالعَلَامَاتِ الإرْهَاصِيَّةِ الَّتِي تَتَقَدَّمُ البَعْثَةَ النَّبَوِيَّةَ، وَعَنْ أنْ يَتَّخِذَ الكَاذِبُ مُعْجِزَةَ مَنْ مَضَىٰ مِنَ الأنْبِيَاءِ حُجَّةً لِنَفْسِهِ.

وَاحتَرَزوا بِقَيدِ: «عَدَمِ المُعَارَضَةِ»، عَنِ السِّحْرِ وَالشَّعْبَذَةِ.

وَقَولُ ابنِ حَمْدَان: «وَطَابَقَهَا»، لِيَخرجَ مَا إذَا قَالَ: مُعْجِزَتِي: نُطْقُ هَذَا الحَجَرِ، فَنَطَقَ الحَجَرُ بِأنَّهُ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ، وَكَمَا تَفَلَ مُسَيلِمَةُ الكَذَّابُ فِي بِئْرٍ

فَغَارَ مَاؤُهُ، وَمَسَحَ عَلَىٰ رَأْسِ غُلَامٍ فَصَارَ أَقْرَعَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ».

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالآيَاتُ وَالبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَهِيَ أَكثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ آيَاتِ غَيرِهِ مِنَ الأَنبِيَاءِ، وَيُسَمِّيهَا النُّظَّارُ مُعجِزَاتٍ، وَتُسَمَّىٰ دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ، وَأَعْلَامَ النُّبُوَّةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الأَلفَاظُ إِذَا سُمِّيَت بِهَا آيَاتُ الأَنبِيَاءِ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَىٰ المَقْصُودِ مِنْ لَفْظِ المُعْجِزَاتِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَفْظُ المُعْجِزَاتِ مَوجُودًا فِي الكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ؛ وَإِنَّمَا فِيهِمَا لَفْظُ: الآيَةِ، وَالبَيِّنَةِ، وَالبُرْهَانِ.

وَأَهْلُ الكَلَامِ لا يُسمُّونَ مُعْجِزًا إِلَّا مَا كَانَ لِلأَنبِيَاءِ فَقَطْ، وَأَمَّا مَا يَثْبُتُ لِلأَوْلِيَاءِ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ فَيُسَمُّونَهَا كَرَامَةً.

وَالسَّلَفُ؛ كَالإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيرِهِ، كَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا وَهَذَا مُعْجِزًا، وَيَقُولُونَ لِخَوَارِقِ الأَوْلِيَاءِ: إِنَّهَا مُعْجِزَاتٌ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي اللَّفْظِ مَا يَقتَضِي اختِصَاصَ الأَنبِيَاءِ بِهِ، بِخِلَافِ مَا كَانَ آيَةً وَبُرهَانًا عَلَىٰ نُبُوَّةِ النَّبِي؛ فَإِنَّ هَذَا يَجِبُ اختِصَاصُهُ بِهِ.

وَرُبَّمَا سَمَّوُا الكَرَامَاتِ آيَاتٍ؛ لِكَونِهَا دَالَّةً عَلَىٰ نُبُوَّةِ مَنِ اتَّبَعَهُ الوَلِيُّ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ يَستَلزِمُ المَدْلُولَ، فَيَمتَنِعُ ثُبُوتُهُ بِدُونِ ثُبُوتِ المَدْلُولِ، فَكَذَلِكَ مَا كَانَ آيَةً وَبُرهَانًا، وَهُوَ الدَّلِيلُ وَالعَلَمُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ، يَمتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِغَيرِ النَّبِيِّ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمْ سَمَّوهَا مُعْجِزَاتٍ؛ لأَنَّ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ دَلِيلٌ عَلَىٰ نُبُوَّةِ

النَّبِيِّ الَّذِي اتَّبَعُوهُ، أَوْ لأَنَّهَا تُعجِزُ غَيرَهُم، وَهِيَ آيَةٌ عَلَىٰ صِحَّةِ طَرِيقَتِهِم». اهـ

وَقَدْ قَصَرَ المُعْتَزِلَةُ الخَوارِقَ عَلَىٰ الأنبِيَاءِ، وَقَالُوا: إِنَّ كُلَّ مَا يَخْرُجُ عَنِ الأَمْرِ المُعتَادِ فَهُوَ مُعْجِزَةٌ، وَعَرَّفُوهَا بِأَنَّهَا: الأَمْرُ الخَارِقُ لِلعَادَةِ، إِذَا اقتَرَنَ بِدَعْوَىٰ النُّبُوَّةِ.

وَقَدْ رَدَّ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ هَؤلَاءِ، كَمَا فِي «كِتَابِ النُّبُوَّاتِ» (ص٢) **فَقَالَ:** «وَهَؤلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ مَا جَرَىٰ لِمَرْيَمَ وَعِنْدَ مَولِدِ الرَّسُولِ فَهُوَ إِرْهَاصٌ؛ أي: تَوْطِئَةٌ وَإِعْلَامٌ بِمَجِيءِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَا خُرِقَتْ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا لِنَبِيٍّ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: وَهَكَذَا الأَوْلِيَاءُ، إِنَّمَا خُرِقَتْ لَهُمْ لِمُتَابَعَتِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ، فَكَمَا أَنَّ مَا تَقَدَّمَهُ فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ، فَكَذَلِكَ مَا تَأَخَّرَ عَنْهُ.

وَهَؤلَاءِ يَستَثْنُونَ مَا يَكُونُ أَمَامَ السَّاعَةِ، لَكِنَّ هَؤلَاءِ كَذَّبُوا بِمَا تَوَاتَرَ مِنَ الخَوارِقِ لِغَيرِ الأَنبِيَاءِ.

وَالمُنَازِعُ لَهُمْ يَقُولُ: هِيَ مَوجُودَةٌ مَشْهُودَةٌ لِمَنْ شَهِدَهَا، مُتَوَاتِرَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَاتَرَتْ عِنْدَهُمْ بَعضُ مُعْجِزَاتِ الأَنبِيَاءِ، وَقَدْ شَهِدَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ لَمْ يَشْهَدُوا مُعْجِزَاتِ الأَنبِيَاءِ، فَكَيفَ يُكَذِّبُونَ بِمَا شَهِدُوهُ وَيُصَدِّقُونَ بِمَا غَابَ عَنْهُمْ، وَيُكَذِّبُونَ بِمَا تَوَاتَرَ عِنْدَهُمْ أَعظَمَ مِمَّا تَوَاتَرَ غَيرُهُ؟!».

وَعَلَىٰ عَكْسِ مَذْهَبِ المُعتَزِلَةِ فِي قَصْرِ الخَوَارِقِ عَلَىٰ الأَنبِيَاءِ، تَوَسَّعَ الأَشْعَرِيَّةُ فِي إِثبَاتِ الخَوَارِقِ، حَتَّىٰ جَعَلُوهَا سَبْعَةَ أَنْوَاعٍ هِيَ:

الأَوَّلُ: المُعْجِزَةُ: وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ مُقَارَنَةً بِالتَّحَدِّي.

الثَّانِي: الإِرْهَاصُ: وَهُوَ مَا يَحْصُلُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ تَوْطِئَةً وَإِعْلَامًا بِهَا، مَأْخُوذٌ مِنْ رَهْصِ الجِدَارِ، وَهُوَ أَسَاسُهُ.

الثَّالِثُ: الكَرَامَةُ: وَهِيَ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَىٰ يَدِ الأَوْلِيَاءِ.

الرَّابِعُ: المَعونَةُ: وَهِيَ مَا يَحْصُلُ لأَحَدٍ مِنْ عَوَامِّ المُسْلِمِينَ، تَخْلِيصًا لَهُ مِنْ شِدَّةٍ.

الخَامِسُ: الاستِدْرَاجُ: وَهُوَ مَا يَظْهَرُ عَلَىٰ يَدِ الفَاجِرِ عَلَىٰ وَفْقِ هَوَاهُ؛ وَلَكِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمُدَّعِي الأُلُوهِيَّةِ؛ كَالدَّجَّالِ، دُونَ المُتَنَبِّي لِوضُوحِ أدِلَّةِ نَفْيِ الأُلُوهِيَّةِ، فَلَا يُخَافُ اللَّبْسُ.

السَّادِسُ: الإِهَانَةُ: لِلفَاجِرِ عَلَىٰ خِلَافِ دَعْوَاهُ.

السَّابِعُ: السِّحْرُ وَمَا فِي حُكْمِهِ؛ كَالشَّعْوَذَةِ، وَالكَهَانَةِ.

وَقَدْ عَرَّفَ الأَشْعَرِيَّةُ المُعْجِزَةَ: بِأَنَّهَا أَمْرٌ خارِقٌ لِلعَادَةِ، مَقْرُونٌ بِالتَّحَدِّي، مَعَ عَدَمِ المُعَارَضَةِ مِنَ المُرْسَلِ إِلَيهِم؛ بِأَلَّا يَظْهَرَ مِنْهُم ذَلِكَ الخَارِقُ.

وَقَالُوا: لَا يُشْتَرَطُ الاقتِرَانُ بِالتَّحَدِّي -بِمَعنَىٰ: طَلَبِ الإِتْيَانِ بِالمِثْلِ الَّذِي هُوَ المَعنَىٰ الحَقِيقِي لِلتَّحَدِّي-، بَلْ يَكْفِي أَنْ يَدَّعِي الرِّسَالَةَ فَيَظْهَرَ المُعجِزُ عَلَىٰ يَدَيهِ، فَيَكُونُ ظُهُورُهُ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِهِ نَازِلًا مَنزِلَةَ التَّصْرِيحِ بِالتَّحَدِّي.

وَفَرَّقُوا بَينَ المُعجِزَةِ وَالكَرَامَةِ، بِأَنَّ المُعْجِزَةَ تَقَعُ مَعَ التَّحَدِّي -أي:

دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ-، وَأَمَّا الكَرَامَةُ فَلَا يَتَحَدَّىٰ الوَلِيُّ بِهَا، بَلْ قَدْ يُخفِيهَا.

وَقَدْ أَنْكَرَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ الأَشْعَرِيَّةِ جَعْلَهُم خَوَارِقَ الأَنبِيَاءِ وَآيَاتِهِم مِنْ جِنْسِ خَوَارِقِ السَّحَرَةِ وَالكُهَّانِ، وَزَعْمَهُمْ أَنَّ الفَرقَ بَينَهُمَا هُوَ مُجَرَّدُ التَّحَدِّي مِنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ، وَسَلَامةُ مَا يَظْهَرُ عَلَىٰ يَدَيهِ مِنَ المُعارِضِ، بِخِلَافِ مَا يَقَعُ مِنَ المُتَنَبِّي إِذَا تَحَدَّىٰ بِسِحْرِهِ وَكَهَانَتِهِ، فَلَابُدَّ عِنْدَهُمْ أَنْ يُبطِلَ اللهُ سِحْرَهُ، أَوْ يُقَيِّضَ لَهُ مَن يُعَارِضُهُ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ أَوْ بِأَقْوَىٰ مِنْهُ.

وَيَستَدرِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيهِم كَلَامَهُم هَذَا بِوجُوهٍ، أَهَمُّهَا:

أَوَّلًا: أَنَّ كَونَ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ مُسَاوِيَةً فِي الحَدِّ وَالحَقِيقَةِ لِسِحْرِ السَّحَرَةِ أَمْرٌ مَعْلُومُ الفَسَادِ بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ.

ثَانِيًا: أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ القَدْحِ فِي الأَنبِيَاءِ، إِذَا كَانَتْ آيَاتُهُم مِنْ جِنْسِ سِحرِ السَّحَرَةِ، وَكَهَانَةِ الكُهَّانِ.

ثَالِثًا: أَنَّهُ عَلَىٰ هَذَا التَّقدِيرِ لَا تَبقَىٰ دَلَالَةٌ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ مَا يَستَلزِمُ المَدلُولَ وَيَختَصُّ بِهِ، فَإِذَا كَانَ مُشتَرَكًا بَينَهُ وَبَينَ غَيرِهِ لَمْ يَبْقَ دَلِيلًا، فَهَؤُلَاءِ قَدَحُوا فِي آيَاتِ الأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَذْكُروا دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِهِم.

رَابِعًا: أَنَّهُ عَلَىٰ هَذَا التَّقدِيرِ يُمكِنُ لِلسَّاحِرِ دَعْوَىٰ النُّبُوَّةِ، وَقَولُهُم إِنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ يَسلُبُهُ اللهُ القُدْرَةَ عَلَىٰ السِّحْرِ، أَوْ يَأتِي بِمَنْ يُعَارِضُهُ، دَعْوَىٰ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الدَّلِيلِ.

خَامِسًا: ادِّعَاءُ أَنَّ مَا يَخرِقُ العَادَةَ مِنَ الأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ؛ مِثْلُ: قَدْحِ الزِّنَادِ،

وَجَذْبِ المِغنَاطِيسِ، وَالطِّلَّسْمَاتِ مِنْ جِنْسِ مُعْجِزَاتِ الأنبيَاءِ، بِحَيثُ لَوْ بُعِثَ نَبيٌّ ابتِدَاءً وَجُعِلَ ذَلِكَ آيَةً لَهُ جَازَ ذَلِكَ، غَلَطٌ عَظِيمٌ، وَجَهْلٌ قَبِيحٌ بِقَدْرِ مُعْجِزَاتِ الأنبيَاءِ وَآيَاتِهِم.

سَادِسًا: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ، وَكَانَ كَاذِبًا، وَظَهَرَتْ عَلَىٰ يَدِهِ بَعْضُ هَذِهِ الخَوَارِقِ، فَلَمْ يُمنعْ مِنْهَا، وَلَمْ يُعَارِضهُ أحَدٌ، بَلْ عُرِفَ أنَّ هَذَا الَّذِي أتَىٰ بِهِ لَيسَ مِنْ آيَاتِ الأنبِيَاءِ، وَعُرِفَ كَذِبُهُ مِنْ طُرقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَمَا فِي قِصَّةِ الأسْوَدِ العَنْسِيِّ، وَمُسَيلِمَةَ الكَذَّابِ، وَغَيرِهِمَا مِمَّنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ.

سَابِعًا: أنَّ حَقِيقَةَ الأمْرِ عَلَىٰ قَولِ هَؤلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا المُعْجِزَةَ: الخَارِقَ مَعَ التَّحَدِّي.

أنَّ المُعْجِزَ فِي الحَقِيقَةِ لَيسَ إلَّا مَنْعُ النَّاسِ مِنَ المُعَارَضَةِ بِالمِثلِ، سَوَاءٌ كَانَ المُعْجِزُ فِي نَفْسِهِ خَارِقًا أوْ غَيرَ خَارِقٍ، وَإذَا كَانَ كَذَلِكَ جَازَ أنْ يَكُونَ كُلُّ أمْرٍ كَالأكْلِ وَالشُّرْبِ وَالقِيَامِ وَالقُعُودِ مُعْجِزَةً، إذَا مَنَعَهُم أنْ يَفْعَلُوا كَفِعْلِهِ، وَحِينئِذٍ فَلَا مَعنَىٰ لِكَونِهَا خَارِقًا، وَلَا لاخْتِصَاصِ الرَّبِّ بِالقُدْرَةِ عَلَيهَا، بَل الاعتِبَارُ بِعَدَمِ المُعَارَضَةِ، وَهُم يُقِرُّونَ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

ثَامِنًا: أنَّهُ إذَا كَانَتِ المُعْجِزَةُ هِيَ مَجْمُوعُ دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ مَعَ التَّحَدِّي؛ فَلَا حَاجَةَ إلَىٰ كَونِهِ خَارِقًا، كَمَا تَقَدَّمَ، وَيَجِبُ إذَا تَحَدَّىٰ بِالمِثْلِ أنْ يَقُولَ: فَلْيَأتِ بِمِثْلِ القُرْآنِ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، فَإنَّ هَذَا هُوَ المُعْجِزُ عِنْدَهُم، وَإلَّا فَالقُرْآنُ مُجَرَّدًا لَيسَ بِمُعْجِزٍ، فَلَا يُطلَبُ مِثْلُ القُرْآنِ إلَّا مِمَّنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةِ، كَمَا

فِي السَّاحِرِ وَالكَاهِنِ إِذَا ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ سَلَبَهُ اللهُ ذَلِكَ، أَوْ قَيَّضَ لَهُ مَنْ يُعَارِضُهُ.

وَإِذَا لَمْ يَدَّعِ النُّبُوَّةَ جَازَ أَنْ يَظْهَرَ عَلَىٰ يَدِهِ مِثْلُ مَا يَظْهَرُ عَلَىٰ يَدِ النَّبِيِّ، فَكَذَلِكَ يَلْزَمُهُم مِثْلُ هَذَا فِي القُرْآنِ وَسَائِرِ المُعْجِزَاتِ.

تَاسِعًا: إِذَا قِيلَ: إِنَّ المُعْجِزَةَ هِيَ الفِعْلُ الخَارِقُ لِلعَادَةِ، أَوْ قِيلَ: هِيَ الفِعْلُ الخَارِقُ لِلعَادَةِ المَقْرُونُ بِالتَّحَدِّي، أَوْ قِيلَ مَعَ ذَلِكَ الخَارِقِ لِلعَادَةِ: السَّلِيمُ عَنِ المُعَارَضَةِ، فَكَوْنُهُ خَارِقًا لِلعَادَةِ لَيسَ أَمْرًا مَضْبُوطًا؛ لأَنَّهُ إِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يُوجَد لَهُ نَظِيرٌ فِي العَالَمِ، فَهَذَا بَاطِلٌ.

فَإِنَّ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ بَعضُهَا نَظِيرُ بَعضٍ؛ بَلِ النَّوعُ الوَاحِدُ مِنْهُ كَإِحيَاءِ المَوتَىٰ كَانَ آيَةً لِغَيرِ وَاحِدٍ مِنَ الأَنبِيَاءِ، وَإِنْ قِيلَ: إِنَّ بَعضَ الأَنبِيَاءِ كَانَتْ آيَتُهُ لَا نَظِيرَ لَهَا؛ كَالقُرْآنِ، وَالعَصَا، وَالنَّاقَةِ، لَمْ يَلزَم ذَلِكَ فِي سَائِرِ الآيَاتِ.

ثُمَّ هَبْهَا لَا نَظِيرَ لَهَا فِي نَوعِهَا، لَكِنْ وُجِدَ خَوَارِقُ عَادَاتٍ لِلأَنبِيَاءِ غَيرُ هَذَا، فَنَفْسُ خَوَارِقِ العَادَاتِ مُعتَادٌ جَمِيعُهُ لِلأَنبِيَاءِ، بَلْ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ نُبُوَّتِهِم مَعَ كَونِ الأَنبِيَاءِ كَثِيرِينَ، وَإِنْ عَنَىٰ بِكَونِ المُعْجِزَةِ هِيَ الخَارِقُ لِلعَادَةِ: أَنَّهَا خَارِقَةٌ لِعَادَةِ أُولَئِكَ المُخَاطَبِينَ بِالنُّبُوَّةِ، بِحَيثُ لَيسَ فِيهِم مَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَهَذَا لَيسَ بِحُجَّةٍ، فَإِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَقدِرونَ عَلَىٰ الكَهَانَةِ وَالسِّحرِ، وَنَحوِ ذَلِكَ.

وَقَدْ يَكُونُ المُخَاطَبُونَ بِالنُّبُوَّةِ لَيسَ فِيهِمْ وَاحِدٌ مِنْ هَؤلَاءِ، كَمَا كَانَ أَتبَاعُ مُسَيلِمَةَ الكَذَّابِ وَالعَنْسِي لَا يَقْدِرونَ عَلَىٰ مَا يَقدِر عَلَيهِ هَؤلَاءِ المُتَنَبِّئُونَ، وَالمُبرِّزُ فِي فَنٍّ مِنَ الفُنُونِ يَقْدِرُ عَلَىٰ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيهِ غَيرُهُ فِي زَمَنِهِ، وَلَيسَ

هَذَا دَلِيلًا عَلَىٰ النُّبوَّةِ.

فَكِتَابُ سِيبَويهِ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مِثْلِهِ عَامَّةُ الخَلْقِ، وَلَيسَ هُوَ بِمُعْجِزٍ إِذْ كَانَ غَيرَ مُختَصٍّ بِالأنبِيَاءِ، بَلْ لِغَيرِهِم، وَكَذَلِكَ طبُّ أَبُقرَاطَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَإِذَنْ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ مُجرَّدُ خَرْقِ العَادَةِ هُوَ الدَّلِيلَ، فَإِنَّ هَذَا لَا ضَابِطَ لَه، وَهُوَ مُشْتَرَكٌ بينَ الأنبِيَاءِ وَغَيرِهِم، وَكَونُ الشَّيءِ مُعتَادًا أَوْ غَيرَ مُعتَادٍ أَمْرٌ نِسْبيٌّ إِضَافِيٌّ، لَيسَ بِوَصفٍ مَضْبُوطٍ تَتَميَّزُ بِهِ الآيَةُ، بَلْ قَدْ يَعتَادُ هَؤلَاءِ مَا لَمْ نَعتَدْهُ غَيرُهُم.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِعَدَمِ المُعَارَضَةِ، لَمْ يَنْفَعْ أيضًا، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَأتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ الحَاضِرُونَ عَلَىٰ مُعَارَضَتِهِ، وَيَكُون مَعَ ذَلِكَ مُعتَادًا لِغَيرِهِم؛ كَمَا فِي الكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ.

وَقَدْ يَأتِي بِمَا لَا يُمْكِنُ مُعَارَضَتُهُ، كَمَا قَدْ يُقَالُ فِي طِبِّ أَبُقرَاطَ، وَنَحْوِ سِيبَويهِ: إِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَكُون آيَةً لِشَيءٍ، لِكَونِهِ لَمْ يَختَصَّ بِالأنبِيَاءِ، فَآيَاتُ الأنبِيَاءِ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ مُختَصَّةً بِهِم، لَا يُشَارِكُهُم فِيهَا غَيرُهُمْ.

وَمَضَىٰ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي نَقْضِ كَلَامِ الأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا البَابِ نَقْضًا لَا يَدَعُ بَعْدَهُ مَقَالًا لِقَائِلٍ، فَلَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ دَعْوَىٰ إِلَّا أَبْطَلَهَا، وَلَا دَلِيلًا إِلَّا أَبَانَ عَنْ تَهَافُتِهِ وَضَعْفِهِ.

وَقَدْ عَابَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيهِم تَسمِيَةَ آيَاتِ الرُّسُلِ: مُعْجِزَاتٍ، وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ التَّسمِيَةَ لَمْ تَرِدْ فِي كِتَابٍ، وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ

الأمَّةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي وَرَدَ فِي القُرْآنِ تَسمِيَتُهَا آيةً؛ كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٧٨].

وَبيِّنَةً؛ كَمَا فِي قَولِهِ -جَلَّ شَأنُهُ-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥].

وَبُرْهَانًا، كَمَا فِي قَولِهِ سُبحَانَهُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص:٣٢]»[1].

ذَكَرَ العَلَّامَةُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ الآيَةَ، أوِ المُعْجِزَةَ، وَفَرَّقَ بينَهَا وَبينَ السِّحْرِ، بِحَيثُ لَا يَشتَبِهَانِ أبَدًا.

وَقَبْلَ ذِكْرِ الفُروقِ بينَ المُعْجزَةِ وَالسِّحرِ، أذْكُرُ أمُورًا؛ هِيَ:

أوَّلًا: تَعْرِيفُ الكَرَامَةِ، وَبَيَانُ حُكمِهَا.

قَالَ السَّفَّارِينِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «لَوَامِعِ الأنْوَارِ» (٢/ ٣٩٢)، فِي تَعرِيفِ الكَرَامَةِ: «الكَرَامَةُ هِيَ أمْرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ، غَيرُ مَقْرُونٍ بِدَعْوَىٰ النُّبوةِ، وَلَا هُوَ مُقَدمةٌ، يَظْهرُ عَلَىٰ يَدِ عَبْدٍ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ، مُلتَزِمٍ لِمُتَابَعَةِ نَبِيٍّ، كُلِّفَ بِشَرِيعَتِهِ، مَصْحُوبٍ بِصَحِيحِ الاعتِقَادِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، عَلِمَ بِذَلِكَ العَبْدُ الصَّالِحُ أمْ لَمْ يَعْلَمْ». اهـ

وَقَالَ الشَّيخُ العُثَيمِين رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ السَّفَّارِينِيةِ» (ص٥٩٣): «الكَرَامَةُ

---

(١) انظر: «جدليات شيخ الإسلام ابن تيمية حول النبوات والغيبيات» للعلامة الشيخ محمد خليل هراس (ص٤١).

أَمْرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ، يُجرِيهِ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ يَدِ وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، إمَّا تَكْرِيمًا لَهُ، وَإمَّا إظْهَارًا لِلحَقِّ الَّذِي قَامَ بِهِ.

وَالوَلِيُّ قَدْ بيَّنَهُ اللهُ جَلَّ فِي قَولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

مَنْ تَحقَّقَ فِيهِ هَذَانِ الوَصْفَانِ: الإيمَانُ وَالتَّقْوَىٰ، فَهُوَ الوَلِيُّ.

قَالَ شَيخُ الإسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: مَنْ كَانَ مُؤمِنًا تَقِيًّا؛ كَانَ للهِ وَلِيًّا. أخَذَ هَذَا مِنَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾». اهـ

وَقَدْ نَقَلَ السَّفَّارِينيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «لَوَامِع الأنْوَارِ» (٢/ ٣٩٣) عَنِ ابنِ حَمْدَانَ الحنْبَلِيِّ قَالَ: «وَكَرَامَةُ الأوْلِيَاءِ حَقٌّ، وَأنْكَرَ الإمَامُ أَحْمَدُ رضي الله عنه عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَهَا وَضَلَّلَهُ».

وَقَالَ شَيخُ الإسْلَامِ فِي «مَجْمُوع الفَتَاوَىٰ» (٣/ ١٥٦) عَنِ الكَرَامَةِ: «إنَّهَا مَوجُودَةٌ فِي هَذِهِ الأمَّةِ إلَىٰ يوم القِيَامَةِ».

قَالَ السَّفَّارِينيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

وَكُلُّ خَارِقٍ أَتَىٰ عَنْ صَالِحِ ... مِنْ تَابِعٍ لِشَرْعِنَا وَنَاصِحِ
فَإنَّهَا مِنَ الكَرَامَاتِ التِي ... بِهَا نَقُولُ فَاقْفُ لِلأدِلَّةِ
وَمَنْ نَفَاهَا مِنْ ذَوِي الضَّلَالِ ... فَقَدْ أَتَىٰ فِي ذَاك بِالمُحَالِ
لأنَّهَا شَهِيرَةٌ وَلَمْ تَزَلْ ... فِي كُلِّ عَصْرٍ يَا شَقَا أَهْلِ الزَّلَلْ

ثَانِيًا: الإِرْهَاصُ:

وَهُوَ التَّأْسِيسُ، وَالمُقَدِّمَاتُ الَّتِي تُمَهِّدُ لِمَجِيءِ النَّبِيِّ، وَهُوَ يُشَارِكُ الكَرَامَةَ فِي نَفْسِ التَّعْرِيفِ، وَلَا يَخْتَلِفُ عَنْهَا إِلَّا بِالاعتِبَارِ الزَّمَنِيِّ، فَهُوَ قَبْلَ دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ كَرَامَةٌ، وَيُسَمَّىٰ بَعْدَ ظُهُورِهَا: إِرْهَاصًا، وَقَدْ أَرَادَ اللهُ -رَحْمَةً بِعِبَادِهِ- أَنْ يُمَهِّدَ السَّبِيلَ لِرِسَالَةِ الرَّسُولِ بِظُهُورِ بَعضِ الخَوَارِقِ عَلَىٰ يَدَيهِ.

وَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ لِنَبِيِّنَا ﷺ، كَإِظْلَالِ الغَمَامِ لَهُ، وَتَسْلِيمِ الحَجَرِ وَالمَدَرِ عَلَيهِ، وَقَدْ حَدَثَ أَيضًا لِعِيسَىٰ عليه السلام، فَقَدْ تَكَلَّمَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ الرِّسَالَةِ.

وَالفَرْقُ بَينَ الآيَةِ -المُعْجِزَةِ- وَالإِرْهَاصِ: هُوَ أَنَّ المُعْجِزَةَ مَقْرُونَةٌ بِدَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ، بِخِلَافِ الإِرْهَاصِ.

ثَالِثًا: الفُروقُ بَينَ آيَاتِ الأَنْبِيَاءِ وَغَيرِهَا:

جِنْسُ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ خَارِجٌ عَنْ مَقْدُورِ البَشَرِ، بَلْ عَنْ مَقْدورِ جِنْسِ الحيَوَانِ وَالجِنِّ أَيضًا، وَأَمَّا خَوارِقُ مُخَالِفِيهِم كَالسَّحَرَةِ، وَالكُهَّانِ، فَإِنَّهَا مِنْ جِنسِ أَفْعَالِ الحَيوَانِ مِنَ الإِنْسِ وَغَيرِهِ، وَمِنْ جِنسِ أَفْعَالِ الجِنِّ.

وَإِذَا كَانَتِ الخَوَارِقُ عَلَىٰ جِنسَينِ:

١- جِنسٌ فِي نَوعِ العِلْمِ.

٢- وَجِنْسٌ فِي نَوعِ القُدْرَةِ.

وَمَا اخْتُصَّ بِهِ النَّبِيُّ مِنَ العِلْمِ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَةِ الإنْسِ وَالجِنِّ، وَكَذلِكَ مَا اختُصَّ بِهِ مِنَ القُدرَاتِ، وَقُدْرَةُ الجِنِّ فِي هَذَا البَابِ كَقُدْرَةِ الإنْسِ؛ لأنَّ الجِنَّ هُمْ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ دَعَاهُ الأنبِيَاءُ إِلَىٰ الإيمَانِ، وَأُرسِلَتْ إِلَيهِمُ الرُّسُلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ [الأنعام:١٣٠].

وَمَعْلُومٌ أنَّ النَّبِيَّ إذَا دَعَا الجِنَّ إِلَىٰ الإيمَانِ بِهِ، فَلَابُدَّ أنْ يَأتِيَ بِآيَاتٍ خَارِجَةٍ عَنْ مَقْدُورِ الجِنِّ.

فَثَبَتَ(١) أنَّ آيَاتِ الأنبِيَاءِ لَابُدَّ أنْ تَكُونَ خَارِجَةً عَنْ مَقْدُورِ الجِنِّ وَالإنْسِ.

وَقَدْ ذَكَرَ شَيخُ الإسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عِدَّةَ فُروقٍ بَينَ آيَاتِ الأنبِيَاءِ وَغَيرِهَا فِي آخِرِ كِتَابِهِ «النُّبُوَّات»، مُلَخَّصُهَا:

أَوَّلًا: أنَّ مَا تُخبِرُ بِهِ الأنبِيَاءُ لَا يَكُونُ إلَّا صِدقًا، وَأمَّا مَا يُخبِرُ بِهِ مَنْ خَالَفَهُم مِنَ السَّحَرَةِ، وَالكُهَّانِ، وَعُبَّادِ المُشْرِكِينَ، وَأهْلِ الكِتَابِ، وَأهْلِ البِدَعِ وَالفُجُورِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَإنَّهُ لَابُدَّ فِيهِ مِنَ الكَذِبِ.

الثَّانِي: أنَّ الأنبِيَاءَ لا تَأمُرُ إلَّا بِالعَدْلِ، وَلَا تَفْعَلُ إلَّا العَدْلَ، وَهُؤلَاءِ المُخَالِفُونَ لَهُمْ لَابُدَّ لَهُم مِنَ الظُّلْمِ الَّذِي يُخَالِفُ العَدْلَ؛ مِن: العُدْوَانِ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَالفَوَاحِشِ، وَالشِّركِ، وَالقَولِ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

(١) هذا جواب الشرط لأداة الشرط «إذا»، وقد تقدَّمت فِي: وإذا كانت الخوارقُ علىٰ جنسين ...

وَهَذِهِ الْمُحَرَّمَاتُ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ مُطْلَقًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

الثَّالِثُ: أَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ مَنْ يُخَالِفُهُم مُعتَادٌ لِغَيرِ الأنبيَاءِ، كَمَا هُوَ مُعتَادٌ لِلسَّحَرَةِ وَالكُهَّانِ، وَأَهْلِ البِدَعِ وَالفُجُورِ، وَأَمَّا آيَاتُ الأنبيَاءِ فَمُعتَادَةٌ أَنْ تَدُلَّ عَلَىٰ خَبَرِ اللهِ وَعَلَىٰ عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أنبيَاءُ، وَعَلَىٰ صِدْقِ مَنْ أَخْبَرَ بِنُبُوَّتِهِم سَوَاءٌ كَانُوا هُمُ المُخْبِرِينَ أَوْ غَيرَهُم، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كَرَامَاتُ الأولِيَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ يُخبِرونَ بِنُبُوَّةِ الأنبيَاءِ، وَكَذَلِكَ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ هِيَ أَيضًا تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ الأنبيَاءِ إِذَا كَانُوا قَدْ أَخبَروا بِهَا.

الرَّابِعُ: أَنَّ آيَاتِ الأنبيَاءِ وَالنُّبُوةِ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهَا تُنَالُ بِالاكتِسَابِ، فَهِيَ إِنَّمَا تُنَالُ بِعبَادَةِ اللهِ وَطَاعَتِهِ؛ إِذْ لَا يَقُولُ عَاقِلٌ أَنَّ أَحَدًا يَصِيرُ نَبِيًّا بِالكَذِبِ وَالظُّلْمِ، بَلْ بِالصِّدْقِ وَالعَدْلِ، سَوَاءٌ قَالَ: إِنَّ النُّبُوَّةَ جَزَاءٌ عَلَىٰ عَمَلٍ كَمَا تَقُولُهُ المُعتَزِلَةُ، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ إِذَا زَكَّىٰ نَفْسَهُ فَاضَ عَلَيهِ مَا يَفِيضُ عَلَىٰ الأنبيَاءِ، كَمَا تَقُولُهُ الفَلَاسِفَةُ.

فَعَلَىٰ كِلَا القَولَينِ هِيَ مُستَلزِمَةٌ لالْتِزَامِ الصِّدْقِ وَالعَدْلِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكْذِبَ صَاحِبُهَا عَلَىٰ اللهِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُفسِدُهَا، بِخِلَافِ مَنْ خَالَفَ الأنبيَاءَ مِنَ السَّحَرَةِ، وَالكُهَّانِ، وَعُبَّادِ المُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ البِدَعِ وَالفُجُورِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَحْصُلُ لَهُمُ الخَوَارِقُ مَعَ الكَذِبِ وَالإِثْمِ.

فَكُلُّ مَنْ خَالَفَ طَرِيقَ الأنبيَاءِ لَابُدَّ لَهُ مِنَ الكَذِبِ وَالظُّلْمِ، إِمَّا عَمْدًا،

وَإِمَّا جَهْلًا.

الخَامِسُ: أَنَّ مَا تَأْتِي بِهِ السَّحَرَةُ وَالكُهَّانُ وَالمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ البِدَعِ مِنَ المُسْلِمِينَ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَونِهِ مَقْدُورًا لِلإِنسَانِ وَالجِنِّ، وَآيَاتُ الأَنبِيَاءِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مِثْلِهَا لَا الإِنْسُ وَلَا الجِنُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

السَّادِسُ: أَنَّ مَا يأتي بِهِ السَّحَرَةُ وَالكُهَّانُ، وَكُلُّ مُخَالِفٍ لِلرُّسُلِ، تُمْكِنُ مُعَارَضَتُهُ بِمِثْلِهِ وَأَقْوَىٰ مِنْهُ، وَأَمَّا آيَاتُ الأَنبِيَاءِ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يُعَارِضَهَا لَا بِمِثْلِهَا، وَلَا بِأَقْوَىٰ مِنْهَا.

نَعَمْ، قَدْ تَكُونُ بَعْضُ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ أَكبَرَ مِنْ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الصَّالِحِينَ، لَكِنَّهَا مُتَصَادِقَةٌ مُتَعَاوِنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَتَصْدِيقُ رُسُلِهِ، فَهِيَ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ وَبَرَاهِينُ مُتَعَاضِدَةٌ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا أَقْوَىٰ وَأَدَلَّ عَلَىٰ بَعْضٍ.

السَّابِعُ: أَنَّ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ هِيَ الخَارِقَةُ لِلعَادَاتِ كُلِّهَا، عَادَاتِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، بِخَلَافِ خَوَارِقِ مُخَالِفِيهِم، فَإِنَّ كُلَّ حِزْبٍ مِنْهَا مُعْتَادٌ لِطَائِفَةٍ مِنْ غَيرِ الأَنبِيَاءِ.

وَآيَاتُ الأَنبِيَاءِ لَيسَتْ مُعْتَادَةً لِغَيرِ الذِينَ يَصْدُقُونَ عَلَىٰ اللهِ، وَيُصَدِّقُونَ مَنْ صَدَقَ عَلَىٰ اللهِ، وَهُم الَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصدَّقوا بِهِ، وَتِلْكَ مُعتَادَةٌ لِمَنْ يَفْتَرِي الكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ، أَوْ يُكَذِّبُ بِالحَقِّ لمَّا جَاءَهُ، فَتِلْكَ آيَاتٌ عَلَىٰ

كَذِبِ أَصْحَابِهَا، وَآيَاتُ الأَنبِيَاءِ آيَاتٌ عَلَىٰ صِدْقِ أَصْحَابِهَا، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لا يُخلِي الصَّادِقَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِ، وَلَا يُخْلِي الكَاذِبَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ كَذِبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورىٰ:٢٤].

الثَّامِنُ: أَنَّ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ لَا يَقْدِرُ عَلَيهَا مَخْلُوقٌ، فَلَا تَكُونُ مَقْدُورَةً لِلمَلَائِكَةِ، وَلَا لِلجِنِّ، وَلَا لِلإنسِ، وَإِنْ كَانَتِ المَلَائِكَةُ قَدْ يَكُونُ لَهُمْ فِيهَا سَبَبٌ، بِخِلَافِ آيَاتِ غَيرِهِمْ، فَإِنَّهَا إِمَّا مَقْدُورَةٌ لِلإِنْسِ أَوْ لِلجِنِّ، أَوْ لِمَنْ يُمْكِنُهُم التَّوَصُّلُ إِلَيهَا بِسَبَبٍ.

وَأَمَّا كَرَامَاتُ الصَّالِحِينَ فَهِيَ مِنْ آيَاتِ الأَنبِيَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَكِنَّهَا لَيسَتْ مِنْ آيَاتِهِمُ الكُبرَىٰ، وَلَا يَتَوَقَّفُ إِثبَاتُ النُّبوةِ عَلَيهَا، وَلَيسَت خَارِقَةً لِعَادَةِ الصَّالِحِينَ، بَلْ هِيَ مُعتَادَةٌ فِي الصَّالِحِينَ، أَمَّا آيَاتُ الأَنبِيَاءِ الَّتِي يَخْتَصُّونَ بِهَا فَهِيَ خَارِقَةٌ لِعَادَةِ الصَّالِحِينَ.

التَّاسِعُ: أَنَّ خَوارِقَ غَيرِ الأَنبِيَاءِ، مِنَ الصَّالِحِينَ، وَالسَّحَرَةِ، وَالكُهَّانِ، وَأَهْلِ الشِّرْكِ وَالبِدَعِ، تُنَالُ بِأَفْعَالِهِم كَعِبَادَتِهِم، وَدُعَائِهِم، وَشِرْكِهِم وَفُجُورِهِم وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا آيَاتُ الأَنبِيَاءِ فَلَا تَحْصُلُ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ اللهُ يَفْعَلُهَا آيَةً وَعَلَامَةً لَهُمْ، وَقَدْ يُكرِمُهُم اللهُ بِمِثْلِ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا يُقصَدُ بِهِ الإِكْرَامُ وَالدَّلَالَةُ، بِخِلَافِ الآيَاتِ المُجَرَّدَةِ؛ كَانشِقَاقِ القَمَرِ، وَقَلْبِ العَصَا حَيَّةً، وَإِخرَاجِ يَدِهِ بَيضَاءَ، وَالإِتيَانِ بِالقُرْآنِ، وَالإِخبَارِ بِالغَيبِ، فَهَذِهِ أَمْرُهَا إِلَىٰ

اللهِ لَا إِلَىٰ اختِيَارِ المَخْلُوقِ، وَاللهُ يَأتِي بِهَا بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَمَشِيئَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

العَاشِرُ: أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أنبياءُ يُعتَبَرُ بِهِمْ، فَلَا يَأمُرُ إِلَّا بِمَا أمرَتْ بِهِ الأنبياءُ، مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، والعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِاليَومِ الآخِرِ، وَالإيمَانِ بِجَمِيعِ الكُتُبِ وَالرُّسُلِ، فَلَا يُمكِنُ خُروجُهُ عَمَّا اتَّفَقتْ عَلَيهِ الأنبِيَاءُ.

وَأَمَّا السَّحَرَةُ وَالكُهَّانُ وَالمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ البِدَعِ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ، فَإِنَّهُم يَخرُجُونَ عَمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيهِ الأنبيَاءُ، فَكُلُّهُم يُشرِكُونَ مَعَ تَنَوُّعِ شِرْكِهِم، وَيُكذِّبُونَ بِبَعضِ مَا جَاءَ بِهِ الأنبِيَاءُ، وَالأنبِيَاءُ كُلُّهُم مُنَزَّهُونَ عَنِ الشِّركِ، وَعَنِ التَّكْذِيبِ بِشَيءٍ مِنَ الحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ أنبِيَاءَهُ.

الحَادِي عَشَر: أَنَّ النَّبِيَّ وَأتبَاعَهُ لَا يُخبِرونَ إِلَّا بِحَقٍّ، وَلَا يَأمُرونَ إِلَّا بِعَدْلٍ، فَيَأمُرونَ بِالمَعروفِ، وَيَنهَونَ عَنِ المُنْكَرِ، وَيَأمُرونَ بِمَصَالِحِ العِبَادِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ، وَلَا يَأمُرونَ بِالفَوَاحِشِ، وَلَا الظُّلمِ، وَلَا الشِّرْكِ، فَهُمْ بُعِثوا بِتكمِيلِ الفِطْرَةِ، وَتَقرِيرِهَا، لَا بِتَبدِيلِهَا وَتَغيِيرِهَا.

فَكَمَا أَنَّهُم لَا يَختَلِفونَ فَلَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُم بَعْضًا، فَهُمْ أيضًا مُوَافِقُونَ لِمُوجِبِ الفِطْرَةِ الَّتِي فطَرَ اللهُ عَلَيهَا عِبَادَهُ.

وَأَمَّا مُخَالِفُوهُم مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ، وَأَهْلِ البِدَعِ؛ كَالسَّحَرَةِ وَالكُهَّانِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِلأدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، مُخَالِفونَ لِصَرِيحِ المَعقُولِ وَصَحِيحِ المَنْقُولِ.

فَالأنبِيَاءُ يُكمِّلونَ الفِطَرَ، وَيُبَصِّرونَ الخَلقَ، وَمُخَالِفُوهُم يُفسِدُونَ الحِسَّ وَالعَقْلَ(١).

رَابِعًا: الخَوَارِقُ وَالأَحْوَالُ الشَّيطَانِيَّةُ:

الخَوَارِقُ لَيسَتْ دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيٌّ للهِ تَعَالَىٰ، فَالكَرَامَةُ سَبَبُهَا الإِيمَانُ وَالتَّقْوَىٰ وَالاستِقَامَةُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِذَا كَانَتِ الخَارِقَةُ بِسَبَبِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ وَالفِسْقِ، فَهِيَ مِنَ الأَحْوَالِ الشَّيطَانِيَّةِ، لَا مِنَ الكَرَامَاتِ الرَّحمَانِيَّةِ.

وَقَدْ ضَلَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عِنْدَمَا ظَنُّوا أَنَّ كُلَّ مَنْ جَرَتْ عَلَىٰ يَدَيهِ خَوَارِقُ العَادَاتِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَبَعْضُ النَّاسِ يَطِيرُونَ فِي الهَوَاءِ، وَيَمشُونَ عَلَىٰ المَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ وَهُمْ مِنْ أَفْجَرِ خَلْقِ اللهِ، بَلْ قَدْ يَدَّعُونَ النُّبُوَّةَ، كَالحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَان، وَادَّعَىٰ النُّبوةَ، وَقَدْ أَظْهَرَ أُمُورًا خَارِقَةً لِلعَادَةِ.

فَقَدْ كَانُوا يَضَعُونَ القُيودَ فِي رِجلَيهِ فَيُخرِجُهَا، وَيُضْرَبُ بِالسِّلَاحِ فَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ، وتُسَبِّحُ الرُّخَامَةُ إِذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ.

وَكَانَ يُرِي النَّاسَ رِجَالًا وَرُكبَانًا عَلَىٰ خيلٍ فِي الهَوَاءِ، وَيَقُولُ: هِيَ المَلَائِكَةُ، وَهَذَا وَأَمثَالُهُ مِنْ فِعْلِ الشَّيَاطِينِ، وَلِذَلِكَ إِذَا حَضَرَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ

---

(١) راجع مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٩)، والنبوات (ص٢٣٥، ٤١٢، ٤٢٢).

هَذِهِ الأَحْوَالَ الشَّيطَانِيةَ، وَذَكَرَ اللهَ وَقَرأَ آيةَ الكُرسِي، أَوْ شَيئًا مِنَ القُرآنِ بَطَلَتْ أحوَالُهُم هَذِهِ؛ فَهَذَا الحَارِثُ الدِّمَشْقيُّ الكَذَّابُ لَمَّا أَمْسَكَهُ المُسْلِمُونَ لِيَقتُلُوهُ طَعَنَهُ طَاعِنٌ بِالرُّمْحِ، فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبدُ المَلِكِ: إِنَّكَ لَمْ تُسَمِّ اللهَ، فَسَمَّىٰ اللهَ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ.

خَامِسًا: غَرَائِبُ المُختَرَعَاتِ:

هِيَ أمُورٌ لَيسَتْ خَارِقَةً لِلعَادَةِ، وَلَكِنَّهَا تَحْصُلُ بِالعِلْمِ، وَمَعْرِفَةِ القَوَانِينِ الَّتِي تَحْكُمُ المَادَّةَ، وَكُلُّ مَا فِي الأَمْرِ أَنَّ الشَّيءَ قَدْ يَكُونُ غَرِيبًا فِي وَقْتٍ، وَعَادِيًّا فِي وَقْتٍ آخَرَ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَقَدُّمِ العُلُومِ وَالصِّنَاعَاتِ، وَكُلَّمَا تَرَقَّىٰ النَّوعُ الإنسَانِيُّ فِي مِضْمَارِ العِلْمِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَا كَانَ غَيرَ عَادِيٍّ بِالأَمْسِ هُوَ عَادِيٌّ اليَومَ.

وَعَلَىٰ هَذَا؛ فَجَمِيعُ المُخْتَرَعَاتِ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيهَا الإنسَانُ بِجُهُودِهِ، لَيسَتْ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ مُطْلَقًا، وَبِهَذَا يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَينَهَا وَبَينَ المُعْجِزَةِ، وَبَينَهَا وَبَينَ كُلٍّ مِنَ الكَرَامَةِ وَالسِّحْرِ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَّا السِّحْرُ: فَهُوَ فِي اللُّغَةِ: كُلُّ مَا دَقَّ وَلَطُفَ، وَخَفِيَ سَبَبُهُ، فَيَشْمَلُ قُوَّةَ البيَانِ، وَفَصَاحَةَ اللسَانِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ لُطْفِ العِبَارَةِ، وَدِقَّةِ المَسْلَكِ، وَيَشْمَلُ النَّمِيمَةَ لِمَا فِيهَا مِنْ خفَاءِ أَمْرِ النَّمَّامِ، وَتَلَطُّفِهِ فِي خِدَاعِ مَنْ نَمَّ بينهما لِيتِمَّ لَهُ مَا يُرِيدُ مِنَ الوَقِيعَةِ، وَيَشْمَلُ العَزَائِمَ وَالعُقَدَ الَّتِي يَعْقِدُهَا السَّاحِرُ، وَيَنفُثُ فِيهَا مُستَعِيناً بِالأَرْوَاحِ الخَبِيثَةِ مِنَ الجِنِّ، فَيَصِلُ بِذَلِكَ فِي زَعْمِهِ إِلَىٰ مَا يُرِيدُ مِنَ الأَحْدَاثِ وَالمَكَاسِبِ.

وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ الفَرقُ بَينَ المُعْجِزَةِ وَالسِّحْرِ:

١- فَالمُعْجِزَةُ: لَيسَتْ مِنْ عَمَلِ النَّبيِّ وَكَسْبِهِ، إِنَّمَا هِيَ خَلْقٌ مَحْضٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، عَلَىٰ خِلَافِ سُنَّتِهِ فِي الكَائِنَاتِ.

وَأَمَّا السِّحْرُ: فَمِنْ عَمَلِ السَّاحِرِ وَكَسْبِهِ، سَواءٌ أَكَانَ تَعويذَاتٍ، أَمْ بَيَانًا، أَمْ نَمِيمَةً، أَمْ غَيرَ ذَلِكَ، وَلَهُ أَسبَابُهُ وَوَسَائِلُهُ الَّتِي قَدْ تَنْتَهِي بِمَنْ عَرَفَهَا وَمَهَرَ فِيهَا، وَاستَعمَلَهَا إِلَىٰ مُسَبَّبَاتِهَا، فَلَيسَ خَارِقًا لِلعَادَةِ، وَلَا مُخَالِفًا لِنِظَامِ الكَونِ فِي رَبْطِ الأَسبَابِ بِمُسَبَّبَاتِهَا، وَالوَسَائِلِ بِمَقَاصِدِهَا.

٢- وَالمُعْجِزَةُ: تَظْهَرُ عَلَىٰ يَدِ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ لِتَكُونَ آيَةً عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي رِسَالَتِهِ الَّتِي بِهَا هِدَايَةُ النَّاسِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَإِخْرَاجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَالأَخْذُ بِأَيدِيهِم إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُم فِي عَقَائِدِهِم، وَأَخْلَاقِهِم، وَأَبْدَانِهِم، وَأَموَالِهِم.

أَمَّا السِّحْرُ: فَهُوَ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، أَوْ خُرَافَةٌ، أَوْ صِنَاعَةٌ يُمَوِّهُ بِهَا السَّاحِرُ عَلَىٰ

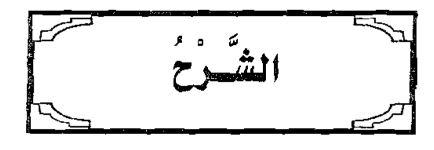
النَّاسِ، وَيُضَلِّلُهُم، وَيَخْدَعُهُم بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِم، وَمَا مَلَكَتْ أَيدِيهِم، وَيَتَّخِذُهَا وَسِيلَةً لِكَسْبِ العَيشِ مِنْ غَيرِ حِلِّهِ، وَيُفَرِّقُ بِهَا بَينَ المَرْءِ وَزَوجِهِ، وَالصَّدِيقِ وَصَدِيقِهِ، وَبِالجُمْلَةِ يُفسِدُ بِهَا أَحْوَالَ الأُمَّةِ بِخَفَاءٍ، وَالنَّاسُ عَنْهُ غَافِلُونَ.

٣- سِيرَةُ مَنْ ظَهَرَتْ عَلَىٰ يَدِهِ المُعْجِزَةُ حَمِيدَةٌ وَعَاقِبَتُهُ مَأْمُونَة، فَهُوَ صَرِيحٌ فِي القَولِ وَالفِعْلِ، صَادِقُ اللَّهْجَةِ، حَسَنُ العِشْرَةِ، سَخِيٌّ، كَرِيمٌ، عَفِيفٌ عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، يَدْعُو إِلَىٰ الحَقِّ، وَيُنَافِحُ دُونَهُ بِقُوَّةٍ وَشَجَاعَةٍ.

أَمَّا السَّاحِرُ: فَسِيرَتُه ذَمِيمَةٌ، وَمَغَبَّتُهُ وَخِيمَةٌ، خَائِنٌ خَدَّاعٌ سَيِّءُ العِشْرَةِ، يَأْخُذُ وَلَا يُعطِي، يَدْعُو إِلَىٰ البَاطِلِ، وَيَسْعَىٰ جُهْدَهُ فِي سَتْرِهِ، خَشيَةَ أَنْ يُفْتَضَحَ أَمْرُهُ، وَيَنْكَشِفَ سِرُّهُ، فَلَا يَتِمُّ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الشَّرِّ وَالفَسَادِ.

٤- مَنْ ظَهَرَتْ عَلَىٰ يَدِهِ المُعْجِزَةُ يَقُودُ الأُمَمَ وَالشُّعُوبَ إِلَىٰ الوَحْدَةِ وَالسَّعَادَةِ، ويَهدِيهَا طَرِيقَ الخَيرِ، وَعَلَىٰ يَدِهِ يَسُودُ الأَمْنُ وَالسَّلَامُ، وَتُفتَحُ البِلَادُ، وَيَكُونُ العُمْرَانُ.

أَمَّا السَّاحِرُ: فَهُوَ آفَةُ الوَحْدَةِ، وَنَذِيرُ الفُرقَةِ وَالتَّخْرِيبِ وَالفَوضَىٰ وَالاضْطِرَابِ».



الشَّرْحُ

أ- السِّحْرُ فِي لُغَةِ العَرَبِ هُوَ: كُلُّ مَا لَطُفَ مَأخَذُهُ وَدَقَّ.

وَأَصْلُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقِيقَتِهِ إِلَىٰ غَيرِهِ، وَيَأْتِي بِمَعنَىٰ الخِدَاعِ، يُقَالُ: سَحَرَهُ؛ بِمَعنَىٰ: خَدَعَه، كَمَا يَأْتِي بِمَعنَىٰ الاستِمَالَةِ، يُقَالُ: سَحَرَهُ بِكَلَامِهِ، إِذَا استَمَالَهُ بِرِقَّتِهِ، وَحُسْنِ تَرْكِيبِهِ، وَمِنْهُ قَولُهُ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»[1][2].

ب- **السِّحْرُ اصْطِلَاحًا**: لَيسَ السِّحرُ نَوعًا وَاحِدًا، فَيُمْكِنُ حَدُّهُ بِحَدٍّ يُمَيِّزُهُ عَنْ غَيرِهِ.

وَقَدْ أَشَارَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «الأُمّ» (١/ ٣٩١) إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَولِهِ**: «وَالسِّحرُ اسْمٌ جَامِعٌ لِمَعَانٍ مُختَلِفَةٍ». اهـ

وَقَالَ الشِّنقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «أَضْوَاء البَيَانِ» (٤/ ٤٤٤)**: «اعْلَمْ أَنَّ السِّحْرَ فِي الاصْطِلَاحِ لَا يُمْكِنُ حَدُّهُ بِحَدٍّ جَامِعٍ مَانِعٍ، لِكَثْرَةِ الأَنْوَاعِ المُخْتَلِفَةِ الدَّاخِلَةِ تَحتَهُ، وَلَا يَتَحَقَّقُ قَدْرٌ مُشتَرَكٌ بَينَهَا، يَكُونُ جَامِعًا لَهَا مَانِعًا لِغَيرِهَا، وَمِنْ هُنَا اختَلَفَتْ عِبَارَاتُ العُلَمَاءِ فِي حَدِّهِ اختِلَافًا مُتَبَايِنًا». اهـ

عَرَّفَهُ أَبو بَكْرٍ الجَصَّاصُ فِي «أَحْكَام القُرْآنِ» (١/ ٥٠) بِقَولِهِ: «هُوَ كُلُّ أَمْرٍ خَفِيَ سَبَبُهُ، وَتُخُيِّلَ غَيرُ حَقِيقَتِهِ، وَيَجْرِي مَجْرَىٰ التَّموِيهِ وَالخِدَاعِ». اهـ

وَقَالَ ابنُ العَرَبِيِّ فِي «أَحْكَام القُرْآنِ» (١/ ٣١) فِي مَعْنَىٰ السِّحْرِ: «كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ يُعظَّمُ بِهِ غَيرُ اللهِ تَعَالَىٰ، وتُنسَبُ إِلَيهِ المَقَادِيرُ وَالكَائِنَاتُ». اهـ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣٤).

(٢) لسان العرب (٤/ ٣٤٨).

وَقَالَ ابنُ قُدَامَةَ فِي «المُغْنِي» (١٢/ ٢٩٩): «السِّحْرُ هُوَ عُقَدٌ وَرُقًى وَكَلَامٌ يَتكَلَّمُ بِهِ، أَوْ يَكْتُبُهُ، أَوْ يَعْمَلُ شَيئًا يُؤَثِّرُ فِي بَدَنِ المَسْحُورِ، أَوْ قَلبِهِ، أو عَقْلِهِ». اهـ

قَالَ الرَّاغِبُ فِي «المُفْرَدَات» (ص٤٠٠): «السِّحْرُ يُقَالُ عَلَىٰ مَعَانٍ:

الأَوَّلُ: الخِدَاعُ، وَتَخييلَاتٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا؛ نَحْو مَا يَفْعَلُهُ المُشَعْبِذُ بِصَرفِ الأبصَارِ عَمَّا يَفعَلُهُ لِخِفَّةِ يَدٍ، وَمَا يَفْعَلُهُ النَّمَّامُ بِقَولٍ مُزَخْرَفٍ عَائِقٍ لِلاستِمَاعِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦].

وَقَولُهُ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦].

وَبِهَذَا النَّظرِ سَمَّوا مُوسَىٰ عليه السلام سَاحِرًا فَقَالُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩].

وَالثَّانِي: استِجْلَابُ مُعَاوَنَةِ الشَّيطَانِ بِضَربٍ مِنَ التَّقَرُّبِ إلَيهِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢].

وَعَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وَالثَّالِثُ: مَا يَذْهَبُ إلَيهِ الأَغْتَامُ -الذِينَ لَا يُفصِحُونَ وَلَا يُبِينُونَ-، وَهُوَ -أي: السِّحْرُ- اسْمٌ لِفِعْلٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ قُوَّتِهِ يُغَيِّرُ الصُّورَ وَالطَّبَائِعَ، فَيَجعَلُ الإنسَانَ حِمَارًا، وَلَا حَقِيقَةَ لِذَلِكَ عِنْدَ المُحصِّلِينَ». اهـ

قَالَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّحْمَنِ الوَكِيل رَحِمَهُ اللهُ فِي «دَعْوَة الحَقِّ» (ص٩٤)، بَعْدَ أَنْ نَقَلَ كَلَامَ الرَّاغِبِ:

«وَقَالَ ابنُ فَارِسٍ فِي مُعْجَمِهِ: السِّحْرُ، قَالَ قَومٌ: هُوَ إِخْرَاجُ البَاطِلِ فِي صُورَةِ الحَقِّ، وَيُقَالُ: هُوَ الخَدِيعَةُ».

وَقَالَ صَاحِبُ القَامُوسِ: «وَالسِّحرُ كُلُّ مَا لَطُفَ مَأخَذُهُ وَدَقَّ... وَسَحَرَ كَمَنعَ؛ خدَعَ».

وَقَالَ ابنُ الأَثِيرِ: «وَالسِّحرُ فِي كَلَامِهِم: صَرفُ الشَّيءِ عَنْ وَجْهِهِ».

وَقَالَ الرَّازِيُّ: «وَلَفْظُ السِّحرِ فِي عُرْفِ الشَّرْعِ، مُخْتَصٌّ بِكُلِّ أَمْرٍ يَخْفَىٰ سَبَبُهُ، وَيُتَخَيَّلُ عَلَىٰ غَيرِ حَقِيقَتِهِ، وَيَجْرِي مَجْرَىٰ التَّمويهِ وَالخِدَاعِ».

هَذَا هُوَ مَعنَىٰ السِّحرِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي شَرَّفَهَا اللهُ فَأَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ، وَهُوَ غَيرُ مَا يَفْهَمُهُ النَّاسُ فِيهِ، إِذْ يَفْهَمُونَ فِي السِّحْرِ أَنَّهُ قُوَّةٌ خَفِيَّةٌ تُدَمِّرُ وَتَنسِفُ وَتُهلِكُ، وَلَا يَقِفُ فِي وَجْهِهَا حَتَّىٰ القَدرُ!!!

وَيَفْهَمُونَ فِي السَّاحِرِ أَنَّهُ مَارِدٌ عِمْلَاقٌ طَاغِيَةٌ مَرْهُوبُ الجَبَرُوتِ، يُزَلْزِلُ الأَرْضَ، وَيُفزِعُ الجِبَالَ، وَيُشَقِّقُ السَّمَاءَ!

وَلَقَدْ وَسْوَسَ الشَّيطَانُ بِهَذَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ، وَادَّعَاهُ مِنَ البَشَرِ جُنُودُهُ، وَغَلَّفُوا نُفُوسَهُم بِالرَّهبُوتِ والطَّلَاسِمِ وَالأَسَاطِيرِ، فَانْدَكَّتْ تَحتَ سَطوَتِهِم الزَّائِفَةِ كُلُّ نَفْسٍ تَأْخُذُ بِهَا نَأْمَةُ الطَّائِرِ.

وَمَضَىٰ عَبِيدُهُم يُرجِفُونَ بِأَنْبَاءِ قُدرَتِهِم الزَّائِفَةِ، الَّتِي تَستَطِيعُ -فِي زَعْمِ شِرْكِهِمْ- تَغيِيرَ القَضَاءِ، وَتَقْيِيدَ القَدَرِ، فَرَجَفَتْ لِهَذِهِ الأَنْبَاءِ قُلُوبُ النَّوْكَىٰ[1] وَالمَأفُونِينَ، ومَخَابِيلِ الأَحْلَامِ، وَهوَّلَ لَهُم شَيَاطِينُ السِّحرِ، وَأَبَالِسَةُ السَّحَرَةِ فِي أَثَرِهِ وَتَأْثِيرِهِ؛ امْرَأَةٌ يَموتُ أَولَادُهَا كُلَّمَا وَلَدَتْ، فَتَلْطِمُ نَادِبَةً: سِحْر!

وَأُخْرَىٰ تَرَىٰ زَوجَهَا مَصْرُوفًا عَنْهَا، فَتبُثُّ الشَّكَاةَ الحَزِينَةَ: سِحْر!! وَتَرَىٰ زَوجًا آخَرَ يُذِيبُهُ الحُبُّ حُنُوًّا عَلَىٰ زَوجِهِ، فَتَتَحَسَّرُ قَائِلَةً: سِحْر!!

زَوْجٌ يَسْتَشْعِرُ الوَهَنَ وَالضَّعْفَ، فَيَطْوِي نَفْسَهُ عَلَىٰ حَسْرَةِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ، وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِ زَوجِهِ: سِحْر!!

تَاجِرٌ كَسَدَتْ تِجَارَتُهُ، وَقَدْ نَفَقَتْ تِجَارَةُ جَارِهِ، فَيُدمدِمُ بِالغَيظِ وَالحَنَقِ: سِحْر!! وَهَكَذَا يَنسُبُ النَّاسُ إِلَىٰ السِّحرِ القُدْرَةَ العَارِمَةَ المُطْلَقَةَ.

قَالَ الشَّيخ حَافِظ الحَكْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَعْلَام السُّنَّةِ المَنْشُورَةِ» (ص١٥٣): «السِّحْرُ مُتَحَقَّقٌ وُجُودُهُ وَتَأْثِيرُهُ مَعَ مُصَادَفَةِ القَدَرِ الكَونِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، وَتَأْثِيرُهُ ثَابِتٌ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ». اهـ

فَتَأْثِيرُ السِّحْرِ ثَابِتٌ لَا يُنكِرُهُ إِلَّا مُكَابِرٌ، أَوْ كَافِرٌ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَكِنَّ تَأْثِيرَهُ إِنَّمَا هُوَ مُصَادَفَةُ القَدَرِ الكَونِيِّ، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ

(١) النَّوْكَىٰ: جمعُ الأَنْوَكِ، وهو الأحمق، والعاجز والجاهل، والعَييُّ في كلامه.

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وَأَمَّا السَّاحِرُ، فَإِنْ كَانَ سِحْرُهُ مِمَّا يُتَلَقَّىٰ مِنَ الشَّيَاطِين كَمَا نَصَّتْ عَلَيهِ آيَةُ البَقَرَةِ، فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

قَالَ الشَّيخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «القَوْل السَّدِيد» (ص٧٤): «السِّحْرُ يَدْخُلُ فِي الشِّرْكِ مِنْ جِهَتَينِ:

أ- مِنْ جِهَةِ مَا فِيهِ مِنَ استِخْدَامِ الشَّيَاطِينِ، وَمِنَ التَّعَلُّقِ بِهِم، وَرُبَّمَا تَقَرَّبَ إِلَيهِم بِمَا يُحِبُّونَ؛ لِيَقُومُوا بِخِدْمَتِهِ وَمَطْلُوبِهِ.

ب- وَمِنْ جِهَةِ مَا فِيهِ مِنْ دَعْوَىٰ عِلْمِ الغَيبِ، وَدَعْوَىٰ مُشَارَكَةِ اللهِ فِي عِلْمِهِ، وَسُلُوكِ الطُّرُقِ المُفْضِيَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ شُعَبِ الشِّركِ وَالكُفْرِ». اهـ

وَالسِّحْرُ يَدْخُلُ فِي الشِّركِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مِنْ وُجُوهٍ هِيَ:

١- اعتِقَادُ نَفْعِ الشَّياطِينِ، وَضَرَرِهِم، وَقُدْرَتِهِم عَلَىٰ ذَلِكَ، بِغَيرِ إِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ.

٢- اعتِقَادُ أَنَّ الكَوَاكِبَ مُدَبِّرَةٌ لأَمْرِ العَالَمِ، وَانفِرَادِهَا أَوْ بَعْضِهَا بِالتَّأْثِيرِ فِي شُئُونِ الكَونِ.

٣- ادِّعَاءُ السَّاحِرِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِشَيَاطِينِهِ، عِلْمَ الغَيبِ، أَوِ المُشَارَكَةَ فِي ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ السِّحرُ فِي الشِّركِ فِي الأُلُوهِيَّةِ مِنْ وُجُوهٍ هِيَ:

١- دُعَاءُ غَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالرَّغْبَةُ إِلَيهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ؛ كَدُعَاءِ الشَّياطِينِ، وَالاستِغَاثَةِ بِهِم، وَالاستِعَانَةِ بِهِم فِي تَحْقِيقِ مُرَادِ السَّاحِرِ.

٢- التَّقَرُّبُ إِلَىٰ الشَّياطِينِ لِيَحْصُلَ لِلسَّاحِرِ المَعُونَةُ، وَتَحقِيقُ مَآرِبِهِ وَطَلَبَاتِهِ، فَيَلجَأُ السَّاحِرُ إِلَىٰ تَقْدِيمِ النُّذُورِ وَالذَّبَائِحِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ الشَّياطِينِ بِمَا يُحبُّونَ؛ لِيَقُومُوا بِخِدْمَتِهِ مُقَابِلَ ذَلِكَ.

٣- السُّجُودُ لِغَيرِ اللهِ، وَعِبادَةُ غَيرِهِ سُبْحَانَهُ؛ كَعِبَادَةِ الكَوَاكِبِ وَالشَّياطِينِ، وَالسُّجُودِ لَهَا، وَتَعْظِيمِهَا كَمَا يُعظِّمُ اللهَ سُبحَانَهُ.

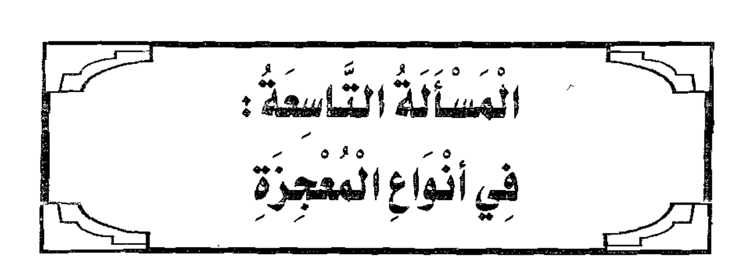
٤- طَاعَةُ الشَّياطِينِ فِي عَمَلِ كَثِيرٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ وَالمُوبِقَاتِ، وَهَذَا يَدْخُلُ تَحْتَ شِركِ الطَّاعَةِ وَالاتِّبَاعِ.

وَالسِّحْرُ يَبْدُو فِي ظَاهِرِهِ أَنَّهُ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ، وَلَكِنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ لَيسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُنَالُ بِالتَّعَلُّمِ، وَيُستَعَانُ فِي تَحْصِيلِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ الشَّيطَانِ، وَذَلِكَ بِارْتِكَابِ القَبَائِحِ، إِمَّا بِالقَولِ؛ كَالرُّقَىٰ الَّتِي فِيهَا أَلفَاظُ الشِّركِ، وَمَدْحِ الشَّيطَانِ، وَإِمَّا بِالعَمَلِ؛ كَعِبَادَةِ الكَوَاكِبِ وَالتِزَامِ الجَنَابَةِ، وَإِمَّا بِالاعتِقَادِ كَاسْتِحسَانِ مَا يُوجِبُ التَّقربَ إِلَىٰ الشَّياطِينِ.

وَكُلُّ هَذَا لَا يَحْدُثُ إِلَّا إِذَا كَانَ بَينَ الَّذِي يُبَاشِرُ السِّحرَ وَبَينَ الشَّيطَانِ تَنَاسُبٌ فِي الشَّرِّ.

وَالفَرْقُ بَينَ الآيَةِ -المُعجزَةِ- وَالسِّحْرِ بَعْدَ هَذَا البَيَانِ ظَاهِرٌ، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

* * *



المَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ:
فِي أَنْوَاعِ المُعْجِزَةِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ تَنَوُّعِ الآيَاتِ الَّتِي أَيَّدَ اللهُ بِهَا رُسُلَهُ، وبَيَانِ الحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ: «إِنَّ آيَاتِ المُعْجِزَاتِ!! الَّتِي أَيَّدَ اللهُ بِهَا رُسُلَهُ قَد اختَلَفَتْ أَنْوَاعُها، وَتَبَايَنَتْ مَظَاهِرُهَا وَأَشْكَالُهَا، إِلَّا أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهَا قَدْ عَجَزَ البَشَرُ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، مُنْفَرِدِينَ أَوْ مُجْتَمِعِينَ، فَكَانَتْ بِذَلِكَ شَاهِدَ صِدْقٍ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ، وَحُجَّةً قَاطِعَةً تُخْرِسُ الأَلْسِنَةَ، وَيَنْقَطِعُ عِنْدَهَا الخُصُومُ، وَيَجِبُ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالقَبُولُ».



الشَّرْحُ

لِلمُعْجِزَةِ أَقسَامٌ بِاعتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَبِاعتِبَارِ كَونِهَا قَوْلًا أَوْ غَيرَهُ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ:

قَولٍ: وَهُوَ القُرْآنُ العَظِيمُ؛ الَّذِي تَحَدَّىٰ اللهُ الإِنْسَ وَالجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ أَقصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ.

وَفِعْلٍ: كَانْقِلَابِ العَصَا حَيَّةً تَسْعَىٰ، عَلَىٰ يَدِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَإحيَاءِ المَوتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ عَلَىٰ يَدِ عِيسَىٰ عليه السلام، وَنَبْعِ المَاءِ مِنْ بَينَ أَصَابعِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَتَرْكٍ: وَذَلِكَ كَعَدَمِ إِحْرَاقِ النَّارِ لإبْرَاهِيمَ عليه السلام.

وَتَنْقَسِمُ المُعْجِزَةُ بِاعتِبَارِ طَرِيقِ ثُبُوتِهَا إِلَىٰ:

ا- مَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ؛ كَالقُرْآنِ الكَرِيمِ، وَمَا ثبتَ بِالتَّواتُرِ سِوَاهُ.

ب- مَا ثَبتَ بِطَرِيقِ الآحَادِ؛ كَبَاقِي المُعْجِزَاتِ الَّتِي لَمْ تَثْبُتْ بِطَرِيقِ التَّوَاتُرِ.

ج- مَا أخبرَ بِهِ القُرْآنُ مِنْ مُعْجِزَاتِ الأنبِيَاءِ.

وَتَنْقَسِمُ المُعْجِزَةُ بِاعتِبَارِ كَونِهَا حِسِّيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً إِلَىٰ:

أ- حِسِّيَّةٍ: وَهِيَ خَوارِقُ العَادَاتِ الَّتِي شُوهِدَتْ، وَهِيَ الَّتِي تَحْتَ قِسْمَي الفِعْلِ وَالتَّركِ فِي التَّقسِيمِ الأوَّلِ.

ب- مَعْنَوِيَّةٍ: كَالقُرْآنِ العَظِيمِ، وَالأَحَادِيثِ الَّتِي هِيَ جَوَامِعُ الكَلِمِ، تُنَظِّمُ العَلَاقَةَ بَينَ الفَرْدِ وَرَبِّهِ، وَبَينَ الفَرْدِ وَمُجْتَمَعِهِ، وَتَحُضُّ عَلَىٰ الفَضَائِلِ، وَتُنذِرُ مَنْ يَفْعَلُ الرَّذَائِلَ.

وَاستِقْرَاءُ الآيَاتِ الَّتِي أَعْطَاهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِرُسُلِهِ وَأَنبِيَائِهِ يُدرِجُهَا تَحْتَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ؛ هِيَ: العِلْمُ، وَالقُدْرَةُ، وَالغِنَىٰ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ شَيخُ الإِسْلَامِ رحمه الله فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١١/ ٣١٢).

فَالإخبَارُ بِالمُغَيَّبَاتِ المَاضِيَةِ وَالآتِيَةِ؛ كَإخبَارِ عِيسَىٰ قَومَهُ بِمَا يَأكُلُونَهُ وَمَا يَدَّخِرونَهُ فِي بُيُوتِهِم، وَإخبَارِ رَسُولِنَا ﷺ بِأَخْبَارِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَإخبَارِهِ بِالفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي سَتَأتِي فِي المُستَقْبَلِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ العِلْمِ.

وَتَحْوِيلُ العَصَا أفعَىٰ، وَإبْرَاءُ الأكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، وَإحيَاءُ المَوتَىٰ، وَانْشِقَاقُ القَمَرِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ القُدْرَةِ.

وَعِصْمَةُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ مِنَ النَّاسِ، وَحِمَايَتُهُ لَهُ مِمَّنْ أرَادَ بِهِ سُوءًا، وَمُواصَلَتُهُ لِلصِّيَامِ مَعَ عَدَمِ تَأثِيرِ ذَلِكَ عَلَىٰ حَيَوِيَّتِهِ وَنَشَاطِهِ، مِنْ بَابِ الغِنَىٰ.

وَهَذِهِ الأُمُورُ الثَّلَاثَةُ: العِلْمُ، وَالقُدْرَةُ، وَالغِنَىٰ، الَّتِي تَرْجِعُ إلَيهَا الآيَاتُ لَا يَنْبَغِي أنْ تَكُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الكَمَالِ إلَّا للهِ تَعَالَىٰ، وَلِذَلِكَ أمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِالبَرَاءَةِ مِنْ دَعْوَىٰ هَذِهِ الأمُورِ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فَالرَّسُولُ ﷺ يَبْرَأُ مِنْ دَعْوَىٰ عِلْمِ الغَيبِ، وَمُلْكِ خَزَائِنِ الأرْضِ، وَمِنْ كَونِهِ مَلَكًا مُسْتَغنِيًا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالمَالِ.

وَالرُّسُلُ يَنَالُونَ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ المُخَالِفَةِ لِلعَادَةِ المُطَّرِدَةِ، أوْ لِعَادَةِ أغْلَبِ النَّاسِ بِقَدْرِ مَا يُعطِيهِمُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَيَعْلَمُونَ مِنَ اللهِ مَا عَلَّمَهُم إيَّاهُ، وَيَقدِرُونَ عَلَىٰ مَا أقْدَرَهُم عَلَيهِ، وَيَسْتَغنُونَ بِمَا أغنَاهُم بِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الحِكمَةِ أنْ يُؤَيِّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ رُسُلَهُ وَأنبِيَاءَهُ بِآيَاتٍ تُصَدِّقُ

دَعْوَاهُم، وَيَغْلِبُ أَنْ تَكُونَ الخَوَارِقُ مِنْ جِنْسِ مَا نَبَغَ فِيهِ القَوْمُ فِي زَمَانِ كُلِّ رَسُولٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ ذَلِكَ أَدْخَلَ فِي بَابِ التَّحَدِّي، وَطَلَبِ المُعَارَضَةِ، إِذَا كَانَ فِي مَقْدُورِهِم ذَلِكَ.

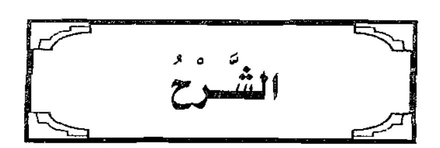
* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَغْلِبُ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةُ كُلِّ رَسُولٍ مُنَاسِبَةً لِمَا انتَشَرَ فِي عَصْرِهِ، وَبَرَّزَ فِيهِ قَومُهُ، وَعُرِفُوا بِالمَهَارَةِ فِيهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَىٰ لِفَهْمِهَا، وَأَعْظَمَ لِدَلَالَتِهَا عَلَىٰ المَطْلُوبِ، وَأَمْكَنَ فِي الالْتِزَامِ بِمُقْتَضَاهَا.

فَفِي عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ انتَشَرَ السِّحْرُ، وَمَهَرَ فِيهِ قَومُهُ، حَتَّىٰ أَثَّرُوا بِهِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، وَسَحَرُوا بِهِ أَعْيُنَ النَّاظِرِينَ، وَأَوجَسَ فِي نَفْسِه خِيفَةً مِنْهُ مَنْ شَهِدَهُ، وَإِنْ كَانَ عَالِيَ الهِمَّةِ، قَوِيَّ العَزِيمَةِ، فَكَانَ مَا آتَاهُ اللهُ نَبِيَّهُ مُوسَىٰ فَوقَ مَا تَبْلُغُهُ القُوَىٰ وَالقُدَرُ، وَمَا يُدْرَكُ بِالأَسْبَابِ وَالوَسَائِلِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ اللهُ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ؛ مِنْهَا قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه:١٧-٢٣].

وَلِهَذَا بُهِتَ السَّحَرَةُ، وَبَطَلَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ التَّمْوِيهِ وَالتَّضْلِيلِ، وَامتَازَ الحَقُّ عَنِ البَاطِلِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٠-١٢٢]».



الشَّرْحُ

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ سَأَلَ كَلِيمَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ عَصَاهُ بِقَولِهِ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾.

فَقَالَ مُوسَىٰ: هِيَ عَصَايَ أعتَمِدُ عَلَيهَا فِي المَشْيِ، وَأهُزُّ بِهَا الشَّجَرَ؛ لِتَرْعَىٰ غَنَمِي مَا يَتَسَاقَطُ مِنْ وَرَقِهِ، وَلِيَ فِيهَا مَنَافِعُ أُخْرَىٰ، وَمَقَاصِدُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ: أَلْقِ عَصاكَ، فَأَلْقَاهَا مُوسَىٰ عَلَىٰ الأَرْضِ، فَانْقَلَبَتْ بِإِذْنِ اللهِ حَيَّةً تَسْعَىٰ، فَرَأىٰ مُوسَىٰ أمْرًا عَظِيمًا، وَولَّىٰ هَارِبًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ عليه السلام: خُذِ الحَيَّةَ، وَلَا تَخَفْ مِنْهَا، سَوفَ نُعِيدُهَا عَصًا كَمَا كَانَتْ فِي حَالَتِهَا الأُولَىٰ، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنْبِكَ تَحْتَ العَضُدِ تَخْرُجْ بَيضَاءَ كَالثَّلْجِ مِنْ غَيرِ بَرَصٍ، لِتَكُونَ لَكَ عَلَامَةً أُخْرَىٰ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾؛ أي: فَعَلْنَا مَا ذَكَرْنَا مِنَ انْقِلَابِ العَصَا حَيَّةً تَسْعَىٰ، وَمِنْ خُروجِ اليَدِ بَيضَاءَ لِلنَّاظِرِينَ؛ لأجْلِ أنْ نُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَىٰ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِحَّةِ رِسَالَتِكَ وَحَقِيقَةِ مَا جِئْتَ بِهِ، فَيَطْمَئِنُّ قَلْبُكَ، وَيَزْدَادُ عِلْمُكَ، وَتَثِقُ بِوَعْدِ اللهِ لَكَ بِالحِفْظِ وَالنُّصْرَةِ، وَلِتَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا لِمَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيهِم.

وَقَدْ أخبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أنَّ مُوسَىٰ عليه السلام لَمَّا أجْرَىٰ اللهُ عَلَىٰ يَدَيهِ الآيَاتِ، كَانَ أعْظَمَ مَنْ تَبَيَّنَ لَهُ الحَقُّ العَظِيمُ أهْلُ السِّحْرِ، الذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ أنْوَاعِ السِّحْرِ وَجُزْئِيَّاتِهِ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيرُهُم، فَقَدْ عَرَفُوا أنَّ هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَدَانِ لأحَدٍ بِهَا، ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٠-١٢٢]. أي: وَصَدَّقْنَا بِمَا بُعِثَ بِهِ

مُوسَىٰ مِنَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ.

لَقَدْ أَيْقَنَ السَّحَرَةُ بِأَنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَكُنْ سَاحِرًا مِثْلَهُم، وَأَنَّ مَا ظَهَرَ عَلَىٰ يَدَيهِ لَمْ يَكُنْ سِحْرًا، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ، هُوَ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ مُوسَىٰ ﵇ فِي دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ، وَلِذَلِكَ بَادَرَ السَّحَرَةُ بِالسُّجُودِ لِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ.

إِنَّ آيَاتِ الأنبِيَاءِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهِم كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَكُلُّ مَنْ خَصَّ دَلِيلَ الصِّدْقِ بِشَيءٍ مُعَيَّنٍ فَقَدْ غَلِطَ، بَلْ آيَاتُ الأنبِيَاءِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ.

وَآيَاتُ اللهِ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ؛ كَآيَاتِ وُجُودِهِ، وَوَحدَانِيَّتِهِ، وَعِلْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، ﵎.

وَالقُرْآنُ مَلِيءٌ بِتَفصِيلِ آيَاتِهِ، وَتَصْرِيفِهَا، وَضَرْبِ الأمثَالِ فِي ذَلِكَ؛ وَهُوَ يُسَمِّيهَا آيَاتٍ وَبُرْهَانًا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ.

وَآيَاتُ الأنبِيَاءِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِم- لَا تُحَدُّ بِحدُودٍ يَدْخُلُ فِيهَا غَيرُ آيَاتِهِمْ فَيمتَنِعُ أَنْ تَكُونَ مُعتَادَةً لِغَيرِهِمْ، وَيَمتَنِعُ أَنْ يَأتِي مَنْ يُعَارِضُهُم بِمِثْلِهَا، وَيَمتَنِعُ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَهُم أَنْ يَأتِيَ بِمِثْلِهَا.

وَآيَاتُ الأنبِيَاءِ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ خَارِقَةً لِلعَادَةِ، خَارِجَةً عَنْ قُدْرَةِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، وَلَا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يُعَارِضَهَا.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَفِي عَهْدِ المَسِيحِ عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ عليه السلام بَرَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الطِّبِّ فَكَانَ مِمَّا آتَاهُ اللهُ أَنْ يُصَوِّرَ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ، فَيَنفُخُ فِيهِ فَيكُونُ طَيرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِبْرَاءُ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَإِحيَاءُ المَوتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي ثَبَتَتْ بِهَا رِسَالَتُهُ، وَقَامَتْ بِهَا الحُجَّةُ عَلَىٰ قَومِهِ».

الشَّرْحُ

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عِيسَىٰ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِعَلَامَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنِّي مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ، وَهِيَ أَنِّي أَصْنَعُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ مِثْلَ شَكْلِ الطَّيرِ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيرًا حَقِيقيًّا بِإِذْنِ اللهِ، وَأَشْفِي مَنْ وُلِدَ أَعْمَىٰ، وَمَنْ بِهِ بَرَصٌ، وأُحْيِي مَنْ كَانَ مَيْتًا بِإِذْنِ اللهِ، وَأخْبِرُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيوتِكُم مِنْ طَعَامِكُم، إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمُورِ العَظِيمَةِ الَّتِي لَيسَتْ فِي قُدْرَةِ البَشَرِ لَدَلِيلًا عَلَىٰ أَنِّي نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، إِنْ كُنْتُم مُصَدِّقِينَ حُجَجَ اللهِ وَآيَاتِهِ، مُقِرِّينَ بِتَوحِيدِهِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَ العَرَبُ قَدْ بَلَغُوا الغَايَةَ فِي فَصَاحَةِ اللِّسَانِ، وَقُوَّةِ البَيَانِ، وَجَرَتِ الحِكْمَةُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِم حَتَّىٰ اتَّخَذُوا ذَلِكَ مَيدَانًا لِلسِّبَاقِ وَالمُبَارَاةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، فَكَانَتْ بَلَاغَتُهُ، وَبَيَانُهُ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الحِكَمِ وَالأَمْثَالِ جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِ إِعْجَازِهِ، قَالَ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِن نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم تَابِعًا يَومَ القِيَامَةِ»(١)».

الشَّرْحُ

لَقَدْ تَحَدَّىٰ اللهُ بِالقُرْآنِ العَظِيمِ الإِنْسَ وَالجِنَّ، وَتَحَدَّىٰ بِهِ فُصَحَاءَ العَرَبِ، وَكَانَتِ الفَصَاحَةُ وَالبَلَاغَةُ وجَودَةُ القَولِ بِضَاعَةَ العَرَبِ الَّتِي نَبَغَتْ بِهَا، وَقَدْ عَادَىٰ أُولَئِكَ القَومُ دَعْوَةَ الإِسْلَامِ وَرَسُولَ الإِسْلَامِ ﷺ.

وَلَقَدْ كَانَ أَشَدَّ مَا يَعصِفُ بِالدَّعْوَةِ وَالدَّاعِي أَنْ يُعَارِضَ فُصَحَاؤُهُم القُرآنَ العَظِيمَ، وَيَأْتُوا بِشَيءٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَلَكِنَّهُم عَجَزوا عَنْ ذَلِكَ مَعَ شِدَّةِ حِرْصِهِم عَلَيهِ، وَبَلِيغِ رَغْبَتِهِم فِيهِ، بَلْ لَقَدْ دَمَغَهُم بِالعَجْزِ فِيمَا يَستَقْبِلُونَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٦، ٦٨٤٦)، ومسلم (١٥٢).

ﭐلَّتِي وَقُودُهَا ﭐلنَّاسُ وَﭐلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

لَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ، وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ، مَشْهُورِينَ بِالبَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ وَالمَعْرِفَةِ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ، وَقَدْ بَرَّزُوا فِي ذَلِكَ خَطَابَةً وَنَثْرًا وَشِعْرًا وَتَذَوُّقًا، حَتَّىٰ إِنَّهُم كَانُوا يَعْقِدُونَ المَوَاسِمَ الأَدَبِيَّةَ لِتَخَيُّرِ أَحْسَنِ الشِّعْرِ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ القُرْآنَ بِلُغَةِ العَرَبِ وَلِسَانِهَا، وَتَحَدَّاهُم بِهِ؛ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَتَحَدَّاهُم فِيمَا هُمْ فِيهِ بَارِعُونَ، فَلَمْ يَرفَعُوا لِلتَّحَدِّي رَأْسًا.

وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَدَعُوا سَبِيلًا إِلَّا سَلَكُوهَا، وَلَا وَسِيلَةً إِلَّا رَكِبُوهَا؛ لِإِبْطَالِ الرِّسَالَةِ، وَإِخْمَادِ الدَّعْوَةِ.

وَكَانُوا أَصْحَابَ السُّلْطَانِ وَالقُوَّةِ وَالنُّفُوذِ، فَلَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُم مِنْ قَبُولِ التَّحَدِّي رَهَبٌ وَلَا رَغَبٌ.

إِنَّ شُروطَ التَّحَدِّي الَّتِي إِذَا تَوَفَّرَتْ دَلَّتْ عَلَىٰ صِدْقِ المُتَحَدِّي فِيمَا يَدَّعِيهِ لِنَفْسِهِ، وَدَلَّتْ عَلَىٰ بُطْلَانِ دَعْوَىٰ مَنْ وُجِّهَ إِلَيهِم التَّحَدِّي، قَدْ تَوَفَّرَتْ فِي تَحَدِّي القُرْآنِ لِقُرَيشٍ.

وَشُروطُ التَّحَدِّي هِيَ:

أَوَّلًا: أَنْ يَكُونَ مَوضُوعُ التَّحَدِّي دَاخِلًا فِي قُدْرَةِ مَنْ وُجِّهَ إِلَيهِمْ، بَلْ وَيَكُونَ دَاخِلًا فِي اختِصَاصِهِم، وَمِمَّا هُمْ بَارِعُونَ فِيهِ، وَمُتَفَوِّقُونَ فِيهِ.

ثَانِيًا: أَنْ يَكُونَ مَنْ وُجِّهَ إِلَيهِمُ التَّحَدِّي رَاغِبِينَ كُلَّ الرَّغْبَةِ، حَرِيصِينَ

كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ إبْطَالِ دَعْوَىٰ المُتَحَدِّي، وَالإجَابَةِ عَلَىٰ تَحَدِّيهِ.

ثَالِثًا: أَلَّا يُوجَدَ مَانِعٌ يَمْنَعُ مَنْ وُجِّهَ إِلَيهِمُ التَّحَدِّي مِنَ الإجَابَةِ عَلَيهِ.

وَعَجزُهُم، وَعَجْزُ الإنْسِ وَالجِنِّ، دَلِيلٌ قَاطِعٌ وَبُرْهَانٌ سَاطِعٌ عَلَىٰ ثُبُوتِ نُبُوَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وَأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ وَوَحْيُهُ.

وَالقُرْآنُ آيَةٌ بَاقِيَةٌ، وَالتَّحَدِّي بِهَا قَائِمٌ لِلإنْسِ وَالجِنِّ جَمِيعًا.

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الَّذِي سَاقَهُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ آيَاتِ الأنبيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِ العُمُومِ، وَمَا تَسْتَلْزِمُهُ النُّبُوَّةُ بِذَاتِهَا.

وَذَكَرَ ﷺ مَا يَتعَلَّقُ بِآيَتِهِ العُظْمَىٰ الَّتِي تَحَدَّىٰ بِهَا الإنْسَ وَالجِنَّ -وَقَدْ أُرسِلَ إلَيهِم جَمِيعًا- وَهِيَ القُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيهِ، وَهِيَ الآيَةُ الكُبْرَىٰ الَّتِي اختُصَّ بِهَا ﷺ فِي تَحَدِّيهِ لِقَومِهِ.

لَقَد كَانَتْ عَصَا مُوسَىٰ، وَمَا نَشَأَ عَنْهَا مِنْ لَقْفِ مَا أَفِكَ السَّحَرَةُ، وَفَرْقِ البَحْرِ فِرْقَينِ، كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ، تَحَدِّيًا لِمَا كَانَ فَاشِيًا آنئِذٍ مِنَ السِّحرِ.

وَكَانَ إحيَاءُ عِيسَىٰ المَوتَىٰ، وَإِبْرَاؤُهُ الأكْمَهَ وَالأبْرَصَ -بِإذنِ اللهِ- آيَةً يَتَحَدَّىٰ بِهَا عَصْرَ الطِّبِّ وَالحِكْمَةِ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ عليه السلام.

وَلَمَّا كَانَ العَرَبُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِم مُحَمَّدٌ ﷺ قَد استَقَامَ لَهُم مَتْنُ اللُّغَةِ، وسَلُسَ لَهُمْ قِيَادُهَا -فَصَاحَةً وَبَلَاغَةً- جَاءَهُم بِالقُرْآنِ قَدْ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، ثُمَّ تَحَدَّاهُم أَنْ يَأتُوا بِمِثْلِهِ، إِلَىٰ أَنْ تَحَدَّاهُم أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ أَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ فَعَجَزوا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيسَتْ مُعْجِزَاتُ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عليهم السلام مَقْصُورَةً عَلَىٰ مَا ذُكِرَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بَيَانٌ لِمَا تَحَدَّىٰ بِهِ كُلٌّ مِنْهُم قومَهُ، وَجعلَهُ قَاعِدَةً يَبْنِي عَلَيهَا دَعْوَتَهُ، وَتثبتُ بِهَا رِسَالَتُهُ، وَإِلَّا فَلِهَؤُلَاءِ -صلىٰ الله عليهم وسلم- وَغَيرِهِم مِنَ الأَنبِيَاءِ عليهم السلام، كَثِيرٌ مِنَ الآيَاتِ البَينَاتِ، وَالعَلَامَاتِ الوَاضِحَاتِ الَّتِي دلَّتْ عَلَىٰ صِدْقِهِ سِوَىٰ مَا تَحَدَّىٰ بِهِ كُلُّ نَبِيٍّ قَومَهُ.

وَمِنْهَا: مَا يَرْجِعُ إِلَىٰ سِيرَتِهِم قَبْلَ الرِّسَالَةِ، فَإِنَّ اللهَ تعَالَىٰ قَدْ أَعَدَّهُم لِتَحَمُّلِ أَعْبَاءِ رِسَالَتِهِ.

وَمِنْهَا: مَا يَرْجِعُ إِلَىٰ ثَبَاتِ جَأشِهِم، وَقُوَّةِ بَأسِهِم فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ نُصْرَتِهَا، وَنَشْرِهَا بِنَفْسِهِ، وَبِمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَمَا أَقَلَّهُم عَدَدًا، وَأَضْعَفَهُم شَوكَةً، مَعَ غِنَىٰ عَدُوِّهِم، وَكَثْرَةِ عَدَدِهِم، وَقُوَّةِ سُلْطَانِهِم، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ الدَّاعِي فِي دَعْوَتِهِ، وَكَمَالِ يَقِينِهِ بِهَا.

وَمِنْهَا: مَا يَرْجِعُ إِلَىٰ سَلَامَةِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَدْعُونَ إِلَيهَا، وَحِكْمَتِهِم فِي حَمْلِ النَّاسِ عَلَيهَا، وَقُوةِ حِجَاجِهِم فِي الدِّفَاعِ عَنْهَا، وَمَا شُوهِدَ مِنْ آثَارِهَا فِي صَلَاحِ مَنِ اهْتَدَىٰ بِهَا مِنَ الأُمَمِ فِي الدَّوْلَةِ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالاجْتِمَاعِ، وَالاقتِصَادِ، وَالحَرْبِ، وَالسِّلْمِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الشُّعُوبِ، حَتَّىٰ إِذَا حَرَّفُوهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا فَأَوَّلُوهَا عَلَىٰ غَيرِ وَجْهِهَا أَوْ أَعْرَضُوا عَنْهَا، وَتركُوا العَمَلَ بِهَا؛ دَالَتْ دَوْلَتُهُم، وَسَاءَتْ حَالَتُهُم، فَإِنَّ العَاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ، وَالخَيبَةَ وَالخِزْيَ عَلَىٰ المُفْسِدِينَ.

وَمِنْهَا: مَا يَرْجِعُ إِلَىٰ آيَاتٍ حِسِّيَّةٍ أكْرَمَ بِهَا رُسُلَهُ، وَمَنْ آمَنَ بِهِم مِنْ تَفْرِيجِ كُرْبَةٍ، وَإِزَالَةِ شِدَّةٍ، أَوْ خَوَارِقِ عَادَاتٍ طَلَبَتْهَا الأُمَّةُ بَغيًا وَعِنَادًا، فَأُجِيبَتْ إِلَيهَا دَفعًا لِلحَرَجِ عَنِ الرُّسُلِ، وَزِيَادَةً فِي التَّثْبِيتِ لَهُمْ، وَالإِعْذَارِ إِلَىٰ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ.

وَمِنْهَا: مَا يَرجِعُ إِلَىٰ تَعلِيمِ الصِّنَاعَاتِ، وَتَيسِيرِ طُرُقِهَا: كَإِسَالَةِ عَينِ القِطْرِ، وَإِلَانَةِ الحَدِيدِ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَىٰ خِلَافِ سُنَّةِ الكَونِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً لَهُ وَكَرَامَةً، وَلِيَكُونَ سَعَةً لِلعِبَادِ وَرَحْمَةً لَهُمْ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحصِيهِ إِلَّا اللهُ».

الشَّرْحُ

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أُصُولَ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَبَيَّنَ أَنَّ مُعجِزَاتِ الأَنبِيَاءِ وَآيَاتِهِم لَا تَنْحَصِرُ فِيمَا تَحَدَّىٰ بِهِ كُلُّ نَبِيٍّ قَومَهُ، وَذَكَرَ أُصُولَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ، وَالدَّلَائِلِ الوَاضِحَاتِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِم، وَهِيَ تَحْتَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ، هِيَ: العِلْمُ، وَالقُدْرَةُ، وَالغِنَىٰ، كَمَا مَرَّ.

وَالأَنبِيَاءُ الذِينَ بَعَثَهُمُ اللهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ، يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: نَحْنُ رُسُلُ رَبِّنَا إِلَيكُمْ، وَعَلَيكُمْ أَنْ تُصَدِّقُونَا فِيمَا نُخْبِرُكُمْ بِهِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيكُمْ أَنْ تُطِيعُونَا بِفِعْلِ مَا نَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

وَقَدْ خَاطَبَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَومَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ

﴿رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٦-١٠٨].

وَبِهَذَا القَولِ نَفسِهِ خَاطَبَ رُسُلُ اللهِ: هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَلُوطٌ، وَشُعَيبٌ: أَقْوَامَهُم، بَلْ هِيَ مَقَالَةُ وَدَعْوَةُ كُلِّ رَسُولٍ لِقَومِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، كَانَ ضَرورِيًّا أَنْ يُؤَيَّدَ الأَنبِيَاءُ وَالرُّسُلُ بِآيَاتٍ وَبَرَاهِينَ تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِم فِي دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، كَي تَقُومَ الحُجَّةُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَتَنْقَطِعَ الأَعْذَارُ فِي عَدَمِ تَصْدِيقِهِم وَطَاعَتِهِم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥]. أي: بِالدَّلَائِلِ وَالبَيِّنَاتِ، وَالآيَاتِ الوَاضِحَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِم.

وَتُثْبَتُ النُّبُوَّةُ بِأُمُورٍ عَدِيدَةٍ، مِنْهَا:

أَوَّلًا: الآيَاتُ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِهَا أَنبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَهِيَ الأُمُورُ الخَارِقَةُ لِلعَادَةِ الَّتِي يُظهِرُهَا اللهُ عَلَىٰ أَيدِيهِم، تَأييدًا لَهُمْ، وَتَثْبِيتًا لِقُلُوبِهِم، وَتَصْدِيقًا لَهُمْ فِي دَعْوَاهُم أَنَّهُمْ رُسُلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

ثَانِيًا: سِيَرُ الأَنبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَأَحْوَالُهُمْ.

وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ النَّاسِ رُسُلًا مِنْهُمْ، وَكَانَ كُلُّ قَومٍ يُجَالِسُونَ نَبِيَّهُم، وَيُخَالِطُونَهُ، وَيُعَامِلُونَهُ، وَيَعْرِفُونَ مَدخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ، وَكَانَتْ قُرَيشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ البَعْثَةِ: الصَّادِقَ الأَمِينَ، وَذَلِكَ لِصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ.

وَقَدْ صَرَّحُوا بِأَنَّهُم مَا جَرَّبُوا عَلَيهِ كَذِبًا قَطُّ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَىٰ رَبِّ النَّاسِ، وَقَدْ أَرْشَدَ القُرْآنُ إِلَىٰ هَذَا النَّوْعِ مِنَ

الاستدلال، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦].

أي: قُلْ لَهُمْ -يَا مُحَمَّدُ-: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُ هَذَا القُرْآنَ عَلَيكُمْ، وَلَا أَعْلَمَكُمُ اللهُ بِهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ الحَقُّ مِنَ اللهِ، فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنِي مَكَثْتُ فِيكُمْ زَمَنًا طَوِيلًا قَبْلَ تِلَاوَتِهِ، وَقَبْلَ دِرَايَتِكُم بِهِ، وَأَنَا مَا خَطَرَ عَلَىٰ بَالِي، وَلَا وَقَعَ فِي ظَنِّي.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أَنِّي حَيثُ لَمْ أَتَقَوَّلْهُ فِي مُدَّةِ عُمُرِي، وَلَا صَدَرَ مِنِّي مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَكَيفَ أَتَقَوَّلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا، تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ حَالِي، بِأَنِّي أُمِّيٌّ لَا أَقْرَأُ، وَلَا أَكْتُبُ، وَلَا أَدْرُسُ، وَلَا أَتَعَلَّمُ مِنْ أَحَدٍ، فَأَتَيتُكُمْ بِكِتَابٍ عَظِيمٍ أَعْجَزَ الفُصَحَاءَ وَأَعْيَا العُلَمَاءَ، فَهَلْ يُمْكِنُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي؟!

أَمْ هَذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ أَنَّهُ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ؟!

فَلَوْ أَعمَلْتُمْ أَفْكَارَكُم وَعُقُولَكُم، وَتَدَبَّرْتُمْ حَالِي وَحَالَ هَذَا الكِتَابِ، لَجَزَمْتُمْ جَزْمًا لَا يَقْبَلُ الرَّيبَ بِصِدْقِهِ، وَأَنَّهُ الحَقُّ الَّذِي لَيسَ بَعْدَهُ إِلَّا الضَّلَالُ، وَلَكِنْ إِذَا أَبَيتُمْ إِلَّا التَّكْذِيبَ وَالعِنَادَ؛ فَأَنْتُمْ لَا شَكَّ أَنَّكُمْ ظَالِمُونَ.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾.

فَلَوْ كُنْتَ مُتَقَوِّلًا؛ لَكُنْتُ أَظْلَمَ النَّاسِ، وَفَاتَنِي الفَلَاحُ، وَلَمْ تَخْفَ عَلَيكُم حَالِي، وَلَكِنِّي جِئْتُكُم بِآيَاتِ اللهِ، فَكَذَّبْتُم بِهَا، فَتَعَيَّنَ فِيكُمُ الظُّلْمُ، وَلَابُدَّ أَنَّ

أَمْرُكُمْ سَيَضْمَحِلُّ، وَلَنْ تَنالُوا الفَلَاحَ مَا دُمْتُمْ كَذَلِكَ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس:١٧].

لَقَدِ استَدَلَّتْ أُمُّ المُؤمِنِينَ خَدِيجَةُ رضي الله عنها بِمَا عَرَفَتْهُ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحْوَالِهِ، وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ تَأْيِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ، وَنُصْرَتِهِ إِيَّاهُ، عِنْدَمَا أَخْبَرَهَا خَبَرَ الوَحْيِ، وَقَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي».

فَقَالَتْ رضي الله عنها: «كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ»(١).

فَأَقْسَمَتْ رضي الله عنها أَنَّ اللهَ لَا يُذِلُّهُ وَلَا يُضَيِّعُهُ، وَأَسْبَابُ ذَلِكَ: أَنَّهُ ﷺ يُكْرِمُ القَرَابَةَ وَيُواسِيهِم، وَيَقُومُ بِشَأْنِ مَنْ لَا يَستَقِلُّ بِأَمْرِهِ لِيُتْمٍ وَغَيرِهِ، وَيَتَوَسَّعُ بِمَنْ فِيهِ ثِقَلٌ وَغِلَاظَةٌ، وَيَتَبَرَّعُ بِالمَالِ لِمَنْ عَدِمَهُ، وَيُعْطِي النَّاسَ مَا لَا يَجِدُونَهُ عِنْدَ غَيرِهِ، وَيُهَيِّئُ لِلضَّيفِ مَا يُقَدَّمُ لَهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَيُعِينُ عَلَىٰ مَا يَنْزِلُ بِالإِنسَانِ مِنَ المُهِمَّاتِ وَالمُلِمَّاتِ.

فَاسْتَدَلَّتْ رضي الله عنها بِمَا تَعرِفُهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ، عَلَىٰ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَبِرِّهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَيسَ لِلشَّيطَانِ عَلَيهِ سَبِيلٌ، وَأَنَّهُ مُسَدَّدٌ مُؤَيَّدٌ رَاشِدٌ.

بَلْ لَقَدِ استَدَلَّ هِرَقْلُ -عَظِيمُ الرُّومِ- عَلَىٰ صِدْقِ الرَّسُولِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، بِمَا عَرَفَ مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَأَحْوَالِهِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَيهِ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

وَقَدْ أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ دِحْيَةَ الكَلْبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصْرَىٰ؛ لِيَدْفَعَهُ عَظِيمُ بُصرَىٰ إِلَىٰ هِرَقْلَ -عَظِيمِ الرُّومِ-، فَلَمَّا دُفِعَ إِلَيهِ الكِتَابُ أَمَرَ أَنْ يَلْتَمِسُوا لَهُ أَحَدًا مِنْ قَومِ النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْأَلَهُ عَنْ خَبَرِهِ، فَجِيءَ بِأَبِي سُفْيَانَ وَنَفَرٍ مَعَهُ، وَذَلِكَ فِي الهُدْنَةِ الَّتِي كَانَتْ بَينَ النَّبِيِّ ﷺ وَقُرَيشٍ، وَهِيَ صُلْحُ الحُدَيبِيَةِ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وَكَانَتْ مُدَّةَ عَشْرِ سِنِينَ، فَنَقَضَتْهَا قُرَيشٌ.

فَكَانَ فَتْحُ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ، وَدُعِيَ أَبُو سُفْيَانَ -وَلَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ بَعْدُ- إِلَىٰ مَجْلِسِ هِرَقْلَ، وَأُجْلِسَ أَصْحَابُهُ خَلْفَهُ -أي: خَلْفَ أَبِي سُفْيَانَ- وَسَأَلَهُ هِرَقْلُ عَنْ خَبَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَاستَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ صِدْقِهِ، وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ.

فِي الصَّحِيحَينِ[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ ﷺ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ، فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ.

فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ فَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا.

فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

---

(١) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

فَوَاللهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟

فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟

قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟

قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟

قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟

قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا. قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ.

وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاس اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ؛ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا؛ فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ؛ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي بُعِثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصْرَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ -عَظِيمِ الرُّومِ-، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ: أَسْلِمْ تَسْلَمْ؛ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ؛ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ[1]، وَ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا

---

(١) المراد بهم: الفلاحون وعامة الشعب.

بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ؛ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ، صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ؛ أُسْقُفًّا عَلَىٰ نَصَارَىٰ الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ؟!

قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟

قَالُوا: لَيسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَىٰ مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟! فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ.

وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ؟ فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ.

فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ، ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَىٰ صَاحِبٍ

لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَىٰ حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّىٰ أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَىٰ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النبيَّ؟!

فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَىٰ الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَىٰ هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَىٰ دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ».

لَقَدْ كَانَتْ نَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَىٰ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَافِيَةً لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ صِدْقِهِ ﷺ، وَأَنَّ وَجْهَهُ وَجْهُ صَادِقٍ، لَيسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ.

فَعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[1].

إِنَّ النَّظَرَ فِي سِيَرِ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْوَالِهِم يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِم، وَهُمْ فِي

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٨٤)، والترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، وإسناده صحيح.

دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ أَجْرًا، بَلْ يَبْذُلُونَ لَهُم الخَيرَ لَا يَنْتَظِرُونَ مِنْهُم جَزَاءً وَلَا شُكُورًا.

وَأَوَّلُ الرُّسُلِ عليه السلام يَقُولُ لِقَومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود:٢٩].

وَآخِرُ الرُّسُلِ ﷺ يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِمِثْلِ ذَلِكَ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٥٧].

وَقَصَّ اللهُ عَلَينَا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ طَرَفًا مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيبٍ، وَكُلٌّ مِنْهُم يَقُولُ لِقَومِهِ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

ثَالِثًا: مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَثْبُتُ بِهَا رِسَالَةُ الرَّسُولِ: الرِّسَالَةُ وَمَضْمُونُهَا.

وَلَقَدْ جَاءَ المُرْسَلُونَ بِمَنْهَجٍ مُتَكَامِلٍ لإِصْلَاحِ الإِنْسَانِ، وَإِصْلَاحِ العَالَمِ؛ لأَنَّهُمْ جَاءُوا بِالوَحيِ المَعْصُومِ، فَلَا يَتَعَارَضُ مَا جَاءُوا بِهِ مَعَ فِطْرَةِ الإِنْسَانِ، وَلَا مَعَ سُنَنِ الكَونِ، وَهُوَ وَحْدَةٌ مُتَكَامِلَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تَنَاقُضَ فِيهِ، وَلَا اختِلَافَ.

وَقَدْ وَجَّهَ القُرْآنُ العَظِيمُ إِلَىٰ هَذَا النَّوعِ مِنَ الاستِدْلَالِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وَالنَّظَرُ فِي المَقَاصِدِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيهَا الرُّسُلُ، وَالفَضَائِلِ وَالقِيَمِ الَّتِي

يُنَادُونَ بِهَا، يُؤَدِّي إِذَا سَلِمَ النَّاظِرُ مِنَ الهَوَىٰ، وَبَرِئَ مِنَ العَصَبِيَّةِ إِلَىٰ الإِذْعَانِ بِصِدْقِ الرُّسلِ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

وَالنَّاظِرُ فِي دَعْوَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ يَكُونُ مُكَابِرًا أَعْظَمَ المُكَابَرَةِ إِنْ لَمْ يَعتَبِر وَلَمْ يُؤمِن، فَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ جَاءَ بِالقُرْآنِ العَظِيمِ الَّذِي عَجَزَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَقَدْ حَوَىٰ مِنَ الأَخبَارِ المَاضِيَةِ وَالآتِيَةِ، وَالعُلُومِ الكَثِيرَةِ المُخْتَلِفَةِ مَا يَخْضَعُ لَهُ المُنْصِفُ، فَيُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ طَوِيلًا.

وَهَذَا الكِتَابُ، وَتِلْكَ العُلُومُ، وَصَلَتْ إِلَينَا عَلَىٰ يَدِ رَجُلٍ أُمِّيٍّ، لَمْ يُمسِكْ قَلَمًا يومًا، وَلَمْ يَقْرَأ مَا سَطَرَهُ العُلَمَاءُ وَالكُتَّابُ قَبْلَهُ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وَلَيسَ أَمْرًا عَادِيًّا أَنْ يَتَحَوَّلَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ بَينَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا إِلَىٰ مُعَلِّمٍ لِلبَشَرِيَّةِ، يَبْذُلُ العِلْمَ لِلنَّاسِ، ويُصَحِّحُ عُلُومَ السَّابِقِينَ، وَيُبَيِّنُ مَا فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَغْيِيرٍ.

لَقَدْ كَانَ هَذَا الدَّلِيلُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي نُفُوسِ أَهْلِ مَكَّةَ؛ فَهُمْ يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا ﷺ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُم بِمَا أَتَاهُمْ بِهِ، وَيَعْلَمُونَ أُمِّيَّتَهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْلِسْ إِلَىٰ مُعَلِّمٍ، وَلَا رَحَلَ فِي طَلَبٍ.

وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا التَّمَحُّلُ وَجُحُودُ الحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣].

وَلَقَدْ وَصَلَتْ بِهِم السَّفَاهَةُ إِلَىٰ الزَّعْمِ بِأَنَّ الَّذِي يَأْتِي مُحَمَّدًا ﷺ بِهَذَا العِلْمِ حَدَّادٌ رُومِيٌّ كَانَ بِمَكَّةَ، وَهِيَ فِرْيَةٌ مُضْحِكَةٌ، وَإِنَّهُ لَعَجَبٌ مِنَ العَجَبِ أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وَقَدْ رَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ فِرِيَتَهُم بِقَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دَعَائِمَ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ فِي «الحِكْمَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ» (ص٣٦)، ثُمَّ قَالَ: «وَمِنْ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الرِّسَالَةَ لَيستْ شَعْوَذَةً وَلَا كَهَانَةً؛ فَإِنَّ الرُّسُلَ عُرِفُوا بِالصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ، وَالشَّيَاطِينُ إِنَّمَا تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ يُجَانِسُهُم فِي الكَذِبِ وَالافْتِرَاءِ وَالإِفْكِ وَالبُهْتَانِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣].

وَلَوْ لَمَسَتِ الشَّيَاطِينُ السَّمَاءَ استِرَاقًا لِلسَّمْعِ أَوْ طَلَبًا لِلوَحْيِ، مَا وَجَدُوا إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلًا، قَالَ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِ القُرْآنِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

وَلَيسَتِ الرِّسَالَةُ مَا تَجُودُ بِهِ قَرِيحَةُ الشُّعَرَاءِ، وَتُمْلِيهِ عَلَيهِم مَشَاعِرُهُم مِمَّا تَهْوَاهُ نُفُوسُهُم؛ فَإِنَّ الشُّعَرَاءَ -إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ- يَغْلِبُ عَلَيهِم أَنْ يَسْلُكُوا كُلَّ فَجٍّ، وَيَضْرِبُوا فِي كُلِّ وَادٍ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُم كَانَ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِم فِي الغَيِّ وَالفَسَادِ.

أَمَّا الرُّسُلَ فَقَدْ جَاءُوا بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ كَانَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ فِي عَمَلِهِ، وَبَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَاستِقَامَةٍ فِي سَيرِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٧]».

❊ ❊ ❊

ثُمَّ سَاقَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ بَعْضَ الأدِلَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَا ذُكِرَ قَبْلُ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِلَيكَ أَمْثِلَةً مِنْ قَصَصِ الأنبِيَاءِ فِي القُرْآنِ تُرْشِدُكَ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّا ذَكَرْتُ، وَتُبَيِّنُ لَكَ سُنَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ المَاضِيَةَ فِي إِعدَادِهِ الأنبِيَاءَ لِتَحَمُّلِ أعبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَحِكمَتَهَ البَالِغَةَ فِي تَأيِيدِهِ إِيَّاهُمْ بِالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَاتِ، لِتَقُومَ بِهَا الحُجَّةُ عَلَىٰ أمَمِهِم، إِعْذَارًا إِلَيهِم وَلِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

فَمِنْ ذَلِكَ:

قِصَّةُ يُوسُفَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-

إِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ العَجَائِبِ، وَالعِبَرِ، وَالعِظَاتِ، وَالأحْكَامِ، وَالأخْلَاقِ، وَألْوَانِ الامتِحَانِ، وَالابتِلَاءِ، وَالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ.

وَالَّذِي أَقْصِدُ إِلَيهِ مِنْ مَبَاحِثِهَا هُنَا أَمْرَانِ لِمَزِيدِ اتِّصَالِهِمَا بِالمَوضُوعِ:

- الأوَّلُ: كَيفَ كَانَتْ هَذِهِ القِصَّةُ مُعْجِزَةً لِرَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

- الثَّانِي: كَيفَ كَانَتْ دَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يُعِدُّ رُسُلَهُ فِي حَيَاتِهِمُ الأولَىٰ قَبْلَ الرِّسَالَةِ لِتَحَمُّلِ أعبَائِهَا حِينَ إِرْسَالِهِم إِلَىٰ أُمَمِهِمْ».



ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ مَا حَمَلَهُ عَلَىٰ أَنْ يَعرِضَ لِقِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام فِي

هَذَا المَوضِعِ، فَذَكَرَ أَمْرَينِ:

أَوَّلُهُمَا: أَنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ الَّتِي ذَكَرَهَا القُرْآنُ بِتَفَاصِيلِهَا العَجِيبَةِ تُعَدُّ آيَةً، بَلْ آيَاتٍ عَلَىٰ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ لَمَّا قَصَّ عَلَينَا قِصَّةَ يُوسُفَ فِي القُرْآنِ، قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

فَنَفَىٰ عَنِ القُرْآنِ العَظِيمِ الكَذِبَ وَالخَطَأَ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وَوَصَفَهُ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِيهَا أَكبَرُ بُرْهَانٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّهُ الحَقُّ الَّذِي لَا رَيبَ فِيهِ.

الصِّفَةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُ تَصْدِيقُ الَّذِي بَينَ يَدَيهِ؛ أي: مِنَ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ كَلَامِ الرُّسُلِ المَعْصُومِينَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧].

فَهَذَا القُرْآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، جَاءَ بِالحَقِّ، وَهُوَ الصِّدْقُ فِي إِخْبَارِهِ عَنِ اللهِ، وَعَنْ مَلَائِكَتِهِ، وَعَنِ اليَومِ الآخِرِ، وَعَنْ جَمِيعِ الغُيوبِ السَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ، وَالعَدْلُ فِي أَحْكَامِهِ؛ فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيرٍ، وَلَا يَنْهَىٰ إِلَّا عَنِ الشَّرِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

صِدْقًا فِي أَخْبَارِهَا، عَدْلًا فِي أَحْكَامِهَا وَأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا.

وَأيضًا: فَإنَّ هَذَا القُرْآنَ صَدَّقَ جَمِيعَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَهَيمَنَ عَلَيهَا، وَاتَّفَقَ مِنْهَا عَلَىٰ الأُصُولِ العَظِيمَةِ، وَالشَّرَائِعِ الكِبَارِ العَامَّةِ الشَّامِلَةِ.

وأيضًا: فَإنَّ الرُّسُلَ أَخْبَرُوا وَبَشَّرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَصَدَقَ مَخْبَرُهَا، وَحَقَّتْ بِشَارَتُهَا.

الصِّفَةُ الثَّانِيةُ: أَنَّهُ تَفصِيلٌ لِكُلِّ شَيءٍ، وَهَذَا شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَا يَحتَاجُهُ الخَلْقُ فِي عَقَائِدِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِم، وَأَعْمَالِهِم الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَفِي دِينِهِم وَدُنيَاهُم.

فَقَدْ شَرَحَ اللهُ بِهِ وَفَصَّلَ التَّوحِيدَ وَالرِّسَالَةَ وَالجَزَاءَ، وَجَمِيعَ العَقَائِدِ الصَّادِقَةِ الصَّحِيحَةِ، شَرْحًا وَتَفْصِيلًا عَظِيمَينِ، لَا يُسَاوِيهِ فِي ذَلِكَ أَيُّ كِتَابٍ كَانَ، وَفَصَّلَ فِيهِ الحَثَّ عَلَىٰ حَقَائِقِ الإِيمَانِ، وَعَلَىٰ التَّخَلُّقِ بِالأَخْلَاقِ الجَمِيلَةِ، وَالتَّنَزُّهِ عَنِ الأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَبَيَّنَ الطَّرِيقَ وَالأَسْبَابَ الَّتِي يُحَصَّلُ بِهَا حَسَنُهَا، وَالَّتِي يُدْفَعُ بِهَا سَيِّئُهَا.

كَمَا فَصَّلَ الشَّرَائِعَ الظَّاهِرَةَ، وَالأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَالحَلَالَ وَالحَرَامَ، وَالخَيرَ وَالشَّرَّ، وَفَصَّلَ فِي القُرْآنِ جَمِيعَ المَقَاصِدِ وَالغَايَاتِ النَّافِعَةِ، الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

وَفَصَّلَ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَيهَا، وَفَصَّلَ فِيهِ البَرَاهِينَ العَقْلِيَّةَ، كَمَا فَصَّلَ فِيهِ البَرَاهِينَ السَّمْعِيَّةَ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ هُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ، يَهدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]. أي: لِكُلِّ حَالَةٍ قَوِيمَةٍ وَطَرِيقَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ، يَهدِي لِأَحْسَنِ الأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ، وَيَهْدِي لِمَصَالِحِ الدِّينِ كُلِّهَا، وَمَنَافِعِ الدُّنيَا الَّتِي بِهَا يَقُومُ الدِّينُ، وَتَتِمُّ السَّعَادَةُ.

وَالفَرْقُ بَينَ الهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ:

أَنَّ الهُدَىٰ: هُوَ الوَسَائِلُ وَالطُّرُقُ المُوصِلَةُ إِلَىٰ خَيرَاتِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

وَالرَّحْمَةُ: هِيَ نَفْسُ الخَيرَاتِ، وَالثَّوَابُ العَاجِلُ وَالآجِلُ.

فَسَعَادَةُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَىٰ اتِّبَاعِ هَذَا القُرْآنِ عِلْمًا وَعَمَلًا.

وَخَصَّ اللهُ المُؤمِنِينَ بِالهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ؛ لأَنَّهُم هُمُ المُنْتَفِعُونَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، وَبِإِيمَانِهِم اهتَدَوا، وَزَادَهُمُ اللهُ هُدًىٰ وَرَحْمَةً.

فَهَذَا القُرْآنُ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ كُلِّهِم، بَصَّرَهُمْ جَمِيعَ مَا يَحتَاجُونَ إِلَيهِ، فَلَمْ يَبْقَ خَيرٌ إِلَّا دَلَّهُم عَلَيهِ، وَلَا شَرٌّ إِلَّا حَذَّرَهُم مِنْهُ، فَقَامَتْ بِهِ الحُجَّةُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَكِنَّهُ هُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ(١).

فَقِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام، المَذْكُورَةُ بِتَفَاصِيلِهَا العَجِيبَةِ، وَجُزْئِيَّاتِهَا الكَثِيرَةِ، آيَةٌ -بَلْ آيَاتٌ- عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

* * *

---

(١) راجع: «فوائد مستنبطة مِنْ قصة يوسف عليه السلام» للسعدي (ص٤٤).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأْ شَيئًا مِنْ كُتُبِ الأَوَّلِينَ، وَلَا دَرَسَ شَيئًا مِنْ تَارِيخِهِم، وَلَا خَطَّ مِنْ ذَلِكَ شَيئًا بِيَمِينِهِ حَتَّىٰ يُرْتَابَ فِي أَمْرِهِ، ويُتَّهَمَ بِأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِمَا قَرَأَ وَدَرَسَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]».

الشَّرْحُ

ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ القُرْآنِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ جَاءَ بِهِ هَذَا النَّبِيُّ الأَمِينُ، الَّذِي عَرَفَ قَومُهُ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَسَائِرَ أَحْوَالِهِ، وَهُوَ لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ خَطًّا، بَلْ وَلَا يَقْرَأُ خَطًّا مَكْتُوبًا، فَإِتيَانُهُ بِهِ فِي هَذِهِ الحَالِ مِنْ أَظْهَرِ البَيِّنَاتِ القَاطِعَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الارْتِيَابَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ.

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ أي: تَقْرَأُ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ﴾.

﴿إِذًا﴾ لَوْ كُنْتَ بِهَذِهِ الحَالِ ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فَقَالُوا: تَعَلَّمَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، أَوِ اسْتَنْسَخَهُ مِنْهَا، فَأَمَّا وَقَدْ نَزَلَ عَلَىٰ قَلبِكَ كِتَابًا جَلِيلًا تَحَدَّيتَ بِهِ الفُصَحَاءَ وَالبُلَغَاءَ الأَعْدَاءَ الأَلِدَّاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ،

فَعَجَزُوا غَايَةَ العَجْزِ، بَلْ وَلَا حَدَّثَتْهُم أَنْفُسُهُم بِالمُعَارَضَةِ لِعِلْمِهِم بِبَلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ، وَأَنَّ كَلَامَ أَحَدٍ مِنَ البَشَرِ لَا يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ مُجَارِيًا لَهُ أَوْ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلْ كَانَ مِنَ الغَافِلِينَ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَأَمْثَالِهَا، لَمْ تَخْطُرْ لَهُ بِبَالٍ، وَلَمْ تَقْرَعْ لَهُ سَمْعًا قَبْلَ أَنْ يُوحِيَ اللهُ بِهَا إِلَيهِ، وَيَذْكُرَهَا لَهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:١-٣].

وَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ يُوسُفَ لِرُؤْيَاهُ، وَعَرْضِهَا عَلَىٰ أَبِيهِ، وَوَصِيَّةِ أَبِيهِ لَهُ: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف:٧].

وَلَمْ تَكُنْ قِصَّةُ يُوسُفَ بِالأَمْرِ الَّذِي اشْتَهَرَ فِي العَرَبِ، وَتَنَاوَلُوهُ بِالحَدِيثِ فِيمَا بَينَهُم، بَلْ كَانَتْ غَيبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيهِم، وَلَا كَانَ مُحَمَّدٌ مَعَ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، وَلَا شَهِدَ مَكْرَهُم بِهِ، وَلَا كَيدَهُم لَهُ، فَيُتَّهَمَ بِأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ شَهِدَهُ، أَوِ انتَشَرَ بَينَ قَومِهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ فِي خِتَامِ قِصَّةِ يُوسُفَ -عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢]».



الشَّرْحُ

فَأَشَارَ تَعَالَىٰ فِي الآيَاتِ الأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ إِلَىٰ آيَاتِ الكِتَابِ

البيِّنِ الوَاضِحِ فِي مَعَانِيهِ، وَحَلَالِهِ، وَحَرَامِهِ، وَهُدَاهُ.

وَذَكَرَ تَعَالَىٰ إِنْزَالَ القُرْآنِ بِلُغَةِ العَرَبِ؛ لَعَلَّهُم يَعْقِلُونَ مَعَانِيَهُ، وَيَفْهَمُونَهَا، وَيَعْمَلُونَ بِهَدْيِهِ.

ثُمَّ تَوَجَّهَ الخِطَابُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ -يَا مُحَمَّدُ- ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بِوَحْيِنَا إِلَيكَ هَذَا القُرْآنَ، ﴿وَإِن كُنتَ﴾ قَبْلَ إِنزَالِهِ عَلَيكَ ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عَنْ هَذِهِ الأَخْبَارِ، لَا تَدْرِي عَنْهَا شَيئًا.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ عِبَرٌ وأَدِلَّةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، لِمَنْ يَسْأَلُ عَنْ أَخبَارِهِم، وَيَرْغَبُ فِي مَعْرِفَتِهَا، وَمَا كَانَتْ مُستَفِيضَةً لَدَيهِم، وَلَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَهُم.

وَلَمَّا قَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ قِصَّةَ يُوسُفَ عليه السلام عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإِنْبَاءُ الَّذِي أَخبَرنَاكَ بِهِ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الَّذِي لَولَا إِيحَاؤُنَا إِلَيكَ؛ لَمَا وَصَلَ إِلَيكَ هَذَا الخَبرُ الجَلِيلُ، فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ حَاضِرًا لَدَيهِم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: إِخْوَةُ يُوسُفَ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بِهِ حِينَ تَعَاقَدُوا عَلَىٰ التَّفرِيقِ بَينَهُ وَبينَ أَبِيهِ فِي حَالَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ عِلْمِهَا إِلَّا بِتَعلِيمِ اللهِ لَهُ إِيَّاهَا.

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ لَمَّا قَصَّ قِصَّةَ مُوسَىٰ وَمَا جَرَىٰ لَهُ؛ ذَكَرَ الحَالَ الَّتِي لَا سَبِيلَ لِلخَلْقِ إِلَىٰ عِلْمِهَا إِلَّا بِوحْيِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ

وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٤-٤٦].

فَهَذَا أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ جَاءَ بِهَا رَسُولُ اللهِ حَقًّا.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَسَعُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ عَرَفَ تَفَاصِيلَ القِصَّةِ مِنَ اليَهُودِ، فَإِنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَاليَهُودُ كَانُوا يَعِيشُونَ بِالشَّامِ وَالمَدِينَةِ وَمَا حَولَهَا، وَلَمْ يُعرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِهِم قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَلَا دَارَسَهُم شَيئًا مِنَ العُلُومِ، وَلَوْ كَانَ تَمَّ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ لَانْكَشَفَ أَمْرُهُ لِطُولِ العَهْدِ، وَكَثْرَةِ الخُصُومِ، وَحَرَجِ قَومِهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَسَعيِهِم جُهْدَهُم فِي الكَيدِ لَهُ، وَالصَّدِّ عَنْهُ، وَحِرْصِهِم عَلَىٰ تَشْوِيهِ سُمْعَتِهِ، وَالقَضَاءِ عَلَيهِ وَعَلَىٰ دَعْوَتِهِ، حَتَّىٰ رَمَوْهُ بِالسِّحْرِ، وَالكَهَانَةِ، وَالجُنُونِ، وَاتَّهَمُوهُ زُورًا بِالكَذِبِ، وَهُوَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِم الصَّادِقُ الأَمِينُ.

وَتَبَادَلُوا الرَّأْيَ فِيمَا يُوقِعُونَهُ بِهِ مِنْ حَبْسِهِ، أَوْ طَرْدِهِ مِنْ بَينِهِم وَتَشْرِيدِهِ، وَانتَهَىٰ أَمْرُهُم بِالاتِّفَاقِ عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ كَيدِهِم، وَكَتَبَ لَهُ الهِجْرَةَ إِلَىٰ المَدِينَةِ حَيثُ عَزَّ الإِسْلَامُ، وَقَامَتْ دَولَتُهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

فَقَومٌ هَذَا شَأنُهم مَعَهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيهِم أَمْرُهُ، وَهُوَ يَعِيشُ بَينَ أَظْهُرِهِم، وَهُمْ لَهُ بِالمِرْصَادِ؛ فَلَوْ وَجَدُوا سَبِيلاً إِلَىٰ الطَّعْنِ عَلَيهِ بِاتِّصَالِهِ بِاليَهُودِ، وَالأَخْذِ عَنْهُم لَسَارَعُوا إِلَىٰ فَضِيحَتِهِ، وَالتَّشْنِيعِ عَلَيهِ بِذَلِكَ، وَلَم يُضْطَرُّوا إِلَىٰ الافْتِرَاءِ عَلَيهِ، وَلَا إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي قَتْلِهِ أَوْ تَشْرِيدِهِ، وَلَا إِلَىٰ نُشُوبِ الحَرْبِ بَينَهُ وَبَينَهُم سِنِينَ طَوِيلَةً، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَىٰ اتِّهَامِهِ تُهْمَةً تَحمِلُ رَدَّهَا فِي طَيِّهَا؛

فَقَدِ اتَّهَمُوهُ بِرَجُلٍ أعْجَمِيٍّ بِمَكَّةَ، وَادَّعَوا أنَّهُ يُعَلِّمُهُ، فَسَفَّهَ اللهُ أحْلَامَهُم وَألقَمَهُمُ الحَجَرَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]».



الشَّرْحُ

لَقَدْ كَانَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ قَوِيَّ العَارِضَةِ فِي حِجَاجِهِ، ظَاهِرَ الحُجَّةِ فِي خِصَامِهِ، سَلِسَ الأدَاءِ فِي بَيَانِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ احتِمَالَاتٍ ذَكَرَهَا الزَّائِغُونَ عَلَىٰ أَنَّهَا حَقَائِقُ، وَدَحَضَهَا، فَذَابَتْ جِبَالُ ثُلُوجِهَا تَحْتَ أَشِعَّةِ شَمْسِ الحَقِيقَةِ، فَانْمَاثَتْ كَمَا يَنْمَاثُ المِلْحُ فِي المَاءِ، وَبَقِيَ الحَقُّ ظَاهِرًا لَا تَشْتَبِهُ أَعْلَامُهُ عَلَىٰ ذِي بَصَرٍ، وَلَا تَخْفَىٰ مَعَالِمُهُ عَلَىٰ صَاحِبِ بَصِيرَةٍ.

إِنَّ النَّبِيَّ الَّذِي جَاءَ بِالقُرْآنِ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَرجِعُ بِنَفْسِهِ إِلَىٰ كُتُبِ العِلْمِ وَدَوَاوِينِهِ؛ لِأَنَّهُ بِاعتِرَافِ الخُصُومِ كَمَا وُلِدَ أُمِّيًّا، وَنَشَأَ أُمِّيًّا، وَعَاشَ أُمِّيًّا، فَمَا كَانَ يَومًا مِنَ الأَيَّامِ يَتْلُو كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ، وَلَا يَخُطُّهُ بِيَمِينِهِ.

فَلَابُدَّ لَهُ مِنْ مُعَلِّمٍ يَكُونُ قَدْ وَقَفَهُ عَلَىٰ هَذِهِ المَعَانِي، لَا بِطَرِيقِ الكِتَابَةِ وَالتَّدْوِينِ، بَلْ بِطَرِيقِ الإِمْلَاءِ وَالتَّلْقِينِ، فَمَنْ هُوَ ذَلِكَ المُعَلِّمُ؟

أَمَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُعَلِّمٌ مِنْ قَومِهِ الأُمِّيِّينَ فَذَلِكَ مَا لَا شُبْهَةَ فِيهِ لأَحَدٍ، وَلَا نَحْسَبُ أَحَدًا فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ الاستِدْلَالِ عَلَيهِ بِأَكْثَرِ مِن اسْمِ: «الأُمِّيَّةِ»، الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيهِم بِأَنَّهُم كَانُوا خَرَجُوا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِم لَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ شَيئًا.

وَكَذَلِكَ اسْمُ: «الجَاهِلِيَّةِ» الَّذِي كَانَ أَخَصَّ الأَلْقَابِ بِعَصْرِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ، فَهَؤلَاءِ الذِينَ فَقَدُوا أَسَاسَ هَذَا العِلْمِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ اشْتُقَّ لَهُمْ مِنَ الجَهلِ اسْمٌ، كَيفَ يَحْمِلُونَ وِسَامَ التَّعْلِيمِ فِيهِ لِغَيرِهِم، بَلْه التَّعْلِيمَ لِمُعَلِّمِهِم الَّذِي وَسَمَهُم بِالجَهْلِ غَيرَ مَرَّةٍ فِي كِتَابِهِ، وَسَرَدَ جَهَالَاتِهِم فِي غَيرِ سُورَةٍ مِنْ هَذَا الكِتَابِ، حَتَّىٰ قِيلَ: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ فَاقْرَأ مَا بَعْدَ المِئَةِ مِنْ سُورَةِ الأَنْعَامِ».

وَأَمَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُعَلِّمٌ مِنْ غَيرِهِمْ، فَحَسْبُ البَاحِثِ فِيهِ أَنْ نُحِيلَهُ عَلَىٰ التَّارِيخِ، وَنَدَعَهُ يُقَلِّبُ صَفَحَاتِ القَدِيمِ مِنْهُ وَالحَدِيثِ، وَالإِسْلَامِيِّ مِنْهُ وَالعَالَمِيِّ.

ثُمَّ نَسْأَلَهُ: هَلْ قَرَأ فِيهِ سَطْرًا وَاحِدًا يَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدَ بنَ عَبدِ اللهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ لَقِيَ قَبْلَ إِعْلَانِ نُبُوَّتِهِ فُلَانًا مِنَ العُلَمَاءِ، فَجَلَسَ إِلَيهِ يَستَمِعُ مِنْ حَدِيثِهِ عَنْ عُلُومِ الدِّينِ، وَمِنْ قَصَصِهِ عَنِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ؟

لَيسَ عَلَينَا نَحنُ أَنْ نُقِيمَ بُرْهَانًا أَكبَرَ مِنْ هَذَا التَّحدِّي لإِثْبَاتِ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ غَيرَ ذَلِكَ أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ، فَإِنْ كَانَ

عِنْدَهُم عِلْمٌ فَلْيُخرِجُوهُ لَنَا إنْ كَانُوا صَادِقِينَ!

لَقَدْ كَانَ مَوقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَوقِفَ المُصَحِّحِ لِمَا حَرَّفُوا، الكَاشِفِ لِمَا كَتَمُوا، وَهَذِهِ نَمَاذِجُ مِنْ تَفْنِيدِ أغْلَاطِهِم، وَمُغَالَطَاتِهِم التَّارِيخِيَّةِ:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥].

﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ [البقرة:١٤٠].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران:٩٦].

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ [آل عمران:٩٣].

وَهَذَا طَرَفٌ مِنْ وَصْفِ القُرْآنِ وَتَفنِيدِهِ لِخُرَافَاتِهِم الدِّينِيَّةِ:

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق:٣٨].

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ﴾ [التوبة:٣٠].

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ [المائدة:١٨].

وَهَذِهِ سِلْسِلَةٌ أُخْرَىٰ مِنْ جَرَائِمِهِم يَسْرُدُهَا القُرْآنُ مُتَوَاصِلَةَ الحلقَاتِ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٥٥-١٦١].

فَهَلْ تَرَىٰ فِي هَذَا كُلِّهِ صُورَةَ أَسَاتِذَةٍ يَتَلَقَّىٰ عَنْهُم مَنْ جَاءَ بِالقُرْآنِ عُلُومَهُ؟

أَمْ بِالعَكْسِ تَرَىٰ مِنْهُ مُعَلِّمًا يُصَحِّحُ لَهُم أَغْلَاطَهُم، وَيَنعَىٰ عَلَيهِم سُوءَ حَالِهِم؟

وَهَلْ كَانَ عِلْمُ العُلَمَاءِ يومئذٍ مَبذُولًا لِطَالِبِيهِ، مُبَاحًا لِسَائِلِيهِ؟ أَمْ كَانَ حِرْصُهُم عَلَىٰ هَذَا العِلْمِ أَشَدَّ مِنْ حِرْصِهِم عَلَىٰ حَيَاتِهِم، وَكَانُوا يَضِنُّونَ بِهِ حَتَّىٰ عَلَىٰ أَبْنَائِهِم استِبْقَاءً لِرِيَاسَتِهِم أَوْ طَمَعًا فِي مَنْصِبِ النُّبُوَّةِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَشرِفُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ العَصْرِ؟!

لَقَدْ أَخبَرَ القُرْآنُ أَنَّهُم كَانُوا تَارَةً: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ

هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٧٩].

وَتَارَةً: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٨].

وَتَارَةً: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

وَتَارَةً يَبْتُرونَ الكُتُبَ، فَيُظهِرونَ بَعْضَهَا ويُخفُونَ بَعْضَهَا: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١].

وَتَارَةً يُحَاجُّونَ بِمَحفُوظِهِم، فَإِذَا قِيلَ لَهُم: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:٩٣].

بُهِتُوا فَلَمْ يُجِيبُوا، وَرُبَّمَا جاءُوا بِهَا فَقَرَءُوا مَا قَبْلَ مَوْضِعِ الحُجَّةِ أَوِ الدَّلِيلِ، وَمَا بَعْدَهُ، وَسَتَرُوا بِكَفِّهِم مَكَانَ النَّصِّ المُجَادَلِ فِيهِ، كَمَا وَقَعَ فِي قِصَّةِ الرَّجْمِ فِي الصَّحِيحَينِ[1].

فَجَاءَ القُرْآنُ يَرمِيهِم عَلَنًا بِاللَّبْسِ وَالكِتمَانِ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١].

بَلْ جَاءَ كَاشِفًا لِمَا سَتَروهُ، مُبَيِّنًا لِمَا كَتَمُوهُ، حَاكِمًا فِيمَا اختَلَفُوا فِيهِ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا

(١) البخاري (٤٢٨٠)، ومسلم (١٦٩٩).

كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [المائدة:١٥].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٦٣-٦٤].

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، قُلنَا لَهُ: مَا اسْمُ هَذَا المُعَلِّمِ؟! وَمَنْ ذَا الَّذِي رَآهُ وَسَمِعَهُ؟

وَمَاذَا سَمِعَ مِنْهُ؟ وَمَتَىٰ كَانَ ذَلِكَ؟ وَأينَ كَانَ؟

فَإِنَّ كَلِمَةَ البَشَرِ تَصِفُ لَنَا هَذَا العَالَمَ الَّذِينَ يَمشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ مُطْمَئِنِّينَ؛ وَيَرَاهُمُ النَّاسُ غَادِينَ وَرَائِحِينَ، فَلَا نَسْمَعُ دَعْوَىٰ المُدَّعِي بِدونِ تَحدِيدٍ وَتَعْيينٍ، بَلْ يَكُونُ مَثَلُ مُدَّعِيهَا كَمَثَلِ الذِينَ يَخلُقُونَ للهِ شُركَاءَ لَا وجُودَ لَهُم إلَّا فِي الخَيَالِ وَالوَهْمِ، فَيُقَالُ لَهُ كَمَا قِيلَ لَهُم: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾ [الرعد:٣٣].

وَهَلْ وُلِدَ هَذَا النَّبيُّ فِي غَيرِ بَلَدِكُمْ، أَوْ نَشَأَ فِي مَكَانٍ قَصِيٍّ عَنِ العَالَمِ، فَلَمْ يَهْبِط عَلَىٰ قَومِهِ إلَّا بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاستَوَىٰ، ثُمَّ كَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَرَونَهُ إلَّا لِمَامًا؟

أَلَمْ يُولَدْ فِي حُجورِهِم؟ أَلَمْ يَكُنْ يَمْشِي بَينَ أَظْهُرِهِم يُصَبِّحُهُم ويُمَسِّيهِم؟ أَلَمْ يَكُونُوا يَرونَهُ بأَعْيُنِهِم فِي حَلِّهِ ورحيلِهِ؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩].

لَقَدْ طَوَّعَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الكَلِمَةَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وَلَكِن هَلْ تَرَاهُم كَانُوا فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ جَادِّينَ، وَكَانُوا يُشِيرونَ بِهَا إِلَىٰ بَشَرٍ حَقِيقِيٍّ عَرَفوا لَهُ تِلْكَ المَنْزِلَةَ العِلْمِيَّةَ؟

كَلَّا، إِنَّهُم مَا كَانَ يَعنِيهِم أَنْ يَكُونُوا جَادِّينَ مُحِقِّينَ، وَإِنَّمَا كَانَ كُلُّ هَمِّهِم أَنْ يَدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِهِم مَعَرَّةَ السُّكُوتِ وَالإِفْحَامِ، بِأَيِّ صُورَةٍ تَتَّفِقُ لَهُمْ مِنْ صُوَرِ الكَلَامِ: بِالصِّدْقِ، أو بِالكَذِبِ، بِالجِدِّ أَوْ بِاللَّعِبِ.

وَمَا أَدْرَاكَ مَنْ هُوَ ذَلِكَ البَشَرُ الَّذِي قَالُوا إِنَّهُ يُعلِّمُهُ؟

أَتَحْسَبُ أَنَّهُم اجتَرَءُوا أَنْ يَنْسُبُوا هَذَا التَّعْلِيمَ لِوَاحِدٍ مِنْهُم؟ كَلَّا، فَهُمْ قَدْ رَأَوْا أَنْفُسَهُم أَوْضَحَ جَهْلًا مِنْ أَنْ يُعلِّموا رَجُلًا جَاءَهُم بِمَا لَمْ يَعرِفُوا هُمْ وَلَا آبَاؤُهُم.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّهُم لَمَّا وَجدوا أَرْضَ مَكَّةَ مُقْفِرَةً مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ وَالتَّارِيخِ فِي عَهْدِ البَعْثَةِ المُحَمَّدِيَّةِ عَمَدُوا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أُولَئِكَ العُلَمَاءِ فِي المَدِينَةِ أو فِي الشَّامِ، أَوْ فِي غَيرِهِمَا فَنَسَبُوا ذَلِكَ التَّعلِيمَ إِلَيهِ؟!

كَلَّا، إِنَّ أَلسِنَتَهُم لَمْ تُطَاوِعهُم عَلَىٰ النُّطقِ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ أيضًا.

فَمَن ذَا إِمَّا لَا...؟

لَقَدْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُم مُضْطَرِّينَ أَنْ يَلْتَمِسُوا شَخْصًا يَتَحَقَّقُ فِيهِ شَرْطَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ سُكَّانِ مَكَّةَ نَفسِهَا لِتَرُوجَ عَنْهُم دَعْوَىٰ أَنَّهُ يُلَاقِيهِ وَيُملِي عَلَيهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا.

وَثَانِيهُمَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيرِ جِلْدَتِهِم وَمِلَّتِهِم؛ لِيُمكِنَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ عِنْدَهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمُوا.

وَلَقَدِ الْتَمَسُوا تَحقِيقَ ذَلِكَ، فَوجَدُوهُ.

أَتَدْرِي أينَ وَجَدُوهُ؟

فِي حَدَّادٍ رُومِيٍّ!!

نَعَمْ، وَجَدُوا فِي مَكَّةَ غُلَامًا تَعرِفُهُ الحَوَانِيتُ وَالأَسْوَاقُ، وَلَا تَعْرِفُهُ تِلْكَ العُلُومُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، غَيرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أُمِّيًّا وَلَا وَثَنِيًّا مِثْلَهُم، بَلْ كَانَ نَصْرَانِيًّا يَقرَأُ وَيَكتُبُ، فَكَانَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ خَلِيقًا فِي زَعْمِهِم أَنْ يَكُونَ أُستَاذًا لِمُحَمَّدٍ، وَبِالتَّالِي أُستَاذًا لِعُلَمَاءِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالعَالَمِ أَجْمَعِينَ.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم: هَلْ كَانَ ذَلِكَ الغُلَامُ فَارِغًا لِدِرَاسَةِ الكُتُبِ وَتَمْحِيصِ أَصِيلِهَا مِنْ دَخِيلِهَا، وَرَدِّ مُتَشَابِهِهَا إِلَىٰ مُحْكَمِهَا؟

وَهَلْ كَانَ مُزَوَّدًا فِي عَقْلِهِ وَلِسَانِهِ بِوَسَائِلِ الفَهْمِ وَالتَّفْهِيمِ...؟ لَعَرَفْتَ

أَنَّهُ كَانَ حَدَّادًا مُنْهَمِكًا فِي مِطْرَقَتِهِ وَسِنْدَانِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ عَامِّيَّ الفُؤَادِ لَا يَعلَمُ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ، أَعْجَمِيَّ اللِّسَانِ لَا تَعْدُو قِرَاءَتُهُ أَنْ تَكُونَ رَطَانَةً لا يَعرِفهَا مُحمَّدٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ قومِهِ.

وَلَكنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَحُولَ بينَهُ وَبينِ لَقَبِ الأَستَاذِيَّةِ الَّذِي مَنَحُوهُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رُغمِ أَنْفِ الحَاسِدِينَ، وَمَنْ ضَاقَتْ بِهِ دَائِرَةُ الجِدِّ، لَمْ يَسَعْهُ إِلَّا فَضَاءُ الهَزْلِ.

وَهكَذَا أَمْعَنُوا فِي هَزْلِهِم حَتَّىٰ خَرَجُوا عَنْ وَقَارِ العَقْلِ، فَكَانَ مَثَلُهُم كَمَثَلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ العِلْمَ يُسْتَقَىٰ مِنَ الجَهْلِ، وَإِنَّ الإِنسَانَ يَتَعَلَّمُ كَلَامَه مِنَ البَبَّغَاءِ! وَكَفَىٰ بِهَذَا هَزِيمَةً وَفَضِيحَةً لِقَائِلِهِ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

أُولَئِكَ قَومُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ كَانُوا أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ خُصُومَتِهِ، وَأَدْرَىٰ النَّاسِ بِأَسفَارِهِ ورِحَلَاتِهِ، وَأَحصَاهُمْ لِحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، قَدْ عَجَزُوا أَنْ يَعقِدُوا صِلَةً عِلْمِيَّةً بَينَهُ وَبَينَ أَهْلِ العِلْمِ فِي عَصْرِهِ.

فَمَا لِلْمُلْحِدِينَ اليَومَ وَقَدْ مَضَىٰ نَيِّفٌ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا انْفَضَّت فِيهَا سُوقُ الحَوَادِثِ، وَجَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحفُ، لَا يَزَالُونَ يَبْحَثُونَ عَنْ تِلْكَ الصِّلَةِ فِي قُمَامَاتِ التَّارِيخِ، وَفِي النَّاحِيَةِ الَّتِي أَنِفَ قَومُهُ أَنْ يَنبُشُوهَا؟

أَلَا فَلْيُرِيحُوا أَنْفُسَهُم مِنْ عَنَاءِ البَحْثِ، فَقَدْ كَفَتْهُم قُرَيْشٌ مَئُونَتَهُ، وَلِيَشْتَغِلُوا بِغَيرِ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الَّتِي قَضَىٰ التَّارِيخُ وَالمَنْطِقُ عَلَىٰ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ فِيهَا بِالفَشَلِ.

فَإِنْ أَبَوا فَلْيَعْلَموا أَنَّ كُلَّ شُبْهَةٍ تُقَامُ فِي وَجْهِ الحَقِّ الوَاضِحِ سَيُحِيلُهَا الحَقُّ حُجَّةً لِنَفْسِهِ يَضُمُّهَا إِلَىٰ حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، وَهَذَا الحِجَاجُ الرَّاشِدُ فِي النَّبَأِ العَظِيمِ.

لَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ قِصَّةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأَنَّهَا آيَةٌ -بَلْ آيَاتٌ- لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَدْ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ؛ فَلَمْ يَنْظُرْ فِي شَيءٍ مِنْ كُتُبِ الأَوَّلِينَ وَصُحُفِهِم.

وَكَانَ مِنَ الغَافِلِينَ -كَمَا قَالَ اللهُ- عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَأَمْثَالِهَا، فَلَمْ تَخْطُرْ لَهُ بِبَالٍ، وَلَمْ تَقْرَعْ لَهُ سَمْعًا قَبْلَ أَنْ يُوحِيَ اللهُ بِهَا إِلَيهِ، وَيَذْكرَهَا لَهُ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ.

وَلَمْ تَكُنْ قِصَّةُ يُوسُفَ بِالأَمْرِ الَّذِي اشتَهَرَ فِي العَرَبِ، وَتَنَاوَلُوهُ بِالحَدِيثِ فِيمَا بَينَهُمْ، بَلْ كَانَتْ غَيبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيهِم.

وَلَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِخْوَتِهِ، وَلَا شَهِدَ مَكْرَهُم بِهِ، وَلَا كَيدَهُم لَهُ، فَيُتَّهَمَ بِأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ شَهِدَهُ، أَوِ انتَشَرَ بَينَ قَومِهِ.

وَلَا يَسَعُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ عَرَفَ تَفَاصِيلَ القِصَّةِ مِنَ اليَهُودِ، فَإِنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَاليَهُودُ كَانُوا يَعِيشُونَ بِالشَّامِ وَالمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، وَلَمْ يُعرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِهِم قَبْلَ الهِجْرَةِ وَلَا دَارَسَهُم شَيئًا مِنَ العُلُومِ.

***

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَلَيسَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ خَبَرًا مُقتَضَبًا عَبَّرَ عَنْهُ بِالجُمْلَةِ أَوِ الجُمْلَتَينِ، فَيُقَالُ: إِنَّ صِدْقَهُ فِي الحَدِيثِ عَنْهَا وَلِيدُ الصُّدْفَةِ وَالاتِّفَاقِ، بَلْ هِيَ قِصَّةٌ كَثِيرَةُ العَجَائِبِ مُتَشَعِّبَةُ المَوضُوعَاتِ، وَقَعَتْ بَينَ أَطْرَافٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي أَزْمَانٍ مُتَبَاعِدَةٍ، فَمِنْ رُؤْيَا صَادِقَةٍ، إِلَىٰ مُؤَامَرَةٍ، ثُمَّ نَجَاةٍ يَتْبَعُهَا بَيعٌ، ثُمَّ إِيوَاءٌ إِلَىٰ مُرَاوَدَةٍ يَتْبَعُهَا هَمٌّ، ثُمَّ عِصْمَةٌ مِنَ الفَحْشَاءِ إِلَىٰ سِجنٍ فِيهِ دَعْوَةٌ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، مَعَ رِفْقٍ وَحُسْنِ سِيَاسَةٍ، وَتَأوِيلٍ لِلرُّؤْيَا أَصْدَقَ تَأوِيلٍ، يَتْبَعُ ذَلِكَ خُرُوجُهُ عليه السلام مِنَ السِّجْنِ بَرِيئًا مِنَ التُّهْمَةِ وَتَولِّيهِ شُئُونَ الدَّولَةِ، وَاجتِمَاعُ إِخْوَتِهِ بِهِ، مَعَ مَعْرِفَتِهِ لَهُمْ، وَإِنْكَارِهِم إِيَّاهُ، وَمَا أَكْثَرَ مَا دَارَ بَينَهُ وَبَينَهُم مِنَ الأَحَادِيثِ وَمَا جَرَىٰ مِنَ الأَحْدَاثِ، إِلَىٰ أَنِ انتَهَىٰ ذَلِكَ بِتَعرِيفِهِ لَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَعَفْوِهِ عَنْهُم، وَحُضُورِ أَبِيهِ إِلَيهِ عَلَىٰ خَيرِ حَالٍ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي يَعْرِفُهَا البَصِيرُ بِكِتَابِ اللهِ.

وَقَدْ سِيقَتِ القِصَّةُ مُفَصَّلَةً فِي جَمِيعِ نَوَاحِيهَا، مُستَوفَاةً فِي جَمِيعِ فُصُولِهَا، فِي أَدَقِّ عِبَارَةٍ، وَأَحْكَمِ أَسْلُوبٍ، أَفَيُعْقَلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ صِدْقَهُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِيمَا سَرَدَهُ مِنْ قَضَايَاهَا وَوَقَائِعِهَا وَعَجَائِبِهَا عَلَىٰ هَذَا النَّهْجِ الوَاضِحِ، وَالطَّرِيقِ السَّوِيِّ، وَلِيدُ الصُّدْفَةِ وَالاتِّفَاقِ؟!

خَتَمَ سُبْحَانَهُ سُورَةَ يُوسُفَ بِمِثْلِ مَا بَدَأَهَا بِهِ مِنَ الإِرْشَادِ؛ إِجْمَالًا إِلَىٰ القَصْدِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ سِيقَتِ القِصَّةُ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ آيَةً عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وَصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّشْرِيعِ، وَأَنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ، وَنَحْوَهَا مِمَّا نَزَلَ بِهِ

الوَحْيُ مُستقًى مِنَ المِشْكَاةِ الَّتِي أخَذَ مِنْهَا الأنبياءُ، فَلَيس حَدِيثًا مُفْتَرًى، وَلَكِنَّهُ تَصْدِيقٌ لِمَا بَينَ يَدَيهِ مِنْ كُتُبِ المُرْسَلِينَ، وَتَفْصِيلٌ لِمَا يَحْتَاجُ إليهِ المُكَلَّفُونَ مِنَ التَّشْرِيعِ فِي مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَجِمَاعُ الهِدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

أَفَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ القِيَادَةُ الرَّشِيدَةُ بِهَذَا التَّشْرِيعِ المُسْتَقِيمِ مِنْ إنسَانٍ أُمِّيٍّ عَاشَ فِي أُمَّةٍ أُمِّيّةٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ دُونَ وَحْيٍ مِنَ اللهِ؟! كَلَّا إِنَّهَا العِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، وَالرِّسَالَةُ الحَقَّةُ، وَالوَحيُ الصَّادِقُ المُبِينُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَكُونَ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١]».



الشَّرْحُ

ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى قِصَّةِ يُوسُفَ يَقْصِدُ مِنْ مَبَاحِثِهَا أَمْرَينِ:

الأَوَّلُ: كَيفَ كَانَتْ هَذِهِ القِصَّةُ مُعْجِزَةً لِرَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الثَّانِي: كَيفَ كَانَتْ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللهَ يُعِدُّ رُسُلَهُ فِي حَيَاتِهِم الأُولَى قَبْلَ

الرِّسَالَةِ، لِتَحَمُّلِ أَعْبَائِهَا حِينَ إِرْسَالِهِم إِلَىٰ أُمَمِهِم.

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ مَا مَرَّ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالأَمْرِ الأَوَّلِ.

وَقَبْلَ ذِكْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالأَمْرِ الثَّانِي، أَذْكُرُ طَرَفًا مِنْ رِعَايَةِ اللهِ وَحِفْظِهِ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ الرِّسَالَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور:٤٨].

وَهَذِهِ الآيَةُ مِنْ أَعْظَمِ الآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ اعتِنَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ بِنَبِيِّهِ ﷺ؛ حَيثُ أَثْبَتَتِ الآيَةُ أَنَّهُ ﷺ بِمَرْأًىٰ وَمَسْمَعٍ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ وَتَقَلُّبَاتِهِ ﷺ، فِي أُولَاهُ وَأُخْرَاهُ، فِي حَيَاتِهِ وَمَمَاتِهِ، قَبْلَ البَعْثَةِ وَبَعْدَهَا، فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، فِي عَادَاتِهِ وَعِبَادَاتِهِ، بَلْ قَدْ شَمِلَتْهُ تِلْكَ العِنَايَةُ قَبْلَ مِيلَادِهِ حَيثُ اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ.

كَمَا أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٧٦) عَنْ وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ اصطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

وَقَدْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ ﷺ مِنْ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ، وَأَتَمَّ عَلَيهِ نِعْمَتَهُ، وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٣٤٠)، عَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الحِجَارَةَ لِلكَعْبَةِ وَعَلَيهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ

لَهُ العَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا بنَ أخي، لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعلْتَهُ عَلَىٰ مَنْكِبِك دُونَ الحِجَارَةِ!!

قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَّهُ عَلَىٰ مَنْكِبِهُ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيهِ، قَالَ: فَمَا رُئِيَ بَعد ذَلِكَ اليَومِ عُريَانًا».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِ الحَدِيثِ (٤/ ٣٥): «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ بَيَانُ بَعْضِ مَا كَرَّمَ اللهُ بِهِ رَسولَهُ ﷺ، وَأنَّهُ ﷺ كَانَ مَصُونًا مَحْمِيًّا فِي صِغَرِهِ عَنِ القَبَائِحِ وَأخْلَاقِ الجَاهِلِيَّةِ». اهـ

وَقَدْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ ﷺ مُنْذُ صِغَرِهِ مِنْ أمْرٍ كَانَ مَشْهُورًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَيفَ كَانَ حِفْظُهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي سَائِرِ شُئُونِهِ وَفِيهَا مَا هُوَ أعْظَمُ؟! فَكَيفَ كَانَ حِفْظُ اللهِ سُبحَانَهُ لِسَانَ نَبِيِّهِ ﷺ؟ وَكَيفَ حَفِظَ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ؟ وَكَيفَ حَفِظَ عِرْضَهُ؟ لَا شَكَّ أنَّ الحِفْظَ كَانَ أتَمَّ وَأكْمَلَ.

وَقَدْ أعَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ أنبيَاءَهُ وَرُسُلَهُ لِحَملِ رِسَالَتِهِ، وَأدَائِهَا لِخَلقِهِ؛ لِيُعبدَ اللهُ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَلِيُعْبَدُ بِمَا شَرَعَ، وَكَانَ إعْدَادُهُ تَعَالَىٰ لِرُسُلِهِ وَرِعَايَتُهُ لَهُمْ أتَمَّ إعْدَادٍ، وَأكْمَلَ رِعَايَةٍ.

* * *

وَقَدْ سَاقَ المُصَنِّفُ عَلَىٰ ذَلِكَ قِصَّةَ يُوسُفَ عليه السلام مَثَلًا وَدَلِيلًا، وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَّا الثَّانِي: فَإِنَّ فِي تَفَاصِيلِ قِصَّةِ يُوسُفَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَثِيرًا مِنَ الأَسْرَارِ وَالعَجَائِبِ الَّتِي يُعِدُّ بِهَا اللهُ رُسُلَهُ، وَيُهَيِّئُ بِهَا أنبيَاءَهُ لِقِيَادَةِ الأُمَمِ؛ مِنْ أَخْلَاقٍ سَامِيَةٍ، وَآدَابٍ عَالِيَةٍ، وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَقُوَّةٍ عَزِيمَةٍ، وَعَقَائِدَ صَحِيحَةٍ، وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ:

الأَوَّلُ: صَفَاءُ رُوحِ يُوسُفَ وَنَقَاءُ سَرِيرَتِهِ، وَهَذَا وَاضِحٌ مِنَ الرُّؤيَا الصَّادِقَةِ الَّتِي رَآهَا فِي صِغَرِ سِنِّهِ، وَأَوَّلِ نَشْأَتِهِ، فَتَحَقَّقَ تَأْوِيلُهَا بِسُجُودِ أَبَوَيهِ وَإِخْوَتِهِ لَهُ فِي كِبَرِ سِنِّهِ، وَخِتَامِ حَيَاتِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

وَقَالَ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾ [يوسف:١٠٠].

الثَّانِي: مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنَ المميِّزَاتِ الَّتِي زَادَتْ تَعَلُّقَ وَالِدِهِ بِهِ، وَحَمَلَتْ إِخْوَتَهُ عَلَىٰ التَّآمُرِ عَلَيهِ، وَالكَيدِ لَهُ، فَأَشَارَ بَعْضُهُم بِقَتْلِهِ؛ لِيَخلوَ لَهُم وَجْهُ أَبِيهِم، وَتَطِيبَ لَهُمُ الحَيَاةُ، وَرَأَىٰ آخَرُونَ أَنَّ فِي إِبْعَادِهِ عَنْ وَالِدِهِ الكِفَايَةَ فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُم عَلَىٰ ذَلِكَ وَرَمَوْهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيهِ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥]؛ إِينَاسًا لَهُ، وَإِزَاحَةً لِلغُمَّةِ عَنْ نَفْسِهِ، وَهَيَّأَ لَهُ مَنْ أَخْرَجَهُ مِنَ البِئْرِ، لَكِنَّهُمْ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخسٍ دَرَاهِمَ

مَعْدُودَةٍ، فَرَعَاهُ اللهُ، وَجَعَلَهُ عِنْدَ مَنْ يُكْرِمُ مَثْوَاهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الأَرْضِ، وَعَلَّمَهُ مِنْ تَأوِيلِ الأَحَادِيثِ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

وَبَعْدَ أَنْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ، وَاجْتَمَعَ بِإِخْوَتِهِ لَمْ يَنْتَقِمْ لِنَفْسِهِ، بَلْ صَفَحَ عَنِ الزَّلَّةِ، وَعَفَا عِنْدَ القُدْرَةِ، وَنَبَّأَهُمْ بِمَا سَبَقَ مِنْ سُوءِ صَنِيعِهِم مَعَهُ فِي الصِّغَرِ: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٨٩-٩٢].

الثَّالِثُ: عِفَّةُ فَرْجِهِ، وَنَزَاهَةُ نَفْسِهِ، مَعَ تَوَافُرِ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ، وَتَهَيُّئِ أَسْبَابِ الجَرِيمَةِ؛ مِنْ دَوَامِ الخَلْوَةِ، وَمَزِيدِ الخُلْطَةِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الفَاحِشَةِ، وَحَيَاتِهِ مَعَهَا فِي بَيْتِهَا، وَأَخْذِهَا الحَيْطَةَ فِي إِغْلَاقِ الأَبْوَابِ، لَقَدْ كَانَ يُوسُفُ مِنَ المُخْلِصِينَ للهِ، فَاسْتَعَاذَ بِهِ، وَاسْتَقْبَحَ أَنْ يُقَابِلَ جَمِيلَ مَنْ أَحْسَنَ مَثْوَاهُ بِخِيَانَتِهِ فِي عِرْضِهِ، وَذَكَرَ مَا يُصِيبُ الظَّالِمِينَ فِي العَوَاقِبِ مِنَ الخَسَارِ أَوِ الدَّمَارِ، وَبِذَلِكَ صَرَفَ اللهُ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ وَأَظْهَرَ بَرَاءَتَهُ.

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾

[يوسف:٢٩].

ثُمَّ اشْتَدَّ بِامْرَأَةِ العَزِيزِ الأَمْرُ، فَأَنْذَرَتْ يُوسُفَ بِالسَّجْنِ وَالعَذَابِ، أَوْ

يَفْعلُ مَا تَأْمُرُهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف:٣٣].

الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَمْ يَشْغَلْهُ مَا أَصِيبَ بِهِ مِنْ تَتَابُعِ البَلَاءِ، عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ مَا وَرِثَهُ مِنَ التَّوحِيدِ الخَالِصِ عَنْ آبَائِهِ: إبرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ عليهم السلام فَانْتَهَزَ حَاجَةَ مَنْ مَعَهُ فِي السِّجْنِ إِلَيهِ -فِي تَأْوِيلِ مَا رَأَيَاهُ- فِي التَّعْرِيفِ بِنفسِهِ، فَبَدَأَ بِبَيَانِ مَكَانَتِهِ، وَالحَدِيثِ عَنْ نَفْسِهِ، لِيُقْبَلَ مِنْهُ قَولُهُ، وَنَصَحَ لَهُمَا فِي التَّوحِيدِ وَزَيَّنَهُ، وَحَذَّرَهُمَا مِنَ الشِّرْكِ وَقَبَّحَهُ، وَأَقَامَ عَلَىٰ ذَلِكَ الحُجَّةَ، كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ تَأْوِيلِ الرُّؤيَا؛ لِيَكُونَ أَدْعَىٰ إِلَىٰ الإِصْغَاءِ وَالقَبُولِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَقَدْ أَطَالَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ خَتَمَ بِتَأْوِيلِ الرُّؤيَا لَهُمَا فِي آيَةٍ قَصِيرَةٍ.

الخَامِسُ: أَنَّ يُوسُفَ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ بِأَسْبَابِ الخَلَاصِ مِنَ السِّجْنِ، فَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْ صَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

فَأَدَّبَهُ اللهُ بِبَقَائِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ؛ لِيعلَّقَ قَلْبَهُ بِرَبِّهِ دُونَ غَيرِهِ، وَيَتِمَّ لَهُ صِدْقُ التَّوكُّلِ عَلَيهِ وَحْدَهُ سُبحَانَهُ دُونَ سِوَاهُ.

السَّادِسُ: أَنَّهُ سُبحَانَهُ شَاءَ أَنْ تَكُونَ نَجَاتُهُ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنَ العِلْمِ، وَبِمَا عَلَّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ لَا بِشَفَاعَةِ أَحدٍ، وَلِحَاجَةِ الأُمَّةِ رَاعِيهَا وَرَعِيَّتِهَا إِلَيهِ دُونَ حَاجَتِهِ إِلَيهِم لِيَكُونَ ذَلِكَ أَكْرَمَ لَهُ، وَأَعَزَّ لِنَفْسِهِ، وَلِئَلَّا يَكُونَ لأَحَدٍ عَلَيهِ

سِوَىٰ اللهِ مِنَّةً؛ فَأَرَىٰ اللهُ مَلِكَ مِصْرَ رُؤْيَا هَالَهُ أَمْرُهَا، وَعَجَزَ أَشْرَافُ قَومِهِ وَوُجَهاؤُهُم عَنْ تَعْبِيرِهَا، وَقَالُوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤].

وَلَمَّا انْتَهَىٰ أَمْرُ الرُّؤيَا إِلَىٰ يُوسُفَ أَوَّلَهَا أَصْدَقَ تَأْوِيلٍ، وَبَيَّنَ أَنَّهَا كَشَفَتْ لِلأُمَّةِ عَنْ مُسْتَقْبَلِهَا فِي رَخَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

فَأَخَذَ تَفْسِيرُ يُوسُفَ مِنْ قَلْبِ المَلِكِ مَأْخَذَهُ، وَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ يُرْسِلَ بِإِحْضَارِهِ، فَأَبَىٰ يُوسُفَ حَتَّىٰ يَنْظُرَ فِي قَضِيَّتِهِ مَعَ النِّسْوَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ زُجَّ بِهِ فِي السِّجْنِ مِنْ أَجْلِهِنَّ فَفَعَلَ المَلِكُ، وَظَهَرَتْ بَرَاءَتُهُ عليه السلام، وَحَضَرَ إِلَىٰ المَلِكِ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٤-٥٥].

فَاستَجَابَ لَهُ المَلِكُ، وَأَتَمَّ اللهُ لِيُوسُفَ مَا شَاءَ مِنْ نِعْمَتِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

وَبِذَلِكَ يَتَبَينُ أَنَّ اللهَ مَحَّصَهُ وَرَعَاهُ، بِتَتَابُعِ البَلَاءِ وَالإِنْجَاءِ؛ ابْتَلَاهُ بِكَيدِ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَرَمْيِهِ فِي الجُبِّ، ثُمَّ أَنْجَاهُ، وَابْتَلَاهُ بِبَيعِ السَّيَّارَةِ لَهُ، ثُمَّ هَيَّأَ لَهُ مَنْ

أَحْسَنَ مَثْوَاهُ، وَابْتَلَاهُ بِتَسلِيطِ امْرَأَةِ العَزِيزِ عَلَيهِ، وَبِالنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ، ثُمَّ عَصَمَهُ وَحَمَاهُ.

وَابتَلَاهُ بِالسِّجْنِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْهُ بَرِيئًا مِنَ التُّهْمَةِ، عَلِيمًا بِرَبِّهِ، وَبِشئُونِ الأُمَّةِ، فِي وَقْتٍ اشتَدَّتْ فِيهِ حَاجَةُ البِلَادِ إِلَىٰ حَفِيظٍ عَلِيمٍ يُدَبِّرُ أَمْرَهَا، وَيَقُودُهَا فِي حَيَاتِهَا خَيرَ قِيَادَةٍ، فَتَولَّىٰ أَمْرَهَا، وَاسْتَسْلَمَ لَهُ أَهْلُهَا.

وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام -سِوَىٰ مَا ذُكِرَ- شَيءٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَهَّدَ يُوسُفَ بِرِعَايَتِهِ، وَتَوَلَّاهُ فِي أَطْوَارِ حَيَاتِهِ، لِيَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وَيَجْعَلَ مِنْ سِيرَتِهِ الحَمِيدَةِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ عَلَىٰ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ فِيمَا يَدَّعِيهِ مِنَ الرِّسَالَةِ».



الشَّرْحُ

لَقَدْ كَانَتْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ -بَعْدَ تَتَابُعِ المُعْجِزَاتِ عَلَىٰ ثُبُوتِهَا- وَاضِحَةً ظَاهِرَةً لِكُلِّ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَلَكِنَّ المُشْرِكِينَ تَعَنَّتُوا مَعَهُ؛ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ، وَأَنفَةً وَاستِكْبَارًا أَنْ يَتَّبِعُوا رَجُلًا مِنْهُم، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُم بِآيَةٍ، فَهَدَىٰ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ إِلَىٰ أَنَّ فِي الَّذِي أُوحِيَ إِلَيهِ مِنَ القُرْآنِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ نَبَأُ مُوسَىٰ وَفِرْعَونَ.

فَقَدْ أَوْضَحَ لَهُ فِي قَصَصِهِمَا:

أَوَّلًا: وَجْهَ دَلَالَتِهِ عَلَىٰ رِسَالَتِهِ.

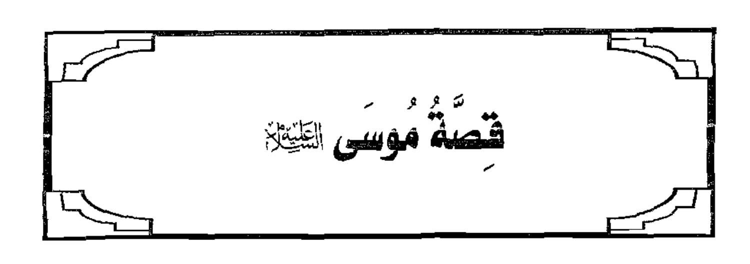
ثَانِيًا: سُنَّتَهُ الحَكِيمَةَ فِي إعْدَادِ الأنبِيَاءِ لِتَحمُّلِ أعبَاءِ الرِّسَالَةِ.

فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ وَفِرْعَونَ مِنْ تَفَاصِيلِ الأَخْبَارِ، وَجُزْئِيَّاتِ الأنبَاءِ، مَا لَا يُحِيطُ بِعِلْمِهِ سِوَاهُ، وَقَدْ أَعْلَمَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَا كَانَ، وَمَا كَانَ حَاضِرًا يَنظُرُ وَيَسْمَعُ، وَإِنَّمَا هُوَ وَحْيُ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَيهِ، وَإِعْلَامُهُ سُبْحَانَهُ إِيَّاهُ.

وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَظَاهِرَ عِنَايَتِهِ بِكَلِيمِهِ مُوسَىٰ، وَطُرقَ رِعَايَتِهِ إِيَّاهُ، إِعْدَادًا لِلنُّبُوةِ، وَتَهيئَةً لِلرِّسَالَةِ.

* * *

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:



قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

«ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ سُورَةِ القَصَصِ بيَانًا عَنْ نَشْأَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَحَالِهِ قَبْلَ الرِّسَالَةِ، وَأَتْبَعَ ذَلِكَ بيَانًا عَنْ رِسَالَتِهِ إِلَىٰ أَنْ أَنْجَاهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ لِيَكُونَ ذَلِكَ القَصَصُ فِي جُمْلَتِهِ آيَةً عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَصِدْقِهِ فِيمَا أُنزِلَ عَلَيهِ مِنَ الوَحْيِ، وَدَعَا إِلَيهِ أُمَّتَهُ، كَمَا يُرْشِدُنَا إِلَىٰ ذَلِكَ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ فِي مَطْلَعِ السُّورَةِ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص:٢-٣].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ عِنْدَ انتِهَاءِ مَا أَرَادَ ذِكْرَهُ مِنَ القِصَّةِ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٦].

أَمَّا مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ تَفَاصِيلِ القِصَّةِ فَآيَاتٌ بَيِّنَاتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ رِعَايَةِ اللهِ لِمُوسَىٰ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي جَمِيعِ شُئُونِهِ: فِي رَضَاعَتِهِ وَكَفَالَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَإِعْدَادِهِ بِالقُوَّةِ، وَالأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ، مِنْ نُصْرَةِ المَظْلُومِ، وَإِعَانَةِ الضَّعِيفِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ، وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ،

وَالأَمَانَةِ، وَحُسْنِ المُعَامَلَةِ؛ لِيَكُونَ رَسُولًا يُنقِذُ بِهِ سُبحَانَهُ الشُّعوبَ مِنَ الاستِعْبَادِ، وَيُخَلِّصُهَا مِنَ الطُّغْيَانِ وَالاستِبْدَادِ، وَيَهْدِي بِهِ القُلُوبَ، وَيُنِيرُ بِهِ البَصَائِرَ.

وَإِلَيكَ شَيئًا مِنْ تَفْصِيلِهَا تَرَىٰ مِنْهُ مَا ذَكَرْتُ:

١ - قَدَّمَ اللهُ بَينَ يَدَي هَذِهِ القِصَّةِ جُمْلَةً مِنَ الآيَاتِ؛ بَيَّنَ فِيهَا سُنَّتَهُ العَادِلَةَ، وَحِكْمَتَهُ البَالِغَةَ فِي القَضَاءِ عَلَىٰ مَنْ عَلَا فِي الأَرْضِ، وَأَفْسَدَ فِيهَا، وَمَنَّهُ عَلَىٰ المُسْتَضْعَفِينَ، وَالتَّمْكِينَ لَهُمْ، وَإِدَالَتَهُم مِنْ عَدُوِّهِم فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح:٢٣].

ثُمَّ فَصَّلَ ذَلِكَ فِيمَا ذَكَرَهُ بَعْدُ مِنَ القِصَّةِ.

٢ - وُلِدَ مُوسَىٰ بنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِصْرَ، وَكَانَ مَلِكُهَا إِذْ ذَاكَ جَبَّارًا جَائِرًا، يَقْتُلُ ذُكْرَانَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَسْتَحيِي نِسَاءَهُم، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ تُلْقِيَهُ فِي اليَمِّ إِذَا خَافَتْ عَلَيهِ مِنْ فِرْعَونَ وَجُنُودِهِ، وَوَعَدَهَا وَعْدًا صَادِقًا أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيهَا، فَفَعَلَتْ، وَأَنْجَاهُ اللهُ، وَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ، وَتَدَاوَلُوا الرَّأْيَ فِيهِ.

وَعِنْدَ ذَلِكَ مَرَّ مُوسَىٰ بِطَورٍ آخَرَ مِنْ أَطْوَارِ الخَطَرِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ التَّفْكِيرُ فِي أَمْرِهِ إِلَىٰ أَنْ يَتَّخِذَهُ فِرعَونُ وَلَدًا، وَأَنْ يَنْشَأَ فِي بَيتِ مَلِكٍ يَتَرَبَّىٰ فِيهِ عَلَىٰ العِزَّةِ، وَشِدَّةِ البَأْسِ، وَقُوَّةِ العَزْمِ، وَالأَخْذِ بِالحَزْمِ، وَلَا يُصَابُ بِمَا أُصِيبَ بِهِ قَومُهُ مِنَ العَذَابِ وَالذُّلِّ وَالهَوَانِ، وَبِذَلِكَ يَصْلُحُ لِحَمْلِ أَعْبَاءِ

الرِّسَالَةِ، وَمُوَاجَهَةِ فِرْعَونَ فِي جَبَرُوتِهِ وَطُغْيَانِهِ[١].

ثُمَّ أَوْلَاهُ اللهُ نِعْمَةً أُخْرَىٰ، فَكَتَبَ عَلَيهِ أَلَّا يَرْضَعَ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ، حَتَّىٰ اضْطُرَّ فِرْعَونُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَىٰ أَنْ يَرُدُّوهُ إِلَىٰ أُمِّهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَبِهَذَا التَّدْبِيرِ الحَكِيمِ، وَاللُّطْفِ الخَفِيِّ أَنْجَزَ اللهُ لأُمِّ مُوسَىٰ وَعْدَهُ، فَرَجَعَ إِلَيهَا وَلَدَهَا لِتَكْفُلَهُ، وَيَتَمَتَّعَ بِعَطْفِهَا، وَيَنْعَمَ بِحَنَانِهَا، وَتَقَرَّ بِهِ عَينَاهَا وَلَا تَحْزَنَ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

٣- هَذِهِ الحَلقَةُ الأُولَىٰ مِنْ حَيَاةِ مُوسَىٰ كُلُّهَا عِبَرٌ وَآيَاتٌ:

مِنْهَا: أَنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ نَجَاتَهُ مِمَّا أَصَابَ غَيرَهُ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهِ؛ فِيمَا يَرَاهُ النَّاسُ دَمَارًا، وَإِلْقَاءً بِالنَّفْسِ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص:٧].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبحَانَهُ كَتَبَ لِمُوسَىٰ الحَيَاةَ السَّعِيدَةَ فِي بَيتِ مَنْ يُخْشَىٰ عَلَيهِ مِنْهُ، فَعَاشَ بَينَ أَظْهُرِهِم عِيشَةَ المُلُوكِ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٩].

وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيهِ تَحْرِيمًا كَوْنِيًّا أَنْ يَرْضَعَ مِنَ امْرَأَةٍ سِوَىٰ أُمِّهِ، فَكَانَ ذَلِكَ فِيمَا يَرَىٰ النَّاسُ بَلَاءً أَصَابَهُ، وَهُوَ فِي الأَمْرِ نَفْسِهِ كَمَالُ اللُّطْفِ مِنَ

(١) انظر آية (٣٨) مِنْ سورة القصص، وآية (٢٤) مِنْ سورة النازعات.

اللهِ، وَالرَّحْمَةِ بِمُوسَىٰ، لِيُرْجِعَهُ إِلَىٰ أُمِّهِ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَاجْتَمَعَ لَهُ إِلَىٰ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ عَطْفُ الأمهاتِ، وَعِزُّ المُلُوكِ: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:١٢-١٣].

وَمِنْهَا: حَفِظُ اللهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ صَفَاءَ رُوحِهِ، وَسَلَامَةَ فِطْرَتِهِ، فَمَعَ أَنَّهُ عَاشَ فِي بَيتِ مَلِكٍ، وَأَوْسَاطِ ظُلْمٍ وَطُغْيَانٍ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِمَا تَأَثَّرَ بِهِ مَنْ قَضَىٰ أَيَّامَهُ الأوْلَىٰ مِنْ حَيَاتِهِ فِي بِيئَةٍ استَشْرَىٰ فِيهَا الفَسَادُ وَطُبِعَتْ بِطَابِعِ الجَبَرُوتِ وَالاستِبْدَادِ، وَلَمْ يُصَبْ بِمَا يُصَابُ بِهِ أَبنَاءُ المُلُوكِ.

وَمَنْ يَتَقَلَّبُ فِي النِّعْمَةِ، وَرَغَدِ العَيشِ حِينَ تُهْمَلُ تَرْبِيَتُهُ، مِنْ جَهْلٍ وَاستِهْتَارٍ، أَوْ رَخَاوَةٍ وَخَلَاعَةٍ وَمُجُونٍ، بَلْ صَانَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ مَا يَشِينُهُ، وَآتَاهُ العِلْمَ النَّافِعَ، وَالحِكْمَةَ البَالِغَةَ، وَسَدَادَ الرَّأيِ، كَمَا حَفِظَ عَلَيهِ نِعْمَتَهُ مِنْ قَبْلُ فِي بَدَنِهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

٤- جَبَلَ اللهُ نَبِيَّهُ مُوسَىٰ عَلَىٰ الحَزْمِ وَالأَخْذِ بِقُوَّةٍ فِي نُصْرَةِ المَظْلُومِ وَالضَّرْبِ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَذَلِكَ يَتَجَلَّىٰ فِي الخُصُومَةِ الَّتِي كَانَتْ بَينَ إِسْرَائِيلِيٍّ وَفِرْعَونِيٍّ، فَإِنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَغَاثَ مَنِ استَغَاثَ بِهِ، فَوَكَزَ القِبْطِيَّ فَقَضَىٰ عَلَيهِ إِقَامَةً لِلعَدْلِ، وَإِنْصَافًا لِلمَظْلُومِ كَمَا طَبَعَهُ عَلَىٰ الرِّفْقِ

بِالضَّعِيفِ، وَالعَطْفِ عَلَيهِ، وَمَدِّ يَدِ المَعُونَةِ إِلَيهِ.

وَيَتَجَلَّىٰ ذَلِكَ مِنْهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

فَجَمَعَ لَهُ بَينَ شِدَّةِ البَطْشِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَكَمَالِ الرِّفْقِ بِالمُسْتَضْعَفِينَ.

٥- كَانَ مِنْ آثَارِ عِنَايَةِ اللهِ بِمُوسَىٰ، وَرِعَايَتِهِ لَهُ؛ أَنْ قَوَّىٰ فِيهِ الوَعْيَ الدِّينِيَّ وَاستَحْكَمَتِ الصِّلَةُ بَينَهُ وَبَينَ رَبِّهِ، فَأَحَبَّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنَ العَدْلِ وَالإِنْصَافِ، وَكَرِهَ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ، لِذَلِكَ فَزِعَ إِلَىٰ رَبِّهِ وَاعْتَرَفَ بِظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ، حِينَمَا قَضَىٰ القِبْطِيُّ نَحْبَهُ مِنْ وَكْزَتِهِ، وَأَسْرَعَ إِلَىٰ الاستِغْفَارِ للهِ تَعَالَىٰ مِنْ ذَنْبِهِ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٦-١٧].

وَفَاضَ قَلْبُهُ إِيمَانًا بِاللهِ، فَعَظُمَتْ ثِقَتُهُ وَتَوَكُّلُهُ عَلَيهِ، لِذَلِكَ قَصَدَ إِلَيهِ وَحْدَهُ فِي غُرْبَتِهِ وَحَيْرَتِهِ؛ رَجَاءَ أَنْ يَهْدِيَهُ سَوَاءَ السَّبِيلِ: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢].

وَلَمَّا اسْتَبَدَّتْ بِهِ الحَاجَةُ، وَأَخَذَ مِنْهُ الجُوعُ مَأْخَذَهُ؛ تَوَجَّهَ إِلَىٰ رَبِّهِ، فَسَأَلَهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَأَبَتْ عَلَيهِ عِزَّةُ نَفْسِهِ أَنْ يَشْكُوَ حَاجَتَهُ لِغَيرِهِ، أَوْ يُعَرِّضَ لِمَنْ سَقَىٰ لَهُمَا بِطَلَبِ الأَجْرِ.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

[القصص:٢٤].

وَقَدِ استَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، وَهَيَّأَ لَه بِيئَةً صَالِحَةً يَحيَا فِيهَا حَيَاةً طَيبَةً، فَقَدْ عَرَضَ عَلَيهِ شُعَيبٌ».



الشَّرْحُ

قَالَ السَّعْديُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ١٢٧٩): «وَهَذَا الرَّجُلُ أَبُو المَرْأَتَينِ صَاحِبُ مَدْيَنَ لَيسَ بِشُعَيبٍ النَّبِيِّ المَعْرُوفِ، كَمَا اشتَهَرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ هَذَا قَولٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَيهِ دَلِيلٌ».

قَالَ الطَّبَرِيُّ: «وَهَذَا مِمَّا لا يُدرَكُ عِلْمُهُ إِلَّا بِخَبَرٍ، وَلَا خَبَرَ بِذَلِكَ تَجِبُ حُجَّتُهُ»[1].

وَقَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «إِنَّهُ لَوْ كَانَ إِيَّاهُ -أَي: لَو كَانَ صَاحِبُ مَدْيَنَ نَبِيَّ اللهِ شُعَيبًا- لأَوْشَكَ أَنْ يَنُصَّ عَلَىٰ اسْمِهِ القُرْآنُ هَاهُنَا، وَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ، مِنَ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِهِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ لَمْ يَصِحَّ إِسْنَادُهُ»[2].

قَالَ السَّعْدِيُّ: «وَغَايَةُ مَا يَكُونُ، أَنَّ شُعَيبًا عَلَيهِ السَّلَامُ، قَدْ كَانَتْ بَلَدُهُ مَدْيَنَ،

(١) «جامع البيان» (١٩/ ٥٦٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٣٨).

وَهَذِهِ القَضِيَّةُ جَرَتْ فِي مَدْيَنَ، فَأَينَ المُلَازَمَةُ بَينَ الأَمْرَينِ؟!

وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ غَيرُ مَعْلُومٍ أَنَّ مُوسَىٰ أَدْرَكَ زَمَانَ شُعَيبٍ، فَكَيفَ بِشَخْصِهِ؟! وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ شُعَيبًا، لَذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَسَمَّتهُ المَرْأَتَانِ.

وَأَيضًا فَإِنَّ شُعَيبًا -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، قَدْ أَهْلَكَ اللهُ قَوْمَهُ بِتَكْذِيبِهِم إِيَّاهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَقَدْ أَعَاذَ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِهِ أَنْ يَرضَوا لِبِنْتَي نَبِيِّهِم، بِمَنْعِهِمَا عَنِ المَاءِ، وَصَدِّ مَاشِيَتِهِمَا، حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، فَيُحْسِنَ إِلَيهِمَا، وَيَسْقِيَ مَاشِيَتِهِمَا، وَمَا كَانَ شُعَيبٌ، لِيَرْضَىٰ أَنْ يَرْعَىٰ مُوسَىٰ عِنْدَهُ وَيَكُونَ خَادِمًا لَهُ، وَهُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَىٰ دَرَجَةً، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: هَذَا قَبْلَ نُبُوَّةِ مُوْسَىٰ، فَلَا مُنَافَاةَ.

وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ؛ لَا يُعتَمَدُ عَلَىٰ أَنَّهُ شُعَيبٌ النَّبِيُّ بِغَيرِ نَقْلٍ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاللهُ أَعْلَمُ»[1].

* * *

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٢٧٩).

ثُمَّ قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لِمَا عَرَفَهُ عَنْهُ مِنَ القُوَّةِ وَالأَمَانَةِ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَىٰ ابْنَتَيهِ عَلَىٰ أَنْ يَرْعَىٰ لَهُ الغَنَمَ ثَمَانِيَ حِجَجٍ، وَإِنْ أَتَمَّ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَانَ ذَلِكَ مَكْرُمَةً مِنْهُ، فَالْتَزَمَ مُوسَىٰ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مَا كَانَ فِيهِ أَوَّلًا مِن رَغَدِ العَيشِ وَحَيَاةِ المُلُوكِ أَنْ يَكُونَ أَجِيرًا، يَأْكُلُ وَيَتَزَوَّجُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، وَأَشْهَدَ رَبَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٨].

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ أَتَمَّ أَبْعَدَ الأَجْلَينْ.

- فَهَذِهِ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَيَاةِ مُوسَىٰ قَبْلَ الرِّسَالَةِ، تَضَمَّنَتْ شَيئًا مِمَّا حَبَاهُ اللهُ بِهِ؛ مِنَ العِلْمِ، وَالحِكْمَةِ، وَالمُرُوءَةِ، وَالنَّجْدَةِ، وَنُصْرَةِ المَظْلُومِ، وَالأَخْذِ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَالعَطْفِ عَلَىٰ الضَّعِيفِ، وَقُوَّةِ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَالصِّدْقِ فِي الالْتِجَاءِ إِلَيهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَالتَّوَاضُعِ مَعَ عِزَّةِ النَّفْسِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ الَّتِي يُعِدُّ بِهَا اللهُ مَنْ يَختَارُهُ لِلرِّسَالَةِ وَقِيَادَةِ الأُمَمِ.

٦- طَلَبَ مُوسَىٰ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَشُدَّ أَزْرَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ، فَأَرْسَلَهُ مَعَهُ لِيَكُونَ عَونًا لَهُ فِي الحِجَاجِ، وَخَافَ أَنْ يَبْطِشَ بِهِمَا فِرعَونُ وَجُنُودُهُ، وَأَنْ يَقْتُلوا مُوسَىٰ بِالقِبْطِيِّ الَّذِي سَبَقَ أَنْ قَتَلَهُ، فَقَالَ اللهُ لَهُ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وَجَعَلَ لَهُمَا سُلْطَانًا مِنَ الآيَاتِ تَقُومُ بِهِ الحُجَّةُ، وَتَنْخَلِعُ بِهِ قُلُوبُ الجَبَّارِينَ، وَتَمتَلِئُ بِالوَهَنِ وَالضَّعْفِ، وَبِذَلِكَ يَثْبُتُ مُوسَىٰ فِي مَيْدَانِ الدَّعْوَةِ

إِلَىٰ اللهِ، فَبَاتَ وَاثِقًا بِرَبِّهِ، مُؤمِنًا بِمَا يَدْعُو إِلَيهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالنُّورِ، وَتَجَلَّىٰ فِي حِجَاجِهِ صَولَةُ الحَقِّ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِالعِزَّةِ وَالقُوَّةِ، وَبِذَلِكَ ذَلَّ جَبَرُوتُ فِرعَونَ، وَتَلاشَىٰ عِنْدَهُ تَأَلُّهُهُ وَتَعَالِيهِ، وَلَمْ يَعُدْ يَمْلِكُ لِمُوسَىٰ مِنَ الكَيدِ إِلَّا أَنْ يُرْعِدَ وَيُبْرِقَ، وَيُمَوِّهَ وَيَخْدَعَ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

وَلَمْ يَكُنْ لِيَأْخُذَ عَلَىٰ يَدَيهِ أَحَدٌ، وَلَا هُنَاكَ مِنَ الأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ مَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَبْطِشَ بِمُوسَىٰ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ دَولَتُهُ، وَالجُنُودَ جُنُودُهُ، لَكِنَّهَا عِنَايَةُ اللهِ بِرُسُولِهِ، وَمَا آتَاهُ مِنْ آيَاتٍ وَسُلْطَانٍ قَدْ بَهَرَ فِرْعَونَ، وَقَطَعَ نِيَاطَ قَلْبِهِ، وَلَمْ يَمْلِكْ أيضًا مَلأُ فِرعَونَ سِوَىٰ أَنْ يُثِيروا حَفِيظَتَهُ، وَيُغْرُوهُ بِمُوسَىٰ وَمَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

أَفَلَا يَرَىٰ العَاقِلُ أَنَّ مُوسَىٰ وَهُوَ وَحِيدٌ غَرِيبٌ، وَقَومُهُ مُستَعْبَدُونَ، لَمْ يَقِفْ هَذَا المَوقِفَ مِنْ فِرعَونَ وَمَلَئِهِ، وَالدَّوْلَةُ دَوْلَتُهُم إِلَّا وَهُوَ مُؤَيَّدٌ مِنْ رَبِّهِ، صَادِقٌ فِي دَعْوَتِهِ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الحَقُّ المُبِينُ؟!

٧- جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ العَادِلَةُ أَنْ يَفْتَحَ بِالحَقِّ بَينَ رُسُلِهِ، وَمَنْ آمَنَ بِهِم مِنَ الأُمَمِ، وَمَنْ سَارَ سَيْرَهُم، وَيَجْعَلَهُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ، وَيُهْلِكَ مَنْ كَذَّبَ بِهِمْ،

وَانْحَرَفَ عَنْ طَرِيقِهِم؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الَّتِي يَفْصِلُ بِهَا بَينَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، وَالحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَالشَّرِيعَةِ العَادِلَةِ، وَالقَوَانِينِ الجَائِرَةِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ﴾ [القصص:٣٧].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوٓا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٨-١٢٩].

وَهَذَا هُوَ مَا انتَهَىٰ بِهِ أَمْرُ مُوسَىٰ وَقَومِهِ مَعَ فِرْعَونَ وَمَلَئِهِ.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٣-٦٦].

فَانْظُرْ كَيفَ اتَّحَدَتْ وَسِيلَةُ النَّجَاةِ لِلأَوْلِيَاءِ، وَالهَلَاكِ لِلأَعْدَاءِ؛ إِنَّهَا آيَةُ اللهِ البَاهِرَةُ، وَقُدْرَتُهُ القَاهِرَةُ، لَقَدْ أَهْلَكَ فِرْعَونَ وَجُنْدَهُ بِمَا جَعَلَهُ طَرِيقًا لِنَجَاةِ مُوسَىٰ وَقَومِهِ، هَذَا إِلَىٰ جَانِبِ انْفِلَاقِ البَحْرِ، وَتَمَاسُكِ مَائِهِ، وَخُرُوجِهِ عَنْ

طَرِيقِ السَّيَلَانِ بِضَرْبَةِ عَصَا.

وَفِي قَصَصِ مُوسَىٰ مِنَ الآيَاتِ سِوَىٰ ذَلِكَ مَا يَبْهَرُ العُقُولَ، وَيَأْخُذُ بِمَجَامِعِ القُلُوبِ، وَلَا يَدَعُ قَوْلًا لِقَائِلٍ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَسَعَىٰ فِي هَلَاكِهَا وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣١]».

الشَّرْحُ

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/ ٥٧٧): «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ مَا عَامَلَ بِهِ آلَ فِرْعَونَ فِي هَذِهِ المُدَّةِ الأَخِيرَةِ -إِنَّهَا عَلَىٰ عَادَتِهِ وَسُنَّتِهِ فِي الأُمَمِ، أَنْ يَأْخُذَهُمْ بِالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ-: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾. أي: بِالدُّهُورِ وَالجَدْبِ.

﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾. أي: يَتَّعِظُونَ أَنَّ مَا حَلَّ بِهِم وَأَصَابَهُمْ مُعَاتَبَةٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ كُفْرِهِمْ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِم وَلَا أَفَادَ، بَلْ استَمَرُّوا عَلَىٰ الظُّلْمِ وَالفَسَادِ.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾. أي: الخِصْبُ وَإِدْرَارُ الرِّزْقِ، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾. أي: نَحْنُ مُسْتَحِقُّونَ لَهَا، فَلَمْ يَشْكُروا اللهَ عَلَيهَا، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾. أي: قَحْطٌ وَجَدْبٌ، ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١].

أي: يَقُولُوا: إنَّمَا جَاءَنَا بِسَبَبِ مُوسَىٰ وَاتِّبَاعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾. أي: بِقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ، لَيسَ كَمَا قَالُوا، بَلْ إِنَّ ذُنُوبَهُم وَكُفْرَهُم هُوَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ، بَلْ ﴿أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. أي: فَلِذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا».

وَبِمَا ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَنْتَهِي المَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ، وَهِيَ فِي أَنْوَاعِ المُعْجِزَةِ.

وَقَدْ بَيَّنَ فِيهَا رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الآيَاتِ الَّتِي أَيَّدَ اللهُ بِهَا رُسُلَهُ قَدْ اختَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا، وَتَبَايَنَتْ مَظَاهِرُهَا وَأَشْكَالُهَا، إِلَّا أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهَا قَدْ عَجَزَ البَشَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، مُنْفَرِدِينَ أَوْ مُجْتَمِعِينَ، فَكَانَتْ بِذَلِكَ شَاهِدَ صِدْقٍ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ، وَحُجَّةً قَاطِعَةً تُخْرِسُ الأَلْسِنَةَ، وَيَنْقَطِعُ عِنْدَهَا الخُصُومُ، وَيَجِبُ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالقَبُولُ.

وَبَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يَغْلِبُ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةُ كُلِّ رَسُولٍ مُنَاسِبَةً لِمَا انتَشَرَ فِي عَصْرِهِ، وَبَرَزَ فِيهِ قَوْمُهُ، وَعُرِفُوا بِالمَهَارَةِ فِيهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَىٰ لِفَهْمِهَا، وَأَعْظَمَ لِدَلَالَتِهَا عَلَىٰ المَطْلُوبِ، وَأَمْكَنَ فِي الالْتِزَامِ بِمُقْتَضَاهَا.

وَذَكَرَ مُعْجِزَاتِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ الله عَلَيهِم وَسَلَّم-، الَّتِي كَانَ بِهَا التَّحَدِّي لأَقْوَامِهِم، وَكَانَتْ قَاعِدَةً يَبنِي عَلَيهَا كُلٌّ دَعْوَتَهُ، وَتَثْبُتُ بِهَا رِسَالَتُهُ، وَلَهُمْ وَلِغَيرِهِم -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِم وَسَلَّمْ أَجْمَعِينَ- سِوَىٰ ذَلِكَ الكَثِيرُ مِنَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ، وَالعَلَامَاتِ الوَاضِحَاتِ، الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ صِدْقِهِم.

ثُمَّ ذَكَرَ دعَائِمَ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَسَاقَ قِصَّةَ يُوسُفَ، وَقِصَّةَ مُوسَىٰ بَانِيًا النَّظَرَ فِيهِمَا عَلَىٰ أَمْرَينِ:

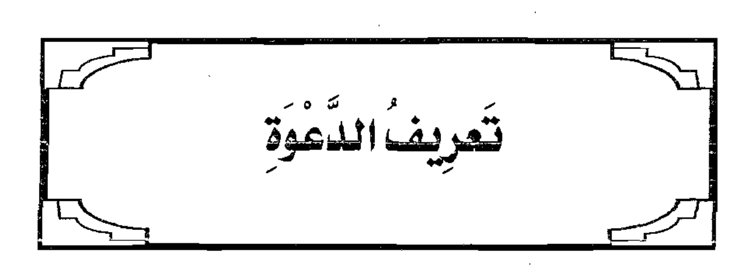
الأَوَّلُ: كَيفَ كَانَتِ القِصَّةُ مُعْجِزَةً لِرَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

الثَّانِي: كَيفَ كَانَتْ دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يُعِدُّ رُسُلَهُ فِي حَيَاتِهِم الأُولَىٰ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ؛ لِتَحَمُّلِ أعبَائِهَا، حِينَ إرْسَالِهِم إِلَىٰ أُمَمِهِم؟

وَلَمَّا فَرَغَ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ ذِكْرِ ذَلِكَ عَرَضَ لِلخَاتِمَةِ، نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ خَاتِمَةً جَعَلَهَا فِي بَيَانِ الطَّرِيقَةِ المُثْلَىٰ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأُقَدِّمُ بَينَ يَدَي مَا ذَكَرَهُ رَحِمَهُ اللهُ بَعْضَ الأُمُورِ الَّتِي تُجَلِّي بَعْضَ الجَوَانِبِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِمَا ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ؛ كَتَعْرِيفِ الدَّعْوَةِ، وَبَيَانِ فَضْلِهَا، وَحُكْمِهَا، وَكَيفِيَّةِ أَدَائِهَا، وَبَعضِ أَخْلَاقِ الدُّعَاةِ الَّتِي تَلْزَمُهُمْ فِي دَعْوَتِهِم، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

* * *



تَعرِيفُ الدَّعْوَةِ

تَدُورُ مَادَّةُ كَلِمَة الدَّعْوَةِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الطَّلَبِ وَالنِّدَاءِ إِلَىٰ أَمْرٍ، وَالحَثِّ وَالحَضِّ عَلَيهِ.

وَمَنْ دَعَا بِالشَّيءِ فَقَدْ طَلَبَ إِحْضَارَهُ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ الشَّيءِ فَقَدْ حَثَّ عَلَىٰ قَصْدِهِ، وَسَأَلَ غَيرَهُ أَنْ يُجِيبَهُ إِلَيهِ[1].

وَالتَّعْبِيرُ بِالدَّعْوَةِ يَتَنَاوَلُ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الحَقِّ، وَإِلَىٰ البَاطِلِ وَالشَّرِّ؛ فَمِنَ استِعْمَالِهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الحَقِّ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الحج:٦٧].

وَقَولُهُ ﷺ لِهِرَقْلَ فِي كِتَابِهِ إِلَيهِ: «**أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ**»[2]؛ أي: دَعْوَتِهِ[3].

وَمِنَ استِعْمَالِهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ البَاطِلِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٧٥)، والقاموس المحيط (٤/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٣٨): «ولمسلم: «بداعية الإسلام»، أي: بالكلمة الداعية للإسلام، وَهِيَ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٢١].

وَقَولِهِ ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ»(١).

وَفِي الجَمْعِ بَينَ الاستِعْمَالَينِ قَولُهُ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ الهُدَىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا، ومَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيئًا»(٢).

اصْطِلَاحًا: تُطْلَقُ كَلِمَةُ الدَّعْوَةِ فِي اصْطِلَاحِهَا الشَّرْعِيِّ، وَعِنْدَ أَهْلِهَا مِنَ الدُّعَاةِ وَأَهْلِ العِلْمِ، وَيُعْرَفُ مَعْنَاهَا: بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ إِلَيهِ مَحْذُوفٍ لاشْتِهَارِهِ، فَهِيَ دَعْوَةُ اللهِ أَوْ دَعْوَةُ الإِسْلَامِ؛ أي: أَنَّهَا دَعْوَةٌ إِلَىٰ اللهِ، أَوْ دَعْوَةٌ إِلَىٰ دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨].

وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ هِيَ دَعْوَةٌ إِلَىٰ الخَيرِ فِي أَكْمَلِ صُوَرِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فَالدَّعْوَةُ اصْطِلَاحًا: نِدَاءُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ إِيمَانًا بِهِ وَتَصْدِيقًا، وَإِلَىٰ

---

(١) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

دِينِ الإِسْلَامِ إِجَابَةً وَتَحْقِيقًا.

قَالَ الطَّبَرِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ» (١١/ ٥٣): «هِيَ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ بِالقَولِ وَالعَمَلِ».

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١٥/ ١٥٧): «الدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ: هِيَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِهِ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ، بِتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا أَخْبَروا بِهِ، وَطَاعَتِهِمْ فِيمَا أَمَروا بِهِ». اهـ

فَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ تَكُونُ بِمَعْنَىٰ: نِدَاءِ النَّاسِ لِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ: أَمْرَهُم بِكُلِّ خَيرٍ، وَنَهْيَهُم عَنْ كُلِّ شَرٍّ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ مَعْنَىٰ الدَّعْوَةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ [البقرة:٢٢١]. أي: يَدْعو وَيُنَادِي وَيَأْمُرُ.

وَقَالَ إِخْبَارًا عَنْ مُؤمِنِ آلِ فِرْعَونَ: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١].

وَعَلَيهِ؛ فَيَكُونُ مَعْنَىٰ الدَّعْوَةِ شَرْعًا: النِّدَاءُ إِلَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ.

يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هَذَا المَعْنَىٰ: «وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتِهِم بِمَا أَمَرُوا بِهِ، فَالدَّعْوَةُ إِلَيهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ».

فَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ هِيَ: أمرُ الخَلْقِ وَالعِبَادِ وَنِدَاؤُهُم؛ لامتِثَالِ أوَامِرِ اللهِ مِنَ الإيمَانِ بِهِ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِم-، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ: الدِّينَ كُلَّهُ؛ وَلِذَا جَاءَتِ الدَّعْوَةُ فِي كِتَابِ اللهِ بِصِفَةِ الخِطَابِ وَالنِّدَاءِ، وَذَلِكَ فِي مِثْلِ الألْفَاظِ الآتِيَةِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا، وَيَا أَهْلَ الكِتَابِ، يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَا بَنِي آدَمَ، وَغَير ذَلِكَ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَىٰ الطَّلَبِ وَالأمْرِ وَالنِّدَاءِ.

***

فَضْلُ الدَّعْوَةِ وَحَاجَةُ النَّاسِ إِلَيهَا

الدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ شَأْنُهَا عَظِيمٌ، وَأَمْرُهَا جَسِيمٌ، وَثَوَابُهَا عَظِيمٌ جَلِيلٌ، وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الفُرُوضِ وَالوَاجِبَاتِ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وَعَلَىٰ العُلَمَاءِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، وَهِيَ طَرِيقُ الرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَهُمُ القُدْوَةُ فِي هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ، وَالأَئِمَّةُ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ أَتْبَاعِهِم إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ؛ وَالحَاجَةُ إِلَيهَا -بَلِ الضَّرُورَةُ- مَعْلُومَةٌ قَائِمَةٌ.

فَالنَّاسُ فِي حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ إِلَىٰ مَنْ يُبَصِّرُهُم فِي دِينِهِم، وَيَأْخُذُ بِهِم إِلَىٰ الطَّرِيقِ القَوِيمِ وَالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ بِدَعْوَتِهِم إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَنَبذِ مَا يُضَادُّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ.

وَلِذَا: أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العُلَمَاءِ أَنْ يُبَيِّنُوا الحَقَّ بِدَلِيلِهِ، وَأَنْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَيهِ لِكَي يَكُونَ البَيَانُ سَبَبًا لِخُرُوجِ النَّاسِ مِنْ ظُلْمَةِ الجَهْلِ، وَقِيَامِ أُمُورِهِم فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ عَلَىٰ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ﷻ؛ إِذِ الجَهْلُ لَهُ عَاقِبَةٌ وَخِيمَةٌ عَلَىٰ العَالَمِ كُلِّهِ، فَبِالجَهْلِ يُشْرَكُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَبِالجَهْلِ يُلحَدُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَبِالجَهْلِ يُحرَّفُ الدِّينُ كُلُّهُ.

وَلِذَا: أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا قُبِضَ العُلَمَاءُ يَبقَىٰ رُءُوسٌ جُهَّالٌ فَيُفْتُونَ

النَّاسَ بِغَيرِ عِلْمٍ؛ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ.

فَعَلَىٰ هَذَا تَكُونُ الدَّعْوَةُ سَبَبًا رَئِيسًا فِي صَلَاحِ العَالَمِ، وَاستِقَامَةِ أَمْرِهِ، وَحِفْظِهِ مِنْ كُلِّ مَا يُفسِدُ حَالَهُ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِالحِفَاظِ عَلَىٰ الأُمَّةِ فِي عَقِيدَتِهَا وَقِيَمِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَإِحَاطَةِ ذَلِكَ بِسِيَاجِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالدَّعْوَةِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَرَغَّبَ فِيهَا، بَلْ حَثَّ عَلَيهَا ﷻ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

فَأَحْسَنُ النَّاسِ قَولًا وَعَمَلًا: مَنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ وَأَرْشَدَ إِليهِ، وَعَلَّمَ العِبَادَ دِينَهُم، وَفَقَّهَهُم فِيهِ، وَصَبَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَعَمِلَ بِدَعْوَتِهِ؛ وَهَذَا الجِنْسُ مِنَ النَّاسِ هُمْ أَحْسَنُ النَّاسِ، وَهُمْ أَصْلَحُ النَّاسِ، وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ.

«فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَتبَاعِ المُصْطَفَىٰ ﷺ فَعَلَيهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ مِنْ أَتبَاعِهِ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، يَنْفَعُ النَّاسَ، وَيَنفَعُ نَفْسَهُ، فَلَهُ بِذَلِكَ مِثْلُ أُجُورِهِم وَلَو كَانُوا مَلَايِينَ، فَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَفَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ»[1].

---

(١) مجلة البحوث العلمية، مقال لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ (ع٣٨/ ص٢١٠).

وَفِي الحَدِيثِ يَقُولُ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِم شَيئًا»[1].

وَفِي الصَّحِيحَينِ: عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ لَمَّا بَعَثَهُ لِفَتْحِ خَيبَرَ، قَالَ لَهُ: «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[2].

فَأَيُّ فَضْلٍ يَحُوزُهُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ اللهِ! إِنَّهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ، وَأَجْرٌ كَرِيمٌ، مِنْ رَبٍّ عَفُوٍّ كَرِيمٍ؛ فَجَزَاءُ الدَّعْوَةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا.

فَالدَّعْوَةُ لَهَا مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ هِيَ وَظِيفَةُ الأَنبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ؛ فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ المُهِمَّاتِ الَّتِي بُعِثَ مِنْ أَجْلِهَا الرَّسُولُ ﷺ، وَكُلِّفَ بِهَا أَتْبَاعُهُ، يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨].

فَهِيَ سَبِيلُ الرُّسُلِ -عَلَيهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَطَرِيقُهُم؛ فَهُمْ أَهْلُ النِّذَارَةِ وَالبِشَارَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

بَلْ إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللهِ تُعَدُّ مِنْ حُقُوقِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) كَلِمَةِ التَّوحِيدِ،

(١) أخرجه مسلم (٣٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (٢٤٠٦).

فَالدَّعْوَةُ مِنْ آكَدِ مَبَادِئِ الدِّينِ، وَأَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الشَّرِيعَةِ، وَأَظْهَرِ شَعَائِرِ المِلَّةِ، وَلَا صَلَاحَ لِلعِبَادِ وَالبِلَادِ إِلَّا بِالقِيَامِ بِهَا وَإِظْهَارِهَا، وَتَعظِيمِهَا وَتَكْمِيلِهَا، بِحَسَبِ الاستِطَاعَةِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مَا يَحْصُلُ مِنْ تَقْصِيرٍ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ وَإِضَاعَتِهِ وَإِهْمَالِهِ يَكُونُ النَّقْصُ، وَتَحْدُثُ الفِتَنُ، وَيَظْهَرُ الفَسَادُ فِي الأَرْضِ.

وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ مِنْ أَعْظَمِ فَرَائِضِ الدِّينِ، وَأَوْجَبَ أَمْرَ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ عُمُومِ المُسْلِمِينَ، كُلٌّ عَلَىٰ حَسَبِ حَالَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَوَصَفَ سُبْحَانَهُ بِهِ المُؤْمِنِينَ الكُمَّلَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيهِم بِالقِيَامِ بِأَمْرِ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيهِ وَالتَّوَاصِي بِهِ، وَشَهِدَ لَهُم بِأَنَّهُمْ خَيرُ النَّاسِ وَأَكمَلُهُم إِيمَانًا، وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَأَعْظَمُهُم إِحسَانًا إِلَيهِم، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وَالنَّاسُ عَلَىٰ مُخْتَلَفِ أَجْنَاسِهِم وَأَلْوَانِهِم وَأَزْمَانِهِم وَقُوَّتِهِم وَضَعْفِهِم بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَىٰ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّة، وَبِحَاجَةٍ إِلَىٰ دِينِ اللهِ القَوِيمِ الَّذِي يُنَظِّمُ حَيَاتَهُم؛ سَوَاءٌ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالخَالِقِ أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ المَخْلُوقِينَ، وَقَدْ خُلِقَ الإِنْسَانُ وَتَعْتَرِيهِ جَوَانِبُ نَقْصٍ كَثِيرَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ مَدَارِكَهُ وَمَعَارِفَهُ مَهْمَا تَوَسَّعَتْ آفَاقُهَا فَإِنَّهَا تَبْقَىٰ قَاصِرَةً مَحْدُودَةً؛ وَلِذَلِكَ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ.

وَلِذَا؛ احتَاجَتِ البَشَرِيَّةُ مَنْ يَدْعُوهَا إِلَىٰ رَبِّهَا، وَيَقُودُهَا إِلَىٰ مَعَالِمِ نَجَاتِهَا، وَسَبِيلِ حَيَاتِهَا الحَقِيقِي.

وَفِي هَذَا يَقُولُ ابنُ القَيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَاجَةُ النَّاسِ إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ ضَرُورِيةٌ فَوقَ حَاجَتِهِم إِلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وَحَاجَتُهُم إِلَىٰ الشَّرِيعَةِ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِم إِلَىٰ النَّفَسِ، فَضْلًا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ...

فَلَيسَ النَّاسُ قَطُّ إِلَىٰ شَيءٍ أَحْوَجَ مِنْهُم إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ القِيَامِ بِهِ وَالدَّعْوَةِ إِليهِ وَالصَّبرِ عَلَيهِ»(١).

وَقَدْ كَانَ المُسْلِمُونَ فِي عَهْدِهِ ﷺ، وَعَهْدِ أَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ، يُعَظِّمُونَ هَذَا الأَمْرَ، وَيَقُومُونَ بِهِ حَقَّ القِيَامِ؛ فَالضَّرُورَةُ إِلَيهِ بَعْدَ تِلْكَ الأَزْمَانِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ؛ لِكَثْرَةِ الجَهْلِ، وَقِلَّةِ العِلْمِ، وَغَفْلَةِ الكَثيرِ.

وَتبرُزُ أَهَمِيَّةُ الدَّعْوَةِ، وَعِظَمُ فَضْلِهَا، مِنْ حَيثُ إِنَّ الفِطَرَ قَدْ تَتَغَيَّرُ بِانْحِرَافِهَا عَنِ المَنْهَجِ السَّوِيِّ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ بِحُكْمِ التَّرْبِيَةِ، أَوِ البِيئَةِ الفَاسِدَةِ، أَوْ بِسَبَبِ دُعَاةِ السُّوءِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(٢).

فَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ العَوَامِلُ وَالأَسْبَابُ سَبَبًا فِي ضَلَالِ الخَلْقِ؛ أَمَرَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- بِالدَّعْوَةِ إِلَيهِ سُبحَانَهُ لِرَدِّ الشَّارِدِينَ، وَتَعْلِيمِ الجَاهِلِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَتَذْكِيرِ الغَافِلِينَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ كُتُبَه، وَأَرْسَلَ رُسُلَه مِنْ أَجْلِ الدَّعوَةِ إِلَيهِ.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٥).

وَمِمَّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ: أَنَّ مِنْ مُقْتَضَىٰ كَونِهِم أتبَاعًا لَهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوا إِلَىٰ اللهِ، بَلْ لَا تَتِمُّ تِلْكَ المُتَابَعَةُ إِلَّا بِهَذَا؛ وَلِهَذَا جَاءَ صَرِيحًا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

وَمِمَّا يُبرِزُ أَهَمِيَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ المَنهَجِ الصَّحِيحِ: أَنَّكَ تَجِدُ فِي بَعْضِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ أَنْمَاطًا وَأَصنَافًا مِنْ هَذِهِ الطُّقُوسِ الَّتِي حَالَتْ بَينَ النَّاسِ وَفَهْمِهِم لِلعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ.

وَمِنْ هُنَا تَبْدُو الحَاجَةُ مُلِحَّةً إِلَىٰ بَيَانِ تِلكَ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ الخَالِصَةِ الَّتِي تُرَكِّزُ عَلَىٰ نُصُوصِ الوَحْيَينِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ... فَإِنَّهُ عِنْدَمَا تَرْتَكِسُ فِطْرَةُ الإِنْسَانِ وَتَطُولُ غَفْلَتُهُ يَنْقَلِبُ فَهْمُهُ حَتَّىٰ يَرَىٰ حَسَنًا مَا لَيسَ بِالحَسَنِ، عِنْدَهَا سَيحَوِّلُ عَقِيدَتَهُ إِلَىٰ حَجَرٍ يُقَدِّسُهُ أَوْ شَجَرٍ يُعَظِّمُهُ، أَوْ مَنْهَجٍ حِزْبِيٍّ يَتَعَصَّبُ لَهُ[١].

بَيَانُ حُكْمِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ وَبَيَانُ فَضْلِهَا:

أَمَّا حُكْمُهَا: فَقَدْ دَلَّتِ الأَدِلَّةُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ وجُوبِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، وَأَنَّهَا مِنَ الفَرَائِضِ، وَالأَدِلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: قَولُهُ سُبحَانَهُ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

---

(١) انظر: «أُسُسَ منهج السلف فِي الدعوة إلىٰ اللهِ» (٣١-٣٥).

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل:١٢٥].

وَمِنْهَا: قَوْلُه ﷻ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧].

وَمِنْهَا: قَوْلُه سُبحَانَهُ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف:١٠٨].

فَبَيَّنَ سُبحَانَهُ أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ هُمُ الدُّعَاةُ إِلَىٰ اللهِ، وَهُمْ أَهْلُ البَصَائِرِ، وَالوَاجِبُ -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- هُوَ اتِّبَاعُهُ، وَالسَّيرُ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

وَصَرَّحَ العُلَمَاءُ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ فَرضُ كِفَايَةٍ، بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأَقْطَارِ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا الدُّعَاةُ، فَإِنَّ كُلَّ قُطْرٍ وَكُلَّ إِقْلِيمٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الدَّعْوَةِ وَإِلَىٰ النَّشَاطِ فِيهَا، فَهِيَ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهَا مَنْ يَكْفِي سَقَطَ عَنِ البَاقِينَ ذَلِكَ الوَاجِبُ، وَصَارَتِ الدَّعْوَةُ فِي حَقِّ البَاقِينَ سُنَّةً مُؤَكَّدَةً، وَعَمَلًا صَالِحًا جَلِيلًا.

وَإِذَا لَمْ يَقُمْ أَهْلُ الإِقْلِيمِ، أَوْ أَهْلُ القُطْرِ المُعَيَّنِ بِالدَّعْوَةِ عَلَىٰ التَّمَامِ، صَارَ الإِثْمُ عَامًّا، وَصَارَ الوَاجِبُ عَلَىٰ الجَمِيعِ، وَعَلَىٰ كُلِّ إِنسَانٍ أَنْ يَقُومَ بِالدَّعْوَةِ حَسَبَ طَاقَتِهِ وَإِمْكَانِهِ، أَمَّا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ عُمُومِ البِلَادِ، فَالوَاجِبُ أَنْ يُوجَدَ طَائِفَةٌ مُنْتَصِبَةٌ تَقُومُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِي أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ،

تُبَلِّغُ رِسَالَاتِ اللهِ، وَتُبَيِّنُ أَمْرَ اللهِ ﷻ بِالطُّرُقِ المُمْكِنَةِ.

فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ بَعَثَ الدُّعَاةَ، وَأَرْسَلَ الكُتُبَ إِلَىٰ النَّاسِ، وَإِلَىٰ المُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَدَعَاهُم إِلَىٰ اللهِ ﷻ .

وَفِي وَقْتِنَا اليَومَ قَدْ يَسَّرَ اللهُ ﷻ أَمْرَ الدَّعْوَةِ أَكْثَرَ، بِطُرُقٍ لَمْ تَحْصُلْ لِمَنْ قَبْلَنَا، فَأُمُورُ الدَّعْوَةِ اليَومَ مُتَيَسِّرَةٌ أَكْثَرَ، مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ، وَإِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ اليَومَ مُمْكِنَةٌ بِطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ: عَنْ طَرِيقِ الإِذَاعَةِ، وَعَنْ طَرِيقِ الصَّحَافَةِ، ... مِنْ طُرُقٍ شَتَّىٰ.

فَالوَاجِبُ عَلَىٰ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَعَلَىٰ خُلَفَاءِ الرَّسُولِ؛ أَنْ يَقُومُوا بِهَذَا الوَاجِبِ، وَأَنْ يَتَكَاتَفُوا فِيهِ، وَأَنْ يُبَلِّغُوا رِسَالَاتِ اللهِ إِلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَلَا يَخْشَوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَلَا يُحَابُوا فِي ذَلِكَ كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا غَنِيًّا وَلَا فَقِيرًا، بَلْ يُبَلِّغونَ أَمْرَ اللهِ إِلَىٰ عِبَادِ اللهِ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَكَمَا شَرَعَ اللهُ.

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فَرْضَ عَينٍ؛ إِذَا كُنْتَ فِي مَكَانٍ لَيسَ فِيهِ مَنْ يُؤَدِّي ذَلِكَ سِوَاكَ، كَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فَرضَ عَينٍ، وَيَكُونُ فَرْضَ كِفَايَةٍ، فَإِذَا كُنْتَ فِي مَكَانٍ لَيسَ فِيهِ مَنْ يَقْوَىٰ عَلَىٰ هَذَا الأَمْرِ، وَيُبَلِّغُ أَمْرَ اللهِ سِوَاكَ، فَالوَاجِبُ عَلَيكَ أَنْتَ أَنْ تَقُومَ بِذَلِكَ، فَأَمَّا إِذَا وُجِدَ مَنْ يَقُومُ بِالدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ غَيرُكَ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي حَقِّكَ سُنَّةً، وَإِذَا بَادَرْتَ إِلَيهِ وَحَرَصْتَ عَلَيهِ كُنْتَ بِذَلِكَ مُنَافِسًا فِي الخَيرَاتِ، وَسَابِقًا إِلَىٰ الطَّاعَاتِ.

وَمِمَّا احتُجَّ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهَا فَرْضُ كِفَايَةٍ قَولُهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ، وَجَمَاعَةٌ، مَا مَعْنَاهُ: «وَلتكُنْ مِنْكُمْ أَمَّةٌ مُنتَصِبَةٌ لِهَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ، تَدْعُو إِلَىٰ اللهِ، وَتَنْشُرُ دِينه، وَتُبَلِّغُ أَمْرَهُ ﷻ».

وَمَعْلُومٌ أيضًا أَنَّ الرَّسُولَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- دَعَا إِلَىٰ اللهِ، وَقَامَ بِأَمْرِ اللهِ فِي مَكَّةَ حَسَبَ طَاقَتِهِ، وَقَامَ الصَّحَابَةُ كَذَلِكَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم- بِذَلِكَ حَسَبَ طَاقَتِهِم، ثُمَّ لَمَّا هَاجَروا قَامُوا بِالدَّعْوَةِ أَكثَرَ وَأَبْلَغَ، وَلَمَّا انتَشَروا فِي البِلَادِ بَعْدَ وَفَاتِهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَامُوا بِذَلِكَ أيضًا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم-؛ كُلٌّ عَلَىٰ قَدْرِ طَاقَتِهِ وَعَلَىٰ قَدْرِ عِلْمِهِ.

فَعِنْدَ قِلَّةِ الدُّعَاةِ، وَعِنْدَ كَثْرَةِ المُنْكَرَاتِ، وَعِنْدَ غَلَبَةِ الجَهْلِ -كَحَالِنَا اليَوم- تَكُونُ الدَّعْوَةُ فَرضَ عَينٍ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ، وَإِذَا كَانَ فِي مَحَلٍّ مَحْدُودٍ كَقَرْيَةٍ وَمَدِينَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَوُجِدَ فِيهَا مَنْ تَوَلَّىٰ هَذَا الأَمْرَ، وقَامَ بِهِ وَبَلَّغَ أَمْرَ اللهِ كَفَىٰ، وَصَارَ التَّبلِيغُ فِي حَقِّ غَيرِهِ سُنَّةً؛ لِأَنَّهُ قَدْ أُقِيمَت الحُجَّةُ عَلَىٰ يَدِ غَيرِهِ، وَنَفَذَ أَمْرُ اللهِ عَلَىٰ يَدِ سِوَاهُ.

وَلَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَرْضِ اللهِ، وَإِلَىٰ بَقِيَّةِ النَّاسِ، يَجِبُ عَلَىٰ العُلَمَاءِ حَسَبَ طَاقَتِهِم، وَعَلَىٰ وُلَاةِ الأَمْرِ حَسَبَ طَاقَتِهِم، أَنْ يُبَلِّغُوا أَمْرَ اللهِ بِكُلِّ مَا يَستَطِيعُونَ، وَهَذَا فَرْضُ عَينٍ عَلَيهِ عَلَىٰ حَسَبِ الطَّاقَةِ وَالقُدْرَةِ.

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ كَونَهَا فَرضَ عَينٍ، وَكَونَهَا فَرضَ كِفَايَةٍ، أَمْرٌ نِسْبِيٌّ

يَختَلِفُ، فَقَدْ تَكُونُ الدَّعْوَةُ فَرضَ عَينٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَقْوَامٍ وَإِلَىٰ أَشخَاصٍ، وَسُنَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَشْخَاصٍ وَإِلَىٰ أَقْوَامٍ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ فِي مَحَلِّهِم وَفِي مَكَانِهِم مَنْ قَامَ بِالأَمْرِ وَكَفَىٰ عَنْهُم.

أَمَّا بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ وُلَاةِ الأُمُورِ وَمَنْ لَهُم القُدْرَةُ الوَاسِعَةُ، فَعَلَيهِم مِنَ الوَاجِبِ أَكْثَرُ، وَعَلَيهِم أَنْ يُبَلِّغُوا الدَّعْوَةَ إِلَىٰ مَا استَطَاعُوا مِنَ الأَقْطَارِ، حَسَبَ الإِمْكَانِ بِالطُّرُقِ المُمْكِنَةِ، وَبِاللُّغَاتِ الحَيَّةِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا النَّاسُ، يَجِبُ أَنْ يُبَلِّغُوا أَمْرَ اللهِ بِتِلْكَ اللُّغَاتِ حَتَّىٰ يَصِلَ دِينُ اللهِ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ بِاللُّغَةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَبِغَيرِهَا.

فَإِنَّ الأَمْرَ الآنَ مُمْكِنٌ وَمَيسُورٌ بِالطُّرِقِ الَّتِي تَقَدَّمَ بَيَانُهَا، طُرِقِ الإِذَاعَةِ وَالصَّحَافَةِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي تَيَسَّرَتِ اليَومَ، وَلَمْ تَتيَسَّرْ فِي السَّابِقِ، كَمَا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ الخُطَبَاءِ -فِي الاحتِفَالَاتِ، وَفِي الجُمَعِ، وَفِي غَيرِ ذَلِكَ- أَنْ يُبَلِّغُوا مَا استَطَاعُوا مِنْ أَمْرِ اللهِ ﷻ، وَأَنْ يَنْشُرُوا دِينَ اللهِ حَسَبَ طَاقَتِهِم، وَحَسَبَ عِلْمِهِم.

وَنَظَرًا إِلَىٰ انتِشَارِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ المَبَادِئِ الهَدَّامَةِ وَإِلَىٰ الإِلحَادِ، وَإِنْكَارِ رَبِّ العِبَادِ، وَإِنْكَارِ الرِّسَالَاتِ، وَإِنْكَارِ الآخِرَةِ، وَانْتِشَارِ الدَّعْوَةِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي الكَثِيرِ مِنَ البُلْدَانِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّعَوَاتِ المُضَلِّلَةِ، نَظرًا إِلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الدَّعوَةَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ اليَومَ أَصبَحَتْ فَرْضًا عَامًّا، وَوَاجِبًا عَلَىٰ جَمِيعِ العُلَمَاءِ، وَعَلَىٰ جَمِيعِ الحُكَّامِ الذِينَ يَدِينُونَ بِالإِسْلَامِ.

فَرْضٌ عَلَيهِم أنْ يُبَلِّغُوا دِينَ اللهِ حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالإمْكَانِ بِالكِتَابَةِ وَالخَطَابَةِ، وَبِالإذَاعَةِ وَبِكُلِّ وَسِيلَةٍ استَطَاعُوا، وَألَّا يَتَقَاعَسُوا عَنْ ذَلِكَ، أوْ يَتَّكِلُوا عَلَىٰ زَيدٍ أوْ عَمْرٍو، فَإنَّ الحَاجَةَ -بَلِ الضَّرُورَةَ- مَاسَّةٌ اليَومَ إلَىٰ التَّعَاوِنِ وَالاشْتِرَاكِ، وَالتَّكَاتُفِ فِي هَذَا الأمْرِ العَظِيمِ أكْثَرَ مِمَّا كَانَ قَبلَ ذَلِكَ؛ لأنَّ أعْدَاءَ اللهِ قَدْ تَكَاتَفُوا وَتَعَاوَنُوا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَالتَّشْكِيكِ فِي دِينِهِ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إلَىٰ مَا يُخْرِجُهُم مِنْ دِينِ اللهِ ﷻ .

فَوَجَبَ عَلَىٰ أهْلِ الإسْلَامِ أنْ يُقَابِلُوا هَذَا النَّشَاطَ المُضِلَّ، وَهَذَا النَّشَاطَ المُلْحِدَ، بِنَشَاطٍ إسْلَامِيٍّ، وَبِدَعْوَةٍ إسْلَامِيَّةٍ عَلَىٰ شَتَّىٰ المُسْتَوَيَاتِ، وَبِجَمِيعِ الوَسَائِلِ وَبِجَمِيعِ الطُّرُقِ المُمْكِنَةِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ أدَاءِ مَا أوْجَبَ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إلَىٰ سَبِيلِهِ [1].

كَيفِيَّةُ أدَاءِ الدَّعوَةِ وَأسَالِيبُهَا:

أمَّا كَيفِيَّةُ الدَّعْوَةِ وَأسْلُوبِهَا؛ فَقَدْ بَيَّنَهَا اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ، وَفِيمَا جَاءَ فِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَمِنْ أوْضَحِ ذَلِكَ قَوْلُهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل:١٢٥].

فَأوْضَحَ سُبْحَانَهُ الكَيفِيَّةَ الَّتِي يَنْبَغِي أنْ يَتَّصِفَ بِهَا الدَّاعِيَةُ وَيَسْلُكَهَا؛

---

(١) الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة للعلامة ابن باز (١١-١٥).

يَبْدَأُ أَوَّلًا بِالحِكْمَةِ، وَالمُرَادُ بِهَا: الأدِلَّةُ المُقْنِعَةُ الوَاضِحَةُ الكَاشِفَةُ لِلحَقِّ، وَالدَّاحِضَةُ لِلبَاطِلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: المَعنَىٰ: بِالقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ الحِكْمَةُ العَظِيمَةُ؛ لأنَّ فِيهِ البَيَانَ وَالإيضَاحَ لِلحَقِّ بِأكْمَلِ وَجْهٍ، وَقَالَ بَعْضُهُم: مَعْنَاهُ: بِالأدِلَّةِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ؛ فَالحِكْمَةُ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ، مَعنَاهَا: الدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ، بِالعِلْمِ وَالبَصِيرَةِ، وَالأدِلَّةِ الوَاضِحَةِ المُقْنِعَةِ الكَاشِفَةِ لِلحَقِّ، وَالمُبَيِّنَةِ لَهُ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مُشْتَرَكَةٌ تُطْلَقُ عَلَىٰ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ؛ تُطْلَقُ عَلَىٰ النُّبُوَّةِ، وَعَلَىٰ العِلْمِ، وَالفِقْهِ فِي الدِّينِ، وَعَلَىٰ العَقْلِ، وَعَلَىٰ الوَرَعِ، وَعَلَىٰ أَشْيَاءَ أُخْرَىٰ، وَهِيَ فِي الأَصْلِ كَمَا قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الأَمْرُ الَّذِي يَمْنَعُ عَنِ السَّفَهِ»، هَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ.

وَالمَعْنَىٰ: أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ، وَكُلَّ مَقَالَةٍ تَرْدَعُكَ عَنِ السَّفَهِ، وَتَزْجُرُكَ عَنِ البَاطِلِ فَهِيَ حِكْمَةٌ، وَهَكَذَا كُلُّ مَقَالٍ وَاضِحٍ صَرِيحٍ، صَحِيحٍ فِي نَفْسِهِ، فَهُوَ حِكْمَةٌ، فَالآيَاتُ القُرْآنِيَّةُ أَوْلَىٰ بِأَنْ تُسَمَّىٰ حِكْمَةً، وَهَكَذَا السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ أَوْلَىٰ بِأَنْ تُسَمَّىٰ حِكْمَةً بَعْدَ كِتَابِ اللهِ، وَقَدْ سَمَّاهَا اللهُ حِكْمَةً فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ، كَمَا فِي قَولِهِ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢]. يَعنِي: السُّنَّةَ.

وَكَمَا فِي قَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

فَالأدِلَّةُ الوَاضِحَةُ تُسَمَّىٰ: حِكْمَةً، وَالكَلَامُ الوَاضِحُ المُصِيبُ لِلحَقِّ

يُسَمَّىٰ: حِكْمَةً، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَمِنْ ذَلِكَ؛ الحَكَمَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي فَمِ الفَرَسِ -وَهِيَ بِفَتْحِ الحَاءِ وَالكَافِ-، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأَنَّهَا تَمْنَعُ الفَرَسَ مِنَ المُضِيِّ فِي السَّيرِ، إِذَا جَذَبَهَا صَاحِبُهَا بِهَذِهِ الحَكَمَةِ.

فَالحِكْمَةُ: كَلِمَةٌ تَمْنَعُ مَنْ سَمِعَهَا مِنَ المُضِيِّ فِي البَاطِلِ، وَتَدْعُوهُ إِلَىٰ الأَخْذِ بِالحَقِّ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ، وَالوقُوفِ عِنْدَ الحَدِّ الَّذِي حَدَّهُ اللهُ ﷻ.

فَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ يَدْعُوَ بِالحِكْمَةِ، وَيَبْدَأَ بِهَا، وَيُعنَىٰ بِهَا، فَإِذَا كَانَ المَدْعُوُّ عِنْدَهُ بَعْضُ الجَفَا وَالاعْتِرَاضِ دَعَوْتَهُ بِالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ؛ بِالآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا الوَعْظُ وَالتَّرْغِيبُ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ شُبْهَةٌ جَادَلْتَهُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلَا تُغَلِّظْ عَلَيهِ، بَلْ تَصْبِرْ عَلَيهِ وَلَا تَعْجَلْ وَلَا تُعَنِّفْ، بَلْ تَجْتَهِدْ فِي كَشْفِ الشُّبهَةِ، وَإِيضَاحِ الأَدِلَّةِ بِالأُسْلُوبِ الحَسَنِ.

هَكَذَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الدَّاعِيَةُ أَنْ تَتَحَمَّلَ وَتَصْبِرَ وَلَا تُشَدِّدَ؛ لأَنَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَىٰ الانتِفَاعِ بِالحَقِّ وَقَبُولِهِ وَتَأَثُّرِ المَدْعُوِّ، وَصَبْرِهِ عَلَىٰ المُجَادَلَةِ وَالمُنَاقَشَةِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- مُوسَىٰ وَهَارُونَ لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَىٰ فِرْعَونَ أَنْ يَقُولَا لَهُ قَولًا لَيِّنًا وَهُوَ أَطْغَىٰ الطُّغَاةِ.

قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- فِي أَمْرِهِ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

وَقَالَ اللهُ سُبحَانَهُ فِي نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الأَسْلُوبَ الحَكِيمَ وَالطَّرِيقَ المُستَقِيمَ فِي الدَّعْوَةِ؛ أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي حَكِيمًا فِي الدَّعْوَةِ، بَصِيرًا بِأُسْلُوبِهَا، لَا يَعْجَلُ وَلَا يُعَنِّفُ، بَلْ يَدْعُو بِالحِكْمَةِ، وَهِيَ المَقَالُ الوَاضِحُ المُصِيبُ لِلحَقِّ مِنَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ، وَبِالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَالجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ.

هَذَا هُوَ الأَسْلُوبُ الَّذِي يَنْبَغِي لَكَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، أَمَّا الدَّعْوَةُ بِالجَهْلِ فَهَذَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، كَمَا يَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- عِنْدَ ذِكْرِ أَخْلَاقِ الدُّعَاةِ؛ لأَنَّ الدَّعْوَةَ مَعَ الجَهْلِ بِالأَدِلَّةِ قَوْلٌ عَلَىٰ اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ، وَهَكَذَا الدَّعْوَةُ بِالعُنْفِ وَالشِّدَّةِ ضَرَرُهَا أَكثَرُ.

وَإِنَّمَا الوَاجِبُ وَالمَشْرُوعُ هُوَ الأَخْذُ بِمَا بَيَّنَهُ اللهُ ﷻ فِي سُورَةِ النَّحْلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبحَانَهُ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل:١٢٥].

إِلَّا إِذَا ظَهَرَ مِنَ المَدْعُوِّ العِنَادُ وَالظُّلْمُ، فَلَا مَانِعَ مِنَ الإِغْلَاظِ عَلَيهِ، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦][1].

---

(١) الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة (٢٠-٢٣).

بَيَانُ الأَمْرِ الَّذِي يُدْعَى إِلَيهِ:

أَمَّا الشَّيءُ الَّذِي يُدْعَىٰ إِلَيهِ، وَيَجِبُ عَلَىٰ الدُّعَاةِ أَنْ يُوَضِّحُوهُ لِلنَّاسِ، كَمَا أَوْضَحَهُ الرُّسُلُ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ المُستَقِيمِ، وَهُوَ الإِسْلَامُ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الحَقِّ، هَذَا هُوَ مَحَلُّ الدَّعْوَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾.

فَسَبِيلُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-: هُوَ الإِسْلَامُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، هَذَا هُوَ الَّذِي تَجِبُ الدَّعْوَةُ إِلَيهِ، لَا إِلَىٰ مَذْهَبِ فُلَانٍ وَلَا إِلَىٰ رَأْيِ فُلَانٍ، وَلَكِنْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ، إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ، الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ وَخَلِيلَهُ مُحَمَّدًا -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيهِ القُرْآنُ العَظِيمُ، وَالسُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ الثَّابِتَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

وَعَلَىٰ رَأسِ ذَلِكَ: الدَّعْوَةُ إِلَىٰ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، إِلَىٰ الإِخْلَاصِ للهِ وَتَوحِيدِهِ بِالعِبَادَةِ، وَالإِيمَانِ بِهِ وَبِرُسُلِهِ، وَالإِيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ، وَبِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، هَذَا هُوَ أَسَاسُ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ: الدَّعْوَةُ إِلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ وَالإِخْلَاصِ لَهُ، وَالإِيمَانِ بِهِ وَبِرُسُلِهِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرُسُلُهُ، مِمَّا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ، وَأَمْرِ آخِرِ

الزَّمَانِ وَغَيرِ ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أيضًا الدَّعْوَةُ إِلَىٰ مَا أَوْجَبَ اللهُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَومِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيتِ... إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ أيضًا فِي ذَلِكَ: الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالأخْذِ بِمَا شَرَعَ اللهُ فِي الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ، وَالمُعَامَلَاتِ، وَالنِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ، وَالجِنَايَاتِ، وَالنَّفَقَاتِ، وَالحَرْبِ وَالسِّلْمِ، وَفِي كُلِّ شَيءٍ؛ لأَنَّ دِينَ اللهِ ﷻ دِينٌ شَامِلٌ، يَشْمَلُ مَصَالِحَ العِبَادِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ، وَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ دِينِهِم وَدُنْيَاهُمْ، وَيَدْعُو إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَنْهَىٰ عَنْ سَفَاسِفِ الأَخْلَاقِ وَعَنْ سَيِّئِ الأَعْمَالِ.

فَهُوَ عِبَادَةٌ وَقِيَادَةٌ، يَكُونُ عَابِدًا، وَيَكُونُ قَائِدًا لِلجَيشِ.

عِبَادَةٌ وَحُكْمٌ، يَكُونُ عَابِدًا مُصَلِّيًا صَائِمًا، وَيَكُونُ حَاكِمًا بِشَرْعِ اللهِ مُنَفِّذًا لأَحْكَامِهِ ﷻ.

عِبَادَةٌ وَجِهَادٌ، يَدعُو إِلَىٰ اللهِ، وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ خَرَجَ عَنْ دِينِ اللهِ.

مُصْحَفٌ وَسَيفٌ، يَتَأَمَّلُ القُرْآنَ وَيَتَدَبَّرُهُ وَيُنَفِّذُ أَحْكَامَهُ بِالقُوَّةِ، وَلَوْ بِالسَّيفِ إِذَا دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَيهِ.

سِيَاسَةٌ وَاجْتِمَاعٌ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ وَالأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ، وَالجَمْعِ بَينَ المُسْلِمِينَ وَالتَّأْلِيفِ بَينَهُم، كَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فَدِينُ اللهِ يَدْعُو إِلَىٰ الاجتِمَاعِ، وَإِلَىٰ السِّيَاسَةِ الصَّالِحَةِ الحَكِيمَةِ، الَّتِي تَجْمَعُ وَلَا تُفَرِّقُ، تُؤَلِّفُ وَلَا تُبَاعِدُ، تَدْعُو إِلَىٰ صَفَاءِ القُلُوبِ، وَاحْتِرَامِ الأُخُوَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَىٰ البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ، وَالنُّصْحِ للهِ وَلِعِبَادِهِ، وَهُوَ أَيضًا يَدْعُو إِلَىٰ أَدَاءِ الأَمَانَةِ وَالحُكْمِ بِالشَّرِيعَةِ، وَتَرْكِ الحُكْمِ بِغَيرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء:٥٨].

وَهُوَ أَيضًا سِيَاسَةٌ وَاقتِصَادٌ، كَمَا أَنَّهُ سِيَاسَةٌ وَعِبَادَةٌ وَجِهَادٌ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ الاقتِصَادِ الشَّرْعِيِّ المُتَوَسِّطِ، لَيسَ رَأسمَالِيًّا غَاشِمًا ظَالِمًا لَا يُبَالِي بِالحُرُمَاتِ، وَيَجْمَعُ المَالَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ وَبِكُلِّ طَرِيقٍ.

وَلَيسَ اقتِصَادًا شُيُوعِيًّا إِلْحَادِيًّا لَا يَحْتَرِمُ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَلَا يُبَالِي بِالضَّغْطِ عَلَيهِم، وَظُلْمِهِم وَالعُدْوَانِ عَلَيهِم، فَلَيسَ هَذَا وَلَا هَذَا، بَلْ هُوَ وَسَطٌ بَينَ الاقتِصَادَينِ، وَوَسَطٌ بَينَ الطَّرِيقَينِ، وَحَقٌّ بَينَ البَاطِلَينِ.

فَالغَرْبُ عَظَّمُوا المَالَ، وَغَلَوا فِي حُبِّهِ وَفِي جَمْعِهِ، حَتَّىٰ جَمَعُوهُ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَسَلَكُوا فِيهِ مَا حَرَّمَ اللهُ ﷻ، وَالشَّرْقُ مِنَ المُلْحِدِينَ مِنَ السُّوفِييت وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُم لَمْ يَحْتَرِمُوا أَمْوَالَ العِبَادِ، بَلْ أَخَذُوهَا وَاستَحَلُّوهَا، وَلَمْ يُبَالُوا بِمَا فَعَلُوا فِي ذَلِكَ، بَلِ استَعْبَدُوا العِبَادَ، وَاضْطَهَدُوا الشُّعُوبَ، وَكَفَرُوا بِاللهِ، وَأَنْكَرُوا الأَدْيَانَ، وَقَالُوا: لَا إِلَهَ، وَالحَيَاةُ مَادَّةٌ، فَلَمْ يُبَالُوا بِهَذَا المَالِ، وَلَمْ يَكتَرِثُوا بِأَخْذِهِ بِغَيرِ حِلِّهِ، وَلَمْ يَكْتَرِثُوا بِوَسَائِلِ الإِبَادَةِ وَالاستِيلَاءِ عَلَىٰ

الأَمْوَالِ، وَالحَيلُولَةِ بَينَ النَّاسِ وَبَينَ مَا فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيهِ مِنَ الكَسْبِ وَالانتِفَاعِ، وَالاستِفَادَةِ مِنْ قُدرَاتِهِم وَمِنْ عُقُولِهِم، وَمَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الأَدَوَاتِ، فَلَا هَذَا وَلَا هَذَا.

فَالإِسْلَامُ جَاءَ بِحِفظِ المَالِ وَاكتِسَابِهِ بِالطُّرقِ الشَّرعِيَّةِ البَعِيدَةِ عَنِ الظُّلْمِ وَالغِشِّ وَالرِّبَا وَظُلْمِ النَّاسِ وَالتَّعَدِّي عَلَيهِم، كَمَا جَاءَ بِاحْتِرَامِ المِلْكِ الفَرْدِي وَالجَمَاعِي، فَهُوَ وَسَطٌ بَينَ النِّظَامِينِ، وَبَينَ الاقْتِصَادَيْنِ، وَبَينَ الطَّرِيقَينِ الغَاشِمَينِ، فَأَبَاحَ المَالَ وَدَعَا إِلَيهِ، وَدَعَا إِلَىٰ اكتِسَابِهِ بِالطُّرُقِ الحَكِيمَةِ، مِنْ غَيرِ أَنْ يُشْغِلَ كَاسِبَهُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَعَنْ أَدَاءِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:٢٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَىٰ المُسْلِمِ، حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»(١).

وَقَالَ: «**إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُم وَأَعْرَاضَكُم عَلَيكُم حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَومِكُم هَذَا فِي شَهْرِكُم هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»(٢).

وقَالَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ ثُمَّ يَأْتِيَ الجَبَلَ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَىٰ ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ؛ خَيرٌ**

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»(١).

وَقَالَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَكَانَ نَبِيُّ اللهِ دَاودُ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»(٢).

فَهَذَا يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ نِظَامَ الإِسْلَامِ فِي المَالِ نِظَامٌ مُتَوَسِّطٌ، لَا مَعَ رَأْسِ المَالِ الغَاشِمِ مِنَ الغَرْبِ وَأَتْبَاعِهِ، وَلَا مَعَ الشُّيوعِيينَ المُلْحِدِينَ الَّذِينَ استبَاحُوا الأَمْوَالَ، وَأَهْدَرُوا حُرُمَاتِ أَهْلِهَا، لَمْ يُبَالُوا بِهَا، وَاستَعْبَدُوا الشُّعوبَ وَقَضَوا عَلَيهَا، وَاستَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ مِنْهَا، فَلَكَ أَنْ تَكْسِبَ المَالَ وَتَطْلُبَهُ بِالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَنْتَ أَوْلَىٰ بِمَالِكَ وَبِكَسْبِكَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ، وَأَبَاحَهَا -جَلَّ وَعَلَا-.

وَالإِسْلَامُ أَيضًا يَدْعُو إِلَىٰ الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ، وَإِلَىٰ النُّصْحِ للهِ وَلِعِبَادِهِ، وَإِلَىٰ احتِرَامِ المُسْلِمِ لأَخِيهِ، لَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ وَلَا غِشَّ وَلَا خِيَانَةَ، وَلَا غَيرَ ذَلِكَ مِنَ الأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، كَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧١، ٢٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

وَلَا يَحْقِرُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ...»[1] الحَدِيثَ.

فَالمُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، يَجِبُ عَلَيهِ احتِرَامُهُ وَعَدَمُ احتِقَارِهِ، وَيَجِبُ عَلَيهِ إِنْصَافُهُ وَإِعْطَاؤُهُ حَقَّهُ مِنْ كُلِّ الوجُوهِ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ ﷻ، وَقَالَ ﷺ: «المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[2].

وَقَالَ ﷺ: «المُؤمِنُ مِرْآةُ المُؤمِنِ»[3].

فَأَنْتَ يَا أَخِي مِرْآةُ أَخِيكَ، وَأَنْتَ لَبِنَةٌ مِنَ البِنَاءِ الَّذِي قَامَ عَلَيهِ بُنْيَانُ الأُخُوَّةِ الإيمَانِيَّةِ، فَاتَّقِ اللهَ فِي حَقِّ أَخِيكَ، وَاعْرِفْ حَقَّهُ، وَعَامِلْهُ بِالحَقِّ وَالنُّصْحِ وَالصِّدْقِ، وَعَلَيكَ أَنْ تَأْخُذَ الإسْلَامَ كُلَّهُ وَلَا تَأْخُذَ جَانِبًا دُونَ جَانِبٍ، لَا تَأْخُذَ العَقِيدَةَ وَتَدَعَ الأحْكَامَ وَالأعْمَالَ، وَلَا تَأْخُذَ الأعْمَالَ وَالأحْكَامَ وَتدَعَ العَقِيدَةَ، بَلْ خُذِ الإسْلَامَ كُلَّهُ، خُذْهُ عَقِيدَةً، وَعَمَلًا، وَعِبَادَةً، وَجِهَادًا، وَاجْتِمَاعًا، وَسِيَاسَةً، وَاقتِصَادًا وَغَيرَ ذَلِكَ.

خُذْهُ مِنْ كُلِّ الوجُوهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨].

قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: مَعْنَىٰ ذَلِكَ: ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ جَمِيعَهُ؛ يَعْنِي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٢٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد»(٢٣٩)، وصحَّحه الألباني.

فِي الإِسْلَامِ، يُقَالُ لِلإِسْلَامِ: سِلْمٌ؛ لِأَنَّهُ طَرِيقُ السَّلَامَةِ، وَطَرِيقُ النَّجَاةِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَهُوَ سِلْمٌ وَإِسْلَامٌ، فَالإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَىٰ السِّلْمِ، يَدْعُو إِلَىٰ حَقْنِ الدِّمَاءِ بِمَا شَرَعَ مِنَ الحُدُودِ وَالقِصَاصِ وَالجِهَادِ الشَّرْعِيِّ الصَّادِقِ، فَهُوَ سِلْمٌ وَإِسْلَامٌ، وَأَمْنٌ وَإِيمَانٌ.

وَلِهَذَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾. أي: ادْخُلُوا فِي جَمِيعِ شُعَبِ الإيمَانِ، لَا تَأْخُذُوا بَعْضًا وَتَدَعُوا بَعْضًا، عَلَيكُم أَنْ تَأْخُذُوا بِالإِسْلَامِ كُلِّهِ ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. يَعنِي: المَعَاصِيَ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ ﷻ؛ فَإِنَّ الشَّيطَانَ يَدْعُو إِلَىٰ المَعَاصِي، وَإِلَىٰ تَرْكِ دِينِ اللهِ كُلِّهِ، فَهُوَ أَعْدَىٰ عَدُوٍّ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَىٰ المُسْلِمِ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِالإِسْلَامِ كُلِّهِ، وَأَنْ يَدِينَ بِالإِسْلَامِ كُلِّهِ، وَأَنْ يَعتَصِمَ بِحَبْلِ اللهِ ﷻ، وَأَنْ يَحْذَرَ أَسبَابَ الفُرْقَةِ وَالاختِلَافِ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ.

فَعَلَيكَ أَنْ تُحَكِّمَ شَرْعَ اللهِ فِي العِبَادَاتِ، وَفِي المُعَامَلَاتِ، وَفِي النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ، وَفِي النَّفَقَاتِ، وَفِي الرَّضَاعِ، وَفِي السِّلْمِ وَالحَرْبِ، وَمَعَ العَدُوِّ وَالصَّدِيقِ، وَفِي الجِنَايَاتِ، وَفِي كُلِّ شَيءٍ.

دِينُ اللهِ يَجِبُ أَنْ يُحَكَّمَ فِي كُلِّ شَيءٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُوَالِيَ أَخَاكَ لِأَنَّهُ وَافَقَكَ فِي كَذَا، وَتُعَادِيَ الآخَرَ لِأَنَّهُ خَالَفَكَ فِي رَأيٍ أَوْ فِي مَسْأَلَةٍ، فَلَيسَ هَذَا مِنَ الإِنْصَافِ، فَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم اختَلَفُوا فِي مَسَائِلَ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤَثِّرْ ذَلِكَ فِي الصَّفَاءِ بَينَهُم وَالمُوَالَاةِ وَالمَحَبَّةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُم-.

فَالمُؤمِنُ يَعمَلُ بِشَرْعِ اللهِ، وَيَدِينُ بِالحَقِّ، وَيُقَدِّمُهُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ بِالدَّلِيلِ، وَلَكِنْ لَا يَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَىٰ ظُلْمِ أَخِيهِ، وَعَدَمِ إِنْصَافِهِ إِذَا خَالَفَهُ فِي الرَّأْيِ فِي مَسَائِلِ الاجتِهَادِ الَّتِي قَدْ يَخفَىٰ دَلِيلُهَا، وَهَكَذَا فِي المَسَائِلِ الَّتِي قَدْ يُختَلَفُ فِي تَأوِيلِ النَّصِّ فِيهَا، فَإِنَّهُ قَدْ يُعذَرُ، فَعَلَيكَ أَنْ تَنْصَحَ لَهُ، وَأَنْ تُحِبَّ لَهُ الخَيرَ، وَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَىٰ العَدَاءِ وَالانْشِقَاقِ، وَتَمْكِينِ العَدُوِّ مِنْكَ وَمِنْ أَخِيكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

الإِسْلَامُ دِينُ العَدَالَةِ، وَدِينُ الحُكْمِ بِالحَقِّ وَالإِحْسَانِ، دِينُ المُسَاوَاةِ إِلَّا فِيمَا اسْتَثْنَىٰ اللهُ ﷻ، فَفِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ كُلِّ خَيرٍ، وَفِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَالإِنْصَافِ، وَالعَدَالَةِ، وَالبُعْدِ عَنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّ الوَاجِبَ عَلَىٰ الدَّاعِيَةِ الإِسْلَامِيِّ أَنْ يَدْعُوَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ كُلِّهِ، وَلَا يُفَرِّقَ بَينَ النَّاسِ، وَأَلَّا يَكُونَ مُتَعَصِّبًا لِمَذْهَبٍ دُونَ مَذْهَبٍ، أَوْ لِقَبِيلَةٍ دُونَ قَبِيلَةٍ، أَوْ لِشَيخِهِ أَوْ رَئِيسِهِ أَوْ غَيرِ ذَلِكَ، بَلِ الوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ هَدَفُهُ إِثْبَاتَ الحَقِّ وَإِيضَاحَهُ، وَاستِقَامَةَ النَّاسِ عَلَيهِ، وَإِنْ خَالَفَ رَأْيَ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ.

وَلَمَّا نَشَأَ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَعَصَّبُ لِلمَذَاهِبِ، وَيَقُولُ: إِنَّ مَذْهَبَ فُلَانٍ أَوْلَىٰ مِنْ مَذْهَبِ فُلَانٍ، جَاءَتِ الفُرْقَةُ وَالاختِلَافُ، حَتَّىٰ آلَ بِبَعْضِ النَّاسِ هَذَا الأَمْرُ إِلَىٰ أَلَّا يُصَلِّيَ مَعَ مَنْ هُوَ عَلَىٰ غَيرِ مَذْهَبِهِ، فَلَا يُصَلِّي الشَّافِعِيُّ خَلْفَ الحَنَفِيِّ، وَلَا الحَنَفِيُّ خَلْفَ المَالِكِيِّ، وَلَا خَلْفَ الحَنْبَلِيِّ.

وَهَكَذَا وَقَعَ مِنْ بَعْضِ المُتَطَرِّفِينَ المُتَعَصِّبِينَ، وَهَذَا مِنَ البَلَاءِ وَمِنَ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيطَانِ.

فَالأَئِمَّةُ أَئِمَّةُ هُدًىٰ: الشَّافِعِيُّ، وَمَالِكٌ، وَأَحمَدُ، وَأَبُو حَنِيفَةَ، وَالأَوزَاعِيُّ، وَإِسْحَاقُ بنُ رَاهُويَه، وَأَشبَاهُهُم كُلُّهُم أَئِمَّةُ هُدًىٰ وَدُعَاةُ حَقٍّ، دَعَوا النَّاسَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ، وَأَرْشَدُوهُم إِلَىٰ الحَقِّ، وَوَقَعَ هُنَاكَ مَسَائِلُ بَينَهُم، اختَلَفُوا فِيهَا؛ لِخَفَاءِ الدَّلِيلِ عَلَىٰ بَعْضِهِم، فَهُمْ بَينَ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٍ لَهُ أَجْرَانِ، وَبَينَ مُجْتَهِدٍ أَخْطَأَ الحَقَّ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ.

فَعَلَيكَ أَنْ تَعرِفَ لَهُم قَدرَهُم وَفَضْلَهُم، وَأَنْ تَتَرَحَّمَ عَلَيهِم، وَأَنْ تَعرِفَ أَنَّهُم أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ وَدُعَاةُ الهُدَىٰ، وَلَكِنْ لَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَىٰ التَّعَصُّبِ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ.

فَتَقُولُ: مَذْهَبُ فُلَانٍ أَوْلَىٰ بِالحَقِّ بِكُلِّ حَالٍ، أَوْ مَذْهَبُ فُلَانٍ أَوْلَىٰ بِالحَقِّ لِكُلِّ حَالٍ لَا يُخْطِئُ؛ لَا، هَذَا غَلَطٌ.

عَلَيكَ أَنْ تَأْخُذَ بِالحَقِّ، وَأَنْ تَتَّبِعَ الحَقَّ إِذَا ظَهَرَ دَلِيلُهُ وَلَوْ خَالَفَ فُلَانًا أَوْ فُلَانًا، وَعَلَيكَ أَلَّا تَتَعَصَّبَ وَتُقَلِّدَ تَقْلِيدًا أَعْمَىٰ، بَلْ تَعرِفُ لِلأَئِمَّةِ فَضْلَهُم

وَقَدْرَهُم، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ تَحتَاطُ لِنَفسِكَ وَدِينِكَ، فَتَأْخُذُ بِالحَقِّ وَتَرْضَىٰ بِهِ، وَتُرشِدُ إِلَيهِ إِذَا طُلِبَ مِنْكَ، وَتَخَافُ اللهَ وَتُرَاقِبُهُ -جَلَّ وَعَلَا-.

وَتُنْصِفُ مِنْ نَفْسِكَ، مَعَ إِيمَانِكَ بِأَنَّ الحَقَّ وَاحِدٌ، وَأَنَّ المُجْتَهِدِينَ إِنْ أَصَابُوا فَلَهُم أَجْرَانِ، وَإِنْ أخطَئُوا فَلَهُم أَجْرٌ وَاحِدٌ -أَعنِي: مُجْتَهِدِي أَهْلِ السُّنَّةِ، أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ وَالهُدَىٰ- كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

المَقْصُودُ مِنَ الدَّعْوَةِ والهدف مِنْهَا:

أَمَّا المَقْصُودُ مِنَ الدَّعْوَةِ وَالهَدَفُ مِنْهَا: فَالمَقْصُودُ وَالهَدَفُ إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَإِرْشَادُهُم إِلَىٰ الحَقِّ حَتَّىٰ يَأْخُذُوا بِهِ، وَيَنْجُوا مِنَ النَّارِ، وَيَنْجُوا مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَإِخْرَاجُ الكَافِرِ مِنْ ظُلْمَةِ الكُفْرِ إِلَىٰ النُّورِ وَالهُدَىٰ، وَإِخْرَاجُ الجَاهِلِ مِنْ ظُلْمَةِ الجَهْلِ إِلَىٰ نُورِ العِلْمِ، وَالعَاصِي مِنْ ظُلْمَةِ المَعْصِيَةِ إِلَىٰ نُورِ الطَّاعَةِ، هَذَا هُوَ المَقْصُودُ مِنَ الدَّعْوَةِ، كَمَا قَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

فَالرُّسُلُ بُعِثُوا لِيُخرِجُوا النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَدُعَاةُ الحَقِّ كَذَلِكَ يَقُومُونَ بِالدَّعْوَةِ وَيَنشَطُونَ لَهَا؛ لإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَلإِنقَاذِهِمْ مِنَ النَّارِ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيطَانِ، وَلإِنْقَاذِهِم مِنْ طَاعَةِ الهَوَىٰ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ(١).

---

(١) انظر: «الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة».

بَيَانُ الأخْلاقِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلدُّعَاةِ أنْ يَتَخَلَّقُوا بهَا وَأنْ يَسِيرُوا عَلَيهَا:

أَمَّا أَخْلَاقُ الدُّعَاةِ وَصِفَاتُهُم الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا عَلَيهَا، فَقَدْ أَوْضَحَهَا اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الكَرِيمِ؛ مِنْهَا:

أَوَّلًا: الإِخْلَاصُ: فَيَجِبُ عَلَىٰ الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا للهِ ﷻ، لَا يُرِيدُ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَا ثَنَاءَ النَّاسِ وَلَا حَمْدَهُم، إِنَّمَا يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ يُرِيدُ وَجْهَهُ ﷻ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨].

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣].

فَعَلَيكَ أَنْ تُخلِصَ للهِ ﷻ، هَذَا أَهَمُّ الأَخْلَاقِ، هَذَا أَعْظَمُ الصِّفَاتِ؛ أَنْ تَكُونَ فِي دَعْوَتِكَ تُرِيدُ وَجْهَ اللهِ وَالدَّارَ الآخِرَة.

ثَانِيًا: أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ فِي دَعْوَتِكَ -أي: عَلَىٰ عِلْمٍ- لَا تَكُنْ جَاهِلًا بِمَا تَدْعُو إِلَيهِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

فَلَابُدَّ مِنَ العِلْمِ، فَالعِلْمُ فَرِيضَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَدْعُوَ عَلَىٰ جَهَالَةٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ تتكَلَّمَ فِيمَا لَا تَعْلَمُ، فَالجَاهِلُ يَهدِمُ وَلَا يَبنِي، وَيُفسِدُ وَلَا يُصْلِحُ.

فَاتَّقِ اللهَ يَا عَبْدَ اللهِ، إِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ عَلَىٰ اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ، لَا تَدْعُو إِلَىٰ شَيءٍ إِلَّا بَعْدَ العِلْمِ بِهِ، وَالبَصِيرَةِ بِمَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَلَابُدَّ مِنْ بَصِيرَةٍ وَهِيَ العِلْمُ.

فَعَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ وَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ أَنْ يَتبَصَّرَ فِيمَا يَدْعُو إِلَيهِ، وَأَنْ يَنْظُرَ

فِيمَا يَدْعُو إِلَيهِ وَدَلِيلِهِ، فَإِنْ ظَهَرَ لَهُ الحَقُّ وَعَرَفَهُ دَعَا إِلَىٰ ذَلِكَ، سَوَاء كَانَ ذَلِكَ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا، فَيَدْعُو إِلَىٰ الفِعْلِ إِذَا كَانَ طَاعَةً للهِ وَرَسُولِهِ، وَيَدْعُو إِلَىٰ تَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَبَصِيرَةٍ.

ثَالِثًا: أَنْ تَكُونَ حَلِيمًا فِي دَعْوَتِكَ، رَفِيقًا فِيهَا، مُتَحَمِّلًا صَبُورًا كَمَا فَعَلَ الرُّسُلُ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، إِيَّاكَ وَالعَجَلَةَ، إِيَّاكَ وَالعُنفَ وَالشِّدَّةَ، عَلَيكَ بِالصَّبْرِ، عَلَيكَ بِالحِلْمِ، عَلَيكَ بِالرِّفْقِ فِي دَعْوَتِكَ.

وَقَدْ سَبَقَ لَكَ بَعْضُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَقَولِهِ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

وَقَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وَقَولِهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤].

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِي مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيئًا فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيئًا فَشَقَّ عَلَيهِمْ؛ فَاشْقُقْ عَلَيهِ**»[1]. خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ.

فَعَلَيكَ يَا عَبدَ اللهِ: أَنْ تَرْفُقَ فِي دَعْوَتِكَ، وَلَا تَشُقَّ عَلَىٰ النَّاسِ، وَلَا تُنَفِّرْهُمْ مِنَ الدِّينِ، وَلَا تُنَفِّرهُم بِغِلْظَتِكَ وَلَا بِجَهْلِكَ، وَلَا بِأَسْلُوبِكَ العَنِيفِ المُؤْذِي

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

الضَّارِّ، عَلَيكَ أنْ تَكُونَ حَلِيمًا صَبُورًا، سَلِسَ القِيَادِ، لَيِّنَ الكَلَامِ، طَيِّبَ الكَلَامِ؛ حَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فِي قَلْبِ أخِيكَ، وَحَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فِي قَلْبِ المَدْعُوِّ، وَحَتَّىٰ يَأنَسَ لِدَعْوَتِكَ وَيَلِينَ لَهَا، وَيَتَأثَّرَ بِهَا، وَيُثْنِيَ عَلَيكَ بِهَا، وَيَشْكُرَكَ عَلَيهَا، أمَّا العُنفُ فَهُوَ مُنَفِّرٌ لَا مُقَرِّبٌ، وَمُفَرِّقٌ لَا جَامِعٌ.

وَمِنَ الأخْلَاقِ وَالأوْصَافِ الَّتِي يَنْبَغِي -بَلْ يَجِبُ- أنْ يَكُونَ عَلَيهَا الدَّاعِيَةُ: العَمَلَ بِدَعْوَتِهِ، وَأنْ يَكُونَ قُدْوَةً صَالِحَةً فِيمَا يَدْعُو إلَيهِ، لَيسَ مِمَّنْ يَدْعُو إلَىٰ شَيءٍ ثُمَّ يَتْرُكُهُ، أوْ يَنْهَىٰ عَنْهُ ثُمَّ يَرْتَكِبُهُ، هَذِهِ حَالُ الخَاسِرِينَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ.

أمَّا المُؤمِنُونَ الرَّابِحُونَ فَهُمْ دُعَاةُ الحَقِّ، يَعْمَلُونَ بِهِ، وَيَنشَطُونَ فِيهِ وَيُسَارِعُونَ إلَيهِ، وَيَبْتَعِدُونَ عَمَّا يَنْهَوْنَ عَنْهُ، قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ مُوَبِّخًا اليَهُودَ عَلَىٰ أمْرِهِمُ النَّاسَ بِالبِرِّ، وَنسيَانِ أنْفُسِهِم: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «**يُؤتَىٰ بِالرَّجُلِ يومَ القِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أقتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَىٰ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيهِ أهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ لَهُ: يَا فُلانُ مَا لَكَ؟! ألَمْ تَكُنْ تَأمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَىٰ عَنِ**

المُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: بَلَىٰ، كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُم عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[1].

هَذِهِ حَالُ مَنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ، وَأَمَرَ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ، ثُمَّ خَالَفَ قَولُهُ فِعْلَهُ، وَفِعْلُهُ قَولَهُ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ.

فَمِنْ أَهَمِّ الأَخْلَاقِ وَمِنْ أَعْظَمِهَا فِي حَقِّ الدَّاعِيَةِ: أَنْ يَعْمَلَ بِمَا يَدْعُو إِلَيهِ، وَأَنْ يَنْتَهِيَ عَمَّا يَنْهَىٰ عَنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ ذَا خُلُقٍ فَاضِلٍ، وَسِيرَةٍ حَمِيدَةٍ، وَصَبْرٍ وَمُصَابَرَةٍ، وَإِخْلَاصٍ فِي دَعْوَتِهِ، وَاجتَهَادٍ فِيمَا يُوصِلُ الخَيرَ إِلَىٰ النَّاسِ، وَفِيمَا يُبْعِدُهُم مِنَ البَاطِلِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَدْعُو لَهُمْ بِالهِدَايَةِ.

هَذَا مِنَ الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ؛ أَنْ يَدْعُوَ لَهُم بِالهِدَايَةِ وَيَقُولَ لِلمَدْعُوِّ: هَدَاكَ اللهُ، وَفَّقَكَ اللهُ لِقَبُولِ الحَقِّ، أَعَانَكَ اللهُ عَلَىٰ قَبُولِ الحَقِّ، تَدْعُوهُ وَتُرْشِدُهُ وَتَصْبِرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ، وَمَعَ ذَلِكَ تَدْعُو لَهُ بِالهِدَايَةِ.

قَالَ النَّبِيُّ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَمَّا قِيلَ عَنْ دَوسٍ إِنَّهُم عَصَوا، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ**»[2].

تَدْعُو لَهُ بِالهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ لِقَبُولِ الحَقِّ، وَتَصْبِرُ وَتُصَابِرُ فِي ذَلِكَ، وَلَا تَقْنَطْ وَلَا تَيأَس، وَلَا تَقُلْ إِلَّا خَيرًا، لَا تُعَنِّفْ وَلَا تَقُلْ كَلَامًا سَيِّئًا يُنَفِّرُ مِنَ الحَقِّ، وَلَكِنْ مَنْ ظَلَمَ وَتَعَدَّىٰ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ، كَمَا قَالَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٧٩)، ومسلم (٢١٦٥).

﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فَالظَّالِمُ الَّذِي يُقَابِلُ الدَّعْوَةَ بِالشَّرِّ وَالعِنَادِ وَالأذَىٰ لَهُ حُكْمٌ آخَرُ، فِي الإمْكَانِ تَأدِيبُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالسَّجْنِ أَوْ غَيرِهِ، وَيَكُونُ تَأدِيبُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ حَسَبِ مَرَاتِبِ الظُّلْمِ، لَكِنْ مَا دَامَ كَافًّا عَنِ الأذَىٰ فَعَلَيكَ أنْ تَصْبرَ عَلَيهِ، وَتَحتَسِبَ، وَتُجَادِلَهُ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، وَتَصْفَحَ عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِكَ مِنْ بَعْضِ الأذَىٰ، كَمَا صَبرَ الرُّسُلُ وَأتْبَاعُهُم بِإحْسَانٍ(١).

* * *

(١) انظر: الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

خَاتِمَةٌ: وَتَشْتَمِلُ عَلَى أَمْرَيْنِ:
الأَوَّلُ: الطَّرِيقَةُ الْمُثْلَى لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ

(أ)

«تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ فِي أَدَاءِ مُهِمَّتِهِم، فَبَينَمَا يَكُونُ بَعْضُهُم خَبِيرًا بِجَوْهَرِ المَوْضُوعِ، مُلِمًّا بِأَطْرَافِهِ، مُحْسِنًا لِلأَدَاءِ وَالتَّعبِيرِ عَمَّا أَرَادَ، مُنَسِّقًا لِنِقَاطِ المَوضُوعِ، مُقَدِّمًا مِنْهَا مَا يَجِبُ أَنْ يُقَدَّمَ، مُرَاعِيًا لِظُرُوفِ السَّامِعِينَ وَأَحْوَالِهِم، يَكُونُ البَعْضُ الآخَرُ مُحْسِنًا فِي بَعْضِ النَّوَاحِي دُونَ بَعضٍ.

وَقَدْ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ مُخْتَارًا، وَأَوْدَعَ فِيهِ غَرِيزَةَ حُبِّ الاستِطْلَاعِ، وَطَبَعَهُ عَلَىٰ النَّفْرَةِ مِنَ النَّقْصِ وَالفِرَارِ مِنْهُ، وَالرَّغْبَةِ فِي الدَّرَجَاتِ العُلْيَا، وَطَلَبِ المَزِيدِ مِمَّا يَنْهَضُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَيَرْفَعُ مُستَوَاهُ، وَجَعَلَ فِيهِ استِعْدَادًا لِلتَّأَثُّرِ بِمَا يَرَىٰ وَيَسْمَعُ، وَمُحَاكَاةِ مَا يَجِدُهُ فِي بِيئَتِهِ مِنَ الخَيرِ، اللَّهُمَّ إِلَّا مَنْ مُسِخَتْ فِطْرَتُهُ، وَانْسَلَخَ مِمَّا هُوَ الأَصْلُ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ.

وَخَيرُ طَرِيقٍ يَحتَذِيهِ الدُّعَاةُ فِي القِيَامِ بِمُهِمَّتِهِم، وَأَمْثَلُ مِنْهَاجٍ يَسْلُكُونَهُ فِي استِمَالَةِ قُلُوبِ النَّاسِ إِلَىٰ الخَيرِ، وَالإِعْذَارِ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلعَقْلِ

بَعْدَ بَيَانِ الحُجَّةِ، وَإِقَامَةِ البُرْهَانِ: هُوَ طَرِيقُ الرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلَامُ- وَمِنْهَاجُهُم فِي دَعْوَتِهِم إِلَىٰ اللهِ بِقَولِهِمُ الفَصْلِ، وَسِيرَتِهِمُ الحَمِيدَةِ.

وَفِيمَا يَلِي، إلمَاعَةٌ مِنْ سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ وَخَلِيلِهِ إبرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلَامُ-.

كَانَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ -عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلَامُ- مَثَلًا أَعْلَىٰ فِي صِدْقِ اللَّهْجَةِ، وَالإيمَانِ بِمَا يَدْعُو إِلَيهِ مِنَ التَّوحِيدِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِ عَلَىٰ وَجْهٍ اطْمَأَنَّتْ بِهِ نَفْسُهُ وَرَسَخَ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ، وَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيهِ بِذَلِكَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ فِي مَطْلَعِ الحَدِيثِ عَنْهُ؛ حِينَمَا قَامَ يَدْعُو أَبَاهُ إِلَىٰ التَّوحِيدِ فَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

فَعَلَىٰ الدَّاعِي إِلَىٰ الحَقِّ أَنْ يَكُونَ مُؤمِنًا بِهِ، مُخْلِصًا لِمَا يَدْعُو إِلَيهِ، صَادِقَ اللَّهْجَةِ فِيهِ، وَإِلَّا انْكَشَفَ سِرُّهُ، وَافْتَضَحَ أَمْرُهُ، فَإِنَّ ثِيَابَ الزُّورِ تَشِفُّ عَمَّا وَرَاءَهَا، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ وَبَالًا عَلَىٰ الدَّعْوَةِ.

بَدَأَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ بِأَبِيهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيهِ، وَأَلْصَقُهُم بِهِ، فَكَانَ أَوْلَىٰ بِمَعْرُوفِهِ، وَبِرِّهِ، وَإِحْسَانِهِ، وَإِلَىٰ جَانِبِ ذَلِكَ يَكُونُ رِدْءًا لَهُ إِذَا استَجَابَ لِدَعْوَتِهِ، وَظَهْرًا لَهُ يَحْمِيهِ بِدَافِعِ أُخُوَّةِ الإِيمَانِ، وَعَصَبِيَّةِ النَّسَبِ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِ لإِبْرَاهِيمَ فِي دَعْوَتِهِ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وَقَدْ تَلَطَّفَ مَعَهُ فِي الدَّعْوَةِ، فَذَكَّرَهُ بِمَا بَينَهُمَا مِنَ الرَّحِمِ، وَوَشَائِجِ النَّسَبِ استِمَالَةً لِقَلْبِهِ، وَتَنْبِيهًا لَهُ إِلَىٰ أَنَّهُ لَوْ كَذَبَ النَّاسَ جَمِيعًا مَا طَابَتْ نَفْسُهُ بِالكَذِبِ عَلَيهِ، وَأَنَّهُ لَوْ غَشَّهُم جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا النُّصْحُ لَهُ؛ لِمَا بَينَهُمَا مِنْ أَوَاصِرِ القُرْبَىٰ وَالنَّسَبِ.

وَبَدَأَ دَعْوَتَهُ لأَبِيهِ بِالتَّوحِيدِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الدِّينِ، وَجَوهَرُ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، وَعَلَيهِ تَقُومُ فُرُوعُ الإِسْلَامِ، وَبِهِ صَلَاحُ القَلْبِ، وَبِصَلَاحِهِ تَصْلُحُ سَائِرُ الجَوَارِحِ، وَتَستَقِيمُ أَحْوَالُهَا: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

وَسَلَكَ فِي دَعْوَتِهِ إِلَىٰ التَّوحِيدِ طَرِيقَ الاستِدْلَالِ عَلَيهِ؛ بِأَنَّ مَا يَعْبُدُهُ أَبُوهُ وَقَومُهُ لَا يَسْمَعُهُم إِذَا دَعَوْهُ لِكَشْفِ غُمَّةٍ، أَوْ تَفْرِيجِ كُرْبَةٍ، وَلَا يَرَاهُمْ إِذَا عَبَدُوهُ وَتَضَرَّعُوا إِلَيهِ، وَلَا يَجْلِبُ لَهُمْ نَفْعًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُم ضُرًّا، وَإِذَا كَانَ لَا يُرْجَىٰ نَفْعُهُ، وَلَا يُخْشَىٰ بَأْسُهُ، فَكَيفَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعبَدَ أَوْ يُتَقَرَّبَ إِلَيهِ؟!! وَبِذَلِكَ أَقَامَ عَلَيهِمُ الحُجَّةَ وَقَطَعَ عُذْرَهُم.

فَيَجِبُ عَلَىٰ مَنْ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ أَنْ يَقْتَفِي أَثَرَ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ فِي دَعْوَتِهِ؛ فَيَتَلَطَّفَ مَعَ مَنْ يَدْعُوهُم، وَيَسُوسَهُم حَسَب مَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُهُم، وَيَبْدَأَ بِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيهِ، وَأَوْلَاهُم بِإِرْشَادِهِ، وَيُقَدِّمَ الإِرْشَادَ إِلَىٰ عَقِيدَةِ التَّوحِيدِ، وَيُرَكِّزَ الحَدِيثَ فِيهَا، وَيُقِيمَ عَلَىٰ ذَلِكَ الدَّلِيلَ لِيُقْنِعَهُم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

بِالحُجَّةِ، وَيُسْقِطَ أَعْذَارَهُم.

ادَّعَىٰ إبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّ اللهَ آتَاهُ مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يُؤتِ أَبَاهُ، لَا لِيَفْخَرَ بِذَلِكَ، أَوْ يَتَعَالَىٰ عَلَىٰ أَبِيهِ حَتَّىٰ يَكُونَ خُلُقًا ذَمِيمًا يُنَفِّرُ النَّاسَ مِنْ حَولِهِ، وَيَمقُتُونَهُ مِنْ أَجْلِهِ، بَل ادَّعَىٰ ذَلِكَ لِيلفِتَ النَّظَرَ إِلَىٰ وُجُوبِ الإِصْغَاءِ إِلَيهِ، وَاتِّبَاعِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الحَقِّ المُبِينِ؛ لِيَهْدِيَهُم بِهِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِ لإِبْرَاهِيمَ فِي دَعْوَتِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣].

نَهَىٰ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَبَاهُ عَنْ طَاعَةِ الشَّيطَانِ فِي وَسْوَسَتِهِ، وَاتِّبَاعِهِ فِيمَا يُسَوِّلُهُ وَيُزَيِّنُهُ لَهُ مِنَ الشِّركِ بِاللهِ وَسَائِرِ المُنْكَرَاتِ؛ فَإِنَّ طَاعَتَهُ لَهُ، وَإِسْلَامَ قِيَادِهِ إِلَيهِ عِبَادَةٌ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَنَبَّهَ أَبَاهُ إِلَىٰ عِصْيَانِ الشَّيطَانِ لِرَبِّهِ، وَتَمَرُّدِهِ عَلَيهِ، وَإِذَنْ فَلَيسَ عَلَىٰ هُدًىٰ فِي وَسْوَسَتِهِ، وَلَا يُزَيِّنُ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا هُوَ شَرٌّ وَضَلَالٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ دَعْوَةِ خَلِيلِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤].

فَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ الحَقِّ أَنْ يَكْشِفَ الغِطَاءَ عَنْ مَعْنَىٰ العِبَادَةِ، وَيَزِيدَهَا إِيضَاحًا؛ حِمَايَةً لِعَقِيدَةِ التَّوحِيدِ، وَبَيَانًا لأُصُولِهَا، وَيَسْتَعْمِلَ أُسْلُوبَ التَّنفِيرِ مِنْ عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ؛ اقتِدَاءً بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

أَنْذَرَ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ إِنْذَارَ المُتَلَطِّفِ مَعَهُ، المُشْفِقِ عَلَيهِ، بِأَنَّهُ يَخشَىٰ عَلَيهِ

مَغبَّةَ شِرْكِهِ، وَعَاقِبَةَ عِبَادَتِهِ لِلشَّيطَانِ، وَطَاعَتِهِ لَهُ، فَيُعَذِّبُهُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَجِدُ مِمَّنْ تَوَلَّاهُم بِالعِبَادَةِ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ بَأسَ اللهِ وَعَذَابَهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ إِبْرَاهِيمَ فِي دَعْوَتِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

فَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ أُسْلُوبَ الإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ مِنْ سُوءِ العَوَاقِبِ، وَالتَّذْكِيرِ بِعَذَابِ اللهِ، وَأَلِيمِ عِقَابِهِ يَومَ يَتَبَرَّأُ دُعَاةُ السُّوءِ مِمَّنْ غَرَّرُوا بِهِمْ، وَيَتَمَنَّىٰ المَخْدُوعُونَ بِزُخْرُفِ القَولِ أَنْ لَوْ عَادُوا إِلَىٰ الدُّنيَا، فَيَتَبرَّءُوا مِنْ دُعَاةِ السُّوءِ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنْهُم يَومَ القِيَامَةِ، وَأَنَّىٰ لَهُم ذَلِكَ؟!!

لَا تَأثِيرَ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ الحَقِّ وَإِنْ كَانَتْ صَادِقَةً؛ إِلَّا إِذَا وَجَدَت آذَانًا صَاغِيَةً، وَقُلُوبًا وَاعِيَةً، وَفِطْرَةً سَلِيمَةً لَمْ تُفْسِدْهَا الأَهْوَاءُ، وَلِذَا لَمْ يَستَجِبْ لإِبْرَاهِيمَ أَبُوهُ، بَلْ أَنْذَرَهُ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَيَرْجُمَنَّهُ، وَأَمَرَهُ بِهَجْرِهِ مَلِيًّا، فَصَبَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَىٰ أَذَاه، وَقَابَلَ سَيِّئَتَهُ بِالحَسَنَةِ، وَقَالَ لَهُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧].

وَاعْتَزَلَهُم وَمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ بُعدًا عَنِ الفِتْنَةِ؛ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعِ القَضَاءَ عَلَيهَا، وَأَمَلًا فِي أَنْ يَجِدَ لِدَعْوَتِهِ أَرْضًا خِصْبَةً، فَوَهَبَ اللهُ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا نَبِيًّا؛ جَزَاءً وِفَاقًا بِصِدْقِهِ فِي الدَّعْوَةِ، وَإِخْلَاصِهِ فِيهَا، وَصَبْرِهِ عَلَىٰ الأَذَىٰ فِي سَبِيلِ نَشْرِهَا، وَهَجْرِهِ لِلشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، اتِّقَاءً لِلشَّر، وَبُعْدًا عَنْ مَوَاطِنِهِ وَمَظَاهِرِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [مريم: ٤٦].

فَعَلَىٰ الدُّعَاةِ أَنْ يَتَذَرَّعوا بِالصَّبْرِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَأَنْ يُقَابِلُوا السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ، وَأَلَّا يَنْتَقِمُوا لأنفُسِهِم مَا استطَاعوا إلَىٰ العفوِ سَبِيلاً؛ لَكِن إذَا انتُهِكَتْ حُرُمَاتُ الشَّرِيعَةِ، انتَصَفوا لَهَا، وَأخذوا عَلَىٰ أيدِي العَابِثِينَ، وَعَلَيهِم أنْ يَهْجُروا الشَّرَّ وَأَهْلَهُ، إذَا لَمْ يُمْكِنْهُم إزَالَتهُ أَوْ تَخْفِيفهُ، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُمُ الفِتْنَةُ، أَوْ يَعُمَّهُمُ البَلاءُ، أَوْ تكُونَ مُخَالَطَتُهُمْ حُجَّةً عَلَيهِم، أَوْ مَعَرَّةً لَهُمْ، وَذَرِيعَةً لِلنَّيلِ مِنْهُمْ، وَعَدَمِ الاستِمَاعِ لِنَصَائِحِهِم، وَعَلَيهِم أَنْ يَتَحَرَّوْا المَجَالِسَ الَّتِي يُرجَىٰ فِيهَا قَولُ الحَقِّ، وَاللهُ المُوَفِّقُ».



الشَّرْحُ

الأمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ وَسِيلَةٌ عَظِيمَةٌ أَمَرَ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا- بِهَا، وَجَعَلَهَا وَصْفًا لِلأنبياءِ وَالمُرْسَلِينَ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَعَلَامَةً عَلَىٰ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَدَلِيلًا عَلَىٰ خَيرِيَّتِهِم وَفَلَاحِهِم فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، حَيثُ يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

ﭐﻟۡﻤُﻨﻜَﺮِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرَهَا فَيَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ -خَاصَّةً الدُّعَاةَ مِنْهُم- أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الوَسِيلَةُ طَرِيقًا لَهُم لِتَحْقِيقِ عِبَادَةِ اللهِ فِي الأَرْضِ تَنْبِيهًا لِلغَافِلِينَ، وَذِكْرَىٰ لِلمُتَّعِظِينَ، وَرَدْعًا لِلمُعْتَدِينَ، وَمَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلِتَحْقِيقِ الأَمْنِ وَالأَمَانِ فِي أَرَاضِي المُسْلِمِينَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ: أَنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ هُوَ مِنْ أَوْجَبِ الأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَأَحْسَنِهَا»[1].

وَيَقُولُ: «بَلْ ذَلِكَ مَقْرُونٌ بِتَبلِيغِ الرِّسَالَةِ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا أُرسِلَ أُنْزِلَتْ عَلَيهِ سُورَةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]»[2].

وَهَذِهِ الشَّعِيرَةُ العَظِيمَةُ قَدْ جَاءَ الذَّمُّ العَظِيمُ وَالوَعِيدُ الشَّدِيدُ جَزَاءً لِمَنْ تَرَكَهَا وَلَمْ يَقُمْ بِحَقِّهَا، فَقَالَ ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٣٤).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٣٦).

كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وَلِهَذِهِ الوَسِيلَةِ مَعَالِمُ، مَنْ سَارَ عَلَيهَا؛ كَانَ سَائِرًا عَلَىٰ هُدًىٰ وَنُورٍ، وَمَنْ لَمْ يَسِرْ عَلَيهَا؛ كَانَ إِفْسَادُهُ أَكْثَرَ مِنْ إِصْلَاحِهِ.

مِنْهَا: الصَّبْرُ وَالاحْتِسَابُ، فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهَا صَابِرًا عَلَىٰ مَا يُلَاقِيهِ مِنَ الأَذَىٰ فِي سَبِيلِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَلَا يَجْزَعُ وَلَا يَغْضَبُ غَضَبًا يُخْرِجُهُ إِلَىٰ طَورٍ غَيرِ شَرْعِيٍّ.

يَقُولُ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَفَّرَ فِيمَنْ يَقُومُ بِهِ: «وَلَابُدَّ أَيضًا أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا صَبُورًا عَلَىٰ الأَذَىٰ؛ فَإِنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ الأَذَىٰ، فَإِنْ لَمْ يَحْلُمْ وَيَصْبِرْ كَانَ مَا يُفسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»(١).

وَمِنْهَا: العِلْمُ بِالمَعْرُوفِ وَالمُنْكَرِ، حَتَّىٰ لا يُنْكِرَ شَيئًا مَعْرُوفًا يَظُنُّهُ مُنْكَرًا وَالعَكْسُ.

يَقُولُ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَابُدَّ مِنَ العِلْمِ بِالمَعْرُوفِ وَالمُنْكَرِ وَالتَّمْيِيزِ بَينَهُمَا، وَلَابُدَّ مِنَ العِلْمِ بِحَالِ المَأمُورِ وَالمَنْهِيِّ... وَهُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ إِلَىٰ المَقْصُودِ»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٣٦).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٣٦).

وَمِنْهَا: تَقْدِيرُ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ فِي هَذَا البَابِ، وَالتَّرْجِيحُ بَينَهَا عِنْدَ التَّعَارُضِ، فَدَرْءُ المَفَاسِدِ أَوْلَىٰ مِنْ جَلْبِ المَصَالِحِ، وَذَلِكَ أَنَّ تَغْيِيرَ المُنْكَرِ إِذَا كَانَ يَجْلِبُ شَرًّا وَفِتْنَةً أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ المُنْكَرِ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ المَصْلَحَةَ الشَّرْعِيَّةَ تَقْتَضِي تَرْكَهُ لِتَحصِيلِ المَصْلَحَةِ وَدَرْءِ المَفْسَدَةِ.

نَجِدُ هَذَا مَنْهَجًا وَاضِحًا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ؛ أَتْبَاعِ سَلَفِ الأُمَّةِ، حَيثُ يَقُولُ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِنْكَارُ المُنْكَرِ بِمَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا حُرِّمَ الخُرُوجُ عَلَىٰ وُلَاةِ الأَمْرِ بِالسَّيفِ لأَجْلِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ... وَإِذَا كَانَ قَومٌ عَلَىٰ بِدْعَةٍ أَو فُجُورٍ، وَلَوْ نُهوا عَنْ ذَلِكَ وَقَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَرٌّ أَعْظَمُ مِمَّا هُمْ عَلَيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يُمْكِن مَنْعُهُم مِنْهُ، وَلَمْ يَحْصُلْ بِالنَّهْيِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ، لَمْ يُنهَوْا عَنْهُ»[1].

فَعَلَىٰ الدَّاعِيَةِ المُسْلِمِ أَنْ يَعِيَ هَذِهِ المَعَالِمَ الرَّئِيسَةَ فِي بَابِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، فَيسلُكَ بِهَذِهِ الوَسِيلَةِ الطَّرِيقَةَ المَرْعِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي يَحْصُلُ مِنْ خِلَالِهَا المَقْصُودُ الشَّرعِيُّ.

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَابُدَّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: العِلْمُ، وَالرِّفْقُ، وَالصَّبرُ.

العِلْمُ قَبْلَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالرِّفْقُ مَعَهُ، وَالصَّبرُ بَعْدَهُ»[2].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٤/ ٤٧٢).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٣٧)، وانظر: أُسُس منهج السلف في الدعوة إلىٰ الله، (١٦٣- ١٦٥).

الثَّانِي: الطَّرِيقَةُ الْمُثْلَى لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ

(ب)

«لَمْ يُرْسِلِ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولًا إِلَّا أَمَرَهُ بِالتَّوحِيدِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ لَا شَرِيكَ لَهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَقَدْ عُنِيَ الرُّسُلُ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِذَلِكَ فَبَدَءُوا البَلَاغَ بِدَعْوَةِ أُمَمِهِم إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَقَطَعُوا فِيهِ شَوْطًا بَعِيدًا حَتَّىٰ شَغَلُوا بِهِ الكَثِيرَ مِنْ أَوْقَاتِ البَلَاغِ.

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ التَّوحِيدَ أَصْلُ الدِّينِ وَذِروَةُ سَنَامِهِ، وَمِلَاكُ الإِسْلَامِ وَدِعَامَتُهُ الأُولَىٰ، لَا تَصِحُّ مِنْ إِنْسَانٍ قُرْبَةٌ، وَلَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْهُ عِبَادَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَقْرُونَةً بِالتَّوحِيدِ، وَإِخْلَاصِ القَلْبِ للهِ وَحْدَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا

إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وَقَالَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وَقَدْ أَرْشَدَ اللهُ النَّاسَ إِلَىٰ أَيْسَرِ الطُّرُقِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوحِيدِ وَأَسْهَلِهَا، وَأَقْرَبِهَا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الحَقِّ وَأَعْدَلِهَا؛ وَهُوَ الاسْتِدْلَالُ بِآيَاتِ اللهِ وَسُنَنِهِ الكَونِيَّةِ وَتَفَرُّدِهِ سُبْحَانَهُ بِتَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا عَلَىٰ تَفَرُّدِهِ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَاسْتِحْقَاقِهِ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَذَلِكَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا، وَأَقْوَمُ دَلِيلًا، وَأَقْوَىٰ فِي إِقْنَاعِ الخَصْمِ وَإِلْزَامِهِ الحُجَّةَ؛ فَإِنَّهُ مُقْتَضَىٰ العَقْلِ الصَّرِيحِ وَمُوجِبُ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

فَرَتَّبَ سُبْحَانَهُ نَهْيَهُ إِيَّاهُم عَنِ اتِّخَاذِهِمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي العِبَادَةِ عَلَىٰ عِلْمِهِم وَإِقْرَارِهِم بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُم، وَخَلَقَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِم، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا، وَذَلَّلَهَا لَهُم؛ لِيَمْشُوا فِي جَوَانِبِهَا، وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

وَرَفَعَ السَّمَاءَ بِلَا عَمَدٍ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَهُم، لِيَنْعَمُوا بِمَا آتَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَلِيَتَمَتَّعُوا بِمَا أَفَاضَ عَلَيهِم مِنَ الخَيرَاتِ؛ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ رَبَّهُم، وَوَلِيَّ نِعْمَتِهِم، فَيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ شُكْرًا لَهُ عَلَىٰ مَا أَسْبَغَ عَلَيهِم مِنْ نِعَمِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيهِمْ مِنْ بَرَكَاتِهِ.

وَفِي القُرْآنِ كَثِيرٌ مِنَ النَّظَائِرِ لِهَاتَينِ الآيَتَينِ فِي بَيَانِ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ، وَرَسْمِ الطَّرِيقِ النَّاجِحَةِ فِي إِقَامَةِ الحُجَّةِ، وَإِلْزَامِ الخَصْمِ.

لَقَدْ سَلَكَ الأَنبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي دَعْوَتِهِم أُمَمَهُم إِلَىٰ الهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ؛ اهتِدَاءً بِهَدْيِ اللهِ، وَاسْتِرْشَادًا بِإِرْشَادِهِ، وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ، وَمِنْ أَبْرَزِهِم فِي ذَلِكَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَمِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

أَرْسَلَ اللهُ -جَلَّ شَأْنُهُ- خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إِلَىٰ قَوْمٍ مِنَ الفُرْسِ عُتَاةٍ جَبَّارِينَ يَعْبُدُونَ التَّمَاثِيلَ، فَأَنْكَرَ عَلَيهِم عُكُوفَهُم لَهَا، وَتَقَرُّبَهُم إِلَيهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢].

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَدَيهِم حُجَّةٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيهَا فِي عِبَادَتِهِمُ الأَصْنَامَ، تَعَلَّلُوا لِبَاطِلِهِم بِمَا وَجَدُوا عَلَيهِ آبَاءَهُم مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ التَّمَاثِيلِ، وَعِبَادَتِهِم

إِيَّاهَا، فَأَلْغَوا عُقُولَهُم، وَقَلَّدُوا آبَاءَهُم عَلَىٰ غَيرِ هُدًى وَبَصِيرَةٍ: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

فَسَفَّهَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَحْلَامَهُم وَحَكَمَ عَلَيهِمْ وَعَلَىٰ آبَائِهِم بِالحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ المُبِينِ: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ التَّمَاثِيلَ لَا تَسْمَعُ النِّدَاءَ، وَلَا تَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ، وَلَا تَمْلِكُ نَفْعًا، وَلَا تُوقِعُ ضرًّا؛ فَلَا يَلِيقُ بِعَاقِلٍ أَنْ يَتَّخِذَهَا آلِهَةً مَعَ مَنْ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَإِلَيهِ مَقَالِيدُ الأُمُورِ، يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الخَيرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤].

فَلَمَّا رَكِبُوا رُءُوسَهُم، وَأَبَوا إِلَّا اللَّجَاجَ وَالعِنَادَ، وَالعَصَبِيَّةَ المَمْقُوتَةَ فِي تَقْلِيدِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ أَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِنْهُم، وَشِدَّةَ عَدَاوَتِهِ لَهُم، وَلِمَا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

وَجَدَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّهُ لَابُدَّ لَهُ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقٍ آخَرَ

عَمَلِيٍّ فِي إِقَامَةِ الحُجَّةِ؛ لِيَكُونَ أَقْوَىٰ فِي الإِبَانَةِ عَنِ الحَقِّ، وَأَمْلَكَ فِي إِلْزَامِ الخَصْمِ، يَضْطَرُّهُمْ بِهِ إِلَىٰ الاعْتِرَافِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ وَظُلْمٍ وَانْحِرَافٍ؛ فَأَقْسَمَ بِاللهِ أَنْ يَكِيدَ لأَصْنَامِهِم وَهُمْ عَنْهُمْ غَائِبُونَ، انتَهَزَ فُرْصَةَ خُرُوجِهِم مِنَ البَلَدِ لِبَعْضِ شَأْنِهِم، وَذَهَبَ إِلَىٰ آلِهَتِهِم خِفْيَةً؛ لِئَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ فَيَصُدَّهُ عَنْ تَنْفِيذِ مَا أَرَادَ.

فَجَعَلَهُم قِطَعًا صِغَارًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ تَرَكَهُ سَالِمًا؛ لِيَكُونَ لَهُ وَلَهُمْ مَعَهُ شَأْنٌ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فِيمَا جَرَىٰ عَلَىٰ أَصْنَامِهِم، فَلَمَّا عَادُوا إِلَىٰ مَنَازِلِهِم، وَشَاهَدُوا مَا أُصِيبَتْ بِهِ آلِهَتُهُم: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦١].

فَلَمَّا حَضَرَ مَجْلِسَهُم أَخَذُوا يُقَرِّرُونَهُ بِمَا صَنَعَ بِآلِهَتِهِم: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]. فَأَجَابَهُمْ بِنِسْبَةِ مَا حَدَثَ إِلَىٰ مَنْ لَا يَتَأَتَّىٰ مِنْهُ؛ نَسَبَهُ إِلَىٰ كَبِيرِ التَّمَاثِيلِ وَهُوَ -كَمَا يَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ- جَمَادٌ لَا حَرَاكَ[1] بِهِ، ذَلِكَ لِيُرْشِدَهُمْ إِلَىٰ مَكَانِ الخَطَأِ فِي عُكُوفِهِم عَلَىٰ التَّمَاثِيلِ عِبَادَةً لَهَا وَتَقَرُّبًا إِلَيهَا، وَيَصْرِفَهُم عَنْهَا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُوحِيَ إِلَيهِم بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَادَ لأَصْنَامِهِم، وَأَنْزَلَ بِهِم مَا يَكْرَهُونَ.

وَقَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ إِيَّاهُم أَنْ يَسْأَلُوا التَّمَاثِيلَ عَمَّنْ أَصَابَهُم بِالتَّكْسِيرِ

(١) الحَرَاكُ: الحَرَكَةُ، يقالُ: مَا بِهِ حَرَاكٌ.

وَالتَّحْطِيمِ، إِنْ كَانُوا يَحِيرُونَ جَوَابًا.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وَقَدْ نَجَحَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ إِلَىٰ حَدٍّ مَا، وَأَوْجَدَتْ فِيهِم وَعْيًا؛ فَثَابُوا إِلَىٰ رُشْدِهِمْ، وَمَا كَانَ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِم، وَاعتَرَفُوا بِأَنَّهُم هُمُ الذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم بِعِبَادَتِهِم تَمَاثِيلَ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا نَفْعًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهَا بَأْسًا، وَظَلَمُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصَدِّهِمْ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَإِعْرَاضِهِم عَمَّا جَاءَهُم بِهِ مِنَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ عَلَىٰ التَّوحِيدِ، وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ لَكِنَّهُم لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ رَكِبُوا رُءُوسَهُم وَنَكَصُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِم، وَارْتَكَسُوا فِي حَمْأَةِ الضَّلَالِ وَالحَيرَةِ؛ عَصَبِيَّةً لِمَا وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِم مِنَ الشِّرْكِ وَالبُهْتَانِ المُبِينِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].

لَقَدْ ازْدَادَ طَرِيقُ الحَقِّ وُضُوحًا وَبَيَانًا، وَاسْتَحْكَمَتْ حَلْقَاتُ الحُجَّةِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ، وَحُقَّ لَهُ أَنْ يَضِيقَ ذَرْعًا مِنْ صُدُودِهِم، وَأَنْ يَتَأَفَّفَ ضَجَرًا مِنْ طُغْيَانِهِم وَشِرْكِهِم، وَأَنْ يُنْكِرَ عَلَيهِم ذَلِكَ إِنْكَارًا صَارِخًا، وَيَرْمِيَهِم بِالخَبَالِ، وَإِلغَاءِ العُقُولِ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

لَقَدْ أخذَتِ الحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ لِلبَاطِلِ مِنْ نُفُوسِ قَومِ إبْرَاهِيمَ عليه السلام مَأخَذَهَا، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهُمُ العَصَبيَّةُ لِطَاغُوتِ التَّقلِيدِ لِلآبَاءِ وَالأَجْدَادِ؛ فِيمَا أُصِيبُوا بِهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالانحِرَافِ عَنِ الحقِّ؛ حَتَّىٰ مَلَكَتْ مَشَاعِرَهُم، وَوَجَّهَتْ عُقُولَهُم وَأَفْكَارَهُم إلَىٰ شَرِّ وِجْهَةٍ، وَصَرَفَتْهُم عَنِ الحقِّ المُبِينِ، وَالصِّرَاطِ المُستَقِيمِ، وَزَيَّنَتْ لَهُمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ إبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَيُنزِلُوا بِهِ أَشَدَّ العِقَابِ؛ انتِصَارًا لآلِهَتِهِمُ البَاطِلَةِ، وَانتِقَامًا مِنْهُ؛ جَزَاءً لَهُ عَمَّا صَنَعَ بِهَا مِنْ تَحْطِيمٍ وَتكْسِيرٍ.

وَيَعْلَمُ اللهُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِذَلِكَ إلَّا الخَيرَ لَهُمْ، وَإخْرَاجَهُم مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إلَىٰ نُورِ التَّوحِيدِ: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

لَكِنْ يَأبَىٰ اللهُ إلَّا أَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَأَنْ يَخْذُلَ أَعْدَاءَهُ، وَأَعْدَاءَ دِينِهِ، وَيُبْطِلَ مَا كَادُوا بِهِ لأَوْلِيَائِهِ، فَيَبُوءُوا بِالخُسْرَانِ المُبِينِ؛ إمْضَاءً لِسُنَّتِهِ العَادِلَةِ الحَكِيمَةِ فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]».

الشَّرْحُ

(١)عُنِيَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَوَجَّهَ جُلَّ هَمِّهِ وَأَعْظَمَ عِنَايَتِهِ إِلَىٰ إِيضَاحِ التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ، وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ، فَبَدَأَ بِهِ، وَكَرَّرَ الدَّعْوَةَ مَعَ اخْتِلَافِ لَهْجَتِهِ فِي ذَلِكَ لِينًا وَشِدَّةً، وَذَكَرَ أَنْوَاعًا مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ التَّوحِيدِ، وَسَلَكَ طُرُقًا شَتَّىٰ فِي الاستِدْلَالِ بِهَا عَلَيهِ؛ إِتْمَامًا لإِقَامَةِ الحُجَّةِ، وَزِيَادَةً فِي الإِعْذَارِ إِلَىٰ الأُمَّةِ، وَأَمَلًا فِي أَنْ يَجِدَ كُلُّ نَوعٍ مِنْهَا، أَوْ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الاسْتِدْلَالِ بِهَا مَنْفَذًا إِلَىٰ قُلُوبِ جَمَاعَةٍ، فَإِنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي مَدَارِكِهِمْ وَمُتَفَاوِتُونَ فِي طَبَائِعِهِم وَأَفْهَامِهِمْ قُوَّةً وَضَعْفًا، لِينًا وَصَلَابَةً، وَإِنْصَافًا لِلْحَقِّ، وَعِنَادًا وَصُدُودًا عَنْهُ، فَمَا يُجْدِي مِنَ الأَدِلَّةِ وَطُرُقِ الاستِدْلَالِ بِهَا مَعَ طَائِفَةٍ قَدْ لَا تُؤَثِّرُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ أُخْرَىٰ.

---

(١) ذكر المصنفُ رَحِمَهُ اللهُ في «الحكمة من إرسال الرسل» تتمّة لقصةِ إبراهيم عليه السلام، وقد نقلتها في هذا الموضع، وهي من هنا إلىٰ بحثه رَحِمَهُ اللهُ عن «الفرق الإسلامية»، ويأتي إن شاء الله تعالىٰ.

وَفِيمَا يَلِي بَيَانُ ذَلِكَ:

أَنْكَرَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَلَىٰ أَبِيهِ آزَرَ أَنْ يَتَّخِذَ أَصْنَامًا آلِهَةً، وَلَمْ يَقْرِنْ ذَلِكَ فِيمَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ بِمَا يُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ الإِنْكَارِ عَلَىٰ نَحْوِ مَا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ.

حَيثُ مَهَّدَ فِيهَا قَبْلَ الإِنْكَارِ بِنِدَائِهِ بِقَلْبِ الأُبُوَّةِ، وَلَمَّا أَشْرَكَ قَوْمَهُ مَعَ أَبِيهِ فِي الحُكْمِ كَانَ أَشَدَّ لَهْجَةً وإِنْكارًا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فَحَكَمَ عَلَيهِمْ بِالجَهْلِ المُبِينِ، وَعَمَىٰ البَصَائِرِ؛ ذَلِكَ لِيُثِيرَ عَوَاطِفَهُم، وَيَدْفَعَ بِهِم إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا، أَهوَ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ، وَهُوَ وَلِيُّ نِعْمَتِهِم، أَمِ الهَيَاكِلُ الأَرْضِيَّةُ وَالسَّمَاوِيَّةُ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لِنَفسِهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا تُغنِي عَنْهُم مِنَ اللهِ شَيئًا؟!

ثُمَّ عَسَىٰ أَنْ تَجِدَ هَذِهِ الإِثَارَةُ مِنْ أَبِيهِ وَقَومِهِ قُلُوبًا وَاعِيَةً تَحْفَظُ عَنْهُ مَا يَقُولُ، وَعُقُولًا رَشِيدَةً تَفْقَهُ مَا سَمِعَتْ مِنَ البَلَاغِ، وَإِحْسَاسًا مُرْهَفًا؛ فَتَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ، وَتَسْتَجِيبُ إِلَىٰ دَعْوَةِ الحَقِّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

بَصَّرَ اللهُ ﷻ خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِالدَّلَائِلِ الكَونِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ سُبحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، فَأَرَاهُ آيَاتِهِ فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ؛ لِيَعْلَمَ حَقِيقَةَ التَّوحِيدِ، أَوْ لِيَزْدَادَ عِلْمًا بِهِ وَيَقِينًا إِلَىٰ يَقِينِهِ،

وَأَرْشَدَهُ إِلَىٰ وَجْهِ الاستِدْلَالِ بِهَا، وَكَيفَ يَسْلُكُ طَرِيقَهَا فِي البَلَاغِ أَوِ البَيَانِ وَمُنَاظَرَةِ الخُصُومِ؛ لِيَفْصِلَ بِذَلِكَ بينَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ وَالبُرْهَانَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

كَانَ قَومُ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ صَابِئَةً يَعْبُدُونَ الكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ، وَيُقِيمُونَ لَهَا الهَيَاكِلَ فِي الأَرْضِ مِنَ الأَحْجَارِ وَنَحْوِهَا، وَكَانُوا يُعَظِّمونَهَا، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيهَا بِالذَّبَائِحِ وَغَيرِهَا، وَكَانُوا يَستَغِيثُونَ بِهَا وَيَضَّرَّعُونَ إِلَيهَا؛ فَنَاظَرَهُم عليه السلام فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْلُكَ فِي هَذِهِ المُنَاظَرَةِ طَرِيقَ الاستِدْلَالِ الإِيجَابِيِّ وَالمُبَاشِرِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيرُهُ وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، بَلْ جَعَلَ دَعْوَىٰ قَومِهِ وَعَقِيدَتَهُمُ الشِّرْكِيَّةَ مَوضُوعَ بَحْثِهِ وَنِقَاشِهِ مَعَهُمْ، وَفَرَضَهَا فَرْضَ المُستَدِلِّ لِمَا لَا يَعْتَقِدُهُ، ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيهِ بِالنَّقْضِ وَالإِبْطَالِ، وَيَكْشِفُ عَنْ وَجْهِ الحَقِّ.

فَحِينَمَا أَظْلَمَ اللَّيلُ وَرَأَىٰ إِبْرَاهِيم -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- النَّجمَ؛ قَالَ: هَذَا رَبِّي؛ فَرْضًا وَتَقْدِيرًا، أَوْ: أَهَذَا رَبِّي؟ فَلَمَّا غَابَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّهُ مُسَخَّرٌ لَيسَ أَمْرُهُ إِلَيهِ، بَلْ إِلَىٰ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ يُصَرِّفُهُ كَيفَ يَشَاءُ.

أَمَّا الرَّبُّ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، بَلْ أَمْرُ غَيرِهِ إِلَيهِ، وَهُوَ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الأُمُورِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

ثُمَّ انتَقَلَ بِهِم فِي البَحْثِ إِلَىٰ كَوْكَبٍ آخَرَ هُوَ فِي نَظَرِهِم أَشَدُّ ضَوْءًا، وَفِي مَرْأَىٰ أَعْيُنِهِم أَكْبَرُ حَجْمًا، وَهُوَ القَمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ طَالِعًا؛ قَالَ: هَذَا رَبِّي؛ فَرْضًا مِنْهُ لِذَلِكَ وَتَقْدِيرًا، أَوْ: أَهَذَا رَبِّي؟

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ، تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيسَ بِالرَّبِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَأْلَهَهُ القُلُوبُ، وَيَضَّرَّعَ إِلَيهِ العِبَادُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وَيَسْتَهْدُونَهُ فَيَهْدِيهِم إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ؛ وَلِذَا قَالَ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ثُمَّ انْتَقَلَ بِهِم إِلَىٰ مَعْبُودٍ آخَرَ لَهُمْ أَكْبَرَ جِرْمًا مِنَ النَّجْمِ وَمِنَ القَمَرِ، وَأَعْظَمَ ضِيَاءً مِنْهُمَا، وَهُوَ الشَّمْسُ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

فَاستَدَلَّ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنْ غَيرِهَا عَلَىٰ أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِأَمْرِ رَبِّهَا، وَأَنَّهَا مُدَبَّرَةٌ مُسَخَّرَةٌ بِتَسْخِيرِ خَالِقِهَا.

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الكَوَاكِبُ الثَّلَاثَةُ مِنْ أَرْفَعِ الكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ شَأْنًا، وَأَعْلَىٰ قَدْرًا، وَأَعَمَّ نَفْعًا عِنْدَهُمْ، وَقَدْ مَضَتْ لَوَازِمُهَا بِانْتِفَاءِ سِمَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ، فَمَا عَدَاهَا مِنْ سَائِرِ الكَوَاكِبِ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَظٌّ مَا فِي

الرُّبُوبِيَّةِ أوِ الإلَهِيَّةِ، وَأَحْرَىٰ بِنفيِ ذَلِكَ عَنْهُ، وَاستِحَالَتِهِ عَلَيْهِ.

وَلِذَا أعْلَنَ إبْرَاهِيمُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي خِتَامِ المُنَاظَرَةِ بَرَاءَتَهُ مِمَّا يَزْعُمُونَ مِنَ الشُّركَاءِ، وَأسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَحْدَهُ الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ، وَأبْدَع خَلْقَهُمَا، دُوْنَ شَرِيكٍ أوْ ظَهِيرٍ يُعِينُهُ فِي ذَلِكَ، وَضَمَّنَ إعْلَانَ النَّتِيجَةِ الاستِدْلَالَ بِتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَىٰ تَوحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ.

وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، فَإنَّ مَا فِيهِ مِنَ البَرَاءَةِ مِنَ الشُّركَاءِ نَظِيرُ نَفْيِ الإلَهِيَّةِ الحَقَّةِ عَنِ الشُّرَكَاءِ فِي كَلِمَةِ التَّوحِيدِ، وَمَا فِيهِ مِنْ إسْلَامِ وَجْهِهِ للهِ نَظِيرُ الاستِثْنَاءِ فِي كَلِمَةِ التَّوحِيدِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَىٰ إثْبَاتِ الإلَهِيَّةِ الحَقَّةِ للهِ، وَمِثْلُهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الاستِدْلَالِ قَدْ سَلَكَ سَبِيلَهُ فِي المُنَاظَرَةِ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَقَدْ جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرًا، لَكِنْ عَلَىٰ منْهَجِ العَرَبِ فِي حَدِيثِهِم، وَطَرِيقَتِهِم فِي المُنَاظَرَةِ وَالحِجَاجِ، فَإنَّ رِسَالَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْ بَدَأَتْ فِي العَرَبِ، وَبِلُغَتِهِم نَزَلَ القُرْآنُ عَلَىٰ طَرِيقِ الصِّنَاعَةِ المَنْطِقِيَّةِ؛ حَيْثُ يَقُولُونَ فِي مِثْلِ هَذَا المَوضِعِ إجْمَالًا: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الكَوَاكِبُ أرْبَابًا أوْ آلِهَةً مَا حَالَتْ وَلَا زَالَتْ، لَكِنَّهَا تَحُولُ وَتَزُولُ، فَلَيسَتْ أرْبَابًا، فَإنَّ اللهَ حَيٌّ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ.

فَلِلدَّاعِيَةِ إلَىٰ الإسْلَامِ أنْ يَسْلُكَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ -طَرِيقَةَ إبْرَاهِيمَ عليه السلام-

حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ الحَالُ، فَيَتَنَزَّلُ مَعَ مُنَاظِرِهِ مِنْ دُعاةِ البَاطِلِ، وَيَفرِضُ دَعْوَاهُ وَاقِعَةً، وَيُرَتِّبُ عَلَيهَا لَوَازِمَهَا البَاطِلَةَ، وَآثَارَهَا الفَاسِدَةَ، ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيهَا بِالنَّقْضِ وَالإبْطَالِ، وَقَدْ تُوجِبُ عَلَيهِ الأحْوَالُ وَالظُّرُوفُ سُلُوكَهَا وَالدَّعْوَةَ بِهَا أحْيَانًا.

فَإنَّ الدَّعْوَةَ إلَىٰ الحَقِّ كَمَا تَكُونُ بِتَزْيِينِهِ، وَذِكْرِ مَحَاسِنِهِ لِلتَّرْغِيبِ فِيهِ، وَاستِمَالَةِ النُّفُوسِ إلَيهِ، تَكُونُ بِتَشْوِيهِ البَاطِلِ، وَذِكْرِ مَسَاوِيهِ وَمَخَازِيهِ، تَنْفِيرًا مِنْهُ لِيَهْرُبَ المُبْطِلُونَ عَنْهُ، وَتَتَفَتَّحَ قُلُوبُهُمْ لِلحَقِّ، فَيَلْتَزِمُوهُ.

هَذَا، وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ وَغَيرِهِمْ إلَىٰ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أنَّ حَدِيثَ إبْرَاهِيمَ فِي شَأنِ الكَوَاكِبِ مَعَ قَوْمِهِ كَانَ عَلَىٰ سَبِيلِ المُنَاظَرَةِ وَالحِوَارِ مَعَ المُشْرِكِينَ؛ لِيُقِيمَ عَلَيهِمُ الحُجَّةَ لا لِيَكْسِبَ هُدًىٰ بَعْدَ حَيرَةٍ، وَلَا لِيَسْتَفِيدَ عِلْمًا بَعْدَ شَكٍّ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»؛ قَالَ: «وَالحَقُّ أنَّ إبْرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كَانَ فِي هَذَا المَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَومِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيهِ مِنْ عِبَادَةِ الهَيَاكِلِ، وَهِيَ الكَوَاكِبُ السَّبْعَةُ المُتَحَيِّزَةُ».

ثُمَّ قَالَ: «وَكَيفَ يَكُونُ إبْرَاهِيمُ نَاظِرًا فِي هَذَا المَقَامِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ فِي حَقِّهِ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ثُمَّ استَدَلَّ بِنُصُوصِ خَلْقِ النَّاسِ عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ؛ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [الروم: ٣٠].

وَحَدِيثِ: «كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ...»[1].

وَالحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ...»[2].

ثُمَّ قَالَ: «فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ سَائِرِ الخَلِيقَةِ؛ فَكَيفَ يَكُونُ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ -الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ- نَاظِرًا فِي هَذَا المَقَامِ؟!

بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِالفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالسَّجِيَّةِ المُسْتَقِيمَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيبٍ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا المَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَومِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ لَا نَاظِرًا قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾ [الأنعام: ٨٠]». مَعَ تَصَرُّفٍ.

وَيُؤَيِّدُهُ أَيضًا مَا ذَكَرَ فِي مَطْلَعِ هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ دَعْوَةِ إِبرَاهِيمَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

إِلَىٰ التَّوحِيدِ، وَإِنْكَارِهِ مَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَصْنَامِ الَّتِي جُعِلَتْ تَمَاثِيلَ وَهَيَاكِلَ رَمْزِيَّةً لِلكَوَاكِبِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فَبَدَأَ الآيَاتِ بِالتَّوحِيدِ وَالبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ، وَخَتَمَهَا بِذَلِك، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا بِذَلِكَ مُوقِنًا بِهِ أَوَّلًا وَآخِرًا عَلَىٰ السَّوَاءِ، وَيُؤَيِّدُهُ أَيضًا قَولُهُ تَعَالَىٰ فِي خِتَامِ المُحَاجَّةِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وَرَوَىٰ ابنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ فِي هَذِهِ الآيَاتِ مَقَامُ نَظَرٍ لَا مَقَامَ مُنَاظَرَةٍ، وَاخْتَارَهُ وَاستَدَلَّ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ مَا يُفِيدُ أَنَّ ذَلِكَ حِينَ خَرَجَ إِبْرَاهِيمُ مِنَ السِّرْبِ الَّذِي وَلَدَتْهُ فِيهِ أُمُّهُ، لَمَّا خَافَتْ عَلَيهِ مِنْ نُمْرُودَ بنِ كَنْعَانَ. اهـ بِاختِصَارٍ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ قَبْلَ الرِّسَالَةِ فِي حَيرَةٍ فِي تَعْيِينِ مَنْ يَعْبُدُهُ، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ بِفِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ أَنَّ لِلعِبَادِ رَبًّا لَهُ قُدْرَةٌ وَعَظَمَتُهُ وَجَلَالُهُ وَحِكْمَتُهُ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَصْرِيفِهِ لِشُئُونِ خَلْقِهِ، فَنَظَرَ فِي السُّنَنِ الكَونِيَّةِ نَظْرَةَ اعتِبَارٍ وَاستِدْلَالٍ لِنَفْسِهِ، نَظَرَ فِي النَّجْمِ ثُمَّ الشَّمسِ لِيُخْرِجَ نَفْسَهُ مِنَ القَلَقِ وَالحَيْرَةِ إِلَىٰ العِلْمِ وَالهُدَىٰ وَالرَّشَادِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا سِمَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا الصِّفَاتِ الَّتِي تَستَحِقُّ بِهَا أَنْ تُؤَلَّهَ وَتُعْبَدَ.

وَانْتَهَىٰ بِهِ نَظَرُهُ وَاستِدْلَالُهُ لِنَفْسِهِ إِلَىٰ مَا أَعْلَنَهُ أَخِيرًا مِنَ البَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَالشُّرَكَاءِ، وَالتَّوَجُّهِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَحْدَهُ، ثُمَّ كَانَ مَقَامُ دَعْوَتِهِ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِلَىٰ التَّوحِيدِ وَمُنَاظَرَتِهِ لَهُمْ فِيمَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ الشِّرْكِ بَعْدَ الرِّسَالَةِ.

وَعَلَىٰ هَذَا يَسْتَطِيعُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ أَنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ أيضًا قُدْوَةً حَسَنَةً وَأُسْوَةً رَشِيدَةً فِي سِيرَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَفِي خَبَرِ اللهِ عَنْ مَنْهَجِهِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ، فَيَبْدَأُ بِالنَّظَرِ فِي الآيَاتِ الكَونِيَّةِ، وَالدَّلَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِيَعْلَمَ الحَقَّ فِي نَفْسِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُتبِعُ ذَلِكَ الدَّعْوَةَ إِلَيهِ؛ لِيَكُونَ فِي دَعْوَتِهِ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَبَصِيرَةٍ، فَعَلَىٰ كِلَا المَعْنَيينِ لِهَذِهِ الآيَاتِ، يَجِدُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ الحَقِّ فِي خَلِيلِ الرَّحْمَنِ مِثَالًا حَسَنًا يَحتَذِيهِ، وَمِيزَانًا عَادِلًا يَزِنُ بِهِ عَقِيدَتَهُ وَعَمَلَهُ وَدَعْوَتَهُ، وَيَقْتَفِي أَثَرَهُ فِيهِ.

إِنَّ دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَبَاهُ وَقَوْمَهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ مَعَ سَلَامَتِهَا وَقُوَّةِ استِدْلَالِهِ عَلَيهَا، وَحُسْنِ سِيَاسَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاسْتِقَامَةِ مَنْهَجِهِ فِيهَا لَمْ تَجِدْ لَدَيهِمْ قَبُولًا؛ لأَنَّ قُلُوبَهُم فِي غِلَافٍ مِنَ العِنَادِ وَالصُّدُودِ وَاللَّجَاجِ، فَلَمْ تَتفَتَّحْ لِدَعْوَةِ الحَقِّ، وَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَتقَبَّلَهَا.

وَلأَنَّ عَوَاطِفَهُمْ مُتبَلِّدَةٌ، بَلْ مَمْسُوخَةٌ قَدِ انْحَرَفَ بِهَا الهَوَىٰ، وَتَقْلِيدُ الآبَاءِ، وَتَحَكُّمُ العَادَاتِ السَّيِّئَةِ عَنِ الجَادَّةِ وَالاعْتِدَالِ، فَلَمْ تَتأَثَّرْ بِالحَقِّ وَلَمْ تَجِدْ لِنَفْسِهَا فِيهِ لَذَّةً وَلَا رَاحَةً، بَلْ ذَهَبُوا يُجَادِلُونَهُ فِي الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ، وَيُهَدِّدُونَهُ وَيُخَوِّفُونَهُ أَنْ تُصِيبَهُ آلِهَتُهُم بِسُوءٍ، فَلَا يَحْمَدُ العَاقِبَةَ، فَمَا كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام إِلَّا أَنْ ثَبَتَ عَلَىٰ الحَقِّ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ نَفْسُهُ، وَازْدَادَ إِيمَانًا بِهِ

فَأَنْكَرَ عَلَيهِمْ جِدَالَهُم إِيَّاهُ بِالبَاطِلِ، وَتَخْوِيفَهُ مِنْ خَطَرِ آلِهَتِهِم مَعَ أَنَّهَا لَا تَملِكُ لِنَفْسِهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهَا بَأْسًا.

وَهُوَ يَرْكَنُ إِلَىٰ الرُّكْنِ الرَّكِينِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَىٰ رَبِّ العَالَمِينَ، قَدْ أَخْلَصَ لَهُ قَلْبَهُ، وَأَسْلَمَ لَهُ وَجْهَهُ، وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الدَّعْوَةِ لِلحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، فَهُوَ أَحَقُّ بِالأَمْنِ وَالسَّلَامِ مِمَّنْ هَدَّدُوهُ وَخَوَّفُوهُ، لَكِنْ عَلَىٰ تَقْدِيرِ أَنْ يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ، فَهُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ ابتِلَاءً وَامْتِحَانًا اقتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَعَدْلُهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

فَعَلَيكُمْ مَعْشَرَ الدُّعَاةِ أَنْ تَثْبُتُوا عَلَىٰ الحَقِّ فِي مَيدَانِ الدَّعْوَةِ، وَأَنْ تَصْبِرُوا عَلَىٰ الأَذَىٰ، وَأَلَّا تَنْخَلِعَ قُلُوبُكُم لِكَيدِ الكَائِدِينَ، وَتَهْدِيدِ المُعْتَدِينَ، وَتَوَكَّلُوا عَلَىٰ اللهِ أُسْوَةً بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَاللهُ خَيرٌ حَافِظًا، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَحْكَمُ الحَاكِمِينَ.

لَمَّا فَاتَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنْ يُؤمِنَ بِهِ قَومُهُ، فَتَسْتَقِرَّ حَيَاتُهُ بَينَ أَظْهُرِهِمْ وَيَشْتَدَّ عَضُدُهُ بِهِم، وَتَوَلَّوْهُ بِالأَذَىٰ، وَبَلَغَ بِهِمُ الكَيدُ لَهُ أَنْ أَلْقَوهُ فِي النَّارِ، فَفَرَّ إِلَىٰ رَبِّهِ وَهَاجَرَ طَالِبًا لِدَعْوَتِهِ قَوْمًا آخَرِينَ، لَمَّا أُصِيبَ بِذَلِكَ لَمْ يَكِلْهُ اللهُ إِلَىٰ

نَفْسِهِ، وَلَمْ يَحْرِمْهُ جَزَاءَ عَمَلِهِ، فَوَهَبَ لَهُ مَنْ تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، وَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَجَعَلَهُمَا مِنْ أَنبِيَائِهِ، وَهَدَاهُمَا إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَتَتَابعَتِ النُّبوَّةُ وَالرِّسَالَةُ مِنْ بَعْدِهِ فِي ذُرِّيَّتِهِ، إِلَىٰ أَنْ خُتِمَتْ بِنُبُوَّةِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَا مَعْشَرَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ الحَقِّ، كُونُوا وَاثِقِينَ بِاللهِ، مُطْمَئِنِّينَ إِلَىٰ صَادِقِ وَعْدِهِ، مُؤَمِّلِينَ النَّصْرَ وَالخَيرَ، وحُسْنَ العَوَاقِبِ، وَلَكنْ لَابُدَّ لَكُمْ مِنَ الابْتِلَاءِ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَاشْكُروا رَبَّكُمْ عَلَىٰ مَا أَوْلَاكُم مِنَ الخَيرِ، وَاصْبِرُوا عَلَىٰ الشِّدَّةِ وَاللَّأْوَاءِ.

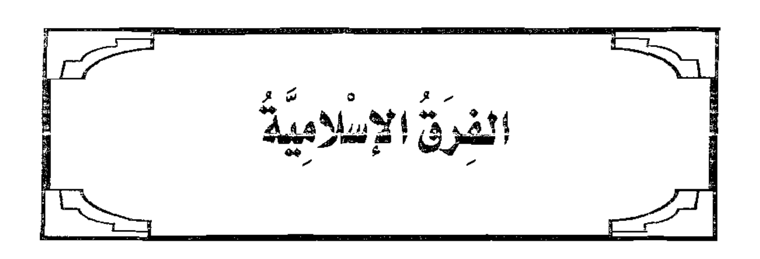
وَلِيَكُنْ لَكُم فِي خَلِيلِ الرَّحْمَنِ وَإِخْوَانِهِ الأَنْبِيَاءِ خَيرُ أُسْوَةٍ، فَقَدْ ابْتُلُوا فَصَبَرُوا وَشَكَرُوا، فَجَزَاهُمُ اللهُ خَيرَ الجَزَاءِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وَقَالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وَاللهُ المُوَفِّقُ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّم.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-:



تَمهِيدٌ:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً عَلَىٰ الحَقِّ؛ بِمَا أَودَعَ اللهُ فِيهِم مِن فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وبِما عَهِدَ إليهم مِنَ الهُدَىٰ والبَيانِ، فلمَّا طَالَ عَلَيهمُ الأَمَدُ قَسَتْ قُلُوبُهُم، فاجْتَالَتْهُمُ الشَّياطينُ عَنِ الصِّراطِ المُستَقِيمِ، وَسَلَكَتْ بِهِمْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ، فتَمزَّقَتْ وَحدَتُهُم، واختَلَفَتْ كَلِمَتُهُم.

فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة:٢١٣].

وَقَالَ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم:٣٠].

وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أو يُنَصِّرانِهِ، أَوْ

يُمجِّسانِهِ...» الحديث[(١)].

وَقَدْ أمَرَ اللهُ تَعالَىٰ فِي كُتُبِهِ، وَعَلَىٰ أَلْسِنةِ رُسُلِهِ بوحْدَةِ الكَلِمةِ، وَالاعتِصَام بِشَرْعِهِ، وَحَذَّرَ مِنَ الفُرقَةِ وَالاختِلافِ، وبَيَّنَ عَاقِبَةَ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرَ مِنْ أحوَالِ الأمَمِ المَاضِيَةِ، وَمَا حَاقَ بِهَا مِنَ الدَّمَارِ، وَأَصَابَها مِنَ الهَلَاكِ، وَحَثَّهُم عَلَىٰ البَلَاغِ وَالبيَانِ، وَالأمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهي عَنِ المُنكَرِ؛ نُصْرَةً لِلحَقِّ وإزَالَةً لِلشُّبهَةِ، وَإحبَاطًا لِكَيدِ دُعَاةِ السُّوءِ، وَاستِهوَائِهِمُ النُّفوسَ الضَّعِيفَةَ.

قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٣].

وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وعَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بليغةً، ذَرَفَتْ مِنهَا العُيونُ، ووَجِلَتْ مِنهَا القُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَأَنَّهَا مَوعِظَةُ مُوَدِّعٍ؛ فَمَاذَا تَعْهَدُ إلَينا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُم بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيكُمْ بسُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ منْ بعدِي، تمَسَّكوا بِهَا، وعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ

(١) البخاري (١٣٨٥)، واللفظ له، مسلم (٢٦٥٨).

ومُحدثَاتِ الأمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بدْعَةٌ، وكلَّ بدْعَةٍ ضَلَالةٌ»[١]. إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ وَالأحَادِيثِ.

وَمَعَ ذَلِكَ دَبَّ الخِلَافُ بَينَ النَّاسِ، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأمَمِ إلَّا وَقَد اختَلَفَتْ بِهِمُ الأهْوَاءُ؛ حَتَّىٰ وَضَعَ كُلٌّ لِنَفْسِهِ أصُولًا، عَلَيهَا يَبنِي مَذْهَبَهُ، وَإليهَا يَرْجِعُ فِي خُصُومَتِهِ، فَتَنَاقَضَتْ مَذَاهِبُهُم، وَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ حَرْبًا عَلَىٰ أخِيهِ، وَشُغِلَ بِذَلِكَ عَنْ كِتَابِ اللهِ، وَهَدْيِ رَسُولِهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ إلَّا أنَّهُ سُبحَانَهُ جَرَتْ سُنَّتُهُ، وَاقتَضَتْ حِكْمَتُهُ أنْ يُقيِّضَ لِلحَقِّ فِي كُلِّ عَصْرٍ جَمَاعَةً تَقُومُ عَلَيهِ، وتَهدِي النَّاسَ إلَيهِ؛ إنْجَازًا لِلوَعْدِ بِحفظِ دِينِهِ، وَإقَامَةً لِلحُجَّةِ، وإسقَاطًا لِلمَعَاذِيرِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]. وَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

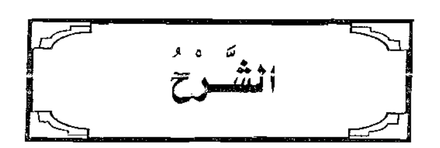
وَقَالَ ﷺ: «افْتَرَقَتِ اليَهُودُ عَلَىٰ إحْدَىٰ وَسَبعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً، وَافتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثنَتَينِ وَسَبعِينَ فِرقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً، وَسَتَفتَرِقُ هَذِهِ الأمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً».

وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنِ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثلِ مَا أنَا عَلَيهِ اليَومَ وأصْحَابِي».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦) وغيرُهم، وهو حديثٌ صحيحٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «هِيَ الجَمَاعَةُ، يَدُ اللهِ عَلَىٰ الجَمَاعَةِ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَالتِّرمِذِيُّ، والنَّسَائِيُّ، وَغَيرُهُم.



الشَّرْحُ

حَدِيثُ افتِرَاقِ الأمَّةِ وَرَدَ مِنْ طُرُقٍ عَدِيدَةٍ.

أَخْرَجَ أَبُو دَاودَ، عَنْ مُعَاوِيَةَ ﵁ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَلَا إِنَّ مَنْ قَبلكُم مِنْ أَهلِ الكِتَابِ افترَقُوا عَلَىٰ ثِنْتَينِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ إِلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحدةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ الجَمَاعةُ»[1].

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاودَ، وَالتِّرمذِيُّ عَن أَبِي هُرَيرةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «تَفرَّقتِ اليَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسبْعِينَ فِرْقَةً أَوِ اثْنَتَينِ وَسَبْعِينَ، وَالنَّصَارَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً -وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاودَ- وَتَفرَّقَت النَّصَارَىٰ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ، أَوِ اثنَتَينِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ...»[2]. وَذَكَرَ الحَدِيثَ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، عَن ابنِ عَمرِو بنِ العَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وإسناده حسنٌ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، والترمذي (٢٦٤٠)، وإسناده صحيحٌ.

«لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُم مَنْ أَتَىٰ أُمَّه عَلانِيَةً، لَيكُونَنَّ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل تَفَرَّقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَينِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَسَتَفْتَرِقُ أمَّتِي إلىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّة، كُلُّها فِي النَّارِ إلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً.

قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَىٰ مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي»(١).

وَأَخْرَجَ ابنُ مَاجَهْ مِثلَ ذَلِكَ، عَن عوفِ بنِ مَالِكٍ وأنَسٍ.

عَنْ عَوفِ بنِ مَالكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْتَرَقَتِ اليَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَت النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثنتَينِ وَسَبْعِينَ فِرقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتي عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً.

قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الجَمَاعَةُ»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي»(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ: «السَّوَادُ الأَعْظَمُ»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٩)، وهو حسنٌ لشواهده.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم فِي السنة (٦٣)، واللالكائي فِي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٤٩)، وهو حديثٌ حسنٌ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩)، والآجري فِي الشريعة (١٦)، واللالكائي فِي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٤٧)، وهو حديثٌ حسنٌ.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم فِي السنة (٦٨)، وابن نصر فِي السنة (ص١٦-١٧)، واللالكائي فِي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٥١-١٥٢)، وهو حديثٌ حسنٌ.

يُخبِرُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ عَنِ افْتِرَاقِ الأُمَمِ فِي أَدْيَانِهِم، وَأَنَّ اليَهُودَ افْتَرَقُوا عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّها فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَوفِ بنِ مَالِكٍ ﷺ، وَزَادَتِ النَّصَارَىٰ فِرقَةً، حَيثُ تَفَرَّقَتْ عَلَىٰ اثنَتَينِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتُهُ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَتَزِيدُ عَنْهُم فِرْقَةً، بِحَيثُ تَصِلُ إِلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً.

فَقَولُهُ ﷺ: «**افْتَرَقَتِ اليَهُودُ**»؛ أي: افتَرَقَتْ أَفْهَامُهُم فِي دِينِهِم، فَاتَّخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ سَبِيلًا مُغَايِرًا لِسَبِيلِ الآخَرِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ.

وَاليَهُودُ هُمُ الذِينَ يَنْتَسِبونَ فِي دِينِهِم إِلَىٰ شَرِيعَةِ مُوسَىٰ ﷺ، وَسُمُّوا يَهُودًا؛ نِسْبَةً إِلَىٰ يَهوذَا أَكْبَرُ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ ﷺ.

وَقِيلَ: لأَنَّهُم هَادُوا؛ أي: تَابُوا مِنَ اتِّخَاذِ العِجْلِ إِلَهًا.

وَقَولُهُ ﷺ: «**افْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ**»؛ أي: افتَرَقَتْ أَفْهَامُهُم فِي دِينِهِم كَذَلِكَ، وَالنَّصَارَىٰ هُمُ الَّذِينَ يَنتَسِبُونَ فِي دِينِهِم إِلَىٰ شَرِيعَةِ عِيسَىٰ ﷺ، وَسُمُّوا نَصَارَىٰ؛ لأَنَّهُم نَزَلُوا قَرْيَةً تُسَمَّىٰ النَّاصِرَةَ، وَقِيلَ: لأَنَّ مِنْهُم مَن قَالُوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ.

وَقَولُهُ ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي**». السِّينُ حَرْفُ تَسْوِيفٍ وَاسْتِقْبَالٍ؛ أي: إِنَّ

=

وحديث افتراق الأمة مخرَّجٌ في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣)، و(١٤٩٢)، وفي «ظلال الجنة» (٦٣-٦٩).

اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ افتَرَقُوا فِي المَاضِي، وَأَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ فِي المُسْتَقْبَلِ بَعْدَهُ ﷺ فِي أَفْهَامِهِم فِي الدِّينِ.

وَقَولُه: «أُمَّتِي»؛ أي: أُمَّةُ الاستِجَابَةِ، الَّذِينَ استَجَابُوا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَأَظْهَروا الاتِّبَاعَ.

إِنَّ افتِرَاقَ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا إِنَّمَا يَقَعُ جَرْيًا عَلَىٰ سَنَنِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي افتِرَاقِهِم فِي أَدْيَانِهِم، وَاقتِفَائِهِم سَنَنَهم وآثَارَهُم، وَهَذَا مِصْدَاقٌ لِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَنْكَرَ عَلَىٰ بَعْضِ أَهْلِ جَيشِهِ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ -لَمَّا مَرُّوا عَلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ يُعلِّقُونَ أَسْلِحَتَهُم عَلَىٰ شَجَرَةٍ يُقَالُ لَهَا: (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)[1]، وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا وَيَعْكُفُونَ-، قَولَهُم: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنْوَاطٍ.

فَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ ﷺ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حُنَينٍ، وَنَحْنُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَكَانُوا أَسْلَموا يومَ الفَتْحِ، قَالَ: فَمرَرْنا بِشَجرةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ -وَكَانَ لِلكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعتكِفُونَ حَوْلَها، وَيُعلِّقونَ بِهَا أَسلِحَتَهم، يَدْعُونَها ذَاتَ أَنوَاطٍ، فَلَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **اللهُ أَكبَرُ، قُلْتُمْ وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف:١٣٨]، **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم**»[2].

---

(١) **ذات أنواط**: أي: ذَاتُ تَعَالِيقَ، والنَّوط هو: التعليق.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٧٦).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَتَتَّبِعُونَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَشِبْرًا بِشِبْرٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ فِيهِ.**

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: **فَمَنْ إِذَنْ؟!**»[1].

فَإِنَّ أُمَّةَ الإِسْلَامِ سَتَتَّبِعُ سَنَنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَسَتَتَفَرَّقُ مِثْلَهُم وَيَزِيدُ حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا كُلَّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، فَسَأَلَهُ الصَّحَابَةُ: مَنْ هَذِهِ الفِرْقَةُ؟ لِيَعْرِفُوهَا وَيَعْرِفوا سَبِيلَهَا فَيَسْلُكُوهُ، فَقَالَ: «**الْجَمَاعَةُ**»، وَيَعنِي: نَفْسَهُ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ يومَهَا جَمَاعَةٌ غيرَهُم، وَيَدْخُلُ فِي الجَمَاعَةِ مَنِ اتبعَهُ وَاتَّبعَ أَصْحَابَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ.

وَقَولُهُ ﷺ: «**مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي**»؛ أي: هِيَ الَّتِي تَتَمَسَّكُ بِطَرِيقَتِي وَطَرِيقَةِ أَصْحَابِي، بِأَخْذِنَا لِلدِّينِ أُصُولِهِ وَفُروعِهِ، فَفَهْمُ الصَّحَابَةِ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حُجَّةٌ وَمِيزَانٌ لِمَنْ بَعْدَهُم؛ فَمَنِ اتَّبَعَ الصَّحَابَةَ بِأَخْذِهِم لِدِينِ الله فَهُوَ مِنَ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، وَمَن خَالَفَهُم خَرَجَ مِنَ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، وَصَارَ إِلَىٰ مَا خَالَفَهُم فِيهِ.

وَقَولُهُ ﷺ: «**السَّوادُ الأَعْظَمُ**»، فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ بِإِحْسَانٍ كَانَ مِنَ الجَمَاعَةِ، وَهُمْ يُشَكِّلُونَ السَّوَادَ الأَعْظَمَ مِنَ الأُمَّةِ؛ لأَنَّهُم الجَمَاعَةُ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٤)، وحسَّنه الألباني فِي ظلال الجنة (٧٢)، وله شاهد من حديث ابن عباس مخرَّج فِي الصحيحة (١٣٤٨).

وَأَمَّا رِوَايَةُ: «مَا أَنَا عَلَيهِ اليومَ وَأَصْحَابِي»:

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«لَيَأتِيَنَّ عَلَىٰ أُمتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلًا بِمِثْلٍ؛ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّىٰ لَو أَنَّ فِيهِمْ مَنْ نَكَحَ أُمَّه عَلَانيةً كَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَفْعَلُ مِثلَهُ.

إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقُوا عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّها فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً.

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الوَاحِدَةُ؟

قَالَ: مَا أَنَا عَلَيهِ اليومَ وَأَصْحَابِي»(١).

وَمِنْ شَوَاهِدِ الحَدِيثِ:

١ – فَقْرَةُ اتِّبَاعِ سَنَنِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ مُتَوَاتِرَةٌ.

---

(١) أَخرَجَهُ بِتَمَامِهِ التِّرمِذِيُّ فِي «سننه» (٥/ ٢٦ – طبعة أحمد شاكر)، وَالحَاكِمُ فِي «المستدرك» (١/ ١٢٨-١٢٩)، وابنُ وضاحٍ القُرطبيُّ فِي «البدعِ والنهي عنها» (ص٨٥)، والآجريُّ فِي «الشريعة» (ص١٥-١٦)، و«الأربعين» (ص٥٣-٥٤)، والعُقَيليُّ فِي «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٦٢)، وابنُ نصرٍ المروزيُّ فِي «السنة» (ص١٨)، وابنُ الجوزيِّ فِي «تلبيس إبليس» (ص٧)، واللالكائي فِي «شرح أصول اعتقاد أهل السنة الجماعة» (١٤٧)، وعبدُ القاهرِ البغداديُّ فِي «الفرق بين الفِرَق» (ص٦).

كُلُّهُم مِنْ طَرِيقِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ زِيَادٍ عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ يزيدَ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو مرفوعًا.

وَهَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ؛ لأَنَّ فِيهِ عَبدَ الرَّحمَنِ بنَ زِيَادٍ هُوَ الأَفْرِيقِيُّ ضَعِيفٌ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ.

لَكِنَّ لِلحَدِيثِ شَوَاهِدَ يَرتَقِي بِهَا إِلَىٰ دَرَجَةِ الحَسَنِ.

وَحَدِيثُ ابنِ عَبَّاسٍ المُطَابِقُ لِلشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنْ حَدِيثِ عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ دَخَلْتُم، وَحَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ ضَاجَعَ أُمَّهُ بِالطَّرِيقِ لَفَعَلْتُم**»(١).

٢- وَأَمَّا فَقْرَةُ تَفرُّقِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ كَتَفَرُّقِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَغَايَةٌ فِي الصِّحةِ.

٣- وَأَمَّا الزِّيَادَةُ المُفَسَّرَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا حَدِيثُ عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو، فَلَهَا شَوَاهِدُ:

الأَوَّلُ: حَدِيثُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً.**

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذِهِ الفِرْقَةُ؟

قَالَ: **مَا كَانَ عَلَىٰ مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي**»(٢).

الثَّانِي: حَدِيثُ عُتبَةَ بنِ غزْوَانَ المَازِنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ**

---

(١) أخرجه الحاكم فِي «المستدرك» (٤/ ٤٥٥)، والدولابي فِي «الكُنىٰ والأسماء» (٢/ ٣٠)، وابنُ نصرٍ المروزي فِي «السنةِ» (ص١٣)، والبزارُ (٣٢٨٥- كشف الأستار)؛ وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الطبراني فِي «الصغير» (١/ ٢٥٦)، والعُقيلي فِي «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٦٢)، وبَحشلٌ فِي «تاريخ واسط» (ص١٩٦).

وَرَائِكُم أيَامَ الصَّبرِ، لِلمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَومَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»(١).

الثَّالِثُ: حَدِيثُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنْتُمُ اليَومَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكِم؛ تَأْمُرونَ بِالمَعْرُوفِ، وَتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ تَظْهَرُ فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ: سَكْرَةُ الجَهْلِ، وَسَكْرَةُ حُبِّ العَيشِ، وَسَتحُولُونَ عَن ذَلِكَ فَلَا تَأْمُرونَ بِمَعْروفٍ، وَلَا تَنْهَونَ عَن مُنْكَرٍ، وَلَا تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، القَائِمُونَ يَومَئِذٍ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ صِدِّيقًا.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنَّا أَوْ مِنْهُم؟

قَالَ: لَا، بَلْ مِنكُم»(٢).

الرَّابِعُ: حَدِيثُ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِش مِنْكُم يَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُم فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، عَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٣).

---

(١) أخرجه ابنُ نصرٍ فِي «السنة» (ص٩) بإسنادٍ رجالُه ثقات، لكنَّهُ منقطِع بينَ إبراهِيمَ بنِ أبي عبْلَةَ وعُتبةَ بنِ غزوانَ.

(٢) أخرجه أبو نعيم فِي «حلية الأولياء» (٨/ ٤٩)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤٠)، والدارمي (١/ ٤٤-٤٥)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦)، والبيهقي (١٠/ ١١٤)، وابنُ حبانَ فِي

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أنَّ قَولَهُ ﷺ: «عَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ».

تَعنِي: مَا أنَا عَلَيهِ اليَومَ وَأصْحَابِي.

* * *

=

صحيحه (١/ ١٠٤).

من طريق خالدِ بنِ مَعْدَانَ حدَّثني عبدُ الرحمنِ بنُ عمرٍو عنه به مرفوعًا، وَهَذَا إسنادٌ صحيحٌ.

قَالَ المُصَنِّفُ: «وَفِي الحَدِيثِ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ...» الحَدِيثَ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَأَنَّ شِعَارَهَا كِتَابُ اللهِ، وَهَدْيُ رَسُولِهِ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَمَا كَانَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمُحْكَمِ النُّصُوصِ، وَيَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَرُدُّونَ إِلَيهِ مَا تَشَابَهَ مِنْهَا، وَأَمَّا الفِرَقُ الضَّالَّةُ؛ فَشِعَارُهَا مُفَارَقَةُ الكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الأُمَّةِ، وَاتِّبَاعُ الأَهْوَاءِ، وَشَرْعُ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ مِنَ البِدَعِ وَالآرَاءِ الزَّائِفَةِ؛ بِنَاءً عَلَىٰ أُصُولٍ وَضَعُوهَا، يُوالُونَ عَلَيهَا وَيُعَادُونَ، فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَيهَا، أَثْنَوا عَلَيهِ وَقَرَّبُوهُ، وَكَانَ فِي زَعْمِهِم مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَمَنْ خَالَفَهُم تَبَرَّءُوا مِنْهُ وَنَبَذُوهُ، وَنَاصَبُوهُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ، وَرُبَّمَا رَمَوْهُ بِالكُفْرِ وَالخُروجِ مِنْ مِلَّةِ الإِسْلَامِ؛ لِمُخَالَفَتِهِ لأُصُولِهِمُ الفَاسِدَةِ.

هَذَا؛ وَلَيسَ فِي نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يُعتَمَدُ عَلَيهِ فِي تَعْيِينِ الفِرَقِ، وَلَا بَيَانِ مَا يُرْجَعُ إِلَيهِ فِي تَمْيِيزِ بَعْضِهَا مِنْ بَعضٍ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا التَّحْذِيرُ مِنْ فِرَقِ الضَّلَالِ، وَذِكْرُ عَدَدِهِم، وَبَيَانُ شِعَارِهَا إِجْمَالًا، وَلَسْنَا بِمُكَلَّفِينَ بِتَعْيِينِهَا وَتَحْدِيدِهَا، وَلَا نَحْنُ فِي ضَرُورَةٍ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي عَقِيدَةٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ مُعَامَلَةٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ الحَقِّ، بَلْ يَكْفِينَا فِي جَمِيعِ شُئُونِنَا أَنْ يَتَمَيَّزَ لَدَينَا الحَقُّ مِنَ البَاطِلِ بِالحُجَّةِ وَالبُرْهَانِ، وَبِالحَقِّ يُعْرَفُ رِجَالُهُ وَالدُّعَاةُ إِلَيهِ، فَلَا يَعِيبُ الشَّرِيعَةَ إِنْ خَلَتْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يُنْقِصُ قَدْرَ العُلَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا صَفْحًا عَنِ استِقْصَاءِ الفِرَقِ الضَّالَّةِ

حَتَّىٰ يَبلُغُوا بِهَا مَا ذُكِرَ فِي الحَدِيثِ مِنَ العَدَدِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ حَمَلَ بَعْضَ العُلَمَاءِ حُبُّ الاستِطْلَاعِ، وَالوَلَعُ، وَالبَحْثُ، أَنْ يُصَنِّفُوا فِي تَعْيينِ الفِرَقِ، وَيَذكُروا لِكُلِّ فِرْقَةٍ مَا بِهِ تَتَمَيَّزُ عَنِ الأُخْرَىٰ؛ إِشْبَاعًا لِلرَّغْبَةِ، وَاستِجَابَةً لِدَاعِي الفِكْرِ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَبلُغُوا بِمَا جَمَعُوا، وَقَسَّمُوا، وَأَصَّلُوا، وَفَصَّلُوا مَا ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الحَدِيثِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَتَجَاوَزُوهُ، أَو يَقِفُوا دُونَهُ.

وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ المَسْأَلَةَ اجتِهَادِيَّةٌ، وَلَا خَبَرَ فِيهَا عَنِ المَعْصُومِ، تَبَايَنَتْ مَنَاهِجُهُم فِي التَّصْنِيفِ، وَاختَلَفَتْ مَذَاهِبُهُم فِي التَّعْيينِ.

فَمِنْهُم: مَنْ أَخَذَ فِي عَدِّ الفِرَقِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَبْنِيَ عَلَىٰ أَسَاسٍ، أَوْ يَسْتَنِدَ إِلَىٰ قَانُونٍ يَضْبِطُ مَا ذَكَرَ مِنْ عَدَدِ الفِرَقِ وَمَذَاهِبِهَا.

وَمِنْهُم: مَنْ أَصَّلَ أُصُولًا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا مَا سِوَاهَا، وَوَضَعَ قَوَاعِدَ تَضَمَّنَتِ المَسَائِلَ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا النِّزَاعُ، وَذَكَرَ كِبَارَ الفِرَقِ الَّتِي يَنْشَعِبُ عَنْهَا مَا عَدَاهَا، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الشَّهْرَسْتَانِيُّ فِي كِتَابِهِ: «المِلَلِ وَالنِّحَلِ».

وَإِلَيكَ كَلِمَتَهُ فِي أُصُولِ المَذَاهِبِ وَكِبَارِ الفِرَقِ، فَقَالَ:

«المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَعْيينِ قَانُونٍ يُبنَىٰ عَلَيهِ تَعْدِيدُ الفِرَقِ الإِسْلَامِيَّةِ:

اعْلَمْ أَنَّ لأَصْحَابِ المَقَالَاتِ طُرُقًا فِي تَعْدِيدِ الفِرَقِ الإِسْلَامِيَّةِ، لَا عَلَىٰ قَانُونٍ مُسْتَنِدٍ إِلَىٰ نَصٍّ، وَلَا عَلَىٰ قَاعِدَةٍ مُخْبِرَةٍ عَنِ الوجُودِ، فَمَا وَجَدْتُ

مُصَنِّفِينَ مِنْهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَىٰ مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي تَعْدِيدِ الفِرَقِ.

وَمِنَ المَعْلُومِ الَّذِي لَا مِرَاءَ فِيهِ: أَنْ لَيسَ كُلُّ مَنْ تَمَيَّزَ عَنْ غَيرِهِ بِمَقَالَةٍ مَا فِي مَسْأَلَةٍ مَا، عُدَّ صَاحِبَ مَقَالَةٍ، فَتَكَادُ تَخْرُجُ المَقَالَاتُ عَن حَدِّ الحَصْرِ وَالعَدَدِ، وَيَكُونُ مَنِ انْفَرَدَ بِمَسْأَلَةٍ فِي أَحْكَامِ الجَوْهَرِ مَثَلًا مَعْدُودًا فِي عِدَادِ أَصْحَابِ المَقَالَاتِ.

فَلَابُدَّ إِذَنْ مِنْ ضَابِطٍ فِي مَسَائِلَ هِيَ أُصُولٌ وَقَوَاعِدُ، يَكُونُ الاخْتِلَافُ فِيهَا اخْتِلَافًا يُعْتَبَرُ مَقَالَةً، وَيُعَدُّ صَاحِبُهَا صَاحِبَ مَقَالَةٍ، وَمَا وَجَدْتُ لأَحَدٍ مِنْ أَرْبَابِ المَقَالَاتِ عِنَايَةً بِتَقْرِيرِ هَذَا الضَّابِطِ، إِلَّا أَنَّهُم اسْتَرْسَلُوا فِي إِيرَادِ مَذَاهِبِ الأُمَّةِ كَيفَمَا اتَّفَقَ، وَعَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي وُجِدَ، لَا عَلَىٰ قَانُونٍ مُسْتَقِرٍّ، وَأَصْلٍ مُسْتَمِرٍّ.

فَاجْتَهَدْتُ عَلَىٰ مَا تَيَسَّرَ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَتَقَدَّرَ مِنَ التَّيسِيرِ، حَتَّىٰ حَصَرْتُهَا فِي أَرْبَعِ قَوَاعِدَ؛ هِيَ: الأُصُولُ الكِبَارُ.

القَاعِدَةُ الأُوْلَىٰ: الصِّفَاتُ، وَالتَّوحِيدُ فِيهَا: وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَسَائِلِ الصِّفَاتِ الأَزَلِيَّةِ، إِثبَاتًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَنَفْيًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَبَيَانُ صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الفِعْلِ، وَمَا يَجِبُ للهِ تَعَالَىٰ وَمَا يَجُوزُ عَلَيهِ، وَمَا يَسْتَحِيلُ، وَفِيهَا الخِلَافُ بَينَ الأَشْعَرِيَّةِ، وَالكَرَّامِيَّةِ، وَالمُجَسِّمَةِ، وَالمُعْتَزِلَةِ.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: القَدَرُ، وَالعَدْلُ:

وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَسَائِلَ: القَضَاءُ، وَالقَدَرُ، وَالجَبْرُ، وَالكَسْبُ فِي إِرَادَةِ الخَيرِ وَالشَّرِّ، وَالمَحْذُورُ، وَالمَعْلُومُ، إِثبَاتًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَنَفْيًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ،

وَفِيهَا الخِلَافُ بَينَ القَدَرِيَّةِ، وَالنَّجَّارِيَّةِ، وَالجَبْرِيَّةِ، وَالأَشْعَرِيَّةِ، وَالكَرَّامِيَّةِ.

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: الوَعْدُ، وَالوَعِيدُ، وَالأَسْمَاءُ، وَالأَحْكَامُ:

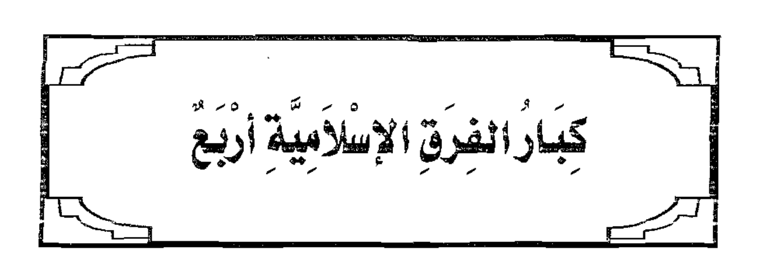
وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَسَائِلَ: الإِيمَانُ، وَالتَّوبَةُ، وَالوَعِيدُ، وَالإِرْجَاءُ، وَالتَّكْفِيرُ، وَالتَّضْلِيلُ إِثبَاتًا عَلَىٰ وَجْهٍ عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَنَفيًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَفِيهَا الخِلَافُ بَينَ المُرْجِئَةِ، وَالوَعِيدِيَّةِ، وَالمُعْتَزِلَةِ، وَالأَشْعَرِيَّةِ، وَالكَرَّامِيَّةِ.

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: السَّمْعُ، وَالعَقْلُ، وَالرِّسَالَةُ، وَالأَمَانَةُ:

وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَسَائِلَ: التَّحْسِينُ وَالتَّقْبِيحُ، وَالصَّلَاحُ وَالأَصْلَحُ، وَاللُّطْفُ، وَالعِصْمَةُ فِي النُّبُوَّةِ، وَشَرَائِطُ الإِمَامَةِ نَصًّا عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَإِجْمَاعًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ، وَكَيفِيَّةُ انتِقَالِهَا عَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ قَالَ بِالنَّصِّ، وَكَيفِيَّةُ إِثْبَاتِهَا عَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ قَالَ بِالإِجْمَاعِ، وَالخِلَافُ فِيهَا بَينَ الشِّيعَةِ، وَالخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالكَرَّامِيَّةِ، وَالأَشْعَرِيَّةِ.

فَإِذَا وَجَدْنَا انْفِرَادَ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الأُمَّةِ بِمَقَالَةٍ مِنْ هَذِهِ القَوَاعِدِ؛ عَدَدْنَا مَقَالَتَهُ مَذْهَبًا، وَجَمَاعَتَهُ فِرْقَةً، وَإِنْ وَجَدْنَا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِمَسْأَلَةٍ، فَلَا نَجْعَلُ مَقَالَتَهُ مَذْهَبًا، وَجَمَاعَتَهُ فِرْقَةً، بَلْ نَجْعَلُهُ مُنْدَرِجًا تَحْتَ وَاحِدَةٍ مِمَّنْ وَافَقَ سِوَاهَا مَقَالَتُهُ، وَرَدَدْنَا بَاقِيَ مَقَالَتِهِ إِلَىٰ الفُروعِ الَّتِي لَا تُعَدُّ مَذْهَبًا مُفْرَدًا، فَلَا تَذْهَبُ المَقَالَاتُ إِلَىٰ غَيرِ النِّهَايَةِ، وَإِذَا تَعَيَّنَتِ المَسَائِلُ الَّتِي هِيَ قَوَاعِدُ الخِلَافِ؛ تَبَيَّنَتْ أَقْسَامُ الفِرَقِ، وَانْحَصَرَتْ كِبَارُهَا فِي أَرْبَعٍ بَعْدَ أَنْ تَدَاخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ.

❊ ❊ ❊



كِبَارُ الفِرَقِ الإِسْلَامِيَّةِ أَرْبَعٌ

القَدَرِيَّةُ، الصِّفَاتِيَّةُ، الخَوَارِجُ، الشِّيعَةُ: ثُمَّ يَتَرَكَّبُ بَعضُهَا مَعَ بَعْضٍ، وَيَتَشَعَّبُ عَنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أصنَافٌ، فَتَصِلُ إِلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً.

وَلِأَصْحَابِ كُتُبِ المَقَالَاتِ طَرِيقَانِ فِي التَّرْتِيبِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُم وَضَعُوا المَسَائِلَ أُصُولاً ثُمَّ أَوْرَدُوا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ: مَذْهَبَ طَائِفَةٍ طَائِفَةٍ، وَفِرْقَةٍ فِرْقَةٍ.

وَالآخَرُ: أَنَّهُم وَضَعُوا الرِّجَالَ وَأَصْحَابَ المَقَالَاتِ أُصُولاً، ثُمَّ أَوْرَدُوا مَذَاهِبَهُم فِي مَسْأَلَةٍ مَسْأَلَةٍ.

وَتَرْتِيبُ هَذَا المُختَصَرِ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ الأَخِيرَةِ؛ لأَنِّي وَجَدْتُهَا أَضْبَطَ لِلأَقسَامِ وَأَلْيَقَ بِأَبْوَابِ الحِسَابِ، وَشَرْطِي عَلَىٰ نَفْسِي أَنْ أُورِدَ مَذْهَبَ كُلِّ فِرْقَةٍ عَلَىٰ مَا وَجَدْتُهُ فِي كُتُبِهِم مِنْ غَيرِ تَعَصُّبٍ لَهُمْ، وَلَا كَسْرٍ عَلَيهِم، دُونَ أَنْ أُبَيِّنَ صَحِيحَهُ مِنْ فَاسِدِهِ، وَأُعَيِّنَ حَقَّهُ مِنْ بَاطِلِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ الأَفْهَامِ الذَّكِيَّةِ فِي مَدَارِجِ الدَّلَائِلِ العَقْلِيَّةِ لَمَحَاتُ الحَقِّ، وَنَفَحَاتُ البَاطِلِ»[1]. اهـ

---

(١) «الملل والنحل» (١/ ١٢-١٤).

وَمَهْمَا يَكُنِ المَنْهَجُ الَّذِي سَلَكَهُ مَنْ أَلَّفَ فِي الفِرَقِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَأَيًّا كَانَ اجتِهَادُهُم فِي تَعْيينِ الفِرَقِ، وَتَمْييزِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ؛ لِتبلُغَ العَدَدَ الَّذِي وَرَدَ فِي الحَدِيثِ، فَلَنْ يُبَرِّئَهُم مَا وَضَعُوا مِنَ الأُصُولِ وَالضَّوَابِطِ مِنْ مَعَرَّةِ التَّكَلُّفِ، وَلَنْ يَعْصِمَهُم مِنْ مَزَالِقِ التَّخْمِينِ، وَمَا يُوَجَّهُ إِلَيهِم مِنْ طَعَنَاتِ النُّقَّادِ.

فَإِنَّ النُّصُوصَ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَىٰ حُدُوثِ الفِرَقِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَبَيَّنَتْ عَدَدَ الفِرَقِ إِجْمَالًا؛ لَمْ تَخُصَّ بِحُدُوثِ الفِرَقِ عَهْدًا دُونَ عَهْدٍ، وَالأُمَّةُ لَا تَزَالُ تَتَتَابَعُ أَجيَالُهَا، وَتَختَلِفُ آرَاؤُهَا، وَالمُستَقْبَلُ غَيبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ البِدَعِ، وَمَذَاهِبِ الضَّلَالِ مَا لَيسَ فِي الحُسْبَانِ؛ مِمَّا لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ إِلَىٰ مَذَاهِبِ الفِرَقِ الأُولَىٰ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا وَصَفتُ؛ كَانَ تَعْيينُ الفِرَقِ رَجْمًا بِالغَيبِ وَاقتِحَامًا لِمَتَاهَاتٍ، لَا تَزِيدُ مَنْ رَمَىٰ بِنَفسِهِ فِيهَا إِلَّا حَيرَةً.

مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّكَلُّفِ فِي ضَمِّ بَعضِ الفِرَقِ إِلَىٰ بَعْضٍ بِإِلْغَاءِ ضَرْبٍ مِنَ الخِلَافِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَتَجَاوَزَ العَدَدُ مَا ذُكِرَ فِي الحَدِيثِ، أَوْ جَعْلِ الوَاحِدَةِ فِرقَتَينِ بِاعتِبَارِ نَوعٍ مِنَ الخِلَافِ؛ حَذرًا أَنْ يَنْقُصَ العَدَدُ عَمَّا ذُكِرَ فِي الحَدِيثِ.

إِلَّا أَنَّ التَأْصِيلَ، وَوَضْعَ القَوَاعِدِ عَلَىٰ النَّحوِ الَّذِي صَنَّفَهُ «الشَّهرستَانِيُّ» وَغَيرُهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ الضَّبْطِ، وَأَسْرَعُ لِلفَهْمِ وَالتَّحصِيلِ، وَأَبْعَدُ عَنْ نَشْرِ الكَلَامِ، وَأَدخَلُ فِي صِنَاعَةِ التَّأْلِيفِ؛ لِذَلِكَ اكتَفَيتُ بِذِكْرِ أُصُولِ الفِرَقِ الكِبَارِ مَعَ مُرَاعَاةِ تَرْتِيبِهَا حَسَبَ حُدُوثِهَا مِنْ غَيرِ استِقْصَاءٍ، أَوْ مُحَاوَلَةِ بُلُوغِ العَدَدِ المَذْكُورِ

فِي الحَدِيثِ، وَذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنَ الفِرَقِ المَشْهُورَةِ الَّتِي تَشَعَّبَتْ عَنْهَا، مَعَ بَيَانِ شَيءٍ مِمَّا يَتَمَيَّزُ بِهِ كُلٌّ مِنْهَا.

الخَوَارِجُ:

خَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَىٰ الخَلِيفَةِ الثَّالِثِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ؛ لأمُورٍ نَقَمُوهَا مِنْهُ، وَأَحْدَاثٍ أَنْكَرُوهَا عَلَيهِ، وَمَا زَالَ بِهِمُ اللَّجَاجُ فِي الخُصُومَةِ مَعَهُ حَتَّىٰ قَتَلُوهُ.

وَلَمَّا انتَهَتِ الخِلَافَةُ إِلَىٰ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ كَانَ مِمَّنْ اختَلَفَ عَلَيهِ، وَقَاتَلَهُ: طَلْحَةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ القُرَشِيُّ، وَالزُّبَيرُ بنُ العَوَّامِ، فَأَمَّا الزُّبَيرُ فَقَتَلَهُ ابنُ جُرْمُوزٍ، وَأَمَّا طَلْحَةُ فَرَمَاهُ مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَكَانَتْ مَعَهُمَا عَائِشَةُ رضي الله عنها عَلَىٰ جَمَلٍ لَهَا، وَلَكِنَّهَا رَجَعَتْ سَالِمَةً مُكَرَّمَةً لَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيهَا أَحَدٌ، وَتُسَمَّىٰ هَذِهِ المَوْقِعَةُ بـ «مَوْقِعَةِ الجَمَلِ» (٣٦هـ).

وَاختَلَفَ عَلَىٰ عَلِيٍّ أَيضًا مُعَاوِيَةُ وَمَنْ تَبِعَهُ رضي الله عنه وَدَارَتِ الحَرْبُ بَينَ الفَرِيقَينِ فِي صِفِّين؛ حَتَّىٰ كَانَ التَّحكِيمُ الَّذِي زَادَ الفِتْنَةَ اشتِعَالًا، وَدَبَّ الخِلَافُ فِي جَيشِ عَلِيٍّ، وَخَرَجَ عَلَيهِ مِمَّن كَانَ مِنْ أَنْصَارِهِ فِرْقَةٌ تُعْرَفُ بِالحَرُورِيَّةِ(١)، وَبِالشُّرَاةِ(٢).

---

(١) نسبوا إلىٰ مكان بالعراق يقال له: حَرُورَاء؛ لأنهم لما خرجوا عَلَىٰ عليٍّ رضي الله عنه وجماعة الصحابة رضي الله عنهم انحازوا إلىٰ ذَلِكَ المكان.

(٢) لُقِّبوا بذلك لأنهم زعموا أنهم يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله فِي قتالهم المسلمين.

وَاشْتَهَرَتْ بِاسْمِ الخَوَارِجِ[(١)].

وَحَدِيثُ العُلَمَاءِ فِي الفِرَقِ الإِسْلَامِيةِ عَنِ الخَوارِجِ، إِنَّمَا هُوَ عَن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَىٰ عَلِيٍّ ﷺ مِنْ أَجْلِ التَّحْكِيمِ، أَمَّا طَلْحَةُ، وَالزُّبَيرُ، وَمُعَاوِيَةُ، وَمَنْ تَبِعَهُم، فَلَمْ يُعْرَفُوا عِنْدَ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ بِهَذَا الاسْمِ.

ثُمَّ صَارَتْ كَلِمَةُ الخَوَارِجُ تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ خَرَجَ عَلَىٰ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، اتَّفَقَتِ الجَمَاعَةُ عَلَىٰ إِمَامَتِهِ فِي أَيِّ عَصْرٍ مِنَ العُصُورِ دُونَ أَنْ يَأْتِيَ ذَلِكَ الإِمَامُ بِكُفْرٍ ظَاهِرٍ لَيسَ لَهُ عَلَيهِ حُجَّةٌ، وَإِذَنْ فَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ هَذِهِ البِدْعَةَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ: الجَمَاعَةُ الَّتِي خَرَجَتْ عَلَىٰ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ (سنة ٣٩هـ).

وَأَشَدُّهُم فِي التَّمَرُّدِ، وَالخُروجِ عَلَيهِ: الأَشْعَثُ بنُ قَيسٍ، وَمِسْعَرُ بنُ فَدَكِيٍّ التَّمِيمِيُّ، وَزَيدُ بنُ حُصَينٍ الطَّائِيُّ، وَالذِي دَعَاهُمْ إِلىٰ ذَلِكَ مَسْأَلَةُ التَّحْكِيمِ المَشْهُورَةُ فِي التَّارِيخِ، وَرِضَا المَلومَةِ بِهِ؛ مَعَ أَنَّهُم هُمُ الَّذِينَ أَمَرُوهُ بِهِ، وَاضْطَرُّوهُ إِلَيهِ، ثُمَّ أَنْكَروهُ عَلَيهِ. فَقَالُوا: لِمَ حَكَّمْتَ الرِّجَالَ، لَا حَكَمَ إِلَّا اللهُ؟

وَرُءُوسُهُم سِتَّةٌ: الأَزَارِقَةُ[(٢)]، وَالنَّجَدَاتُ[(٣)]، وَالصُّفْرِيَّةُ[(٤)] ....

---

(١) سُمُّوا بذلك لأنَّ النبي ﷺ وصفهم بأنهم: «يخرجون عَلَىٰ حين فُرقةٍ من المسلمين»؛ ولأنهم يخرجون عَلَىٰ أئمة المسلمين وَعَلَىٰ جماعتهم بالاعتقاد والسيف.

وهذا وصفٌ عامٌّ لكل من سلك سبيلهم إلىٰ يوم القيامة.

(٢) أصحاب نافع بن الأزرق.

(٣) أصحاب نجدة بن عامر الحنفي.

(٤) أصحاب زياد بن الأصفر.

وَالعَجَارِدَةُ[1]، وَالإِبَاضِيَّةُ[2]، وَالثَّعَالِبَةُ[3]، وَعَنْهَا تَتَفَرَّعُ فِرَقُهُم.

وَمِنْ أُصُولِهِم الَّتِي اشْتَرَكَتْ فِيهَا فِرَقُهُم: البَرَاءَةُ مِنْ عَلِيٍّ، وَعُثْمَانَ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيرِ، وَعَائِشَةَ، وَابنِ عَبَّاسٍ ﷺ وَتَكْفِيرُهُم.

وَالقَولُ بِأَنَّ الخِلَافَةَ لَيسَتْ فِي بَنِي هَاشِمٍ فَقَطْ، كَمَا تَقُولُ الشِّيعَةُ، وَلَا فِي قُرَيشٍ فَقَطْ، كَمَا يَقُولُ أَهْلُ السُّنَّةِ، بَلْ فِي الأُمَّةِ عَرَبِهَا وَعَجَمِهَا، فَمَنْ كَانَ أَهْلًا لَهَا عِلْمًا وَاسْتِقَامَةً فِي نَفْسِهِ، وَعَدَالَةً فِي الأُمَّةِ جَازَ أَنْ يُختَارَ إِمَامًا لِلمُسْلِمِينَ.

وَالخُرُوجُ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الجَورِ، وَكُلِّ مَنِ ارْتَكَبَ مِنْهُمْ كَبِيرَةً، وَلِذَلِكَ سُمُّوا بـ: «الخَوَارِجِ».

وَالإِيمَانُ عِنْدَهُم: عَقِيدَةٌ، وَقَولٌ، وَعَمَلٌ.

وَقَدْ وَافَقُوا فِي هَذَا أَهْلَ السُّنَّةِ فِي الجُمْلَةِ، وَخَالَفُوا غَيرَهُم مِنَ الطَّوَائِفِ.

وَمِنْ أُصُولِهِم أَيضًا: التَّكْفِيرُ بِالكَبَائِرِ، فَمَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً فَهُوَ كَافِرٌ، وَتَخْلِيدُ مَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً فِي النَّارِ إِلَّا النَّجَدَاتِ فِي الأَخِيرَينِ؛ وَلِذَا سُمُّوا «وَعِيدِيَّةً».

وَمِنْ أُصُولِهِم أَيضًا:

القَولُ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَإِنْكَارُ أَنْ يَكُونَ اللهُ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَظْلِمَ، وَتَوَقُّفُ

---

(١) أصحاب عبد الكريم بن عجرد.

(٢) أصحاب عبد الله بن إباضٍ.

(٣) أصحاب ثعلبة بن عامر.

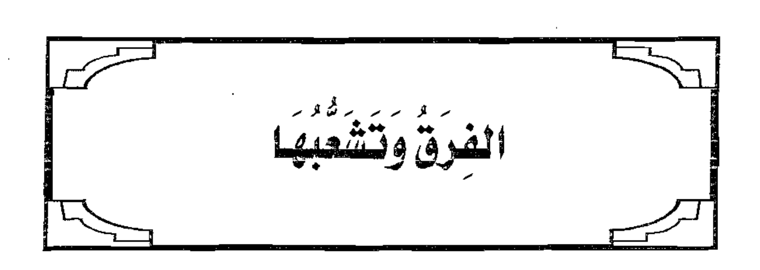
التَّشْرِيعِ وَالتَّكْلِيفِ عَلَىٰ إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَتَقْدِيمُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَىٰ العَقْلِ عَلَىٰ تَقْدِيرِ التَّعَارُضِ، فَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي هَذِهِ الأُصُولِ فَهُوَ مِنْهُم، وَإِنْ خَالَفَهُم فِي غَيرِهَا، وَمَنْ وَافَقَهُم فِي بَعضِهَا، فَفِيهِ مِنْهُم بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَقَد اجتَمَعُوا بِحَرُورَاءَ بِرِئَاسَةِ عَبْدِ اللهِ بنِ الكَوَّاءِ، وَعَتَّابِ بنِ الأَعْوَرِ، وَعَبْدِ اللهِ بنِ وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ، وَعُروةَ بنِ حُدَيرٍ، وَيَزِيدَ بنِ عَاصِمٍ المُحَارِبِيِّ، وَحُرْقُوصِ بنِ زُهَيرٍ -المَعْرُوفِ بـ: «ذي الثُّدَيَّةِ»-، وَكَانُوا فِي اثنَي عَشَرَ أَلْفِ رَجُلٍ فَقَاتَلَهُم عَلِيٌّ يومَ النَّهْرَوَانِ، فَمَا نَجَا مِنْهُم إِلَّا أَقَلُّ مِنْ عَشْرَةٍ، فَرَّ مِنْهُمُ اثنَانِ إِلَىٰ عُمَانَ، وَاثنَانِ إِلَىٰ كِرْمَانَ، وَاثنَانِ إِلَىٰ سِجِسْتَانَ، وَاثنَانِ إِلَىٰ الجَزِيرَةِ[1]، وَوَاحِدٌ إِلَىٰ مُوزَنَ[2]، فَظَهَرَتْ بِدَعُ الخَوَارِجِ فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ.

وَأَوَّلُ مَنْ بُويِعَ مِنْهُم بِالخِلَافَةِ عَبْدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ، فَتَبَرَّأَ مِنَ الحَكَمَينِ، وَمِمَّنْ رَضِيَ بِهِمَا، وَكَفَّرَ هُوَ وَمَنْ بَايَعَهُ عَلِيًّا لِتَحكِيمِهِ الرِّجَالَ، وَرِضَاهُ بِذَلِكَ.

* * *

(١) تلٌّ بين دجلة والفرات.

(٢) بفتح الزاي، وقياسه في العربية كسرها؛ بلدة قديمة بين رأس عين وسُروج.



الأَزَارِقَةُ:

هُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الخَوارِجِ يُنْسَبُونَ إِلَىٰ أَبِي رَاشِدٍ نَافِعِ بنِ الأَزْرَقِ، خَرَجَ آخِرَ أَيَّامِ يَزِيدَ بنِ مُعَاوِيَةَ، وَمَاتَ (٦٥هـ) وَبَايَعَ الأَزَارِقَةُ مِنْ بَعْدِ موتِه قَطَرِيَّ ابنَ الفُجَاءَةِ، وَسَمَّوْهُ بِأَمِيرِ المُؤمِنِينَ.

وَمِنْ بِدَعِهِمْ: تَصْوِيبُ قَاتِلِ عَلِيٍّ -عَبدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُلْجَمٍ-.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عِمْرَانُ بنُ حِطَّانَ مُفْتِي الخَوَارِجِ:

يَا ضَرْبَةً مِنْ مُنِيبٍ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانَا

إِنِّي لأَذْكُرُهُ يَومًا فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفَىٰ البَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا

وَمِنْهَا: تَكْفِيرُ مَنْ قَعَدَ عَنِ الجِهَادِ مَعَهُم، وَتَكْفِيرُ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ إِلَيهِم، وَإِسْقَاطُ الرَّجْمِ لِعَدَمِ وُجُودِهِ فِي القُرْآنِ، وَإِسقَاطُ الحَدِّ عَمَّن قَذَفَ المُحْصَنِينَ دُونَ المُحْصَنَاتِ، وَعَدَمُ جَوَازِ التَّقِيَّةِ فِي قَولٍ أَوْ عَمَلٍ، وَإِبَاحَةُ قَتلِ أَطْفَالِ المُخَالِفِينَ لَهُمْ وَنِسَائِهِم، وَعَدمُ أَدَاءِ الأَمَانَةِ لِمَنْ خَالَفَهُمْ.

النَّجَدَاتُ العَاذِرِيَّةُ:

يُنْسَبُونَ إِلَىٰ نَجْدَةَ بنِ عَامِرٍ الحَنَفِيِّ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ: أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ

اليَمَامَةِ مَعَ عَسْكَرِهِ يُرِيدُ اللُّحُوقَ بِالأَزَارِقَةِ، فَاستَقْبَلَهُ أَبُو فُدَيكٍ، وَعَطِيَّةُ بنُ الأَسْوَدِ الحَنَفِيُّ فِي الجَمَاعَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عَلَىٰ نَافِعِ بن الأَزْرَقِ بِدَعَهُ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا أَحْدَثَهُ مِنْ تَكْفِيرِ القَعَدَةِ عَنِ القِتَالِ مَعَهُ، وَغيرِ ذَلِكَ مِنْ بِدَعِهِ، فَكَتَبَ إِلَيهِ يَنْصَحُ لَهُ، فَلَمَّا أَبَىٰ نَافِعٌ أَنْ يَرْجِعَ، بَايَعَهُ عَلَىٰ الإِمَامَةِ أَبُو فُدَيكٍ، وَعَطِيَّةُ، وَمَنْ مَعَهُمَا وَسَمَّوهُ بِأَمِيرِ المُؤمِنِينَ.

وَمِنْ بِدَعِهِم: جَوَازُ التَّقيَّةِ فِي القَولِ وَالعَمَلِ، وَتَنَاصُفُهُم فِيمَا بَينَهُم بِلَا إِمَامٍ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ إِلَّا بِإِمَامٍ جَازَ لَهُم أَنْ يُقِيمُوهُ.

وَسُمُّوا بِالعَاذِرِيَّةِ؛ لأَنَّهُم يَعْذِرُونَ مَنْ أَخْطَأَ فِي أَحكَامِ الفُرُوعِ لِجَهَالَتِهِ دُونَ مَنْ أَخْطَأَ فِي الأُصُولِ: كَمَعْرِفَةِ اللهِ، وَرُسُلِهِ، وَالإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللهِ جُمْلَةً.

وَلَمْ يَلْبَثْ أَبُو فُدَيكٍ وَعَطِيَّةُ أَنِ اختَلَفَا عَلَيهِ، وَقَتَلَهُ أَبُو فُدَيكٍ، ثُمَّ اختَلَفَ أَبُو فُدَيكٍ وَعَطِيَّةُ، وَبَرِئَ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنَ الآخَرِ، وَصَارَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا أَتْبَاعٌ، وَسُمِّي أَتْبَاعُ أَبِي فُدَيكٍ: فُدَكِيَّةً، وَأَتْبَاعُ عَطِيَّةَ: العَطَوِيَّةَ.

وَقَد أَرْسَلَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوَانَ عُثْمَانَ بنَ عُبَيدِ اللهِ بنِ مَعْمَرٍ إِلَىٰ أَبِي فُدَيكٍ، فَحَارَبَهُ أَيَّامًا، وَقَتَلَهُ، وَفَرَّ عَطِيَّةُ إِلَىٰ أَرْضِ «سِجِسْتَانَ».

العَجَارِدَةُ:

هُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الخَوَارِجِ يُنْسَبُونَ إِلَىٰ عَبدِ الكَرِيمِ بنِ عَجْرَدٍ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَطِيَّةَ بنِ الأَسْوَدِ الحَنَفِيِّ.

وَمِنْ بِدَعِهِمْ: البَرَاءَةُ مِنَ الأطْفَالِ حَتَّىٰ يُدْعَوْا إِلَىٰ الإسْلَامِ عِنْدَ بُلُوغِهِم.

وَمِنْ بِدَعِهِم أيضًا: أَنَّ سُورَةَ يُوسُفَ لَيسَتْ مِنَ القُرْآنِ، وَأَنَّهُم يَتَوَلَّونَ القَعَدَةَ، وَيَرَوْنَ الهِجْرَةَ فَضْلَةً لَا فَرْضًا.

وَقَدِ افْتَرَقَتِ العَجَارِدَةُ فِرَقًا كَثِيرَةً:

منها: المَيمُونِيَّةُ: أَتْبَاعُ مَيمُونِ بنِ خَالِدٍ، وَهُوَ عَلَىٰ مَذْهَبِ المُعْتَزِلَةِ فِي القَدَرِ.

وَمِنْ بِدَعِهِ أيضًا: جَوَازُ نِكَاحِ بَنَاتِ البَنَاتِ وَالبَنِينَ، وَبَنَاتِ أَوْلَادِ الإِخْوَةِ وَالأخَوَاتِ.

وَمِنهَا: الحَمْزِيَّةُ: أَتْبَاعُ حَمْزَةَ بنِ أَدْرَك[1]، ثَبَتُوا عَلَىٰ قَولِ مَيمُونٍ فِي القَدَرِ، وَقَالُوا بِجَوَازِ إِمَامَينِ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ مَا لَمْ تَجْتَمِعِ الكَلِمَةُ، أَوْ تُقْهَرِ الأَعْدَاءُ.

وَمنها: الأَطْرَافِيَّةُ: فِرْقَةٌ مِنَ الحَمْزِيَّةِ رَئِيسُهُم غَالِبُ بنُ شَاذَانَ السِّجِسْتَانِيُّ، سُمُّوا أَطْرَافِيَّةً؛ لأَنَّهُم يَعْذِرُونَ أَصْحَابَ الأَطْرَافِ فِي تَرْكِ مَا لَمْ يَعْرِفُوهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، إِذَا أَتَوا بِمَا عَرَفُوهُ بِالعَقْلِ، وَمَذْهَبُهُم: كَالعَاذِرِيَّةِ فِي تَحْكِيمِ العَقْلِ.

وَمنها: الشُّعَيْبِيَّةُ: أَصْحَابُ شُعَيبِ بنِ مُحَمَّدٍ الَّذِي تَبَرَّأَ مِنْ مَيمُونٍ لَمَّا أَظْهَرَ القَدَرَ.

---

(١) وقيل: أكرك.

وَمنها: الخَازِمِيَّةُ: أَصْحَابُ خَازِمِ بنِ عَلِيٍّ، كَانَ عَلَىٰ قَولِ شُعَيبٍ فِي القَدَرِ.

الثَّعَالِبَةُ:

هُمْ أَصْحَابُ ثَعْلَبَةَ بنِ عَامِرٍ كَانَ مَعَ عَبدِ الكَرِيمِ بنِ عَجْرَدٍ يَدًا وَاحِدَةً إِلَىٰ أَنِ اختَلَفَا فِي أَمْرِ الطِّفْلِ، فَقَالَ ثَعْلَبَةُ بِوِلَايَتِهِ حَتَّىٰ نَرَىٰ مِنْهُ إِنْكَارًا للحَقِّ، وَرِضًا بِالجَورِ، فَتَبَرَّأَتِ العَجَارِدَةُ مِنْ ثَعْلَبَةَ، وَنُقِلَ عَنْهُ -أيضًا- أَنَّهُ لَا يُحْكَمُ فِي الطِّفْلِ بِشَيءٍ حَتَّىٰ يَبلُغَ، وَيُدْعَىٰ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابَ فَبِهَا، وَإِلَّا كَفَر!!

وَقَدِ افْتَرَقَتِ الثَّعَالِبَةُ فِرَقًا كَثِيرَةً، مِنْهَا: «الشَّيبَانِيَّةُ»، وَهُمْ أَتْبَاعُ شَيبَانَ ابنِ سَلَمَةَ، خَرَجَ أَيَّامَ أَبِي مُسْلِمٍ الخُرَاسَانِيِّ، وَأَعَانَهُ عَلَىٰ نَصْرِ بنِ سَيَّارٍ وَالِي خُرَاسَانَ مِنْ قِبَلِ هِشَامٍ، وَقَتَلَ أَنَاسًا مِمَّنْ يُوَافِقُونَ فِي المَذْهَبِ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُم، فَبَرِئَتْ مِنْهُ الثَّعَالِبَةُ، وَلَمَّا قُتِلَ أُخْبِروا بِتَوبَتِهِ، فَلَمْ يَقْبَلُوهَا؛ لأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ المَظَالِمَ، وَلَمْ يُنْصِفْ أَوْلِيَاءَ الدَّمِ.

وَمِنْ بِدَعِهِمْ: تَشْبِيهُ اللهِ بِخَلْقِهِ، وَمُوَافَقَةُ جَهْمٍ فِي قَولِهِ بِالجَبْرِ، وَاعتِقَادُ أَنَّ الوِلَايَةَ وَالعَدَاوَةَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الذَّاتِيَّةِ، لَا مِنْ صِفَاتِ الفِعْلِ.

وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ تَوبَةَ شَيبَانَ يُسَمَّونَ بِـ: «الزِّيَادِيَّة» نِسبَةً لِرَئِيسِهِم زِيَادِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

وَمنها: الرُّشَيْدِيَّةُ: أَتْبَاعُ رُشَيدٍ الطُّوسِيِّ.

وَمِنْ بِدَعِهِمْ: إِخْرَاجُ نِصْفِ العُشْرِ زَكَاةً لِمَا سُقِيَ بِالأَنْهَارِ.

وَمنها: المُكْرَمِيَّةُ: أَصْحَابُ أَبِي مُكْرَمِ بنِ عَبْدِ اللهِ العِجْلِيِّ.

وَمِنْ مَقَالَتِهِ: تَكْفِيرُ تَارِكِ الصَّلَاةِ لِجَهْلِه بِرَبِّهِ، وَغَفْلَتِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَعَدَمِ مُبَالَاتِهِ بِالتَّكْلِيفِ، وَقَالُوا بِإِيمَانِ المُوَافَاةِ، بِمَعنَىٰ أَنَّ اللهَ يُوَالِي عِبَادَهُ، وَيُعَادِيهِم عَلَىٰ مَا يُوَافُونَهُ بِهِ عِنْدَ المَوتِ مِنْ خَيرٍ أَوْ شَرٍّ، لَا عَلَىٰ أَعْمَالِهِم قَبْلَ ذَلِكَ.

وَمنها: المَعْلُومِيَّةُ، وَالمَجْهُولِيَّةُ: وَهُمَا فِي الأَصْلِ مِنَ الخَازِمِيَّةِ.

فَالمَعْلُومِيَّةِ قَالَتْ: لَا يَكُونُ العَبْدُ مُؤمِنًا حَتَّىٰ يَعْرِفَ اللهَ بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَقَالُوا: فِعْلُ العَبْدِ مَخْلُوقٌ لَهُ، فَبَرِئَتْ مِنْهُمُ الخَازِمِيَّةُ.

وَالمَجْهُولِيَّةُ قَالَتْ: مَنْ عَلِمَ البَعْضَ، وَجَهِلَ البَعْضَ كَانَ مُؤمِنًا.

الإِبَاضِيَّةُ:

هُمْ أَتْبَاعُ عَبدِ اللهِ بنِ إِبَاضٍ التَّمِيمِيِّ، الَّذِي خَرَجَ أَيَّامَ مَرْوَانَ بنِ مُحَمَّدٍ آخِرِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ.

قَالَ: إِنَّ مُخَالِفِينَا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ كُفَّارٌ غَيرُ مُشْرِكِينَ، وَأَبَاحَ مُنَاكَحَتَهُم وَمُوَارَثَتَهُم، وَأَبَاحَ غَنِيمَةَ أَمْوَالِهِم مِنَ السِّلَاحِ، وَالكُرَاعِ[1] عِنْدَ الحَرْبِ لَا غَيرَ.

---

(١) مِنَ الغَنَمِ وَالبَقَرِ: مُستَدَقُّ السَّاقِ العَارِي مِنَ اللَّحْمِ.

وَحَرَّمَ قَتْلَهُم، وَسَبْيَهُم غِيلَةً، وَأَبَاحَ ذَلِكَ بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ، وَنَصْبِ القِتَالِ.

وَقَالَ: مُرْتَكِبُ الكَبِيرَةِ مُوَحِّدٌ لَا مُؤمِنٌ، وَكَافِرُ نِعْمَةٍ لَا كُفْرًا يُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ، وَأَنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَأَفْعَالُ العِبَادِ مَخْلُوقَةٌ للهِ مُكْتَسَبَةٌ لِلْعِبَادِ.

وَهُمْ فِرَقٌ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا: الحَفْصِيَّةُ: أَصْحَابُ حَفْصِ بنِ أَبِي المِقْدَامِ، تَمَيَّزَ عَنِ الإِبَاضِيَّةِ بِجَعْلِهِ الفَرْقَ بَينَ الشِّرْكِ وَالإِيمَانِ: مَعْرِفَةَ اللهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَرَفَهُ فَهُوَ مُؤمِنٌ، وَإِنْ كَفَرَ بِالرُّسُلِ، وَمَا جَاءُوا بِهِ، وَمَنِ ارتَكَبَ كَبِيرَةً، فَهُوَ كَافِرٌ غَيرُ مُشْرِكٍ.

وَمِنْهَا الحَارِثِيَّةُ: أَصْحَابُ الحَارِثِ بنِ يَزِيدَ الإِبَاضِيِّ، خَالَفَ الإِبَاضِيَّةَ فِي القَدَرِ، فَقَالَ فِيهِ بِقَولِ المُعْتَزِلَةِ، وَلِذَا كَرِهُوهُ، وَقَالَ بِالاستِطَاعَةِ قَبْلَ الفِعْلِ لَا مَعَهُ، وَقَالَ بِإِثْبَاتُ طَاعَةٍ لَا يُرَادُ بِهَا وَجْهُ اللهِ، كَمَا قَالَ أَبُو الهُذَيلِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ.

❊ ❊ ❊



الشِّيعَةُ

الشِّيَاعُ: القُوَّةُ وَالانْتِشَارُ، يُقَالُ: شَاعَ الخَبَرُ إِذَا انتَشَرَ، وَكَثُرَ التَّكَلُّمُ بِهِ(١).

وَشِيعَةُ الرَّجُلِ: خَوَاصُّهُ، وَجَمَاعَتُهُ الَّذِينَ يَنْتَشِرونَ، وَيَتَقَوَّىٰ بِهِم؛ لِنَسَبٍ يَجْمَعُهُم، أَوْ لاتِّبَاعِهِم إِيَّاهُ فِي مَذْهَبِهِ، وَسَيْرِهِم عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ وَسَنَنِهِ، وَتُجْمَعُ الشِّيعَةُ عَلَىٰ: شِيَعٍ، وَتُجْمَعُ شِيَعٌ عَلَىٰ: أَشْيَاعٍ.

وَالمُرَادُ بِالشِّيعَةِ هُنَا: كُلُّ مَنْ شَايَعَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ خَاصَّةً، وَقَالَ بِالنَّصِّ عَلَىٰ إِمَامَتِهِ، وَقَصْرِ الإِمَامَةِ عَلَىٰ آلِ البيتِ، وَقَالَ بِعِصْمَةِ الأَئِمَّةِ مِنَ الكَبَائِرِ، وَالصَّغَائِرِ، وَالخَطَأ.

وَقَالَ: لَا وَلَاءَ لِعَلِيٍّ إِلَّا بِالبَرَاءِ مِنْ غَيرِهِ مِنَ الخُلَفَاءِ الَّذِينَ فِي عَصْرِهِ قَوْلًا، وَفِعْلًا، وَعَقِيدَةً، إِلَّا فِي حَالِ التَّقِيَّةِ، وَقَدْ يُثْبِتُ بَعْضُ الزَّيدِيَّةِ الوَلَاءَ دُونَ البَرَاءِ.

فَهَذِهِ أُصُولُ الشِّيعَةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا جَمِيعُ فِرَقِهِمْ، وَإِنِ اختَلَفَتْ كُلُّ

---

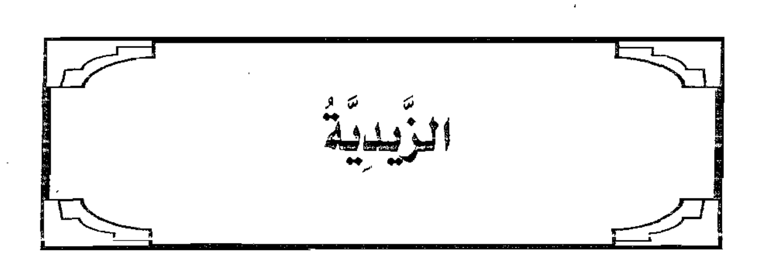
(١) شَاعَ الشَّيءُ شُيُوعًا وَشَيَعَانًا وَمَشَاعًا: ظَهَرَ وَانتَشَرَ.
وَشَايَعَهُ مُشَايَعَةً وَشِيَاعًا: تَبِعَهُ وَصَحِبَهُ.

فِرْقَةٍ عَنِ الأُخْرَىٰ فِي بَعْضِ المَسَائِلِ، فَمَنْ قَالَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ بِهَذِهِ الأُصُولِ، فَهُوَ شِيعِيٌّ، وَإِنْ خَالَفَهُمْ فِيمَا سِوَاهَا، وَمَنْ قَالَ بِشَيءٍ مِنْهَا فَفِيهِ مِنَ التَّشَيُّعِ بِحَسَبِهِ.

وَرُءُوسُ فِرَقِ الشِّيعَةِ خَمْسَةٌ:

الزَّيْدِيَّةُ، وَالإِمَامِيَّةُ، وَالكَيسَانِيَّةُ، وَالغُلَاةُ، وَالإِسْمَاعِيلِيَّةُ، وَمِنَ العُلَمَاءِ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الإِسْمَاعِيلِيَّةَ فِرْقَةً رَئِيسَةً.





الزَّيدِيَّةُ

الزَّيدِيَّةُ: هُمْ أَتْبَاعُ زَيدِ بن عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنْ مَقَالَتِهِ: إِنَّ الإِمَامَةَ تَنْعَقِدُ لِلمَفْضُولِ مَعَ وجُودِ الفَاضِلِ لِلمَصْلَحَةِ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا، رَأَىٰ انْعِقَادَ الخِلَافَةِ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؛ مَعَ أَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا عَقِيدَةً، وَكَانَ لَا يَتَبَرَّأُ مِنْهُمَا، وَلَمَّا بَلَغَ شِيعَةَ الكُوفَةِ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يَتَبَرَّأُ مِنْهُمَا، رَفَضُوهُ، فَسُمُّوا رَافِضَةً.

وَمِنْ مَذْهَبِهِ: سَوْقُ الإِمَامَةِ فِي أَوْلَادِ فَاطِمَةَ: الحَسَنِ، وَالحُسَينِ، وَأَوْلَادِهِمَا، وَجَوَازُ خُرُوجِ إِمَامَينِ فِي قُطْرَينِ؛ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنْ أَوْلَادِ فَاطِمَةَ، وَيَتَحَلَّىٰ بِالعِلْمِ، وَالزُّهْدِ، وَالكَرَمِ، وَالشَّجَاعَةِ.

وَقَدْ عَابَ عَلَيهِ أَخُوهُ مُحَمَّدٌ البَاقِرُ أَخْذَهُ العِلْمَ عَنْ وَاصِلِ بنِ عَطَاءٍ الغَزَّالِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَ يُجَوِّزُ عَلَىٰ جَدِّهِمَا عَلِيٍّ الخَطَأَ فِي قِتَالِ الخَارِجِينَ عَلَيهِ.

كَمَا عَابَ عَلَيهِ: رَأْيَهُ بِأَنَّ الخُرُوجَ شَرْطٌ فِي كَونِ الإِمَامِ إِمَامًا، وَكَانَ يَذْهَبُ فِي القَدَرِ إِلَىٰ مَذْهَبِ القَدَرِيَّةِ، وَبِذَلِكَ نَعْرِفُ السِّرَّ فِي أَنَّ أَتْبَاعَ زَيدٍ كُلَّهُم مُعْتَزِلَةٌ.

وَقَدْ خَرَجَ زَيدٌ عَلَىٰ هِشَامِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ أيَّامَ خِلَافَتِهِ، وَبُويعَ لَهُ بِالخِلَافَةِ، فَقُتِلَ، وَصُلِبَ بِكُنَاسَةِ[1] الكُوفَةِ عَامَ (١٢١هـ).

وَكَانَ ابنُهُ يَحيَىٰ إمَامًا بَعْدَهُ أيَّامَ الوَلِيدِ بنِ يَزِيدَ بنِ عَبدِ المَلِكِ، وَذَهَبَ إلَىٰ خُرَاسَانَ، فَبَعَثَ إلَيهِ أمِيرُهَا نَصْرُ بنُ سَيَّارٍ، سَلْمَ بنَ أحْوَزَ، فَقَتَلَهُ عَامَ (١٢٥هـ)، ثُمَّ انْحَرَفَتِ الزَّيدِيَّةُ بَعْدُ عَنِ القَولِ بِصِحَّةِ إمَامَةِ المَفْضُولِ، وَطَعَنُوا فِي الصَّحَابَةِ، كَالإمَامِيَّةِ.

وَمِمَّا أجْمَعَتْ عَلَيهِ الزَّيدِيَّةُ: تَخْلِيدُ مَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً مِنَ المُؤمِنِينَ فِي النَّارِ، وَتَصْوِيبُ عَلِيٍّ، وَتَخْطِئَةُ مُخَالِفِهِ، وَتَصْوِيبُهُ فِي التَّحْكِيمِ، وَإنَّمَا أخْطَأَ الحَكَمَانِ، وَيَرَونَ السَّيفَ وَالخُرُوجَ عَلَىٰ أئِمَّةِ الجَورِ، وَأنَّهُ لَا يُصَلَّىٰ خَلْفَ فَاسِقٍ.

وَقَدِ افْتَرَقَتِ الزَّيدِيَّةُ ثَلَاثَ فِرَقٍ: جَارُودِيَّةٌ، وَسُلَيمَانِيَّةٌ، وَبُتْرِيَّةٌ.

الجَارُودِيَّةُ: هُمْ أتْبَاعُ أبِي الجَارُودِ زِيَادِ بنِ المُنْذِرِ العَبْدِيِّ، مَاتَ عَامَ (١٥٠هـ) وَقَدْ سَمَّاهُ أبُو جَعْفَرٍ البَاقِرُ: سِرَّ حِزْبِ الشَّيطَانِ.

وَمِنْ مَقَالَتِهِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَصَّ عَلَىٰ إمَامَةِ عَلِيٍّ بِالوَصْفِ دُونَ الاسْمِ، وَإنَّ الصَّحَابَةَ كَفَرُوا بِتَرْكِهِم بَيعَةَ عَلِيٍّ، وَبِذَلِكَ خَالَفَ إمَامَهُ زَيدَ بنَ عَلِيٍّ، وَمِنْ أصْحَابِ أبِي الجَارُودِ فُضَيلٌ الرَّسَّانُ، وَأبُو خَالِدٍ الوَاسِطِيُّ.

---

(١) الكُنَاسَةُ: القُمَامَةُ.

السُّلَيْمَانِيَّةُ: هُمْ أَتْبَاعُ سُلَيمَانَ بنِ جَرِيرٍ الزيدِيِّ، الَّذِي ظَهَرَ أَيَامَ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ.

وَمِنْ مَقَالَتِهِ: إِنَّ الإِمَامَةَ شُورَىٰ، وَإِنَّهَا تَنْعَقِدُ وَلَو بِرَجُلَينِ مِنْ خِيَارِ الأَمَّةِ، وَإِنَّهَا تَنْعَقِدُ لِلمَفْضُولِ مَعَ وجُودِ الفَاضِلِ، إِلَّا أَنَّهُم كَفَّروا عُثْمَانَ لِلأَحْدَاثِ الَّتِي نُسِبَتْ إِلَيهِ، وَكَفَّرُوا عَائِشَةَ، وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيرَ لإِقْدَامِهِم عَلَىٰ قِتَالِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَطَعَنُوا فِي الرَّافِضَةِ مِنْ أَجْلِ قَوْلِهِم بِالبَدَاءِ وَبِالتَّقِيَّةِ.

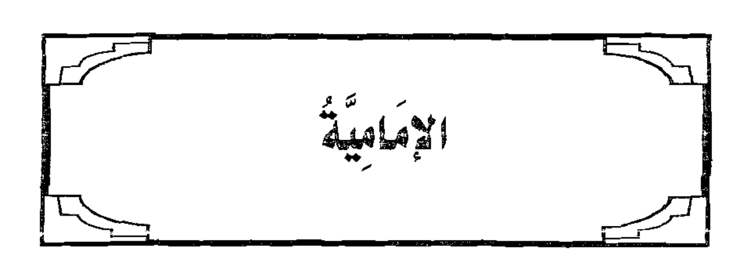
البُتْرِيَّةُ وَالصَّالِحِيَّةُ:

أَمَّا البُتْرِيَّةُ، فَأَتْبَاعُ كُثَيِّرٍ النَّواءِ المُلَقَّبِ بِالأَبْتَرِ، مَاتَ سَنَةَ (١٦٩هـ) تَقْرِيبًا.

وَأَمَّا الصَّالِحِيَّةُ، فَأَصْحَابُ الحَسَنِ بنِ صَالِحِ بنِ حَيٍّ الكُوفِيِّ الهَمَدَانِيِّ مَاتَ عَامَ (١٦٧هـ).

وَمَذْهَبُهُمَا فِي الإِمَامَةِ؛ مِثْلُ مَذْهَبِ السُّلَيمَانِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُم يَتَوَقَّفُونَ فِي كُفْرِ عُثْمَانَ؛ لِتَعَارُضِ نُصُوصِ فَضَائِلِهِ، وَالأَحْدَاثِ الَّتِي نُسِبَتْ إِلَيهِ، وَيَتَوَقَّفُونَ كَذَلِكَ فِي إِكْفَارِ قَتَلَتِهِ.

ذُكِرَ فِي مَقَالَاتِ الإِسْلَامِيينَ: أَنَّ الزَّيدِيَّةَ سِتُّ فِرَقٍ: الثَّلَاثُ السَّابِقَةُ، وَالنُّعَيْمِيَّةُ؛ أَتْبَاعُ نُعَيْمِ بنِ اليَمَانِ، وَاليَمَانِيَّةُ؛ وَهُمْ أَتْبَاعُ مُحَمَّدِ بنِ اليَمَانِ، وَاليَعْقُوبِيَّةُ؛ وَهُمْ أَتْبَاعُ يَعْقُوبَ بنِ عَلِيٍّ الكُوفِيِّ.



الإمَامِيَّةُ

الإمَامِيَّةُ: قَالُوا بِالنَّصِّ الصَّرِيحِ عَلَىٰ إمَامَةِ عَلِيٍّ فِي مَوَاضِعَ، وَبِالإشَارَةِ إلَيهِ بِعَينِهِ فِي مَوَاضِعَ أخْرَىٰ، وَقَالُوا: إنَّ الإمَامَةَ رُكْنُ الدِّينِ لَيسَ فِي الإسْلَامِ شَيءٌ أهَمَّ مِنْهُ، فَلَا يَجُوزُ أنْ يَتْرُكَهُ الرَّسُولُ ﷺ لاخْتِيَارِ الأمَّةِ.

بَلْ يَجِبُ أنْ يُعَيِّنَ لَهُ شَخْصًا، وَقَدْ عَيَّنَ لَهُ عَلِيَّ بنَ أبِي طَالِبٍ بِالنَّصِّ عَلَيهِ، وَالإشَارَةِ إلَيهِ.

وَقَالُوا: بِتَكْفِيرِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ، وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ إمَامَةِ الحُسَينِ فَعَلِيٍّ زَينِ العَابِدِينَ، فَمُحَمَّدٍ البَاقِرِ، ثُمَّ افْتَرَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِرَقًا كَثِيرَةً فِي الوقُوفِ بِالإمَامَةِ عِنْدَ البَاقِرِ، وَسَوْقِهَا إلَىٰ ابنِهِ جَعْفَرٍ، ثُمَّ فِيمَنْ كَانَ إمَامًا مِنْ أوْلَادِ جَعْفَرٍ السِّتَّةِ: مُحَمَّدٍ، وَإسْحَاقَ، وَعَبدِ اللهِ، وَمُوسَىٰ، وَإسْمَاعِيلَ، وَعَلِيٍّ.

وَإلَيكَ بَعْضَهَا:

البَاقِرِيَّةُ: هُمْ أصْحَابُ أبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدٍ البَاقِرِ.

وَهُمْ يُثْبِتُونَ إمَامَتَهُ بِالنَّصِّ مِنْ أبِيهِ زَينِ العَابِدِينَ عَلَيهِ، وَيَزْعُمُونَ أنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَأنَّهُ المَهْدِيُّ المُنْتَظَرُ.

الجَعْفَرِيَّةُ أَوْ النَّاووسِيَّةُ: نِسْبَةً إِلَىٰ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: نَاووسٌ أَوْ عَجْلَانُ بنُ نَاووسٍ، مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ، أَوْ قَرْيَةٍ تُسَمَّىٰ نَاووسًا.

وَمِنْ مَذْهَبِهِم: سَوْقُ الإِمَامَةِ إِلَىٰ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ بِنَصِّ أَبِيهِ البَاقِرِ عَلَيهِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَأَنَّهُ المَهْدِيُّ المُنْتَظَرُ.

الشُّمَيطِيَّةُ: هُمْ أَصْحَابُ يَحيَىٰ بنِ أَبِي شُمَيطٍ.

يَقُولُ بِمَوتِ جَعفَرٍ الصَّادِقِ، وَنَصِّه عَلَىٰ إِمَامَةِ ابنِهِ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُ المَهْدِيُّ المُنْتَظَرُ.

الأَفْطَحِيَّةُ أَوِ العَمَّارِيَّةُ: يُنْسَبُونَ إِلَىٰ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: عَمَّارٌ.

كَانَ يَقُولُ بِمَوتِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ، وَنَصِّهِ عَلَىٰ إِمَامَةِ ابنِهِ عَبدِ اللهِ الأَفْطَحِ.

المُوسَوِيَّةُ: يُنْسَبُونَ إِلَىٰ مُوسَىٰ الكَاظِمِ.

قَالُوا: إِنَّ الإِمَامَةَ انتَقَلَتْ مِنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ إِلَىٰ ابنِهِ مُوسَىٰ الكَاظِمِ بِنَصِّهِ عَلَيهِ، ثُمَّ إِنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ حَمَلَ مُوسَىٰ إِلَىٰ بَغْدَادَ، وَحَبَسَهُ لإِظْهَارِهِ الإِمَامَةَ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ دَسَّ لَهُ سُمًّا فَمَاتَ، وَدُفِنَ فِي بَغْدَادَ.

ثُمَّ مَن قَالَ بِمَوتِهِ سُمُّوا: بِالقَطْعِيَّةِ.

وَمَنْ قَالَ: لَا نَدْرِي أَمَاتَ أَمْ لَا؟! سُمُّوا: بِالمَمْطُورَةِ؛ لِقَولِ عَلِيِّ بنِ إِسْمَاعِيلَ فِيهِم: مَا أَنْتُمْ إِلَّا كِلَابٌ مَمْطُورَةٌ.

وَمَنْ قَالَ بِغَيبَتِهِ، وَلَمْ يَسُقِ الإِمَامَةَ فِيمَنْ بَعْدُ؛ سُمُّوا: بِالوَقْفِيَّةِ.

الاثْنَا عَشْرِيَّة: فِرْقَةٌ مِنَ المُوسَوِيَّةِ، قَالَتْ: بِمَوتِ مُوسَىٰ، وَسُمُّوا القَطْعِيَّةَ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَهَؤُلَاءِ سَاقُوا الإِمَامَةَ فِي أَوْلَادِ مُوسَىٰ بِنَصِّ كُلٍّ مِنْهُم عَلَىٰ مَنْ بَعْدَهُ، فَزَعَمُوا أَنَّ الإِمَامَ بَعْدَ مُوسَىٰ: عَلِيٌّ الرِّضَا، ثُمَّ مُحَمَّدٌ التَّقِيُّ، ثُمَّ عَلِيُّ ابنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ الحَسَنُ العَسْكَرِيُّ، ثُمَّ ابنُهُ القَائِمُ المُنْتَظَرُ الَّذِي اختفَىٰ فِي سِرْدَابٍ فِي «سُرَّ مَنْ رَأَىٰ» وَهُوَ الإِمَامُ الثَّانِي عَشَرَ.

الإِسْمَاعِيلِيَّةُ الوَاقِفَةُ: قَالُوا: بِمَوتِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ، وَنَصِّهِ عَلَىٰ إِمَامَةِ ابنِهِ إِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ انتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَىٰ ابنِهِ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيلَ لِمَوتِ إِسْمَاعِيلَ فِي حَيَاةِ جَعْفَرٍ، وَقَالُوا بِغَيبَةِ مُحَمَّدٍ، وَرَجْعَتِهِ.

الإِسْمَاعِيلِيَّةُ البَاطِنِيَّةُ: فِرْقَةٌ مِنَ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ، سَاقَتْ الإِمَامَةَ بَعْدَ مُحَمَّدِ ابنِ إِسْمَاعِيلَ بنِ جَعْفَرٍ فِي أَئِمَّةٍ مَسْتُورِينَ، ثُمَّ ظَاهِرِينَ، وَهُمُ البَاطِنِيَّةُ، وَهِيَ الفِرْقَةُ المَشْهُورَةُ فِي الفِرَقِ بِهَذَا الاسْمِ.

وَمِنْ مَقَالَتِهِم: إِنَّ الأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ إِمَامٍ حَيٍّ، إِمَّا ظَاهِرٍ مَكْشُوفٍ، وَإِمَّا بَاطِنٍ مَسْتُورٍ.

وَإِنَّ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً!

وَمَنْ مَاتَ وَلَيسَ فِي عُنُقِهِ بَيعَةٌ لِإِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً!

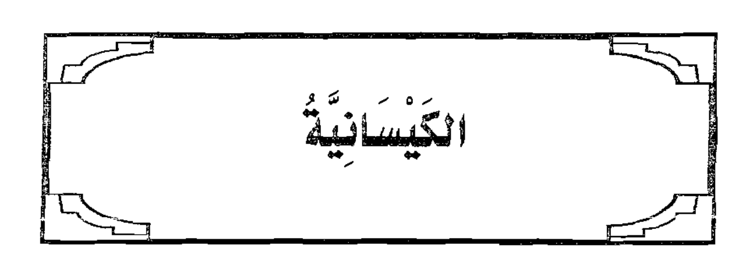
وَسُمُّوا «بَاطِنِيَّةً» لِحُكْمِهِم بِأَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا، وَلِكُلِّ تَنْزِيلٍ تَأْوِيلًا.

وَلَهُم أَلْقَابٌ أُخْرَىٰ، مِنْهَا: أَنَّهُم يُسَمَّونَ بِالعِرَاقِ أَيضًا: القَرَامِطَةَ أَوِ المَزْدَكِيَّةَ، وَبِخُرَاسَانَ: التَّعْلِيمِيَّةَ، وَالمَلَاحِدَةَ.

وَهُمْ يُسَمُّونَ أنْفُسَهُم: الإسْمَاعِيلِيَّةَ؛ لامْتِيَازِهِمْ عَنِ المُوسَوِيَّةِ الاثنا عَشْرِيَّةَ بالقَولِ بِإمَامَةِ إسْمَاعِيلَ بنِ جَعْفَرٍ دُونَ أخِيهِ مُوسَىٰ الكَاظِمِ.

وَمِنْ مَقَالَتِهِم أيضًا: أنَّهُم لَا يَقُولُونَ بِإثْبَاتِ الصِّفَاتِ للهِ وَلَا نَفيهَا، فِرَارًا مِنَ التَّشْبِيهِ بِالمَوجُودَاتِ وَالمَعْدُومَاتِ، وَلَهُم سِوَىٰ ذَلِك كَثِيرٌ مِنَ الشَّنَاعَاتِ الكُفْرِيَّةِ.

❊ ❊ ❊



الكَيْسَانِيَّةُ

الكَيْسَانِيَّةُ: هُمْ أَصْحَابُ كَيْسَانَ مَولَىٰ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ تَتَلْمَذَ عَلَىٰ يَدِ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ، وَقَد زَعَمَ أَتْبَاعُهُ أَنَّهُ جَمَعَ العُلُومَ كُلَّهَا، وَجَمَعَ أَسْرَارَ عُلُومِ عَلِيٍّ وَابنِهِ مُحَمَّدٍ، وَيَجْمَعُهُمُ القَولُ بِأَنَّ الدِّينَ طَاعَةُ رَجُلٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ضَلَّ مِنْهُم كَثِيرٌ، وَجَاءُوا بِالكُفْرِ؛ كَإِنْكَارِ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ، وَالشَّكِّ فِي البَعْثِ، وَالقَولِ بِالتَّنَاسُخِ، وَالحُلُولِ، وَالرَّجْعَةِ بَعْدَ المَوْتِ.

وَمِنْ فِرَقِ الكَيسَانِيَّةِ:

المُخْتَارِيَّةُ: وَهُمْ أَصْحَابُ المُخْتَارِ بنِ أَبِي عُبَيدٍ الثَّقَفِيِّ؛ كَانَ خَارِجِيًّا، ثُمَّ زُبَيرِيًّا، ثُمَّ شِيعِيًّا كَيسَانِيًّا.

وَمِن مَقَالَتِهِ: القَولُ بِإِمَامَةِ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ بَعْدَ عَلِيٍّ، أَوْ بَعْدَ الحَسَنِ وَالحُسَينِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ خَيْبَتُهُ لِمُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ، فَأَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِنْهُ، وَالَّذِي سَاعَدَ عَلَىٰ ظُهُورِ أَمْرِهِ: انتِسَابُهُ إِلَىٰ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ، وَقِيَامُهُ بِثَأْرِ الحُسَينِ، وَاشْتِغَالُهُ بِقَتْلِ الظَّلَمَةِ.

وَمِنْ مَذْهَبِهِ: جَوَازُ البَدَاءِ عَلَىٰ اللهِ عِلْمًا، وَإِرَادَةً، وَأَمْرًا؛ لِيُبَرِّرَ بِذَلِكَ

رُجُوعَهُ فِيمَا أَبْرَمَهُ، مَعَ دَعْوَاهُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيهِ.

وَمِنْ المُخْتَارِيَّةِ مَنْ قَالَ بِأَنَّ مُحَمَّدَ بنَ الحَنَفِيَّةِ لَمْ يَزَلْ، وَأَنَّهُ المَهْدِيُّ، وَمِنْ هَؤلَاءِ: كُثَيِّرُ عَزَّةَ، وَإِسْمَاعِيلُ بنُ مُحَمَّدٍ الحِمْيَرِيُّ -الشَّاعِرَانِ-.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِمَوتِهِ وَانتِقَالِ الإِمَامَةِ إِلَىٰ غَيرِهِ.

الهَاشِمِيَّةُ: قَالُوا بِسَوقِ الإِمَامَةِ مِنْ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ إِلَىٰ ابنِهِ أَبِي هَاشِمٍ عَبدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيةِ، وَأَنَّ وَالِدَهُ أَفْضَىٰ إِلَيهِ بِالأَسْرَارِ الَّتِي أَفْضَىٰ بِهَا عَلِيٌّ إِلَىٰ وَلَدِهِ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيةِ.

البَيَانِيَّةُ: هُمْ أَتْبَاعُ بَيَانِ بنِ سَمْعَانَ التَّمِيمِيِّ النَّهْدِيِّ، قَالُوا بِسَوقِ الإِمَامَةِ مِنْ أَبِي هَاشِمٍ إِلَىٰ بَيَانٍ.

وَمِنْ مَقَالَتِهِم: أَنَّ عَلِيًّا حَلَّ فِيهِ جُزْءٌ مِنَ اللهِ، وَاتَّحَدَ بِجَسَدِهِ، فَكَانَ بِهِ إِلَهًا، وَعَلِمَ بِهِ الغَيبَ، وَانْتَصَرَ بِهِ فِي الحُروبِ ... إلخ!! ثُمَّ ادَّعَىٰ بَيَانٌ النُّبُوَّةَ.

الرِّزَامِيَّةُ: هُمْ أَصْحَابُ رِزَامٍ، مِنْ غُلَاةِ الشِّيعَةِ، قَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيِّ بنِ عَبدِ اللهِ ابنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ أَبِي هَاشِمٍ بِوَصِيَّةٍ مِنْهُ، ثُمَّ انتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَىٰ ابنِهِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ إِلَىٰ ابنِهِ إِبْرَاهِيمَ بنِ مُحَمَّدٍ صَاحِبِ أَبِي مُسْلِمٍ الخُرَاسَانِيِّ حَتَّىٰ انتَهَتْ إِلَىٰ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ.

وَمِنْ مَذْهَبِهِم: إِسْقَاطُ التَّكَالِيفِ، وَالحُلُولُ، وَتَنَاسُخُ الأَرْوَاحِ.

الغُلَاةُ: هُمُ الَّذِينَ غَلَوا فِي أَئِمَّتِهِم حَتَّىٰ أَلَّهُوهُم، وَيَجْمَعُهُمُ القَولُ

بِتَشْبِيهِ الأَئِمَّةِ بِاللهِ كَالنَّصَارَىٰ فِي عِيسَىٰ وَغَيرِهِ، أَوْ تَشْبِيهِ اللهِ بِالأَئِمَّةِ: كَاليَهُودِ، وَالقَوْلُ بِالبَدَاءِ، وَالرَّجْعَةِ، وَالحُلُولِ، وَتَنَاسُخِ الأَرْوَاحِ، وَالإِلَهِيَّةِ.

وَمَنْ بَحَثَ وَأَنْصَفَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أُصُولَ الغُلَاةِ دَخَلَتْ عَلَيهِم مِنْ تَعَالِيمِ اليَهُودِ، وَالنَّصَارَىٰ، وَمَانِي، وَمَزْدَكٍ الَّتِي انتَشَرَتْ فِي العِرَاقِ.

وَلَهُمْ فِي كُلِّ بَلَدٍ لَقَبٌ، فَهُمْ يُلَقَّبُونَ فِي أَصْفَهَانَ: بِالخُرَّمِيَّةِ، وَالكُوذِيَّةِ. وَفِي الرَّيِّ: بِالمَزدكِيَّةِ، وَالسِّنْبَاذِيَّةِ. وَفِي أَذْرِبِيجَانَ: بِالدَّقُولِيَّةِ. وَفِي مَوضِعٍ بِالمُحمِّرَةِ. وَفِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ: بِالمبيِّضَةِ.

وَمِنْ فِرَقِهِمْ مَا يَأْتِي:

السَّبَائِيَّةُ: أَتْبَاعُ عَبْدِ اللهِ بنِ سَبَأٍ الحِمْيَرِيِّ اليَهُودِيِّ، أَظْهَرَ الإِسْلَامَ، وَأَثَارَ الفِتَنَ الدِّينِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ، فَوَضَعَ قَاعِدَةَ حُلُولِ اللهِ فِي عَلِيٍّ، وَمِنْهُ انْشَعَبَتْ فِرَقُ الغُلَاةِ الَّذِينَ قَالُوا بِتَنَاسُخِ الجُزْءِ الإِلَهِيِّ فِي الأَئِمَّةِ بَعْدَ عَلِيٍّ، وَمِنْهُم مَن قَالَ بِحَيَاةِ عَلِيٍّ، وَغَيبَتِهِ ورَجْعَتِهِ.

وَهُوَ الَّذِي أَثَارَ الفِتَنَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، وَأَلَّبَ عَلَيهِ فَرِيقًا مِنَ الأُمَّةِ، وَقَدْ نَفَاهُ عَلِيٌّ إِلَىٰ سَابَاطَ المَدَائِنِ؛ لِمَا عَلِمَهُ فِيهِ مِنَ الغُلُوِّ، وَإِحْدَاثِ الفِتَنِ، وَيظْهَرُ أَنَّ فِكْرَةَ حَيَاةِ الإِمَامِ، وَالغَيبَةِ، وَالرَّجْعَةِ، أَنشَأَهَا عَبدُ اللهِ بنُ سَبَأٍ حِينَمَا يَئِسَ الشِّيعَةُ مِنْ إِقَامَةِ دَوْلَةٍ لَهُم لِيَصْرِفَهُم بِهَا عَنِ البَيعَةِ لِخَلِيفَةٍ مَوجُودٍ إِلَىٰ إِمَامٍ مَفْقُودٍ.

الكَامِلِيَّةُ: أَتْبَاعُ أَبِي كَامِلٍ.

وَمَذْهَبُهُم: تَكْفِيرُ مَنْ لَمْ يُبَايِعْ عَلِيًّا، وَالطَّعْنُ فِي عَلِيٍّ لِعَدَمِ قِتَالِهِم وَالخُرُوجِ عَلَيهِم، وَمَعَ ذَلِكَ غَلَا أَبُو كَامِلٍ فِي عَلِيٍّ، وَرَأَىٰ أَنَّ الإِمَامَةَ نُورٌ يَنْتَقِلُ مِنْ شَخْصٍ لآخَرَ، وَيَتَفَاوَتُ.

فَفِي شَخْصٍ يَقْوَىٰ حَتَّىٰ يَكُونَ نَبِيًّا، وَفِي آخَرَ يَكُونُ إِمَامًا، وَقَال كَغَيرِهِ مِنَ الغُلَاةِ بِفِكْرَةِ الحُلُولِ الكُلِّيِّ، وَالجُزْئِيِّ، وَتَنَاسُخِ الأَرْوَاحِ.

العَلْبَائِيَّةُ: أَتْبَاعُ العَلْبَاءِ بنِ ذَراعِ الدَّوْسَيِّ الأَسَدِيِّ، زَعَمَ أَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْ مُحَمَّدٍ! ثُمَّ مِنْهُم مَنْ زَعَمَ أَنَّ عَلِيًّا هُوَ الَّذِي سَمَّىٰ مُحَمَّدًا إِلَهًا! وَبَعَثَهُ لِيَدْعُوَ إِلَيهِ، فَدَعَا إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَذَمُّوهُ لِذَلِكَ، فَسُمُّوا بِالذَّمِّيَّةِ.

وَمِنْهُم: مَنْ أَلَّهَ عَلِيًّا وَمحَمَّدًا، أَوْ فَضَّلَ عَلِيًّا، وَسُمُّوا بِالعَينِيَّةِ.

وَمِنْهُم: مَنْ أَلَّهَهُمَا، وَقَدَّمَ مُحَمَّدًا وَسُمُّوا بِالمِيمِيَّةِ.

وَمِنْهُم: مَنْ أَلَّهَ أَصْحَابَ الكِسَاءِ: مُحَمَّدًا، وَعَلِيًّا، وَفَاطِمَةَ، وَحَسَنًا، وَحُسَينًا، وَقَالُوا: هُمْ شَيءٌ وَاحِدٌ حَلَّتْ فِيهِمُ الرُّوحُ بِالسَّوِيَّةِ.

المُغِيرِيَّةُ: أَتْبَاعُ المُغِيرَةِ بنِ سَعِيدٍ العِجلِيِّ مَولَىٰ خَالِدِ بنِ عَبدِ اللهِ القَسْرِيِّ، زَعَمَ أَنَّ الإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ البَاقِرِ؛ هُوَ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ الحَسَنِ الَّذِي خَرَجَ فِي المَدِينَةِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ، ثُمَّ زَعَمَ الإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ.

وَفِي زَعْمِهِ أَنَّ اللهَ صُورَةٌ، وَجِسْمٌ ذُو أَعْضَاءٍ عَلَىٰ حُروفِ الهِجَاءِ، وَصُورَتُهُ

صُورَةُ رَجُلٍ مِنْ نُورٍ عَلَىٰ رَأسِهِ تَاجٌ مِنَ النُّورِ، وَلَهُ قَلْبٌ تَنْبُعُ مِنْهُ الحِكْمَةُ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّنَاعَاتِ.

المَنْصُورِيَّةُ: أَتْبَاعُ أَبِي مَنْصُورٍ العِجْليِّ، زَعَمَ أَنَّهُ إِمَامٌ حِينَ تَبَرَّأَ مِنْهُ البَاقِرُ وَطَرَدَهُ، ثُمَّ زَعَمَ بَعْدَ وَفَاةِ البَاقِرِ أَنَّ رُوحَهُ انتَقَلَتْ إِلَيهِ.

وَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ المَزَاعِمِ، مِنْهَا: أَنَّهُ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الكِسْفَ السَّاقِطَ مِنَ السَّمَاءِ هُوَ اللهُ أَوْ عَلِيٌّ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تَنْقَطِعُ.

وَمِنْهَا: تَسْمِيَةُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنْوَاعِ التَّشْرِيعِ بِأَسْمَاءِ رِجَالٍ لِإِسْقَاطِ التَّكَالِيفِ، وَاسْتِحْلَالِ الدِّمَاءِ وَالأَمْوَالِ، وَقَدْ أَخَذَهُ يُوسُفُ بنُ عُمَرَ الثَّقَفِيُّ وَالِي العِرَاقِ أَيَّامَ هِشَامِ بنِ عَبدِ المَلِكِ، وَصَلَبَهُ لِخُبْثِ دَعْوَتِهِ، وَهُمْ صِنْفٌ مِنَ الخُرَّمِيَّةِ.

الخَطَّابِيَّةُ: أَتْبَاعُ أَبِي الخَطَّابِ مُحَمَّدِ بنِ أَبِي زَينَبَ الأَسَدِيِّ، انتَسَبَ أَبُو الخَطَّابِ إِلَىٰ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ أَوَّلًا، فَلَمَّا تَبَرَّأَ مِنْهُ جَعْفَرٌ وَطَرَدَهُ، زَعَمَ الإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ.

وَمِنْ مَزَاعِمِهِ: أَنَّ الأَئِمَّةَ أَنبِيَاءُ، ثُمَّ آلِهَةٌ! وَأَنَّ جَعْفَرًا إِلَهٌ ظَهَرَ فِي صُورَةِ جِسْمٍ، أَوْ لَبِسَ جِسْمًا فَرَآهُ النَّاسُ! وَلَمَّا وَقَفَ عِيسَىٰ بنُ مُوسَىٰ صَاحِبُ المَنْصُورِ عَلَىٰ خُبْثِ دَعْوَتِهِ قَتَلَهُ بِسَبَخَةِ الكُوفَةِ.

وَقَدِ افتَرَقَ أَصْحَابُ أَبِي الخَطَّابِ بَعْدَهُ إِلَىٰ فِرَقٍ:

مِنْهَا: المَعْمَرِيَّةُ: أَتْبَاعُ مَعْمَرِ بنِ خَيْثَم، زَعَمُوا أَنَّ الإِمَامَ بَعْدَ أَبِي الخَطَّابِ مَعْمَرٌ، وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرونَ فَنَاء الدُّنيَا، وَيَرونَ أَنَّ مَا يُصِيبُ العَالَمَ فِيهَا مِنْ خَيرٍ وَشَرٍّ؛ هُوَ الجَزَاءُ.

وَمِنْهَا: البَزِيغِيَّةُ: أَتْبَاعُ بَزِيغِ بنِ مُوسَىٰ، زَعَمُوا أَنَّهُ الإِمَامُ بَعْدَ أَبِي الخَطَّابِ، وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرونَ المَوتَ لِمَنْ بَلَغَ مِنَ النَّاسِ النِّهَايَةَ فِي الكَمَالِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ مَاتَ فَارَقَ فَقَطْ، وَرُفِعَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ المُؤمِنَ يُوحَىٰ إِلَيهِ.

وَمِنْهَا: العِجْلِيَّةُ: زَعَمُوا أَنَّ الإِمَامَ بَعْدَ أَبِي الخَطَّابِ عُمَيرٌ، أَوْ عَمْرُو بنُ بَيَانٍ العِجْلِيُّ.

وَمِنْهَا: أَتْبَاعُ مُفَضَّلٍ الصَّيرَفِيِّ: الَّذِي قَالَ بِرُبُوبِيَّةِ جَعْفَرٍ دُونَ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

وَقَدْ تَبَرَّأَ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ بنُ مُحَمَّدٍ البَاقِرِ مِنْ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ، فَإِنَّهُم كُلَّهُم حَيَارَىٰ ضَالُّونَ، جَاهِلُونَ بِحَالِ الأَئِمَّةِ.

الكَيَّالِيَّةُ: أَتْبَاعُ أَحْمَدَ بنِ الكَيَّالِ، كَانَ لَهُ مَزَاعِمُ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ العَقْلِ، وَلَا مُستَنَدَ لَهَا مِنَ السَّمْعِ، فَتَرَكَهُ مَنِ انْخَدَعَ بِهِ، ادَّعَىٰ أَنَّهُ إِمَامٌ، ثُمَّ ادَّعَىٰ أَنَّهُ القَائِمُ، وَلَهُ تَأْوِيلَاتٌ لِنُصُوصِ الدِّينِ.

مِنْهَا: حَمْلُهُ المِيزَانَ عَلَىٰ العَالَمِينَ، وَالصِّرَاطَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَالجَنَّةَ عَلَىٰ

الوصُولِ إلَىٰ عِلْمِهِ مِنَ البَصَائِرِ، وَالنَّارَ عَلَىٰ الوصُولِ إلَىٰ مَا يُضَادُّهُ.

الهِشَامِيَّةُ: أَتْبَاعُ هِشَامِ بنِ الحَكَمِ، وَهِشَامِ بنِ سَالِمٍ الجَوَالِيقِيِّ، وَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ التَّشْبِيهِ.

فَأَمَّا هِشَامُ بنُ الحَكَمِ، فَقَالَ فِيمَا نُقِلَ عَنْهُ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جِسْمٌ ذُو أَبْعَاضٍ لَهُ قَدْرٌ مِنَ الأَقْدَارِ، وَلَكِنْ لَا يُشْبِهُ شَيئًا مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيءٌ مِنْهَا.

وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إنَّهُ سَبْعَةُ أَشْبَارٍ بِشِبْرِ نَفْسِهِ، إلَىٰ آخِرِ شَنَاعَاتِهِ.

وَغَلَا فِي عَلِيٍّ حَتَّىٰ جَعَلَهُ إلَهًا وَاجِبَ الطَّاعَةِ.

وَأَمَّا هِشَامٌ الجَوَالِيقِيُّ، فَقَالَ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ صُورَةِ إنسَانٍ أَعْلَاهُ مُجَوَّفٌ، وَأَسْفَلُهُ مُصْمَتٌ، إلَىٰ آخِرِ شَنَاعَاتِهِ، وَأَجَازَ المَعْصِيَةَ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ دُونَ الأَئِمَّةِ لِعِصْمَتِهِم.

النُّعْمَانِيَّةُ: هُمْ أَتْبَاعُ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ النُّعْمَانِ أَبِي جَعْفَرٍ الأَحْوَلِ المُلَقَّبِ بِـ: «شَيطَانِ الطَّاقِ»، وَمَذْهَبُهُ فِي حُدُوثِ عِلْمِ اللهِ: كَمَذْهَبِ هِشَامِ بنِ الحَكَمِ، وَكَذَلِكَ مَذْهَبُهُ فِي ذَاتِ اللهِ، إلَّا أَنَّهُ يَقُولُ: إنَّهَا نُورٌ عَلَىٰ صُورَةِ إنسَانٍ.

اليُونُسِيَّةُ: هُمْ أَتْبَاعُ يُونُسَ بنِ عَبدِ الرَّحْمَنِ القُمِّيِّ مَوْلَىٰ آلِ يَقْطِينَ، وَهُوَ مِنَ المُشَبِّهَةِ؛ يَزْعُمُ أَنَّ المَلَائِكَةَ تَحْمِلُ العَرْشَ، وَأَنَّ العَرْشَ يَحْمِلُ اللهَ، وَأَنَّ أَطِيطَ المَلَائِكَةِ مِنْ وَطْأَةِ عَظَمَةِ اللهِ عَلَىٰ العَرْشِ.

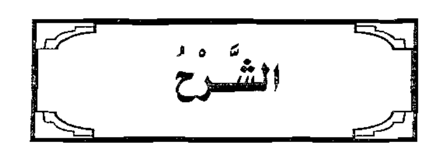
النُّصَيرِيَّةُ وَالإِسْحَاقِيَّةُ:

النُّصَيرِيَّةُ: أَتبَاعُ مُحَمَّدِ بنِ نُصَيرٍ النُّمَيرِيِّ.

وَالإِسْحَاقِيَّةُ: يُنْسَبُونَ إِلَىٰ إِسْحَاقَ بنِ الحَارِثِ، وَكِلَاهُمَا مِنْ غُلَاةِ الشِّيعَةِ؛ يَرَونَ ظُهُورَ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي صُوَرٍ جِسْمِيَّةٍ خَيِّرَةٍ أَوْ خَبِيثَةٍ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ اللهَ يَظْهَرُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَأَنَّ جُزْءًا مِنْهُ حَلَّ فِي عَلِيٍّ، بِهِ يَعْلَمُ الغَيبَ، وَيَفْعَلُ مَا لَا طَاقَةَ لأَحَدٍ بِهِ مِنَ البَشَرِ، إِلَّا أَنَّ النُّصَيرِيَّةَ أَمْيَلُ إِلَىٰ مُشَارَكَةِ عَلِيٍّ للهِ فِي الأُلُوهِيَّةِ.

وَالإِسْحَاقِيَّةُ أَميلُ إِلَىٰ مُشَارَكَةِ عَلِيٍّ لِمُحَمَّدٍ فِي النُّبُوَّةِ، وَكِلَاهُمَا يَرَىٰ أَيضًا إِبَاحَةَ المَحَارِمِ، وَإِسْقَاطَ التَّكَالِيفِ.

وَمِنَ الرَّافِضَةِ أَيضًا جَمَاعَةٌ يَقُولُونَ: بِإِمَامَةِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ الحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا، وَيَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ، مَعَ أَنَّ جَيشَ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ قَدْ قَتَلَهُ بِالمَدِينَةِ، وَأَقَرَّ بِذَلِكَ فِرقَةٌ مِنْ أَتْبَاعِ إِمَامِهِم مُحَمَّدٍ.



الشَّرْحُ

أَهْلُ السُّنَّة يَنْبَغِي أَن يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبيِّه ﷺ، والأئمةُ العِظَامُ الكِبَارُ إِنَّمَا أَعْلَىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- ذِكْرَهُم؛ لأَنَّهُم تَكَلَّمُوا فِي السُّنَّة

وَحَذِّرُوا مِنَ البدعَةِ، دَعَوا إلىٰ السُّنَّة وحذِّروا مِنَ البدعَةِ؛ لأنَّ أَقْوامًا يَدْعُونَ إِلَىٰ السُّنَّة وَلَا يُحَذِّرُونَ مِنَ البِدْعَةِ وَالمُبْتَدِعِينَ وَضَلُّوا، فَلَيْسَ هَذَا مِن مِنْهَاجِ النُّبُوةِ؛ إنَّمَا لابُدَّ أَن تَدْعُوَ إِلَىٰ السُّنَّةِ وَأَن تحذِّرَ مِنَ البِدْعَةِ، وَأَن تُحَذِّرَ مِنَ المُبتَدِعِينَ، لَابُدَّ أَن تَدْعُوَ إِلَىٰ التَّوحِيدِ وَتُحَذِّرَ وَتُنَفِّرَ مِنَ الشِّرْكِ.

فَكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوحِيدِ- التَّوحِيد العَام- وَلَا يُحَذِّرُ مِنَ الشِّرْكِ وَلَا المُشْرِكِينَ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ المُشرِكِينَ -أَنْفُسَهُم- إِذَا سَمِعُوا كَلَامَهُ أَقَرُّوا بِهِ.

فَهَل هُنَاكَ مُشْرِكٌ يُقِرُّ بِأَنَّهُ مُشْرِكٌ وَيَدَّعِي أَنَّهُ مُوَحِّدٌ، إِذَا حَذَّرَ مِنَ الشِّرْكِ العَامِّ وَافَقَ وَوُفِقَ، وَإِذَا دُعِيَ إِلَىٰ التَّوحِيدِ العَامِّ وَافَقَ وَوُفِقَ، وَعِندَ التَّفْصِيلِ تَقَعُ الخُصُومَةُ.

الأئمَّةُ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِم- إِنَّمَا أَعْلَىٰ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- قَدْرَهُم بِتَقْوَاهُم للهِ وَبِعِلْمِهِم وَيَقِينِهِم وَثَبَاتِهِم وَجِهَادِهِم وَبِتَفرِيقِهِم بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ؛ يَدعُونَ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَيُحَذِّرُونَ مِنَ الشِّرْكِ، وَبِتَفْرِيقِهِم بَيْنَ السُّنَّةِ وَالبِدْعَةِ؛ يَدعُونَ إِلَىٰ السُّنَّةِ وَيُحَذِّرُونَ مِنَ البِدْعَةِ، لا يُمَيِّعُونَ ولا يَخلِطُونَ.

شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَانَ فِي عَصْرِهِ أَئِمَّةٌ أَعْلَامٌ، يَعْرِفُونَ الكَثِيرَ مِنَ العُلُومِ يَحْفظُونَهَا غَيبًا، وَيَأتُونَ بِهَا سَرْدًا، وَلَهُم مُصَنَّفَاتٌ، وَقَد تَفَنَّنُوا فِي التَّصنِيفِ وَلَكِن مَا بَلَغَ أَحَدٌ مِنْهُم مَبْلَغَهُ؛ لأَنَّهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دَعَا إِلَىٰ السُّنَّةِ وَحَذَّرَ مِنَ البِدْعَةِ، وَدَعَا إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَحَذَّرَ مِنَ الشِّرْكِ وَلَم يُدَاهِن.

الإمامُ أحمَدُ دَعَا إِلَىٰ السُّنَّةِ وَحَذَّرَ مِنَ البِدْعَةِ؛ فَأَعْلَىٰ اللهُ قَدْرَهُ وَجَعَلَهُ عَلَمًا ومَعْلَمًا، وَحَنَانًا يَفِيءُ إِلَيهِ أَهْلُ السُّنَّةِ، كَانَ قَبْلَ المِحْنَةِ إِمَامَ أَهْلِ بَغْدَادَ فَلَمَّا ثَبتَ عَلَىٰ الحَقِّ وَوَقَفَ فِي وَجْهِ البِدْعَةِ صَارَ إِمَامَ الدُّنيَا.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا وَأَنْتَ مِن طُلَّابِ العِلْمِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ؛ عَرَفْتَ التَّمييزَ بَيْنَ هَذِهِ الأمُور الَّتِي اشتَبَهَت فِي دُنْيَا تَمُوجُ بِالبِدَعِ مَوجًا، كَمَا قَالَ الإمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَشَتَّان مَا بَيْنَ مَا كَانَ وَمَا هُو كَائِنٌ وَمَا أَبعَدَ مَا بَينَنَا وَبينَهُ، فَإِذَا قَالَ هُو ذَلِكَ فَمَاذَا نَقُولُ نَحْنُ؟!!

فَلَا تَلتَفِتْ إِلَىٰ مَقَالَاتِ أَهْلِ البِدَعِ عِندَمَا يَشْغَبُون عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ بِأَنَّهُم إِنَّمَا يَنشُرُونَ مِن الأجْدَاثِ تِلْكَ الجِيَفَ وَينفُخُونَ فِيهَا مَن أَجْلِ أَنْ تَكُون شَيئًا وَلَيْسَت إِلَّا جِيَفًا -حَاشَىٰ-، وَإِنَّمَا أَهْلُ السُّنَّةِ يَدفَعُونَ فِي أَقْفِيَةِ وَوُجُوه أَهْلِ البِدْعَةِ وَيُبَيِّنون مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَهَذَا إِمَامٌ مِن أَئمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي هَذَا العَصْرِ الإمَامُ الشَّيخُ العَلَّامَةُ عبد الرَّزَّاق عَفِيفي رَحِمَهُ اللهُ مِن أَئِمَّةِ السَّلَفِ فِي هَذَا العَصْرِ وَمِنَ الدَّاعِينَ إِلَيهِ، الثَّابِتِينَ عَلَيهِ، المُنَافِحِينَ دُونَهُ يُقَرِّرُ ذَلِكَ.

وَكَانَ هَذَا المُصَنَّف عَلَىٰ صِغَرِهِ يُدَرِّسُ للطلَّابِ فِي كُلِيَّةِ اللغَةِ العَرَبيَّةِ فِي جَامِعَاتِ المَمْلَكَةِ.

❊ ❊ ❊

وَبَعْدُ:

فَذَلِكَ مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنْ شَرْحٍ، وَتَعْلِيقٍ، وَتَخْرِيجٍ، وبَحْثٍ، وَزِيَادَةٍ، عَلَىٰ مُذَكِّرَةِ التَّوْحِيدِ لِلعَلَّامَةِ الكَبِيرِ، وَالمُحَقِّقِ الجَلِيلِ، الشَّيخِ عَبدِ الرَّزَّاق عَفِيفِي رَحِمَهُ اللهُ، وَللهِ وَحْدَهُ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِهِ.

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ ومِنَّتِهِ، وَحَوْلِهِ تَعَالَىٰ وَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، فِي مَجَالِسَ طَالَ الفَصلُ بَينَ بَعْضِهَا، أَوَّلُهَا فِي لَيلَةِ الخَمِيسِ السَّادِسِ وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ جُمَادَىٰ الأولَىٰ لِسَنَةِ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعمئةٍ وَألفٍ مِنْ هِجْرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ؛ صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِ وَعَلَىٰ أَبَوَيهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَسَائِرِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ وَسَلَّم تَسلِيمًا كَثِيرًا.

المُوَافِقِ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَىٰ لِلحَادِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ مَايُو لِسَنَةِ تِسْعٍ وَأَلْفَينِ مِنْ مِيلَادِ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ عِيسَىٰ ابنِ مَرْيَم ﷺ.

وَآخِرُهَا فِي لَيلَةِ الاثنَينِ التَّاسِعِ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ لِسَنَةِ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعمئةٍ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

المُوَافِقِ لِلثَّامِنِ وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ سِبْتَمْبر لِسَنَةِ تِسْعٍ وَأَلْفَينِ مِنَ التَّارِيخِ النَّصْرَانِيِّ.

وَذَلِكَ بِحَولِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقُوَّتِهِ فِي المَسْجِدِ الشَّرْقِيِّ، بِسُبْكِ الأَحَدِ، مِنْ أَعْمَالِ مُدِيرِيَّةِ المُنُوفِيَّةِ بِمِصْرَ حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَحَفِظَهَا بِحِفْظِهِ الجَمِيلِ مِنَ

الفِتَنِ وَالكُفْرِ وَالبِدَعِ وَالضَّلَالِ، وَسَائِرَ بِلَادِ المُسْلِمِينَ.

وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَالحَمْدُ للهِ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَالحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيبًا مُبَارَكًا فِيهِ.

رَبَّنَا تَقبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، وَاغفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَفِضْ عَلَينَا مِن فَضلِكَ إِنَّكَ أَنْتَ البَرُّ الكَرِيمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

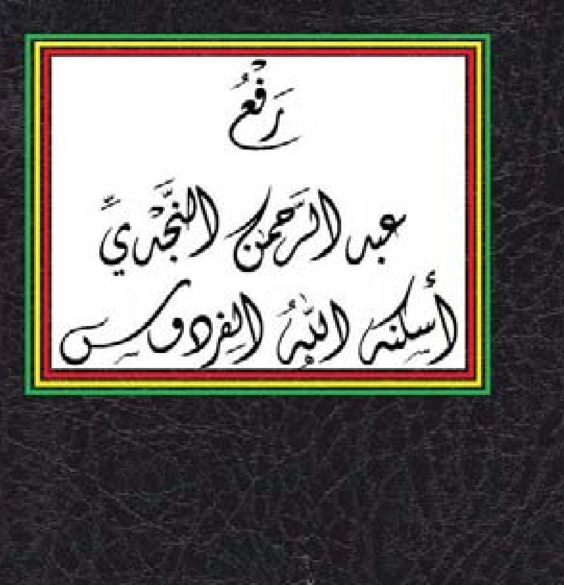
سُبك الأحد

الاثنين: ١٤ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ

٢ من نوفمبر ٢٠٠٩م

فهرس الموضوعات

* * *



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس